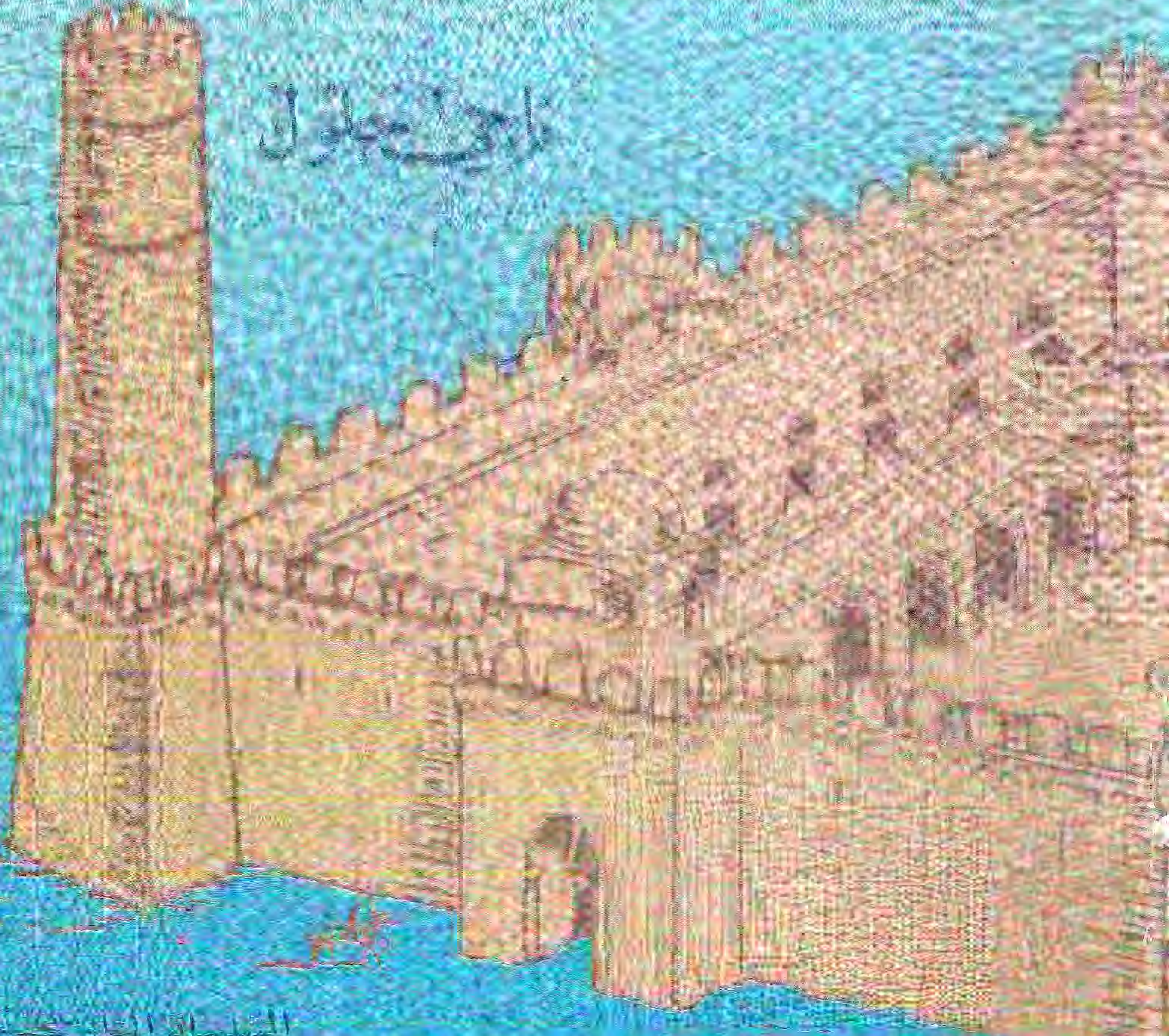
الطبعة الأولى
كتابة الدولة للبحث العلمي والتكنولوجيا
مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية

الرباطات البحرية

بإفريقية في العصر الوسيط

ناجي جلول



تونس ــ 1999

الوزارة الأولى
كتابة الدولة للبحث العلمي والتكنولوجيا
مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية

الرباطات البحرية
بإفريقية في العصر الوسيط

ناجي جلول

السلسلة التاريخية عدد 9
تونس 1999

الإهداء

إلى الأميرة عليسة

كلمة شكر

أتقدّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي وصديقي الهاشمي العبيد مدير مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعية الذي فتح لي أبواب هذه المؤسسة العريقة ومكّنني من انجاز هذا العمل في أحسن الظروف. كما أتقدّم بالشكر أيضا إلى كلّ من ساهم في اخراجه، وخاصة الأستاذ عبد العزيز الضيفي والآنسة لمياء اليهباوي.

تــوطــئــة

اعتبر محمد أركون -على حق- أنّ مسألة "التّراث الإسلامي لم تعالج أبدا في إطار التحليل والفهم الأنتربولوجي. أمّا النقد الاستشراقي [التقليدي] فلم يفعل إلاّ أن زاد من خطورة المنهجيّة الإيمانيّة الشكليّة للمسلمين". وأضاف أنّ "نسبة العقل في هذه المنتجات الثقافيّة كلّها تحتاج إلى إعادة تقييم على ضوء انتربولوجيّا المخيال وعلم اجتماع العامل الأسطوري والشعائري والتّاريخيّ، والعقلاني واللاّعقلاني، والعقل الكتابي والتّراث الشّفهي".[1]

وقد أدىّ هذا المنهج في كثير من الأحيان إلى تطابق، يبدو غريبا من الوهلة الأولى، ولكنّه منطقي، بين الاستشراق الكلاسيكي والإسلام التقليدي، في مجالات عديدة، مثل التفسير والحديث والتّاريخ[2]. على أن الوعي بهذه المخاطر دفع في الفترة الأخيرة بالعديد من المؤرخين والأثريين العرب إلى السقوط في فخّ المقالتيّة (l'essayisme)[3]، في حين أنّ هذه المراجعة تتطلّب المرور بمرحلة الأعمال المنوغرافيّة. ولهذا، فإنّ هذا الكتاب المخصّص لرباطات إفريقيّة يواصل العمل الذي افردناه للتحصينات السّاحلية التّونسية في العهد العثماني وهو وليد قناعة أصبحت راسخة لدينا، وهي ضرورة الاسراع بإنجاز منوغرافيات تهمّ مختلف مجالات الحضارة العربيّة الإسلاميّة، بداية بالتّاريخ المحلّي. أمّا المقاربات المقارنة والتأليفيّة، فربّما يجب تركها للجيل القادم، لكي لا نرتكب من جديد خطأ جيل النهضة الذي اكتفى بحشر أقدامها في قياس لا يناسبها، أو بإعادة تلميع حذائها البالي.

وقد أدّى التّطابق الذي ذكرناه آنفا بين أغلب إتجاهات الاستشراق الكلاسيكي والاسلام التقليدي إلى اعتبار "الرّباط" مؤسّسة "دينيّة -حربيّة"، والحصون (الرّباطات)

1) محمد أركون، *تاريخية الفكر العربي الاسلامي*، تعريب هاشم صلاح، بيروت 1986، ص 15، 21.
2) انظر: صادق جلال العظم، ذهنية *التحريم*، لندن 1992، ص. 17-، 21.
3) انظر (على سبيل المثال): الحبيب بيدة، "*محاولة في جمالية الفن العربي الاسلامي*"، مجلة *التنوير*، 1993، ص. 55-65

"أديرة محصّنة" إختصّ بها المسلمون - خاصّة في إفريقيّة - دون غيرهم[4]. وهي أراء متأثرة بإيديولوجيّة الجهاد التي ظهرت في مصنّفات الحديث والطّبقات والجغرافيا بعد تراجع الاعتزال، والتي كرّستها معاجم عصر الموسوعات مثل لسان العرب لابن منظور. كما أنّ إعتبار "إختصاص" المسلمين بهذه المنشآت ينطلق من مقولة "جبّ الإسلام لما قبله"، في حين أنّ كل القرائن تدلّ على أنّ الرّباط، رغم خصوصيّته، يندرج في إطار التّواصل الدّيني بين أفريكا القديمة وإفريقيّة المسلمة. وهو تواصل دعّمه التصوّف القادم من المشرق[5] في القرن الثّالث للهجرة، عصر الرّباطات، وكذلك عصر الأدب الزهدي[6]، في الإمارة الأغلبيّة.

وقد ارتبطت المرابطة في افريقية منذ البداية بالتصوّف، ويعود اغفال هذه العلاقة حسب رأينا إلى عدم فهم خصوصيّة الطريقة التي انتشر بها هذا التيار الدّيني في الغرب الاسلامي، نظرا لسيطرة الفقهوية juridisme المالكيّة. وهو ما أدّى إلى تأخير هذه الظاهرة إلى الفترة التي قبلت بها الاوساط السنية الرّسميّة (حوالي القرن 5 هـ/ 11م). ومن جرّاء هذا سوف تتطابق مراكز التّصوف الكلاسيكي في الغرب الاسلامي مع مواقع المرابطة، مثل المنستير، مرسيّة (موطن ابن عربي)، سالة، العبّاد (مدفن أبي مدين شعيب)، المريّة ورباط شلب، الذي ثار به سنة 1141 الصّوفي ابن قسّي، تلميذ ابن العريف، وفرض به طول عشر سنوات دولة المريدين[7]. وإلى جانب اقترانها الوثيق بالتصوّف وردّة فعل الأوساط الإسلاميّة التقليديّة ضدّ الاعتزال، كانت الرّباطات أيضا مراكز لنشر الاسلام السنّي ولتوطين الفاتحين الجدد، وأداة للتوسّع الزّراعي. كما ارتبطت بها العديد من الأنشطة الاقتصاديّة الأخرى، مثل الصيد البحري والتّجارة.

---

4) جورج مرسيه، مقال "رباط"، دائرة المعارف الإسلامية، ص. 1051 ، حـ. حسني عبد الوهاب، *ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية*، تونس 1980، ، ص. 27-28، محمد الهادي شعيرة، *الرباطات الساحلية الليبية، ليبيا في التاريخ*، طرابلس 1968، ص. 235-236،

M. Van Berchem,*Materiaux pour un corpus inscriptionum arabicum*, Paris 1894, P.153,488 ; O. Asin,"*Origin arabe de rebato, arrobada, y sua homanias*" ,In *Boletin de la Real academia espanola*, XIV, 1928, p. 340 et suiv. ; G. Marçais, "*Notes sur les ribats en Berberie*", in Melanges H. Basset, Paris 1957, II, p. 395-96 ; A. Lezine, *Le ribat de Sousse suivi de notes sur le ribat de Monastir*, Tunis 1957 ; S. M. Zbiss, "*Le ribat, institution militaro - religieuse des côtes africaines*", in *C.R.A.I*, 1954, p. 143-145.

5) حول ارتباط التصوف بالموروث القديم : محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي، بيروت 1989، ص. 186=219، L. Massignon, "*Inventaire de la litérature hermétique arabe*", in R. P. Festugière, *La révelation d'Hermes Trimegiste*, I, Paris 1944 - 1949.

6) حول طغاء الزهديات على الأدب الإفريقي في القرن الثالث للهجرة، راجع خاصة : مختار العبيدي ، *الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة*، تونس , 1994

7) أ. بل، *الفرق الإسلامية في الشمال ا لافريقي*، تعريب عبد الرحمان بدوي، بيروت 1981، ص380 .

وقد عرفت تطوّرات هامّة تجعلنا نعكف على حصرها ضمن بعض الحصون البحريّة[8]، وتحتم علينا عدم اعطاء تعريف متواطئ للفظ رباط، أو اعتباره مجرّد "دير محصّن"، إذ يجب دائما ربطه بزمان وظرفيّة معيّنة، نظرا لتطوّر وتعقّد إستعمالاته. وكما هو الشأن بالنسبة للمشرق، يجب اعادة النظر في تاريخ هذه المؤسّسة من خلال إرتباطها بالموروث القديم، خاصّة المسيحي والمانوي. ذلك أنّ افريقيّة، مهد القديس اغسطينوس، كانت أيضا موطن أبو ملال الدّيهوري، [9] الذي أعاد (في القرن الثاني للهجرة) تنظيم «الكنيسة» المانويّة (في اصطخر بالذّات) [10] التي لم تقض على وجودها حملات الإضطهاد الونداليّة والبيزنطيّة، [11] والتي لعبت مبادؤها دورا هامّا في تشكيل البيئة الفكريّة التي ترعرع فيها مرابطوا العصر الوسيط الأوّل.

---

8) C. Chebbi, art. "*Ribat*", E. I, VII, pp. 511-524 ; C.E. Bosworth, "*The city of Tarus and the arab-byzantine frontiers*", in *Oriens*, XXXIII Leyde 1992, pp. 284-286.

9) حول هذه الشخصية أنظر : ابن النّديم، *الفهرست*، ص . 467 ، محمد الطّالبي، *دراسات في تاريخ إفريقية*، تونس 1968.

10) انظر أيضا : F. Decret et M.H. Fantar, *L'Arique du Nord dans l'Antiquité*, Paris 1981, p. 309.

11) حول المانويّة بإفريقية في العصر القديم، راجع خاصة : F. Decret, *Aspects du manichéisme dans l'Afrique romaine*, Paris 1970, ID, *L'Afrique manichéenne*, Paris 1978.

الفصل الأول

الرباط والمرابطة خارج إفريقية

إن ما ذكرناه حول غياب المنوغوافيات الخاصّة بحضارة الإسلام يجعلنا نجهل تقريبا كلّ شيء حول الرّباطات في المشرق الاسلامي، وخاصة الجوانب المتعلقة بالعمارة[1] والاقتصاد[2]. ولهذا فإن هذه التوطئة التي أردناها أن تكون مدخلا لدراسة حصون إفريقية سوف تعتمد بصفة شبه كليّة على المصادر الجغرافية[3]، خاصة المقدسي[4]، ابن حوقل[5] وقدامة ابن جعفر[6]، وعلى المقال الذي خصّصته لتطوّر المؤسسة كاترين الشّابي في دائرة المعارف الإسلامية.

الرّباط إسم مشتق من فعل ثلاثي مجرّد: ويقال ربط الشيء وشدّه، ويشمل معنى الإحاطة به وكذلك الإقامة المستمرّة. وورد في القرآن والحديث - بصيغ أخرى - بمعنى ربط القلب وشدّه (ثلاث صيغ مجازية قرآنيّة)، وأيضا بمعنى المواظبة على الشيء. ويبدو أنّ إستعمالات الجذر ر.ب.ط. كانت في لغة القرن السّابع الميلادي مرتبطة بالحروب القبليّة، أي التجهيزات الخاصّة بالخيول المعدّة للغزو (الجياد أو المكان الذي يجتمع فيه الفرسان متأهّبين للقيام بحملة من الحملات). وهو المعنى الذي نجده في سورة الأنفال (60): "وأعدُّوا لهم مَا آستطعتُم مِنْ قوَّةٍ ومِنْ ربَاطِ الخَيْلِ تُرْهبونَ به عَدُوّ اللَّهِ وعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تعْلَمُونَهم واللّه يَعلَمُهُم". وهي معدّة "لِلذين كَفَروُا" أي الذين رفضوا إعتناق الاسلام والخضوع لسلطة المدينة. وفي أل عمران (200) "يا أيّها الذينَ آمَنُوا إصْبرُوا وَصَابِروا ورَابطوا وآتّقُوا اللّه لعَلّكُم تُفْلحونَ"[7] وفي هذه الآية لا نجد أيضا مفهوم "ملازمة الثغور" إذ أنّ هذه الوظيفة سوف لن تظهر إلاّ بعد الفتوحات الإسلاميّة التّي حوّلت الحرب مع بيزنطة والأتراك إلى

1) نظر: ابراهيم شبّوح، "*حول منارة قصر الرّباط بالمنستير وأصولها المعماريّة*". مجلة *إفريقيّة*، III-IV، تونس 1969 - 1970، ص. 5-، 15.

2) انظر مقال *Hima* "*بدائرة المعارف الاسلامية*، III، ص 1000.

3) حول طبيعة هذه المؤلفات أنظر: A. Miquel, *La géographie humaine du monde musulman*, Paris-Lahaye, 1967-1980.

4) المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ليدن 1906.

5) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ليدن 1967.

6) "*كتاب الخراج*"، ضمن *كتاب المسالك والممالك* لابن خرداذبة، ليدن 1889.

7) ويترجمها حميد اللّه الى الفرنسية بمعنى *Tenez ferme* ولا يضعها في إطار حربي: M. Hamidullah, *le Coran*, Maryland 1989, p. 184.

حرب مواقع. ويبدو أنّه منذ العهد الأموي، وخاصّة العبّاسي، بدأت الكلمة تعني - على الأقل في المشرق- مكانا محصّنا (قلعة، برج مراقبة، خندق، خان، مدينة محصّنة...). وكانت هذه المنشآت توجد خاصّة على الحدود والسواحل و الطرق الدّاخلية الغير الآمنة[8]. ولكن هذا التطوّر لم يكن شاملا، كما أنّ اعتمادنا في هذا المجال بصفة كليّة على مصادر متأخّرة تجعل تأريخ هذا التطوّر شاقا، إذ لم نقل مستحيلا. فالكلمة ترتبط بالتأكيد بوجود خطر، لكن لا تعني معلما محدّد المعالم، ولا "ديرا محصّنا". كما أنّها استعملت في العراق للدّلالة على منازل الصّوفية الحضريّة. ولكن بإستثناء هذه المنطقة الإصطلاح الشائع - وليس الوحيد - كان الخانقاه والزّواية والتكيّة، وهي مؤسسات ليست لها -إلا نادرا - علاقة بالحرب والحصون الحدودية التي تأوي (نظريّا) "المجاهدين في سبيل الله". ولكن هذا المفهوم الأخير مرتبط أيضا بالمخيال والايديولوجيا ولا يخضع للتَطوّر التّاريخي[9]. و يدلّ على ذلك التناقض الذي نلمسه بخصوص الحدود مع العالم التركي، فهذه المنطقة أصبحت في القرن 4هـ / 10 آمنة (نتيجة للغزوات الإسلاميّة النّاجحة واعتناق هذه الشعوب للإسلام)، ولكن مصادر هذا العصر واصلت اعتبارها "أرض رباط"[10].

ويري محمد الهادي شعيرة أنّ الرّباطات السّاحلية أحدثت منذ عهد عمر بن الخطّاب، "على مسافات مقدّرة بحيث يمكن الاتصال بين نقط الرّباط بالعين المجرّدة عن طريق النيران"[11] لكنّنا نشكّ كثيرا في وجود هذا النّظام المبكّر، فرواية البلاذري (ت. 279هـ/ 822م) - وهو مؤرخ لم يتأثر كثيرا بإديولوجية الجهاد - التي اعتمدها على ما يبدو تذكر فقط أن معاوية بن أبي سفيان، لمّا احتلّ ملطيّة، "رتّب فيها رابطة من المسلمين" مع عاملها. وهو مصطلح يعني كتيبة من الفرسان المنتمين إلى جند الخلافة[12]. كما أنّنا نملك مؤشرات عديدة عن تواصل "الرّباط" القبلي التّقليدي في عهد عمر بن الخطاب الذي كان يحتفظ بالخيول المتأتية من موارد الصدقة الموظّفة على القبائل، وكانت تجمع في مراعي خاصّة بها في حمى النقيع[13]. على أنه منذ منتصف

8) C.Chebbi, *op. cit*, p. 512.
9) C.E. Bosworth, *op.cit*, p.284- 286.
10) C.Chebbi, *op.cit*, p, 518.
11) محمد الهادي شعيرة، "*الرّباطات السّاحلية اللّيبية*"، *ليبيا في التاريخ*، 1968، ص. 235-236.
12) البلاذري، *فتوح البلدان*، نشر محمد رضوان بيروت 1978، ص. 189.
13) Art. "*Hima*", *E.I*, III, p 1000.

القرن الثاني للهجرة (8م) بدأت تظهر - في مصنّفات الحديث والتفسير والمغازي والفقه - قطيعة هامّة مع المفهوم التقليدي للرّباط. وستتطوّر في القرن الثالث (9م) مع ظهورالصّحاح الكلاسيكيّة وكتب المسالك، وهي أيضا قطيعة في الغرض لا في المعني، إذ أنّ الرّباط سيقترن بإيديولوجيّة الجهاد[14] التي تبلورت في بداية العصر العبّاسي[15].

وكان مفهوم الجهاد بدوره غامضا في البداية وأرتبط بتكفير الخوارج لغيرهم من المسلمين[16]، وليس بالحرب مع أتباع الدّيانات الأخرى[17]. وتمكّنا مقارنة أقدم نصّ لموطّأ مالك (ت. 179هـ/795) (رواية محمد بن الحسن الشيباني الحنفي (ت189,هـ/ +804م)[18] برواية القرطبي يحي المصمودي (ت. 254هـ/848م)، من جهة، وبمؤلفات الحديث الكلاسيكيّة من جهة أخرى، من تأريخ وفهم أسباب هذا التحول الذي طرأ على معني الرّباط. فالرّواية الأندلسية تشتمل على "كتاب جهاد" لا يوجد في النسخة الأولى، حيث يبدو الإمام مالك متحفّظا من "القتال على الحدود" في إطار الجهاد، رغم أن محمد بن الحسن ألّف بدوره "كتاب سير"[19]. وهو مايؤكّد وجود تيار - يمثّله مالك والشّيباني - يحترز من التطوّع للقتال في الثّغور و العواصم "بدافع البحث عن المغانم". ويورد مالك حديثا (مرسلا) يفسّر "صَابِرُوا ورَابطوا" "باسباغ الوضوء وكثرة الخطي الى المسجد وأنتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرّباط"[20] فالمواظب على الصلاة ("من غدى وراح لا

14) راجع : E. Tyan, art. "*Djihad*", *E.I.* II, p. 554

15) لدى المحدّثين وأصحاب المغازي، ثم في مرحلة ثانية عند الفقهاء

16) حول هذه الفرقة انظر : محمد عمارة، "*الفرق الاسلامية*" موسوعة *الحضارة العربية الاسلاميّة*، بيروت 1986، II ص. 373-, 398.

17) الاستعمالات القرآنية في هذا المجال هي خاصّة "القتال" (التوبة، 28-29 "قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله". وأما الجهاد فهو لا يوجد كمصطلح قائم بذاته بل بواسطة "إستعمالات" مثل "المجاهد في سبيل الله" (النساء، 95، البقرة، 218، المائدة، 54) و"جاهد" و"شهادة". أما المصطلح الشائع لدي الفقهاء فهو "السّير". انظر: فؤاد سزكين، *التراث العربي*، الرّياض، I ص. 458-60 ؛ C. Chebbi, *op. cit*, p. 512.

18) نشر عبد الوهاب عبد اللطيف، القاهرة 1967.

19) انظر في هذا الصدد : M.Bonner, "*Some observations concerning the early development of jihad on the arab-byzantine frontiers*", in *S.I*, 1992, p. 24-25 ; C.Chebbi, op. cit, p. 512 ; C.E. Bosworth, "*Abù Amr uthmàn al-Tarsùsi, Siyar al-Thughùr and the last yeras of arab rule in Tarsus*", in *Graeco-Arabica*, V, Athnès 1993 ; ID, "*Byzantium and the Arabs : War and peace between two world civilisations*" in *JOAS*; III-IV, 1991-92 ; G. Dargon, "*Le Combattant byzantin à la frontière du Taurus : guérilla et société frontalière*", in *Le combattant au Moyen âge*, Paris1991.

20) ونزنك، *المعجم المفهرس لمعاني الحديث*، تونس 1987، II، ص. 212 (مادّة رباط). كذلك مسند ابن حنبل، بيروت 1978، II، 277، ابن منظور، *لسان العرب*، III، 1561.

يريد غيره") له فضل "المجاهد" أي المجاهد القرآني وليس بالضرورة جندي الثغور[21] ولهذا أكد ابن أبي زيد القيرواني ("مالك الصغير") أنّ مهمة المرابطين الأساسية تتمثل في أداءالصلوات في أوقاتها[22]. ونجد نفس الشيء في المدوّنة لكنّ سحنون بن سعيد - المتأثر حتما بمذاهب الشّامي الأوزاعي والمصري اللّيث بن سعد - جعل أيضا من مشمولاتهم "حراسة السواحل"[23] ولكن هذه الحراسة يكتنفها أيضا كثير من الغموض، مثلما سنبيّنه في الفصول الخاصّة بإفريقية. وهي وظيفة غامضة أيضا في كثير من الأحاديث وتختلف عن الحرب بحصر المعنى الذي لم يكن من إختصاص عبّاد الحصون[24]. ويؤكد موقف ابن سرين (ت110هـ) ما ذهبنا إليه حول تأخّر ظهور المرابطة التقليدية إذ يذكر أنه لمّا سأل الرسول في المنام "الجهاد أفضل أم الرّباط ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : الرّباط رباط يوم وليلة خير من عبادة ألف سنة"[25] فهذا الرّباط مختلف عن الجهاد[26]. ويتّصل بهذه الوظيفةإسم القصر الذي أطلق أيضا على بعض الرّباطات ، سواء كان ذلك القصر في الصلاة[27] أو الاقامة المستمرّة والاعتزال. ويدلّ كل هذا على وجود تباين في وجهات النظر منذ آخر القرن الثاني للهجرة (8م) بين إتّجاهين (في أوساط المحدّثين، "أهل العلم")، وهي أيضا الفترة التي برزت فيها ايديولوجية الجهاد في الشام وخراسان والمغرب والأندلس، أي الأمصار التي ظهر فيها الرباط بمفهومه الجديد[28]. ففي حين أكّد أهل الجزيرة و العراق على فضل المجاورة (الاقامة بمكّة)[29]

21) انظر في هذا الصدد الجدل السنيّ الشيعي حول "حيّ على خير العمل" أي الصلاة وافضليّتها على القتال.

22) فتوى لابن أبي زيد حول رباط المنستير. راجع : هـ. ر. إدريس، *الدّولة الصّنهاجيّة*، تعـ. حمّادي السّاحلي، بيروت 19، II، ص. 306 وأيضا : الرّابطة، أي الصومعة التي يعتزل فيها النّاسك.

23) *المدوّنة*، V، ص. 367: "قال ابن القاسم : قلت لمالك أنا نكون في ثغورنا بالاسكندريّة فيقولون لنا الامام يقول لا تحرسوا إلاّ بإذني. قال مالك : يقولون أيضا لا تصلوّا إلاّ بإذني، فليحرس النّاس ولا يلتفتوا إلى قوله هذا".

24) الهادي الدّرقاش، *فقه الرّسالة*، بيروت 1989، ص. 242 ؛ ونزنك، *نفس المرجع*، II، ص. 33 (مادة رباط). انظر أيضا "الرّابطة" والعساسة" بمعنى الشرطة. المالكي، II، ص. 488 ؛ محمد الرحموني، *الشرطة في الاسلام*، تونس 1983، ص. 93 .

25) ابن سرين، *تفسيرالأحلام*، بيروت 1995، ص. 84 وكذلك "قال الاستاذ أبو سعيد بلغنا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله". ص. 475 "ثلاثة أعين لا تمسّها النار، عين حرست في سبيل اللّه..." ص. 481 "والحصن حصانة في الدّين لمن رأى أنّه فيه. ومن جمع له أمره واستمكن من الدّنيا فقد أشرف على الزّوال وتغيير الحال لأنّ كلّ شيء إذا تمّ زال".

26) Tyan, art. "*Djihad*", *E.I*, II, p.900.

27) ياقوت الحموى، IV، ص. 354-355 .

28) M. Bonner, *op. cit*, p. 24-25

29) ويعبّر عن هذا الموقف أحسن تعبير الحنبلي ابن قتيبة (تـ. 276 هـ/ 889م) في *عيون الأخبار* (I، ص 219، و356). فهو يسرد على لسان مجاور : فضيل بن عياض (تـ. 187 هـ/ 803م) نادرة تتعلّق برجل تكبّد المصاعب قبل أن يلتحق "برباط" طرسوس، لكنّه ارتدّ بعد مدّة قصيرة إثر أسره من طرف الرّوم. أمّا القصّة الثانية فهي تتمحور حول "إختبال" ناسك صوّام بالمصّيصة".

دعي أصحاب الاتجاه الثاني الى مجاورة من نوع جديد، أي الإقامة بالثّغور، مثل المصّيصة وعسقلان والمنستير وسوسة التي بدأت توضع في شأنها الأحاديث. على أنّ موقف أصحاب ايديولوجيّة الجهاد سيتدعّم في القرن الثالث (9م) مع ظهور الصّحاح السُنّيّة الكلاسكيّة[30]، إذ تحتوي مصنّفات كلّ من ابن حنبل (ت. 245هـ/ 855م) والبخاري (ت. 256هـ/ 870م) ومسلم (ت. 275هـ/ 888م) والترمذي (ت. 227هـ/ 892م) والنسائي، فصولا عن "فضل" الجهاد في سبيل الله "على الحدود التركية والبيزنطية"[31]. وقد أصبح "الرّباط" عند هؤلاء ملازمة الثغور (أو ثغر العدوّ)، وهو المعنى الذي نجده عند ابن منظور الذي ينتمي إلي نفس المنظومة الفكريّة[32]. ولكن لا نجد رغم هذا أثرا في هذه المصادر والمؤلفات المعاصرة لها لمعلم محدّد المعالم يسمّى رباط. فالحصون أغلبها قلاع قديمة أعيد إستعمالها، كما كانت رباطات المصّيصة وعسقلان مدنا محصنّة قبل الإسلام[33]. كما أنّ جلّ أصحاب الصّحاح (باستثناء إبن حنبل) ينتمون إلى المناطق التي تطوّرت فيها المرابطة (الشّام، خراسان. . .)، وكانت خراسان أحدى مراكز الكراميّة، أي الفرقة التي ارتبطت باكرا بالمرابطة.

وفي حين واصل دعاة "تيار الجهاد" الحديث عن جهاد مستمرّ ضدّ الاتراك - رغم تغيّر الأوضاع السياسية والعسكرية - في القرن الرّابع للهجرة (10م)، نرى الموظّف الحكومي والجغرافي قدامة بن جعفر (صاحب كتاب الخراج) (توفي في بداية ق. 10م)، والذي لا يستعمل "لغة دينية"[34] يورد حديثا يدعو المسلمين إلى عدم محاربة الترك "إذا جنحوا الى السلم"، وهو أيضا مفهوم قرآني. كما أنّه لا يستعمل مصطلح "رباط" عند تعداده لثغور الاسلام[35]. نفس الشيء بالنسبة لابن حوقل

30) حول هذه الصّحاح وعلاقتها بالمسانيد أنظر : محمد أحمد خلف الله، *"الحديث وعلومه"*، موسوعة الحضارة *العربية الاسلامية*، II، ص. 43-,55

31) النسائي، سنن، IV، جهاد، 39 "من رابط يوما وليلة في سبيل اللّه كان له كأجر صيام شهر وقيامه. ومن مات مرابطا أجرى له مثل ذلك في الأجر وأجري عليه الرّزق وآمن من الفتّان". وبصيغة أخرى "رباط يوم في سبيل اللّه خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل". راجع أيضا، طهارة، 106 ؛ أبي داود السّجستاني، III، باب فضل الرّباط، 2500 "كلّ ميت على عمله إلاّ المرابط فإنّه ينمو له عمله ويؤمن من فتّان القبر". ابن ماجة، جهاد، 11 ؛ ابن حنبل، مسند، II، 362 ؛ الترمذي، جهاد، 25-35 ؛ البخاري، باب فضل الجهاد والسير، IV، 17-128 ؛ مسلم، كتاب الجهاد والسير، V، 139-,200

32) محمد عابد الجابري، تكوين، ص,79

33) C. Chebbi, *op. cit*, p. 513 ; CL. Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des croisades*, Paris 1940, p. 148-152.

34) C.Chebbi, *op, cit*, p. 513

35) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ليدن 1889، ص. 208، 212، 262 كما أنّه يتحدّث عن "فرسان أساورة" "يرابطون" على الحدود مع بلاد الدّيلم.

(ت. 367هـ/ 977م) الذي أشاد بالجيوش السّامانية الجديدة (على الحدود التركيّة) المتركبّة "من مماليك الأتراك" المنّظمة، وقارن بينها وبين فوضى صعاليك العسكر وشوّاذ القبائل الذين كانوا "يرابطون" فيما قبل على حدود بلاد ما وراء النهر[36]. أما بالنسبة لجبهة بيزنطا[37]، فإن قدامة لا يتحدّث إلا على جنود نظاميين (جند) يتلقّون العطاء، وبعض الفرق من "صعاليك القبائل" (فرق غير نظامية) تتقاضى الجعل، تغزو لحسابها الخاصّ ولا تشارك في المغانم الرّسمية. وهي مجموعات تنتمي إلى شرائح اجتماعية متدنيّة وليس لها أية علاقة "بالجهاد المقدس". كما يقدم لنا قدامة احصاء دقيقا للإستحكامات الحدوديّة ولكنه لا يستعمل مصطلح رباط. أمّا الغزاة (جمع غازي)[38] فقد كانوا يعسكرون في القرن العاشر الميلادي على حدود بلاد ما وراء النهر، وهي تسميّة رمزية فيها تذكير بصحابة الرّسول، وكانوا يشكّلون مجموعات من المغامرين الذين يتحوّلون وقت السلم الى قطّاع طرق[39]، قبل أن يشركهم محمود الغزنوي في فتوحات الهند[40]. كماأنّ المرابطون المتطوّعون الذين صنعتهم ايديولجية الجهاد لم يلعبوا أي دور في إستعادة أراضي فلسطين، ذلك أن الحرب ضدّ الفرنجة كانت قبل كلّ شيء من مشمولات الجيوش النظامية السلجوقية والأيوبية[41]، في حين تدعو ايديولوجية الجهاد "كل المسلمين" أن ينتدبوا أنفسهم للدّفاع عن بيضة الاسلام، وقد لاحظت ك. الشابي على حق أنّ هذا المصطلح (المسلمين) عام وليس له أي محتوى سوسيولوجي وتاريخي[42].

ورغم كلّ هذا الغموض لا يمكن أن ننكر وجود مجموعات وأفراد تطوّعوا "للرّباط" في العهد العبّاسي الأول على الحدود الاسلامية البيزنطيّة[43]. ولكن قراءة

---

36) ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن 1967، ص. 471,

37) لم يكن البّطال، بطل العرب في الحروب ضدّ بيزنطة مرابطا انظر:
Melikoff, art. "*Battal*" *E.I.*,I, p.1137

38) I. Melikoff, art. "*Ghàzi*", *E.I*, IV, p. 1068 - 1069

39) الطبري، III، ص. 1044، وحول النظام البيزنطي المماثل للغزات.: Melikoff, *op. cit.* p. 1069 (acrites).

40) I.Melikoff, *op. cit.* p. 1069 : حول علاقتهم بالتصوّف والفتوة في القرن الثالث عشر الميلادي

41) C. Chebbi, *op. cit*, p. 514 ; N. Elissef, *Nur al-Din*, Damas 1967, II p. 31 ; E. Suvan, *L'Islam et les croisades, Idélologie et propagande dans la réaction des musulmans aux croisades*; Paris 1968, *passim*; Cl.Cahen, *Orient et Occident au temps des croisades.*

42) C. Chebbi, *op. cit*, p. 514

43) *نفس المرجع*، ص. 514,

سريعة لطبقات ابن سعد تبرز التناقض الصّارخ بين المؤلفات النظريّة والواقع التاريخي وتؤكد أنّ رجال الثغور لم يصبحوا بعد (في القرن الثالث للهجرة) مثاليين. فقد خصّ ابن سعد ثمانية عشر من رجال الثغور بتراجم قصيرة "وعادية"، مثل الأوزاعي. وقد كان هذا الفقيه (الذي انتشر مذهبه في الشّام والأندلس) يسكن بيروت التي كانت تعتبر ثغرا. أمّا ابن المبارك الخراساني فقد كان يكتفي "بالحثّ على الجهاد". كما لا يذكر ابن سعد طرسوس التي وضع في شأنها الحديث، ولا يخصّ أحدا من رجال المصّيصة (12 ترجمة) بالرّباط أو حتى الجهاد، بأستثناء أبي إسحاق الفزاري (تـ. 188هـ/ 805م) الذي كرّس حياته "للغزو". على أنّ كتاب "السير" الذي ينسب إليه لا يتحدّث عن الرّباط، في حين سيجعل منه مؤلفوا الطبقات المتأخّرة مرابطا مثاليا[44].

وتبرز ايديولوجية الجهاد في القرن الرّابع والخامس للهجرة (10-11م) بأكثر وضوح لدى المتصوّفة التي حاولت بهذا أن تعطي لنفسها شرعيّة دينيّة وتاريخيّة،[45] وكذلك الأشاعرة مثل الغزالي الذي عاب عليه أعداؤه دوره السلبي إبّان الحروب الصليبية[46]. ولكي نفهم التحوّلات التي طرأت على مفهومي المرابطة والجهاد يجب التذكير بأن صاحب المنقذ من الضلال لعب دورا أساسيّا في المصالحة بين التصوّف والإسلام السنّي (الشافعي - الأشعرى)[47]. ومن أتباع هذا المذهب الكلامي عبد القاهر البغدادي (تـ. 429هـ/ 1039م) الذي أعطى مفهوما حيويّا للجهاد، إذ أدرجه ضمن "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر"[48]. نفس الشيء بالنسبة لابن أبي زيد القيرواني الذي ضمّن رسالته الفقهيّة بابا في الجهاد تحدّث فيه عن "فضل الرّباط"[49]. أمّا الشّافعي، واضع علم أصول الفقه، فقد قنّن بصفة نهائيّة مفهوم فرض الكفاية (الجهاد)[50]. وفي باب "تعريف فرض الجهاد" من كتاب "الأم" عدّد واجبات الخليفة والاحتياطات التي يجب إتّخاذها لكي لا تتحوّل الحملات الى "مهلكة". كماذكر الحصون والخنادق التي يجب

44) *نفس المرجع*، ص. 514,

45) C. Chebbi, "*Reflexions sur le soufisme iranien primitif*", in *J.A*, ccL XVI;1978

46) محمد عابد الجابري، تكوين *العقل العربي*، ص 290 : H. Laoust, La *politique de Ghazali*, Paris 1970, p.264, 342-343.

47) محمد عابد الجابري ، *نفس المرجع*، ص. 285- ,290

48) عبد القاهر البغدادي ، *أصول الدين* ، اسطنبول 1923، ص. 193 .

49) ابن أبي زيد ، *الرسالة*، الجزائر 1945، ص. 63، 165 انظر أيضا الهادي الدرقاش ، فقه *الرسالة*، ص. 242 .

50) عكس فرض العين. الشافعي ، *كتاب الأم* ، بيروت 1980، IV، ص. 176 ؛ VII، ص. 201، 284 .

إقامتها على الحدود، و"ضرورة حراستها" بواسطة رجال شجعان (دون إبراز صفة المجاهد أو المرابط). وأكدّ من جهة أخرى على ضرورة التراجع الى "رباط الجهاد" عند فشل الغزوة، و"الرّباط" هنا لايعني معلما محدّدا "يحرسه رهبان محاربون" بل معقلا عاديّا للجند النظامي[51]. وإضافةإلى الأشاعرة تطوّرت إيديولوجية الجهاد أيضا في الأوساط الحنبليّة، على أن هنري لاووست الذي نشر عدّة عقائد حنبليّة أكّد انّ اقدمها (مثل عقيدة ابن بطة (تـ. 287هـ/ 997م) تتحدث عن "الغزو" أكثر من الجهاد. وسوف لن يتبلّور هذا التوجّه بصفة نهائية إلا مع ابن قدامة (تـ. 620هـ/ 1223م). كما نجد في مسند ابن حنبل عبارة غامضة تذكر أن "الجهاد هو رهبانيّة الاسلام"[53].

ورغم تطوّر ايديولوجية الجهاد فإنه لا يوجد في المشرق في القرن الثالث والرابع (9-10م) "رهبان محاربون" متطوّعون "للجهاد في سبيل اللّه" على الحدود، كما لا نجد معالم خاصّة بهم. لكن منذ القرن الخامس (11م) سوف تجعل كتب الطبقات المتأثّرة بالتصوّف من سكان الحدود السابقين والمعاصرين لهذه المؤلّفات نوعا من القدّيسيّين: صالحون[54] وأبدال[55]. ومن هذه المؤلفات مصنّف أبي نعيم الاصفهاني (تـ. 430هـ/ 1038م): "حلية الأولياء"[56]. وقد اعادت هذه التراجم كتابة "سير زهّاد القرن الثاني والثالث (8-9م) وأسبغت عليها طابعا ملحميّا ميثولوجيّا. ومن هؤلاء الزّهاد ابراهيم بن أدهم (تـ161هـ/ 777م[57]، لا يذكره ابن سعد) الذي تعتبر حياته نموذجا لحياة المرابطة، والذي نسبت إليه عدّة خوارق في البحر والجبال، وعبد اللّه بن المبارك المروزي (تـ. 181 هـ/ 797 م). وكلّ هذه السّير ليست في الحقيقة إلاّ اعادة كتابة وأسطرة للماضي، خاصّة القرون الأولى للإسلام، وهي لا

51) الشافعي، *نفس المصدر*، IV، ص. 176-180.

52) H. Laoust, *La profession de foi d'Ibn Batta*, Damas, 1958, p. 47, 127 ; ID, *Le pécis de droit d'Ibn Qudama*, Damas 1950, p. 271 : C . Chebbi, *op, cit*, p.514.

53) ابن حنبل، مسند، III، ص. 82، 266 ؛ C. Chebbi, *op, cit*, p. 514

54) وهي في القرآن من صفات الانبياء (*الصّافات*، 112" وبشرناه بإسحاق نبيّا من الصّالحين")

55) جمع بدل: احدى درجات القدسيّة عند الصّوفيّة. ويسكن الأبدال الشام ويلعبون دورا هاما في توازن الكون (نزول الأمطار، الانتصار على الأعداء...). انظر: E. Goldziher, art. "*Abdal*", *E.I*, I, p.97

56) *حلية الأولياء*، القاهرة 1932.

57) *نفس المصدر*، VIII، ص 7-8, 71, 515 C. Chebbi, *op. cit*, p.

تتطابق مع تاريخ الثغور والحروب[58]. ويمكن أن نتأكّد من ذلك عند مقارنة هذه التّراجم والمؤلفات السّابقة المتأثرة بإيديولوجية الجهاد مع المصنّفات الأدبيّة (مثل العقد الفريد لابن عبد ربه)[59] وتفسير الطبري الذي حاول التوفيق بين كلا الاتجاهين[60].

الرّباطات في المشرق الاسلامي

إن التضارب والغموض الذين لمسناهما عندما حاولنا التأريخ للمؤسسة، نجدهما كذلك فيما يخصّ المعالم، فقد ألحقت هذه الصّفة بمنشآت متعدّدة ومختلفة مثل المدن (المحصّنة) والقلاع والأبراج، وأبراج المراقبة ومحطّات البريد والخانات ومنازل الصّوفيّة، وحتّي المشاهد والمقابر. وفي هذا المجال أيضا بقيت القلوب كما قال الغزالي "عن المنهج المألوف شديدة النفار"[61]. فأندريه ميكال الذي أحصى كلّ استعمالات هذا اللّفظ[62] بقي رغم هذا وفيّا لتعريف "دير محصّن"[63]، في حين أنّه بأستثناء رباطات الصوفيّة في العراق (والتي برزت منذ العهد السلجوقي في إطار سياسة المصالحة الرّسمية بين الأشعريّة والطرقيّة التي سلكها نظام الملك تحت تأثير الجويني وتلميذه الغزالي في القرن الخامس للهجرة) كانت هذه الفضاءات متنوّعة. وممّا يزيد الأمر تعقيدا تأثّر أقدم مصادرنا - جغرافيّو القرن III - IV هـ/ IX - Xم بإيديولوجيّة الجهاد، ممّا يدعّم تداخل الظاهرة التّاريخيّة (البحتة) والأسطرة. ويؤكّد ما ذهبنا إليه مقارنة مصطلحات قدامة بن جعفر. (ت . 320هـ/ 930 م) "الموضوعيّة" بمصطلحات جغرافيي منتصف القرن الرّابع، فصاحب كتاب الخراج لايذكر الرّباط

58) انظر خاصّة : ابن العديم (تـ 660,هـ /1262) ومؤلّفه "*بغية الطلب*" (دمشق 1991، 11 مجلد). وينسب ابن العديم "لمرابط" من القرن الرّابع للهجرة : عثمان بن عبد اللّه الطرسوسي مصنّف يسمّى : *سير الثغور*، وهو مجموعة تراجم "لمرابطي" هذا الثغر. ونرى أن مصطلح "سير" أصبح لا يعنى مواقف فقيهة مثلما هو الشأن في القرن الثالث. انظر : Bosworth, "*The city of Tarsus*" *Oriens* 1992, p 271-280 ; ID, "*Abù Abou Amr al-Tarsùsi, Siyar al- Thughùr*, in *Greco-Arabica*, V, Athnes 1993, p. 184-185 ; C. Chebbi, *op. cit*, p. 516.

59) ابن عبد ربّه (تـ . 328هـ /940م)، *العقد الفريد*، (كتاب الحرب).

60) الطبري (تـ . 320هـ/ 923م). *جامع البيان*، القاهرة ؛ VII، 501، XIV، p. 51631 C. Chebbi, *op. cit*,

61) الغزالي ، *الاقتصاد في الاعتقاد* ، ص 134 .

62) A. Miquel, *Géographie humaine du monde musulman*, Paris 1967, II, p. 536 - 82, 529, IV, p. 374.

63) *Ibid*, III, p. 82

كمنشأة للجهاد على الحدود[64]. وتوجد أغلب الرّباطات - حسب المقدسي (تـ 378 هـ/ 988م) وابن حوقل (تـ. 376 هـ/ 977م) - في بلاد ما وراء النهر، خراسان، مقاطعات جنوب القوقاز وغرب بحر قزوين وسواحل المتوسط (مصر، المغرب والأندلس)، ويمكن أن نلاحظ منذ الوهلة الأولى ندرة الرّباطات على أخطر الجبهات: الحدود مع بيزنطة، وغيابها في بلاد السند[65].

"الثغور" الشرقيّة

لا يتحدّث قدامة بن جعفر عند وصفه للحدود الشماليّة - الشرقيّة عن الجهاد الاسلامي بل يذكر الغارات التركيّة. وبدل مصطلح "رباط" الذي لجأ إليه ابن حوقل يستعمل كلمة خان للمحطّة التّجاريّة وسكّة لمرحلة البريد (مع إستعمال كلا اللّفظين لنفس المعلم بالنسبة لبعض المنازل المنعزلة)[66]، في حين أنّ المصادر الأخرى تتحدّث عن جهاد مستمر انطلاقا من آلاف الرّباطات على حدود إيران الشرقيّة. فالمقدسي وابن حوقل يذكران ألف رباط في بيكند (حدود بخارى)، بعضها "عامر" والآخر "خراب"، دون إرشادنا حول نسبة هذا العمار. كما أحصى المقدسي 1700 رباط في منطقة إسبيجاب (ضفّة نهر سيحون : سيرداريا)[67]. وتؤكد هذه الأرقام "الأسطوريّة" ما ذهبت إليه كاترين الشابيّ حول تأثّر الجغرافيين بإديولوجيّة الجهاد، إذ أنّها تتناقض مع الواقع "الحربي". فقد انتهج الولاّة الطّاهريون، ثم من بعدهم الأمراء السّامانيون في القرن- IV III هـ/ IX - Xم تجاه الغزّ والخرلوكيّة سياسة دفاعيّة تعتمد على مدن محصّنة وقلاع (كوخنديز) وخنادق دفاعيّة (خاصّة في منطقة خوارزم)، شيّد أغلبها قبل الاسلام، وهي سياسة تواصل الإجراءات التي إتّخذها السّاسانيون من قبل. وكانوا يردّون على الغارات التركيّة بحملات تأديبيّة أشهرها حملة السّاماني إسماعيل التي إستهدفت عاصمة الخرلوك طلس سنة 280 هـ/ 893م، وقد أدّت إلى تأمين الحدود مع شعوب السّباسب خلال أغلب ردهات القرن الرابع للهجرة، أي الفترة التي كتب فيها إبن حوقل

64) C. Chebb, *op. cit*, p. 516

65) انظر ابن حوقل، ص. 218 - 230.

66) ابن خرداذبه، ص. 209 - 210 - 262.

67) المقدسي، ص. 273 - 282؛ ابن حوقل، ص. 489 "ولكرمينيّة قري كثيرة وكذلك لكلّ منبر من هذه المدن كور وقري ومزارع إلاّ بيكند فإنّها وحدها لا شريك لها في الانفراد من الاعمال. وبها من الرّباطات ما ليس ببلدان ما وراء النهر كهو أو ما يقاربه، ويقال أنّ بها نحو ألف رباط ولها سور حصين ولها مسجد جامع"

والمقدسي[68] . كما سارع بإنهاء هذه المجابهات الاعتناق التّدريجي لهذه الشعوب للإسلام. ورغم كلّ هذه العوامل واصل المقدسي الحديث عن توافد المتطوّعة على أوش (فرغانة) والغزاة علي بيكند[69]، في حين يمكن إعطاء بعض المصداقيّة لما ذكره حـ ' حصون مرتفعات غور، الموجودة بين هرات وباميان، وهي منطقة وقعت أسلمتها بصفة متأخّرة نسبيّا، علي يد السلطان محمود الغزنوي (ق. 5 هـ/ 11م). لكن الدّفاع عن هذه المنطقة كان أيضا موكولا لجنود نظاميين ("مرتّبون وحرّاس")[70]. كما أنّه عندما يتحدّث عن ثغر إستواء لا ينعته بالرّباط بل يذكر فقط أنّه يرابط به "رجال شهام" مزوّدون بالخيول والأسلحة" (وليسوا بالضّرورة متطوّعة)، في ثلاثة حصون متّصلة[71]. وعندما وصف ابن حوقل هذه المنطقة بالذّات ذكر بأنّ "ستكند بها منبر وهي مجمع الأتراك وقد أسلم منهم أحياء شتّى ودخل في إسم الاسلام قوم من الغزيّة والخرلخيّة ولهم بأس ومنعة في الأتراك. وبين باراب وكنجدة والشاش مراع خصبة بينها نحو ألف بيت من الأتراك قد أسلموا"[72]. وهو ما يؤكد أنّ المقدسي كان يتحدّث عن وضع سابق أي وضع القرن المنصرم. كما لا يذكر ابن حوقل مرابطي أوش التي كانت "مدينة عامرة وقهندز عامر ودار الإمارة والحبس في القهندز، وللمدينة ربض وعلى الرّبض سور وهي ملاصقة للجبل الذي عليه المرقب للأتراك الذي تحرس فيه مقاثيهم وسرحهم"[73]. وفي الحقيقة لم يعد الاتراك مسؤولين عن انخرام الأمن في هذه المنطقة بل "الغزاة" المسلمون ذاتهم قبل أن يشركهم محمود الغزنوي في فتوحات الهند[74].

وإلى جانب غياب الكرونولوجيا فإنّ العديد من "الرباطات" لم تلعب أي دور عسكري، وإنّما كانت مجرّد منازل لايواء المسافرين، مثل رباطات إسبيجاب الأربعة

68) C. Chebbi, *op. cit*, p. 5127

69) المقدسي ، ص. 272 ، 282 .

70) *نفس المصدر* ، ص . 306 ، 320 .

71) *نفس المصدر* ، ص . 320 ؛ C. Chebbi, op. cit, p. 517

72) ابن حوقل ص . 511 ,

73) نفس المصدر ، ص 513,

74) R.N. Frye, "*The Sàmanids*", in *The cambridge history of Iran*, cambridge 1975, p. 155; C. Chebbi , op. cit, p; 517

(التي كانت توجد قرب أبواب المدينة)[75]. ويقع تعهّد هذه الرّباطات الخاصّة (التي تقع أيضا على أهمّ الطرق التجاريّة) بواسطة الأوقاف المحبّسة عليها[76]. وكان الأمراء يساهمون في إنشاء هذه المؤسسات، مثل الرّباط الذي شيّده السّاماني قراتجين (ضريحه يوجد داخل المعلم) وحبّس عليه عائدات سوق[77]. وقد ذكر ابن حوقل بوضوح هذه الوظيفة عند حديثه عن مفازة فارس وخراسان "وما يعرض في أضعاف طرقها من المنازل والرّباطات الموقوفة على سابلة الطريق ليستجار بها في شدّة البرد من الثلوج وفي شدّة القيظ من الحرّ وليس فيما عدا أطرافها كثير عمارة ولا سكّان"[78]. وقد كانت هذه الخانات - الرّباطات غالبا محصّنة، مثل رباط بدخشان[79].

ويخبرنا ابن حوقل أنّ مدينة ديزك "لها رستاق وبها يرابط أهل سمرقند وفيها رباطات تشتمل على عدد كثير وأجلّ رباط في حدودها رباط خديسر وهو منها على فرسخين وهو من أشهر رباطات ما وراء النهر بناه الأفشين وفي وسطه عين ماء تنبع وعليه أوقاف وضياع سبّلها قبل خروجه إلى العراق، وهو من أقرب تلك الرّباطات الى بلاد العدوّ"[80]. ويبدو أنّ هذا الرباط الذي أحدثه القائد التركي (للجيش العبّاسي) (ت. 226 هـ/ 841م) كانت له وظيفة عسكرية في السابق، كما يجب التذكير بأن الأفشين قاد حملة مقاومة الاعتزال في آخر العهد العبّاسي الأوّل. وإضافة إلى إيواء المسافرين كانت عدّة رباطات معدّة أيضا لايواء رجال البريد، مثل رباطات بوخارى وشمال خراسان[81]. وذكر ابن حوقل أن "رباط ميله لأبي الحسن محمّد بن الحسن ماه [منطقة بلخ] هو أجلّ رباط حسنا في نفسه ونفعا في موضعه لشدة الحاجة إليه في مكانه وكثرة ضرورة النّاس إلى الاستغاثة والاستعانة به في المخاوف وعند اناخة العدوّ والثلوج وتوقّع المتالف وهو حصين في ذاته منيع بعلوّه وسمكه فسيح المباني واسع الافنية لو نزل به عسكر لأقلّه وملك عظيم لستر جيشه وأظلّه وأكنّه، هذا إلى ما هو أجلّ منه من

75) المقدسي، ص. 272 - 273 ؛ ابن حوقل ، ص. 510 ؛ A. Miquel , *op. cit*, IV, p. 56 : C. Chebbi, *op. cit*, 518 ?

76) C . Chebbi, *op. cit*, p 18 : Cl. Cahen, "*Reflexions sur le Wakf ancien*", in *les peuples musulmans dans l'histoire médievale*, Damas 1977, p. 287 - 306.

77) وكذلك رباط مركي الذي أسسّه أحد أمراء السّامانيّن : المقدسي، ص. 275 .

78) ابن حوقل ، ص. 401 .

79) المقدسي ، ص. 303

80) ابن جوقل ، ص. 504 - 505

81) المقدسي، ص. 291, 372, 493 ; A. Miquel, *op. cit*, IV, p. 55

رباطاته في أقطار ماوراء النهر وبخراسان وماله منها بالقواديان. ومن أحسنها رباطاته بالترمذ مع الجرايات التي على نزّالها والنفقات الدّارة على سكّانها من المتفقّهة وطلاّب العلم. . . ورباطاته بشومان وصرمنجي والصغانيان وكلّ منها نفيس في ذاته وعليه الحبس لنفقاته ومؤنه ومرمّاته"[82]. وتنسب هذه الرّباطات عادة لمؤسسّيها مثل أبي محمد بن الحسن الذي كان حسب ابن حوقل "من أرغب خلق اللّه في الخيرات واقتناء الصّالحات"[83] أو القائد الساماني ابن سمجور الذي ينسب إليه أيضا حصن مماثل[84].

وقد تحوّلت بعض الرّباطات - التي لم تلعب كلّها في الأوّل دورا عسكريّا - إلى مشاهد مقدّسة (مزار)، بعد أن أضيفت إليها أضرحة رمزيّة، مثل "رباط الصّحابة" في نيسابور[85] و"رباط" ذو القرنين (إسكندر المقدوني) و"رباط " النبيّ ذو الكفل (خراسان)[86]. ويذكر المقدسي أيضا وجود "مجاورون" في رباط يقع في منزلة قرب نهر أموداريا[87] وربّما تعلّق الأمر بمجموعة من النسّاك الذين كان نشاطهم الأساسي يتمثّل في نشر الاسلام بالطرق السلميّة التبشيريّة (دعاة). وقد لعبت الخانقاهات - الرّباطات الكرامية في العهدين السّاماني والغزنوي (والغوري نسبيّا) دورا هامّا في هذا المجال في المناطق التركيّة[88]. وهو دور واصلته (منذ القرن 11 م خاصّة) خانقاهات الصّوفية التي كانت لها كثير من القواسم المشتركة مع هذه الفرقة. لكن هذا لا يعني أنّ كلّ هذه الرّباطات لم تلعب في الأول دورا عسكريّا قبل أن تتحوّل إلى مراكز عبادة واعتكاف يؤمّها النساك و"مجاهدوا النفس".

ويعتبر قدامة بن جعفر كلّ السواحل من سورية إلى مصر ثغورا[89]، أمّا المقدسي وابن حوقل فإنّهما تحدّثا عن مدن مسوّرة وحصون، ولكن لا يذكران إلاّ نادرا الرّباطات. فصاحب صورة الأرض يكاد لا يخصّ بهذه الصّفة إلاّ بيروت "التي يرابط

82) ابن حوقل ، ص 454 - 455 .

83) نفس المصدر ، ص . 454 .

84) المقدسي ، ص . 372 ,493 ; C. Chebbi, *op. cit*, p. 518

85) المقدسي ، ص . 334; A. Miquel, *op; cit*, IV, p. 51

86) المقدسي ص 291، 333 ، Montgomry Watt, art "*Iskander*", *E.I* IV p. 133 ; A. Miquel, op. cit.

59). ان العرب يعرفون جيّدا إسكندر (منذ الجاهلية) وتوكّد سورة الأنبياء أنّ ملك مقدونيا كان يعتبر لدى المسلمين نبيّا ومسلما، cit, IV, p. 51

87) المقدسي ، ص . 292

88) C. E. Bosworth, art. "*Karàmiya*", *E.I*, V,p.

89) ابن خرداذبة ، ص. 253 ، 255

بهـا أهل دمشق وسـائر جندها، وينفـرون إليهـم عند إستنفـارهم "[90]،ويتغـافل عن أهمّ وأقدم "رباطات" الشّـام ومصر : عـسقلان وطرسـوس والمصيـصة والاسكندريّة، وهي "ثغـور" وضعت في فـضلها الأحـاديث[91]. وأكدّ المـقدسي على تعـدّد الرّباطات علي سواحل دمياط الـصّعبة[92]. وذكر أنّ لها مـواسم تجاريّة يتوافد خلالهـا المرابطون بكثرة على "الحصون"[93]. وعدّد ابن زولاق (تـ. 387 هـ/ 977) رباطات وثغور مـصر فذكر "من ذلك رباط البرلّس، ورباط رشيد، ورباط الإسكندريّة، ورباط ذات الحمّام، ورباط البحيرة، ورباط أخنا، ورباط دمـياط، ورباط شطا، ورباط الفرما، ورباط الورّادة، ورباط العريش، ورباط بئـر أبي إسحاق ومـا يضاف الى هذه الثّـغور. ورباط الحرس من جـهة الحبش والبجـة وما يقرب منهم، ورباط أسوان على النّوبة، ورباط الـواحات على البربر والسّودان[94]". على أنّ المـؤرخ المصـري خلط بين الرّباط والحـصن العادي، وهو مـا تؤكده الأخبار التي ساقها لنا تقي الدّين المقريزي حول تداخل مؤسسة الرّباط والمنشآت الخـاصّة بالـصّوفـيـة. وذكرالمـالكي أنّ الإفـريقي أبو عـيسى مـروان بن عـبـد الرحمـان اليحصـبي كان يرابط بالاسكندريّة[95]. وكانت "المـتطوّعة" تحـرس - حسب البكري - في مسجد يوجد في أعلى المنار"[96]. ومن رباطات مصر أيضا جـبل المقطّم الذي كان - مثل المنستير - مدفنا للصّالحين[97]. كما كان جبلا اللّكام والأكواخ في الشّام مراكز هامّة للمرابطة[98]. وكان أبو سليـمان ربيع بن عبد اللّه الناسك الافـريقي "كثير السـياحة والتعـرّف على الأوطان. وسكن (ق. 9م) جبل اللّكام وصحب الأبدال". وكـان يتردّد عليـه ابن وطنه أبو بكر محـمـد بن سعـدون الجزيري الذي "غـزا به عدّة غـزوات"[99]. وذكر المـالكي أيضا أن بشـر بن عمروس المـرابط بالمنستير (ق. 9م) كـان يتردّد على

90) ابن حوقل ، ص 504

91) المالكي I، ص . 486 ، 500 .

92) وهو ما يجعل الهجمات البحرية الموجهة ضدّها نادرة .

93) المقدسي ، ص . 203 .

94) ابن زولاق ، *كتاب ذكر مصر وأخبارها* ، مخط. مكتبة أيا صوفيا، استنبول، رقم 3081 ، وورقة 8 أ. (ابراهيم شبوح ، *نفس المرجع*، ص 10 .)

95) المالكي ، اص . 195

96) البكرى ، II ، ص 634 .

97) يفد عليـه الأفارقة وأهل الأنـدلس . المالكي ،I، ص . 178 ، 189 ، 191 ، II، ص . 415 "عبـد اللّه بن فرّوج دفن بسفح المقطّم سنة 175هـ . "

98) ياقوت ، I،ص . 318 ، V ، 320 -321 - 336 .

99) المالكي ، I،ص. 198, . ، II، ص . 414,

طرسوس التي "لقي بها جماعة من الصّالحين" [100] و"ركب يزيد بن محمد الجمحي (ق. 9م) من إفريقيّة يريد غزو المصيّصة فخرج عليهم عدوّ صقليّة فأستشهد" [101].

ذكر المقدسي أنّ أغلب المدن السّاحلية في فلسطين (الرّملة، عسقلان[102]، أزدود، حيفا، ميماس، أرسوف. يبني) كانت - على غرار سوسة وصفاقس والمنستير في إفريقيّة- مراكز مرابطة. وتوجد ضمنها بعض المدن البعيدة عن البحر كغزّة[103]. وكانت هذه المدن - الرّباطات، خاصّة عسقلان، كثيرة الحصون والمحارس؛ وهي بدورها رباطات ثانويّة[104]. وإلى جانب الانذار بوصول عمائرالرّوم كانت لهذه الرّباطات مهمّة فداء أسرى المسلمين. و"كانت تقلع إليها شلنديّات الرّوم وشوانيهم ومعهم أسارى المسلمين، وفي كلّ رباط قوم يعرفون لسانهم... ويضجّ بالنفير لمّا تتراءى مراكبهم فإن كان اللّيل أوقدت منارة ذلك الرّباط، وإذا كان نهارا دخّنوا. ومن كلّ رباط إلى القصبة [المدينة] عدّة منابر... فيخرج النّاس بالسلاح والقوّة ويجتمع أحداث الرّساتيق ثم يكون الفداء" [105].

الرّباط والخان في المشرق الاسلامي

كانت العديد من خانات فارس تسمّى أيضا رباطا (مثل الرّباط الشريف في مشهد)[106] (شـ. 76). كما كانت الكثير من رباطات بلاد مابين النهرين منازل للمسافرين. والخان كلمة فارسيّة تطلق عادة علي بناية، مخصّصة لبيع البضائع وخزنها، وإيواء المسافرين ودوابهم، توجد في المدن وعلى الطرق الدّاخلية والبحريّة. ومن الناحية النظريّة لا يجب أن تتعدّى المسافة بينها ثلاثون كلم (مرحلة). ويعتبر هرزفلد Herzfeld

(100) *نفس المصدر*، I، ص. 419 "وكان بها رجل من خرسان يلبس الصوف"، أنظر أيضا: C.E. Bosworth, "*The city of Tarsus and the arab.-byzantine frontiers*", in *Oriens* XXXIII, Leyde 1992, p. 280 - 290 وتتّصل بها قلعة أرواد المحصّنة.

(101) المالكي، I، ص. 279. انظر أيضا: أبو الفداء، *تقويم البلدان*، ص، 250.

(102) *نفس المصدر*، I ص. 500.

(103) المقدسي، ص. 174، 177; A. Miquel, IV, p. 55

(104) المقدسي ص، 174.

(105) لمقدسي، ص، 177؛ C. Chebbi *op. cit*, p. 519 ; A.Miquel, *op. cit*, II, p. 471. وحول عمليات الفداء بصفة عامّة: المسعودي، *التنبيه والاشراف*، ص. 189 - 196.

(106) A. Papadopoulo, *L'islam et l'art islamique*, Paris 1976, p. 518 ; B. O'Kane, "*Ribat - i - Sharif*", *E.I*, VIII, P. 526.

أن الخان الاسلامي وريث الأفهانا Avahana الألخمينيّة، وقد أخذها عنهم البيزنطيون الذين كانوا حلقة التواصل مع عالم الاسلام[107].

ويشكّل الخان عادة بناية مربّعة متركّبة من طابق أرضي وآخر علوي، يتمحوران حول باحة سماويّة تحفّ بها المخازن والمكاتب وغرف النوم. وتدعّم سورها الخارجي ومدخلها الوحيد أبراج دفاعيّة، كما يوجد بها مسجد وإسطبلات، وفي بعض الأحيان برج مراقبة (منار). وتشبه عمارة "رباط سوسة" إلى حدّ كبير هندسة خانات عطشان (في الكوفة : 775م) والعقبة (1213م)[108]. أمّا الرّباط الشريف (مشهد) فهو يقع علي طريق القوافل : نيسابور - سرخس. ويتمحور المعلم - الذي شيّد سنة 540 هـ/ 1154م - حول ساحتين مزوّدتين بأربع إيوانات ومسجد[109]، وقد اعتمد هذا التخطيط في العديد من خانات الأناضول مثل سلطان خان (1232م) الواقع على طريق سيفاس - قيصريّة. ويتميّز هذا المعلم السلجوقي بضخامة بوّابته وأسواره الصلبة وأبراجه التي تدعّم جدرانه (شـ. 76)[110].

الرّباط والخانقاهات الكراميّة

تمتاز مناطق الرّباط في بلاد ماوراء النهر - مثل بخارى - بتعدّد خانقاهاتها[111]. كما أن أسطرة تاريخ الرّباط والطابع "التناسخي" للفكر الاسلامي عامّة[112] يؤكّدان القواسم المشتركة التي وجدت بصفة مبكّرة بين هذه المؤسسة وفرقة الكرامية التي أسبغ التصوّف المتأخّر على أعلامها طابعا ميثولوجيّا. وممّا يزيد الأمر تعقيدا أنّ أغلب ما نعرفه عن تاريخها - وتاريخ الفرق الاسلاميّة بصفة عامّة - وصلنا عن طريق مؤلفات أصحاب

---

107) N. Elissef, art. "*Khan*", *E.I*, V, p ; 1043 - 49 . نجد في بعض الاحيان في بغداد وإفريقيّة مصطلح دار، وتارة منزل، والمنزلة مرحلة في التكوين الصّوفي وكذلك موضع النزول بعد مرحلة(6 - 8 فراسخ)، قرب مدينة أوخان محصّن. وتوافق *Mansio* اللاّتنيّة : انظر N. Eliessef, art. "Manzil", *E.I*, VI? p. 440-441

108) N. Eliessef, "*Khan*", E.I, p. 1043. K.A.. C. Creswell, *Early muslim architecture*, II, p. 91, G. Marçais, Architecture, p. 35 ;

109) A Papadopoulo, *op. cit*, p. 518 ; B. O'Kane, "*Ribat -i - Sharif*", p. 1043 ; ID, *Timurid architecture in Khorrasan*, Malibu, 1987, p. 287 - 97, fig. 41.

110) Esin Atil, *Turkish art*, New York 1980, p. 70

111) A. Papadopoulo, *op. cit*, p. 522

112) انظر : محمد عابد الجابري ، تكوين ، ص . 45 .

المقالات الأشعريّة (الأشعري، البغدادي، الشهرستاني)[113] والمعتزليّة[114] والظّاهريّة[115]. وهي مصنّفات منحازة ومتأخّرة من جهة، ومتأثرة بإديولوجيّة الجهاد من جهة أخرى. كما أنّهم كانوا يفتقرون - كما أشار إلى ذلك الشهرستاني[116] -إلى منهج واضح، ممّا جعل تصنيفهم للفرق يتّسم بكثير من الإضطراب. وممّا لا شكّ فيه أنّ إعادة قراءة تاريخ الكراميّة قراءة نقدية والإلمام الشّامل به (لأنّه لم يدرس بعد) سيمكّننا حتما من إزاحة اللّثام عن الغموض الذي مازال يحيط بالرّباط والمرابطة في صدر الإسلام.

إنّ الشائع لدى أصحاب المقالات (خاصّة الأشعري) أنّ الكراميّة تفرّعت عن المرجئة[117]، وهي من أقدم التّيارات العقائديّة في الاسلام. وكانت تقول بتأخير العمل عن الايمان وفصله عنه، وبأنّه لا تضرّ مع الايمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة، فالإيمان هو الاقرار والتصديق باللّسان دون القلب. ومن أبرز أعلامها في العصر الأموي ثابت قطنة وجهم بن صفوان (تـ. 128 هـ/ 740م) الذي تنسب إليه فرقة الجهميّة[118]. وقد قادت المرجئة في العصر الأموي عدّة ثورات في بلاد ما وراء النهر (سمرقند، بلخ، بخارى...)، أي المنطقة التي كانت تعدّ حسب ابن حوقل والمقدسي آلاف الرّباطات. وقد اندلعت هذه الثورات بسبب الشروط المجحفة التي وضعها بنو أميّة أمام الأتراك الرّاغبين في اعتناق الإسلام (حسن الاسلام، الإختتان، إقامة فرائض الدّين، قراءة سورة قرآنيّة). ورغم الغموض الذي مازال يحيط بهذه الأحداث فإنّه يمكن أن نقول بأنّ المرجئة ارتبطت باكرا بالوافدين الجدد على الاسلام ولعبت في أطراف الامبراطورية الأمويّة دورا تبشيريّا[119]. كما أنّ حالة الغليان التي كانت تعيشها هذه المنطقة كانت شبيهة إلى حدّ كبير بالوضع الذي كانت تعيشه إفريقيّة -البلد الثاني للرّباطات - حيث كان الخوارج يشعلون نار "الفتنة" باسم المساواة بين العرب

---

113) الأشعري، *مقالات الاسلاميين*، اسطنبول 1929 ؛ عبد القاهر البغدادي، *الفرق بين الفرق*، بيروت 1973؛ الشهر ستاني، *الملل والنحل*، القاهرة 1331 هـ.

114) القاضي عبد الجبّار، المغني في أبواب التوحيد والعدل *(فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)*، تونس 1972

115) ابن حزم، *الفصل في الملل والأهواء والنحل*، القاهرة 1331 هـ.

116) الشهر ستاني، I، ص. 9 - 13. انظر أيضا : محمد عمارة، " *الفرق الاسلامية*"، موسوعة الحضارة *العربية الاسلامية* II، 1986، II، ص. 544.

117) حول المرجئة أنظر : جمال الدّين القاسمي، تاريخ الجهميّة والمعتزلة، القاهرة 1331 هـ ؛ محمد عمارة، "*الفرق الاسلامية*"، ص. 399 - 400 art. Murdjia, *E.I,*

118) *Djahm Ibn Sfwan*, E.I.

119) محد عمارة، " *ثورات المرجئة* "، *موسوعة الحضارة العربية الاسلامية*، II، ص. 201 - 207.

والبربر الذين قاموا بنشر الاسلام في أوساطهم[120]. وقد تفرّعت عن تيار الارجاء عدّة فرق مثل الجهميّة (التي ورثت عنها المعتزلة القول بخلق القرآن والطّابع "التّبشيري")[121]، وخاصّة الكراميّة التي تنسب إلى محمد بن كرام السّجستاني[122]. وقد لعبت دورا أساسيا في أسلمة شعوب خراسان وبلاد ماوراء النهر في القرن الثالث للهجرة (9م)، أي الفترة التي تطوّرت فيها المرابطة. كما لعبت نفس الدّور الذي لعبه المرابطون في المغرب بتمهيدهم الطريق أمام التصوّف الكلاسيكي. ولم تفقد الكراميّة إشعاعها في هذه المنطقة إلاّ بعد الغزو المغولي.

ولد أبو عبد الله محمد بن كرام السّجستاني في منطقة سيستان وتتلمذ في خراسان على النّاسك أحمد بن حرب النّيسابوري (تـ. 234 هـ/ 849 م)، صاحب "كتاب الدّعاء"، وابراهيم المكياني (ببلخ). وتمثّل حياة ابن كرام، الذي يلقّب "بالعابد"، نموذجا لما سوف تكون عليه حياة المرابط فيما بعد. فبعد أن قضّى خمس سنوات بمكة كمجاور، باع كلّ أملاكه "حبّا للفقر"، و"لبس زيّ النسّاك" وانقطع للعبادة، ثم ارتحل "بعد أن أطلق محمد بن طاهر سراحه من السجن (بسبب نشاطه)" إلى القدس حيث توفي سنة 251 هـ/ 865م. ويوجد - حسب ياقوت - متعبّد خاصّ قرب قبره بباب أريحا[123]. وقد شرح مبادىء فرقته في كتابه "عذاب القبر" (مفقود) الذي أورد أجزاء هامّة منه عبد القاهر البغدادي (الفرق بين الفرق) وابن حزم الاندلسي (الفصل في الملل والنحل). ومثل كلّ تيارات الإرجاء تقرّ الكراميّة مبدأ الفصل بين الإيمان والعمل، وهي أيضا مشبّهة مجسّمة، ويصلها المقدسي -خطأ- بأبي حنيفة الذي عدّه بعض أصحاب المقالات مرجئا. علي أنّها وقفت موقفا وسطا بين المعتزلة وأهل الحديث الذين -خاصّة الحنابلة والظّاهرية- ناصبوها العداء. وتقول الكراميّة -مثل المسيحيّة- بأنّ الله جوهر، ويبدو أنّها أوّل من تحدّث عن الملائكة نكير ومنكر. كما أمتازت بالدّعوة إلى النّسك والتواكل والتقشّف[124]. ويستعمل المقدسي مصطلح خانقائي للتدليل على اتباع الكراميّة (في حين أنّه يسمّي الصّوفية بأسمها) ويربطهم

120) محمد الطالبي ، *دراسات في تاريخ إفريقيّة* ، (المقالات الخاصة بالخوارج وبروغواطة)
121) محمد عمارة ، *الفرق الإسلاميّة* ، ص . 316 .
122) حول الكراميّة أنظر : محمد عمارة. *نفس المرجع* ، ص . 270 ؛ C. E. Bosworth art."Karàmiya", E. I, V, p. 393.
123) ياقوت II ، ص . 393 ؛ C.E. Bosworth, op.cit p. 280 - 290
124) المقدسي ، ص . 365 ؛ المقريزي، *خطط*، II، ص 357 ؛ C. E. Bosworth, op. cit, p. 280-290

بالمساجد والرّباطات الرّيفيّة. ويذكر ابن جبير أن الرّباط يسمّى خانقاه في سورية[125]. ويأتي هذا الخلط من تشابه المؤسستين، ويبدو أن افراد الكرامية اعتكفوا في الأول في الرّباطات قبل تأسيس خانقاتهم الخاصّة، وهو ما يفسّر "أسطورة" إحداث أول خانقاه في الرّملة (في بداية القرن الثاني للهجرة (8م) أي أكثر منطقة تكثر بها الرّباطات في الشام[126]. ويذكر الجوزداني، صاحب "كتاب الحدود" (ألّف حوالي 372 هـ/ 982م) أن "المانيين لهم خانقاه في سمرقند"، التي اصبحت حسب ابن النديم مركزا للمانوية بعد انتقالها من العراق. وكانت هذه المنشآت مراكز عبادة وأدلجة وتبشير[127]. وقد ورثت عنها الكرامية توجّهها النسكي و"رهبنيّتها" وكذلك الخانقاه. ولا ندري هل أن انتشار الكرامية في نفس المناطق التي كانت المانوية شائعة فيها يعبّر عن تواصل أم مجرّد صدفة. فقد انتشرت الخانقاهات الكراميّة (منذ القرن 9م وخاصّة 10م) في خراسان وبلاد ما وراء النهر (جرجان - طبرستان) وايران والشام، وكان لها حيّ خاصّ بها في الفسطاط. وكانت تعقد فيها حلقات الذكر، كما كانت أيضا مراكز لنشر الاسلام[128]. ويذكر المقدسي بأن الكراميّة لم يكن لها أتباع في المغرب، وهو أمر غريب نظرا لمتانة الرّوابط الثقافية بين هذه المقاطعة (التي تطوّرت فيها المانويّة قبل الاسلام) ومصر[129]. ولكن يبدو أيضا أنّ هذا الغياب لم يكن إلاّ ظاهريّا، فالفقهويّة(Juridisme) المالكية الضيّقة لم تمنع أفكار ابن كرام من التطوّر داخل رباطات إفريقيّة.

وقد تصدّعت الكراميّة منذ القرن التاسع الميلادي إلى عدّة فرق، العابديّة الطّرائفيّة، النّونيّة، الزّريبيّة، الحيسميّة، الحسنيّة، وخاصّة الإسحاقية التي أسّسها في القرن العاشر أبو إسحاق ابراهيم بن محشد الكزروني (تـ. 462 هـ/ 1033م)[130]. وقد

125) ابن جبير، *رحلة*، ص. 256.

126) الانصاري، *طبقات الصوفية*، ص. 164؛ المقدسي، ص. 164؛ C. Chebbi, art. *Khankah*, E.I, V, 1075 - 1059

127) C. Chebbi, *Khankah*, p. 1058 -1059. وحول انتشار المانويّة في العالم الاسلامي، محمد عابد الجابري، *تكوين*، ص. 149 -150.

128) المقدسي، ص. 179، 182، 202، 232، C. E. Bosworth, *op. cit*, p. 280 -290

129) كان ايبيفنيوس *Epihanius* يشكو في القرن الرّابع بعد الميلاد من أنّه كان لا يزال بمصر عدد كبير من الغنوصيّين (العرفانيّن الهرمسيّين) الذين لا ضابط لأخلاقهم والذين تسرّبت الكثير من آرائهم الى جماعات الصّوفية. "كما ينقل الكندي أنه في عام 200" ظهر بالاسكندرية طائفة يسمّون الصّوفية". محمد عابد الجابري، *تكوين*، ص 202.

130) محمد عمارة، *الفرق الاسلامية*، ص 258. H. algar, art. "Abù *Ishaq al-Kazrùni*", *E.I*, IV

لعبت بدورها - مثل كلّ فرق الكراميّة- دورا هامّا في الدعوة الى الاسلام. وينسب لأبي إسحاق اعتناق 24000 يهودي ومزدكي للدّيانة الجديدة. كما يرجع إليه الفضل في تنظيم حركة "الغزاة" (المرابطون) على الحدود البيزنطية، ولهذا كان يلقّب "بالشيخ الغازي"[131]. وقد لعبت الخانقاهات التي أسّسها أتباع هذه الفرقة (66 خانقاه) في فارس دورا إجتماعيّا لأنّها كانت تأوي المسافرين وتقدّم المعونة للفقراء. وقد انتشرت هذه المؤسسات فيما بعد في الهند والصيّن والأناضول، كما أصبح الكزروني حاميا للمسافرين والبحّارة الذين يقدّمون هبات للخانقاه التي أسسها في كرازان (ايران) ويحملون قبل ركوب البحر حبّات من تراب ضريحه "لتهدئة العواصف".

الرّباط والخانقاه الصّوفية

كنّا أشرنا سابقا إلى حديث المقدسي عن "مجاورون" يرابطون برباط قرب نهر أموداريا، وأكّدنا أنّ الأمر يتعلّق على مايبدو بمجموعة من دعاة الكراميّة. وقد واصلت الصّوفية هذا الدّور التبشيري (السّلمي)، ممّا يفسّر الالتباس الذي وقع فيه كثير من المؤرخين حين نسبوا بداية هذه الحركة للمتصوّفة، نظرا للتّشابه الكبير بينهما من النّاحية العقديّة والتنظيميّة[132]. على أن المقدسي جعل الخانقائي مرادفا للكرامي، ولا يربط قطّ بين هذه المنشآت (التي برزت في بلاد ما وراء النهر في القرن التاسع الميلادي) والصّوفية[133]. كما أنّ الخانقاه الصّوفية لم تبرز إلاّ في منتصف القرن الرّابع للهجرة (10م)، وهي الفترة التي ظهر فيها أيضا التصوّف "المنظّم". وسوف يتطوّربصفة ملحوظة في العصر السّلجوقي (ق. 5 هـ/ 11م) بعد سقوط النّظام البويهي الشّيعي - المعتزلي، وكان ذلك تحت تأثير إمام الحرمين الجويني وتلميذه الغزالي. وقد ساهمت الأشعريّة في تعميم هذا التصوّف الجديد في المغرب، وهو ما يفسّر أدبيّات مرابطي افريقية حول التجسيم ورؤية اللّه، وكذلك كتابات ابن أبي زيد في هذا المجال.

---

131) حول تراث الاسحاقيّة انظر: L. Massignon, *Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane*, Paris 1954, p. 267.

132) المقدسي، ص. 179، 182، 414 - 415، 431؛ C. Chebbi, "*Ribat*", p. 519 - 520; "*Kanakah*", E.I, V, p. 1087.

133) C. Chebbi, "*Remarques sur le développement historique des mouvements ascétiques et mystiques au Khuràsan*", in *S.I*, 1977, p. 50-70 ; ID, art. "Kanakah", E.I, V, p 1087-1088.

ويبدو أنّ الخانقاهات الكراميّة كانت منشآت و"مساجد" غير حضريّة، في حين كانت الخانقاه الصّوفية حضريّة. لكن هذا لا يمنعنا من اعتبار الكرامية همزة وصل بين المرابطة التقليدية والمرابطة الصّوفيّة. وقد كانت الخانقاهات (والرّباطات أيضا) الصّوفية الإيرانية (مثل خانقاه طوس التي أسّسها الغزالي) إطارا للعبادة والاعتكاف و"الهروب من حياة الدّنيا" وليس لها أية علاقة بالحرب ومهنة الأسلحة[134]. وينسب نظامها عادة إلى الصّوفي أبي سعيد (تـ. 440 هـ/ 1048) الذي جعل لها قانونا يتضمّن عشر قواعد (مثل شروط الرّباط)[135]، منها قانون التدرّج في "التصوّف" الذي يذكّرنا بتدرّج الغدامسي في رباط المنستير. وقد أنتشرت هذه المؤسّسات منذ القرن الحادي عشر الميلادي في المناطق الغزنويّة، وكذلك في الهند الاسلامية منذ القرن الثالث عشر، بعد هجرة النخب الايرانية إثر الغزو المغولي[136]. كما عمل السّلاجقة والحكومات المتفرّعة عنهم (الزّنكيون، الأيّوبيون) على نشرها في الشام ومصر والاناضول. ومع مجيء القرن الثالث عشر ستقترن الطرق الصّوفية بجلّ مظاهر الحياة الاجتماعية والثّقافية في كافّة أنحاء العالم الاسلامي، وهو تطوّر مهّدت له المرابطة التقليديّة، بشكلها "الرّباطي" والكرامي على حدّ السّواء. وهو ما يفسّر الجسور التي مدّها مؤلفوا طبقات الصّوفيّة المتأخرين بينهم وبين نسّاك الرّباطات، في إطار حركة التّشريع للماضي الذي عرفها الفكر الاسلامي السنّي - الأشعري. كما يفسّر أيضا تسمية "المرابط" (ومنها *marabout*) التّي كان ينعت بها المريد في العصر الحديث، وكذلك "مرابطية" إسلام إفريقيا السّوداء الذي انتشر هو أيضا بالطرق السلميّة.

وكانت الخانقاهات تسمّى ايضا رباطا في المناطق الايرانية، وخاصّة بغداد التي برزت فيها أقدم الرّباطات الحضريّة الصّوفيّة[137]. وفي مصر والشّام كان نفس المعلم يسمّى أيضا في آن واحد رباطا وخنقاه، ونادرا زاوية (أي المصطلح الذي كان شائعا في

134) وفي هذه المنطقة ظهرت أيضا أوّل المدارس السنيّة (نيسابور) التي أسسّت لتدريس الفقه، وكردّة فعل ضدّ بيت الحكمة المعتزليّة - الشيعيّة. وقد كان النموذج أيضا بوذيا (الفيرهرا *Vihara*). كما كانت هذه المنشآت في بعض الاحيان مراكزا للحلقات الصوفية. انظر : Bulliet, The patricians of Nis-hapur, Cambridge 1922, p.24 ; C. Chebbi, "*Ribat*" p. 520.

135) M. Achena, *Les etapes mystiques du Shaysh abù Saïd*, Paris 1974, p. 36, 324

136) K. A. Nizami, "*Some aspectes of Khanaqah life in medieval Indina*, S. I, VII, 1957, p. 51 - 59 ; C. Chebbi, "*Ribat*", p. 521.

137) C. Chebbi, "*La fonction du ribat de Baghdad du Vème. S au début du VIIème*. S", R.E.I, XLII, 1, 1974.

المغرب). وكانت هذه المعالم - التي يوجد بها في بعض الأحيان ضريح المؤسّس[138] - مختلفة جدّا من النّاحية المعماريّة، على أنّها كانت -مثل الرّباط- تشتمل على قاعة صلاة ومحلاّت لإيواء المريدين والمسافرين. ويذكر المقريزي (ت. 845 هـ/ 1442م) أنّ القاهرة كانت تعدّ في عصره 23 خانقاه، 12 رباط و26 زاوية[139]. وكان بدمشق في القرن السادس عشر الميلادي 29 خانقاه، 26 زاوية و21 رباطا[140]. ويؤكّد هذا التواصل المغربي ابن بطّوطة (ت. 779 هـ/ 1377م)، فهو يستعمل كلمة زاوية (المغربيّة) لنعت كلّ هذه المنشآت، بما في ذلك "خانات" المسافرين ومقرّات منظّمات الأخيس (المرتبطة بالفتوّة)[141] في الاناضول (في حين أنّ التسمية التقليديّة في هذه المنطقة هي التكيّة). على أنّه لجأ إلى مصطلح "رابطة" بالنسبة لمسجد مقدّس (مزار) ينسب للنّبيّين الخضر وإلياس، في منطقة صنوب[142]. وقد سبق أن أشرنا آنفا أنّ ابن جبير الأندلسي (ق. 12م) ذكر أنّ "الرّباطات تسمّى خانقاهات في سوريّة"[143]. وقد أكّد المقدسي قبله أنّ متصوّفة السّوس الايراني كانوا يعقدون مجلسهم في المسجد الجامع، ويرابطون بحصون عبدان البحريّة[144]. وهي مرابطة بمعنى المجاورة، والجهاد هنا هو "المجاهدة الصّوفيّة" (الجهاد الأكبر - مجاهدة النفس)، وقد اكّد ذلك الصّوفي الكبير السّهروردي (قتله الآيوبيون سنة 622 هـ/ 1239م)، صاحب نظريّة الفيض (شيخ الاشراق)، في الفصول التي خصّصها "لشروط الرّباط"، وهي نفسها "شروط الخانقاه" التي سبق أن عدّدها أبو سعيد الصّوفي[145].

---

138) كان يوجد في بعض الأحيان بالخناقاه مقبرة يحجّ لها.

139) المقريزي، *الخطط والمواعظ*، بولاق 1850، II، ص. 414 - 436 .

140) عبد القادر النعيمي، تنبيه *الطّالب وإرشاد الدّارس*، القاهرة 1948 ، ص, 50

141) Cl. Cahen, *Pré-ottoman Turkey*, Londres 1968, p. 196 -200, C. Chebbi, "Ribat", p. 522. انظر أيضا دائرة المعارف الاسلامية (المقالات : *Futuwwa, Abadan*)

142) ابن بطّوطة ، ص. 319 ، 326 .

143) ابن جبير ، ص. 256 ، 330 .

144) المقدسي ، ص 415 . وقد أسّست عبدان على ضفاف شط العرب في القرن VIII - IXم على يد النّاسك عبّاد بن الحسين لتكون مركز مرابطة ، وهي تسمية تذكّرنا بالعبّاد الجزائرية . كما كان هذا الحصن - تماما مثل حصن لمطة - متاخما لملاّحة يمتار منها أهل البصرة وواسط. انظر : *ديوان أبي العتّاهية* ، ص 218 L. Massi-gnon, Essai, P. 135 ; L. Lockhart, art. *Abadan*, *E.I*, I, p. 5.

145) الفصول 13 - 18 "شروط الرّباط" من "*كتاب عوارف المعارف*" . انظر : C. Chebbi, "Ribat", p. 521

رباطات الغرب الاسلامي

رباطات صقلية

تعتبر صقليّة، مع بلاد ما وراء النهر وسوريّة وإفريقيّة، من أهمّ مناطق المرابطة في العالم الاسلامي. على أنّه خلافا لقدامة بن جعفر الذي تحدّث بصفة عامّة عن تعدّد الثغور، فإنّ المقدسي إعتبر سواحل الجزيرة "ثغورا جليلة ورباطات فاضلة"[146]. ويبدو أنّ هذه المنشآت كانت أداة لتوطين جزء من قدماء المحاربين، فقد ذكر الدّاودي ضمن رباطات صقلية "قلعة بينها وبين البحر ثلاثة أميال كانت خرابا في فتح البلد وعمّرت بالمسلمين"، فأجبرتهم السلطة الأغلبيّة على قطع الخشب لصالح دور الصّناعة (الذي اعتبر جهادا) مقابل تمتّعهم بالأراضي التي وقع إحياؤها"[147]. فهذه المرابطة - رغم إتّصالها بالحرب - ليس لها أيضا علاقة بالجهاد الكلاسيكي. أمّا ابن حوقل فقد ذكر أنّ بصقليّة "رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرّياء والنفاق والبّطالين والفسّاق متمرّدين شيوخ وأحداث أغثاث رثاث قد عملوا السجّادات منتصبين لأخذ الصّدقات وقذف المحصنات نقم منزلة وبلايا شاملة وحتوف مصبوبة منصوبة وأكثرهم يقودون ومنهم من لا يرى ذلك لشدّة الرّياء والسمعة. واكثرهم بالزّور تطوّعا يشهدون مع جهل، لا يفرّق فيه بين فرض الوضوّ وسنّته، ويقصدهم من أعوزه المكان لبطالته والموضع لعيارته فيؤوونه، وربّما شاركوه بتافه من المأكول على أحوال يقبح ذكرها، وليس هذا الكتاب ممّا يذكر فيه مثلها. وأحسب أنّ تأسيسها كان على غير التقوى حسب ما أسّست عليه المساجد المتقدّم ذكرها، فهارت وباد أهلها بما جنوه من الفتن والعصيان وشقّ عصا السلطان والله أعلم"[148]. والمساجد "المتقدّم ذكرها" هي بدون شك الرّباطات التي وصفها ابن حوقل في المشرق، ممّا يؤكد مرّة اخرى دورها الدّيني، ولكن يبدو أن حصون صقلية فقدت حتى هذا الدّور، وتحوّل مرابطوها - مثل غزاة بلاد ما وراء النهر - الى قطّاع طرق ومتمرّدين.

---

146) ابن خرداذبة ص. 265-266 ؛ المقدسي ص. 215 C. Chebbi, "Ribat", p. 519

147) الدّوادي، كتاب الأموال، نشر حـ. حسني عبد الوهاب وفرحات الدّشراوي ضمن : Etudes d'orientalisme dédiées à Levi-Provencal, Paris 1962, II, p. 416

148) ابن حوقل، ص. 73 انظر أيضا : A. Miquel, op.cit, IV, p. 55 ; C. Chebbi, "Ribat", p. 519

رباطات الأندلس

أكّد المقدسي أنّ أهل الأندلس كانوا - مثل أهل المغرب - في حالة جهاد دائم، لكن ابن حوقل لا يذكر أيّ رباط في المنطقة التي توجد فيها الثغور الثلاثة الواقعة على تخوم الممالك النصرانية. كما أكّد أن الجيوش "المرابطة" بثغر الجلالقة Galice "ليس لهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسيّة وقوانينها وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال فإنّ أكثر حروبهم تتصرّف على الكيد والحيلة ومارأيت ورأي غيري بها إنسان قطّ جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الرّكابين، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم السقوط وبقاء الرّجل في الرّكاب"[149]. ويبدو أن بعض المواقع التي مازالت تسمّى منستير كانت مراكز مرابطة مثل غردمار Gardamar شرق الأندلس التي تمتاز بعمران يشبه عمران منستير الساحل الافريقي[150]. ويرى جورج مرسيه أنّنا نجد ذكرى الرّباط في المواقع التي مازالت تسمّى: Rapita, Ravita, Rabida, Monastreli, Almonaster[151]. وفي الحقيقة ترتبط هذه التسميات-بأستثناء Monastrell - بالرّابطة، وهي مؤسّسة دينية[152] لعبت نفس الدّور الذي لعبته الخانقاه الكراميّة في بلاد ماوراء النهر، وليس لها علاقة مع الحرب، رغم وجودها على ضفاف البحر. ومن أشهر هذه المنشآت رابطة المرية (رأس قاطا Gata) ورابطة التّوبة (في جبل طارق، في نفس الموضع الذي يوجد فيه اليوم دير الرّابطة Rabita)[153].

رباطات المغرب الأقصى

لقد أسبغ إبن حوقل -لأسباب نجهلها- وضعا مثاليّا على المغرب. لكن يبدو أن بعض رباطات المغرب الأقصى لعبت دورا عسكريا قبل العصر الموحّدي نتيجة لنشاط

---

149) المقدسي، ص. 233 ؛ ابن حوقل، ص. 113 ؛ C. Chebbi, *"Ribat"*; p. 520

150) M. De Epalza, *"al-Munastir d'Ifriqiya et al-Munastir de Xarq al-Andalus"*, in *Actes du VIIeme colloque universitaire tuniso-espagnol, Cahiers du Ceres*, Tunis 1980, p. 100 sq.

151) G. Marçais. *"Notes sur les ribats"*, p. 30

152) مازال الدّير يسمى *ràbita*

153) حول الرّابطة في الاندلس انظر : T. Balbas, *"Rabitas hispanomusulmanas"*, *in al-Andalus*, XIII, 1948, p. 475-91 ; O. Asin, *"Origin arabè de rebato, arrobada y suo homonias"*, in *Boletin de la Real academia espanola*, XIV, 1928, p. 50 ; E. Levi-Provenacal, art. *"Rabita"*, E.I, VIII, p. 372 ; C. Vallameva, *"Rabitas granadinos"*, in *Miscelanea de estudios arabes y hebraïcas*, 1954, III, p. 79-86. على أن كلمة *rebato* الاسبانية (الأعجمية) عني أيضا الغزوة، ممّا يدل على أن الأندلس حافظت بصفة متأخرة على المدلول القديم للرّباط (الحرب القبليّة).

نسّاك المالكيّة. لكنّها كانت خاصّة مراكز للدّعوة الاسلامية السّلمية، وهي حركة تبشيريّة دشّنتها على ما يبدو فرقة المعتزلة منذ القرن الثاني للهجرة، ممّا جعل مذهب واصل بن عطاء يغلب على قبائل منطقة طنجة التي أعانت - خاصّة أوربة - الأدراسة على الاستقرار في المغرب سنة 788 هـ/ 172م. وقد دفن مؤسس الدولة - إدريس الأول - برباط يوجد خارج فاس (ضريح مولاي إدريس الحالي)[154] بعد أن قتل، بأمر من هارون الرّشيد، سنة 175 هـ/ 791م. ويعود تأسيس أشهر رباطات المغرب - رباط سالة - على ما يبدو إلى هذه الفترة، وكان يحتل موقع قصر بني ترقا، على وادي أبي الرّقراق. وذكر ابن حوقل أنّ "عليه المدينة الأزليّة المعروفة بسلة القديمة وقد خربت، والنّاس يسكنون ويرابطون برباطات تحفّ بها. وربّما إجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة قبيل من قبائل البربر علي المحيط متّصلين بهذه الجهة التي سقت عمارة بلد الاسلام إليها يغزون ويسبون". [155] كما أسّس المرابطون بهذا الموضع رباطا في القرن الخامس للهجرة (11م) موجّها علي ما يبدو ضدّ "كفرة" الشّاوية، ويبدو أنّ هذا الرّباط هو نفسه مدينة سالة الحالية، ذلك أنّ جزء من سورها مشيّد بالغشيم (الطّراز المرابطي)[156]. وبعد نهاية الحرب مع برغواطة (545 هـ/ 1150م) تحوّل الرّباط الأوّلي إلى حصن (رباط الفتح - مدينة الرّباط الحالية) إستعمله عبد المؤمن بن علي لحشد الجنود المعدّة لحروبه في الأندلس[157].

كما لعبت "دار المرابطين" في السوس أيضا دورا حربيّا ودعائيا[158]، ويبدو أنّ دعوة المرابطين التي انطلقت من رباط أخر بقع علي ضفاف نهر السينغال تأثّرت بهذه الحركة[159]. وقد انطلق الموحدّون من رباط تازة (ق.VI هـ/ XIIم) لطرد المرابطين من

154) E. Eustache, art. *"Idris Ier"*, *E. I*, IV, p. 1057

155) ابن حوقل، ص. 81-82 . وكانت مواطن اتباع برغواطة (من البربر المصامدة) في سهول تامسنا وريف الأطلسي، من سالة وأزمور وأنفا (الدار البيضاء) وأسفي. وقد قضي الموحدون في القرن السادس للهجرة على هذه الدّيانة التي أسّسها طريف بن صالح، والتي كانت خاصّة ردّة فعل على سياسة العرب "العنصريّة" تجاه البربر. حول برغواطة انظر خاصّة : أ. بل، الفرق الاسلامية في الشمال الإفريقي، بيروت 1989، ص. 173 ؛ M. Talbi, *Etudes, passim*

156) E. Levi-Provençal, art, *"Ribat al-Fath"*, E.I, VIII, p. 524 ; H. Terrasse, *L'art hispanomau-resque*, p. 292 ; G. Marçais, *Architecture*, p. 221, C. Chebbi, *"Ribat"*, p. 520

157) G. Marcais, *Architecture*, p. 221

158) مقديش، I ، ص. 126 "انقال في المغرب قرية يقال لها دار المرابطين".

159) H. T. Norris, art.*"Muràbitun"*, *E.I.*, V

الحكم والحلول مكانهم. ومن رباطاتهم رباط تيت (أو طيط) الواقع على ضفاف الأطلسي، على بعد 12 كلم جنوب - غرب مزاغن. وهو مدينة محصّنة (مولاي عبد الله الحالية) أسّست بعد نهاية الحرب مع برغواطة، في مكان لا تصله الحملات المسيحيّة. وتقع قصبة الرّباط قرب البحر، وقد استغلّ في بنائها طبوغرافية المكان كأحسن ما يكون. ويدعّم جدارها البحري ستّة أبراج (طوليّة ونصف دائرية) مشيّدة بالحجارة الصغيرة، كما يوجد علي مقربة منه منار مثمّن[160]. ومن رباطات المغرب الموحّدية حصون أرزلة وكوز ونكور. وقد أرتبط رباط الفتح في العهد المريني بمقبرة شالة التي احدثت على انقاض مدينة Sala Colonia - القديمة. وكانت هذه المدينة - المقبرة تدعى *رباطا* (ويسمّيها ابن أبي زرع زاوية)، وذكر ابن خلدون أن سلاطين فاس حبّسوا عليها عدّة أراضي كانت عائداتها تصرف لصيانة معالمها ودفع *جرايات* القرّاء الذين يرابطون بها. ويحيط بهذا الرّباط - المقبرة سور خاصّ (مشيّد بواسطة الطّابية) تدعّمه أبراج طولية (عرضها 3 - 4م) ويتخلّله باب متعرّج يفضي إلى الدّاخل، حيث تقع الخلوة التي تذكّرنا برباط السيدة بالمنستير. ويحتوي هذا المركّب المحاط بدوره بسور خاص على قبور أغلب أمراء بني مرين[161]، ومسجد يعلوه منار، وعدّة غرف للقرّاء وسبيل وزاوية[162]. وفي العهد المريني تطوّرت في المغرب أيضا الرّابطات، وهي منشآت مخصّصة للعبّاد وليس لها علاقة بالحرب[163].

(160 H. Basset et Henri Terrasse, *Sanctuaires et forteresses almohades*, p. 337-376 ; G. Marçais, *Architecture*, p. 222

161) خاصة قبور عبد الحق (تـ. 1308م)، أبي الحسن (تـ. 1348م).

(162 G. Marçais, *Architecture*, p. 282-83, 320.

163) انظر ما كتبه G.S. Colin في مقدمة الترجمة الفرنسيّة لمؤلف عبد الحق البادسي : "*المقصد الشريف والمنزع اللّطيف عن ذكر صلحاء الرّيف*"، مجلّة *Archives Berbères*، باريس 1926، ص. 240.

الفصـل الثانــي

رباطـات شمـــال إفـريقيـــة

رباطات تونس (شـ . 1 ، 2)

برز دور مدينة تونس العسكري والسياسي[1] منذ بداية العهد الاسلامي، لمّا جهّزها حسّان بن النعمان (أيام عبد الملك بن مروان) بدار صناعة تتصل بالبحر بواسطة قنال اصطناعي (قنال حلق الوادي أو فم الوادي)[2] . وتذكر مصادر العصر الوسيط عدّة قصور محصّنة كانت تحمي الشريط السّاحلي الممتدّ بين قصر الأمير (حلق الوادي)[3] وقصر جبل المنار (سيدي بوسعيد) أهمّها : قصر قومش (قرب المواني البونية)، وقصر رباط أبي سليمان[4] ، وفي الشمال كان يوجد قصر رباط قمرت[5]. ويبدو أنّ منارة قصر قرطاجنة التي ذكرها التيجاني كانت أيضا مرتبطة برباط بيرصة.

قصر رباط جبل المنار (سيدي بوسعيد) (شـ. 4)[6]

يعود تأسيس هذا الحصن الذي كان يعلوه برج مراقبة (منار) الى الفترة الأغلبية[7] في منطقة لعبت دورا عسكريا هامّا منذ الفترة البونية

---

1) حول تاريخ مدينة تونس ومعالمها العسكريّة أنظر خاصّة :
R. Brunschvig. art."*Tunis*", E.I. anc. edit., T.IV, 1931, pp. 81-88 ; A. Daoulatli, *Tunis sous les Hafsides*, Tunis 1976 ; G. Marçais, *Tunis et kairouan*, Paris 1937 ; A. Lezine. *Deux villes d'Ifriqiya, Sousse et Tunis*, Paris 1971 ; S. M. Zbiss. *Les monuments de Tunis*, Tunis 1971 ; N. Djelloul, *Les fortifications côtières ottomanes*, Zaghouan 1995, T.I, p. 105-156 ; ID, "*Les fortifications de Tunis à l'époque attomane*", in A.H.R.O.S. 7-8, 1994, pp. 163-204.

2) وقد كان يحمي هذا القنال قصر محصّن يتوسّط جزيرة شكلي. وعلى أنقاض هذا القصر أقام الاتراك ثم الاسبان قلعة شكلي الحالية. انظر في هذا الصدد . عبد العزيز الدّولاتلي، "أضواء تاريخية على بحيرة تونس"، المجلّة *التاريخية المغربيّة*، III، 1975، ص 30 --36 ; M. Gandolphe, *Histoire de Chekly*, Tunis 1941 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 134-135.

3) إلى جانب قصر الأمير كان مدخل هذا القنال - الميناء الذي احدثه حسّان بن النعمان محميّا بواسطة سلسلة حديديّة. البكرى، ص 84 ؛ الادريسي، ص 131 ؛ هادي روجي إدريس، II، ص 438 ; Van Ghisthèle, p. 165 ; A. Adorne, p. 184 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 130.

4) وقد كان قصر رباط أبي سليمان مزوّدا بدوره بمنار، تماما مثل رباط بيرصة البكري، ص 43 ; N. Djelloul, op.cit, I, p. 150

5) حول استحكامات هذه المدينة - الرّباط (المحصّنة) التي خرّبها الاسبان سنة 1535 انظر خاصّة : البكرى، ص 44 ؛ الادريسي، ص 124 ؛ الزركشي، ص 93 ; N. Djelloul, op.cit, I, p. 154

6) حول تاريخ سيدي بوسعيد انظر خاصّة :
L. Feuille et G. Lemonier, *Sidi Bou-Saïd, faubourg de Carthage*, Tunis 1936 ; A. Pellegrin, "*Sidi Bou Saïd*", *in Bulletin economique et social de Tunisie*, 107, 1955, pp. 123-146 S. M. Zbiss, *Sidi Bou Saïd*, Tunis 1971 ; N. Djelloul, op.cit, I, p. 152.

7) N. Djelloul, I, p. 152-153.

Megara[8] . وقد أصبح هذا الرّباط في العهد الحفصي من أهم المراكز التي يرتادهاالمتصوّفة، مثل أبي سعيد الباجي (تـ. 628 هـ / 1236 م) الذي أعطي إسمه لهذه المنطقة وسيدي الظريف (تـ. 787 هـ / 1385 م)[9] . وقد كان هؤلاء النسّاك الذين يعقدون حلقاتهم على السفح الجنوبي للهضبة (كرسيّ الصلاّح) يهتمّون أيضا بمراقبة خليج قرطاج وبحشد المتطوّعة لحماية السواحل ضدّ هجمات الأساطيل المسيحيّة. وقد لعبوا دورا رياديّا أيّام حملة القديس لويس التاسع[10]. كما لعب الحصن (الذي أدخل عليه ابو العباس (1370 - 1394 م) وأبو فارس (1370 - 1390م) عدة تحويرات، ممّا جعله يتّسع لأكثر من ثلاثمائة مرابط)[11] دورا هامّا أيام الصّراع العثماني الاسباني، ولكنه أندثر في القرن الموالي. أمّا الناظور الحالي، فهو مقام على أنقاض البرج الدّفاعي الذي أحدثه في نفس الموقع علي باشا في منتصف القرن الثامن عشر[12]

قصر رباط رادس (شـ. 1)[12] ب

تقع رادس (مكسولا Maxula الرّومانية) على ضفاف نهر مليان، على بعد عشرة كيلومترات جنوب شرق مدينة تونس. وتتدرّج المدينة العتيقة التي يعود تأسيسها الى الفترة النّوميديّة على سفح هضبة تشرف على البحر (منطقة الأمراح الحاليّة)[13] ، ممّا جعلها تلعب بصفة مبكرّة دورا عسكريّا بارزا. وبما أنّ الفاتحين العرب اختاروا في أوّل أمرهم الاستقرار بتونس، بعيدا عن خليج قرطاج (المستهدف بأستمرار لحملات البحريّة البيزنطيّة)، فقد قاموا منذ القرن الأول للهجرة (VIIم) بإحداث رباط برادس التي كانت تشكّل آنذاك المنفذ البحري الوحيد للمرفأ الجديد. ولتشجيع المرابطين على

---

8) حول قصر مرسى ابن عبدون (المرسى) أنظر : البكرى، ص 44 ؛ هادي روجي إدريس، II، ص. 430 ؛ N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 154.

9) L. Magnin, "Les exhortations d'al-Dhriff, soufi tunisien du VII/XIVe siècle", in I.B.L.A., 1950, pp. 375-387.

10) حول الدّور الذي لعبه المتصوّفة إبّان هذه الحملة انظر : S.M. Zbiss, *op;cit*, p. 19

11) S.M. Zbiss, op.cit, p. 20 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 153

12) N. Djelloul, op.cit, I, p. 154

12) البكرى، ص. 37-38 ؛ التيجاني، ص 5-6 ؛ هـ روجي ادريس، II، ص. 44 ؛ N. Djelloul, *Les fortification*, I, p. 156.

13) عثر على تماثيل رومانية تمثّل الالهة أبولون ومينارفة (متحف باردو) في أعلى الهضبة التي كان يوجد بها معبد الكابيتول.

الاستقرار بهذا القصر، الذي يعدّ من أقدم حصون افريقية، وضعت في شأنه - كالعادة - العديد من الأحاديث النبويّة[14] .

ويذكر التيجاني أنّ الرّوم أغاروا على رادس "في ولاية عبد الملك بن مروان في مراكب لهم فقتلوا من بها وسبوا وغنموا ولم يكن للناس إذ ذاك شيء يحصّنهم(؟) فبلغ أمرها من المسلمين كلّ مبلغ فأنتقل إليها أمير إفريقية حسّان بن النعمان الغسّاني فأقام مرابطا بها وكتب بذلك إلى عبد الملك وأرسل مع كتابه أربعين رجلا من أشراف العرب يخبرونه بما نال المسلمين من الجهد فعظم ذلك عليه، وكان التّابعون إذ ذاك موفورين وفيهم من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم زيد بن ثابت وأنس بن مالك فقالا لعبد الملك : أمد هذه البلاد وأنصر أهلها ليأمنوا من العدو فإنّها من البلاد المقدّسة المرحوم أهلها. فبعث عبد الملك الى أخيه عبد العزيز وهو أميره على مصر يأمره بأن يوجّه الى حسان ألف قبطي وألف قبطيّة يستعين بهم فحملهم عبد العزيز في البرّ فلما وصلوا الى حسان أثبت كثيرا منهم في رادس وفرّق باقيهم في مراسي تونس. وأمر عبد الملك حسّانا أن يحفر البحر الى تونس من جهة رادس. . . فحفره حفرا وخرقه الى أن وصل الى دار صناعتها وأنشأ فيها مراكب كان يغير فيها الى ساحل الرّوم"[15] .

ويستدّل من قول التيجاني أنّ احداث دار صناعة تونس وميناء حلق الوادي كان نتيجة لهذه الحملة البيزنطية، وهو مايؤكده أغلب المؤرخين المسلمين[16] . ولكن احداث هذه القاعدة الجديدة لم يؤدي إلى تراجع الوظيفة العسكريّة لقصبة الرّباط، التي كانت توجد في منطقة الأمراح أيضا، غير بعيد عن زاوية سيدي بويحي[17] . كما أنّ مكانة الحصن تدعّمت أيام محمد بن الأغلب الذي احدث به مجموعة من المراقب التي استخدمت لمراقبة الخليج وكمراكز للبريد الرّسمي. وقد لعبت دورا حاسما في

---

14) التيجاني، ص. 5-6 : "ولم تزل رادس في القديم رباطا مشهورا بالفضل، وقد روى أبو عبيد في المسالك (ص. 37) عن زيد بن ثابت وأنس بن مالك أنهما قالا : من رابط برادس يوما واحدا فله الجنّة. وذكر أبو إسحاق ابراهيم بن الرقيق في تاريخه : ان علماء المشرق وفقهائه، كتبوا إلى أهل إفريقية : من رابط عنّا برادس يوما واحدا حججنا عنه حجّة. . . وقد روى أن السّفينة التي هي مذكورة في القران انّما خرقها الخضر ببحر رادس، هذا وأنّ الملك الذي كان يأخذ كلّ سفينة غصبا هو الجلندي ملك قرطاجنة. . . وهنالك فارق الخضر موسى عليهما السلام".

15) التيجاني، ص. 5-6

16) N. Djelloul, op.cit, I, p. 134-135

17) بنى هذه "الزّاوية" سيدي بويحي التي تجعل منه الزّاوية الشعبيّة أحد أقارب الرّسول.

عهد الصنهاجين، وحالت دون سقوط تونس في يد النورمان. على أنّ القلعة (قصبة الرّباط) التي تذكرها أغلب المصادر الحفصيّة[18] سوف تندثر في العهد العثماني، وهي الفترة التي تراجع فيها أيضا عمران المدينة[19] .

ب. قصر رباط الحامّة[20]

يفهم من بعض تراجم المالكي أنّ حصن الحامّة (أو حامّة الجزيرة، المعروفة حاليا بحمّام الأنف) كان أيضا قرية محصّنة، تحميها قصبة يأوي إليها أمين القصر والتجّار والمسافرون[21] . وقد اشتهرت في العصر الوسيط "بمائها المفرط السّخانة والموصوف بإبراء ذوي العاهات"[22] . وهي توافق بدون شك موقع نارو Naro البونية الرّومانية، ويستدلّ من هذه التسمية العتيقة أنّ قربها من جبل بوقرنين جعل منها موقعا ممتازا لمراقبة البحر، وهي أيضا احدى وظائف الرّباطات الإسلاميّة. وقد انقرضت هذه القرية في العهد الحفصي، تماما مثل ابيانة المجاورة لها[23] .

ومن أشهر مرابطي الحامّة، عمرون الأسود الحامّي (ت. 339 هـ)[24] ، وهو غير أبي بكر عمرون المتعبّد (ت. 378 هـ) المترجم له في المعالم[25] . ويذكر المالكي أنّ الأمير الأغلبي ابراهيم بن أمحمد لمّا سمع الكثير عن كراماته سافر إليه وسأله "ألك حاجة في خاصّتك أو عامّة بلدك نأتي عليها فوق إيثارك ؟ فقال له : ليست لي حاجة ولكن ابتغ فيما أتاك اللّه الدّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدّنيا"[26] . وذكر الشيخ أبو الحسن السبائي أنّ "أبا الحسن بن تمام الأجدابي - رجل من التجّار- أخبره أنّه خرج مع أبيه وهو صغير إلى تونس

---

18) ر. برنشفيك، I، ص 332 ؛ B. Ruffino, p. 464, L. Marmol, II, p. 464 ; Van Ghistèle, p. 165 ؛ N. Djelloul, *Fortifications* I, p. 156 ؛ التيجاني، ص 5 "ورادس هي المنزلة الأولى للمحال والعساكر (في العهد الحفصي) دائما إذا خرجوا من تونس لا يتجاوزونها الى غيرها... وهي قرية قديمة الرّسم، وبها كروم كثيرة ومزارع متسعة وجامع للخطبة عتيق وابتني بها وقتنا هذا جامع أضخم منه الاّ أنّ الخطبة لم تنتقل إليه".

19) الوزان، II، ص. 82 "كانت قديما عامرة بالسّكان ومتحضّرة جدّا، ولكن لم يبق بها الاّ بعض الفلاّحين الذين يزرعون الكتّان ولا يحصدون غيره".

20) المالكي، II، ص. 378 ؛ البكرى، ص 45 ؛ هادي روجي ادريس، II، ص. 436، N. Djellooul, op.cit, I, p. 156

22) التيجاني، ص 5-6

23) N. Djelloul, op.cit, I, p. 156. حول المدينة الرّومانية وبيعتها اليهوديّة، انظر : P. Monceaux, "*Les colonies juives de l'Afrique romaine,*" *Cahiers de Tunisie*, XVIII 1970, p. 163-167.

24) المالكي، II، ص. 377

25) ابن ناجي، III، ص. 126

26) المالكي، II، ص. 378

من القيـروان. . . فباتوا في الحصن الذي كـان فيه عمـرون الحامي، فذكر أنّ أباه عـمد إلى المبيت في سقيـفة الحصن وجعل فـرشه خلف الباب بعـد أن غلق. وذكر أنّه اجتمـع تمام بعمرون في داخل القصر بعد أن غلق، فلّما كان في السّحر سمع آذان عمرون خارج القصر والباب مـغلق بعد لم يفتـح، ثمّ فتح الباب وخـرجوا الى عند عمـرون فوجدوه عند شـجرة لوز". [27] وذكر أبو علي بن حمّود التونسي أن عبيد اللّه المهدي "أخرج من المهديّة صقلبيّا له عنف وسلطنة، ووجّه معـه عسكرا لحشد الزّويليـين والبحرّيين فحشـد من تونس وباديتها وصطفورة خلقـا عظيما، وجاز بهم على قـصر الحامّة، فوجـد قوما من أهل القصـر يسقون على البئـر فقرمـهم فجرى أهلـوهم إلى عمرون مـستغـيثين به، فـخرج عمـرون وقطع قدّام الصقلبي الخيل وأشار بعصـاه، فأنهزم الصقلبي فلم يردّهم ردّ إلى منزل بني صلتان[28]، وهي فحوص على مسيرة ميل. . . ووصل الصقلبي إلى المهديّة وليس معه أحد من المحشودين. فقـال له السلطان : وأين الحشد ؟ فقـال الصقلبي : حشـدت خلقا عظيما، فلمّـا قربت من مرسى الحامّة خرج منهـا شيخ وبيده حربة قد أنتهت إلى السّماء، فصاح صـيحة وأشار بها، فما جمع الـلّه منّا واحدا وأفترق الحشد. . ونزل بالقـصر رجل غريب محتار ومـعه زوجته، وهي حامل، فـأتى الرّجل إلى جماعة الـقصر وقال لهم : إن لي إمـرأة حاملا وقد أشـتهت حوتا، وليس عندي ما أشتريه به. . . فجاء عمرون المتـعبّد، فأخبروه بالخبر، فدعا بالرّجل ونزل معـه حتّى إذا بلغا ذلـك السمّار الذي بين البـحر والقصـر قطعا سـمارتين ومضـيا إلى البحر، فما كان بأوشك أن طلع الرّجل وفي كلّ سمارة حوت كبير يثقل الانسان". [29]

رباطات صطفورة (شـ. 5)[30]

كـانت منطقـة بنزرت تعـرف في العـصر الوسـيط بأسم كـورة صطفـورة ؛ ومن أهم مدنها: بنزرت (عاصـمة المقاطعة)[31] وتينجة وأنبلونة (سيدي أحمد بوفارس). وتوجد أغلب الرّباطات الأغلبـيّة علي الشريـط السّاحلي الممـتدّ من بنزرت إلى رأس قـمرت :

27) *نفس المصدر*، II، ص 379
28) حاليا صلتان. انظر التيجاني، ص 22
29) المالكي، II، ص 383
30) حول صطفورة في العصر الوسيط انظر خاصّة، هادي روجي إدريس، II، ص 438
31) حول تاريخ بنزرت انظر : L. Salvator, Bizerta, Prague 1881 ; H. Bouita, *Bizerte : les monuments islamiques*, Tunis 1992 ; C. Hannezo, "*Monographie de Bizerte*", in *Revue Tunisienne*, XI, 1904, pp.193-332 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 158

بنزرت[32] ، حصن أبي المـهزول ورباط أبي صـقر. ويتفـرّد المالكي بالحـديث عن قلاع بنزرت، "وهي حـصـون يأوي إليـهـا أهل تلك النّـاحـيـة إذا خـرج الـرّوم غـزاة إلى بلادهم. . . وهي رباطات للصّـالحـين". [33] وأهم هذه القلاع : [34] قلعـة أبي خليفـة (الرّأس الابيض) ودرنة (سيدي مشرق).

حصن أبي المهزول

ينسب هذا الرّباط إلى أبي محمّد عبد اللّه بن أبي الـمهزول المتعبّد (ت. 339 هـ). وكان يوجـد حسب المالكي "بمـرسى الياقوتة بناحـية بنزرت" [35] ، ويفهم من مـسالك البكري ونزهة الـمشتـاق للادريسي أنّ هذه القـرية المـحـصنّة (الرباط) تـقع بين بنزرت ورأس الجبل، غير بعيد عن مراسي بني وجّاص والوادي وقملاريّة . [36]

وتنسب كتب الطبقات الى أبي المهزول الـعديد من الكرامات، فقد ذكر ربيع القطّان أنّه "لا يقرأ البـسملة في صـلاته. وكان مؤذّن مـسجده لا يقـول في آذانه : "حيّ على خير العمل" [37] فأنتشر ذلك عنه وفشا حتّى فشا الأمر الى السلطان. . . فبعث ابن زريق ليشهد على فعلهما ويعاتبهما. . . فقال المؤذن لابن أبي المهزول : نترك الأذان ؟ فقال له الشيخ : لا تفعل، فـإنّي سألت اللّه عزّ وجلّ أن يميتنى وإياك قـبل أن يبتلينا بأمر من عندهم. فأتى كـتاب الملعون السلـطان بقتلهـما والناس منصرفون من جنازة أحـدهما، وقـد دفنا جمـيـعا أحـدهما بعـد الأخـر. . وذكر أبو إسـحاق الـسّبّـائي أنّ ولد ابن أبي المهزول سـقط من فوق القصر الى أسفل، فـقام ابن أبي المهزول إلى الصـلاة لمّا سمع بخبره، فسلم الصـبي من وقعته وقام يمشي على رجليه وقام يجـذب بثوب أبيه ويقول: يا أبي هذا أنا". [38]

---

32) يرجح أن يكون مركز الرّباط مكان برج الاندلس الحالي. انظر N. Djelloul, *op.cit,* I, p. 172

33) البكرى، ص. 57-58.

34) N. Djelloul, op.cit, I, p. 158

35) المالكي، II، 376.

36) إضافة الى المدن الرئيسية الثلاث تذكر مصادر العصر الوسيط : مرسى الياقوتة - مرسى بني وجّاص (قرب جزيرة قملاريّة)، مرسى الوادي، قصر ترشة داود، قصر صونين، مرسى رأس الجبل، مرسى الثنيّة، رباط أبي صقر، مرسى رباط قصر الحجّامين، قصر جالّة وقصر جردان. البكرى، ص. 75، الادريسي، ص. 114-115 ؛ هادي روجي إدريس، II، ص. 436

37) حيّ علي خير العمل (الحيّ علا) التي حذفها عمر بن الخطّاب من الآذان واحتفظ بها الشّيعة.

38) المالكي، II، ص. 374

قصر رباط أبي صقر(شـ. 5)

تؤكد أسماء بعض المناطق المتاخمة لهذا الحصن مثل عين الدّمنة[39] وعين المنستير (وهو اسم اقترن بالرّباطات) أنّ قصر رباط أبي صقر كان أيضا قرية محصّنة يعود تأسيسها إلى العصر البوني (Rusucmona)، وأصبحت تدعى منذ العهد الحفصي غار الملح. ورغم تراجع وظيفة الرّباط فإنّ مصادر وخرائط القرن السادس عشر ميلادي تذكر وجود قلعة أغلبيّة مزوّدة بمنار للمراقبة، أدمجت في القرن الموالي ضمن عمارة برج الناظور [40]. أمّا قصر رباط مرسى الحجّامين الذي تذكره مصادر العصر الوسيط، فلا نعرف عن موقعه شيئا. وغير بعيد عن غار الملح توجد بلدة رفراف التي تنسب الذاكرة الشعبية تأسيسها إلى عبد اللّه السرقسطي مؤسّس رأس الجبل (704 هـ / 1307م). على أن أقدم مسجد بهذه البلدة مازال يسمّى مسجد القصر، ممّا يؤكد أنّنا إزاء قرية محصّنة (قصر) تعود إلى الفترة الإسلامية الأولى. وقد اكتفى السلطان الحفصي بتجديد سورها (بواسطة جدار من الطين) في القرن الخامس عشر الميلادي[41].

قصر درنة (سيدي مشرق) (لـ. 5-4)

توجد مرسى سيدي مشرق بين رأس تاكمرت ورأس سرّات. وقد أقام الآغالبة بهذه القرية (الرّومانية)، التي أشتهرت بسمكها في العصر الوسيط،[42] رباطا أدمج فيما بعد في مباني مصرف فرنسي مازالت أثاره قائمة حذو المقبرة والميناء. ويتكوّن هذا الحصن (الذي يمكن أن نعدّه ضمن قلاع بنزرت التي تحدّث عنها البكري) من بناية طولية تدعّمها أبراج نصف دائرية.

---

38) حول الدّمنة بسوسة والقيروان (حيث يوجد مسجد السبت الذي تعقد به الحلقات الصّوفية) انظر خاصّة : هادي روجي إدريس، II، ص. 46.

40) V. Guerin; II, p. 17 : L. Lanfreducci et G. Bosio, "*Costae et discorsi di Barbaria*", p. 517-518 ; P. Cezelly, *Notice sur porto-Farina*, Paris 1904, p. 33 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 179.

41) R. Brunschvig, *op.cit*, I, p. 306 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 157

42) N. Djelloul, "*La pêche en Ifriqiya au Moyen âge*", in *La pêche côtière en Tunisie*, Cahiers du CERES, 11, 1995, p. 51.

رباطات جزيرة شريك (الوطن القبلي) (شـ. 6)[43]

اشتهرت جزيرة شريك[44] في بداية العصر الوسيط بخصبـها وتعدّد مدنها وقراها. [45] وقد أدّى الغزو الهلالي من جهة، والحملات النّورمـانية والأيّوبية والمرابطيّة (بنو غانية) من جـهـة أخـرى، الى انقـراض المـدن الكبـرى، مـثل باشـو[46] والنّوبة. [47] على أنّ الإضطراب الذي احدثتـه هذه الغزوات دفع بالسكّان الى الاحـتماء بالـقصور المـحصّنة والرّباطات التي يعود إنشـاؤها في أغلب الأحيان إلى العـهد الأغلبي. وتعتبـر الجزيرة، مع الساحل ومنطقة صـفاقس، من أهم مراكز المرابطة في العـصر الوسيط [48]. ويمكن لنا أن نؤكـد أنّ هذه الظاهرة تواصـل في بعض الاحـيان تقـاليـد تعـود إلى بداية دخـول الاسلام[49]. كما أنّ تعدّد الزّوايا (زوايا المعاوين)[50] بشبه الجزيرة في العصر الحفصي[51] لم يكن إلاّ تواصلا (مثلما هو الشأن بالسّاحل) لأهميّة حصون الفترات السّابقة.

ورغم كثرة الإشارات في كتب الطّبقات إلى حصون الجزيرة [52] وعبّادها[53]، فإننا لا نستطيع تحديد مراكز المرابطة على غرار مـا يوجد بالساحل، نظرا لعدم دقّة المعلومات المتـوفّرة لدينا. ومن أشـهر مرابطي الجـزيرة اسماعـيل بن رباح الجزرى، أبو سليـمان ربيـعة الجـزرى، ابو عثـمان الجـزرى، أبو ابراهيم بن العربي، نصـرون اللّوزي، عـبد

---

43) حول تحصينات الوطن القبلي في العصر الوسيط أنظر: N. Djelloul, *Les fortifications*, I, pp. 203-225.

44) التيجاني، ص 11 "تنسب الى شريك العبسي أحد العاملين بها وهو والد قرّة بن شريك والي مصر من قبل عبد الملك بن مـروان". انظر أيضا: ابن الاثيـر، *الكامل*، V، ص. 13، ابن تغـري بردي، *النجـوم الزاهرة*، I، ص 241

45) التيـجاني ص. 11: "هذه الجزيرة لم تزل مـعروفة بالخـصب والبركة وهي كمـا قال الشريف الادريسي طيّبة مباركة ذات عمارات متّصلات وبركات وخيرات، وبالجملة ففيها خصب زائد على غيرها من الأرضين".

46) التيجاني، ص. 12: "وكـانت جزيرة شريك محتوية على أقـاليم كثيرة أعظمها المنزل الكبـير المعروف بمنزل باشو. وكان بلدا كبيرا آهلا... وهذا المنزل الآن خراب ولم يبق مـنه الاّ مكانه (الجديدة قرب قرمبالية).. وينسب الى مدينة باشو صلحاء منهم أبو عبد السلام مفرج بن بيـاضة". حول تاريخ باشو وتحصيناتها، انظر: حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص 229 – 335؛ N. Djelloul, *op.cit*, p.222

47) N. Djelloul, op.cit, I, p. 218-219.

48) التيـجاني، ص. 11 "قال أبو القـاسم ابراهيم بن القاسم الرّقيق فـي كتابه: لم تخل هذه الجـزيرة قطّ من عابد مذكور"

49) البكرى، ص. 83

50) أهمّ المراكز: آزمور، المعمورة والصّقالبة.

51) ومن ذلك تسميّتها بدخلة المعاوين.

52) المالكي، I، ص. 335، II، ص. 353؛ التيجاني، ص. 11-12

53) المالكي، II، ص. 353

المؤمن بن المستنير الجزري، حفص بن عمر الجزري، أبو الحسن الصقلّي الجزّري، ابو بكر بن سعدون الجزريَ وابو بكر عطية الجزري الجماجري. أمّا مراكز المرابطة فقد كانت توجد بسليمان، سيدي داود (النّوبة)، الهـوّاريّة، قليبية، لبنة، قصر سعد، اللّوزة (منزل تميم) والحمّامات. ويمكن أن نضيف إليها مرسى بن رمضان وسيدي هلال.

ونجد في تراجم المالكي إشارات هامة إلى الدّور الإقتصادي والسياسي الذي لعبته هذه الحصون في العصر الأغلبي. فقد ذكر (مثلا) أن عبّادها كانوا أوّل من ناهض الضّريبة النقديّة الجديدة (ثمانية دنانير علي كلّ زوج تحرث) التي احدثها الأمير عبد الله بن ابراهيم الأغلبي. ويبدو أنّها شملت أحمية الحصون التي كان يستغلّها المرابطون ممّا أثار حميّتهم. "فتقدّم حفص بن عمر الجزري[54] مع رجال صالحين من أهل الجزيرة فدخلوا على أبي العبّاس... الذي كان من أجمل النّاس فقال له حفص. أيّها الأمير اتّق الله واحذر على وجهك الجميل من النّار وخفّف على النّاس واسقط عنهم ما وضعت على الأزواج[55] من هذه الدّنانير، فرفض. فخرجوا من عنده يريدون القيروان، فقال لهم حفص: تصلّون ركعتين تخلصون فيهما الدّعاء، ونضرع إلى الله تعالى لعلّه يكفيناه... ودعا عليه أبو حفص، فما لبث أبو العبّاس إلاّ خمسة أيّام، ثمّ خرجت له قرحة"[56] ..وذكر عن فضل بن أبي العنبر، وكان واليا على الجزيرة قال: قدمت بزواملي وأعواني فنزلنا ببعض حصون الجزيرة التي على ساحل البحر، فأدخلوا ثقلي في مسجد من مساجد الحصون، وأدخلوا الحصن كلابا وطيورا كانت معهم. قال الفضل، فلمّا دخلت رآني اسماعيل بن رباح (الجزري)[57] فأتاني وقال: ما هذا الذي احدثت، أما ترى مافعل أعوانك في بيت من بيوت الله عزّ وجلّ، فصحت عليهم وأخرجتهم بالزّجر، فنظر إليّ اسماعيل وقال: حقن الله دمك"[58]. وتؤكدّ هذه الترجمة الأهميّة الدّينية التي كانت تتمتّع بها الحصون التي كانت غالبا تجمّعات عمرانية تحتوي على الأقل على مسجد جامع (معدّ للخطبة)[59]. كما نجد

---

54) المالكي، II، ص. 331

55) زوج البقر المعدّ للحرث.

56) المالكي، I، ص. 331-332. انظر أيضا التيجاني، ص. 11-12 ؛ ابن الاثير، *الكامل*، VI، ص. 329 ؛ ابن عذارى، I، ص. 95-96 ؛ النويري، *نهاية الأرب*، ص. 138

57) مصادره: ابو العرب، ص. 76-71 ؛ المالكي، I، ص. 333-344

58) المالكي، I، ص. 335 ؛ التيجاني، ص. 12

59) كان سحنون يشترط وجود تجمّع عمراني هام لاحداث خطبة جديدة، ممّا جعل مدينة مثل تونس تكتفي بخطبة واحدة (الزيتونة) إلى مجيء الموحدّين الذين احدثوا خطبة جامع القصبة.

أيضا في ترجمة اسماعيل بن رباح وأبي ابراهيم بن العربي[60] تأكيدا على ثانويّة الدّور العسكري الذي لعبه هولاء النسّاك، وسلبيّة العقليّة المسيطرة على أوساطهم. فقد توفي اسماعيل بن رباح (سنة 212 هـ) غريقا في البحر بعد رجوعه من الحج. "وذلك أنه ركب البحر فتحرّك عليهم الهواء، فقالوا له : يا أبا عبد اللّه ادع لنا، فقال : قد قضيتم حجّكم فما الذي تريدون ؟ ثمّ أخذ مصحفه فجعله في عنقه، ثم غطّى رأسه بكسائه، ثم غرقت بهم المركب"[61].

وكان ابراهيم بن العربي (ت. 335 هـ) "من أجلاّء عبّاد الجزيرة. وكان من شأن عبّاد الجزيرة إذا أرادوا التوجّه للحصون للرباط أتوا إليه وسألوه أن يمضي معهم رغبة في صحبته، فيقول لهم: حتى أشاور والدتي، فإن أذنت له مضى معهم، وإن أبت جلس وتركهم. فقالوا له يوما: في مثل السير الى الرّباط وأبواب البرّ تشاور والدتك ؟ فقال لهم نترك ماهو أفضل لي من طاعة الوالدة ونخرج في ماهو أتعب لي وأشقّ عليّ وأقل أجرا بل أجري في طاعتها أكبر من أجرى في المواضع التي نتوجّه إليها معكم"[62]. ويؤكد ماذكره المالكي عنه مرّة أخري الانتماء الايديولوجي المذهبي لمؤسسة الرّباط. فقد حجّ ابن العربي "صحبة عطية الجماجري، فلمّا وصلا إلى برقة -ومنها أهل أبي ابراهيم- سأل عن نسبه بها، فعرّف أنّه من العجم، فكتب إلي بعض اخوانه بالجزيرة كتابا فيه: قد كنت انتسبت عندكم إلى البربر، فتقصّيت في بلدي عن نسبي فإذا بي من العجم، فنحمد اللّه تعالى إليكم الذي لم يجعلني من البربر. وإنّما خاف أن يكون من البربر لأحاديث رويت في ذمّهم، فمن ذلك ما ذكر مسند إلى إبن سنجر، مسند عن عثمان بن عفّان، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال: قسم اللّه الخبث على سبعين جزءا فجعل في البربر تسعة وستّين جزءا والثقلين جزءا واحدا. ويروى عن شيخ ثقة من أهل الإسكندريّة أنّ سليمان بن داود أرسل بربريّا مع الشيطان في حاجة، فرجع الشيطان يتعوّذ باللّه عزّ وجلّ من البربري"[63]. والبربر يمثّلون قبل كلّ شيء المعارضة الايديولوجيّة المذهبيّة (الخوارج) للسلطة السياسيّة التي يدعّمها المرابطون[64].

60) مصادره ؛ المالكي، II، ص 352
61) المالكي، I، ص. 341
22) *نفس المصدر*، II، ص. 353
63) المالكي، II، ص. 354 . حول هذه الأحاديث الموضوعة انظر : محمد الطالبي، *دراسات في تاريخ افريقية*، ص. 52
64) انظر في هذا الصدد، محمد الطالبي، *نفس المرجع*، ص 13-79 كما أنّ منطقة النّوبة كانت منطقة أباضية في العصر الوسيط. انظر : H.R. Idris, *op.cit*, II, p. 364

وقد كانت جبريّة هولاء النسّاك [65] مقترنة بتعصّب ديني ومذهبي ستبرز نتائجه الوخيمة في العصر الزّيري. فقد حدّث أبو سليمان ربيعة الجزري[65] "قال: كنّا في الجزيرة على طعام إذ دخل علينا يهودي فدعوناه، فجلس يأكل معنا إلى أن أقبل اسماعيل بن رباح فرفعنا اليهودي إلى غرفة. فلمّا دخل إسماعيل دعوناه إلي طعامنا فمدّ يده ليأكل ثمّ قبضها وقال: طعامكم نجس، أو أكل منه نجس، فقلنا له: دعونا يهوديّا طوّافا فأكل معنا، فقال: أمّا تستحيون من الله تعالى، تأكلون مع من كفر بالله". [66] وتؤكد ترجمة عبد المؤمن بن المنستير الجزري (توفي في بداية القرن 3 هـ / 9 م)[67] ماذهبنا إليه حول اقتران الرّباط ببداية التصوّف الإسلامي. فقد كان هذا الناسك" رجلا صالحا كثير الرّباط، كثير الرّواية لغرائب الرّباط". [68] وكان أبو الحسن الصقلّي الجزري[69] "صامتا لا ينطق إلاّ بذكر الله عزّ وجلّ... وقال ربيع القطّان دخلنا عليه نعوده عند مسجد أبي أرجونة فقال لنا: كان عندنا بثغر صقليّة رجل يقال له أبو علي الطنجي وكان من الكدّادين عمره لله وكان من أهل الشغل والذّكر وكان يظهر له عدوّه ابليس في هيئة إنسان، قال: فكان يقول له العدوّ انضحك قلبي بكدّك فوالله لأنضحك قلبك او تكفّ عمّا أنت فيه... فبينما هو ذات يوم راقد على سدّة إذ قلبه عدوّ الله من فوقها، فأنجرح له موضع السجود، فلم يزل يرم وينتشر حتى أخذ الوجه، فيأتيه العدوّ فيقول له: اقصر ويزول عنك ما تجد، فيقول اذهب ياعدوّ الله والله لا أقصر أو أموت، وكانت تلك العلّة سبب موته" [70].

وكان عبّاد الجزيرة يتردّدون بكثرة على رباطات الساحل. فقد كان أبو بكر بن سعدون الجزيري التميمي[71] "كثير الرّباط" ولزم لفترة طويلة قصر ابن الجعد[72]. كما كان يتردّد أيضا على جبل اللّكام والأكواخ (بلبنان) والمقطّم (مصر). وجبل المقطّم

65) خلافا للمعتزلة كانت الأوساط الجبريّة والمحافظة لا تقرّ بخلق القرآن، ومنهم من كان يذهب الى القول بأنّ الحروف والمداد والورق من عند الله. وهو ما يفسّر ما أقدم عليه اسماعيل بن رباح الجزري لمّا رأى في القناة التي تجري حذو دار أبي محرز القاضي بالقيروان قرطاسا فيه إسم من أسماء الله تعالى فوق القناة لم يغرق فيها فخاف إسماعيل إن حاول اخراجه بقصبة أن يغرق في القناة فيتلطّخ بالنجاسة، فالقى كساءه ونزل الى القناة، فساخ فيها الى نورك". المالكي، I، ص. 335

66) نفس *المصدر*، I، ص. 336

67) ابو العرب، ص. 111 ؛ المالكي، I، ص. 391-292

68) المالكي، 391 :I ; z

69) المالكي، II، ص. 204، 195 ؛ Amari, *Bibliotheca*, p. 194

70) المالكي، I، ص. 205

71) المالكي، I، ص. 414 ؛ ابن ناجي، III، ص. 65-67

72) المالكي، II، ص. 497 "كان قوم من الجزيرين بزقاق الرّوم (سوسة) يكبّرون في أيام العشر".

مشهور عند المصريين بأعتباره أشهر مزاراتها. وهو "أحد الشّيوخ الذين عقدوا الخروج على بني عبيد اللّه. وكان من دعائه إذا فرغ من صلاته في أيام أبي يزيد أن يشير إلى جمّة يقول : اللّهم من أرادنا فرده ومن كادنا فكده. . . "[73] .

قصر رباط قليبية (شـ. 9-7) (لـ. 8-6)[74]

تقع مدينة إقليبيّة (Clipea أو Clupea في العهد الرّوماني) في الجنوب الشرقي لشبه جزيرة الوطن القبلي، وتبعد عن جزيرة قوصرة Pantelleria حوالي 83 كلم، ولا يفصلها عن صقليّةسوى 120 كلم. وقد كانت المدينة العتيقة، التي احدثها البونيّون (Aspis) منذ القرن السابع قبل الميلاد بسفح هضبة "البرج"، من أهم المدن التّونسية في العهد الأغلبي، وتدعّم دورها العسكري في العصر الفاطمي لمّا احدث بها بنو عبيد دارا للصّناعة[75] . ولكنّها بدأت في التّقهقر بداية من القرن الثاني عشر الميلادي (بعد احداث المدينة الحاليّة) لتنقرض في بداية العهد الحفصي (ق. 13 م)[76]. علي أنّ القلعة (البرج) حافظت على دورها العسكري والدّيني اذ اصبحت في العهد الحفصي أهمّ مركز للرّباط بعد سيدي بوسعيد. وقد كان هولاء النسّاك يعقدون حلقاتهم قرب صخرة محاذية للبحر (مجمع الصّلاح).

ويعود احداث القلعة إلى القرن الخامس قبل الميلاد، على أنّها عرفت اصلاحات هامّة أثناء حملة طاغية سرقوسة أغاتوكلاس Agathocle على قليبية سنة 310 ق م[77] ، وقد قام الرّومان بتخريبها وإحراقها سنة 146 ق م. أمّا المسلمون، فقد اكتفوا في أوّل أمرهم بتحويل القلعة البيزنطيّة الصغيرة (التي توجد أنقاضها داخل المعلم الحالي) إلى مركز للمرابطة. أمّا البرج الحالي (الرّباط الحفصي) فيعود احداثه إلى فترة يحي بن تميم الصنهاجي (حوالي 505 هـ / 1112 م). وقد حافظ منذ هذا العهد على مظهره العام، رغم الاصلاحات العديدة التي عرفها في العهد العثماني (1550، 1637، 1640، 1704، 1840. . .)[78] .

73) المالكي، II، ص 17+

74) حول تاريخ قليبية ومعالمها العسكرية انظر : عمّار بن عبد اللّطيف، تاريخ *قليبية*، تونس 1983 ؛ N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 203-205

75) N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 203

76) أدّى اندثار المدينة الى تكوين عدّة قرى محصّنة حول حصون المنطقة مثل تاهرت، منصورة القرنس، القصيبة ومنصورة القصيبة.

77) حول قلعة قليبية قبل العهد الاسلامي انظر : M. Gharbi, *Africa Romana*, VIII, 1989, p. 187-198

78) N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 206-207

ويعتبر برج قليبية من أكبر القلاع الاسلامية بالبلاد التونسيّة إذ تقارب مساحته هكتارا ونصف. ويحيط به جدار صخري تتخلّله أبراج طوليّة، ولا يحتوي إلاّ على مدخل وحيد مستقيم يوجد في الواجهة الشرقية، يفضي بدوره إلى ساحة ضخمة تتوسّطها خزّانات المياه (الرومانية) وأنقاض مسجد يعود احداثه الى الفترة الأغلبيّة. وقد كان القصر يتّصل بالمدينة العتيقة بواسطة فصيل (طوله 200 متر) يفضي إلى باب غدر (Poterne). وقد كان هذا المسلك المحصّن (الذي يسميه الأهالي ممشى بنت الرّي) يقوم بحماية جنود القصر حين يهرعون لنجدة المدينة إبّان الغزوات، وهي تقنية عسكرية كانت شائعة في الاندلس (Corachas) منذ القرن الحادي عشر الميلادي[79] .

قصر رباط الحمّامات (شـ. 12-11) (لـ. 14-13)[80]

رغم الترميمات العديدة التي عرفتها معالم الحمّامات العسكريّة، فإنّ المدينة العتيقة (التي يقارب عدد مساكنها الثلاثة مائة) تعطينا فكرة جيّدة عن عمران القرى - الرّباطات في العصر الإسلامي الأوّل[81] . فالمنازل (التي تصطفّ حول أزقّة ضيّقة) المعدّة لسكنى المرابطين تمتاز بتشابه مساحتها (حوالي 90 متر مربّع)، ممّا يدل على وجود عمران من نوع خاصّ يتناقض مع عمران المدن العاديّة. ويحيط بهذا القصر سور حجري يعود إلى الفترة الأغلبية، ولكن رمّم عدّة مرّات في العهدين الحفصي والعثماني. ويتخلّل الجدار مجموعة من الابراج الطّوليّة (برج عزّوز - برج الزيادي، برج السلوقيّة)[82] وثلاثة أبواب خارجيّة (باب البحر في الشمال الغربي، باب السوق في الجنوب الغربي وباب الهوّارة). وتحتلّ قصبة الرّباط التي وقع تجديدها في العهد الحفصي (ثمّ ادخلت عليها تحويرات جذريّة أيّام الحكم العثماني) الزّاوية الجنوبيّة الغربية للقصر.

ولم تترجم كتب الطبقات لأي مرابط من الحمّامات، ولكن يبدو أن أشهرهم كان سيدي بوحديد (من رجال القرن 12م) الذي تحاذي زاويته القصبة، كما أنّ هذا المعلم

---

79) N. Djelloul, *op.cit*, I; p. 208

80) حول تاريخ الحمّامات ومعالمها انظر خاصّة : T. Bachrouch, *Medinas de Tunisie, Hammamet*, Cahiers du CERES, N°7, Tunis 1996.

81) حول قصر الحَمامات انظر : المالكي، I، ص 268

82) حول العمران : J. Binous, "*la structure urbaine et l'évolution de l'habitat dans la medina de Hammamet*", in *Medinas de Tunisie, op.cit*, pp. 13-35 . وتنسب الذاكرة الشعبيّة برج الزيادي الى عبد الرّحمان بن زياد، من رجال القرن الاول للهجرة، أمّا برج السّلوقية فيرتبط بأيّام الصّراع الاسباني المسيحي، لمّا رفض أهالي الحمّامات تزويد جيش خير الدّين بالمؤونة وعلّقوا سلوقيّة ميتة على أحد أبراج السور.

تتوسّطه زاوية المرابط سيدي بوعلي (من رحال القرن 14م) التي كانت فيما مضى مصلّى القلعة. ويتّصل بقصر الحمّامات قصر الزيت، وهو من القرى المحصنّة التي انقرضت في بداية العصر الحفصي[83] ، وقرية الدّواميس[84] .

قصر اللّوزة (منزل تميم)[85]

خلافا لقصر الحمّامات، انقرضت معالم رباط اللّوزة الذي كان على ما يبدو يحتل موقع حيّ بني عيشون. وينتسب إلى اللّوزة نصرون اللّوزي المتعبّد، وقد عدّد المالكي براهينه وكراماته، "فمن ذلك أن سلما وأبا ابراهيم بن العربي وغيرهما مضوا لزيارة نصرون فقال بعضهم لبعض : ليشتهي كلّ واحد منّا شهوة، فقال سلم : أنا أشتهي إفريقية بزيت طيّب. وقال أبو علي : أنا أشتهي قرصا من سميد بعسل. وقال أبو ابراهيم : أشتهي أنا قمحا مقلوا. . . فلمّا كان اللّيل أتى إليهم بالعشاء، فقدّم إليهم ثردة بدجاجة وعليها زيت طيّب، وقال لسلم : كل ياسلم يا صاحب الافريقيّة، ثم أتى بقرص سميد بعسل طيّب وقال : كلّ يا أبا علي يا صاحب الحلوات، ثم أتى بقمح مقلوّ وقال : كل يا أبراهيم يا صاحب المخفّفات. فذكرت هذه الحكاية للمعلّم محرز (بن خلف) فقال : يمكن أن يكون سمع منهم رجل من مؤمني الجنّ فوصّله إلى نصرون أو رأى ذلك في المنام"[86] .

قصر لبنة (لـ. 12)

تقع خرائب قصر لبنة (الذي يطلق عليه الأهالي إسم البلد) على بعد 200 متر من وادي لبنة. ويشكّل الموقع تجمّعا عمرانيّا صغيرا يحيط به سور من الحجارة (مداميك في الأسفل وحجارة متوسطة في الأعلى) تدعّمه أبراج نصف دائرية من الطراز الأغلبي. أما المقبرة التي يتوسّطها ضريح سيدي علي المجاهد فهي توجد في الجهة الغربيّة.[87]

---

83) البكري، ص 96-97 ؛ ر. برنشفيك، I، ص 440 H. R. Idris, II, p. 440 . ويحتل قصر الزيت موقع مدينة سياقو الرّومانية، في الجنوب الغربي لمدينة باشو. وبقي منه اليوم جدار طوله حوالي 24 متر وبعض الغرف والحنايا المهدّمة.

84) البكري، ص. 96-97

85) حول تاريخ منزل تميم انظر : جلّول عزّونة، *منزل تميم*، تونس 1984

85) المالكي، II، ص. 355-356

87) الإدريسي، ص 124 ؛ N. Djelloul; op.cit, I, p. 215 . وتذكر الرّواة الشعبيّة أن سيدي المجاهد أتى من الشرق واستقرّ مع أصحابه بهذه المنطقة وكان يشفي المرضى (فقيه البدن) ويعلّم الصبيان بمسجد القصر الذي كانت له خطبته الخاصّة.

قصر سعد (لـ. 12)[88]

يوجد قصر سعد جنوب قصر لبنة (منطقة قربة)، غير بعيد عن وادي سيدي عثمان. وخلافا للقصر الأول يتكوّن المعلم من حصن صغير مهدّم يحتوي على مسجد وبعض الغرف المعدّة لسكنى المرابطين. ويوجد إلى جانبه مقبرة عتيقة وضريح سيدي عثمان الذي يغلب على الظنّ أنّه أبو عثمان الجزري الذي ترجم له المالكي في رياض النفوس. و"كان من أولياء اللّه المنقطعين إليه المتبتّلين في العبادة. حدّث بشير بن عمروس المنستيري المتعبّد، قال : صلّينا العيد في المنستير، فخرجت الي الشعراء أدورها، فإذا أنا بأبي عثمان الجزري وصاحب له قعود خلف شرف، فما شعرا بي حتى وقف عليهما. فأمّا صاحب أي عثمان ففرّ منّي فدخل الشعراء، فلم أدر من هو، فقلت يا أبا عثمان السلام عليك فردّ علي السّلام فقلت له : اليوم يوم عيد فأطعمني ممّا معك، فقال لي : اقعد، فأخرج كسرة يابسة من مخلاة كانت معه، فقلت له : يا أبا عثمان، قد تعلم ما جاء فيمن أدخل على أخيه المؤمن السرور فسرّني ! فقال لماذا ؟ قلت تمضي معي إلى البيت فأنس بك، وأجابني إلى ذلك، فقلت له : وصاحبك ؟ فقال : ليس تقدر عليه ولا تراه (يقصد الخضر) ولكنّي امضي أنا معك. قال : فمضى معه حتى دخلنا قصر المنستير وصعد معي الى بيتي، فلمّا دخل البيت علّق مخلاته. قال بشير : فخرجت إلى برّا وتركته في البيت، واشتريت ربع خروف وأتيت به، فلمّا نظر إلّي قام فأخذ مخلاته وخرج إلى المسجد، فمازال كذلك حتى صلّينا الظهر... فلمّا أمسى وصلّينا المغرب أقرن قدميه وصلّى الى العتمة، فلمّا صلّى العتمة أقرن قدميه فصلّى الى الصبح، فلمّا صلّينا الصبح خرجت إلى البيت، ثم جئت لأطلبه في مكانه فإذا به قد خرج، فخرجت الى باب القصر أنظر أي وجه قد أخذ، فلم أعرف اين أخذ"[89].

رباطات الهوّارية (لـ. 9)[90]

تقع الهوّارية بأقصى الشمال الشرقي من الجمهورية التونسية، ويحدّها البحر من ثلاث جهات[91]. ويعود تأسيس الهوّارية الى العهد القديم (Aquilaria) ولكن يبدو أنّها

(88) الادريسي، ص. 124 ؛ N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 215
(89) المالكي، I، ص. 333
(90) حول تاريخ الهوّارية انظر : N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 220
(91) وهي تضم مناطق صاحب الجبل، بوكريم، زاوية المقايز وتازغران.

هجرت في العهد الزيري ولم تعد إليها الحياة من جديد الاّ في العهد الحفصي، بعد أن تغيّر موقعها[92] . أمّا قصر الرّباط فقد كان يوجد برأس أدار، ويبدو أن هذا القصر يعود الى بداية الفتح الاسلامي[93] . ومع تفاقم القرصنة المسيحيّة في القرن الخامس عشر الميلادي، أدخل عليه السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز عدّة اصلاحات حوّلته الى قلعة ضخمة، كانت تعدّ من أهمّ المعاقل الافريقيّة[94] . أمّا القصر الثاني فيحتلّ موقع زاوية سيدي بو الرّباط الذي تذكر الروايات الشفوية أنّه أصيل الهوّارية.

قصر النّوبة (سيدي داود) (لـ. 11-10)[95]

يعود تأسيس النّوبة الى ما قبل الاسلام (Missua)، وقد ازدهرت خاصّة في العصر الوسيط الأوّل، وكانت في بداية العصر الاسلامي عاصمة لجزيرة شريك قبل أن يستقرّ عاملها في باشو[96] . وقد أتّخذها عمّال بني أميّة والأغالبة (الذين احدثوا بها دارا للصناعة) مركزا هجوميّا لغزو جزر البحر الابيض المتوسط نظرا لقصر المسافة التي تفصلها عن صقليّة. كما كانت مرفأ تجاريّا هامّا حتى القرن الثاني للهجرة، ومركزا للصيد البحري، كما تؤكد ذلك المصائد الحجريّة العتيقة (Viviers) (لـ. 11). ويبدو أنّ جزيرة النّجيلة كانت جزءا من هذا الميناء الذي انقرض في العهد الحفصي. أمّا خرائب المدينة الأغلبيّة فتمتدّ (على مساحة 500 م x 300 م تقريبا) حذو زاوية سيدي داود. وترتبط التسميّة الحالية بهذا الفقيه والمرابط (سيدي داود النّوبي، تـ. 661 هـ). ومن ذريّته سيدي داود (تـ. 732 هـ) صاحب المقام المشهور بمنطقة المرسى وسيدي احمد بن داود بالمعمورة. ويذكر ابن ناجي من ذريّته أيضا احمد (زاوية بو كريم) وإسحاق (زاوية المقايز). ويبدو أن قصر الرّباط الذي كان ملاصقا للمرسى يقع قرب زاوية سيدي داود[97] .

---

92) يبدو أن اقدم معالم الهوّارية الدينيّة هو الجامع الكبير (ق. 17م).
93) البكرى، ص. 83
94) ابن خلدون، العبر، III، ص. 83 ؛ الزركشي، ص. 116
95) حول تاريخ النوبة (سيدي داود) ومعالمها انظر : R.Brunshvig, "*A propos d'un toponyme tunisien* : : *Nuba-Nûbiya*" in, *Revue tunisienne* T. XLII, 1935, pp. 150 sq ; N. DJelloul, op.cit, I, p. 218-219.
96) اليعقوبي، ص. 348
97) كانت زاوية سيدي داود ذات قبّة واحدة مع ثلاثة منازل ومسجد شيّدت كلّها منذ العصر الوسيط. وقد أزليت القبة سنة 1336 هـ وشيّدت مكانها الزاوية الحاليّة بقبابها الستّ. (أشغال مؤرخة بواسطة نقيشة).

قصر جهم (سليمان)[98]

تقع سليمان في المنطقة الشمالية – الغربيّة من الوطن القبلي، وتبعد عن تونس العاصمة مسافة 30 كلم. وقد أسّس الفاتحون المسلمون على أنقاض مدينة رومانية Megalopolis (مدينة الماجوس؟)[99] قصر جهم،[100] ومن أثار هذا القصر "برج" البليدة الذي كان يوجد وراء السوق البلدي، وقد تهدّم اليوم ولم يبق منه إلاّ السّور الخارجي والمدخل والمسجد[101]. ويبدو أنّ التّسمية الحالية (سليمان) تعود الى العهد الحفصي وتخلّد ذكرى أحد أحفاد سيدي داود النّوبي. أمّا مركز الرّباط فقد كان يوجد في المنطقة الساحليّة، على بعد 6 كلم عن البلدة، قرب زاوية سيدي الجهمي، حيث عثرنا علي بقايا برج نصف دائري من الطّراز الأغلبي[102].

قصر النخلة[103]

يوجد قصر النخلة شمال قصر قربص (Aqua Capitana القديمة)[104] غير بعيد عن مرسى بن رمضان. ويتكوّن هذا الحصن الذي تذكره مصادر العصر الوسيط[105] من بناية مربعة يعلوها منار يشبه منارات سوسة والمنستير. ويدعّم هذا الحصن قلعة رأس الفرطاس التي يعود إنشاؤها إلى العهد البوني، وتواصل استغلالها الى آخر العهد الحفصي[106].

---

98) N. Djelloul, *op.cit*, I p. 216

99) هل عرّبت *Maïus* بماجوس ؟

100) الادريسي، ص. 124-125

101) يشكّل برج البليدة بناية طويلة تتخلّل سورها الخارجي دعائم حجريّة.

102) قرب قلعة سيدي الجهمي التي يعود احداثها الى القرن التاسع عشر.

103) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، III، ص. 154، H.R. Idris, *op.cit*, II, p. 440-441 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 218.

104) تذكر الرّوايات الشّفوية انه وقع تأسيسها من قبل سيدي عمارة (سنة 1663 م) القادم من طرابلس. ولكن الادريسي تحدّث منذ القرن الثاني عشر عن قصر قربص، الادريسي، ص. 124 ؛ H.R. Idris, *op.cit*, II, p. 128
أمّا كربيس Carpis العتيقة فقد كانت توجد في منطقة المريسة.

105) الارديسي، ص. 124 ؛ ص. 37-45

106) N. Djelloul, op.cit, I, p. 218

قصر توسيهان (بني خيار)

إمتازت المنطقة السّاحلية الممتدّة بين قليبية والحمّامات في العصر الوسيط بتعدّد قراها وقصورها. ومن هذه القصور قصر توسيهان[107] الذي يناسب موقع بلدة بني خيار التي مازالت رحبتها تحمل إسم القصر، كما أن عمرانها يشبه الى حدّ بعيد تخطيط القصور السّاحلية (شـ. 13)[108]، ويذكر الادريسي أن رأس توسيهان (المعمورة) كان بدوره محميّا بواسطة حصن رابط به احمد بن داود الصّنهاجي[109].

قصور نابل وقربة

لا توجد أيّة إشارة الى وجود مركز للمرابطة بقصر نابل الذي يبدو من وصف الادريسي أنّه كان بدوره قرية محصّنة[110] على أنّ بقاء تسميّات مثل سيدي المحرسي تجعلنا نرجّح وجود رباط بهذه المنطقة. وغير بعيد عن نابل توجد بلدة دار شعبان الفهري[111] حيث يوجد الى اليوم رباط سيدي هلال الذي لم يبق منه إلاّ برج سيدي هلال. هذا المعلم، الذي يتّصل بالخارج بواسطة باب وحيد، مبنيّ بواسطة الحجارة المصقولة. ويتّصل بهذا البرج مجموعة من

---

107) الادريسي، ص. 104-125 ؛ N. Djelloul, *op.cit* p. 218

108) تذكر الرّوايات الشعبية أنّ بني خيار أسّستها مجموعة من أهالي قصر هلال.

109) الادريسي، ص. 104-125 . تجعل الرّواية الشعبية من سيدي احمد بن داود مرابطا. ويقال أن مركز الرّباط كان زاويته التي أصبحت فيما بعد سوقا لقرى الجهة. وتذكر نفس الرّواية أن أحمد بن داود قدم الى المعمورة من الهوّارية، وهي أيضا مركز مرابطة.

110) الادريسي، ص. 124-125 ؛ N. Djelloul, op.cit, I, p. 216. وتبعد نابل القديم (Neapolis) عن المدينة الاسلامية حوالي 4 كلم. ويوجد قصر نابل بين وادي سويحيل ووادي الصغير، وكان يتكوّن من مدينة وربض وتذكر الرّواية الشعبيّة أنّ أقدم مساجدها (الجامع الكبير-مسجد السبتي-مسجد النورية-مسجد الكرمة-مسجد بوغدير) تعود الى العهد الحفصي.

111) يحدّ دار شعبان من الجهة القبليّة البحر ومن الجهة الجوفيّة جبل عمرون ومدينة نابل من الجهة الغربية (1كلم) ويحدّها من الجهة الشرقية بني خيار. ومازل وسط المدينة يحمل اسم القصر (ساحة الشهداء)، وهو الحدّ الفاصل بين بلدة دار شعبان وبلدة زاوية الفهري. وتذكر الرّواية الشعبيّة أن مؤسس القصر هو شعبان مشماش، وهو من أبناء الوافدين الاوائل على افريقية. وتذكر مناقب احمد الفهري (التي تنسب لسيدي قاسم الجليري) أنّه قدم من الساقية الحمراء الى افريقية في العصر الزّيري. واستقرّ بدار شعبان بعد أن صاهر صاحبها. وقد تشكّلت بلدة الفهري حول زاويته. على أن بعض الاعمدة الرّومانية التي مازالت توجد بضريح سيدي الفهري تجعلنا نرجّح وجود تجمّع عمراني قديم قام الزّيريون بتحصينه (قصر). ومن اقدم معالم هذا القصر، اضافة الى برج هلال، ضريح سيدي الفهري، المسجد العتيق (الجامع الكبير) زاوية سيدي المجذوب، زاوية سيدي غلاب وزاوية سيدي الزين.

الحصون المنفردة (مثل قصر النخيل[112] وقصر الحديد[113] والمنارات المنعزلة، التي كانت تحمى قصور قربة[114] وتازركة[115].

رباطات وادي الرمل

توجد مقاطعة وادي الرّمل بين الجزيرة والساحل ويشكّل جزؤها السّاحلي (ساحل بحر المدفون) منطقة تغلب عليها السّباخ (سبخة الجريبة) والمستنقعات، وهو ما يفسّر ندرة التجمّعات العمرانية. وقد أدّى وجود الجادّتين الرّئيسيتين اللتين تربطان منذ القديم ساحل البلاد بالشمال إلى نشوء قرى المرصد (او مرصد شريك)[116]، فندق ريحان[117] وقصر المدفون (أو قصر المرابطين)[118]. ويحمي هذه التجمّعات من الجهة الشمالية قصر المنار (أو المنارة) الذي لم يبق منه في العهد الحفصي إلاّ المنارة الاسطوانية التي مازالت توجد قرب بوفيشة[119] (لـ. 15).

112) الادريسي، ص. 124-125. هل هو القصر الذي مازالت أثاره قرب الحمّامات ؟

113) الادريسي، ص. 124-125.

114) يبدو أن قربة نفسها كانت مركز مرابطة. ويحتلّ قصر قربة (الادريسي، ص. 124) الذي حافظ على سوره الى القرن التاسع عشر (N. Djelloul, *op.cit*, I, p. 215) موقع مدينة *Curubis* الرّومانية. وقد كانت في العهد المسيحي مركز اسقفيّة ويوجد بها الى اليوم كنيسة عتيقة (مقام سيدي الدعّاس)، في حيّ بني عيشون، الذي يمثل نواة القصر والمدينة الرّومانية. أمّا اقدم معالمها الاسلامية فهو جامع بني عيشون الذي جدّد سنة 1856.

115) تقع تازركة بالجنوب الشرقي من الوطن القبلي بين قربة وبني خيار. كما أن مركز القرية مازال يسمى القصر، ممّا يجعلنا نعدّها ضمن قصور العصر الوسيط. على أن أقدم معالمها (الجامع، مقام سيدي بوراوي، مقام سيدي عمر عبادة، الذي تذكر الرواية الشعبية أنّه كان يمتهن صنع السيوف) تعود الى الفترات اللاّحقة.

116) البكري، ص. 37-45 ؛ الادريسي، ص125, ؛ الداعي إدريس، ص. 280 ؛ التيجاني، ص. 23 : "مررنا بالقرية المعروفة بالمرصد" (توافق حاليا موقع المرصل).

117) البكري، ص. 37-45 ؛ الادريسي، ص. 148 ؛ H.R. Idris, II, p. 441-442 ; N. Djelloul, *op.cit*, I, p.224

118) البكري، ص. 37-45 ؛ التيجاني، ص. 24.

119) التيجاني، ص. 23 "وتنتهي أرض وادي الرمل الي حيث انتهت بنا مرحلتنا من الفلاّحين وذلك المبنى المعروف بالمنارة، وهو بناء مستدير الشكل مفرط الارتفاع قد انتظم من فصوص الحجارة المربّعة الضخمة، ينسب بناؤه لابن الأغلب باني هذه القصور والمحارس الافريقية كلّها. وهي متّصلة فيما بين الاسكندرية وبحر الزقاق الذي بسبتة وإليه تنسب المنارة الأخرى المشهورة بقرطاجنّة بتونس". ويؤكد وصف L. Frank (1806) أن هندسة هذا المنار الذي استعمل في العهدين الحفصي والعثماني لارسال الاشارات الضّوئيّة لم تتغيّر كثيرا :

L. Frank, Histoire de Tunis, edit. J. Marcel, Paris 1850, p. 34 "c'est une grosse construction semblable à une haute tour, mais sans autre aménagement intérieur qu'une voûte qui la recouvre et une baie de porte qui y donne entrée. Les Maures l'appellent Minaret et prétendent qu'autrefois on allumait des feux sur le sommet pour guider les navigateurs".

وحول وجود لقيات أثرية من العهد الروماني بهذا الموقع انظر : M. Yacoub, *Guide du Musée du Bardo*, p.49

رباطات منطقة بجاية-بونة

ذكر إبن حوقل أنّ بـونة (عنّابة) "مدينة مقتـدرة ليست بالكبيرة ولا بالصّـغيرة، وهي على نحر البـحر ولها أسـواق حسنة، ولها عـامل قائم بنفسـه ومعه من البـربر عسكر لا يزول كالرّابطة"[120]. وتوجد هذه المدينة قرب منطقة القبائل الصغرى (بلاد كتامة) التي كانت تعدّ (من الشرق إلى الغرب) عـددا من الموانيء والمراسي، وهي على التوالي : مرسى الخرّوبة، مـرسى ابن الألبيري ومرسى قصر تكوش. ويقع هذا الأخـير على بعد 18 ميلا شرقي رأس الحـمراء (قرب بلدة تاكاتوا العتيقة)، وبه مـيناء محمي على أحسن وجه، وتشمل منطقـته الدّاخليّة عدّة قرى تنتج كثـيرا من الفواكه[121]. كما كان يوجد به في عصر الادريسي رباط "وهي رابطة وبها قوم ساكنون"[122]. ويبدو أن بجاية (Saldae العتيقة) كانت أيضا مركز مرابطة، فـقد كان يوجد بها في العصر الوسيط (خارج السور) حيّ يسمّى حـومة رابطة المتمنّي، وحـصن يسمّى الناظور[123]، وهي تسمية كانت تطلق عادة على منائر الرّباطات.

---

120) ابن حوقل، ص. 76.
121) البكرى، II، ص. 758 ؛ هـ. ر. إدريس، II، ص. 102.
122) الادريسي، ص. 103.
123) مقديش، I، ص. 95 ؛ هـ. ر. إدريس، II، ص. 111.

الفصل الثالث

رباطات السّاحل

ساحل القيروان

لم تكن منطقة الساحل التونسي تمثّل قبل الفتح العربي إلا جزءا من مقاطعة بزاقية Byzacium الرّومانية ، الممتدّة من جنوب الوطن القبلي شمالا الى مستوى ضينة جنوبا ، وتشمل غربا مناطق السّباسب[1] . ورغم تغيّر مراكز القرار السّياسي لهذه الكورة (سوسة - سبيطلة - القيروان) ، فإن الفاتحين الجدد حافظوا على هذا التقسيم الجغرافي - الإداري ، وربّما اكتفوا بتعريب الإسم القديم الى مزاق. [2] وقد وردت هذه التّسمية في احدى أشعارالقاضي القيرواني عبد الرحمان بن انعم المعافري (ت. 261 هـ/ 874 م)[3] وذكر التّسمية أيضا ابن عبد الحكم[4] وابن الشبّاط[5]، في حين أكّد المالكي ثم ابن ناجي من بعده[6] أنّ "مزاق" هو فحص القيروان[7] . هذا الفحص كان يشمل ساحل القيروان، أي ما عرف فيما بعد بأوطان سوسة - المنستير - المهدية وصفاقس[8] .

هذا الإرتباط الوثيق بين القيروان وساحلها يؤكده النّص الذي أورده العديد من المؤرّخين حول تأسيس مدينة عقبة. ذلك أنّه لما أختطّها قال له بعض أصحابه : "قرّبها من البحر ليكون أهلها مرابطين. فقال لهم : إنّي أخاف أن يطرقها صاحب

---

1) حسب حسن حسني عبد الوهاب (*ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية*، تونس 1981، II، ص. 18) "بوزاقية توافق المنطقة التي تعرف اليوم ببلاد السّاحل وتمتدّ على سيف البحر على مسافة تقدّر بمئتين وخمسين كيلومترا، تبدأ من سوسة وتصل الى بطريّة في الجنوب من بلد الشابّة" . هذا التعريف تفنّده كتابات الجغرافين اللاّتينيّن الذي يضمّون الى بوزاقية مناطق القيروان وسبيطلة وصفاقس. انظر في هذا الصدد : Pline l'Ancien, *HIstoire naturelle*, edit. J. Desanges, Paris 1980, V, 24 p. 226-229, pl. 4 ; Cl. *Lepelley, Les cités romaines d'Afrique au bas empire*, Paris 1981, II, p. 261, fig. 2

2) محمد الطالبي، *دراسات في تاريخ افريقية* : تونس 1982، ص. 114 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، *II*، ص. 18

3) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 18

4) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، القاهرة 1922، ص. 19 "وكانت افريقية يومئذ تدعى مزاق" .

5) "قيل هو فحص القيروان وقيل هو إسم إفريقية وأنها تدعي به". انظر المالكي، I، ص. 150، هامش 34

6) المالكي، I، ص. 156

7) ابن ناجي، *معالم الايمان*، تونس 1320 هـ، II، ص. 173

8) المالكي، II، ص. 392، اللّبيدي، *مناقب أبو إسحاق الجبنياني*، تحـ. ، هادي روجي ادريس، باريس 1950، ص. 10، محمود مقديش، *نزهة الأنظار*، تحـ. محمد محفوظ وعلي الزواري، بيروت 1988، II، ص. 25 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 125، التيجاني، ص. 23

القسطنطنيّة فيهلكها، ولكن أجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها غزاة البحر لأنّ صاحب المركب لا يظهر في اللجّة حتّى يستره الليل، فهو يسير الى ساحل البحر الى نصف الليل، فيخرج، فيقيم في غارته الى نصف النّهار، فلا تدركها منه غارة أبدا. فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التّقصير، فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم حرس معقود الى آخرالدّهر، وميّتهم في الجنّة". [9] هذا النّص يفسّر ما أورده التيجاني على لسان ابن شرف بأنّ "أهل سوسة كانوا في الأصل عبيدا لأهل القيروان. وذلك أنّه لمّا افتتحت إفريقية آشتدّت إغارة الرّوم على مدن البحر، فابتنيت القصور على السّواحل، كقصور سوسة وغيرها، وجعل بها من عبيد أهل القيروان ومن أنتدب معهم قوما للرّباط، فكثروا هنالك وأستقلّوا بمدينتهم . . . والواجب أن لا تقبل دعوى قروي على سوسي والعكس بالعكس" [10] . ومهما كانت درجة المبالغة في هذا الخبر، فهو يعكس حقيقة لاجدال فيها، وهي أنّ منطقة السّاحل بزيتونها كانت "مدار غلاّت إفريقية" [11] ولعبت - مثل صقلّية - [12] دور منطقة التوطين لجزء من قدامى المحاربين. [13] لكن وإن كنّا نعرف طبيعة الخدمات التي يؤدّيها هؤلاء في الجزيزة الكبرى - قطع الخشب لصالح دور صناعة السفن - [14]، فإنّ الأمور تبدو أكثر تشعّبا في إفريقية، وهذا يرجع ربّما إلى آختلاف الفقهاء في تحديد نوعيّة أراضي إفريقية، أي هل أفتتحت عنوة أم صلحا [15] . على أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ أغلب أعيان القيروان، خاصّة المقرّبين من العرش الأغلبي، كانوا يملكون بالسّاحل قرى وضيعات شاسعة، مثل ابن مسروق وعلي بن سلم البكرى وعيسى بن مسكين وبني نافذ، وسحنون بن سعيد.

---

9) المالكي، I، ص. 11 . انظر أيضا : أبن ناجي، I، ص. 7,

10) التيجاني، 1981، ص. 33 . حسب الهادي روجي إدريس (*الدولة الصنهاجيّة*، تعريب حمّادي السّاحلي، بيروت 1992، II. ص. 47)، "هذه العداوة المتوارثة تعطى أهميّة بالغة للمأدبة التي أقيمت بمناسبة إصطلاح أهل القيروان وسوسة".

11) التيجاني، ص. 49

12) الدّوادي، كتاب *الأموال*، نشر حسن حسني عبد الوهاب وفرحات الدّشراوي، تحت عنوان : *"Le régime foncier en Scile au Moyen âge"*, *in Etudes d'orientalisme dédiées à Levi-Provencal*, Paris 1962, II, p. 416.

13) F. Dachraoui, *Le califat fatimide au Maghreb*, Tunis, 1981, p. 32.

14) الداودي، ص. 16+، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 30

15) المالكي، II. ص. 250 ؛ الدّاودي، ص. 428-429 ؛ II، ص. 250 ؛ الدّاودي، ص. 428-429 ؛ M. Talbi. *Etudes d'histoire Ifriqiyènne et de civilisation musulmane médievale*, Tunis 1982, p. 185.

فمحمّد بن مسروق، كان والده من رجال موسى بن نصير[16]. ويعرف عنه أنه كان قبل ان يتزهّد "يفتضّ كلّ يوم عذراء. . . وكان يمرّ بالقرية من قرى ابيه، فيخرج اليه اهلها ومن فيها فيقولون : نحن عبيدك وكلّ ما ترى في هذه القرية فهو لك. . . ومحمد بن مسروق هذا هو صاحب المسروقين التي على طريق السّاحل"[17]. أمّا علي بن سلم البكرى، فهو أبن سحنون من الرّضاع وولاّه قضاء السّاحل[18]. وكان أيضا من أهل الخطط[19]، ممّا جعله يملك عدّة منازل[20]، منها قرية جبنيانة[21]. هذه الثروة الضخمة مكّنته من أن يشيّد على نفقته الخاصّة أسوار وجامع صفاقس وعدّة محارس بنفس المنطقة[22]. وإلى جانب جبنيانة، كانت توجد قرية بني نافذ (بليانة)[23] الذين تولّوا الوزارة أيام بني الأغلب. والشئ نفسه ينسحب على عيسى بن مسكين، قاضي افريقية، الذي كان يملك بالسّاحل قريته الخاصّة[24].

وكان سحنون بن سعيد - صاحب المدوّنة -، بالرّغم من تواضع جذوره الإجتماعية يملك بمنزل صقلاب وبناحية صفاقس 12000 أصل زيتون،[25] في حين أنّ ضيعة صاحبه عبد الرّحيم بن عبد ربّه الزّاهد صاحب قصر زياد كان بها 17000 أصل

---

16) المالكي، I، ص. 193 ؛ 196 M. Talbi, *Etudes, p.*

17) المالكي، I. ص. 193. المسروقين تعرف اليوم بسيدي الهاني. أنظر في هذا الصدد : البهلي النيّال، *حقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي*، تونس 1962، ص. 233. وتوكّد التسمية القديمة *Vicus Augusti* التّواصل بين الملكيّة الكبيرة الرّومانية والإسلامية

18) حول هذه الشخصية ، أنظر خاصّة : اللّبيدي، *مناقب أبي إسحاق الجبنياني*، نشر الهادي روجي إدريس ، باريس 1959.

19) أي الذين شملتهم عملية توزيع الأراضي على الفاتحين الجدد. راجع في هذا الصدد : أبن منظور، لسان العرب، VII، بيروت 1956، ص. 288.

20) كلمة منزل تعني عادة القرية ويضاف إليها غالبا إسم أول من نزلها أو تملّكها. كما أنّ هذا المصطلح يمكن ان يحمل في طيّاته معنى القرية - المحطّة للتجّار والبريد. انظر في هذا الصدد : حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، ج : II، ص. 80.

21) المالكي، ج. II، ص. 261.

22) اللّبيدي، ص. 197 ؛ M.Talbi, Etudes p.189.

23) المالكي، ج. I. ص. 427-428، اللّبيدي، ص. 55، مقديش، II. ص. 226، الهادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجيّة*، II، ص.

24) مقديش، ج. II، ص. 246، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 104

25) عياض، ترتيب المدارك، تحقيق محمد الطّالبي، تونس 1968، ص. 163، ابن ناجي، II، ص 65، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، II، ص. 100,

من نفس الأشجار [26] . كذلك كانت ليعقوب بن المضّاء - أحد أفراد العائلة الأغلبيّة - عدّة ضياع بناحية جمّة (المهدية) ، صادرتها - مثل ممتلكات آل الجبنياني - الدولة الفاطميّة . [27]

إنّ هذه الحركيّة خلقها الفراغ الذي تركه رحيل الرّوم، بعدما جعلوا من منطقة السّاحل آخر مناطق الصّمود المسيحي في بوزاقيّة، وهو ما يؤكدّه المالكي في حديثه عن حملة عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح، الذي "أقام في سبيطلة، فلّما رأى الرّوم الذين بالساحل ما حلّ بجرجير وأهل سبيطلة غارت أنفسهم وتجمّعوا وكاتب بعضهم بعضا في حرب آبن أبي سرح" [28] . كما أنّ أسد بن الفرات قال لجنده قبل غزو صقليّة " هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم. "وفسّر المالكي معنى قول أسد "هؤلاء عجم السّاحل الذين هربوا منه لمّا فتحت إفريقية" . [29] ونحن نعرف أن آخر اماكن تواجد فيها الرّوم بكثافة كانت الساحل والوطن القبلي، أي الجهات التي تكاثرت فيها الأربطة. وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه آنفا، حول وجود قاسم مشترك بين الاربطة وعمليّة توطين الفاتحين الجدد في أراضٍ استولت عليها الدولة الجديدة.

ابّان الحملة الأولى على إفريقية، لم يحاول عبد الله بن أبي سرح التوغّل اكثر في شمال البلاد ، بل اكتفى بما غنمه من مزاق ، و"صالح أهل الحصون والمدائن على ألف دينار من الذّهب" [30] . كما أنّه "وجد أكثر أموالهم الذهب والفضّة فغنم منها وسألهم من أين لكم هذا ؟ فجعل أحدهم يلتمس شيئا من الأرض فأتاه بنواة زيتون وقال له من هذا أصبنا هذه الأموال" [31] . هذا الزيتون الذي لعب دورا هامّا في آزدهار هدريم Hadrumetum و الجم Thysdrus في العصر الرّوماني ، كان أيضا يشكّل في منتصف القرن السّابع الثروة الأساسيّة لبلاد السّاحل، وربّما أيضا منطقة القيروان[32] لكن أنخرام الأمن بعد الغزو الوندالي أدّى الى تراجع العمران والحياة الإقتصادية، حتى أن

26) حول قصر زياد انظر خاصّة: N.Djelloul, "A propos d'un toponyme de la région de Sfax : Qasr Ziyad", in Actes du colloque : La dynamique économique à Sfax entre le passé et le présent, 28-30 novembre 1991.

27) الداعي إدريس، *أفتتاح الدّعوة*، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، 19، ص. 90، اللّبيدي، ص. 7، M. Talbi, Etudes, p. 191

28) المالكي، I ، ص. 27.

29) *نفس المصدر*، ص. 272 .

30) المالكي، I، ص. 19، التيجاني، ص. 46,

31) التيجاني، ص. 46,

32) محمد الطّالبي، *دراسات*، ص. 131 .

بركوب Procope " لا يتحاشى أن يجزم في تاريخه السرّي أنّ إفريقية أصبحت من الخراب بحيث يعجب المسافر إذا ما ألتقى، بعد مراحل طويلة، برجل من الرّجال"[33]. كما أنّ الأموال التي غنمها ابن سرح يمكن ان تدعّم هذا الرّأي، ذلك أنّه إبّان الأزمات السياسية، يعمد النّاس الى كنز الذهب عوض إنفاقه[34].

إنّ الدّراسات الحديثة حول إفريقية البيزنطية تدعونا اليوم إلى مراجعة كتابات شارل ديال Ch. Diehl ومحمد الطّالبي حول هذه الفترة[35]، دون أن ننفي تماما حقيقة التّراجع التي عرفته البلاد بالنسبة إلى عصر السّفيريّين Sevères. هذا التّقهقر سوف يتداركه العرب، خاصّة الأغالبة الذين ساهموا بقسط وافر في جعل السّاحل فحصا "كثير السّواد من الزيتون والشجر والكروم... وفيه قرى كثيرة متّصلة بعضها ببعض... وفي جميع المراحل حصون متقاربة يسكنها العبّاد والمرابطون"[36]. كما أنّ مؤسسة الرّباط التي تطوّرت خاصّة في هذه المنطقة ارتبطت بعمليّة الإحياء والتّعمير وساهمت من هذه النّاحية في تشكيل طابعها الحالي والمتميّز بزراعة الزيتون والبقول وتعدّد القرى. هذا الارتباط بين عالم الزيتون والسّاحل سيتأكّد في العصر الحفصي، فبعد انقراض غابة صفاقس[37] أصبحت حدود هذه المنطقة تقريبا هي نفسها التي يعرف بها حاليّا الساحل الإعتباري، أيّ ولايات سوسة والمنستير والمهديّة.[38] في حين أصبح الشريط البحري - الجنوبي ينعت أكثر فأكثر بوطن صفاقس.

مدينة - رباط سوسة. (شـ. 15 - 17 -، لـ. 16 - 17)

كانت كلّ مدينة سوسة الأغلبيّة تعتبر رباطا[39]، وهذا يبرز بصفة جليّة من خلال عدّة تراجم أفردها المالكي وعياض وابن ناجي لنسّاك هذا الحصن[40].

---

(33) نفس المرجع، ص. 126. انظر أيضا : Ch. Diehl, L'Afrique Byzantine ; p. 282.

(34) محمد الطالبي، *دراسات*، ص. 125.

(35) أنظر خاصّة : D.Pringle, *The defences of Byzantin Africa, from Justinian to the arab* conquest, Oxford 1981, 2 vol.

(36) اليعقوبي، *كتاب البلدان*، ليدن 1892، ص. 102.

(37) التيجاني، ص. 41، 49.

(38) التيجاني، ص. 17 و1981، ص. 23. "من آخر أرض وادي الرّمل وبالتحديد من قرية المرصد شمالا الى رأس قبّوديّة جنوبا".

(39) عرّف ياقوت الرّملة بأنّها "مدينة عظيمة، كانت قصبة فلسطين وكانت رباطا للمسلمين". حول مفهوم المدينة - رباط أنظر أيضا : L. Golvin, "Notes sur le mot ribat" in, R.O.M.M, 1 et 2 ème Semestres ; 1969, p. 95-101

(40) هذه التّسمية - ايّ الحصن - كانت الأكثر شيوعا في العصر الوسيط. انظر المالكي، II، ص. 5، 414.

- سأل ابراهيم الثاني (261 -289 هـ / 875 -902 م) أبا الأحوص أحمد بن عبد اللّه (تـ : 284 هـ / 897 م)، أحد مرابطي سوسة في بعض زياراته أنّ "يكلّفه حاجة يقضيها له، فقال له "هذا البلد قد عمّر، وهو ثغر، وأهل إفريقية إليه مقصدهم وهو مرابطهم، والقرويّون في ليلة كلّ جمعة يرابطون فيه والجامع يضيق بهم، وأحبّ أن تزيدهم فيه وهذه الدّواميس تجرى إليها ساقية من خارج المدينة، وتوصل إليها ماء السّماء فينتفع بذلك النّاس والأرامل والأيتام، ويجد فيه راحتهم أهل الموسم من الغرباء والمرابطين والمنقطعين الى ربّ العالمين لجلّه وقدم أجله . وتخرج الذين حبستهم في الدّواميس من أهل تونس. فأجابه الى جميع ذلك وأخرج المحبوسين، وزاد في الجامع الثلاثة سقوف العالية التي تلي القبلة . . . ويقال أنّه سأله أيضا أن يبنى للمسلمين مصلّى يصلّون فيه يوم العيد ففعل ذلك" . [41].

"وذكر أيضا أنّ إبراهيم بن أحمد أظهر يوما في قصره عزفا ولهوا ، فدخل رجل من المتعبّدين الى المسجد الجامع من بابه الغربي فقال لأصحابه : قوموا بنا الى هذا الرّجل، فقد أحدث علينا أمورا لا نعرفها، ولا نصبر عليها ، فإمّا أن يزيل عنّا هذا الأمر وإلاّ فنحن نخرج وأرض الله الواسعة. ونحن إنّما سكنّاها للّه الواحد القهّار. فخرج من باب الجامع الشرقي فصحبه نحو سبعين رجلا من المتعبّدين، فتوجّهوا إلى قصر إبراهيم، فملؤوا الفضاء الذي بين يدي القصر مع من تبعهم، فوجدوا الأمر الذي يكرهونه قائما من اللّهو والعزف. فقالوا له : نحن إنّما جئنا الى هذه المدينة وسكناها للّه الواحد القهّار، وقد أحدثت علينا هذه الأمور من اللّهو والعزف، فإمّا أن يقطع عنّا هذا الأمر وإلاّ فنحن نخرج عنها وأرض اللّه واسعة. . . فخرج الأمير الى قبّة الرّمل فكان يخلو فيها بمن يحبّ، فإذا قضى وطره رجع ليلا الى قصره" . [42]

هذه المدينة التي تحيط بها الأسوار كانت - نظرا لهذه الوظيفة - تعتبر "طرسوس المغرب." [43] وكان يحي بن عمر (تـ . 289 هـ / 902 م) يقول : "إنّما هي عندي مثل الإسكندرية وعسقلان وهذه المواضع التي ذكر فضلها في الحديث" . [44] . وكانت

---

41) *نفس المصدر*، I، ص. 486.
42) المالكي، ص. 480.
43) *نفس المصدر*، I. ص. 486 .
44) المالكي، I. ص. 500. حول "فضل المصيّصة وعسقلان" انظر : التيجاني 1981، ص. 32. وقد وردت الأحاديث خاصّة في فضل المصيّصة وعسقلان والمنستير ورادس.

- مثل باقي الحصون [45] تغلق أبوابها ليلا ولا تفتحها قبل طلوع الشمس. [46] وأرضها - ككل الرّباطات - أحباس، لا يمكن بيعها. وذكر عياض أنّ أحد مرابطي سوسة، محمد بن رزين (ت. 255 هـ / 868 م) "كان أول من باع من أهل العلم دارا بسوسة، إذ كان الفقهاء لا يرون بيع دورها" [47].

عملية البيع التي أقدم عليها ابن رزين، ربّما تنذر ببداية تدهور مؤسّسة الرّباط، أو على الأقل تراجع سوسة كمركز للعبّاد وتحوّلها الى تجمّع حضري عاديّ. ويخبرنا التيجاني في هذا الصدد أنّ "الأمير أبا إبراهيم أحمد (242 - 249 هـ / 856 - 863م) جدّد سورها وألحقها بالمدن" [48]. يؤكّد ذلك ما أورده المالكي بشأن "قوم من الجزريّين بزقاق الرّوم يكبّرون في أيام العشر ويرفعون أصواتهم بالتكبير". وكان يحي بن عمر يجوز عليهم إذا مضى إلى الجامع ويسمع تكبيرهم، "فنهاهم عن ذلك وقال لهم: هذه بدعة، فلم ينتهوا. فيقال أنّه دعا عليهم فصار ذلك المكان خرابا، وأقام كذلك مدّة ثمّ عمّر بعد ذلك". [49] والتكبير والتطريب من عادات المرابطين التي ذكرها سحنون في المدوّنة[50]، أمّا الجزريّون فهم بلا شك عبّاد الجزيرة الذين وفدوا إلى سوسة باكرا واستقرّوا بها. [51] وربّما يعود حرب دورهم الى تراجع وظيفة الرّباط الأولى (لصالح صناعة السّفن والنشاط العسكري بصفة عامّة) وبالتّالي إهمال الأماكن المخصّصة لهؤلاء النسّاك. [52] هذا التّدهور ربّما يفسّر أيضا "التفسّخ" الأخلاقي الذي انسابت عدواه الى المرابطين أنفسهم، والذي

- المالكي، I، ص. 15، 16.
- قال أبو جعفر القمّودي (ت. 324 هـ /935 م) "بينما أنا سابت إذ وقف بي شخص فقال لي: إن أردت أن ترى وليّ الله تعالي فأخرج الى مسجد الدّمنة - يريد المصلّى الذي في قبلة الدّمنة - فقمت من فوري الى الذي عنده مفاتيح أبواب المدينة فسألته أن يفتح لي فقال لي: تفتح حصن المسلمين في هذا الوقت؟ فقلت له: افتح لي الباب وكن من ورائي فإن خرجت فأغلق الباب . . . ففعل البوّاب ذلك لجلالته". المالكي، II، ص. 6.
- ويذكر نفس المؤلف (II، ص. 230) أنه "لما وافت أبي جعفر المنيّة" نفر النّاس من القيروان من صلاة الظهر الى العشاء الآخرة فأتوا باب سوسة [الباب القبلي] سحرا . . .، فقال البوّابون لم يمت، فانتظر النّاس الى طلوع الشمس. فمات رحمه الله تعالي".
- عياض، 1968، ص. 156؛ G.Marçais, "Notes sur les ribats en Berberie", in Melanges d'histoire et d'Archéologie de l'Occident musulman, Alger 1957. ج. 2. ويذكر ابن ناجي (I، ص. 37) "أن موسى بن معاوية الصمادحي سأله زيادة الله عن عمود في مسجد خرب بالسّاحل أراد تحويله الى المسجد الجامع بالقيروان فقال إنّه لا يجوز".
- التيجاني، ص. 26.
- المالكي، I، ص. 497، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، II ؛ ص. 52.
- المدوّنة، II، ص. 42. "قوم يكونون في الحرس في الرّباط فيكبّرون ويطرّبون".
- عن المالكي، I، ص. 340.

حاول الحسن بن نصر (تـ 341 هـ / 954 م) محاربته لما ولاّه زيادة اللّه الثالث قضاء المدينة.[53] وسيتواصل هذا التراجع مع بداية العصر الفاطمي، خاصّة وأنّ عبد اللّه المهدي - دون أن يعطّل تماما مؤسسة الرّباط مثلما يحاول أن يوهمنا بذلك اخباريّو السنة -[54] عمل على إضعافها،[55] فبرزت بسوسة الملاهي ودور الخمر،[56] وهو ما يتنافى "عادة " مع حياة الزهد والرّباط.

ومع بداية حكم الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور (334-341هـ/ 946-953م)، الذي سلك سياسة مصالحة مع المالكية[57]، إستعادت سوسة (على الأقل بالنسبة الى زهّاد المالكية) لفترة دورها التقليدي. ويذكر صاحب رياض النفوس ان الحسن بن نصر نفسه بعد أن" قطع من سوسة الملاهي وكسر ما في دار الخمر من أواني، سمع حسّ مزمار من ناحية قصر طارق. فقطع ما هو فيه ونزل الى باب داره، ففتحه وصاح الى بعض جيرانه وقال : إلتمسوا لي هذا المزمار في أي دار هو وعرّفوني بذلك، فمضوا حتّى وصلوا الى قصر طارق فسألوا أهل القصر عمّن نزل بالمسكن الذي بناه طارق غربيّ قصره، فقالوا : نزل به رجل من هؤلاء القوم يقال له الأمير طاهر جاء من المهدية وهو إبن

52) أنظر في هذا الصدد ما أورده المالكي (II، ص. 456) بشأن المرابط أبا حفص عمر بن عبد اللّه الصدفي (تـ. 349 هـ / 960 م) المقيم بقصر ابن الجعد "فأذا تكاثر النّاس بالمنستير أيّام الموسم يخرج الى سوسة لمّا إشتهر أمره وكانت له بها زوجة فيقيم بها ، ويلبس ثيابا جميلة ويتزأ بزي حسَن ويتصرّف في الأسواق كتصرّف التجّار ليخفى بذلك حاله" . كذلك يحي بن عمر، بالرغم من حبه لسوسة، كان يرابط بالمنستير كلّ رمضان (المالكي I، 437، 500)

53) المالكي، II، ص. 403.

54) ابن ناجي، II، ص. 199 "عبد اللّه المهدي اخذ أموال الأحباس والحصون وأخذ السلاح الذي في الحصون التي على ساحل البحر" راجع ايضا المالكي، II، ص. 260.

55) حول تواصل المرابطة في العصر الفاطمي انظر : المالكي، I، ص. 200، 230-230، 382، 446 ؛ F.Dachraoui, Le califat fatimide, p. 394, N. Djelloul, " *A propos d'un toponyme*", *passim.*

56) المالكي، II، ص. 401، التيجاني، ص. 53 ذكر سلمان بن محمد المهري أنه كان بسوسة شاعرا يهوى غلاما من غلمانها وكان الغلام يعرض عنه فحرق داره بعد ان شرب وقال :

لما تمادي على بعـــــادي	وأضرم النّار في فؤادي
ولم اجد من هواه بـــدّا	ولا معينا على السّهـاد
حملت نفسي على وقوفي	ببابه حمـــلة الجـــواد
فطار من بعض نار قلبي	اقلّ في الوصف من زناد
فأحرق الباب دون علمـي	ولم يكن ذاك من مـرادي

57) الداعي إدريس، عيون الأخبار، نشر فرحات الدشراوي، تونس 1979، ص. 194-197، 215.

58) المالكي II، ص. 401 .

عمّ إسماعيل السلطان، أتى معه بالمسكر والملاهي، فرجعوا الى الشيخ وعرّفوه بذلك فقال لهم : تصلون الى هذا الفاسق وتقولون له : أتيت بالمنكرات إلى رباط المسلمين وثغر من ثغورهم، أخرج عنّا وإلاّ جاهدناك حتّى تخرج. . . فقال لهم : أنا منصرف عنكم بالغداة، وقطع التي كانت عنده ولم يسمع منه بعد النكير عليه شيء"[58]

كتب الطّبقات هي بدون منازع أهم مصادرنا حول الرّباطات التونسية . لكن رغم الترتيب الزّمني الذي إعتمدته أغلب هذه المؤلّفات ، فإنّها لا تعطينا فكرة شافية حول التطوّر العمراني لمدينة سوسة؛ نفس الشيء بالنسبة الى الدّراسات التّاريخية والأثرية العديدة التي إهتمّت بهذا الموقع،[59] لأنّها إكتفت في الغالب بالتركيز على بعض المعالم الشهيرة التي أحدثت في العصور الإسلامية الأولى مثل التحصينات[60]، "قصر الرّباط"[61]، المسجد الجامع، مسجد بوفتاتة[62] والقصبة[63] . وبدون أن نكرّر ما كتب حول هذه المنشآت ، سنحاول أن نضعها في إطارها العمراني وخاصّة في علاقتها مع مؤسسة الرّباط التي تهمّنا بالدّرجة الاولى في هذا البحث .

التطوّر العمراني والنشاط المعماري

يبدو أنّ مدينة هدريم *Hadrumetum*[64]، بعد أن كانت قاعدة لمقاطعة مزاق الرّومانية، تدهورت فيما بعد الى حدّ نسيان إسمها القديم (خلافا لما حدث بالنسبة الى مدن قفصة

---

(59) انظر خاصة. حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 15-84، مراد الرّماح، سوسة من *الفتح الإسلامي* الى مجيء ؛ *الفاطميين*، شهادة التعمّق في البحث، كلية العلوم الإنسانية، تونس 1980. (مرقونة)؛ C.Hannezo, *Sousse de 146 av.J.C à nos jours*, Sousse 1906 ; G.Marçais,"Sousse et l'architecture musulmane du IX ème siecle", in, Annales de l'Institut d'Etudes orientales, Alger 1948, ID, L'architecture musulmane d'occident, Paris 1955, pp. 23-25, 30-31, A. Lezine, Architecture de l'Ifriqiyya, recherches sur les monuments aghlabides, Paris 1966 ; I.D, Sousse, les monuments musulmans , Tunis 1967.

(60) انظر خاصّة : N.Djelloul, Les installations militaires et la défense des côtes tunisiennes, thèse, Paris-Sorbonne 1988, II, pp. 477-497.

(61) A.Lezine, Le ribat de Sousse, suivi de notes sur le ribat de Monastir, Tunis 1957; I.D, "Deux ribats du Sahel tunisien", in Cahiers de Tunisie, IV, 1956, pp.275-288.

(62) L.Golvin, Essai sur l'architecture religieuse musulmane, Paris 1974, III, pp. 212-219; ك.أ.س. كرزويل، الآثار الإسلامية الأولى، تعريب عبد الهادي عبلة ، بيروت 1984، ص. 352-360.

(63) A.Lezine, Sousse, pp. 47-48; N.Djelloul, op.cit T. II,pp. 492-496

(64) حول المدينة الرومانية انظر خاصّة :
C.Hannezo,"Observations sur le tracé du plan d'hadrumette par Daux", in Revue archéologique. XXX, 1897,pp. 20-29; L.Foucher, Hadrumetum, Paris 1942

Capsa، باجـة Vaga، الأربس Laribus، شـقـنـبـاريّة Sicca Veneria التي حـافـظت على مكانتها في بداية العصر الوسيط[65]. فسوسة لمّا طرقتها جيوش ابن الزّبير سنة 34 هـ/ 654 م لم تكن سـوى مـركـز عـسكري صـغـيـر تحـوّل الى قـريـة بعـد إنهـيـار السلطة البيزنطيّة[66]. هذا المركز سوف لن "يعمّر"[67] إلاّ في منتصف القرن التـاسع الميلادي، لمّا تـوافد عليـه المرابطون وأحـدث به الأغالبـة إحدى دور الصنّاعـة الهامّة فـي الغرب الإسلامي. ويفهم من كـلام أبي الفضل مسرور، مولى نجم الصيّرفـي المرابط بسوسة، أنّ هذه النّواة الأوليّـة كانت قصـر الرّباط أو محـرس الرّباط الذي كان يعـتكف به بعض الزّهاد ويأوى إليه سكان البوادي المـجاورة إبّان غزوات الرّوم.[68] هذا المحـرس يعود إحداثه الى فترة يزيد بن حاتم المهلّبي (155 هـ 171 هـ / 772-788 م) الذي يرجع له الفضل أيضا في بناء المعلم المصطلح عليه حاليا "برباط سوسة"[69].

ولمّا اعـتلى ابراهيم بن الأغلب عرش إفريقـية (184-196 هـ/ 800-812 م) عمل على تطوير مؤسـسة الرّباط، خـاصّة وأنّه كان مـقرّبا من أوساط فـقهاء المـالكيّة[70]، أشدّ المدافعيـن عن المرابطة، ممّا حدا بهم الى وضع الأحاديث في شـأنها. وقد يكون هذا الأميـر أوكل لتابعـه هارون بن موسى[71] بإحداث مـسجد وقـصر جديـد (مكان الجامع الحـالي) وبعض الدّور لسكنى المـرابطين. خـليفـتـه الثـاني زيادة الله (201-223 هـ/ 817-838م)، أعطى دفعا جديدا لهذا التجمّع السّكنى بإنشاء دار الصّناعة في 206 هـ/ 821 م، أي في نفس السّنة التي أضيف فـيها المنار المسـتدير الذى يعلو الركن الجنوبي

65) الهادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II. ص. 40، 74، 78، برنشفيك، *تاريخ إفريقـية*، I، ص. 333-336.

66) التيجاني، ص. 26؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 50؛ ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، 1986، III، ص. 282 المالكي، II، ص. 240-241.

67) المالكي، II، ص. 240 - 241.

68) قال أبو الفضل (تـ: 324 هـ935 /). "كنت بسوسة منذ أربعين سنة فجاءت مخاوف من العدوّ ومشت مراكبه في البحر فـأخذ الوالي أهل سوسة وأصحاب النوّالات وغيرهم بالحرس نوبا، وكان المرابطون في ذلك الوقت قليلين، فلمّا سمع النّاس بذلك جعلوا مقبلين الى سوسة وكثر النّاس، فخرجوا الى رملة سوسة مستعدّين، حارسين ذرارى المسلمين. فـإنّا ذات ليلة في ذلك نحرس وقد علوت في المحارس ورأيت أهل الدّور يمشون في ضوء السّرج حتّى جنّ اللّيل، فسمعت صبيّة وهي تقول لأمها : يا أمّاه قد جاء المرابطون يحرسوننا قم بنا نرقد، فأعجبني ما سمعت وأغتبطت بما فتح الله عزّ وجلّ لي من ذلك". المالكي، II، ص. 240-241.

69) محمد الطالبي ، الدولة *الأغلبية*، تعريب المنجي الصيّادي ، بيروت 1985 ، ص . 431 ، A.Lezine, Le ribat de Sousse; p. 21

70) محمد الطالبي، *الدولة الأغلبية*، ص. 147-148.

71) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 21-22.

- الشرقي "لقصر الرّباط،[72]" لتسهيل عملية تنقّل السّفن الحربيّة . هذا الإهتمام الجديد بسوسة يواصل نفس السياسة التي سلكها إبراهيم الأول، أي التّقارب مع أوساط المالكية[73]، خاصّة وأنّ تونس التي إنفردت - مع النّوبة - بأغلب العمليات البحرية الموجّهة ضدّ جزر المتوسط[74] تعدّدت بها حركات العصيان، ممّا حدا بزيادة اللّه الى تهديم سورها سنة 218 هـ/833 م[75] . ويفسّرهذا التوجّه تعيين الفقيه أسد بن الفرات على رأس الحملة التي خرجت سنة 827 (من سوسة) لغزو صقليّة.[76]، كما أنّ منطقة الساحل بصفة عامة - إضافة الى قربها من القيروان - بقيت طيلة الثّورات التي عصفت بالإمارة على ولائها للدولة المركزيّة[77]، وقد لعب المرابطون بدون شكّ دورا في صياغة هذا الموقف[78] . إلى جانب هذه العوامل السياسّة والمذهبيّة، كانت سوسة من الناحية الحربيّة الصرفة تمثّل موقعا ممتازا لإقامة دار الصّناعة الجديدة. فهي مجهزّة منذ العصر الرّوماني بميناء إصطناعي خارجيّ، ويتمتع أهلها - رّغم تراجعها العمراني - بتقاليد بحرّية تعود الى العصر البوني.

المنشآت الجديدة تمثلت خاصّة في حوض داخليّ لتزليق السّفن يحتلّ المنطقة التي توجد اليوم شرقيّ الجامع. ويتّصل به عدّة مباني - خزائن البحر - لصنع وتخزين المعدّات الحربيّة والبحريّة من خشب وقلوع وسلاح. أمّا دور الاسطوليّين فالمرجّح أنّها أقيمت جنوب هذا المركّب (منطقة سيدي بوراوي) أي بنفس الحيّ الذي توجد فيه مساكن ونوّالات المرابطين. على أنّه بالرّغم من هذا التطوّر بقيت سوسة قبل كلّ شيء مركزا عسكريّا ومقرّا للمرابطة. والمرابطون أنفسهم، رغم إستقرار العديد منهم بهذا الحصن[79]، كان أغلبهم سكّانا موسميّين، أي من أصحاب الدّور أو من "أصحاب الموسم"، خاصّة وأنّ الفقهاء إختلفوا حول مسألة أساسية وهي هل "أنّ الرّباط يحصل

72) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 20 ؛ محمد الطالبي، الدولة، ص. 431، A.Lezine, Le ribat de Sousse, p. 22

73) إبن ناجي، II، ص. 75 "أمراء بنو الأغلب كانوا يخرجون من رقّادة ليلة نصف شعبان لزيارة دور العبّاد والعلماء والمحارس"

74) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 23.

75) محمد الطّالبي، الدولة ص. 233 -234، N. Djelloul, Les installations militaires , I, P. 195.

76) محمد الطالبي، *الدولة*، ص. 237، 456-457 .

77) M. Talbi, Etudes, p.190

78) N.Djelloul, A propos d'un toponyme de la région de Sfax Qasr ziyad", passim.

79) المالكي، I. ص. 414-415 .

لمن خرج عن أهله وسكن بالسّواحل أو من أستوطن بها"[80] . لهذا نرى بعض العبّاد مثل إبن سهلون "يرى أهله وولده في السّنة مرّة واحدة ثم يخرج عنهم إلى سياحته"[81]، في حين كان أبو الحسن علي الأنصاري يلقب بـالسائح لكثرة تنقله بين الحصون[82] . وكان أهل الدّور خاصّة من النسّاك الذين يقيمون في القيروان أو برباطات الشريط السّاحلي ويقضون أغلب فترات حياتهم في السياحة[83] وريادة القصور. وقد أطلق على ذلك لفظ الدّور، أي المجموعات التي "تدور" وتتفقّد بصفة دوريّة الحصون[84] مثلما كان يحدث على نطاق ضيق في "خرجة ابي سعيد الباجي"[85] . وخلافا لأصحاب الدّور فإنّ أصحاب الموسم كانوا غالبا "نسّاكا" عاديين من سكّان القيروان والقرى المجاورة لسوسة،[86] يرابطون بها خلال شهر رمضان وخاصّة أيام الجمعة وعاشوراء. [87] وتوسيع الجامع والمواجل في فترة لاحقة لايدلّ بالضرورة - مثلما ذهب الى ذلك أ.لزين -[88] على نموّ سكان الحصن، بل يفسّره قبل كلّ شيء تدفّق "أهل الموسم من الغرباء والمرابطين"[89]، تماما مثلما يحدث اليوم في بعض المحطّات السياحية الكبرى في فصل الصيف.

---

80) عقّب إبن ناجي (I، ص. 7) على قول عقبة بن نافع "فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم. ." بأنّه تأكيد على "أنّ الرّباط يحصل بسكنى الأهل ونصوص الفقهاء إذ أنّ الرّباط لمن خرج عن أهله وسكن بالسّواحل. أمّا من إستوطن بها فلا يحصل له فضل الرّباط". وربّما لأجل هذا كان يحي بن عمر الذي إستوطن سوسة يرابط بالمنستير خلال شهر رمضان. (المالكي I، ص. 437-500).

81) المالكي، II، ص. 262,

82) أبو الحسن على الأنصاري السّائح، أحمد السّائح (المالكي، II، ص. 257، 262) كما ذكر إبن ناجي في ترجمة أبو القاسم عبد الوهاب بن عبد الله "أنه كان كثير السياحة والرّباط لا يمرّ بشرف ولا بقبر ولا روضة حسنة إلا وركع فيها".

83) حسب ما يتّضح من ترجمة ابي القاسم عبد الوهاب، هنالك إرتباط بين السّياحة والتصوّف وهذا يفسّر الأحاديث التي نهت عنها.

84) انظر شرح هذه اللّفظة في : دوزي : *ملحق القواميس العربيّة*، I، ص. 470. كما تحدّث عن ذلك المالكي في عدّة تراجم : II، ص. 241 (ترجمة ابي الفضل مسرور "أهل الدّور يمشون في ضوء السّرج" ؛ II، ص. 257 (ترجمة سعدون الخولاني) "أبو الحسن الأنصاري السّائح : كنّا مع سعدون في الدّور الذي يدور على الحصون حتّي حاذينا تونس"، وص. 258 "بلغ عبيد الله ان سعدون يجتمع إليه خلق من الناس يخرج بهم الى الدّور"، ص. 347 "قال مكّي بن يوسف : رابطنا ومشينا الدّور ومحمود القطّان معنا ، ونحن على السّاحل ، فأصابني عطش".

85) انظر حول هذه الخرجة : S.M Zbiss, Sidi Bou Said, Tunis 1971, p. 19 N.Djelloul, Les installations militaires, I, p. 324.

86) المالكي، II، ص. 225، 230 403.

87) *نفس المصدر*، I، ص. 486، II، ص. 225، 403 .

88) A.Lezine, "Sur la population des villes africaines ", in, Antiquités Africaines, III, 1969, p. 69-82 (80-81).

89) المالكي، I، 6 ص. 486.

هذه النواة العمرانية الأولى كانت تتركّب من منشآت دار الصناعة و"قصر الرّباط" الحالي ودور الأسطوليّين والمرابطين. أمّا الجامع الكبير، فربّما كان استحكاما عاديّا قبل أن يتحوّل الى مصلّى.[90] لكن من المؤكّد أنّ كلّ هذه التجهيزات كانت تفتقر الى سور يحميها، ولهذا جهّزت أركان المسجد بأبراج ضخمة لحماية حوض دار الصّناعة[91] . أما السّور الذي يتحدّث عنه ابو الفضل مسرور فقد أحدثه زيادة الله الأوّل في مرحلة ثانية لتدعيم الطّاقة الدّفاعية لهذا المركز البحرى.[92] ويذكر المالكي في هذا الصدد أنّ الأمير الأغلبي قال بعد الفراغ منه "لا أبالي إذ شاء الله، ما قدمت عليه يوم القيامة وقدّمت أربعة : بنائي المسجد الجامع بالقيروان، وبنائي القنطرة بباب أبي الرّبيع وبنائي الحصن بسوسة، وتوليتي أبي محرز قضاء إفريقية".[93] هذا الحصن لا يمثّل (مثلما ذهب الى ذلك بعضهم)[94] مبنى "الرباط" الحالي الذي لا يتّسع لأكثر من خمسين شخصا[95]، بل يضمّ كلّ هذا التجمّع العمراني الجديد المحاط بسور صخري. وقد أكّد ذلك كلّ من البكري وياقوت عندما ذكرا أنّه يوجد "داخل مدينة سوسة محرس عظيم كالمدينة متّصل بدار الصّناعة"[96]. هذا المحرس، هو نفسه حصن زيادة الله الذي تجمّعت فيه جيوش أسد بن الفرات سنة 827 م[97] وأيضا "قصر سوسة" الذي تتحدّث عنه المصادر الفاطميّة.[98] ويبدو من نصّ البكري أنّ هذا الحصن[99] لا تتعدّى حدوده جنوبا النهج الذي يلي السّفرة ومسجد سيدي علي عمّار، وغربا زاوية الزقّاق[100] . هذا الوضع يؤكده أيضا موقع المقابر التي تقام عادة خارج الأسوار، في حين أن "جبّانة الغربة"،

---

(90) حسب أ. لزين (Sousse, p.37) هذا المسجد يمكن أن يكون القصبة الأغلبية

(91) A. Lezine, *Sousse*, p. 37-38

(92) البكري، ص. 34، ياقوت، III. ص، 282، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 44.

(93) المالكي I، ص. 398.

(94) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II ص 24 ؛ G. Marçais,Architecture, p. 30

(95) A. Lezine, *Sousse, Les monuments*, p. 23

(96) البكري، ص. 34-36، ياقوت، III، ص. 282

(97) L.Golvin, "Notes sur le mot ribat", p. 96 ولا يمكن بالطّبع تجميع كلّ هذا الجيش في "قصر الرباط" الحالي.

(98) الداعي إدريس، ص. 134.

(99) حصن سوسة عند المالكي (II، ص. 414). نفس المؤلّف يذكر تارة حصن سبيطلة وتارة اخرى مدينة سبيطلة I. ص. 20).

(100) نسبة الى أبي جعفر الزقّاق، من أصحاب الأربسي والقمودي : حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 70.

أي "الغرباء من المـرابطين" توجد اليوم داخل المـدينة. وقد تزامن وجودها مع جـبّانة قبّة الرّمل التي كان يدفن بها خاصة عبّاد المدينة مثل ابي جعفر الأربسي والقمودي[101] .

أقدم مـعلم مؤرخ خـارج محرس الرّباط هو مـسجـد بوفتاتة الذي أسّـسه الأمـير أبو عقـال سنة 223 هـ/ 838 م، وأشرف علـى بنائه مولاه فـتاتة[102]. حـول هـذا المسـجد سوف يتـطوّر حيّ جديد، كـان يوجد به زقـاق الرّوم، وقد تكفّل فـتاته نفسه بإحـاطته بسور[103] مستقلّ يتّصل بهضبة القصـبة ويحوي جبّانة الغرباء. على أنّ هذه الأشغال لم تتمّ إلاّ في عهـد أبي العبّاس محـمّد الأول (226-242 هـ/ 841 -856). هذا الأخير كلّف أيضا تابعه مـدام بمباشرة بناء المسجـد الجامع الحالي سنة 236 هـ/ 850 م. [104] وتؤكـد مسـاحة هذا المـسجـد المتـواضعـة (ثلاثة بلاطات) أنّ المـدينة لم تعرف نمـّوا ديمغـرافيّا كبـيرا رغم توافد المـرابطين، وأنّ الحي الجديد الذي أقيم بـه مسجد بوفـتاته مازال في طـور التكوين، ممـّا مكّن الأمـيـر أبو العبّـاس من إقامـة قصبـة سنة 230 هـ/ 844م[105] . هذه القلعـة تتّـصل بالزاوية الجنوبيـة - الغـربيـة من السّور، حـيث أحـدث خلف، فتى أبي العبّاس، المنار المربّع الذي يتوسط القلعة الزيريّة[106] .

أبو إبراهيم أحـمد (242-249 هـ/856-863 م) الذي إتبع سـيـاسـة مصـالحـة مع العامّة وحاول إيجـاد دعائم جديدة للدولة بعد ثورة الجند[107]، عرف أيضا بكثرة إنشائه للرّباطات، إذ نسب إليه ابن خلدون إقـامة ألف حصن[108]. وفي إطار هذه السياسة نراه يهـتمّ من جديد بـسوسـة، إذ يخبـرنا إبن ناجي أن هذا الأمـيـر بني سنة 245 هـ/859م "المـاجل الكبيـر الذي بداخل القصـر"[109]. ويبـدو أنّ هذا الماجل هو نفـسه خـزّان

101) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 61-62.

102) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 65-66. G.Marçais, Architecture, p. 24.

103) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 66.

104) التيجاني، ص. 29، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 33، G.Marçais, Architecture, p. 23

105) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 39 A. Lezine, Sousse, p.37; N.Djelloul, Les installations militaires, II,p.492.

106) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 39; G.Marçais ; Architecture. p. 36; N.Djelloul, op.cit, II, p. 495.

107) محمد الطّالبي، *الدولة الأغلبيّة*، ص. 274,

108) نفس المصدر، ص. 274.

109) إبن ناجي، II، ص. 97؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 25.

سقرة الذي رممّه إبراهيم الثاني (261-289هـ/ 875-902 م) وساق إليه المياه من فسقية المريدين (التي توجد على بعد عشرة كيلو مترات جنوب سوسة)[110]. هذه الأشغال الجديدة - وكذلك توسيع الجامع-[111] تندرج في إطار تدعيم طاقات دار صناعة المائيّة والبشريّة في فترة تكثّفت فيها العمليّات العسكريّة في صقليّة.

إن فعل بنى غالبا ما إستعمل في اللغة العربيّة بمعنى رمّم وأصلح، ولذا فإنّ النقيشة التي توجد في الجدار الجنوبي من السّور (تحمل سنة 245 هـ/ 859م وإسم فتاتة)[112] لا تؤرخ في الواقع إلاّ لعمليّة التّرميم التي قام بها أبو إبراهيم أحمد وأخطأ تأريخها التيجاني[113]. وفي نفس السنة أقيمت دار الملك[114]، ربمّا داخل القصبة، بقرب دريبة العامل الحالية. ويذكر التيجاني أنّه منذ تلك الفترة "ألحقت سوسة بالمدن"[115]، أي أنّه أصبح لها - كأغلب مدن عصره - حي سكني وقصبة يتوسطها قصر الأميرأو الوالي، وهو التخطيط العام الذي يبرز من وصف الجغرافيّين والرحّالة العرب منذ القرن العاشر الميلادي[116].

التجهيزات البحريّة والتحصينات (ش . 16 - 17، ل . 18 - 20)

الى حدود سنة 1894 [117]، كان يوجد أمام سوسة، من النّاحية الشمالية الشرقيّة، ميناء إصطناعي شبه مربّع (500 X 300 م) يعود إلى العصر القديم، يتّسع لأكثر من

110) المالكي، I ص. 480، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 63. حول هذه الأشغال، انظر أيضا: G.Marçais, Architecture, p.39 ; A.Lezine, Sousse, les monuments, p.51-52

111) المالكي، I ص. 480 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 33 حول هذا المعلم انظر أيضا G.Marçais, Architecture, p. 23 ; L. Golvin, Essai, III, p. 219 ; A. Lezine, Sousse, p. 37-38

112) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص.; G.Marçais, Architecture, p.35; A. Lezine, Sousse p.38; N.Djelloul, Les installations militaires, II,p.484.

113) التيجاني، ص. 29، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 45

114) إبن ناجي، II، ص. 97، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 60

115) التيجاني، ص. 29

116) إبن حوقل، صورة الأرض، ليدن 1967، ص. 72-73 ؛ المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ص. 16- 17؛ البكري، ص. 34-35 ؛ ياقوت، III، ص. 282؛ التيجاني، ص. 25؛ الحميري، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1984، ص. 331

117) حول التجهيزات البحرية لمدينة سوسة انظر خاصة Ch. Tissot, Géographie comparée de la provine romaine d'Afrique, Paris 1884, T.II , p. 152-153; C. Monluzun, "Topographie d'Hadrumette", Revue archéologique, 1900, p.195-215; L.Foucher, Hadrumetum, p.15-17; C.Hannezo, Sousse,p.120-122; A.Lezine, Deux villes, p.20-22 I.D., Architecture, p.110-112; ID,Sousse, p.16-17, 49-50; N. Djelloul, Les installations militaires, II, p.480-486

مائتي مركب (شـ. 16)[118]. هذا المرفأ، الذي أرست به عمارة إسلامية قادمة من مصر سنة 83 هـ/703 م[119]، وقع إصلاحه في القرن التّاسع إبّان الحملات الكبرى على جزر المتوسط. وكان هذا الميناء الخارجي يتّصل بحوض داخليّ صغير (بواسطة البّوابة الكبرى - باب البحر)، يستعمل لتزليق السّفن، (radoub)[120] يعود إحداثه إلى عهد زيادة اللّه الأول، مثلما أكّدت ذلك الحفريات التي قام بها دوDaux وإ.لزين. فلأسبار التي أجراها هذا الأخير مكّنتنا خاصّة من العثور على أرصفة الحوض الأغلبي وعدد من الحلق (anneaux) الإسلامية التي كانت تستعمل لشدّ المراكب[121]. وسينقرض هذا الحوض وكذلك مباني دار الصناعة في العصر الحفصى، نتيجة لتراجع البحرية التونسيّة[122]. أمّا الميناء الخارجي، فرغم تعرّض بعض المصادر لذكره فإنه وقع التخلّي عنه وتعويضه بالمرسى الطّبيعي الذي يوجد تحت الأسوار الشرقيّة، من ناحية باب الجديد الحالي.[123]

ومثل أغلب التجمّعات العمرانية في السّاحل التّونسي ،أقيمت مدينة سوسة على سفح ربوة متوسّطة الإرتفاع، ويطوّقها من كلّ الجوانب سور صخري "ينتهي إليه البحر ويضرب فيه"[124] من الشرق والشمال. جدار هذا السّور (الذي يبلغ طوله 2500م)[125] لا يتعدّى سمكه 2,50 م وتتخلّله أبراج مستطيلة، ماعدا الزوايا حيث وقع الإلتجاء إلى الأبراج المستديرة (برج الشرش) (لـ. 20). أمّا ممشى العسّة chemin de ronde، الذي تحميه من

---

118) G. Kokovtsov, "Relation d'un voyage en Barbarie", in, Revue Africaine, T.XCV, 1951, p.111; V. Guerin, Voyage archéologique, Paris 1862, T.I, p. 107 ; E. Pellisier, Description de la régence de Tunis, Paris 1853, p. 85; N. Djelloul, Les installations militaires, T.II, p. 480-484

119) A. Lezine, Deux villes, p. 91 ; N.Djelloul, op.cit, T.II, p. 480

120) ذكر المالكي (I، ص 487) أنه "لمّا أمر السلطان [الفاطمي] ببناء المراكب للخروج الى صقلية هدم الذين ينشؤونها مقابر المسلمين ورقدوا بها المراكب، إلاّ قبر يحي بن عمر". وهذه العملية لا تهدف الى "تثقيل السفن لكي لا تلعب بها الرّياح" مثلما ذهب اليه ناشر الرياض بل لضمان عملية التزليق.

121) C.Hannezo,"observations sur le tracé d'Hadrumette," p.20-29 et Sousse, p.158; A.Lezine, Deux villes, p.91-92.

122) حول هذه التجهيزات في العصر الصنهاجي أنظر خاصّة، هادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II، ص. 46 ؛ A. Lezine, Deux villes, p.91-92

123) A. Adorne, "Voyage en Barbarie", edit.R.Brunschvig, Deux recits de voyage, Paris 1936, p. 221

124) ياقوت، III، ص. 282 ؛ التيجاني، ص. 26

125) حول عمارة السّور انظر خاصة: A. Lezine, Sousse, p.44-45 ; N.Djelloul, Les installations militaires, II p. 480-486

خارج شرافات نصف دائرية، فهو محمول بدوره على حنيات ثنائيّة تساهم في توازن البناء في حالة قصفه بالآلات الحربيّة.[126] ويذكر البكرى أن بسوسة ثمانية أبواب، وهي بوّابة دار الصّناعة، أبواب البحر[127] في الشمال، والبابين الغربيّين[128] وباب القبلة أوباب القيروان في الجنوب.[129]

خارج السّور، من الجهة الشرقيّة - الشمالية (شاطئ أبو جعفر حاليا)، كانت تمتدّ رملة سوسة المحاذية للميناء القديم،[130] حيث أقام بنو الأغلب قبة الرّمل وقصرا تحاذيه مقبرة الشهداء، التي دفن بها أبو جعفر الأربسي (الذي أعطى إسمه لهذه المنطقة)[131]. وفي الجهة الغربيّة، حذو باب "الفنقة" (المشنقة)، كان يوجد الملعب، و"هو بنيان عظيم للأول، به أقباء مرتفعة"[132] على شاكلة الفنطاس، أي "الهيكل العظيم الذي يوجد خارج المدينة، وهو أوّل ما يرى البحريون من البحر إذا قصدوا صقليّة".[133]

وحسب إبن ناجي كان "قبر يحي بن عمر يوجد في الفصيل، بين السّور والسّتارة" التي قدمها بنو حفص جنوب الجدار الأغلبي[134]. وهذا يدل على أن أهم مقبرة في سوسة كانت - مثلما ذكر ذلك ياقوت - جنوب المدينة، على يمين طريق القيروان، أي غربيّ الباب القبلي[135]. في نفس المنطقة كان يوجد مصلّى العيدين الذي أحدثه إبراهيم الثاني[136] ودمنة سوسة القريبة من سوق الحنّاطين[137]، وهو سوق نعرف أنّه يحاذى عادة الأبواب[138]. هذه

-(1..) انظر في هذا الصدد : N.Djelloul, op.cit, II, p.486

-(1..) المالكي، II، ص. 225، الدّاعي إدريس، ص. 353 ؛ هادي روجي إدريس الدولة الصنهاجيّة، II، ص. 40

-(1..) الهادي روجي إدريس، نفس المرجع، II، ص. 46 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، II. ص. 40؛ A. Lezine ; Sousse, p.44-45

-(1..) المالكي، II. 6 ص. 225، 230 ؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، II، ص. 46-47.

-(1..) المالكي، II، ص. 240-241 ؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية II، ص. 46-47

-(1..) المالكي، I، ص. 487 و II، ص. 211، 231، 644 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، II، ص. 402، الهادي روجي إدريس، نفس المرجع، II، ص. 47

-(1..) البكري، ص 34-36، ياقوت، III، ص. 282. انظر أيضا المالكي، II، ص. 402؛ الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت 1984، ص. 331.

-(1..) البكري، ص. 34-36، ياقوت، III، ص. 282؛ الحميري، ص. 331.

-(1..) إبن ناجي، II، ص. 104؛ روبار برنشفيك، الدولة الحفصيّة، I، ص. 339 ؛ N. Djelloul, Les installations militaires, II, p. 484

-(1..) ياقوت، III، ص. 282؛ المالكي، II، ص. 485.

-(1..) المالكي، II، ص. 485

-(1..) المالكي، I، ص. 132، II، ص. 5،275 ؛ إبن ناجي، II، ص. 170؛ حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، II، ص. 46-48 ؛ هـ. روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، II، ص. 48

-(1..) انظر في هذا الصدد : الشّيرزي، نهاية الرّتبة طلب في الحسبة، ص. 13

الدّمنة[139]، على غرار مثيلتها بالقيروان، أقيم بها مسجدان (مسجد الدّمنة ومسجد الخضر)[140] حيث وكانت تعقد حلقات صوفيّة (لقراءة الرّقائق)[141] حاربها يحي بن عمر ونهى عن حضورها.

الرباط (ش. 18 - 33، ل. 22 - 32)

و يوجد داخل المدينة الجامع المحصّن، وبإزائه المبنى المعروف حاليا" برباط سوسة". هذا القصر يعدّ من أقدم مباني المدينة التي وصلت إلينا، ويتكوّن من بناء مربّع، تحميه أبراج نصف دائريّة، بإستثناء الزّاوية الجنوبيّة - الشرقيّة التي يعلوها منار إسطوانيّ الشكل[142]. وللقصرمدخل وحيد يفتح في برج مربّع متقدّم يفضي الى ساحة سماويّة يحيط بها رواق. خلف هذا الرّواق نجد ثلاثين حجرة ذوات بناء بسيط وتفتقد فيها العناصر الزّخرفيّة. أمّا الطّابق الثاني فهو يتميّز بوجود مسجد القصر الذي يحتلّ كلّ الجناح الجنوبي. هذا المبنى كان معدّا لإقامة المرابطين، ربّما الموسميين منهم ولهذا يتّخذ شكل الخانات[143]، لكن الحسن الوزّان Léon l'Africain، الذي أقام "بسوسة أربعة أيام بسبب عاصفة" يذكر أنه "قصر الوالي وأصبح اليوم شبه زاوية"[144]. هذه الرّاوية يدعّمها ما جاء على لسان المالكي بأنّ أبا البشير محمد بن احمد بن يونس، "كانت داره بجوار دار العامل، فإذا ضرب أو ظلم أحد صال عليه"[145]. هذه الدّار ليست القصبة التي أحدثها محمّد الأول[146] ولا القصبة الحالية التي لا يمكن تأريخ أقدم أجزائها قبل القرن الحادي عشر ميلادي[147]،

---

139) حول هذه المنشآت الإستشفائيّة : أنظر خاصّة : حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، I، ص. 273–294
140) المالكي، II، ص. 5 و275 ؛ هادي روجي إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 48
141) الهادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II، ص. 309
142) نقيشة المنار (206 هـ/821 م)
بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله
مّما أمر به الأمير زيادة الله بن ابراهيم
أطال الله بقاه على يدي مسرو الخادم.
مولاه في سنة ست وستين ومائتين. اللّهم انزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين.
143) حول تأثير خان عطشان العراقي على عمارة "رباط سوسة" انظرخاصة : G.Marçais, Architecture, p. 32-33
144) الحسن الوزان (المعروف بليون الإفريقي)، *وصف إفريقيا*، تعريب محمد حجّي ومحمد الأخضر، بيروت 1983، II، ص. 83.
145) المالكي، II، ص. 275
146) هذه القصبة ليست القصر الذي يوجد بجواره قبّة الرمل في عهد إبراهيم الثاني (المالكي، I، ص 486) أو دار الشيوخ (المالكي، II، ص. 223) التي كان يقيم فيها أبو جعفر الأربسي.
147) A. Lezine, Sousse, p. 47-48

بأستثناء منار خلف الذي تدل عمارته وأرتفاع مدخله بأنه كان مرصدا منعزلا، على غرار منار الإسكندريّة[148] .

ومن قصور سوسة الشهيرة قصر طارق الذي شيّده أحد أثرياء العصر الأغلبي (طارق ؟) في آخرالقرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي[149] . ولهذا القصر "صدى كبير في أشعار أدباء سوسةالمتقدّمين مثل محمد بن عبدون"[150] . لكن خلافا لما ذكره حسن حسنى عبد الوهاب وهادي روجي إدريس، لم يكن البتّه مركزا للرّباط. ويبدو من خلال تراجم المالكي[151] إنّه كان يوجد داخل المدينة، غير بعيد عن جبل المعسكر (أي هضبة القصبة)[152] .

- المرابطون

إنّ الطّابع الموسميّ للرّباط وكثرة تنقّل النسّاك بين الحصون يجعل تعداد مرابطي سوسة عمليّة شاقّة. لهذا سوف نكتفي بذكر العبّاد الذين إعتكفوا بسوسة مدّة طويلة وبعض مشاهير المرابطين الموسميّن. كما أنّه لا بد من التأكيد على تنوّع الآفاق الجغرافية لهؤلاء النسّاك ، فمنهم من قدم من البصرة ومن الرقّة[153]، ومن مصر، ومن المغربين، ومن الأندلس وحتى من السّودان الغربي.[154]

- *محمد بن رزين السّوسي* (تـ. 255 هـ/ 868 م)، من عبّاد سوسة، سمع من أسد بن الفرات وكان راوية للحديث والفقه[155]

- *أبو الأحوص أحمد بن عبد الله*، من عبّاد سوسة ، توفي بها سنة 284 هـ/ 897م[156] . "أصله من المغرب الأقصى و انتقل الى إفريقية ، وصحب سحنون

---

148) N. Djelloul, Les instatllations militaires, T.II, p. 496

149) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 82 ؛ هادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II ص.

150) التيجاني، ص. 26، 39 الحميري، ص. 331، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 82-83

151) المالكي، II، ص. 400

152) يعدّ هذا الجبل من المناطق التي قاسها القائم لتغيير مكان العاصمة الفاطميّة

153) المالكي، II، ص. 319

154) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 51

155) أبو العرب، ص. 119؛ المالكي، II، ص. 12، هامش. 8؛ عياض (طالبي) ص. 155؛ حسن حسني عبد الوهاب *ورقات*، II، ص. 134.

156) مصادره : الخشني، ص . 146؛ المالكي، I، ص. 482؛ ابن عذاري، I، ص. 130، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، III، ص. 137.

بالقيروان وأخذ عـنه كثيرا. "[157] ويذكر المالكي أنّه "أتـى الى سوسة مرابطا فأقـام بها مدّة حتى نفذت نفقتـه فأراد الرّجوع الى المغرب، فأتى الى جامع سوسـة ليركع فيه، وينصرف. فبيـنما هو راكع إذ رأى عصفـورا دخل الجامع وفي فمه شيء يطعـمه فراخه، فـسقط من فم العصفور ما كان فيه، فخرج من خلف الحصـير فأر أكل ما سقط من فم العصفور، فقال : فأر خلف الحصـير قيّض اللّه تعالى له من رزقه فكيف أضـيع أنا، للّه عليّ أن لا أدع مدينة الرّباط إلى غيرها أبدا. . . فأقام بمدينة سوسة هو وزوجـته واشتهر بها حتى مات. . . وكان إبراهيم الأمير يزوره، فإن وجده يطحن قوته بيده جلس على التّراب وإن وجده فارغا جلس على جلد المطحنة لأنّه لم يكن في بيته حصير ولا غيرهما "[158]

يحي بن عمر بن يوسف الأندلسي (ت. 289هـ/902م)، يمكن أيضا إعتبـاره من عبّاد سوسة رّغم أنه كان يرابط خـاصّة بالمنستيـر. قدم من قرطبة مع أهله وإسـتوطن سوسة الى آخـر حياته، وكان يعدّ من أبرز علماء إفريقية في العصر الأغلبي[159]. ويذكر إبن الجزّار أنّه ألّف "نحو أربعين جزءا"، منها أحكام السّوق، "كتاب أحمية الحصون" و"كتاب فضل المنستير والرّباط[160].

أبو عبد اللّه محـمد بن أبي حميد. سمع من سحنون ولزم سـوسة للرّباط وبها توفيّ سنة 293 هـ/905م[161]. ومّـما يروى عنه أنّ الأميـر إبراهيم الثاني قـدم الى سوسـة وقد بلغه عن أهلهـا أذى فقال "أمضى إليـها فأخـربها وأهدم سورها وأعذّب أهلهـا. فوصل الى سوسة في اللّيل فأتى الى الدّمنة فنزل في مسجدها واجتمع اليه أهل الدّمنة. . . فقرأ عليه أبو حـميد" يـا أيّها النبيّ قل لمن في أيديكم من الأسـرى أن يعلم اللّه في قلوبكم خيـرا يؤتيكم خيرا ممّـا أخذ منكم ويغفـر لكم واللّه غفور رحـيم." فبكى إبراهيم بكاء عظيما وركب من سـاعته راجعا الى القـيروان. . . ومّما ينسب إليـه ما حدّث به الطّبني المؤدّب، قال دخلت يوما على أبي حميد في علّته التي مات منها وهو في البيت وكان في الدّار ذباب فـإذا بكفّ خارجة مـن الحائط تذبّ من وجـهه[162]. ويذكر ابن ناجي أنه مات مجذوما "لأنه كان يخدم [بدمنة سوسة] الأضراء حتى مات ضريرا مثلهم"[163]

157) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 137
158) المالكي، I، ص. 482.
159) مصادره : المالكي، I، ص. 490؛ عياض، ص. 260
160) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II ص. 129
161) مصادره : المالكي، ج. II، ص. 5، عياض، ص. 332
162) المالكي، II، ص. 8-9
163) ابن ناجي، ج. II، ص. 170

محمد بن الطّيب المصري، المتعبّد (بسوسة)، "من أهل العبادة، صحب أبا هارون الأندلسي، وحدّث عنه الحسن بن نصر السّوسي". توفي بالقيروان سنة 305 هـ / ودفن بمقبرة باب أسلم[164].

أبوعبد الله محمد بن عبد الكريم المسوحى (توفي سنة 306 هـ)، من أهل القيروان ولكنّه كان كثير السياحة والرّباط بسوسة[165]. وأورد المالكي أن أبا داود العطّار قال "صحبت أبا عبد الله إلى الرّباط، فنزلنا منزلا لإخوان لي، فأتونا بطعام فأكل ثم تقيأ الطّعام وقال : يا أبا داود أدخلت بطني طعاما لا يحلّ. . . . فتدبّرت قوله فإذا القوم غرمائي ولي عليهم دين، وهديّة المديان مكروهة عند مالك"[166]. وقال نفيس السّوسي "صحبت يوما المسوحي الى الدّور حتي إنتهينا الى حصن سوسة، أقمنا أكثر من عشرين يوما فما علمت أنّه أكل إلا أكلتين في دارين. . . وكان أيضا يمكث السبعة أيام والأقلّ والأكثر لا يأكل طعاما ويتغذّى ببقول البريّة والزيت"[167].

أبو الغصن نفيس السّوسي، "العابد، المرابط بسوسة (وبها توفي سنة 309 هـ / 921)[168]، من أبناء البلاد الأصليين، كان أبوه نصرانيا وأسلم. وكان" فقيه البدن، سمع من سحنون ومن جماعة بمصر. . . وكانت صنعته الغرابيل يعيش منها وكان له رباع في بني وشتيت"[169]. عرض عليه إبراهيم الثّاني القضاء فإمتنع وقال له "لا تعر القضاء بي، لأنّي عبد روميّ، أعور، غرابليّ، مولى إمرأة [من بني وشتيت] وهذه هجنة عليك أن توليّ مثلي"[170]. وممّا يذكر عنه أيضا "أنه كان يجاوره [بمنزله] بسوسة شاب بطّال ممعن في الملاهي، فأقيمت الصّلاة يوما في مسجد أبي الغصن[171] فقال للشاب" تقدّم فصلّ بنا، فممّا إنقضت الصلاة رجع الشّاب فلم يدع في بيته مسكرا ولا أداة ولا ملاهي"[172].

---

164) مصادره : المالكي، II، ص. 136-137 ؛ إبن ناجي، II، ص. 340.

165) مصادره : المالكي، I، ص. 414-415 ؛ إبن ناجي، II، ص. 334.

166) المالكي، I، ص. 414.

167) المالكي، I، ص. 415 "فلمّا أتى الى سوسة تلقّته إمرأة تقيّة - وكانت من الصّالحات - وذهبت تبتقل له، يريد : تجمع له بقل الفحص المباح يتغذّى به".

168) مصادره : الخشني، ص . 167 ؛ المالكي، II، ص. 162-165 ؛ إبن عذارى I، ص. 187.

169) المالكي، II، ص. 162. حول هؤلاء المتطبّبون الذين يطلق عليهم إسم فقهاء البدن، أنظر : حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، I ص. 272.

170) المالكي، II، ص. 162.

171) حول مساجد ابي الغصن، يحي بن عمر والزّقاق، أنظر : حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، II، ص. 7-76-81.

172) *نفس المصدر*، II، ص. 163

أبو عبد الله محمّد بن بسطام بن رجاء *الضبي*، أصله من البصرة. قدم الى سوسة مرابطا وتوفيّ بها سنة 313 هـ / 925 م[173]، " أدخل إلى إفريقية كتبا غريبة من كتب المالكيين، ككتب المغيرة بن عبد الرّحمان وإبن كنانة. . . وكتب كتبا كثيرة بخطّه "[174]

أبو محمد عبد الله التاهرتي، من تاهرت بالمغرب الأوسط، "كان فاضلا عابدا يشير إلى المحبّة[175]، سكن مدينة سوسة محتبسا للحرس بها على المسلمين "[176] وبها توفي سنة 313 هـ/ 925 م. ومما يذكر عنه، " أنّه إعتلّ علّة شديدة حتى يئسوا منه، فقال للذي يخدمه : لست أموت من هذه العلّة، فإذا كانت المرضة الثانية بعدها توقّعوا موتي "[177]

أبو جعفر أحمد بن سعدون الأربسي[178] (ت. سنة 323 هـ/ 934 م ودفن بمقبرة الشهداء، عند قبّة الرمل). "وكان ذا سمت وورع وفقه وثقة في الحديث . . . كتب جميع كتب يحي بن عمر وسمع عليه أكثرها. لمّا هرب يحي بن عمر من إبراهيم بن أحمد في الوقت الذي طلبه فيه العراقيون، أودع كتبه عند أحمد فكانت عنده في داره فكتبها كلّها "[179]. وأورد المالكي أن أبا جعفر القمّودي الذي كان يقيم عنده في منزله بسوسة "ذكر له بأن الرّيح تدخل إليه من الطّاق فتعهّد بإصلاحه وأخرج كيسا مربوطا فنفضه فوقع منه دينار فقال : هذه بقيّة ألف دينار دخلت بها سوسة فقالوا له : فيما ذهب أصلحك الله ؟ قال : في الزكاة وحبوب البقل "[180]. ويذكر نفس المؤلف أن أبا جعفر وأبا بكر بن أبي عقبة وأبا سعيد خلف السّرتي، كانوا يخرجون من سوسة "فيقفون صفّا واحدا كأنّ العدو بين أيديهم ويجرون خيلهم في ذلك الموضع حتى تطلع الشمس "[181]

---

173) مصادره : الخشني، ص. 168؛ المالكي، II، ص. 181 ؛ عياض، ص. 384.
174) عياض، ص. 384.
175) حول هذا المصطلح الصّوفي انظر : *رياض النفوس*، II. ص. 182، هامش. 1
176) المالكي، II، ص. 182
177) *نفس المصدر*، II، ص. 182
178) يذكر حسن حسني عبد الوهاب (*ورقات*، II، ص. 143) أنّه يعرف بالسّرداني لأنه شارك في إحدى الغزوات التي إستهدفت هذه الجزيرة. حول هذا الناسك انظر ايضا : عياض، V، ص. 320 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 144
179) المالكي، II، ص. 207
180) *نفس المصدر*، II، ص. 208.
181) المالكي، II، ص. 196.

أبو البشر محمّد بن أحمد بن يونس (تـ. سنة 331 هـ 942 م). من عبّاد سوسة الذين إستوطنوها، و"كانت داره بجوار دار العامل"[182]. و"كان كثيرا ما يخرج الى دمنة سوسة فيأتي الى سوق الحنّاطين في وقت عمارته فيذكر اللّه عزّ وجلّ. ثمّ يتمادى الى الدّمنة، فيفتح له باب مسجدها فيركع فيه، ثمّ يجتمع اليه أهل الضرّ، فيسألهم عن حالهم ويهوّن عليهم ماهم فيه من الضرّ والبلاء"[183]

أبو الفضل عبّاس بن العبّاس الممسي (قتل سنة 333 هـ / 944م بالوادي المالح إبّان الحملة التي قادها صاحب الحمار وبعض متعصّبي المالكية على المهديّة)، كان يرابط بسوسة كلّ شهر رمضان. ويذكر المالكي أنه كان يرفض أكل سكّر صقليّة "لأنه يعمل من ضياع إقتطعها السلطان... ويرى أنّ الخروج مع أبى يزيد وقطع دولة بنى عبيد فرض لازم لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم إسم الإسلام وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم إسم الإسلام"[184].

الحسن بن نصر (توفي سنة 341 هـ/ 952 م بسوسة ودفن بها)[185]. مولى إمرأة من قسطيليّة وولاّه زيادة اللّه الثالث قضاء المدينة في آخر أيام الدولة الأغلبية. ويذكر المالكي أنه "أقام فوق الأربعين سنة إذا دخل شهر رمضان لا يكلّم أحدا... وكان في علّته التي مات فيها يربط حبلا في السّقف ليقدر على الصلاة واقفا"[186]

ـ الرّباطات الخارجية

ذكر البكرى، ومن بعده ياقوت أنّه كانت توجد خارج سوسة "محارس وروابط ومجامع للصّالحين،"[187] وأشهرها المنستير التي كانت تعدّ من محارس قاعدة الساحل[188]. هذه الحصون كانت ترتبط بها عدّة منازل (أو منازل بادية سوسة كما يسميها مؤلف الرّياض)[189] ساهم إحياؤها في إزدهار سوسة الإقتصادي. وقد أدّى تراجع هذه

---

182) *نفس المصدر*، II، ص. 275.
183) المالكي، II، ص. 275.
184) المالكي، II، ص. 295.
185) مصادره : المالكي، II، ص. 363-377؛ عياض، III، ص. 363.
186) المالكي، II، ص. 393.
187) البكرى، ص. 36 ؛ ياقوت، III، ص. 282.
188) البكرى، ص. 36 ؛ ياقوت، III، ص. 282 ؛ التيجاني 1981، ص. 30.
189) المالكي، II، ص. 225.

المنازل في العهد الحفصى، بعد إستيلاء دلاّج وحكيم (في الشمال) وطرود (في الجنوب) على أراضيها،[190] إلى ركود الحياة الإقتصادية والعمرانية لسوسة[191]

قصر الطّوب (ل. 33)

يحتلّ هذا القصر (الذي يوجد على بعد 5 كلم جنوب سوسة، قرب قرية سيدي عبد الحميد) موقعا يمتاز بتعدّد المواجل القديمة[192] . ويعود الفضل في إنشائه الى الأمير أبا العبّاس محمد بن الأغلب، "على يد خادمه خلف الفتى المنسوب اليه منار القصبة" (حوالي سنة 240 هـ / 854 م)[193] . ويتوسّط هذا القصر سهل خصيب يمتاز بتشتّت سكنه[194] ويراقب الجادّة الرّابطة بين سوسة وجنوب السّاحل، ومن هنا نفهم دور الإسطبلات التي ذكرها إبن ناجي[195]، لأن قصر الطّوب - مثل باقي الرّباطات[196] - كان أيضا محطّة للبريد الرّسمي وخانا يأوي إليه المسافرون (من تجّار وحجيج)[197] . وربّما كان - مثل رباطات المنستير - يتمتّع بعائدات الضّرائب الموظّفة على الصيد البحري بهذه المنطقة[198] . أمّا دوره العسكري فيتمثل - إلى جانب مراقبة الجادّة - خاصّة في حراسة قرية السّاحلين المجاورة وملاّحتها.[199]

---

190) التيجاني، ص. 40

191) التيجاني ص. 30"إستولى عليها الخراب" ؛ الحسن الوزّان (ليون الإفريقي)، II، ص. 83-84 "وفي خارج المدينة ممتلكات عديدة مغروسة بشجر الزيتون الذي تستخرج منه كميّة وافرة من الزيت، وبشجر التّين. وهنالك ايضا أرض صالحة لزراعة الشعير، لكن يتعذّر إستغلالها بسبب ثقل الأتوات التي يفرضها الأعراب. . . . لكن سوسة المسكينة خلت الأن من السّكان بسبب جور الملوك وقمعهم، فلم يبقى مسكونا فيها سوى خمس ديارها. كما لم يبق لها أكثر من خمسة أو ستّة دكاكين لبقالين أو بائعي الجبن والخضر وغيرها من البضاعة التّافهة".

192) E.Babelon, R.Cagnat et S.Reinach, Atlas archéologique de Tunisie, (48), f. Sousse

193) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 88

194) المالكي، I، ص. 446

195) ابن ناجي، II، ص. 19

196) N.Djelloul, Les installations militaires, II, p. 150

197) المالكي، II ص. 286، 378

198) المالكي، II، ص. 124 و217 "حوت ليس عليه قبالة".

199) المالكي، I، ص. 446 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 93. كان الأمير محمد الثاني (250-261 هـ / 875 م) يتعاطى بهذه القرية صيد الغرانيق التي تلقب بها (محمد الطالبي، *الدولة الأغلبية*، ص. 290).

ويتّضح من نصّ المالكي أن قصر الطّوب كان في أوّل أمره مجرّد إستحكام صغير، على غرار "رباط" سوسة الحالي. وكان بابه الذي يحرسه ليلا نهارا بوّابون من المرابطين لا يفتح قبل طلوع الشمس، فإذا أريد إدخال أحد بصفة إستثنائية "ربطت له الحبال". [200] لكن يفهم أيضا من بعض التراجم المتأخرّة أنّ هذا الحصن تحوّل فيما بعد الى تجمّع عمراني، بضمّ - على غرار الرباط الكبير بالمنستير - عدّة قصور متفرّقة. [201] وتمتدّ خارج سوره مقبرة دفن بها العديد من عبّاد سوسة وأعيانها، مثل عبد الحميد بن الصّائغ (تـ 486 هـ/1093م) الذي أعطى إسمه للقرية الحالية[202]. ويصف حسن حسني عبد الوهاب أحد مباني قصر الطّوب "بأنّه" عبارة عن رباط صغير به جملة من الغرف كانت معدّة لنزول العبّاد، وكان به مسجد للصّلاة، وبرج مرتفع[203] يكشف على البحر - وقد سقط في الزّمان الحاضر - وفي وسط الصحن أو قريبا منه ماجل لخزن ماء المطر". [204] هذه البناية التي تحمل الطابع الأغلبي مازالت بعض أطلالها بارزة إلى اليوم، وهي بدون شك أحد حصون القصر التي كانت تشكّل النواة الأساسية لنسيجه العمراني. وتوجد الى جانبها عدّة ضياع فلا حيّة تسمى "هناشر سوسة"[205]، ربّما كانت هي نفسها جزءا من أراضي حمى القصر.

ومن بين مشاهير عبّاد قصر الطّوب نجد أبا عثمان بن إسحاق الكلبي، جبلة بن حمّود الصدفي، أبا يونس نصير المتعبّد، أبا هارون الأندلسي، محمد بن سحنون، بن غازي، خلف السّرتي، أبا جعفر القمّودي وسهل القبرياني.

- *أبو عثمان بن إسحاق الكلبي* (تـ. سنة 294 هـ / 906 م)[206]، مولى كلب. كان "متعبّدا، سريع الدّمعة كثير الرّواية والرّباط والحديث. . . . سمع من سحنون وإبنه محمّد بن رزين وأبي زكرياء الحفري بإفريقية. وبمصر من أبي الطاهر بن عمرو بن السّرح ومحمد بن عبد الحكم". [207] كان "ساكنا بقصر الطّوب يقيم به شهورا ثم يقدم إلى

200) المالكي، II، ص. 126-127.
201) انظر خاصّة المالكي، II، ص. 191
202) حول إبن الصّائغ، انظر : هادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، II، ص. 340.
203) المالكي، II، ص. 126 : "كان أبو يونس في برجه"
204) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، II، ص. 88
205) E.Babelon, R.Cagnat et S.Reinach, Atlas archéologique de Tunisie, (48) f. Sousse
206) مصادره : الخشني، ص. 152؛ المالكي، II، ص. 12 ؛ عياض، VI، ص. 409 و1986، ص. 324 ؛ بن ناجي، II ص. 172
207) المالكي، II، ص. 12

القيـروان فيقـيم شهورا فـيأتيه النّاس فـيسمـعون منه." [208] وفي رواية أخرى يسـوقها لنا عياض "تخلى عن الدّنيـا وإعتزل بهذا القصر بعـد رجوعه من مكّة" وبه توفي ودفن[209].

وممّا ينسب إليه أنّ نواتية لإبراهيم بن أحمد الأغلبي أرادوا النزول بقصر الطّوب، وكان به في ذلك الوقت سعيد بن إسحاق وأبو يونس نصـير وجبلة بن حمّود، فـمنعوهم من ذلك وأغلقوا باب الـقصر في وجـوههم . . . فبلغ ذلك الأمـير [الذي قدم] إلى سـوسة غاضبا فتشرّف سعيد من أعلى القصر وقال له : يا إبراهيم تركنا لك الدّنيا كلّها وإنزوينا في هذا الثغر فـجئت تؤذينا والله لئن لم تمرّ لأهلكنّكـ. . . . فـمضى إبراهيم هاربا على وجهه حـتى جاز القصر بأمر عظيم، فـقال له الذين حوله : مالك سيـدنا ؟ فقال لهم : لمّـا صال عليّ سـعيـد بن إسحـاق تلك الصّولة حـسبت أنّ الفـحص إشتـعل نارا عليّ فمازلت كذلك حتى وقعت في هذا الموضع" [210]

- بكّار *المتعبّـد*. "كان من المحزونين الخائفين، إذا أخذ في البكاء قطع على أهل القصر الصّلاة". توفي بقصر الطّوب ودفن به. (211) (سنة 294 هـ/ 906 م)[211].

- *جـبلة بن حـمّـود الصّـدفي*. (توفي سنة 297 هـ بالـقيـروان ودفن بمـقـبـرة باب أسلم)[212]. من أبناء القـادمين مـع حسّـان بن النعمـان، أي من أهل الخطط، سـمع من سحنون بإفريقية وبمصر من أبي إسحاق البرقي[213].

وكان أبوه من أفراد الحـاشية الأغلبية ولكنّه زهدَ في في ميـراثه وسلك حياة التكفّف، فكان "ينام على زنبيل وقطعة نطع وطويّة عند رأسه فوقها وسادة. . . وكـان قوته في الشـهر ثمنين شعـيرا يطحنهـما ويـحملهـما في خلّه. فـإذا رأي الشمس تغيّرت خرج إلى الفحص فأخذ ماء ورفع ماوقع على يده من بقل البرية وأتى إلى بيته وجعل القديرة على النّار وجعل فيها ذلك البقل، فإذا غلت أدخل يده في القلّة وأخرج قبضة من الدّقيق فألقاها فيها ثم أفطر على ذلك. فكان هذا

208) *نفس المصدر*، ص. 12
209) عياض، 1986، ص. 324 ؛ ابن ناجي، ج، ص. 172
210) المالكي، II، ص. 15 ؛ ابن ناجي، II، ص. 172
211) المالكي، II، ص. 10
212) مصادره : الخشني، ص. 143، عياض (طالبي)، ص . 278 ؛ إبن عذاري، I، ص. 161.
213) عيـاض، II، ص. 278؛ المالكي، II، ص 27 : "يكنّي جـدّه بأبي الأشعث، من ولد المـعروف بالـمقطع مولى عثمان بن عفّان".

عيشه"[214]. وكان جبلة إلى جانب زهده مستجاب الدّعوة[215] ومتعصبّا في محاربة الشيعة، فلمّا دخل عبيد اللّه الى إفريقية، "ترك سكنى قصر الطّوب - الذي رابط به أربعين سنة - وأتى الى القيروان فسكنها"[216]. ونشكّ كثيرا في صحّة هذه الرّوايات التي يسوقها لنا كتاب الطبقات إذ تطغى عليها المبالغة التي تميّز هذا الفنّ المالكي. فجبلة رغم زهده لم يتخلّ عن ميراث والده الحنفيّ، ممّا جعله يشيّد مسجده الخاص بالقيروان، ويكثر من الصدقة.[217] وعند لزومه الرّباط بقصر الطّوب كان له خادم يتولّى شؤونه، كما أنّ طعامه لم يكن دائما مقتصرا على ثريد الشّعير بل نجد أيضا العديد من الفواكه المجلوبة من حمى القصر مثل البطّيخ والتين الأخضر[218].

أبو يونس نصير المتعبّد، توفي سنة 304 هـ/916م بقصر الطّوب "وقبره أمام القصر يتبرّك به"[219]. ويذكر المالكي أنه "عكف على قراءة القرآن ليلا نهارا فكان إذا أراد أن يتكلّم يشير بإشارات تفهم أو يكتب لمن يقرأ بما يريد".[220] ومثل جبلة بن حمّود كان أبا يونس ثريّا ولهذا نراه يكثر من الصدقة.[221] كما أنّه كانَ "مستجاب الدعوة. "ويذكر أبو القاسم تمام أنه" مضى الى قصر الطّوب في عشرة أنفس فقلت له : إكتب كتابا الى أمّ الأمير، فإنّ زيادة اللّه أخذ مائتي رجل من أهل العلم والقرآن فأرسلهم الى العسكر رماة. فقال أبو يونس ما نعرف الأمير ولا أمّه وإنّما نعرف اللّه، فسأل النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فيهم فقال له غدا يطلقون"[222] وذكر أيضا "أنّ أخا له إشتكى أرنبا كانت تفسد عليه بحيرة له بجوار قصر الطّوب فدعى عليها فماتت".[223]

(214) المالكي، II، ص. 31. جعل زهده موسى بن عبد الرّحمان القطّان يقول فيه "لو أنّ جبلة في زمن بني إسرائيل لأتتنا أخباره في الكتب ولو فاخرنا بنو إسرائيل بعبّادهم وزهّادهم لفاخرناهم به". المالكي، II، ص. 28.

(215) المالكي، II، ص. 34 : "قال أبو بكر المؤدّب بن محمّد بن بشر : مضى بي أبي وأنا صغير الى المرابطين، فنزلنا قصر الطّوب فدخلنا على جبلة... فأخذ شقفة وجعلها على النّار وطبخ عصيدا ثم قال لي : يا بنيّ إشته ما شئت قال : خطر ببالي تين أخضر - ولا واللّه ما هو زمانه - فمدّ يده وأدخلها في القلّة فأخرج خمس تينات خضر". ومن كراماته أيضا أنّه كان "يجتمع مع أبي العبّاس الحضر ويحاوره". *نفس المصدر*، ص. 40

(216) عياض، 1986، ص. 282.

(217) المالكي، II، ص. 36، 38، 40 ؛ عياض (طالبي)، ص. 285

(218) المالكي، II، ص. 38، 40 ؛ عياض (طالبي)، ص. 282.

(219) المالكي، II، ص. 122 - 124.

(220) المالكي، II، ص. 124

(221) *نفس المصدر*، ص. 126

(222) *نفس المصدر*، ص. 124. هؤلاء كانوا بدون شك "فقهاء إفريقية الذين أخذهم زيادة اللّه الى مدينة تونس مستظهرا بهم على ابي عبد اللّه الشيعي". ابن عذاري، I، ص. 137.

(223) المالكي، II، ص. 125. هذا "الأخ" هو بدون شكّ من إخوانه المرابطين الذين كانوا يشتغلون بالفلاحة في حمى قصر الطّوب.

إبراهيم بن غازي، كان في أيام بني الأغلب من المنقطعين للعبادة بقصر الطّوب و "بلغ من الزهد ما لم يبلغه أحد غيره". [224] فلمّا إستولى الفاطميون على حكم إفريقية اعتنق المذهب الإسماعيلّي، "وأتى الكبائر ومجن... قتله عبيد الله المهدي سنة (309 هـ/ 921 م)" [225]

خلف السّرتي (توفي سنة 331 هـ/ 942 م) "أقام سبعين سنة بقصر الطّوب، وله إجابات" [226]

أبو عبد الله محمد بن قطانية السّوسي. كان "مستجاب الدّعوة"، ملازما للعبادة بقصر الطّوب حيث توفي سنة (311 هـ/923 م)[227]

أبو عبد الله الغيمي الفخّار (توفي سنة 316 هـ/928 م)". أصله من سرت. وكان من العلماء المنقطعين للعبادة بقصر الطوب "وله ختمة في كلّ ليلة" [228]

أبو جعفر القمّودي (توفي سنة 324 هـ/935 م). كان في "بدايته يعمل في الحمّامات يخدم بها ويوقد فيها. فلزم الرّباط وإشتغل بعمل الحلفاء حتى هجم عليه أمر فترك ذلك فقيل له: لم تركتها ؟ فقال" هجم على قلبي شيء هدّ يدي ورجلي فما إستطعت أعمل شيئا." [229] ويذكر المالكي أنه كان "زاهدا يعمل بكتابي يمن بن رزق الأندلسي... ومستجاب الدعوة". [230] ورغم جذوره الإجتماعية المتواضعة وإنقطاعه عن العمل فقد كان لابي جعفر - بالقصر - خادمه الخاصّ، يقوم بشؤونه و "يسخّن له الماء في الأيام الباردة لوضوئه". [231] كما أن امتناعه عن أكل اللّحم (الذي أصبح جيفة لإشتباه أغنام الناس في الحروب)، كان لا يمنعه من تناول السّمك، خاصّة اللّجّي الذي لم توظّف عليه قبالة لأنّه كان يصطاد في ضواحي القصر[232].

224) المالكي، II، ص. 504 -505
225) عياض، 1986، ص. 284، 496 ، المالكي، II، ص. 505.
226) المالكي، II ص. 276
227) المالكي، II، ص. 176
228) "كان يلزم حانوتا يبيع به الفخّار بسوق الأحد بالقيروان" : المالكي، II، ص. 189
229) المالكي، II، ص. 211-212 .
230) نفس المصدر. II، ص . 212و221.
231) نفس المصدر، II، ص. 214 و217
232) نفس المصدر، II، ص. 217.

محمد بن سحنون بن سعيد (توفي سنة 256 هـ /869 م بالساحل). مثل العديد من فقهاء القيروان وعلمائها[233] كان إبن سحنون كثير الرّباط بقصور السّاحل (خاصّة قصر الطوب)[234]. وممّا يذكر عنه أنّه "خرج مرّة الى قصر الطّوب للعبادة والحرس على المسلمين فنزلت قطاع الرّوم فضربوا على السّاحلين وعلى تلك المنازل فتصايح النّاس ولم يكن مع محمّد بن سحنون إلاّ بغل فخاف إن بعث الى سوسة في طلب فرس أن يفوت الرّوم بغيتهم فتقلّد بسيف وأخذ رمحا ودرقة، وركب ذلك البغل الذي كان معه واجتمع اليه النّاس في جماعة من المرابطين ومن بقرب من القصر من أهل البوادي التي حوله، وتمادى بمن معه الى الرّوم فوجدهم قد أشرفوا على نهب الأموال وسبي الحريم، فكبّر عليهم هو ومن معه وقد ناشبوهم القتال، فهزمهم اللّه على يديه، قتل منهم مقتلة عظيمة واتّبعهم بالهزيمة حتّى أدخلهم البحر هاربين وحلف محمد بعد ذلك أنه لا يخرج إلى الحرس إلاّ بفرس"[235]

قصر سهل

كان هذا القصر يوجد أيضا جنوب سوسة، ويعرف بالقصرالجديد تمييزا له عن قصر الطّوب[236]. وقد حدّد الدبّاغ موقعه "قبلة مدينة سوسة، قبالة قصر الطّوب، بينهما وبين المدينة ثلاثة أميال"[237] وهذا يناسب على الأرجح موقع قرية القصيبة وريثة مدينة "الكنيسية" البونيّة. [238] وهو منسوب الى الفقية والمحدّث المالكي أبو يزيد بن عبد الله بن سهل القبرياني المتعبّد بقصر الطّوب. ويذكر المالكي أنّ "موضعه كان ربوة من كبيرة كان محمد بن سحنون يجلس عليها بعد العصر مع أصحابه إذا كان بقصر

منهم عمران الخشّاب، أبو عبد اللّه حمدون بن العسّال، عبد الملك بن مروان بن نصرون المتعبّد، أبو جعفر حمد بن خالد الدبّاغ الزاهد، ابن عبدون القاضي المالكي، I، ص. 410، 443، II، ص. 44 ؛ عياض، ص. ... ؛ إبن ناجي، II، ص. 19

كان يرابط بقصور صفاقس، قصر زياد، جمّة والمنستير

المالكي، I، ص. 447 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 89.

المالكي، II، ص. 196 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، ج.II، ص. 91، الهادي روجي إدريس، II، ص. 50

إبن ناجي، II، ص. 130 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 91

يذكر د. كارتون D.Carton الذي أشرف على حفريّات هذا الموقع أنه عثر على عدّة لقبات يمكن تأريخها من الفترة الإسلامية. كما كشفت هذه التنقيبات على مبنى مربّع (42 م X 40 م) مشيد بواسطة الحجارة المصقولة والذي يمكن ان يكون أيضا من بقايا لقصر. أنظر D. Carton, "Notice Sur les fouilles d'al-Knissia", in, Bulletin de la Société archéologique de Sousse (B.S.A.S), 1907, p. 71-72

الطّوب للنظر في البحر والتفرّج عليه، فقال يوما وددت لو بني هنا قصر، فقال سهل : أنا أبنيه، فبناه وأنفق فيه نحو ألف مثقال"[239]

إضافة الى موارد الحمى، كانت للقصر له عدّة عقارات محبّسة عليه مثل "ربع حمّام الجزّارين بالقيروان"[240] . هذه الموارد جعلت القصر يرتقي بسرعة الى مستوى القرية المحصّنة (القصيبة)، وهو ما تبرزه بصفة جليّة ترجمة أبو القاسم عبد الوهاب بن نصر (توفي سنة 330 هـ/941 م)[241] .

ومن مشاهير عبّاد قصر سهل، *أبو الفضل يوسف بن مسرور مولى نجم الصيرفي*، صاحب كتاب "أحمية الحصون". ألّفه عندما كان مرابطا بقصر الجعد، فأذاه المرابطون وأجبروه على الإنتقال الى القصر الجديد حيث توفيّ ودفن (سنة 324 هـ/ 935م[242] . ويذكر المالكي "أنه كان يسرد الصيام طول عمره، أقام أربعين سنة ما طبخ قدرا ولا أوقد في بيته مصباحا". [243] و"ذكر فتحون القصرى نزلت على أبي الفضل بقصر الطوب. . . فحملت اليه هدية عسلا وسميدا وكعكا فقال لي ثلاثون سنة ما أكلت من هذه الطّرائف، لم أسكن هذه الحصون لآكل بديني وفرّقها على الضّعفاء"[244]

أبو القاسم عبد الوهاب بن نصر المتعبد، من زهّاد القيروان ولكنه كان "كثير السياحة والرّباط" بقصر سهل، صحبة طريف الخيّاط. [245] وكان طيلة فترة المرابطة "يخدم الأرامل والأيتام والفقراء ولا يتكلّم في ثلاثة أشهر من السّنة، رجب وشعبان ورمضان". [246]

---

239) حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 91. أمّا سهل القبرياني فيذكر عياض "أنّ أصله من العجم ومن أصحاب سحنون الذي ولاّه قضاء قسطيلية" : *المدارك* (طالبي)، ص. 157-158

240) المالكي، II، ص. 483.

241) المالكي، II، ص. 267-268 : "قال طريف الخيّاط : سألت عبد الوهاب أن يخرج معي الى سنوسة. . . فجئنا قبل المغرب فدخلنا المحرس الذي علي باب القصر فجدّد وضوئه ودخل المسجد فلم يزل يصلّي الى صلاة العشاء الآخرة. . . فعمدت الى طعام كان معي فهيّأته وأخذت كسائي الذي معي ففرشته له فامتنع عن النّوم ومال الى ركن المحرس فلم يزل يصلّي حتى طلع الفجر ، فسلّم ونزل الى المسجد. . ثم جلس الي القبلة يذكر اللّه عزّ وجلّ حتى طلعت الشمس وركع ونام الى أن تعالى النهار فقام من نومه ثم قال لي : إخرج بنا نمشي على البحر فإنّها عزوة، فخرجنا نمشي ناحية القبلة وهو يكبّر ويذكر اللّه حتى إنتهينا الى قرب الحمّامات".

242) المالكي، II، ص. 234 ؛ عياض، 1986، ص. 416 ؛ إبن ناجي، III، ص. 12

243) المالكي، II، ص. 236 ؛ عياض (طالبي)، ص. 417 "لم يكن في بيته غير كتبه وجلد صوف وركوة ماء ومعلقة ونعل"

244) المالكي، II، ص. 236 وص. 237 "أشتهى تينا أخضرا فاشترى له من السّوق فرفضه لأنه لرجل كتامي سخّر عليه أهل المنزل حرثوه إثنتي عشر سكّة في أرض مغصوبة".

245) المالكي، II، ص. 266

أبو سعيد خلف بن جرير *اليحصبى السّرتي* (توفي سنة 319 هـ/ 931م بمصر). من علماء القيروان الموسرين، سمع من أبي بكر محمد بن زيّان الحضرمي ومن عبد الجبّار بن خالد صاحب سحنون. كان يرابط بقصر سهل كلّ شهر رمضان ، صحبة المقرّى عبد اللّه محمد بن خيرون وإبنه سعيد. وكان أيضا "يحسن الفروسيّة، مولعا بشراء الخيل يخرج للرّباط بها للحرس على المسلمين والسياحة على البحر"[247] .

قصر حبشي

على طول الطريق السّاحلية الرّابطة بين سوسة وهرقلة، حيث شيّد الأغالبة قنطرة الفصل،[248] لا يذكر التيجاني أي مركز سكني، ممّا يدل على أن قريتي أبي سعيد[249] وقصر حبشي قد إنقرضتا في بداية العصر الحفصي. وكان قصر حبشي أو قصر إبن عمر الأغلبي كما يسميه البكرى[250] أيضا من الرّباطات التي تحيط بمدينة سوسة في العصر الأغلبي، و يحتلّ موقع سيدي القنطاوي حيث مازالت بعض أطلاله قائمة.[251] هذه المنطقة عرفت بخصبها منذ العهد الرّوماني، ممّا يفسّر إزدهار مدينة تمترThemetra التي إندثرت بدورها في آخر العهد البيزنطي.[252] وبهذا تندرج إقامة قصر حبشي في نفس عملية الإحياءالتي تزامنت مع إقامة الرّباطات في بداية العصر الأغلبي.

ولقد بيّنا في بداية هذا البحث شيوع تملّك الارستقراطية الأغلبية، مثل إبن مسروق، لقرية أو عدّة قرى في الساحل التّونسي. وينسب قصر حبشي أيضا لإبراهيم بن حبشي بن عمر، حفيد إبراهيم بن الأغلب (توفي سنة 299 هـ/ 911 م) الذي كان

---

(247) *نفس المصدر*. II، ص. 266. انظر أيضا إبن ناجي، III، ص. 16-17

(248) المالكي، II، ص. 195-196، 336.

(249) مقامة على 16 حنيّة ، على الشكل المعماري المعروف بصلب الحمار. إنظر حول هذا المعلم : حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 80 ؛ G.Marçais, Architecture,p. 39

(250) المالكي، II، 400 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II. ص. 97، هادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجيّة* II، ص. 45 "في المكان الذي يطلق عليه إسم سيدي سعيد"

(251) البكرى، ص. 84 ؛ المالكي، II، ص. 135، حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 95

(252) انظر خاصّة تعدّد رموز الخصب في فسيفساء هذه المدينة مثل اللوحة التي رسم عليها إغتصاب أوجي Viol d'Augée. حول هذه اللّوحات راجع : L.Foucher,"La mosaïque dionysiaque de Themetra" in, Melanges de l'école française de Rome, 1957, p.151-161; A.Jelloul, Liber Pater en Afrique, thÈse de doctorat Paris-Sorbonne IV, 1989, T.I p.182.

(253) زاوية سيدي القنطاوي كانت تحيط بها خرائب مدينة يبدو من هندسة بعض جدرانها أنها من مؤسسات العهد الأغلبي. أنظر في هذا الصدد : D. Carton, Sidi Kantaoui, in B.S.A.S, 1904, p. 214-215.

كثيرا ما يقيم به صحبة عائلته قبل أن يتولّى قضاء صقليّة.[253] ويذكر إبن الجزّار أنّه قرأ في قصر حبشي بسوسة "كلّ ما في هذا المحرس من بلاط منشور أو عمود رخام في كبسه مالطة، أتى به حبشي بن عمر، طالبا لما عند الله عزّ وجلّ وإبتغاء مرضاته"[254]. ويفهم من هذا النّص أنّ الأمير الأغلبي الذي قاد حملة بحريّة مظفّرة ضدّ مالطة سنة 256 هـ/ 870م قام بهدم كنيسة الجزيرة وأعاد إستخدام المواد الثمينة من رخام وأعمدة في أحد منشآت (ربّما المسجد) محرس الرّباط.[255]

وفي ضواحي سوسة تذكر المصادر الأغلبية بعض القرى الأخرى التي لم تكن مراكز رباط ولكنّها تتّصل بها، مثل منزل صقلاب الذي يعدّ من ممتلكات سحنون بن سعيد[256] وأبن سهلون[257]. وإلى جانب منزل صقلاب توجد قرية أكّودة التي تنسب الذاكرة الشعبية احداثها لعبد الله بن عبيد المهري، من أصحاب سحنون.[258] ولا ندري ما هو نصيب هذه الرّواية من الصحة ولكن تعدّد الآثار الرّومانية بهذه المنطقة يجعلنا نرجّح أنّ أكودة والقلعتين (الصغرى والكبرى) تشكّل تواصلا لمدينة Gurza الرّومانية بالرّغم من أن هذه المراكز لم تبرز في النصوص التّاريخية إلاّ في العصر الحفصي[259]

هرقلـــــــة

يؤكد مصير هرقلة ما ذهبنا إليه سابقا، حول قيام أغلب مراكز الرّباط في مواقع عرفت تراجعا عمرانيّا وأقتصاديّا في آخر العهد البيزنطي. فمدينة إهريقليّة Horrea Coelia الرّومانية، التي مازالت المخازن والصهاريج والقنوات والحمّامات تشهد على

(253) كانت أغلب الرّباطات رغم إشراف بعض الأثرياء على إقامتها مؤسّسات حكوميّة فهل تخلّى إذن ابن حبشي عن قصره لصالح الدولة المركزية ؟

(254) محمد الطّالبي، *الدولة الأغلبية*، ص 521.

(255) *نفس المرجع*، ص. 521.

(256) المالكي، II، ص. 366 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 99. وينسب هذا القصر الى صقلاب بن زياد الهمذاني (توفي سنة 193هـ). انظر في هذا الصدد : ابن ناجي، I، ص. 235.

(257) سيدي سهلول، وينسب الى حمّود بن سهلون، من مشاهير نسّاك القرن الثالث الهجري. (*ورقات* II، ص. 98). وتوجد أيضا قرية ثانية بجهة صفاقس تنسب الى هذا الفقيه (المالكي، II، ص. 261).

(258) حول عبد الله المهري انظر : ابو العرب، ص. 123؛ المالكي، II، ص. 142

(259) ابن ناجي، VI، ص. 108. أكودة لا يفصلها عن Gurza إلا واد ليّة، وقد عثر كارتون Cartonبنفس الموقع على نقائش عربيّة لم يحدّد تاريخها (انظر : (D. Carton, "Gurza", in B. S. A. S, 1906,pp. 49-61) كما أن بعض العمائر مثل سقيفة لطيف (القلعة الكبرى، لـ. 43) يمكن أن تؤرّخ من العصور الإسلامية الأولى.

ازدهارها، لم تعد في بداية الفتح الإسلامي إلا "قرية كبيرة"،[260] تعلو سفح ربوة تشرف على البحر، وتستمدّ أهميّتها الإستراتيجيّة من وجود ثلاثة مواجل رومانية تتردّد عليها السّفن الحربيّة.[261]

هذه القرية - القصر حصّنها الأغالبة بسور صخري انقرض بدوره في أواخر القرن الثامن عشر[262]. وقد أقام الأغالبة أيضا بداخل القرية، حذو الجامع العتيق (الذي يعود تأسيسه الى هذه الفترة)،[263] استحكاما صغيرا مماثلا "لرباط سوسة". هذا المعلم الذي يرتبط بمؤسسة الرّباط اندثر مؤخرا ولكنّنا نعرف هندسته من خلال الوصف الذي تركه لنا د. كارتون D. Carton [264] وقد كان يشكّل بناية مربّعة(50X50م) مشيّدة بواسطة حجارة المصقولة، ويدعّم السور الخارجي أبراج نصف دائرية، بأستثناء البرج المربّع البارز الذي يحمي المدخل الوحيد. هذا الباب يفضي بدوره الى باحة سماوية تحفّ بها حجرات، على غرار النظام المتّبع في أغلب العمائر المماثلة التي توجد بالسّاحل التونسي.

ورغم أهميّة قصر هرقلة الإستراتيجية، فإنّه لم يكن سوى رباط ثانوي، ممّا يؤكّد مرة أخرى أن هذه المؤسسات أحدثت خاصّة لأغراض مذهبيّة - سياسيّة وإقتصاديّة. فكتب الطّبقات لم تترجم إلاّ لمرابط واحد إعتكف بهذا الحصن وهو أبو زكرياء الهرقي،[265] أصيل الأندلس. ويذكر المالكي أنّه كان صاحبا لسحنون لا يفارقه، فلمّا ولي القضاء ترك مجالسته[266] ولزم الرّباط حيث إشتغل بزراعة الشعير - ربّما في حمى الحصن - بمعيّة مرابط آخر : سعدون الصوّاف.[267] كما شارك مع صاحبه المرابط أبي إبراهيم الخراساني في الحملة التي شنّها الأمير أبو العبّاس محمد بن الأغلب سنة 232 هـ/846م على مدينة رومة فاستشهد الخراساني " فجعل أبو زكرياء يقول : يا ربّ

- التيجاني، ص. 25 ؛ الحسن الوزان، II، ص. 83
- التيجاني، ص. 25 ؛ الادريسي، ص. 125 ؛ الحميري ، ص. 33 ؛ L. Peysonnel, p.35; G. Kotovtsov, p.111-112; V. Guerin; I, p.85; ch. Tissot ; II, p. 87.
- أما جامع سيدي بومنديل (ابن يعقوب السبعي) الذي يتوسّط المدينة فهو من العهد الحفصي. وقد كانت هرقلة مشهورة في العهد الحديث بإنتاج الشّوامي التي كانت تصدر إلى فرنسا وألمانيا
- D. Carton, "De Sidi Bou Ali à Hergla," B.S.A.S, 1904, p . 106-
- المصادر : طبقات أبي العرب، ص. 73 ؛ المالكي، I، ص. 415 -418.
- المالكي، I، ص. 415
- نفس المصدر، I، ص. 416

خرجت أنا وصاحبي في حاجة فقضيت حاجته وتركت حاجتي، فخرج عنق من الرّوم فدفعوا دفعة واحدة فقتلوا أبا زكرياء"[268].

وفي شمال هرقلة كان يوجد قصر المدفون أو قصر المرابطين ويناسب اليوم موقع برج الحمام.[269] ويذكر التيجاني أن "هذا الرّباط المنسوب لابن الأغلب خال خرب. وضخامته تشعر بضخامة بانيه، وتسميّته بالمدفون تسمية مفهومة لأنّ الشّعراء حفّت به من كلّ جانب فكأنّه مدفون هنالك."[270]. ويعود خرابه إلى تدهور الطريق السّاحلية التي كانت تمرّ به[271].

رباطات المنستير[272] (ش. 34 - 35)

مثل سوسة، كانت كلّ مدينة المنستير تعتبرمحرسا ورباطا مقدّسا وضعت في شأنه العديد من الأحاديث النبوّية[273] وألّف في "فضائله" أشهرعلماء إفريقية في العصر الوسيط[274]. ورغم الخلاف الذي مازال يشقّ أوساط المهتمّين بالحقبة الرّومانية حول

(268) *نفس المصدر*، I، ص. 18+

(269) الإدريسي، 1983، ص. 168 ؛ المالكي، I، ص. 340؛ التيجاني، ص. 23-24

(270) التيجاني، ص. 23-24

(271) نفس المصدر، ص. 23-24

(272) حول تاريخ ومعالم المنستير أنظر خاصّة: G.Marçais, art. "Monastir" , E.I, anc.edit. T.III, 1928, p. 627-628; ID, "Notes sur les ribats en Berberie", in Melanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, Alger 1957, p.25 et suiv; ID, L'Architecture musulmane d'Occident, op.cit, p.32,46, 76,324; S.M.Zbiss, "Le ribat institution militaro-religieuse des côtes africaines", in C.R.A.I, 1954, p143-145; ID, Inscriptions de Monastir, Tunis 1960; ID, Les monuments de Monastir, Tunis 1964 ; A.Lezine, Le ribat de Sousse, op.cit, p.35-43 ; ID, "Deux ribats du Sahel tunisien", in Cahiers de Tunisie, 1956, p.280-288; A.Harzallah, "Monastir ou la renovation d'une medina" , in Présent et avenir des médinas, Tours, 1982, fasc. 10, p. 31-43 ; M.Sahah Sayadi, Monastir Histoire sociale, Tunis 1979; N. Djelloul, Les installations militaires, T.II p. 490-500.

انظر أيضا : روبار برنشفيك، *تاريخ إفريقية*، I، ص. 339 ؛ الهادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II، ص. 50-52 ؛ عبد الله الزنّاد، *الامام المازري وقصر الرّباط*، تونس 1967 ؛ إبراهيم شبّوح، "*حول منارة رباط المنستير وأصولها المعمارية*،" مجلة *إفريقية* (Africa)، 1969-1970، ص. 5-15؛ محمد صالح الصيّادي، *الذاتية التاريخية لمدينة المنستير*، المنستير 1979

(273) المالكي، I، ص. 7-8 "عن إبن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بساحل قمّونيّة باب من أبواب الجنّة يقال له المنستير من دخله فبرجمة الله ومن خرج منه فبعفو الله ... وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : من رابط بالمنستير ثلاثة أيّام وجبت له الجنّة... وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير يرفعه الي رسول الله أنّه قال : بالمنستير باب من أبواب الجنّة يقال له الأنف دونه قنطرة من قناطر الأوّلين".

(274) انظر تأليف يحي بن عمر : "*كتاب في فضائل المنستير والرّباط*" وكتاب "*أحمية الحصون*" : محمد مخلوف، شجرة *النّور الزكيّة*، القاهرة، 1349هـ، ص. 73

تحديد موقع روسبينا Ruspina : المدينة الحاليّة أو هنشير تنيّر[275]، فإنّه ليس هنالك أي مجال للشكّ بأنّ المنستير الإسلامية هي نفسها وريثة المدينة العتيقة، مثلما أكدّ ذلك الحسن الوزّان ومحمد مخلوف.[276] ويبدو أنّها ورثت عنها أيضا هذا التشتّت الى عدّة وحدات عمرانية الذي ميّز المدينة الرّومانيّة[277]، لهذا كانت غالبا ما تنعت هي أيضا بقصور المنستير. التسمية الجديدة نفسها لاتينيّة Monasterium، إقتبسها العرب من التعريف البيزنطي الذي كان شائعا في المشرق والمغرب[278] لتعيين الحصون التي كانت تشاد على ساحل البحر لإنفراد الرّهبان. ويبدو أن أهل البلاد المفتوحة الذين إعتادوا من قبل إطلاق هذه التسمية على الدّير النصراني لم يروا بعد بناء المؤسسة الاسلامية (من حيث نظامها) أختلافا كبيرا عن المنستير المسيحي فأطلقوا على الرباط الاسلامي نفس الاسم الذي غلب عليه بإفريقية والأندلس قبل القرن IXم[279]، مثل منستير عثمان أو منستير شرق الأندلس.[280] وتعرّض الشهاب الخفاجي الى هذا التقارب اللّفظي والوظيفيّ عندما ذكر أنّ "المنستير لفظ روميّ معناه عندهم خانقاه للرّهبان على الطريق ينزل فيه أبناء السّبيل وموضع بإفريقية معبد للزّهاد والمنقطعين".[281] ووظيفة إيواء المسافرين

---

(275) انظر في هذا الصدد : St. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris 1911, T.VIII, p.76;- N.Kallala, "La localisation du site de Ruspina", in Actes du 113ème congrés des Societés savantes. IVème colloque sur l'histoire et l'Archéologie de l'Afrique du Nord, Stasbourg 1988, T.II, p.525-533.

(276) الحسن الوزّان، II، ص. 84 ؛ محمد مخلوف، خاتمة، ص. 190.

(277) اللّقيات الأثرية، ومن بينها احيانا قطع من الخزف الاسلامي، شملت المواقع التّالية : المدينة، هنشير تنيّر، وادي إسماعيل، القديمة، الغربية، سيدي الغدامسي، الكحليّة. راجع : محمد صالح الصيّادي، *الذاتية التاريخية*، ص. 6 ؛ N.Kallala, op.cit, p.531-532, fig. 1

(278) حول دير Mandrakion المحصّن بقرطاج في العهد البيزنطي، انظر : G.Marçais, "Notes sur les ribats" p. 26

(279) G.Marçais, "Notes sur les ribats" p.31-32; S.M.Zbiss, Inscriptions de Monastir, p.1-7 (préface de H.H.Abdulwahab), ID, Monastir, p.3; M.De Epalza, "al-Munastir d'Ifriqiyya et al-Munastir de Xarq al-Andalus", in Actes du VIIème Colloque universitaire tuniso-espagnol, Cahiers du Ceres. p. 100-101.

(280) ياقوت، ج. V، ص. 210. انظر حول هذا التقارب اللّفظي أسماء مواقع مرابطة أندلسية مثل Almonacid,. Almonecir, Al monaster, Monastrell.

راجع : O.Asin, "Origin arabe de rebato, arrobada, y suo homonias", in Boletin de la Real academia espanola, T.XIV, 1928, p.347; L. Torres Balbas, "Rabitas hispano musulmanas" in al-Andalus T.XV. 1950, p. 475-491 ; M.De Epalza, op.cit, p. 100-101.

(281) محمد مخلوف، خاتمة، ص. 189

وأبناء السّبيل إختصّت بها فيما بعد الأربطة الأغلبيّة[282] والزّوايا الحفصيّة التي ورثتها.[283] ويبدو أنّها من الوظائف الأولية التي ساهمت في توطيد الوجود العربي في الأقاليم المفتوحة مثلما تؤكّده رسالة عمر بن الخطّاب الى واليه سليمان والتي أمره فيها حسب الطبري "بأن أعمل خانات في بلادك فمن مرّ بك من المسلمين فأقرّهم يوما وليلة وتعهّد دوّابهم فإن كانت به علّة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعا به فقوّوه بما يصل به الى بلده"[284]. فرباطات إفريقية، تماما مثل حصون المشرق والأندلس[285] كانت على غرار أمصار العراق الأولى مؤسسات تهدف إلى توطين الفاتحين الجدد بتمكين جزء من قدماء المحاربين وغيرهم من أراضي يستصلحونها[286] وينشؤون حولها قرى جديدة تشكّل القاعدة البشرية لتعريب وأسلمة البلاد المفتوحة. ولأجل هذا أيضا اعتبرت القيروان في بعض الأحيان رباطا، وهوما جعلنا أيضا نميل الى الإعتقاد بأنّ المنستير كانت تشكّل تجمّعا عمرانيا منذ القرن الثامن ميلادي[287]. وقد كان هذا التجمّع ينعت عادة بقصور المنستير، في حين أنّ المقدسي (ق.10م) وليون (ق.16م) تحدّثا عن مدينة.[288] على أنّ ندرة وغموض روايات الجغرافيين العرب وإقتضاب غيرها،[289] وكذلك ندرة الدّراسات الأثريّة المعمّقة، لا تسمح لنا بالوقوف على حقيقة هذه الهياكل وتطوّرها قبل القرن الثامن عشر ميلادي، خاصّة وأنّ المنستير عرفت منذ سنة 1960 حملة "تعصير" كثيفة أفقدتها أغلب معالمها العتيقة.

---

282) المالكي، II، ص. 377-382

283) روبار برنشفيك، *تاريخ إفريقية*، I، ص. 304

284) محمد صالح الصيّادي، *الذاتية التاريخية*، ص. 14

285) M.Terrasse, L'Islam, in Atlas mondial de l'archéologie , Paris 1985, p.146-160

286) العديد من الرّباطات توجد قرب السّباخ أو في موقع مدن تراجعت في بداية الفتح الإسلامي.

287) انظر أيضا : T.Bachrouch, "Le Sahel, Essai de définition d'un espace citadin " in Cahiers de Tunisie, T.XXXIV, 1986, p.225.

288) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ص. 212 ؛ الوزّان، II، ص. 84

289) بالنسبة للمصادر الأوروبية انظر خاصة :

- ق. 15 م : A. Adorne, "Voyage en Barbarie", edit;R.Brunschvig, Deux recits de Voyage, Paris 1936, p. 222 ;V.M. Van Ghistèle, "Tunizia," edit.et trad. J.Bawens et L.Verplancke, I.B.L.A, 1967, p. 159-160

- ق 16 م : L.Marmol Carvajal, Descripcion general de Affrica, Grenade, 1573, trad.N.Perrot d'Ablancourt, Paris 1967, T.II, p.391 ; L.Lanfreducci et G.Bosio, op.cit, p.512; A.DeThou, Histoire universelle, Paris 1734, T.II, p.45; A.Farochon, Les gloires chrétiennes de la France, Paris 1892, p.20

- ق. 17 -19 م : R. Elyatt, Brève description du royaume de Tunis, edit.J. Pignon, Tunis 1967, p. 62; R.Desfontaines.Fragments d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, Paris 1838; p.113; C.Filippi ; Fragments sur la régence de Tunis, Paris 1929; E. Pellissier, Description de la régence de Tunis, Paris 1853, p.89-90.

المصـادر الجغرافيّـة العربية بالرغم من تعدّدها إعـتمدت أربع روايات أساسـيّة (ابن حـوقل - البكرى -الادريسي - ياقـوت)[290] ونقلت عنهـا بدون إعـتـبـار عـامل الزّمن. فالحميري الذي كـتب في العصر الحفصي[291] ينقل لنا حرفيّا مـاذكره البكرى في القرن الحادي عشـر ميلادي، وهذا الأخير نفسه إعتمد عـلى مصادر مختلفـة وخاصّة الورّاق (ق.10م). نفس الملاحظة يمكن أن نسوقـها بالنسبة الى التيجـاني ومقديش (ق. 13م و18م)[292] اللذين نقلا عن البكرى والإدريسي (ق. 12م).

- إبن حوقل (ق.10 م) : "بين المهدية وسوسة رباط يسكنه أمّة من النّاس على مرّ الأيّام والسّاعات يعرف بالمنستير ويقصده أهل إفريقية لوقت من السنة فيقيمون به أيّاما معلومة ويحضـر بفاخر الأطعمة ونفيس المـآكل ويقيم جميعهم به مـدّة ثمّ يتفرّقون إلى أوطانهم. . . وبينه وبين المهـدية أيضا قصر رباط يعرف بشـقانص وهو عندهم دونه في المنزلة وهو حـصن منيع. . وهمـا قصـران عظيمـان على حافـة البحـر للرّباط والعبـادة عليهما أوقاف كثيرة بإفريقية والصّدقات تأتيهما من كلّ الأرض. "[293]

- البكرى (ق 10 -11 م) : "من محـارس سوسة محرس الـمنستير الذي جـاء فيه الأثر. وذكر أن الذي بنى القـصر الكبـير بالمنسـتير هرثمة بن أعـين سنة 180هـ وله في يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير. وبالمنسـتير بيوت الحجر والطّواحين الفارسيّة ومواجل المـاء، وهو حصن عال البناء مـتقن العـمل وفي الطّبقة الثـانية منه مسـجد لا يخلو من شـيخ خـيّـر فاضـل يكون مدار الـقوم عليـه. وفـيـه جـماعـة من الصّـالحـين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر. وقال محمد بن يوسف [الورّاق] هو قصر كبـير عال داخله ربض واسع وفي وسط الرّبض حصن ثان كبيـر كثير المسـاكن والمساجـد والقصـاب العالية، طبـقات بعضـها فوق بعض. وفي الـقبلة منه صحن فسيح فـيه قباب عالية متـقنة ينزل حولها النساء المرابطات تعـرف بقباب جامع.

---

290) بالنسبة إلى المـصادر الاسـلاميـة (بعـد القرن 10 م.) انظر خـاصّة . - بيـري رايس، *كتـاب بحري*ة، نشره Y.Senemogli (Denizcilik kitabi)، انقرة 1973، I، ص. 178-179؛ أبو الحسن التمكروتي، *النفحة المسكيّة في السّفيرات التركية*، الرباط، 1926، ص. 26، محمد مخلوف، *شجرة النور الذزكيّة*، خاتمة، ص. 189-203؛ أرشيف المدرسة الـحربية بباردو : *برنامج مدن ولايات سـوسة والمنستيـر والمهدية* ووطنهم من الجوامع والأولياء والمعاصر والديار. مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 18869، ورقة 57.

291) الحميري، *الروض المعطار*، تحقيق احسان عبّاس، بيروت 1983، ص. 331.

292) التيجاني، *رحلة*، ص. 102، مقديش، I، ص. 137

293) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ليدن 1967، ص. 73

وبها جامع متقن البناء وهو آزاج معقودة كلّها وأقباء لا خشب فيها. ولها حمّامات كثيرة وكان أهل القيروان يتبرّعون بحمل الأموال إليهم والصدقات الجزيلة. وبقرب المنستير ملاّحة عظيمة تشحن فيها السّفن الملح الى البلاد وبقربه محارس خمسة متقنة البناء معمورة بالصّالحين"[294].

- الادريسي (ق: 12 م) "المهدية ليس لها جنّات ولا بساتين ولا نخل ولا فاكهة إلا ما يجلب اليها من قصور المنستير. والمنستير قصور ثلاثة يسكنها قوم متعبّدون"[295].

- ياقوت الحموى (ق.13م) : أعاد تقريبا نصّ البكرى وأضاف "بأنّ المنستير خمسة قصور يحيط بها سور"[296]

- إبن خالكان (ق. 13 م) : "المنستير بلدة بإفريقيّة بناها هرثمة بن أعين سنة 181هـ. والمنستير معبد بين المهديّة وسوسة يأوي إليه الصّالحون المنقطعون للعبادة وبه قصور شبيهة بالخانقاهات وعلى تلك القصور سور واحد ذكره ياقوت في كتابه"[297]

. القصور والتحصينات

لقد أفقدت الترميمات الحديثة أسوار المنستير قيمتها الأثرية والعلميّة، وهذا يجعلنا نعتمد في دراستنا لتطوّر المدينة خاصة مخطّطات 1857 و1930. حسب هذه المخططات كانت المنستير تتركّب قبل حملة "التعصير" من مدينة (حومة البلد) يطوّقها سور صخرى وتحميها في (الزّاوية الشمالية الغربيّة) القصبة. وهذه الوحدة العمرانية العتيقة كانت تحدّها من الغرب ثلاثة أرباض، هي أيضا محصّنة بواسطة أسوار حجرية : الربض الأوسط، الربض الأقصى والرّبض الجديد (شـ. 34)[298].

---

294) البكرى، ص. 36

295) الادريسي، 1983، ص. 144. انظر ايضا : مقديش، I، ص. 137، مخلوف، خاتمة، ص. 192.

296) ياقوت، V، ص، 210.

297) إبن خالكان، *وفيات الأعيان*، بيروت 1968، IV، ص 68. قارن هذه الرّواية بنصّ J. Van Ghistcle (1481) : "Il existe à Monastir une espèce de religieux païens, tenus pour saints dans ce pays -là et nommés morabitos. Elle a en outre un chateau- fort remarquable et solide, où habite en permanence un amiral ou alcaytus, representant le roi de Berberie" (*Tunizia*, p. 159).

298) N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p. 498-500.

القصر الكبير (شـ . 35)

يعتبر القصر الكبير من أقدم وأهمّ قصور المنستير، ويعود أحداثه حسب أغلب الرّوايات إلى فترة هرثمة بن أعين الذي أرسله هارون الرشيد سنة 179هـ/ 795م لتأمين إفريقية بعد ثورة ابن الجارود[299]. ويذكر البلاذري أنّ هذا الوالي تولّى عملية إنقاذ وإعادة تنظيم موسّعة في كلّ الولايات التي مرّ بها مثل "إعادة الضيّاع في فلسطين إلى مزارعيها بعد أن هجروها"[300]. وتندرج عملية احداث رباط المنستير في نفس الإطار الذي أقيمت من أجله رباطات فلسطين وأرمينيّة وعسقلان، أي إعادة إحياء الأراضي الفلاحيّة وتركيز مسلمين جدد أكثر ولاء من عناصر الجند الذين كانوا أساس ثورة إبن الجارود. هذه النسبة تؤكدها أيضا النقيشة الكوفيّة التي كانت مثبّتة في مسجد القصر[301]. على أننا نعرف أيضا أن الجيش الفرنسي "اقتلع سنة 1884م من منار المنستير نقيشة أخرى تذكر أنّ أساس القصر والطّابق الأول والمنار" بناها أبو القاسم محمد الموصلي سنة 365هـ/ 976م"[302]. ويبدو من روايات المالكي (المتعلّقة بتأسيس الرّباط)[303] والبكرى[304] والتلمساني[305] أن القائد العبّاسي اكتفى بإحاطة تجمّع عمراني سابق يعرف بالزّريبة[306] بسور جديد، وأضاف إليه (من الداخل) بعض المنشأت العسكرية والمدنيّة، منها القصبة (أو جزء منها)، و الدّور التي توجد بأركانها أعمدة، والتي يمكن تأريخ تيجانها من بداية العصور الإسلامية[307]. كما أنه ليس مستبعدا قطّ أن تكون هذه العمليّة تهدف إلى نقل العاصمة من القيروان الى ساحل البحر (المنستير)[308]، وهي العملية التي أقدم عليها فيما بعد الفاطميّون لمّا قاموا بتأسيس المهديّة وتحويل طريق الحجّ نحوها.

---

299) محمد الطالبي، *الدولة الأغلبيّة*، ص. 92 - 93. حول تأسيس الرّباط، ابراهيم شبوح، *نفس المرجع* ص. 5-6 ؛ A. Lezine, Le ribat de Sousse, p. 35.

300) البلاذري، فتوح، القاهرة 1956، ص. 171 ؛ ابراهيم شبوح، *نفس المرجع*، ص. 5-6.

301) ابراهيم شبّوح، نفس المرجع ص. 6.

302) محمد صالح الصيّادي، *الذّاتيّة التاريخيّة*، ص. 19؛ محمد الطاهر عقير، *المنستير عبر مواقع التجذير*، تونس، 1989، ص 18.

303) المالكي، I، ص. 8 "سمعت البهلول بن راشد يقول لوزير هرثمة حين استشاره في بناء المنستير، فعدّد له انّ هرثمة بنى بأرمينيّة في غير موضع، فقال له البهلول ما ذكرت شيئا إلاّ والمنستير أفضل منه، ذلك أنّه بلغني عن النّبي أنّه باب من أبواب الجنّة".

304) البكري، مخط. المكتبة الوطنية باريس (ق 15م)، "ويذكر أنّ الذي ينزل القصر الكبير بالمنستير هرثمة ابن عين سنة ثمانين وماية".

305) "هي بلدة بساحل البحر أو حصن رباط بإفريقية له سور بناه هرثمة بن أعين". راجع مخلوف، ص. 189.

306) مخلوف، ص. 192.

307) G. Marçais, Architecture, p. 46, fig 20.

308) الصيادي، *الذّاتية*، ص 20

ويتّضح ممّا ذكرناه أنه خلافا لما ذهب إليه محمد مخلوف وأ. لزين[309] فإن القصر الكبير الذي ذكره البكري والمالكي[310] لم يكن يقتصر على القلعة المصطلح عليها حاليّا "برباط المنستير" (القصبة) بل يشمل كل حومة البلد، أي المدينة العتيقة[311]. وهنا نفهم نعت المقدسي للمنستير بالمدينة إذ أنّ هذا الجغرافي (الذي حاول تصنيف التجمعات العمرانية الاسلامية) يعتبر الرّباط "عاصمة للرّستاق"[312]، مثل قصر زياد الذي كان عاصمة لرستاق رصفة[313]. فالقصر الكبير الذي سوّره هرثمة بسور حجري "لم يبق له أثر إلامن الجهة الشرقية[314] يشمل القصبة والمسجد الذي تعود أقدم أجزائه الى العصر الأغلبي[315]. وإلى هذه الفترة يعود أيضا إحداث زاوية سيدي الذويب المحصّنة التي كانت هي أيضا في أوّل أمرها مأوى للمرابطين. ويذكر محمد مخلوف أنّه يوجد بهذه المنطقة قصران "أحدهما يعرف بقصر السيدة وقبرها بمقصورة بمسجد يعرف بالسيّدة. أما القصر فلم يبق له أثر ومحلّه الآن دور بعض بيوتها... ومن مشمولاته مسجد يشبه في البناء والقدم مسجد السيّدة به مغارة تحت الأرض ومقصورة بها قبر ويعرف هذا القبر بسيدي عامر... ومن مشمولاته أيضا مسجد يعرف بمسجد الدزّ. ومن مشمولاته أيضا قبّة فيها قبر أبي الحسن على السرّاج ويعرف الآن بسيدي السرّاج"[316]. هذا القصر (الذي وقع الكشف عن جزء من سوره الخارجي)[317] بمساجده يعود إحداثه الى العصر الصنّهاجي[318]، لكن يبدو أنّه أقيم على أنقاض منشآت تعود إلى الحقبة الأغلبيّة، خاصة الصحن الذي يحتوي على قباب عالية ينزل حولها النساء المرابطات[319]. أمّا الحمّامات والطّواحين الفارسيّة التي ذكرها البكرى فقد كانت توجد أيضا بهذه المدينة العتيقة، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى محرس رباط سوسة.

---

309) مخلوف، ص. 192، A. Lezine, Le ribat, p. 35.
310) البكري، ص. 36 ؛ المالكي، I، ص. 251، 441، 448، 464.
311) ويفهم هذا أيضا من نص المالكي (II، ص. 446) "اذا صبّ ماء المطر نخرج من المسجد لا نمشي في الطين والزّلق". وكان "بشير المتعبّد يسكن نوّالة بالقصر الكبير" (المالكي، II، ص. 447).
312) المقدسي، *احسن التقاسيم*، ص. 47-55، 177.
313) *نفس المصدر*، ص. 212.
314) مخلوف، ص. 192.
315) G. Marçais, Architecture, p. 77-78. ومنتصف القرن الثامن حسب توفيق البشروش (Le Sahel, p. 225).
316) محمد مخلوف، خاتمة، ص. 192.
317) محمد طاهر عقير، *نفس المرجع*، ص. 36.
318) الهادي روجي إدريس، II، ص. 52.
319) البكرى، ص. 36.

وكان المرابطون يقيمون في القصبة وزاوية سيدي ذويب وبعض الدّور الخاصّة والنوّالات[320]. ويبدو أنه أضيف إلى هذه المنشآت ثلاثة قصور جديدة تشبه القصبة الأوليّة، وبهذا نجد "القصور الخمسة المحاطة بسور" التي ذكرها ياقوت وابن خالكان. هذا السور، الذي جدّد في العصرين الصّناجي والحفصي[321]، كان يتكوّن من جدار صخرّي تدعمّه أبراج مستطيلة (6م X 3م) وتتخلّله ثلاثة أبواب (باب السور، باب الدّرب وباب الخوخة) تدلّ عمارتها ودهاليزها المعطوفة en chicane أنّها من منشآت العصر الحفصي (لـ. 34)[322]. كما أن هذه التهيئة العمرانية المتميّزة (التي ترتكز على مجموعة من الحصون المحاطة بسور) التي تفرّدت بها الأربطة تذكرنا بتخطيط محارس قصر زياد ومنستير شرق الأندلس[323].

. القصبة (شـ. 36-51، لـ. 36-41).

أهم منشآت القصر الكبير - المدينة، كانت بدون شك قصبته التي ورد ذكرها في العديد من تراجم المالكي[324]، والتي كانت مقرّ إقامة أمين القصر الكبير أو أمين المنستير[325]. هذه القلعة، التي تمسح نصف هكتار وتتّسع لأكثر من ألفى جنديّ[326]، تقع على ربوة قليلة الإرتفاع تمكّن في آن واحد من مراقبة المدينة والبحر. وتحتوي على باحتين داخليّتين محفوفتين بمجموعة من المباني، وتفصلها الواحدة عن الأخرى وحدة معماريّة ثالثة تشكل كلّ ما تبقّى من القصبة الأوليّة التي تنسب لهرثمة بن أعين (179هـ/ 795م). ويتكوّن هذا المعلم من حصن صغير مربّع تقريبا أضلاعه

---

(320) المالكي، II، ص. 437.

(321) الهادي روجي إدريس، II، ص. 52 ؛ روبار برنشفيك، *المرجع السابق*، I، ص 339.

(322) روبار برنشفيك، *تاريخ إفريقية*، I، ص. 339. حول عمارة هذه الأبواب أنظر خاصة : G. Marçais, Architecture, p 324 ; N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p. 500.

(323) M. De Epalza, op.cit, p. 94 ; N. Djelloul, "A propos d'un : toponyme," passim.

(324) المالكي، II، ص. 448.

(325) المالكي، II، ص 437. وفي ترجمة أبي علي المكفوف (*نفس المؤلف*، II، ص 406) يسمّى الأمير، وهو ما يدلّ على الطابع الرّسمي لهذه الخطّة. وممّا يؤكد ذلك ما أورده المالكي II، ص. 453) عن "أمين لسليمان القاضي خرج ليرابط بالمنستير، فصلّى بهم إمامهم فسلّم تسليمة فغضب القاضي وتوعدّهم" ولم ينج المرابطون من العقاب إلاّ بعد تدخّل محمد بن سحنون وأهل القيروان. راجع أيضا حول هذه الخطّة، محمد مخلوف، ص. 103 ؛ هادى روجي إدريس، II، ص. 305.

(326) A. Farochon, op.cit, p. 20. حول هذا المعلم في الفترة العثمانيّة راجع خاصّة : L. Marmol, op.cit, T. II, p. 449 ; L. Lanfreducci et G. Bosio, p. 512 ; C. Filippi, op.cit, p. 270 ; E. Pellissier, op.cit, p. 90 ; V. Guerin, op.cit, T. I, p. 127.

32,80م X 32,40م، تقوم في زواياه أبراج نصف دائرية، عدا برج الزاوية الشرقيّة الهرميّ الذي ترتكز عليه منارة إسطوانية يتناقص غلظها في الارتفاع. "وللقصر مدخل وحيد بارز قائم الزّوايا يقع في محور الضّلع الجنوبي الشرقي ويفتح على دهليز مستقيم يؤدّي الى الصحن. ويشتمل الدّور الأرضي على غرف صغيرة مقبيّة تصطفّ على أسواره الأربعة، يتقدّمها رواق يفتح على الصحن، عدا مجموعة جدار المدخل القبلية فإنه يتقدمها رواقان. وعلى هذا الجانب من الدّور الأول مسجد صغير، به سبعة بلاطات عليها أقبية طوليّة[327]".

خلال عمليات التوسيع اللاّحقة وقع هدم كلّ القسم الشّمالي من هذه القلعة ولم يقع الحفاظ إلاّ على الجناح الجنوبي الذي يحتوى على بيت الصّلاة. وقد جعل تكاثر المرابطين (خلال القرن التاسع الميلادي) أمراء بني الأغلب يضيفون الى هذه القصبة - من الناحية الجنوبية- جناحا جديدا يحتوى على قاعتين للصّلاة، تدعّم جدرانه أبراج نصف دائرية (في الزوايا) وأخرى مستطيلة. هذا الجناح الذي يعرف اليوم "برباط النساء" يتصّل بالجامع بواسطة بوّابة جدّدت في العصر الزيرى (شـ. 37)، أشغال هذه الفترة أعطيت أيضا للمعلم مساحته الحالية. في حين أن الباب الغربي يعود إلى إصلاحات السلطان الحفصى أبوفارس عبد العزيز كما تدلّ على ذلك النقيشة التي تعلو العقد[328]. وإلى هذه الفترة يعود أيضا تهديم الجناح الشمالي من قلعة هرثمة، وتهدف هذه العمليّة إلى إكساب القصبة ساحة فسيحة تليق بإقامة وال يعدّ من أهم موظّفي الإدارة الحفصية[329]. وكذلك تمكين السكّان من فضاء هام يلجؤون إليه ابّان الغزوات المسيحيّة[330].

ويعود احداث زاوية سيدي ذويب (شـ. 54-52) أيضا الى الفترة الأغلبية، على يد أحد أفراد العائلة الأغلبية : دؤيد مثلما تؤكده نقيشة كوفية (مؤرخة من سنة 240هـ) مازالت موجودة بسقف مسجده[331]. ولكن رغم تأكدنا من نسبة هذا المعلم إلى هذا الأمير الأغلبي المقبور بالزاوية[332] فإن هذا لا يعني تطابقه مع قصر دؤيد[333]، إذ أنّ

---

327) إبراهيم شبّوح، *نفس المرجع*، ص. 7.

328) حول هذه الإضافات وعمارتها أنظر خاصّة : S. M. Zbiss, Corpus, T. II, P. 12; A. Lezine, Le ribat, p. 38-40 ; N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p. 502-504.

329) A. Adorne, p. 222 ; Van Ghistle, p. 159-160

330) التمكروتي، ص 26 ؛ De Thou, II, p. 45 ؛ روبار برنشفيك، I، ص. 339.

331) بسم الله بركة من الله ممّا (أمر) به دؤيد بن ابراهيم سنة أربعين ومائتين على يد مسرور مو(لاه).

332) محمد مخلوف، ص. 192

333) مخلوف، ص. 192 ؛ هادي روجي إدريس، II، ص 52.

الزّاوية لم تكن إلا مجرّد حصن صغير شيّد داخل القصر الكبير. ويتكوّن من بناية حجريّة طوليّة (40 X 34 م) تتخلّل سورها الخارجي أبراج نصف دائرية تدعّم الأركان ووسط الجدار. ويفضي الباب البارز الوحيد إلى باحة سماويّة تحفّ بها الغرف من كلّ الجهات، في حين تتوسط بيت الصلاة التي وقع اختصار مساحتها في فترة لاحقة الجناح الجنوبي[334]. ويؤكد مكان النقيشة إستعمال الأقبية المتقاطعة منذ العصر الأغلبي، وهو ما يجعلنا - خلافا لما ذهب إليه لزين -نقرّ التاريخ الذي يورده المالكي للإضافات الأغلبيّة بالجامع الكبير[335] بسوسة.

ويبدو أنّ الرّبض الواسع الذي تحدّث عنه الورّاق (ق. 10م) احدث سنة 224 هـ/ 839 وهو ما يؤكده نصّ المالكي، رغم طابعه الأسطوري.[336] ويذكر صاحب الرّياض أنّ "الرّوم أتوا مرّة إلى المنستير وقد أصابهم عطش شديد فاستقوا الماء فلم يسقوهم، ومنعوهم أخذ الماء، فأستقى الروم، وأسبلوا شعورهم ودعوا، فأمطروا، فنصبوا الأنطاع وتلقّوا بها الماء فشربوا حتى رووا. فإجتمع شيوخ المنستير بجماعتهم إلى مكرم المتعبّد وصلّوا ركعتين، واجتهدوا في الدّعاء، فأرسل الله سبحانه ريحا من داخل البحر فكسرت مراكبهم ورمتهم على الشاطىء البحر. فخرج إليهم المسلمون وغنموهم، وجمعوا جميع ما حصل من ذلك وبنوابه ربض القصر الكبير".[337] هذا الربض الواسع، الذي يوجد داخله حصن كبير كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية"، هو بدون شكّ الربض الأوسط الحالي الذي جددّت أسواره في العصر الحفصي[338].

وذكر الإدريسي أن للمنستير قصورا ثلاثة. منها القصر الكبير، أمّا القصر الثاني فهو بدون شكّ قصر المصري الذي نعرف إسمه من "كتاب منسوخ على الرقّ، وهو كتاب الزكاة من مدوّنة سحنون رسم مالكه (من رجال القرن 11 م.)، على الورقة الأولى منه: حبّست هذا الكتاب على من يسكن حجرتي بعدي من المرابطين بقصر المصري"[339]. كما

---

334) N. Djelloul, op.cit, II, P. 502-504

335) محمد صالح الصيادي، *الذاتية التاريخية*، ص. 21.

336) هل يمكن بناء ربض كامل بعائدات بيع بقايا سفينة ؟

337) المالكي، I، ص. 421.

338) N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p. 500.

339) مخطوط يوجد بمتحف علي بورقيبة بالمنستير. أنظر : محمد صالح الصيّادي، *الذّاتية التاريخيّة*، ص. 25 ؛ محمد الطّاهر عقير، نفس المرجع، ص. 17.

أنّه ليس مستبعدا قطّ أن تكون هذه القصور هي نفسها باقي الأربضة التّي حافظت على أسوارها الخاصّة الى أخر عهد الحماية، وربّما شمل جزءا من الأرباض الخارجية مثل سيدي السّرى، سيدي مسعود أو ربض شكل. فالمنستير التي لم تتضرّر من الغزو الهلالي (عكس أغلب مدن البلاد التونسيّة) حافظت على إزدهارها طيلة العهدين الصنهاجي والحفصي. ويذكر الرّحالة A. Adorne الذي زار تونس سنة 1470 أن سوسة والمنستير بلغتا نفس الحجم، وأنّ قصبة المنستير أكبر من قصبة سوسة[340]. فلا يعقل إذن أن تكون المدينة الحفصية تتركبّ من "حومة البلد" فقط مثلما ذهب إليه ع. حرز الله[341]، خاصّة وأننا نعلم أن الربض الأوسط والأقصى جدّد بناء أسوارهما في القرن السادس عشر[342]. كما أن بناء سور الربض الجديد سنة 1780 م[343] لا يعني أن هذا الربض لم يوجد من قبل.

المرابطون

مثلما هو الشأن بالنسبة إلى سوسة كانت قصور المنستير قبلة ثلاث فصائل من المرابطين. أوّلا : الموسميون من "العلماء" (مثل سحنون بن سعيد ويحي بن عمر وعيسى بن مسكين) وعامة أفراد الشعب[344]، الذين يتوافدون عليها من القيروان والقرى الساحلية المجاورة خلال شهر رمضان وعاشوراء والعيدين. ثانيا : أهل الدّور من المرابطين في حصون الساحل أو جزيرة شريك. مثل عبد الرّحيم بن عبد ربّه وأبو عثمان الجزري[345]. ثالثا : المنقطعون للعبادة بالقصر الكبير لمدّة طويلة مثل حمديس القطّان، سعدون الخولاني، ابو سعيد خلفون النّوفلي، أبو علي المكفوف، أبو بكر

---

340) A. Adorne, Voyage, p. 222.

341) A. Harzallah, op.cit, p. 31-43.

342) محمد صالح الصيادي، *الذّاتيّة التاريخية*، ص. 30 ؛ N. Djelloul, op.cit p. 500 رحّالة ومؤرّخي القرن XIVم (التيجاني، ص 102)، XVم (Van Ghistele, p.159, Adorne, p.222) و XVIم (الحسن الوزّان، II، ص. 84 ؛ L. Marmol, De Thou, T.II, p.45 ; Piri Reis, T. II, p. 178 ; T. II, p. 178-179) عدّوا المنستير من بين مدن إفريقية الهامّة. وحسب A. Adorne والى المنستير ووالي سوسة كانا ينتميان إلى نفس الصّنف الاداري (قوّاد). كما أنّنا نعلم أن سوسة كانت تعدّ سنة 1857 1440 منزلا، في حين لا يوجد بمدينة المنستير وأرباضها سوى 1125 منزل (*برنامج ولايات سوسة والمنستير والمهدية*، مخطوط المكتبة الوطنيّة بتونس، رقم 18869، ورقة. 57)، فلا يعقل أن تقتصر المدينة الحفصيّة على حومة البلد التي لا تشكّل في القرن XIXم سوى ثلث مساحة المنستير، خاصّة وأنّنا نعرف أنّ السّاحل لم تستقرّ به (ما عدا المهديّة) جاليات تركيّة وأندلسيّة هامّة.

344) محمد مخلوف، خاتمة، ص. 195.

345) المالكي، I، ص. 381، 453، 497 ؛ عياض، ص. 245.

بشر بن عمروس، مكرم المتعبّد وعبد المؤمن الجزيرى، ويبدو أن جزءا على الأقل من هؤلاء النساك كان من قدماء المحاربين الذين وقع توطينهم بالقصر[346].

مكرم *المتعيّد* (تـ. حوالي 230 هـ/ 844م). "كان فاضلا ورعا. وكان سكناه بالقصر الكبير وبه قبره على ساحل البحر وبجواره قبر فيزر المتعبّد صاحبه معروف به إلى الأن بالقصر الكبير. . . وكان الشيوخ يذكرون عن مكرم أنّه كان يجتمع بالخضر عليه السلام، ويروون أنهم كانوا يسمعون كلامه معه. وكان يخرج له رأسه من الطّاق التي في البرج والخضر خارج البرج، يشبحون حديثه معه"[347].

– *عبد المؤمن بن المستنير الجزرى* (تـ. حوالي 238هـ). روى عن مالك وأصحابه. "وكان رجلا صالحا كثير الرّباط، كثير الرّواية لغرائب الرّباط"[348].

– *أبو عمرو بشير بن عمروس المتعبّد بالمنستير*. من معاصرى سحنون، و"كان من المتعبّدين الزهاد المنقطعين الى اللّه عزّ وجلّ، وكان من رهبان الليل لا ينام منه إلاّ قليلا"[349]. إستقرّ بالرّباط بعد أن قضّى مدّة بحصن طرسوس، وكان "ملوك إفريقية يأتونه إلى بيته بالمنستير فلا يخرج إليهم". وربّما كان هو أيضا من قدماء المحاربين، إذ كان يتمتّع بدالية بجوار القصر الكبير[350].

– حمديس *القطّان* (تـ. 289 هـ/ 901م). من أصحاب سحنون ويذكر عنه أنه "كان يكره فعل الذين يتجمّعون للميعاد ويضربون صدورهم، وكان يقول لوكان لي في الأمر شيء لنفيتهم من المنستير"[351].

– *أبو محمد الأوساني* المتعبّد بالمنستير (تـ. 335 هـ/ 946م). كان مشهورا بالعبادة، "إذا صلّى بكى، وإذا تحدّث بكى، حتى عمشت عيناه. . . وكان صاحب

346) *نفس المصدر*، I، ص. 332، 429.
347) المالكي، I، ص. 421.
348) المالكي، I، ص. 420 : و"كان تحت بيته بيت صغير يسكنه رجل فقير. فنزل مكرم إلى ذلك الرجل ذات يوم وسلّم عليه، فقال له خبّرتني رائحة قدرك البارحة، كان فيها زيت وبصل وكمّون. فقال مكرم : وعشت أنا حتى طبخت قدرا فاحت رائحتها فشمّها هذا وهذا. . . فما طبخ بعد ذلك قدرا ولا أكلها حتى مات". *نفس المصدر*، I، ص. 420.
349) المالكي، I، ص. 291.
350) *نفس المصدر*، I، ص. 418.
351) *نفس المصدر*، I، ص. 419.

أقوات معلومة . يخيّـر نفسه عند إفطاره في نصف المدّ فإن إختارت دقـيقا أو سويقا أو زبيبا أو تمرا أو تينا، لم يطعم غيرها إلى مثلها من اللّيلة القادمة . "[352]

- *أبو علي الحسن بن علي الكفوف النحوى* الزاهد (تـ. سنة 342 هـ.). "كـان معروفـا بالاجابة وعالما باختلاف العلماء واتفاقهم مع المعرفة الواسعة بـالنحو واللّغة وعلوم القرآن[353]" .

- بشير *المتعبد* (ت . سنة 347 هـ/ 958م) بالقصـر الكبير وبه دفن. "كان متقلّلا في الدّنيا، وكثيـر عيشه بقل البريّة وكان يسكن نوّالة بالقـصر، لا يدخل بابها إنسان إلا منحنيا "[354].

- *أبو سعيد خلفون النوفلى*، توفي بالقصر الكبير سنة 354هـ/ 965م ودفن في قبلي القصر عـلى سيف البحر مع أبي الحسين الكنّاشي في موضع واحد. و"كـان لا يخرج من بيته إلاّ لصلاة أو مجلس ترجى بركتـه. وكان إذا سلّم عليه أحد ينظر إليه فاذا رأى لله عزّ وجلّ نيّه وديعة جلس وإنبسط"[355].

- *سعدون الخولاني* (تـ. سنة 324 هـ/ 935م ودفن جبلي القصـر الكبير.) "كان شيخ الحصون، لم يكن في المنستير في وقته أسنّ منه"[356].

ويتّضح من ترجـمة سعـدون الخولاني أن مؤسـسة الرّباط تواصلت في المنسـتير في العصـر الفاطمي، رغم تراجع بعض الحصـون الأخرى. ويذكر المـالكي "أنه كان [في عهد عبيد اللّه] يجتمع إليه خلق من النّاس يخرج بهم الى الدّور" .[357] وكان خلفاء بني

---

(352) عياض، ص. 290 ؛ محمد مخلوف، ص. 71.

(352) المالكي، II، ص. 351.

(353) *نفس المصدر*، II، ص. 447. والنوّالة كوخ مبنيّ بواسطة أغصان الأشجار والقشّ، وهو ما يؤكّد مرّة اخرى أنّ القصر الكبير لا يتطابق مع القصبة الحالية.

(354) المالكي، II، ص 461.

(355) *نفس المصدر*، II، ص. 251.

(356) *نفس المصدر*، II، ص. 258.

(357) *نفس المصدر*، II، ص. 260. ويذكر المـالكي أيضا (II، ص. 259) أنّه "أغرى به بعض مـن كان يسكن بالمنسـتير ممّن هو متّصل بالشّيعة فرفع على سـعدون أنّه يجتمع إليـه العامّة مع أشياء هو بريء منـها وأنّ عنده كتب الحدثان. . . [فسيق] إلى المهدية، لكن عبيد اللّه أمـر بتخليته ودفع إليه ثلاثمـائة دينار وبعث إليه دابّة. . . وقال له عبـيد اللّه لا تقطعنا، فكان يأتيـهم في الهناء والعزاء مـداراة للقوم على المنسـتير وأهله ليكفّ أذاهم، ولـيبقى عليـها الحال الجميل والهيبة، ولا يكون كسائر الحصون التي أخلوها أفسدوها، فكان ذلك سببا لمعافاة المنستير" .

عبيد لا يكتفون بغضّ النّظر على ذلك بل كانوا "يبعثون لسعدون في الأعياد بالاكباش والضّحايا فيقبلها ويفرّقها على الضعفاء. ويبعث إليه بالفستق فكان يفرّقه على من يأخذه"[358]. كما أن هذا الرّباط" لم يقفر في العهد الصنهاجي"[359]، بل عرف دفعا جديدا بعد القطيعة مع القاهرة. ونعرف من خلال عدّة فتاوي أن الإمام المازري وأبو الحسن القابسي كانا يرابطان باستمرار بالقصرالكبير[360]، كما أقام به مدّة من الزمن المهدي بن تومرت إبّان رحلته الإفريقية.[361] نفس الشئ بالنسبة الى العصر الحفصى، حيث حافظ الرّباط على نظامه الدّاخلي وأحباسه العديدة[362].

وخلافا لمرابطي قصر الجعد الذين كانوا يعيشون بالخصوص من مداخيل الصيد البحري، كان عبّاد القصر الكبير يرتزقون خاصّة من موارد الحمى. ولا نشاطر حسن حسنى عبد الوهاب الرأي "بأن الحمى كان يتكوّن من أراضي بيضاء مقطوعة الشجر" تحيط بالقصر لغايات دفاعيّة[363]، بل بالعكس كان الحمى يتميّز بتكاثر أشجار الزيتون والكرم، لهذا كان يطلق عليه في بعض الأحيان إسم الشعراء[364]. هذه الأراضي كانت في الأصل ملكا للدولة المركزيّة، حبّست مثل أراضي رباطات صقليّة،[365] لصالح المرابطين لإحيائها،[366] مقابل دعمهم المذهبي للسلطة الحاكمة، التي كانت تعمد في بعض الأحيان الى احتجازهافي حالة عدم تسليم هؤلاء لنصف إنتاجهم[367].

---

358) الهادي روجي إدريس، *نفس المصدر*، II، ص. 307.

359) الونشريسي، *المعيار*، I، ص. 425 ؛ الهادي روجي إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 305 ؛ عبد الله الزنّاد، *الإمام المازري وقصر الرّباط*، تونس 1941 ، ص. 31.

360) عبد المجيد النجّار، *المهدي بن تومرت*، بيروت 1983، ص. 89 "أقام بالمنستير مع جماعة من الصّالحين إستهوته حياتهم المتزّهدة من رباط المدينة الشهيرة حيث يعيشون للتعبّد ومدارسة العلم"

361) محمد مخلوف، خاتمة، ص. 194. "وفي أوائل المائة التّاسعة كان شيخ القصر أبا عبد اللّه محمد بن أبى زيد وكان به من التّلامذة مايزيد على المائة رحلوا إليه من الآفاق، وكلّ من حلّ به يجد مسكنا يأوى إليه ومعلّما يؤدّبه ويعلّمه القرآن والعلوم الدّينية ويجد ما يلزم من أمر المعيشة". ومازالت زاوية سيدي أحمد بوزيد قائمة قرب "الرّباط" وتحمل نقيشة تذكر أن المشرف على البناء هو "الأمين محمد بن محمد العويني أنظر : محمد حسن، "*وثيقة في تحبيس هنشير إبن منصور بالمهدية على رباط المنستير سنة 825 هـ/ 1422*"، *المجلّة التاريخية المغربيّة*، 49- 50، 1988، ص. 221.

362) محمد مخلوف، *نفس المصدر*، ص. 194 ؛ هادي روجى إدريس، II، ص 305 ؛ محمد صالح الصيّادي، *الذّاتية التاريخية*، ص. 26.

363) حسن حسنى عبد الوهاب، *كتاب العمر*، تونس 1990، ج II، ص. 624-627.

364) المالكي، II، ص. 332 و441. أنظر أيضا التيجاني، ص. 17 و1981، ص. 24.

365) الدّاودي، *كتاب الأموال*، ص. 446.

366) الهادي روجي إدريس، II، ص 307. وكان أبو الحسن الكانشي يمسك عن زراعة أرض الحمى لأنه يستطيع أن يستغني عن ذلك بزراعة الأرض في مناطق أخرى" : *نفس المؤلف*، II، ص 306.

367) الهادي روجى إدريس، *نفس المرجع* II، ص. 306.

وكان حمى القصر الكبير يمتدّ شمال المدينة بالمنطقة المعروفة بالقرطيل[368]. كما كانت أحباسه تشمل أراضي أخرى بالسّاحل التونسي و القيروان والجريد وباجة وحتى الأندلس[369]. وقد تواصلت هذه العادة (تحبيس أوقاف على فقراء المنستير) في العصر الصنهاجي[370] والحفصي[371]. ويبدو أن جامع القرطيل كان من مشمولاته، ممّا يؤكد الصبغة الدّينيّة للرّباط.

قصر إبن الجعد[372]

قبالة قصبة المنستير، من الجهة الشرقيّة، توجد جزيرة صغيرة تسمّى جزيرة التنّارة أو جزيرة سيدي الغدامسي نسبة إلى دفينها أبي الفضل عبّاس بن محمّد الصوّاف الغدامسي (تـ. 349 هـ/ 960 م) المرابط بقصر الجعد الذي مازالت أطلاله قائمة بهذا الموقع. وقد أثبتت لوحات الفسيفساء التي عثر عليها مؤخرا تحت هذه الأنقاض وكذلك القبور المحفورة، أن القصر وريث تجمّع عمراني قديم يعود الى العصر البوني، تتصل به الأثار الرّومانية العديدة التي عثر عليها بالجزيرة مثل حمّام بنت السلطان.[373] كما تؤكّد المصائدالمحفورة في الصخر (viviers) اعتماد المنطقة على الصيد منذ العهد القديم.

وقد كشفت الحفريّات التي قام بها خالد مودود[374] على مخطّط قصبة القصر التي تشكّل مثل أغلب الحصون الأغلبيّة بناية طولّية تدعّمها أبراج نصف دائرية، في حين أنّ السّتارة الحاليّة يمكن لنا تأريخها من العصر الحفصي. ويتكوّن داخل المعلم (الذي

---

368) محمد مخلوف، خاتمة، ص. 193 "والقرطيل مكان بعيد عن المنستير بنحو ثلاثة أميال أراضيه خصبة وقع الإعتناء بغراستها وزراعتها منذ عهد قديم وبها أبار كثيرة ودور اندثرت ومسجد لم يزل قائم إلى هذا الوقت". راجع أيضا : هادي روجى إدريس، II، ص 51 ؛ محمد صالح الصيّادي، *الذاتية التاريخية*، ص. 22.

369) محمد مخلوف، خاتمة، ص. 194 ؛ محمد صالح الصيّادي، *الذاتية التّاريخية*، ص. 22 ؛ محمد حسن، *نفس المرجع*، ص. 229.

370) هادي روجى إدريس، II، ص. 305.

371) محمد حسن، *نفس المرجع*، ص 221.

372) حول قصر إبن الجعد راجع خاصّة : هادي روجى إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II، ص 50 ؛ روبار برنشفيك، تاريخ إفريقيّة، I، ص 339 ؛ N.Djelloul, Les installation militaires, T. II, p. 508-509.

373) حول هذه الآثار انظر : Ch. Tissot, op.cit, II, p. 167 ; R. Cagnat, et H. Saladin, Voyage en Tunisie, p. 290 ; V. Guerin, Voyage archéologique, Paris 1862, II, p.123 ; D. Carton, "Excursions et promenades", in B.S.A.S, 1904, p.43 ; N. Kallala, op.cit, p.532.

374) خالد مودود، "*حفريات قصر الجعد*"، الملتقى العالمي حول "الرباط والمرابطون في العصر الوسيط" المنستير، المنستير 1997 (تحت الطّبع).

يفضي اليـه بواسطة مدخل وحيـد) من مجمـوعة من الغرف المـتمحورة حـول باحة سـماويّة، ولكن لا يـوجد أي أثر للمـدارج التي تؤدّى الى الطابـق الأول مثلمـا هو الشأن في باقي الحصون.

ولا تذكر كتب الطبقات شيئا حول ابن الجعد (أحد كبار التجّار بالقيروان) الذي تولّى الانفاق على الرّباط وبنائه. كلّ ما نعرفـه أنه كان - إلى جانب تجارته - يملك بعض المنازل[375]، ربّمـا يكون أحـدها قـرية ابن الجـعـد التي كـانت توجـد قـرب المنستير. ويذكر المـالكي أنّه استشار مكرم المتعبّد في مكان إقـامته فأجابه النّاسك "بينما أنا ذات ليلة أحرس إذ رأيت فارسـا في يده حربة فقلت له من أنت وإلى أين تريد ؟ فقال أريد جزيرة ابن الجعد، فـمضى وأنا أنظر اليه. . . فإن كنت بانيا فابن هنالك. فبني في ذلك المكان الذي ذكـره مكرم فسمّي قصـر ابن الجعد[376]". وقد أوكل ابن الجعـد مهمّة الاشـراف على البناء لأبـي عـبد الله محـمـد بـن عبّـادة، الفقيـه والنّـاسك السّوسـي (تـ. سنة 303 هـ/ 915م)[377]، بعد أن رصد مـقدارا من المال للنّفـقة عليـه وأمر البنائين" أن يجعـلوه قياسـا في مثله ففـعلوا وغلطوا بزيادة جنبتين، فلمّا كمل الدّور الثاني عمّر أيضا وبقي تمام القصر والأبراج للطبقة الثالثة. وبقي أبواب البـيـوت والإصـلاح بالجيـر وذهب الذي كـان يكفى لـذلك كلّه في القوسـين اللذين زادوهما غلطا، فـأنبرى قوم للنّفـقة فيـه وقال إبن الجـعد. لا ينفق أحد معي فيـه شيئا حتى يتم الدّور الثاني وأبراج الدّور الثالث. فلمّـا انجزت النفقة أراد محمد بن عـبادة القدوم إلى القيروان فأراد أن يدخل على قلـب بانيه مسرّة - وكان قد اجـتمع فيه ثمانية وأربعـون رجلا كلّهم يحفظ القرآن - فسـألهم إبن عبادة أن يختم كـلّ واحد منهم القرآن فـي ليلته ففـعلوا، فغـدا الى القيـروان. . . [وقال لابن الجعد] : ما جئت حتى صلّى في مسجد القصر وبيوته كلّها وختم فيه القرآن البارحة ثمـانية وأربعين ختمـة فسرّ بذلك إبن الجعد وابتـهج ثم قال له : وما وراء ذلك، قال : النّفقة انجـزت وقد بقي كذا وكذا فلا تحمل على نفسك فإنه قد شرع أقوام فـي تمامـه. . . فدخل الدّار فـأقام سـاعة ثم علت الأصـوات في الدّار بالبكاء

375) المالكي، II، ص. 116.

376) *نفس المصدر*، I، ص. 420.

377) "كان من الصّالحين، سمع من هشام بن عمّار وأبى مـصعب أحمد بن أبى بكر الزهرى من أصحاب مالك" : المالكي، II، ص. 116.

فصاح عليهم وكلّمهم ساعة ثم خرج بعد ذلك وكمّه مملوء فقال لإبن عباده : هات كمّك فأفرغ فيها حليّ أهله فصرّفه وتمّم به بناء ما بقى عليهم من القصر[378].

ويفهم من نصّ المالكي أنّ إبن الجعد أقام حصنا، ربّما كان هو نفسه "قصبة قصر ابن الجعد"، التي ورد ذكرها في ترجمة محمّد بن سحنون[379]. في حين أن كلّ القصر كان (على غرار القصر الكبير) تجمّعا عمرانيا أعتبر مستقلاّ عن المنستير في بعض الأحيان[380]. هذه القرية[381]، التي يجاز إليها بواسطة قنطرة مشيّدة بالحجارة[382]، ورثت بدورها تجمّعا سكنيّا رومانيّا أعيد تعميره في بداية العصر الاسلامي. ويبدو أنّ هذا القصر، الذي بقي معمورا طيلة العصر الصنهاجي[383]، أصبح يلعب دورا عسكريّا أساسيّا في العهد الحفصي، خاصّة بعد التعديلات التي أدخلها على تحصيناته السلطان أبو فارس في القرن الخامس عشر الميلادي[384].

وإلى جانب الصّدقات والهدايا[385]، كان قصر الجعد يتمتّع -مثل كلّ الرّباطات- بأوقافه الخاصّة[386]. لكن المرابطين الذين يقيمون به كانوا يعيشون خاصّة من مداخيل الصيد البحري "الذي كان يمثّل بالنسبة إليهم حقّا يحظى بالأولويّة، مثل إلتقاط العشب والخشب في أحمية الحصون[387]". وقد أشارت إحدى فتاوي القابسي إلى تجّار المنستير من المرابطين الذين يشترون منهم كل

---

378) المالكي، II، ص. 117.
379) نفس *المصدر*، I، ص. 446.
380) الونشريسى، *المعيار*، I، ص. 218.
381) للتأكيد على أن القصر لم يكن مجرّد إستحكام صغير، راجع ما كتبه المالكي في ترجمة ابن سعيد النوفلي (II، ص. 465). إلى جانب الأمثلة التي ذكرناها سابقا حول الرّباط - المدينة أو القرية أنظر أيضا ياقوت، IV، ص. 355 و362 : "قصر الإفريقي وهي مدينة جامعة، ... قصر باجة، مدينة بالأندلس...، قصر جابر وأكثر ما يسمّى مدينة جابر بين الرّي وقزوين... قصر قضاعة، قرية في نواحي بغداد".
382) الونشريسى، *المعيار*، II، ص. 5
383) الهادي روجى إدريس، نفس *المرجع*، II، ص. 305 "وهب أحد المرابطين أملاكه وبالخصوص بستانين لعدد من أصحابه وللفقراء والمساكين".
384) الزركشى، *تاريخ الدولتين*، تونس 1966، ص. 116 ؛ روبار برنشفيك، نفس *المرجع*، I، ص. 339 ؛ N. Djelloul, op.cit, T. II, p. 509
385) المالكي، II، ص. 447، 449.
386) الهادي روجى إدريس، نفس *المرجع*، II، ص. 305.
387) نفس *المرجع*، II، ص. 305.

سمكهم لبيعه في المدن الأخرى. وقد ألحقت هذه التجارة أضرارا جسيمة بتموين سكان رباط المنستير، وهو ما يتناقض مع الغاية التي احدثت من أجلها هذه الحصون[388].

ومن مشاهير عبّاد قصر الجعد، أبو الفضل يوسف (الذي هاجر فيما بعد إلى قصر الطوب، بعد أن أذاه مرابطو المنستير[389])، أبو الفضل الغدامسي، أبو العبّاس الأجدابي[390]، أبو عطيّة بن رهبون الجزيري الجماجري[391]، أبو عبد اللّه بن سعدون[392] وأبو عبد اللّه بن داره[393]. وكان يتردّد عليه - في شهر رمضان خاصّة - العديد من

388) "سئل الشيخ أبو الحسن القابسي عن الصيّادين يدخل إليهم تجّار المنستير إلى الجزيرة فيشترون منهم، وربّما اشتروه منهم عند القنطرة قرب قصر ابن الجعد فلا يصل إلى الحصون منه شيء، لأنهم يمضون به في الأحمال إلى المدن، فيطلب منه رجل شيئا يسيرا فلا يصل إليه. وظهر لي أنه من تلقّي السلع، فأخذت عليهم ألاّ يبيعوا إلاّ قرب الحصن فيدركه المقلّ والمكثر، فهل يجوز لهم بهذا أم لا ؟

فأجاب أنه من تلقّى ماجيء به إلى مكان فقد ركب مالا يحلّ له، ويؤخذ منه الشيء الذي تلقّاه فيباع في المكان حيث السوق الذي يجتمع إليه بما يسوى فيه ما لم يزد على الثمن الذي اشتراه به فلا يباع بزيادة، إنما يباع بما يسوى في المكان إذا يسوي مثل الثمن الذي اشتراه به أو أقل، فإذا سوى أكثر كان لأهل المكان أخذه بمثل الثمن لازيادة عليهم. قال وأمّا الصيّادون بالطّراريح وغيرها وهم من سكان الحصون لا يسكن إلا الرباط للحرس وسائر الطّاعات وبحر المنستير من أخرجه حكم.

ما التصيّد عندي في بحرها إلاّ كالاحتشاش والاحتطاب من شعاريها لا يسع منه الانتفاع لغير من بها إلا بما لا ضرر عليهم فيه ولا منفعة لهم في تركه، إذ ليس هو شيء تناله الأيدي كما ينال ما في البرّ من الاحتشاش والاحتطاب، وتفسير هذا الكلام أنّ من يصيد في هذا البحر من سكّان المنستير أنّه يرد به سوقها، فمن أحب اشترى وليس له أن يبخس البائع في الثمن، ولا يسعر له ثمن، إنما يباع بالقسم الذي قسمه اللّه في الوقت من غلاء أو رخص. وما فضل بعد شراء من بالمنستير لأكلهم صرفه صائده حيث شاء ويبيعه ممن شاء.

وإذا كان هذا الصائد إنما يرد ما اصطاد من هذا البحر إلى هذا السوق فلا يصلح لأحد أن يشتريه منه لا عند البحر ولا عند توجهه إلى السوق ويكون من التلقي، والتجار الذين يسكنون الحصون إنما هم رفق للسكان، فإذا أضرّوا بالسكان زال الرفق منهم وزال سكناهم عن صفة الرباط وشروطه، وصاروا إلى التكسّب كأهل الأسواق، فمنعوا من ذلك للضرر، ويجبرون الاّ سكنى في الحصون لمن أضر بأهلها في وجه من الوجوه. ومن ورد على هذا المكان من التجار يريد الصيد فيه ليذهب به إلى سائر الأمكنة غير المنستير فليس له أن يضرّ بمن يصيد في المنستير. فإذا أخذ أهل المنستير حاجتهم من ذلك لم يكن ان شاء اللّه على أولئك بأس فيما صادوه من هذا البحر إذا سلم من ضرر أهل المكان والتضييق عليهم، لأن صيد البحر ليس هو في البر حتى يصاد، وتركه لا منفعة فيه لمن يريد الاستعداد بإبقائه في ذلك المكان فلا وجه لمنع الناس من الانتفاع بما هذه منزلته. هذا الذي ظهر لي في بحر المنستير". الونشريسي، *المعيار*، II، ص. 5-6.

389) ابن ناجي، II، ص 12 ؛ حسن حسني عبد الوهاب، *كتاب العمر*، ج 1، ص. 402.

390) المالكي، II، ص. 451 و464.

391) أبو بكر عطية بن رهبون الجزري الجماجري المتعبّد (توفى سنة 351 هـ/ 962م) "حجّ حججا كثيرة وكان مستجاب الدّعوة". المالكي، II، ص. 459.

392) المالكي، II، ص. 455.

393) *نفس المصدر*، I، ص. 455.

علماء القيروان مثل محمد بن سحنون وأبو الحسن القابسي[394] .

- *أبو سوادة بن الفرّاء* (تـ. 314 هـ/ 926م). لزم أغلب حياته الرّباط بقصر الجعد و"كان من أهل العبادة والتّبتّل والصّيام، غزير الدّمعة، طويل الحزن"[395] .

- *أبو بكر محمد بن سَعدون الجزيري التميمي* (تـ. سنة 344 هـ/ 955 م). "لزم قصر إبن الجعد، كان حسن الصّوت بالقرأن، صحب أبا عقال بن غلبون وأبا هارون الأندلسي، فجال بالشام : في لبنان وجبل اللّكام والأكواخ"[396] .

- *أبو حفص عمر بن عبد الله الصدفى* "الامام اللمتعبّد (تـ. بمدينة سوسة سنة 349 هـ / 960م). كان من رجال العلم" ثمّ اعتزل ولزم العبادة بقصر الجعد. . . وكانت له في كلّ ليلة ختمة ثم زاد فهمه، فكان لا يكاد يبلغ النّصف حتى ينفجر الصّبح، تأوّها وتدبيرا وحنينا وغزر دمعة"[397] .

- *أبو الفضل العبّاس بن محمد الصوّاف الغدامسي*[398] . قدم إلى سوسة سنة 286هـ/ 899م فأقام بها ثلاثة أشهر ثم غادرها الى «المنستير فلزم الرّباط بالقصر الكبير ثم بقصر ابن الجعد طيلة ثلاث وستين سنة. توفي سنة 349هـ / 960م عن سنّ تناهز الستّ والتسعين ودفن بداخل الجزيرة" . ويذكر المالكي أنه "لمّا وصل إلى المنستير إستعمل نفسه في غسل الميض[399]. وكان يخدم المرابطين ويأتي الى «الشعراء بثلاثة حبال يعمل فيها حزم حطب ويشدّهم وينقلهم قليلا قليلا حتّى يأتي بالجميع إلى القصر. . . وكان يعجن لصالحي الموضع ويخبز لهم ويقوم في الليل في الشتاء فيسخّن الماء لمن أراد منهم غسلا أو وضوءا. وكان يقول خدمت المرابطين ثلاثين سنة وخدموني ثلاثة وثلاثين سنة فلهم عليّ الفضل . . . وكان أهل الحصون يجلّونه فإذا خرج من المنستير أحد يريد الحجّ يأتي الى أبي الفضل يسأله الدّعاء"[400] .

394) المالكي، I، ص. 446 ؛ الونشريسي، *المعيار*، ج I، ص. 425 ؛ الهادي روجى إدريس، II، ص. 305.
395) المالكي، II، ص. 187.
396) جبلان إشتهرا بإيواء النسّاك : ياقوت، VII، ص. 320، 321، 336. بالنسبة للترجمة : المالكي، II، ص. 414.
397) المالكي، II، ص 455 ؛ عياض، ص. 373-374.
398) مصادره : المالكي، II، ص. 440-445 ؛ أحمد الزاوي، *أعلام ليبيا*، ص. 146.
399) المالكي، II، ص. 441.
400) *نفس المصدر*، II، ص. 443.

ويروى عنه أنه لم يغضب قي عمره إلا ثلاث غضبات واحدة منها في "خبر أبي سوادة بن الفرّاء، وكان شيخا صالحا، فأوذي فغضب له أبو الفضل وانتصر له"[401].

كما أنّه كان يجتمع بالخضر ويتكلّم على الخاطر[402]. و كان أبو الفضل مع ذلك مستجاب الدعوة، "من ذلك أنّ محمود المتعبّد رأى النبي صلّى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له : إجمع الفول الأخضر من جنانك وأحمله الى الغدامسي فإنه إشتهاه"[403]. وسأل الله أن يكفيه مؤونة البراغيث فأجابه، فكان يجلس "والمرابطين حوله يتفلّون من البراغيث وهو لا يحسّ شيئا"[404]. وطلب منه الفقيه عبد الرحمان أن "يدعو لأهل القيروان بالغيث لأنهم تحت عطش عظيم، فأخذ في الدّعاء، فدعا بدعاء عظيم فوصل الخبر من القيروان أنّ الوادي أتى الى الماجل في الوقت الذي دعا فيه أبو الفضل، فملأ المواجل من غير مطر أصاب القيروان، إنّما مطرت البوادي فأتى السّيل إلى المواجل فملأها. . . وروى أبو محمّد الجبّي أن السلطان معد جاء مرّة جائزا على المنستير فنزل بها وضربت فازاته، فأرسل الى الشيخ الغدامسي يسأله في الخروج إليه يراه، فصعب ذلك على الشيخ، فأسبغ في الوضوء وركع ركعتين. . . فجاء رسول يخبرهم أنّ السلطان رحل لأنّ عقربا دبّت عليه»[405].

وكان إلى جانب كلّ هذا سخيّا، كثير الصدّقة والإحسان. من ذلك ما ذكره أبو محمّد الجبّي بشأن المرابط الذي جاء يبشّره بوصول «لوح مشحون فأهداه إياه»[406]. وذكر عنه أنّه «أقام يشتهي غسّانية سنين عديدة فقال للذي يخدمه : إمضي الى سوسة فأشتر لنا سميذا طيّبا وعسلا وما يصلح لذلك وتأتي معك بطبّاخ يتولى طبخها. فقال له خادمه : إنّ الذي ذكرته يقوم بدار عرس ويأكل منه ثلاثمائة رجل. فقال له : يا بنّي قد علمت هذا الذي تقول ولكن أكل الغسّانية وحدي دون المرابطين ؟. . . . فلمّا صنعت الغسّانية قال لخادمه : إذهب إلى كلّ رجل في القصر فآت بصحفة عنده نبعث

---

401) "واحدة منها في خبر أبيه. . . والثالثة في خبر القطّ الذي يسمّى نسنس وذلك أن إبن أبى الرّبيع جلس عند الميضاة يغسل حيتانا فأخذ نسنس منها حوتا، فضربه ابن أبى الرّبيع ضربة منكرة". المالكي، II، ص 442.

402) مصطلح صوفي معناه "ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة".

403) المالكي، II، ص. 443.

404) *نفس المصدر*، II، ص. 444.

405) *نفس المصدر*، II ، ص . 444

406) المالكي، I . ص - 532

فيها إليه بسهمه. فأتى بصحاف كلّ من في القصر والرّبض وجعل صحفته بين الصّحاف حتّى عمّهم وفرّقها عليهم». [407]

قصر دويد

خلافا للقصور السّابقة ليس لنا أي مؤشر واضح لتحديد موضع هذا القصر الذي يبدو أنّه كان يوجد بين المنستير وقرية خنيس. [408] على أنّه مثل بقيّة الرّباطات كان أيضا تجمّعا عمرانيّا مستقلاّ [409]، له مكتبته الخاصّة [410] وحماه. [411] وربّما كان إيضا يمتّع بجزء من عائدات القبالات الموظّفة على الصيد البحري [412] وملاّحة المنستير.

ومن أهمّ مرابطي قصر دويد، *أبو جعفر أحمد الأطرابلسي* (تـ. سنة 347هـ / 958م)، أقام به مرابطا أربعين سنة «ينام خلالها على الأرض لا حصير ولا وسادة ولا كانون ولا سراج ولا برمة، حتى قعدت عيناه في رأسه من الجوع. . . . وكان إذا تاقت نفسه الى لقمة سخنة يأخذ قبضة من دقيق الشعير بنخالتها فيعجنها.» [413]

- *ابو إسحاق ابراهيم بن أحمد السّبائي* (تـ. سنة 356 هـ /966م). أصله أيضا من طرابلس، وكان قبل أن يلزم الرّباط يقصّر الأبدان. ومثل ربيع القطّان يعدّ السّبائي من بين الذين «عقدوا الخروج على القائم» إبّان ثورة صاحب الحمار. وكان يشاركه فضل الإجابة إذ كان «من الذين ينزل بدعائهم القطر وتظهر عليه البراهين والكرامات بالدعاء والرّقي»[414]

---

407) *نفس المصدر*، II، ص. 447. حول هذه الهدايا التي ترسل للمرابطين أنظر أيضا نفس المولّف (II، ص. 447) بشأن "الأطعمة الفاخرة من غسّانيّة وقبّاط وفالوذج وثردة الحلوى بماء الورد " التي بعث بها الفقيه أبو بكر بن عقبة إلى الغدامسي. كذلك ص. 447: "فأخرج أبو الفضل نعلا طائفيّا جديدا ممّا أهدى إليه وقطائع وأشياء ممّا يساوي دنانير، فدفع جميع ذلك إلى ابن يونس وقال له : خذ هذا فبعه وابعث به إلى صبيانك ينفقونه".

408) محمد صالح الصيّادي، *الذاتيّة التاريخية*، ص. 22. أشار المالكي إلى وجود جرف قرب هذا القصر (II، ص. 425). ويوجد إلى اليوم في هذه المنطقة مقام ينعت برجال الجرف. ولكن لا نستبعد أيضا وجوده بمنطقة الفرينة التي مازالت تسمى بيت العسّة. (لـ. 41).

409) كان ابو جعفر يقيم بالقصر صحبة زوجته : المالكي، II، ص. 434.

410) *نفس المصدر*، I، ص. 166، 212.

411) المالكي، II، ص. 433 "كان [أبو جعفر] ربّما أجّر نفسه في الحصاد والخرط"، وص. 435 "كان الشيخ أبو الحسن الكانشي [المتعبد بقصر دويد] ربّما انخلس فلا يوجد لا في الشعراء ولا في القصر".

412) المالكي، I، ص. 433.

413) المالكي، II، ص. 433 و ص. 434.

414) المالكي، II، ص. 252، 471، 502.

قصـــر شقـــانـــس[415]

كان هذا القصر يوجد بالقديمة (غير بعيد عن القصر الرّئاسي)، حيث عثر على عدّة لقيات أثرية تعود الى العصر الرّوماني.[416] ويبدو أنّ الحديث الذي أورده المالكي بشأن القصر «الذي توجد حذوه قنطرة من قناطر الأوّلين»[417] ينسحب على هذا الرّباط الذي كان بدوره تجمّعا عمرانيّا، تواصل وجوده الى القرن الثالث عشر الهجري.[418] وذكر ابن حوقل أنّ «قصر شقانص حصن منيع» على غرار قصر المنستير، «وبه أمّة مقيمة على صيد البحر»[419] أي أنّه الى جانب الأوقاف العديدة (بإفريقية وخارجها)[420] كان يتمتّع بعائدات الصيد البحري.

ربـــاطات جنـــوب المنستيـــر

ربـــاط لمطـــة[421] (شـ. 55.ب، لـ. 42)

يعود تأسيس البلدة الى العهد البوني، وكانت تعرف في العصر الرّوماني بـ Lepti Minus للتفرقة بينها وبين Lepcis Magna اللّيبية. على أنّ المدينة التي تميّزت بنشاطها التجاري والصنّاعي لم تعد في العصر البيزنطي سوى مركز عسكري يقيم به بصفة مستمرّة الدوكس Dux أي قائد القوات البيزنطية بمقاطعة بوزاقيّة.[422] أمّا في العصر الإسلامي فقد إشتهرت بإنتاج الملح المعدّ للتصدير، خاصّة وأنّها حافظت على مرساها القديم الذي كانت تبحر منه السّفن المتّجهة الى المشرق وصقليّة[423]. ويبدو أنّ

---

415) المالكي، II، ص. 453 ؛ إبن حوقل، ص. 73 ؛ الادريسي، ص. 169.

416) حسب محمد مخلوف، خاتمة، ص. 191 "مازالت هنالك أثر بلدة رومانية بعضها غمره البحر".

417) أنظر : Atlas archéologique de Tunisie, f. Monastir !.. ويذكر التيجاني (ص 24) الحديث التالي "موضع بالمنستير يقال له الياقوتة باب من أبواب الجنّة... بالمنستير داخل في البحر إلى جانبه سبخة وعلى تلك السبخة قنطرة من قناطر الأولين". وحصن الياقوتة عدّه أغلب المورخين من قصور بنزرت.

418) روبار برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص 339 وينسب إلى هذه القرية المقرّى أحمد بن أحمد الشقانصي (ق 13 هـ/ 19م). أنظر : *رياض النفوس*، II، ص. 453.

419) ابن حوقل، ص. 73.

420) *نفس المصدر*، ص. 73.

421) حول تاريخ لمطة أنظر خاصة : C. Hannezo et L. Molin, "Notes archéologiques sur Lemta", in B.A.C.T.H, T. XV, 1897, p. 290-312. C. Hannezo, Ibid, p. 292

422) C. Hannezo, Ibid, p. 292

423) البكري، ص. 84 ؛ الإدريسي، ص 126 ؛ ابن عذاري، *البيان*، ج I، ص. 171 ؛ محمد الطالبي، *الدولة الأغلبيّة*، ص. 745 ؛ هادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II، ص 53 ؛ F. Dachraoui, Le Califat fâtimide, p. 110

هذا النشاط الذي ساهم في إعادة إحياء البلدة كان وراء تأسيس الرّباط سنة 245هـ/ 859م على يد أبي إبراهيم بن أحمد الأغلبي.[424]

ورابط بقصر لمطة جماعة من العلماء والزهّاد، منهم سحنون بن سعيد وأبوالسري واصل الجمّي.[425] كما أقام به دهرا طويلا أبو بكر القرشى الصقلي، من أصحاب يحي بن عمر[426]، وخاصة أبوهارون الأندلسي المتعبّد (توفيّ سنة 291 هـ/ 903 م بالمدينة). ويذكر المالكي أنّ أبا هارون كان صالحا، مجتهدا في الدّعاء والعبادة. تخلّى عن الدّنيا وباين أهلها وإشتغل بعبادة ربّه بقصر لمطة».[427] . . .

يبدو أنّ أهم مورد للرّباط في بداية إحداثه كانت عائدات الملاّحة والهدايا[428]، إذ لا نجد في ترجمة الأندلسي أي أثر للحمى، كما أنّ الصّيد البحري كان ثانويّا الى درجة إلتجاء سكان لمطة الى إشتراء السّمك من أسواق المنستير.[429] وكان قصر الرّباط يقتصر على الحصن الذي بقي جزءا منه قائما من المنطقة الشمالية- الغربيّة من البلدة، فكان المرابطون يلتجئون - لطهي بعض أطعمتهم - الى إستعمال الفرن الذي يوجد بداخل القرية.[430] .

ويتجلى من مخطّط 1857 أنّ هذه القرية كانت محاطة بسور خاصّ، على غرار باقي قصور السّاحل التونسيّ. كما أنّ أسماء مواقع مثل بئر بروطة وسانية المرابطين، التي توجد حاليّا بناحية صيّادة، تدل على أنّ حصن لمطة أضيف اليه فيما بعد حمى، كما تطوّر ليشمل مناطق صيّادة[431]

424) إبن ناجي، II، ص. 97 ؛ حسن حسنى عبد الوهاب، *ورقات*، ج II، ص. 105-106 ؛ محمد الطالبي، *نفس المرجع*، ص. 276.
425) المالكي، I، ص. 432.
426) المالكي، I، ص. 522، 525.
427) *نفس المصدر*، I، ص. 516.
428) *نفس المصدر*، I، ص. 522، 525.
429) *نفس المصدر*، I، ص. 522 "قال لي الاندلسي إشهيت حوت فلّقط يعمل في المنستير فاشتره واعمله لي".
430) المالكي، *نفس المصدر*، I، ص. 523 : "قال أبو بكر فتشمّرت وغسلت الحيتان وجعلتهما في طاجن وأدخلتهما الفرن. . . وكان الفرن خارج القصر فلمّا أخرجوا الخبز أخرجته فرأيته جاء غاية من الغايات. فأخذته على يدي ودخلت به القصر، فإذا في السّقيفة جماعة رجال ونساء من المسافرين دخلوا يقيلون من شدّة الحرّ، فلمّا دخلت فاحت إليهم رائحته، فصاح بي رجل منهم وقال لي : يا أخي، هذه المرأة حامل وقد شمّت رائحة الطّاجن وأخاف أن تطرح".
431) تنسب الذاكرة الشعبيّة إنشاء القرية إلى إمرأة قدمت من المكنين، وتارة أخرى إلى صوفيّ - سيدي عمّار - قدم من المغرب في القرن XVم. ويناسب تخطيطها وأقدم بناءاتها، (لـ. 45) هندسة القصور السّاحليّة ونمط حياة الزهّاد. في حين ترتبط قرية خنيس المحصّنة (قصر خنيس : *ورقات* ؛ II، ص. 93 ؛ هادي روجى إدريس، II، ص. 53) بقصر دويد. وإلى حنيس، التي وجدت بها آثار رومانيّة، ينسب أيضا أبو إبراهيم إسحاق الخنيسى، من أهل اللّغة والأدب في القرن الثالث للهجرة (*ورقات*، II، ص. 93). نفس الشيء بالنسبة إلى قصر القوريتين (هادي روجى إدريس، II، ص. 52).

وربّما قصيبة المديوني.[432] ومثل أغلب الحصون الأغلبية، يتكّون مخطّط هذا المرقب من بناية مربّعة الأضلاع تقوم في زواياها أبراج نصف دائرية تصدّعت وأتلفت كلّها، عدا برج واحد وقع ترميمه مؤخّرا (لـ.42). وللقصر مدخل وحيد بارز يفتح على دهليز مستقيم يؤدي الى سقيفة كان المسافرون - رجالا ونساء على السّواء - يلتجؤون إليها في العصر الأغلبي للإستراحة.[433] ويحيط بالصحن -الذي يتوسطه ماجل فسيح-[434] مجموعة من الغرف المسقوفة بأقبية طوليّة، كانت تصطفّ على أسواره الأربعة، ويتقدّمها رواق مقبيّ.

رباط تبصة (الدّيماس) (شـ. 55)

كنّا نبّهنا في بداية هذه الدراسة الى وجود مراكز المرابطة قرب الأراضي الدّولية، أو ضيعات الأرستقراطية الأغلبية، فقرب قصر زياد كانت توجد بليانة بنو نافذ وقرب تبصة نجد «قصيبة حميّد» نسبة الى وزراء الأغالبة بنو حميد. ومن بين نساك افريقيّة الذين ذكرهم المالكي، نجد أبو السرّي واصل الصغير (ت. 294/ 904م) «المتعبّد بقصر تبصة المرابط، وهو الحصن الذي يقال له في هذا الوقت الدّيماس. . . وقد كان رجلا صالحا، مجتهدا، صحب جماعة من النسّاك المنقطعين الى اللّه عزّ وجلّ بالمشرق والمغرب، وهو غير أبي السرّي واصل المتعبّد بقصر جمّة».[435] لقد ورد هذا الإسم في نسختي الرّياض مصحّفا بصيغة قفصة، ونجد نفس الخطأ عند البكرى (قفصة)[436] والشمّاخي (قفصة السّاحل)[437]، لأنّ الديماس يوجد اليوم قريبا من بلدة البقالطة، على الطريق السّاحلية الرّابطة بين المنستير والمهديّة، حيث مازلت قائمة أثار حصن أغلبي- صنهاجي شيّد حول جزء من مدينة تابسوس

---

432) تقع هذه القرية على ربوة وينسب اليها عبد اللّه المديوني الذي قدم حسب الروايات الشعبية من مديونة بالمغرب مع ثلّة من المرابطين. ويرجع أصله في بعض الأحيان إلى ممّس الواقعة قرب القيروان (A.N.T, reg. 189, p. 138)، وهذه القرية مذكورة منذ العصر الأغلبي (محمد الطالبي، *الدولة الأغلبية*، ص. 478)، كما ذكر القصيبة ابن ناجي (VI، ص. 174) دون التأكيد على أنها القرية الحالية.

433) المالكي، II، ص. 444 -445

434) يتّصل هذا الماجل - بواسطة مجموعة من الحنايا - بخزّان يوجد على بعد 200 متر غرب البلدة. راجع : C. Hannezo, op.cit, p. 293, D. Carton,"Excursions à Lemta", in B.S.A.S, 1905, p. 28.

435) المالكي، II، ص. 15 - 16.

436) البكرى، ص. 29 - 31.

437) T. Lewicki, "Un document inédit sur l'immigration des Nafusa du Gabal dans le Sahel tunisien au VIII/IXe siècle" in Folia orientalia, I, 1959, p.188.

Thapsus العتيقة[438]. وأثبتت حفريات هذا الموقع (الذي يطلق عليه الأهالي اسم "القصر") وجود خزف صنهاجي وعثماني (السكّة تتواصل الى القرن 19م). وتبعا للطريقة التي ألفها العرب في نقل الأسماء اللاّتينية[439]، أصبحت هذه المدينة التي إحتضنت في العهد الأغلبي أحد مراكز الرّباطات الإسلامية، تعرف بإسم تبصة. ويبدو أنّ جنان البقالطة الذي ذكره مقديش لم يكن إلاّ الحمى المحبّس لمرافق مرابطي هذا الحصن[440].

ندرة اللّقيات الأثريّة البيزنطيّة في خرائب تبصة تدلّ بدون شك على تراجع هذه المدينة التي كانت تعدّ إحدى أهم مدن المزاق في العصر الرّوماني[441]. كما أنّ إنشاء الرّباط يندرج في نفس حركة التّعمير والإحياء التي عرفها السّاحل في العصر الاسلامي الأوّل. ويستشفّ من ترجمة أبي السّرى[442] أنّ هذا الرّباط أو الحصن يتعدّى حجم الاستحكام الحالي ويشمل تجمّعا عمرانيا بأكمله، إستقرّت قربه (في القرنين الثامن والتّاسع الميلادي - حسب الشّماخي -) أعداد هامّة من أباضيّ جبل نفوسة[443]. كما أنّه ليس مستبعدا قطّ أن يكون هؤلاء المهاجرون الجدد إستقرّوا غربيّ القصر، أي بقرية البقالطة الحالية التي يمكن تاريخ أقدم مساجدها من القرن الثاني عشر ميلادي[444]، بالرّغم من أنّ مصادرنا المكتوبة لا تذكرها إلاّ بداية من العصر الحفصي[445]. وفي هذا الصدد يمكن أن يكون تأسيس الرّباط مقترنا ولو جزئيّا بهذه الهجرة، لأنّ المرابطين - مثلما هو الشأن بالنسبة إلى رباط سالة في المغرب الأقصى[446] -ساهموا بشكل فعّال في الصّراع العربي- البربري الذي ميّز تاريخ المغرب العربي، طيلة القرنين الثامن والتّاسع، وأخذ طابعا مذهبيّا، أي طابع الصّراع السّني- الخارجي[447].

---

438) حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، III، ص 351 ؛ هادي روجي إدريس، II، ص. 53 ؛ N. Djelloul, op.cit, II, p. 511.

439) شقنبارية - Sicca-Veneria ؛ ققصة - Capsa ؛ تونس : Thunes ؛ باجة - Vaga . . .

440) مقديش، II، ص. 157.

441) Pline l'Ancien, Histoire naturelle, Liv. V, 233-234 ; D. Carton, "Thapsus", B.S.A.S, 1904, p. 47-50.

442) المالكي، II، ص. 16، 19.

443) T. Lewicki, op.cit, p. 188-189.

444) نقيشة كانت توجد بمسجد سيدي سعيد قبل تهديمه.

445) إبن ناجي، IV، ص. 232 ؛ روبار برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص 340.

446) إبن حوقل، صورة الأرض، ص. 81.

447) M. Talbi, "La conversion des Berbères au Harigisme ibado-Sufrite et la nouvelle carte politique du Maghreb au II/VIII siècle" in, Etudes, op.cit, pp. 13-79. بالنسبة لقرية البقالطة نفسها أنظر الخلافات بين العائلات "المرابطيّة" مثل الطّواهريّة وأولاد سيدي بنّور وغيرها مثل عائلات أبي الطيّب ومنصور ومسعود.

تأسيس المهدية (ق. Xم)، ثمّ توالي الحمـلات النورمانيّة (ق : XII-XIم)، أدّى إلى تهميش مدينة تبصة التي لم تعد تمثّل في آخر العهد الصّنهاجي إلاّ مركـزا عسكريّا، يعرف بقصـر الدّيمـاس (نسبـة إلى المـواجل الرّومـانيـة التي مـازالت قـائمـة في هذا الموقع)[448]، مهمّته الرّئيسية مراقبـة جزيرة الأحاسي[449]، التي نزلت بها جيوش روجار الثاني سنة 517هـ/ 1137 قبل مهاجمة المهديّة[450].

وتوجد اليوم جنوب تبصة قرية الشرف، التي يتوسّطـها ضريح أبو السّري واصل (سيدي البّساري). ويمكن إعتبار هذه القرية هي نفسها قـرية أشراف (8 أميال شـمال المهـديّة) حيث دارت الواقـعة الشهـيرة بين القـائد الفاطمي مـيسور وأبي يـزيد صاحب الحمـار. أمّا سوق الأحد، الذي تذكـره المصادر الفاطمـية[451] فيـمكن تحديد مكانه في ضواحي قـرية البغدادي الحاليـة. وهنا تجدر الإشارة إلى إرتباط الرّباط بـهذه الأسواق، مثلما لاحظناه بالنسبة إلى حصون منطقة صفاقس[452].

قصر طبلبة(شــ. 56)

مثلمـا هو الشأن بالنسبة للبقالطة لا تذكـر النصوص الإسـلامية طـبلبة (Tabulbuca الرّومانية) إلاّ في بداية العـصر الحفصي[453]، حيث استـقرّ بها الوليّ الصّالح سيـدي عبد العزيز عيّاش، الذي تحمل نقـيشة قبره سنة 739هـ/ 1319م[454]. وما من شك أنّ توافد عدد هامّ من رجال الصّوفـيّة (الذين كانوا يوفّرون المسكن للمسـافرين الجائزين بالقرية) سـاهم في تطوّرها الإقـتصادي والعـمـراني في العصـر الحفـصي[455]. ذلك أنّ الهـياكل العمـرانية الحـاليّة تتحكّم في تـوزيعها الزوايا والحـوطات، خاصّـة زوايا سيدي عـياش

---

448) حسن حسنى عبـد الوهاب، *ورقـات*، III، ص 350، D. Carton, "Thapsus", p. 47-50 ; N. Djelloul, op.cit, II, p. 511-512.

449) حول هذه الجزيرة أنظر خاصّة : الحميري، ص. 14 ؛ الهادي روجي إدريس، *نفس المصدر*، I، ص. 394 - 395.

450) الحمـيري، ص. 14 ؛ حسن حسنى عبد الوهاب، *ورقات*، III، ص. 352 ؛ هادي روجى إدريس، *نفس المصدر*، I، ص. 394.

451) N. Djelloul, Fortifications, I, p. 511

452) سـوق الحسينى، سـوق بدرنة وصـفـاقس التي كانـت في أوّل أمرها رباطـا وسوقـا. أنظر في هذا الصـدد : N. Djelloul, "A propos d'un toponyme," passim

453) إبن ناجي، IV، ص. 232 ؛ *مناقب سيدي بن عروس*، ص. 195 ؛ روبار برنشفيك، *تاريخ إفريقـية في العهد الحفصي*، I، ص. 340.

454) حول سيدي عيّاش أنظر : مختار ناصف، أضواء على تاريخ طبلبة، ص. 10 - 12.

455) روبار برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 340.

وسيدي علي شبيل[456]. على أنّ صمت النّصوص التّاريخيّة لا يدلّ البتّة على أنّ القرية لم توجد قبل هذه الفترة، فالحسن الوزان Léon l'Africain الذي زار السّاحل التونسي في القرن السادس عشر الميلادي يذكر بأنّها "مدينة عتيقة بناها الرّومان"[457]. وهذا الرّأي تدعّمه اللّقيات الأثريّة، خاصّة المعبد الرّوماني الذي عثر عليه سنة 1974 بشطّ بوعرّوج[458].

ويذكر الحسن الوزّان أن طبلبة "بها عدد قليل من الدّور يسكنها بعض النسّاك ولهم مسجد كبير على غرار ملجأ يأوي إليه الغرباء"[459]. كما وصفها لنفردوشي وبوصيو: L. Lanfreducci, G. Bosio سنة 1587 "بأنّها محاطة بسور قليل الإرتفاع، بدون أبواب"[460]. هذا التخطيط يذكّرنا بدون شك بتهيئة القرى المحصّنة التي عدّدها الادريسي في القرن XIIم (مثل قصور الحمّامات، اللّوزة ويونقة)[461] والتي كان أغلبها مراكز مرابطة في العصر الأغلبي. كما إنّ تخطيط القصر، وكذلك بعض الاشارات الواردة في رياض النفوس[462]، يمكن أن يفهم منها بأنّ طبلبة كانت مركز رباط متّصل بقصر تبصة منذ العصر الاغلبي. وربّما تندرج في هذا الإطار أيضا العداوة التّقليدية والمنازعات المسلّحة بين طبلبة العربيّة السنيّة والبقالطة ذات الأغلبيّة البربريّة[463].

إنّ الأثار الرّومانيّة التي أكتشفت في هذه المنطقة تجعلنا نرجّح بأنّ النّواة الأولى للقصر لم تكن القرية الحاليّة بل كانت توجد على شاطئ البحر، غير بعيد عن حصن الفاضلين الذي لا تفصله عنها اليوم إلاّ مسافة كيلومتر. وربّما تزامن أيضا وجود القصرين منذ العصر الصّنهاجي، إذ أنّ تواتر الهجمات النورمانيّة أدّى -مثلما هو الشأن بالنسبة إلى قليبية-[464] إلى إضمحلال التجمّع العمراني السّاحليّ بداية من العصر

---

456) أنظر في هذا الصدد: M.S. Sayadi, Monastir, p. 293, T. Bachrouch, Le sahel, p. 252.

457) الحسن الوزّان، II، ص. 85.

458) مختار ناصف، *نفس المرجع*، ص. 31.

459) الحسن الوزّان، II، ص. 85.

460) L. Lanfreducci et G. Bosio, Costae e discorsi di Barbaria, p. 512.

461) أنظر في هذا الصدد: هادي روجى إدريس، ج II، ص 45، 58، 62؛ N. Djelloul, Les installations militaires, T. I, p. 439 et T. II, p. 604, 608.

462) المالكي، II، ص. 16 وص. 19: "قال أبو الحسن على الجزرى: قصدت أزور أبا السّرى واصلا... فقيل لي: قل له أنا من الجوّالين". كذلك أهميّة حبس سيدي عيّاش الذي يشمل كلّ منطقة طبلبة - البقالطة والذي يمكن أن يكون إمتدادا لأحمية تبصة - طبلبة.

463) إبن ناجي، IV، ص. 232.

الحفصي وانـتقال المرابطين والنسّـاك إلى داخل الأراضي، بعيدا عن البحـر ومخاطره. ونعرف من خلال عديد الأمثلة أن الكثير من المراكـز الصّوفية الحفصيّة الكبرى لم تكن إلاّ إمتداد ا لرباطات العـصر الأغلبي، مثل قصـور جبل المنار بتونس وقليبيّة والهوّاريّة بالوطن القبلي[405] والشابة بالـسّاحل. على أنّ تطوّر القريـة الدّاخلية لم يمنع أيضـا قلعة الفـاضلين من مـواصلة دورها العـسكـري فيـمـا بعـد. هذا الاسـتـحكام الذي جـدّدت تحصـيناته في العصر الحـفصي ثم العـثماني (برج الفـاضلين) كانت تدعّمـه إلى أواخر القرن XIXم مـجمـوعة من الزّوايـا المحـصنّة التي إسـتعـملها الاتراك لـمراقـبة الشـريط السّاحلي[406].

قصـر جمّـة

من بين نسّـاك إفريقـيّة الذين ترجم لهم المـالكي[407] وعيـاض[408]، نجد أبـو السّرى واصل بن عبد اللّه الجمّي، صاحـب سحنون بن سعيد، المتعبّد بقـصر جمّة. ويضيف صاحب رياض النفوس بأنّ "القصر يعرف الآن بقصر الرّباط بالمهديّة"[409]. هذا النّاسك "كان له حانوت بجمّة يتّجر به فيما يكال ويوزن من حنطة وقطنيّة وزيت، ثمّ ترك ذلك ونبذ الدّنـيا وسكن قصـر الرّباط وتجرّد لقـيام اللّيل وصـيام النّهار. . . وسـبب ملازمـته للرّباط أنّه قبل أن يتعـبّد أتته إمرأة فساومـته في شئ ممّا بين يديه، فجرى بينهـما منازعة فقالت له : كفى بك ما أنت فيه من مكيال وميزان. فقال لها : صدقتني يا أمة اللّه. . . وترك البيع والشّـراء ومضى كما هو إلى قـصر جمّـة فأقام فيـه ملازما للقبلة لا يفـتر من صلاة وصيام ليلا ونهارا. فلمّا رآه أهل القصر على تلك الصّورة، تبيّنوا فيه الضعف من

N. Djelloul, Les installations militaires, T., p. 428. (404

N. Djelloul, Ibid T.I, p. 282, 430, 449-450. (405

Service géographique de l'armée française, Reconnaissance générale de la Tunisie, f. (El-Djem) (406 12 ; V. Guerin, voyage, T. I, p. 129.

467) المالكي، I، ص. 431-441.

468) عياض، ص. 360، 408.

469) المالكي، I، ص. 431. حـول جمّـة أنظر أيضا الـحميري، ص. 172 "جـمّة مـوضع المـهدية من البـلاد الافريقية، ولمّـا بنيت المهدية غلب عليها هذا الاسم. . . ولابن بشيـر المهدوي كتاب "الروضة الموشـيّة في شعراء المهدية"، ذكر منهم ابن العبان وأنشد له :

بين المصلى وكثيب الحمي   أجرت دم الأسد لحاظ الدمى

يا حبّذا جمّة من منزل   وحبّذا عيشى بها كيف ما"

ومن متأخّري أهلها عثمان بن عتيق المعروف بإبن عربيّة، له يذكر المهدية ويتشوّق إليها.

أقول لركب قافل عن معرّس بجمّة تردى بالحمول مساحجه."

كثرة العمل وعدم الغذاء، فكانوا يأتونه بعد المغرب بإفطاره، بشئ من خبز الشعير وبقل البريّة"[470]. وقد أقام واصل على هذه الحالة أربعين سنة، "يقيم الأيّام العديدة لا يطعم شيئا، فإذا جهد خرج إلى الحمى فيجمع شيئا من بقول الأرض يقتات به، ثم يعود إلى مصلاّه"[471]. وكانت وفاته سنة 250هـ/ 864 "وقبره بين يدي حوانيت الخيّاطين الذين يقرب القصر"[472].

ويتّضح من خلال هذه الترجمة أن هذا القصر كان هو نفسه تجمّعا عمرانيا محصّنا تحميه قصبة وأسوار تغلق أبوابها ليلا[473]. وبه مسجد-جامع ومتاجر وحوانيت خيّاطين وحمى أي أراضي محبّسة لصالح المرابطين[474]. ويتّصل بهذه القرية إستحكام صغير، له مأذنة مستديرة (على غرار قصور سوسة والمنستير) يطلق عليه خطأ إسم برج حنّبعل tour Hannibal[475]. هذه القرية هي بدون شك وريثة مدينة قمّي Gummi الرّومانية، التي خلّدت ذكراها لوحة من الفسيفساء عثر عليها في أسطيا Ostie، نقش عليها "ملاّحو سلّقطة، قربة وقمّي"[476]، أيّ جمّة إذا أخذنا بعين الإعتبار طريقة العرب في نقل الأسماء اللاّتينيّة. كما يدعّم هذا الإتجاه ما عثر عليه من مقابر تعود إلى العهد البوني[477]، وكذلك بعض التّيجان القديمة التي أعيد إستعمالها في معالم زويلة الاسلاميّة(لـ. 44).

ومع تراجع وظيفة الرّباط، في العصر الفاطمي أصبح، الحمى وجمّة مجرّد أرباض لمدينة المهدي الجديدة[478]. ويبدو أنّ هذا القصر عاد إلى تأدية وظيفته الأصليّة في العهد الصّنهاجي[479]، كما حافظ على أسواره إلى بداية الحكم الحفصي[480]. ويتّصل

470) المالكي، I، ص 432.
471) *نفس المصدر*، I، ص. 433.
472) *نفس المصدر*، I، ص. 441.
473) *نفس المصدر*، ج I، ص. 433.
474) *نفس المصدر*، II، ص. 436-439.
475) حول هذا المعلم أنظر : N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p. 531.
476) عزّ الدين باش شاوش، *أعمال الملتقى الأول للقاضي النعمان*، تونس 1977، ص 117 ؛ A. Lezine, Mahdiyya, p. 15-17
477) A. Lezine, Mahdiyya, p. 15-17
478) البكري، ص. 29-30 ؛ الداعي إدريس، ص. 169، 307-308 ؛ التيجاني، ص. 377 ؛ هادي روجي إدريس، *الدولة الصنهاجيّة*، II، ص. 57.
479) المالكي، I، ص. 431 ؛ مقديش، I، ص. 114،
480) الحميري، ص. 172. بداية من العصر الصنهاجي نلاحظ أيضا نوعا من التّغافل على التسميّة الفاطمية وسحب إسم جمّة على المهدية وأرباضها.

بجمّة قرى قاساس (التي إستولى الفاطميون على أراضيها.)[481]، ميّانش، بكّة أو بقّة وهيبون[482].

قصـــر سلقطـــة[483]

لا يوجد لدينا نص واضح يؤكّد وجود مركز للمرابطة بهذا القصر، على أنّ المالكي ذكر أنّ أبا يحيي حشيش بن محمد بن حشيش[484] كانت له آبار مسبّلة لوجه الله عزّ وجلّ بسلقطة على ساحل البحر"[485]. كما أنّ تطوّر أحد مراكز التصوّف الهامّة في قصور السّاف[486] المجاورة يجعلنا نميل إلى إفتراض وجود تواصل بين تقاليد العصر الأغلبي والحفصي، مثلما هو الشأن بالنسبة لطبلبة والشابّة.

ويعتبر قصر سلقطة وريث مدينة Sullectum الذي يعود تأسيسها إلى العصر البوني. وقد أحدث بها الرّومان ميناء إصطناعيّا حافظ على دوره العسكري والتجاري إلى بداية الفتح الاسلامي، رغم تراجع المدينة في العهد البيزنطي. وأسّس العرب حول هذا المرسى القرية (القصر)، الجديدة التي كانت تحميها قلعة مربّعة الشكل (50م X 50م) مشيّدة بواسطة الحجارة المتوسّطة الحجم[487]، أي بواسطة نفس التّقنيات التي نجدها في أغلب العمائر الأغلبيّة.[488] هذا الحصن كان بدون شك مركزا للمرابطة فقد وظيفته في العصر الفاطمي،

---

(481) الونشريسي، *المعيار*، XI، ص. 568 (وربّما لأجل ذلك كان سكانها يمنعون من إرتياد رباط المنستير) ؛ هادي روجي إدريس، II، ص 57. حول الأصل اللاتيني لقاساس (Casas ?) أنظر: T. Lewicki, "une langue romane de l'Afrique du Nord", in Roznik orientalistyczny, T. XVIII, 1951-1952, p. 59.

(482) البكرى، ص 29-30 ؛ الدّاعي إدريس، ص. 308-309 ؛ الهادي روجي إدريس، ج II، ص 57 ؛ M. Solignac, "Recherches sur les installations hydrauliques de kairouan", in "A.I.E.O, 1952, p. 259-262.

من جهة ثانية، ميانش، التي توجد إلى قرب قاساس، كان جزء من أراضيها ملك لعائلات منستيرية مثل عائلة جعفورة أو لرباط المنستير مثل هنشير الزاوية. أنظر محمد حسن، "*وثيقة في تحبيس هنشير ابن منصور*"، *المجلّة التّاريخية المغربيّة*، 1988، ص. 231-234.

(483) حول تاريخ سلقطة أنظر خاصّة C. Hannezo, "Notes sur Sullectum", in, B.C.T.H, T.VIII, 1890, pp. 445-448.

(484) مصادره : عياض، IV، ص. 236 ؛ المالكي، II، ص. 320-323.

(485) المالكي، II، ص. 320.

(486) حول تاريخ قصور السّاف أنظر خاصّة : محمد حسن، *القبائل والأرياف التّونسيّة في العصر الوسيط*، تونس، 1985، ص. 188-218 ؛ محمود عبد المولى، *قصور السّاف وسلقطة*، تونس، 198+.

(487) البكرى، ص. 31، 81 ؛ الإدريسي، ص 126 ؛ هادي روجي إدريس، *الدّولة الصّنهاجيّة*، II، ص 53 ؛ C. Hannzeo, Notes, p. 446-447 ; N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p. 541.

(488) أنظر في هذا الصدد : N. Djelloul, op.cit, T. I, pp. 153-155

ممّـا أدّى الى تحويل حمـاه إلى منتزهات لأثرياء العبـيدّين ثم الصنهاجـيّين[489] . وهذا بدوره سينجـرّ عنه إنقراض القصر في العـصر الحفصي، أمّـا القلعة فقد أصـبحت مجرّد إسـتحكام عاديّ تواصل إستعماله حتى منتصف القرن الثامن عشـر[490] .

وسؤدّي إنقراض قصر سلقطة، وكذلك قصر العالية[491]، إلى بروز قصور السّاف التي انتقل إليهـا المرابطون منذ العصـر الحفصي، وعـوّضت في هذا الدّور الحصن السّـاحلي. ويبدو أنّ النّواة الأولى للقـرية تشكّلت حـول قلعـة رومانيّـة[492] وأخـذت طابع القـصور السّـاحليّـة، أي أصبحت تكوّن تجمّعا عمرانيا صـغيرا يطوّقه سور صخري. هذا السّور الذي يتخلّله بابان (باب القصـر وباب الجديد) وقع إصلاحه في القـرن الرّابع عشر مـيلادي، وبهذه المناسبـة أضيف له باب ثالث : باب الزّاوية[493]. وهذا التجـديد سبّـبه بدون شك تطوّر رقعـة القرية نتيجة لتـوافد المرابطين مثل علي المحجوب الذي إستشهد بالمهديّة سنة 957هـ/ 1550م[494].

قصر قبّوذيّة (شـ. 58-63) (لـ. 50)

خلافا لما ذكره حسن حسنى عبد الوهاب وهادى روجى إدريس[495]، لا يناسب موقع قبّوذية مدينة رصفة Ruspea الرّومانية التي مازالـت اثارها قائمة في منطقة كدية رصفـة، شرق جبنيانة، غير بعيد عن خرائب قصر زياد[496]. أمّا قصر قبّوذية فهـو بدون منازع وريث مدينة رومانية كبرى، Caput vada، عرفت نفس مراحل التّدهور التي مرّت بها أغلب مدن الساحل في العصر البيزنطي، مثلما يدلّ على ذلك السّور الجديد الذي أقامه الامبراطور جوستّنيان Justinien في القرن السّادس الميـلادي[497]. هذا السّور هـو نفسه سـور القصـر الاسلامي[498] الذي كان برابط به أبو يحي

489) محمود عبد المولى، *نفس المرجع*، ص. 23.

490) J. Peysonnel, Voyage, p. 109 ; C. Hannezo, op.cit, p. 446-447.

491) حـول قصـر العـالية أنظر خـاصّـة : الإدريسي، ص. 126؛ هادي روجى إدريس، *الدولة الصّنهاجيّة*، II، ص. 53؛ J. Despois, La Tunisie orientale, p. 156 ; N. Djelloul ; op.cit, T. II, p. 541.

492) محمود عبد المولى، *نفس المرجع*، ص. 7؛ N. Djelloul, op.cit,p. 542. II, p.541.

493) محمود عبد المولى، *نفس المرجع*، ص. 7؛ محمد حسن، *القبائل والأرياف*، ص 201-202.

494) محمد حسن، *نفس المرجع*، ص. 211-212.

495) حسن حسنى عبد الوهاب، *خلاصـة تاريخ تونس*، ص. 77؛ هادي روجي إدريس، II، ص 54؛ أنظر أيضا : Ch. Bouyahya, La vie litteraire en Ifriqiyya sous les zirides, Tunis 1972, p. 228.

496) N. Djelloul, "A propos d'un toponyme de la région de Sfax", Passim .

497) C. Hannezo, "Notes historiques sur Chebba", Bulletin de la société archéologique de Sousse, 1906, p. 135-40 ; D. Pringle, The defences of byzantin Africa from Justinian to the Arab Conquest, T. I, p. 192 ; N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p. 542.

498) حول قصر قبّـوذية أنظر خاصة : البكرى، ص. 31؛ الإدريسي، ص. 126؛ المالكي، ج II، ص. 330. N. Djelloul, op.cit, T. II, p. 542

حشيش الذي سبّل عدة آبار بسلّقطه[499]، ممّا يدلّ على تماسك وتداخل هذه المؤسسات السّاحليّة. هذه القرية المحصّنة سوف تندثر بدورها في آخر العهد الحفصي وتعوّضها -في دور الرّباط- قرية الشّابة[500]. التي أنجبت أحمد بن مخلوف الشّابي مؤسس الطريقة الشّابيّة التي لعبت[501] دورا رياديّا إبّان الصّراع الاسباني - العثماني(ق XVIم).

بداية من العصر الحفصي، أي بعد إنقراض قصر قبّوذيّة، لا تذكر المصادر التاريخية، إلاّ برج خديجة الذي استعمل كبرج مراقبة إلى حدود القرن التّاسع عشر الميلادي[502]. ويتكوّن هذا المعلم من برج مربّع الأضلاع (9,5م X 9م) يبلغ إرتفاعه 17,5م، تدعّمه من الجهة الغربيّة منارة دائريّة. أمّا في الدّاخل فنجد ثلاث حجرات دفاعيّة تتصل الواحدة بالأخرى بواسطة مدارج مهيّأة داخل المنار الدّائري. هذا المنار هو كلّ ما تبقّى إستحكام مربّع الشكل (67م X 67م) تدعّمه أبراج نصف دائريّة، على غرار رباطات المنستير وسوسة (شـ. 58)، يعود إحداثه إلى العصر الأغلبي.[503] أمّا البرج المربّع فهو بدون شكّ من إضافات العصر الحفصي، ويتنزّل في إطار تطوّر عامّ عرفته العمارة العسكريّة التّونسيّة، والذي مازالت بعض نماذجه قائمة إلى اليوم ببرج مسعودي بطبرقة[504].

---

499) المالكي، II، ص. 320.

500) حول تاريخ ومعالم الشّابة أنظر خاصّة : C. Hannezo, "Notes historiques sur chebba", passim ; محمد الزاهي، *الشّابة فصول من التّاريخ*، تونس 1989 (راجع خاصّة ص. 70-77 بشأن العائلات التي تحمل لقب المرابط).

501) حول هذه الطريقة، راجع خاصّة : Ch. Monchicourt, Kairouan et la Chabbia, Tunis 1932 ; على الشابي، *أحمد بن مخلوف الشّابي وفلسفته الصّوفيّة*، تونس 1979 ؛ *عرفة الشّابي*، تونس 1982.

502) المدرسة الحربية بباردو، *مسح جغرافي وعمراني لجنوب الايالة التونسية* (1857)، نشر محمود عبد المولى، المدرسة الحربيّة بباردو، تونس 1975، ص. 84 ؛ J. Peysonnel, Voyage, p. 110, V. Guerin, op.cit, T. I, p. 149 ; Servonnet et Laffite, Le golfe de Gabès, Paris 1888, p. 5 ; E. Pellissier, op.cit, p. 99 ; P. Zaccone, op.cit, p. 184.

503) حول عمارة برج خديجة أنظر خاصّة : D. Carton, "Le Bordj-Khadidja", in Bulletin de la Société archéologique de Sousse, 1906, p. 125-134 ; N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p; 542-543.

504) N. Djelloul, op.cit, T.I, p. 411 et T II, p. 542-543.

الرّباطات الدّاخليّة

وكانت تدعّم هذه الرّباطات البحريّة مجموعة من القصور الدّاخليّة. ولكن بإستثناء بعض المواقع، مثل جبنيانة،[505] لا تتعرّض كتب الطبقات لهذه الحصون.[506] كما يذكر الدّاودي من بين رباطات صقليّة "قلعة بينها وبين البحر ثلاثة أميال".[507] ومن جهة أخرى نعرف أنّ قصور الرّباط كانت أيضا معدّة لاستقبال وإيواء سعاة البريد الرّسمي ودوابهم[508]، ممّا يحتّم وجود رباطات على طول الطريق الممتدّة بين القيروان وسوسة، وخاصّة الجادة الشماليّة - الجنوبيّة الرّابطة بين سوسة وصفاقس. كلّ هذه المعطيات تجعلنا نعتبر قرى المنارة[509]، منزل كامل[510]، زرمدين[511]، البرجين[512]، الكنائس[513]، الوردانين وجمّال مراكز مرابطة، خاصّة وأن كلمة المنزل التي أطلقت على بعض هذه القرى في العصر الاغلبي[513] يمكن أن تعني أيضا

505) المالكي، II، ص. 261 أنظر أيضا ابن ناجي (ج. I، ص. 7) حول تأسيس القيروان.

506) مقديش، II، ص. 255، 296. 507) الداودي، *كتاب الأموال*، ص 446.

508) N. Djelloul, Les installations militaires, T. I, p. 150

509) الصيادي، *الذّاتية التاريخية*، ص 24. ويرتبط هذا الموقع بقرية مسجد عيسى التي تنسب لعيسى بن مسكين القاضي الأغلبي ؛ راجع حسن حسني عبد الوهاب، *ورقات*، II، ص. 102.

510) البكرى، ص. 29 ؛ التيجاني، ص. 40 "نزلنا بمنزلة بين زرمدين وجمّال". البناية العتيقة التي يطلق عليها اسم الصّباط يمكن أيضا تأريخ أقدم اجزائها من العصر الأغلبي (لـ. 45).

511) التيجاني، ص. 40 : "زرمدين حصن حصين اسفله حجارة وأعلاه طين يأوي إليه السكّان عند الشدّة وبخارجها مقبرة الشيخ أبي محمّد عبد السيد الزرمديني من أهلها... واكتنفنا في أثناء هذه الرحلة من اليمين والشمال قصور متفرّقة وقرى كثيرة قد أخلتها العرب وأجلت أناسها". وبجانب هذه البلدة يوجد وادي تورش وهنشير تورش. والكلمة مشتقّة من Turris اللاّتينية وتعنى الحصن وقد أطلقت في العهد الأغلبي على العديد من القرى المحصّنة مثل طرس أسباط حذو جبنيانة، كما ذكر المالكي وجود طرس أخرى بهذه المنطقة (II، ص. 262). وعدا قصر زرمدين انقرضت كلّ هذه القصور في العصر الحفصي. وبهنشير تورش يوجد اليوم مقام سيدي التماجر، نسبة الى تماجر الواقعة بين منزل كامل وقصور الساف، وهي مدينة هامة "بها جامع وأسواق وفنادق وغدير ماء" (البكري ص. 29). انظر أيضا : المالكي، II، ص. 454 ؛ هادي روجى ادريس، II، ص. 49.

512) وإليها ينسب أحمد البرجيني، أحد مهندسي جامع الزيتونة، والفقيه أبو محمد عبد السلام، من تلاميذ المازري : المازري، *المعلم بفوائد مسلم*، تونس 1987، I، ص 38 ؛ زبيس، *نقائش تونس*، ص. 33، هادي روجي ادريس، II، ص. 49 وإلى جانبها يوجد قصر بني كلثوم.

513) ابن ناجي، II، ص 271 ؛ ابن عذارى، I، ص 166 ؛ هادي روجى إدريس، II، ص. 49. ويوجد إلى اليوم بقايا قصر الكنائس (لـ. 46) وفسقية أغلبية بهنشير الصغيّر ومقام ابى يوسف الدهماني الصوفي (من رجال العصر الحفصي). وبجوار الكنائس يقع قصر (أو قرية) الموردين (مالكي، Ii، ص. 400) وفسقيّتها الأغلبية. وكذلك بقلوط التي دارت بها المعركة الشهيرة بين أبي يزيد والقائد الفاطمي ميسور، وقد قاسها الخليفة الفاطمي القائم لمّا أزمع نقل العاصمة من المهدية. أنظر : الداعي ادريس، ص. 296.

المنزلة أو المرحلة[514] على طريق البريد الرّسمي. كما أن البعض الآخر -مثل جمّال- كان من أهمّ مراكز التصوّف بالسّاحل التونسيّ.

وكانت قصور الوردانين أيضا تتركّب من مجموعة من الحصون. ويوجد إلى اليوم بغابتها قصر أغلبي تشبه عمارته عمارة قصبة المنستير[515]. وينسب إليها أبو يونس بن محمد الورداني، أحد أصحاب سحنون بن سعيد[516]. غير بعيد عن هذه القرية توجد مدينة جمّال التي لا تذكرها النصوص صراحة إلاّ منذ بداية العصر الحفصي[517]، وربّما كانت هي نفسها جميلة أو خربة جميل التي دارت بها إحدى المعارك بين جيوش أبي

---

514) يمكن أن نعدّ منزل حرب ومنزل خير من بين القرى السّاحلية الأغلبيّة. نفس الشيء بالنسبة للمصدور (توجد تيجان عتيقة أعيد إستعمالها في ضريح سيدي المايل "لـ.46")، زاوية قنطش، وطوزة وإليها ينسب أبو بكر الطّوزي من رجال العهد الحفصي. أنظر : إبن ناجي، II، ص. 199 ومحمد حسن، *المجلّة التاريخية المغربية*، 1988، ص. 224.

515) التيجاني، ص. 40.

516) الصيادي، *الذاتيّة التاريخية*، ص. 23.

517) المالكي، II، ص. 45-46 ؛ التيجاني، ص. 41 "قصور الوردانين وهي قرية أزمع أهلها على قتل الشيخ العالم أبى يوسف الدّهماني أيام سكناه بمسجد غانم على قرب منه". بقرب الوردانين توجد عدّة تجمّعات سكنية أهمّها مساكن التي لا تذكرها النصوص إلاّ في العهد التركي ولكن يمكن أن تكون هذه المدينة إحدى "القصور المتفرّقة والقرى الكثيرة التي أخلتها العرب" حسب التيجاني وأعيد إعمارها فيما بعد. وربّما تكون هي نفسها مسجد غانم. والخارطة الأثرية تدلّنا على وجود 25 نقطة أثرية رومانيّة في دائرة مساكن، منها قبر الخادم ووادي صريش ووادي المالح والولجة حيث كانت توجد مدينة VZA الرّومانية (Bulletin archéologique, 1938, P 71-81). كما أنّ بعض أهالي البلدة يذكرون أن الموضع كان مزارع للسلطان تميم الصنهاجي بني به مجموعة من الأشراف سنة 1110 خمسة قصور عرفت بقصور الاشراف، حوّزهم إياها السلطان الحفصي سنة 1318م. ومثل المنستير كانت هذه القصور الخمسة يحيط بها سور ويتوسطها الجامع الأوسط الذي كانت توجد به أعمدة وتيجان رومانية قبل ترميمه سنة 1975. راجع أيضا T. Bachrouch, op.cit, p. 252.

517) التيجاني، ص 40 ؛ روبار برنشنيك، *نفس المرجع*، I، ص. 340. على الطريق الرّابطة بين المهدية والقيروان نجد أيضا مكنة (المكنين حاليا) التي كانت هي أيضا محاطة بسور، ربّما أضيف إليه في العصر الحفصي فصيل مثلما تدلّ على ذلك تسمية باب الفصيل. وإلى هذه الفترة يعود أيضا تأسيس جامع سيدي بوعبانة (لـ. 45). حول المكنين أنظر : عياض، III، ص. 248 ؛ هادي روجى إدريس، نفس المرجع، II، ص. 53 ؛ حسن حسنى عبد الوهاب، خلاصة *تاريخ تونس*، ص. 77. إلى ما قبل العصر الحفصي يرجع أيضا بدون شك تأسيس قصر هلال التي كانت تعدّ سنة 1840م 15٪ من العائلات المرابطية (T. Bachrouch, op.cit, p. 252-253). أمّا على الطريق الدّاخليّة التي تمرّ بجمّال فنجد خاصّة "قريتا ملّول (سيدي بنور حاليا) وعروة المتجاورتان والمتنافستان. وقد فرّ سكانهما في العصر الحفصي من إضطهاد البدو واستقرّوا بصفاقس وسوسة (روبار برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 341). في نفس المنطقة توجد الجم أو لجم، "بالقرب من مسرحها العتيق الذي مازال قائم الذّات. وقد كانت في بداية العصر الحفصي مركزا سكنيا هاما يقطن به بعض البربر الطرابلسيين الذين أجلتهم غزوة الأعراب. "وأشاد التيجاني بجمال مسجدها وإزدهار زراعتها" (التيجاني، ص. 40 ؛ روبار برنشفيك، I، ص. 341). بين لجم والمهدية كانت توجد باجة الزيت (واد باجة حاليا) التي تراجعت في العصر الحفصي (هادي روجي إدريس، II، ص. 49). في حين أنّنا نجد في إتجاه صفاقس مدن برزليس وزبّنة وينونش (ياقوت، IV، ص. 375، هادي روجي إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 49).

يزيد صاحب الحمار والقائد الفاطمي ميسور[518]، وربّما نزل بها أيضا سنة 1160م عبد المؤمن بن علي، إذ أنّ أحد أتباعه الحافظ عبد الحق الكومي قد دفن بجمّال. هذه القرية المحصّنة (قصر جمّال)[519] كان يتوسّطها جامع القصر (جامع المرّاكشيّة الحالي) الذي تدلّ أسواره العالية وشرافاته (لـ. 48) أنّه كان يلعب دورا عسكريّا[520]. أمّا في العهد الحفصي، فقد صار هذا القصر إحدى القواعد الأساسيّة لحركة الشابيّة الصّوفية التي لعبت دورا هامّا في الصّراع المسلح العثماني -الاسباني. ويرجع الفضل في تأسيس الجامع الكبير إلى أحد زعمائها (أحمد بن عرفة) كما تدلّ على ذلك نقيشة مؤرّخة من سنة 925هـ/ 1519 مثبّتة بإحدى أعمدة الجامع (لـ. 48).

---

518) الداعي إدريس، ص. 277-276 ؛ التيجاني، ص. 125. من المواضع التّي ذكرتها النّصوص الفاطمية في هذه المنطقة نجد أيضا بنو سليم (10 أميال جنوب سوسة : داعي، ص. 353) والجزيرة التي قاسها القائم قصد نقل العاصمة إليها (القاضي النعمان، *مجالس*، ص. 324).

519) هذا السور المبنى بواسطة الطّابية إندثر في منتصف القرن 18م (عقد حبس خاص لأولاد علية كان محفوظا سابقا بجامع الرمّانة). راجع أيضا : T. Bachrouch, op.cit, p. 252-253

520) يوجد اليوم بجمّال ضريح سيدي إبراهيم اللّوزي، واللّوزة إسم أطلق في العصر الأغلبي على رباطين يوجد أحدهما بقرية اللّوزة جنوب المهدية والأخر بالوطن القبلي، قرب منزل تميم (المالكي، II، ص. 355. N. Djelloul, Les installations militaires, T. II, p 604). كما أن عائلات القرابجيّة والميلي التي تمثّل حوالي 12٪ من سكّان جمّال في القرن التاسع عشر كانت تعتبر من المرابطين. راجع أيضا : T. Bachrouch, op.cit, p. 252-253.

الفصل الرّابع

الـــرّباطـــات الجنـــوبيّـــة

رباطات ساحل صفاقس

كانت هذه المنطقة (الواقعة بين قبّودية شمالا ومقدماس جنوبا) تعتبر في العصر الوسيط جزءا من كورة السّاحل[1] ، ولهذا كانت تمتاز كغيرها من مناطق مزاق بكثرة الزياتين وبكثافة سكّانية عالية، وبوفرة المدن والقرى المفتوحة او المحصّنة (قصور). على أنّ أغلبها انقرض بعد الغزو الهلالي نتيجة لتراجع الفلاحة وانخرام الأمن[2]، ممّا أدّى الى هجرة أهاليها الى المدينة الكبرى ، حيث أحدثوا أحياء مازالت تحمل ذكرى أوطانهم القديمة. [3] وقد أدّى ذلك الى تدعيم مكانة صفاقس التي أصبحت في العهد الحفصي أهمّ مدينة جنوب المهدية، وكذلك أهم قاعدة عسكريّة.

وكانت منطقة صفاقس، مثل غيرها من مناطق الساحل، تمتاز في العصر الوسيط الأوّل بأهميّة الملكيّة القيروانيّة. [4] وكانت أيضا تأوي العديد من مراكز المرابطة التي يتردّد عليها أهالي «العاصمة» الأغلبية والقرى المجاورة، (مثل صفاقس، قصر زياد، اللّوزة، المحرس، انشلة، يونقة وسيدي منصور)، التّي تدعمّها سلسلة من الحصون المنعزلة وأبراج المراقبة. وكان أبو اسحاق الجبنياني (ق. 4 هـ/ 10 م) يقول لقد أدركت هذا السّاحل وما منه قرية إلاّ بها رجل صالح من أهل العلم أو من أهل القرآن، أو رجل صالح يزار. . . وعن عيسي بن ثابت قال : يقول أبو إسحاق : انصب شبكتك على هذا البحر فلا بدّ أن يقع في يدك طائر فاره، يريد أن يقول يقع في يدك رجل ينتفع به لكثرة من كان يرد على الحصون من الصّالحين»[5]

قصر صفاقس[6]

تقع صفاقس على ساحل البحر عند خليج قابس شمالا، أمام جزر قرقنة، على بعد 270 كلم من الجنوب شرقيّ تونس العاصمة، في أرض منبسطة تربط بين الساحل

1) المالكي، I ، ص. 243؛ التيجاني، ص. 65.
2) التيجاني، ص. 65 « وأرتحلنا عن الجم يوم الإربعاء ففارقنا بمفارقته أرض حكيم وطرود ودخلنا في أرض إخوانهم حصن، وكان مسيرنا منذ فارقنا الجم في الزيتون القديم المعروف بزيتون الساحل، وقد أذهب افساد الأعراب اكثره وغيّر بعد الإستواء أسطره، فكأنه مغروسا على حالة معلومة وأسطر متناسقة منظومة، فأبطل الإفساد اكثر ذلك». انظر أيضا: ر. برنشفيك، I، ص. 342؛ محمد حسن، *القبائل والأرياف*، ص. 86 .
3) مثل احياء الرقّة وقرقور وملّول. انظر ايضا التيجاني، ص. 127 .
4) المالكي، I، ص. 243، 423؛ عياض (طالبي) ، ص . 163 .
5) مقديش، II، ص . , 251
6) حول تاريخ صفاقس ومعالمها. انظر خاصّة : مقديش، (الخاتمة) ؛ عبد الكافي، *تاريخ صفاقس*، صفاقس، 1980 ؛
N. Mahfoudh, *La ville de Sfax, recherches d'archéologie monumentale et evolution urbaine*, Thèse, Paris-Sorbonne, 1988; N.Djelloul, Fortifications I,p.283-295

والجنوب . وهذا الموقع من الأسباب التي أهّلت هذه المدينة للعمل التجاري وجعلتها متجهة نحو افريقيا السوداء والحوض الشرقي للمتوسط»[7]، كما يفسّر الدّور التجاري الذي لعبته رباطات المنطقة في العصر الوسيط. فطريق القوافل السّاحلية كانت تمرّ بصفاقس ورباطاتها في اتجاهها نحو الشرق وافريقيا السّوداء، أمّا طريق القوافل التي كانت تربط بين مدن المغرب ومصر مرورا بالواحات التونسية وطرابلس، فهي لا تترك هذه المنطقة على هامشها. [8] وتتوسط صفاقس جونا عرضه حوالي 15 كلم محميّ من الرّياح الشرقية والغربية،[9] كما أنّ «قصير» خليج قابس الذي يمنع السفن الكبيرة من الإقتراب من سواحلها يدعّم تحصيناتها الطبيعيّة، بدون إعاقة حركة المساحلة التي تطوّرت في العصر الوسيط لإرتباطها بتصدير الزيوت.

وتشكّل مدينة صفاقس مربّعا مستطيلا طوله ستمائة متر وعرضه أربعمائة متر، حسب مثال مستقيم متعامد المسالك قلّما يوجد مثله في المدن الإسلامية الأخرى. و«تعامد المسالك مع بعضها جعل بعض المؤرخين يعتبرون أنّ مدينة صفاقس الإسلامية قد أرست قواعدها على أسس مدينة تبرورة Thaparura الرّومانيّة فأنشأت على تخطيط روماني وينسون أن تخطيط المدينة استغلّ طبوغرافيّة الأرض. فهذه المدينة قد شيّدت فوق ربوة عالية الطرفين منبسطة الجوانح يشقّها في الوسط خطّ منخفض يمتدّ من الشمال الى الجنوب (نهج الجامع الكبير) اعتبروه الكاردو الرّوماني.»[10]

ويشبه تخطيط مدينة صفاقس أيضا تخطيط مدينة - حصن إسلامية أخرى: عين الجرّ التي أنشئت بدورها في العصر الأموي (ش. 70)[11] . كما أنّ الحفريات التي وقعت داخل مدينة صفاقس الإسلامية لم تبرز أي أثر غير إسلامي. ومن المرجّح أن يكون موقع تبرورة قريبا من صفاقس الإسلامية، في منطقة هنشير المزغنّي، نظرا للبقايا الرّومانية التي وقع اكتشافها فيها. [12]

---

7) علي الزواري، *صفاقس*، ص. 10

8) نفس *المرجع*، ص. 10 « ولمّا تعطّلت القوافل المغربيّة الكبيرة عن السير نهائيا استمرّت صفاقس في استغلال المسالك التي تربطها مع الواحات للتجارة معها. ولم تندثر هذه المسالك وبقيت تحمل نفس الأسماء التي كانت تعرف بها في الماضي وهي ثنيّة الدّائر، ثنيّة تونس، ثنيّة تنيور. . . .»

9) Ch. Lallemand, La Tunisie, p. 55;

10) علي الزواري، *صفاقس*، ص. 11

11) حول عين الجرّ انظر : A. Papadopulo, *l'Islam et l'art musulman*, p.200

12) علي الزواري، نفس المرجع، ص. 11. حول هذه الآثار انظر: M. Fendri, Decouvertes archéologiques dans la région de Sfax, Tunis 1963, pl. 1

ويبدو أنّ المدينة الرّومانية قد اندثرت في آخر العهد القديم، وكانت قبل ذلك نقطة مراقبة وحراسة على الطريق الرّابطة بين الشمال والجنوب. وسوف تواصل صفاقس التي احدثها العرب في بداية الفتوحات هذا الدّور، وربّما تفسّر هذه الخطة تخطيطها الذي يشبه تخطيط المدن العسكرية الّرومانية مثل لمبايزيس Lambaesis[13] . كما يملك هذا التخطيط قواسم مشتركة مع عمران قصر رباط الحّمامات الذي يعود إحداثه الى الفترة الإسلامية الأولى. ومازال الحيّ المجاور للقصبة، وهو من أقدم احياء المدينة، يحمل إسم القصر. وممّا يؤكد ما ذهبنا إليه حول نعت «قصر صفاقس» الذي يطلقه الإدريسي وبعض مؤلفي الطبقات على المدينة الأوليّة. [14] وذكر التيجاني، أنّ للمدينة «سورين يمشي الرّاكب بينهما ويضرب البحر في الخارج منهما» . [15] والسّور الثاني لم يكن في الحقيقة إلاّ الجدران العمياء للمنازل المتلاصقة، وهي هندسة كانت أيضا شائعة في القرى - القصور ، مثل قصر قليبية. [16] وذكر عياض، على لسان محمد بن عبد اللّه الرّعيني قال : «لمّا سرت الى الغزو إلى صفاقس مع سحنون فتح لنا مطمورة شعير لعلف دوّابنا، فما كنّا نأخذ منها بكيل سماحة منه في ذات الله. قال غيره : وفدي سحنون يومئذ أسارى المسلمين وظنّ أنّ الأمير يعطيه مافداهم به. وأخذ سحنون الأموال التي فداهم بها سلفا، فلّما قدم على الأمير أبي ان يعطيه الفداء، فألزم سحنون الأسرى ما فدوا به، وقال لهم : قد كنتم عبيدا للعدو، ولا تملكون من أموالكم شيئا، ولا تأمنون الفتنة على دينكم. فمن أعطى تركته ومن أبى حبسته.»[17] ويعتبر فدي الأسرى عادة من وظائف الرّباطات الإسلاميّة. [18] وذكر مقديش في نزهة الأنظار أن صفاقس "كانت في ابتداء أمرها محرسا من المحارس، برجا في موضع قصبتها الآن، وهو البرج الأحمر المحاذي لسيدى جبلة. وكان أناس يقال لهم الأعشاش وآخرون يقال لهم النواولة، ساكنون في أخصاص لا كسب لهم إلا صيد السمك. وكان حوالي ذلك المكان بسواحل البحر وما قاربه من الأراضي قرى كثيرة متصلة ومتقاربة، ولهم في ذلك الموضع في كلّ يوم جمعة سوق يجتمع فيه أهالي تلك القرى، فاّتخذوا لهم

---

13) حول مدينة لمبايزيس انظر: (لميس العربيّة) أنظر : المالكي، I ، ص 35؛

14) الإدريسي ص. 106؛ عياض (طالبي)، ص. 192؛ مقديش، II، ص. 138، 171.

15) التيجاني، ص. 68.

16) انظر : N.Djelloul, Fortifications I, p. 204

17) عياض (طالبي) ص . 129-130. وفي نصوص أخرى يتعلّق الأمر بمركز سحنون، في ضواحي صفاقس. انظر : M. Talbi, L'émirat aghlabite, Tunis 1962

18) المقدسي، ص. 177.

فنادق لحفظ دوّاب الواردين وامتعتهم وأحدث هنالك مرسى للقادمين من البحر كأهل قابس وجربة وطرابلس وقرقنة وغير ذلك. فابتنى النّاس لهم مساكن وكثرت النّاس، فلمّا كان زمن أبي ابراهيم احمد بن الآغلب، وكان له اعتناء بأفعال الخيرات وإنشاء الحصون والمحارس أمر ببناء سور من الطّواب على ما اجتمع من المساكن والفنادق والسوق على يد علي بن سلّم البكرى جدّ ابي اسحاق». [19] وقد كتب مقديش خاتمته في القرن التّاسع عشر، في فترة اصبحت كلمة رباط تطلق على معلم معيّن، في حين أنّ قصر - رباط صفاقس كان في العصر الوسيط يشمل المدينة الحالية مثلما تؤكده نصوص الإدريسي و الونشريسي، وهو ما يفسّر أيضا تواصل نعت ابراج المدينة بالرّباط والمحرس. أمّا البرج الأحمر فيجب إلحاقه بقصر - رباط جبلة الذي خلّد ذكراه سيدي جبلة، وهو من قصور صفاقس[20]. وتضع بعض الفتاوي الزّيريّة هذا القصر[21] على قدم المساواة مع رباط المنستير[22].

وذكر اللّبيدي أنّ عليّا بن سلم البكري، صاحب جبنيانة (وولد سحنون من الرّضاع) الذي تولى قضاء صفاقس وسائر الساحل "كان بنى جامع صفاقس وسورهابالطّوب زمن الأمير احمد بن الأغلب (242 -249 هـ/ 856-863 م)[23]. ويهدف إحداث السّور الى تحصين تجمّع عمراني متكامل (عدد سكّانه حوالي ثلاثة ألاف نسمة)[24] حسب مثال معين وليس لتحديد تجمّع عمراني عفوي مثلما ذهب الي ذلك مقديش. وليس مستبعدا أن تكون القصبة الحالية الواقعة في الرّكن الجنوبي - الغربي من السّور هي ذاتها قصبة القصر الأغلبي، فقد أبرزت الترميمات التي جرت فيها معالم مسجد من طراز الجوامع التي نجدها داخل الرّباطات الإفريقية الأخرى. [25] وكان قصر رباط - صفاقس - مثلما ذكره مقديش - مركز لحراسة السّواحل، وذكر ابن حوقل أنّ به «محارس مبنية للرّباط»[26]، وقد خلّدت أبراج سوره ذكرى بعض المرابطين الى فترة متأخرة، مثل رباط

19) مقديش، II، ص. 138.

20) الإديسي، ص. 126.

21) ورد أيضا ذكره في مؤلّفات شعراء العصر الزّيري مثل ابن حمديس وعلى بن حبيب التنوخي. عبد الكافي، I، ص. 34.

22) الونشريسي، I، ص. 218 »

23) مقديش، II، ص. 138

24) A. Lezine, Deux villes, p.33

25) N. Djelloul , Fortifications, I, p.

26) ابن حوقل، ص. 70

سيدي خنفير ورباط مسعودة. كما كان القصر سوقا لأهالي القرى المجاورة، وكان نسّاكه وأهاليه يشتغلون بالفلاحة والصيد البحري والنسيج،[27] وهي نشاطات كانت بدورها موجودة في حصون سوسة والمنستير. على أنّ قصر صفاقس - مثل قصر زياد الواقع في نفس المنطقة - يتميز عن رباطات ساحل سوسة بالدّور النشيط الذي لعبه في التجارة الخارجيّة، وقد تدّعم دور صفاقس في هذا المجال بعد تراجع قصر زياد. وكان "يقصدها التجار من الآفاق بالأموال الجزيلة لابتياع المتاع والزيت" و"أسواقها عامرة" و"من زيتها يمتار اهل مصر وصقليةوالرّوم"[28]

وتسبّب الزّحف الهلالي وما تلاه من تصدّع للوحدة الزيريّة في ظهور عدّة دويلات مستقلّة بإفريقية منها دولة حمّو بن مليل البرغواطي الذي استقلّ بصفاقس (465-493هـ / 1063-1099 م) وآنجرّ عن ذلك عدّة حروب مع المهديّة وتدخّل مستمرّ للأعراب في شؤون المدينة. وفي سنة 543 هـ/ 1149م احتلّ النورمان صفاقس، وثار أهاليها بقيادة عمر الفرياني سنة 551 هـ/ 1156 م الذي توصّل الى تخليص "وطنه" من الغاصب المسيحيّ، قبل ان يحتلّه من جديد الموحدّون (555هـ/ 1160 م). وتؤكد رحلة ابن حوقل ان صفاقس قد الحقت منذ انشاء سورها في منتصف القرن التاسع بالمدن (وهو نفس التطوّر الذي عرفته سوسة) ولكنّها واصلت دورها كمركز للمرابطة.[29] وقد تدعّم هذا الدّور في العصر الحفصي[30]، نتيجة لضعف المؤسسات الحفصيّة، حيث أصبح الأهالي والمرابطون يتحمّلون عبء الدّفاع عن المدينة ضدّ القرصنة المسيحيّة. كما شهدت المدينة الحفصيّة تتالي الحملات

---

27) البكرى، ص. 20-21 ؛ ابن حوقل، ص. 70 « جلّ غلاّها الزيتون والزّيت وبها منه ما ليس بغيرها مثله وكان سعره عندهم فيما سلف من الزّمان بحال غيّرته الفتن في وقتنا هذا. وربّما بلغ من ستّين قفيزا بدينار الى مائة قفيز بدينار على حسب السّنة وريعها، وزيت مصر في وقتنا هذا فمن ناحيتها يجلب لقلّته بالشام. . . وأسواقها عامرة، وهي قليلة الكروم وفاكهتها من قابس تشدّ حاجة أهلها. . . . . ولهم من صيود السمك ما يكثر ويعظم تصاد بحظائر قد زربت وعملت في الماء فتأخذ بأيسر سعي». انظر أيضا: على الزواري، *صفاقس*، ص. 16.

28) البكرى، ص. 20-21 ؛ الادريسي ، ص. 106 "مدينة عامرة بها أسواق كثيرة وتجارتها شاملة. . وهي الأن معمورة وليس مثل ما كانت عليه من العمارة والأسواق والمتاجر في الزّمن القديم"

29) الإدريسي، ص. 106 "على أسوارها محارس نفيسة للرّباط"

30) ياقوت، V، ص. 87 « وفيها حمّامات وفنادق وقرى كثيرة وقصور جمّة ورباطات على البحر» ؛ البكري، ص. 20-21 "ولها أسواق كثيرة ومساجد وجامع وسورها صخر وطوب، ولها حمّامات وفنادق وبواد عظيمة وقصور جمّة وحصون ورباطات على البحر، منها محرس بطرية ومحرس جبلة ومحرس أبي الغصن ومقدمان ومحرس اللّوزة ومحرس الرّيحانة"

الدّاخليّة، مثل غزوات بنو غانية(757 هـ/ 1356 م). وقد أدّى توالي المحن وانتشار الأعراب في نواحيها الى تراجع اقتصادها، ممّا جعلها تبدو في بداية العهد العثماني فقيرة ومنزوية داخل أسوارها.[31]

التحصينات (لـ. 51-53)

يحيط بالمدينة سور مرتفع احدث في القرن التّاسع الميلادي ولكنّه جدّد على فترات متعدّدة آخرها في القرن التاسع عشر، دون أن يفقد الكثير من تصميمه وهيكله الوسيطي. وبما أنه أقيم على مشارف الرّبوة الطبيعيّة فإنّ ارتفاعه يتراوح بين 10 و12 م في الخارج ولكنّه لا يتعدّى في بعض الأحيان المتر الواحد في الدّاخل. ويبتدئ الجدار في الأسفل عريضا (حوالي 3 م) ويتصاعد مسندا ويقلّ عرضه حتي ينتهي في عرض خمسين صنتمترا. وقد استعملت في بنائه الحجارة العاديّة المرصوفة (الغشيم)، في حين أفردت الحجارة المصقولة للزّوايا والرّبط وقواعد الابراج (لـ. 52-53). وممّا يلاحظ أيضا استعمال خشب الشجر المعروف بالعيّاري للربّط الأفقي، ونجد هذه التقنية خاصّة في السّور الجنوبي. وعند تفحّصنا للسور الشمالي نلمح وجود ثلاثة جدران متتالية، على انّ الجدارالخارجي مشيد بواسطة ملاط رقيق يشبه ملاط اقدم اجزاء الجامع الأعظم التي تعود بدورها الى القرن التاسع الميلادي[32]، ممّا يؤكد أنّ سور صفاقس وقع ترميمه عن طريق تدعيمه من الدّاخل، وهو إجراء حتّمته طبوغرافية الرّبوة.

كما أنّه زيد في ارتفاعه عدّة مرّات، إذ ظهر بالجهة الشرقية منه أثناء الترميم شرفات مصطفّة في وسط الجدار (لـ. 52). ويدعمّ السّور الشمالي برج مثمّن (برج مسعودة) وأربعة عشر برجاطوليّا، تسعة منها بارزة (على مستوى الجدار) بنحو مترين، في حين لا يتعدّى عرضها أربعة امتار. أمّا الأبراج الأخرى فيتراوح عرضها بين ستّة وخمسة أمتار. ويحصّن السور الغربي (الذي يحميه في الشمال برج القصر) أيضا مجموعة من

---

31) الوزّان، II، ص. 87 « كانت في القديم كثيرة السكّان، لكنّها اليوم لم يبق فيها سوى ثلاثمائة الى أربعمائة كانون، أمّا دكاكينها فعددها ضئيل لأنّ الأعراب وملك تونس يثقلونها بالضرائب. ومعظم الصّفاقسيون نسّاجون وبحّارون وصيّادون يصطادون كمية وافرة من السمك يدعي سبارس، يأكلون خبز الشعير والبازين كغيرهم ممّن ذكرناهم أنفا. لباسهم رديء، يذهب بعضهم بسفنهم ليتجرّوا في مصر وتركيا.» ؛ مارمول، II، ص. 528 "يتعاطى جلّ الصفاقسيّون الملاحة والصيد البحري. . . . منهم من يتعاطى الحياكة وليس فيهم من هو ثريّ رغم تكبّرهم. وطعامهم العادي أساسه خبز الشّعير وأكلات من دقيقة ."

32) G. Marçais, Architecture, p. 25

الأبراج الطوليّة (يتراوح عرضها بين أربعة وستّة أمتار)، بارزة بنحو مترين، وبرجان سداسيّا الأضلاع وبرج - دعامة اسطوانيّة. ويحمي السور الشرقي برج النّار وعدة متاريس للمدفعيّة أحدثت في العصر العثماني، ذلك أنّ هذه الواجهة المعرّضة بآستمرار للهجمات البحريّة توالت عليها التّرميمات. ويوجد بها رباط سيدي خنفير (لـ. 52) وهو برج حفصيّ (ق.15م) سداسي الأضلاع (21م)، يتعدى ارتفاعه 14م ، مشيّد بواسطة الحجارة المصقولة. ويتكوّن من حجرتين يتوسّط احداهما (السّفلي) قبر المرابط : الشيخ سعيد خنفير، في حين كانت الغرفة العليا تستعمل لمراقبة السّفن القادمة من البحر. ويشكّل رباط مسعودة السمراء (لـ.53) (الزاوية الشمالية - الشرقيّة) برجا مثمّنا (أضلاعه 5،5 م) مشيّدا بواسطة الحجارة المنقوشة. ويغطّي غرفته السّفلية (زاوية ومسجد مسعودة) قبو متقاطع محمول بواسطة أعمدة تيجانها من الطّرازالزّيري. ورغم التحويرات التي عرفتها الغرفة العليا، فإنّ هذا البرج الذي تشبه هندسته هندسة تحصينات المهدية الفاطميّة، (خاصّة برج العريف وأبراج السور الغربي)،[33] حافظ على تصميمه وهيكله الأوّل (ق. 11-12 م).

وعرف السور الجنوبي أيضا تحويرات هامّة في العهد العثماني، تمثلت خاصّة في إحداث عدّة متاريس معدّة للمدفعيّة (برج دريرة، برج البقرة، برج الرّصاص. . . .) ولكن البعض منها أقيم مكان إستحكامات وسيطيّة مثل رباط الشيخ منصور (مسجد التوبة) ورباط الشيخ مفتاح (الذي يوجد به مسجد وضريح المرابط). ويحمي هذا السّور في الجنوب الغربي برج النّار، الذي كان يستعمل الى حدود القرن التاسع عشر الميلادي لإرسال الإشارات الضوئيّة، ويعود احداث هذا الإستحكام الى العصر العثماني، لكن استعملت في بنائه أربعة أبراج طوليّة من العصر الوسيط مثل رباط سيدي المغبي (الـ. 51).

وكان لسور صفاقس أحباس كثيرة يشرف عليها ناظر يسمى مقدّم السور أو وكيل أحباس السور، يختار من أهل العلم والورع،[34] توكل إليه مهمّة السهر على إصلاح تحصينات المدينة. وينجرّ عن عدم تدخّل السلطة المركزيّة في هذه العمليّة نشوء تقاليد معماريّة محليّة لا تنخرط بصفة آلية في التيّارات الفنية العامّة التي عرفتها البلاد، وهو ما

33) حول تحصينات المهدية انظر : N.Djelloul, Fortifications, I, p. 264-270

34) نفس المرجع، I ، ص. 285

يجعل عملية تاريخ أسوار صفاقس عسيرة. على أنّ تقنيات البناء (الأبراج المثمنة، الرّبط بواسطة الحججارة المصقولة، النتوء المدرج في أسفل الجدار، الشّرفات الهرمية) تدل على أنّ اقدم اجزاء المعلم الحالي تعود الى الفترة الفاطمية - الزيرية، أي العصر الذي جدّد فيه بناء السور الأولي الذي شيّده على بن سلم البكرى بواسطة الطّوب في القرن التاسع الميلادي.[35].

وتتّصل مدينة صفاقس منذ تأسيسها بالخارج بواسطة بابين: باب الجبلي في الشّمال وباب البحر(باب الديوان) في الجنوب.[36] وتؤكد قلّة الفتحات مرّة أخرى الطّبيعة الخاصّة لهذا التجمّع العمراني الذي كان ملحقا بالقصور. ولباب الجبلي مدخل وحيد بارز يقع في محور برج طولي (عرضه 5،8 م) ويفتح على دهليز مستقيم يؤدي الى داخل المدينة، وهو مدخل يشبه الى حدّ ما سقيفة باب الفتوح بالمهدية،[37] ممّا يؤكد أنّ عمليات الترميم المتأخرة (في 823هـ/ 1420م و 1224 هـ 1809م) لم تغيّر تصميمه القديم. في حين أفقدت تحويرات العهدين الحفصي والعثماني باب الدّيوان مظهره القديم. ويتكوّن المعلم الحالي من ثلاثة مداخل تدلّ نقيشة مثبّتة في داخل الباب أنّ اقدمها يعود الى سنة 706هـ/ 1306م. وبمناسبة هذه الأشغال وقع تحويل المدخل المستقيم القديم الى مدخل متعرّج يشبه مداخل الأبواب الموحدّية والحفصيّة.[38]

وتحمي قصبة صفاقس، التي يعود احداثها الى العصر الأغلبي،[39] المشارف الجنوبيّة - الغربية للمدينة . وتتكّون من ثلاثة مباني مستقلّ الواحد عن الآخر . وتدلّ الأسبار التي اجريت داخل المعلم أنه أخذ شكله الحالي في العهد الزّيري. وإلى هذه الفترة يعود بناء المنار والأبراج الطّولية التي تدعّم السور الخارجي. (39).

قصر تنيـــــــــور

إضافة الى قصر - رباط جبلة كان يوجد على مشارف مدينة صفاقس (الغربية) قصر آخرمازالت أطلاله قائمة في منطقة تنيور (لـ. 55-58)[40] . وذكر مقديش أنّه "مركز

---

35) N. Djelloul, Fortifications, I, p. 284.

36) حول ابواب صفاقس انظر : N.Djelloul, Fortifications, I, p. 291

37) نفس المرجع، I، ص. 291

38) نفس المرجع، I، ص. 292

39) نفس المرجع، I، ص. 294

40) F. Mahfoudh, op.cit, I, p. 162

علم"، [41] وهو تعريف ينطبق أيضا على الرّباطات. كما يدلّ بقاء تسمية "ثنيّة تنيور" على أنّه كان أيضا مرتبطا بالتّجارة. [41] ويشكّل الحصن الحالي بناية مربّعة (أضلاعها 40م) تدعّمها في الزّوايا والوسط أبراج نصف دائريّة. كما نجد في الشرق بقايا برج (منار؟) نصف دائري يصل إرتفاعه الحالي إلى ثمانية أمتار. وكان هذا المرقب يحمي قرية محصّنة (قصر) مازالت أطلالها قائمة، و كانت عامرة في عهد الشيخ أبي الحسن الوحيشي نزيل قرية قلوس (وطن صفاقس الشرقي). [43]

وتدلّ هندسة المرقب التي تشبه هندسة رباط تيط بالمغرب[44] أنّه أقيم في العصر الزّيري، مكان معلم يعود على الأرجح الى الفترة الأغلبية.

رباطات منطقة رصفة

تشمل هذه المنطقة، الممتدّة بين رأس قبّودية وصفاقس، خاصّة رباطات رستاق (كورة) رصفة[45] السّاحلية (قصر زياد، اللّوزة، بطرية) وحصون أنشلة وقزل، وبعض المراكز البعيدة عن البحر مثل جبنيانة ولبيدة، وكانت هذه المنطقة تعدّ قبل الغزو الهلالي كثيرا من المدن (صدف، رصفة...) وخاصّة العديد من القرى المحصنة والأبراج المنعزلة. وذكر الإدريسي أنّه كان يوجد (من الشمال الى الجنوب) : "قصر قبّودية ومنه الى قصر مليان ثمانية أميال، ومن قصر مليان الى قصر الرّيحانة أربعة أميال، الى قصر قناطة أربعة أميال. وكان يعمل بقصر قناطة فخّار كثير ساذج من الدّهن ويتجهّز به الى المهدية وغيرها وطينه أحمر. ثمّ الى قصر اللّوزة أربعة أميال، الى قصر زياد ستة أميال ،ومن قصر زياد إلى قصر مجدونس ثمانية أميال، ومن قصر مجدونس الى قصر قاساس ثمانية أميال، ومن قصر قاساس الى قصر قزل ميلان. فمن قصر قزل الى قصر جبلة ميلان وهوفي جون، ومنه الى قصر صفاقس من الجون خمسة أميال". [46]

---

41) مقديش، II ، ص. 349.
42) على الزواري، صفاقس ، ص. 10
43) مقديش، II ، ص. 349 "تزوّج بأمرأة من قصر تنيور إسمها خديجة التنيوريّة"
44) N.Djelloul, Fortifications, I, p. 310
45) المالكي، II ، ص. 262؛ المقدسي، ص. 211 ؛ هـ. ر. إدريس ، II، ص. 59.
46) الإدريسي، ص. 126؛ مقديش، II، ص. 138.

قصــــر زيـــــــاد[47] (ل. 59)

يعتبرقصر زياد (او قصور زياد المرابط) من أهمّ رباطات افريقية في العصر الوسيط. وكـان "يسـمّى دار مـالك" لكثـرة المـرابطين الذين يتـردّدون عليـه.[48] ولكن رغم هذه الأهميّة فـإنّ موقعه غير معروف بدقّـة، فالأطلس الأثري لتونس لا يذكـر إلاّ «قصر بن زياد» الذي يوجـد جنوب بلـيانة، عـلى بعـد 10 كلم عن السّـاحل.[49] في حـين أنّ كلّ المصادر العربيّة تؤكّد أنّ الرّباط (الذي كان يحاذي بالفعل بليانة، او بليانة نافذ: سيدي أحمد بن نافـذ حاليا) كان يوجد على ضفـاف البحر،[50] لكن في موقع آخر غـير شمال اللّوزة كمـا ذهب الي ذلك خطأ حسن حسني عـبد الوهاب.[51] وهو رأي يفنّده ما ورد في نزهة المشـتاق (ق. 6هـ/ 12 م)[52]، وفيـما بعـد رحلات فـكتور جيران V. Guerin وسرفـوني - لافيت. Servonnet et Laffite. ذكر جيـران، الذي زار المنطقة سنة 1862، أنّه "بعد ساعـة من المسيرانطلاقا من بليانة نزلنا بخـرائب بلدة عتيقة تمتـدّ على ضفاف البحر حيث كان يوجد ميناء صغير. وشاهدنا بهذه البلدة بقايا خمسة قصورتسمّى قصور زياد أو سيـدي مسـرّة لأنّها توجد بجـوار وليّ يحمل هذا الإسم. ويتّـخذ القـصر الذين يحاذي الميناء شكلا دائريّا، ويبـدو - مثل باقي القصور - أنّه يعود الي الفتـرة البيزنطية أو الرّومانيّـة... وبعد فترة مـررنا بهضبة مـحصّنة تسمّي كدية رصـفة".[53] ويؤكّد ما ذهب إليه جيران رحلة سرفـوني - لافيت (1888 م) الذان ذكرا بأنّ "خرائب هذه البلدة العتيقة تمتـدّ الي ضفاف البحـر وتتصل بخرائب كـدية رصفة. وتوجد بهـا أثار ماجلين دائرين يشبهان فسقيات الأغالبة بالقيروان"[54]

وتؤكّد رحلة جيران بدون أدنى شكّ انّ موقع قصـر زياد يناسب خرائب سيدى مسرّة التي توجد حـاليا على ضفاف خليج صـغير (على بعـد 4،5 كلم جنوب اللّوزة)، حذو

---

47) حول قـصر زياد انظر : N.Djelloul, "A propos d'un toponyme de la région de Sfax in A. Zouari et F. Mahfoudh, La dynamique économique à Sfax, Sfax 1993,pp. 9-39.

48) اللّبيدي، ص. 10 ؛ المالكي I، ص. 422-423؛ عياض (طالبي)، ص. 294؛ مقديش، II ، ص. 251.

49) E. Babelon, R. Cagnat, S. Reinach, Atlas archéologique de la Tunisie, Paris 1892 (f Djebeniana)

50) اللّبـيدي، ص. 26، 28-33؛ المـالكي، I ، ص. 430؛ عيـاض، I، ص. 99 وطالبي، ص. 160، 293؛ التيـجاني، ص. 41؛ ابن الأثير، ص. 473؛ العـمري، ص. 6؛ ابن ناجي، III، ص. 275، مقديش، II، ص. 293.

51) حـ. حبسني عبد الوهاب، خلاصة، ص. 77.

52) الادريسي، ص. 126.

53) V.Guerin, Voyage archéologique dans la régence de Tunis, Paris 1862, I, p.161

قبّة مسرة بن مسلم الحضرمي صاحب ابي إسحاق الجبنياني. وتذكر كتب الطبقات ان هذا الفقيه والمتعبّد دفن عند وفاته سنة 373 هـ / 1002 م "على سيف البحر شرقي القصر"،[55] وهو موقع يناسب المكان الذي يحتلّه الضريح الحالي.[56] وتمتاز هذه المنطقة بكثافة الآبار القديمة[57] وقباب الأولياء الذين ينتمون غالبا الى أوساط مرابطي قصر زياد، مثل سيدي يوسف (أبو يوسف مسلم الحضرمي) وسيدي مجاهد (حمدون بن مجاهد الكلبي). وقد انقرضت اليوم أغلب معالم القرية والميناء ولم تبق (جنوب سيدي مسرّة) إلا أسس قصر محصّن طوليّ (تتجاوز أضلاعه خمسين مترا) تدعمّ أركانه أبراج دائرية. ويمتاز المعلم بوجود كلّ تقنيات البناء التي استعملت في «الرّباطات» الأغلبية الأخرى (مثل الابراج الاسطوانية ونواة الغشيم والملاط المخلوط ببقايا الخزف ورماد الخشب).[58] كما يوجد خارج القصر خزّان طوليّ من الطراز الفاطميّ،[59] ويحاذي القبّة، التي يعود احداثها الى العصر الحفصي، مقبرة عتيقة يبدو على الظنّ أنّها نفس الجبّانة التي دفن بها عبد الرّحيم الزّاهد سنة 247 هـ/ 861م.[60] وتوجد غربها خرائب مدينة روسبيا Ruspae التي أصبحت تدعى رصفة في العهد الإسلامي (كدية رصفة حاليّا)[61]، وهو ما يؤكد مرّة أخرى دقّة أخبار جيران وسرفوني - لافيت.

ويعود الفضل في تأسيس قصر زياد حسب أغلب كتب الطبقات الى عبد الرّحيم الزّاهد (سنة 212 هـ/ 827م)[62] . ويذكر المالكي أنّ اسد بن الفرات "لما أراد الغزو

(54 Servonnet et Laffite, Le golfe de Gabès, p.9-10.

55) حول مسرّة بن مسلم انظر : اللّبيدي، ص. 27-29؛ المالكي، I، ص. 422؛ عياض، III، ص. 533-535 وطالبي ص. 396، 420، 517؛ مقديش، II، ص. 256 ؛ مخلوف، I، ص. 97.

56) علي ساحل قرية حزق الحاليّة. ويذكر مسح المدرسة الحربية باردو (1857 م) أنّ القرية بها "جامع خطبة ومقامان وإحدى عشر منزلا ومعصرتان."

(57 M. Jedidi, Djebeniana et sa région, Tunis 1975, p.21,51; J. Despois, La Tunisie orientale, p. 288

58) انظر في هذا الصدد : G.Marçais, Architecture, p.41

59) نفس المرجع ، ص. 37.

60) المالكي ، I، ص. 430 "وكانت وفاته سنة سبع وأربعين ومائتين، ودفن علي سيف البحر من ناحية شرقيّ القصر" ؛ عبد الكافي، I، ص. 205؛

61) حول رصفة التي يضعها حـ. حسني عبد الوهاب خطأ مكان الشابّة (خلاصة، ص. 77) انظر: اليعقوبي، IV، ص. 259؛ ابن رشيق، *الأنموذج*، ص. 123-139؛ مقديش، I، ص. 212؛ هـ. ر. إدريس ، II، ص. 58. Ch. Bouyahya, La vie litteraire en Ifriqiya sous les zirides, Tunis 1972, p.26.

62) المالكي، I، ص. 422 "وهو الذي تولّى بناءه" ؛ عياض (طالبي)، ص ؛ هـ.ر. إدريس، II، ص. 58

الى صقليّة أراد عبد الرّحيم الخروج معه فشاور في ذلك سحنونا فكسر عليه وقال له : لا تفعل. ثم قال له : كنت ذكرت لي أنّك تحبّ بنيان قصر زياد وأنّ عندك اخبارا توجب الخوف من البرّ والبحر. وبنيانك لهذا القصر يكون حرسا للمسلمين وغوثا لهم يلجؤون إليه ويرابطون فيه، أفضل من مسيرك الي صقليّة. فمضى عبد الرّحيم إلى أسد فأخبره بما قال سحنون فقال : الذي أشار عليك به هو الصّواب. ثم دخل على زيادة الله بن الأغلب الأمير فخرج ومعه سجلان : سجلّ منهما بولايته على صقلية أميرا وقاضيا، وسجلّ آخر لعبد الرّحيم في الإذن له في بناء قصر زياد". [63] وينتمي عبد الرّجيم (مثل علي بن سلم صاحب جبنيانة) إلى ربيعة . وكان قبل اعتكافه بالقصر بزّازا بالقيروان، لكنّه كان - مثل سحنون - يملك بهذه المنطقة ضيعة بها 17000 شجرة زيتون. [64] أمّا البنّاء فهو عبد الله بن مالك، من قرية بني عمروس (حاليا سواني بنو عمروس قرب بلدة حزق)[65]، وربّما أتت من هنا تسمية "دار مالك". على أنّنا نشكّ في هذه الرّواية إذ أن الموقع كان يسمّى قبل مجيئ عبد الرحيم« قصور زياد المرسى أو المرابط» حسب رواية اللّبيدي. [66] وبما أنّ لفظ «بناء» يعني عادة الإصلاح والترميم، فإنّنا نرى أن عبد الرّحيم إكتفى بتوسيع مركّب عمراني سابق يحتوي على ميناء ومجموعة من القصور، وهو ما تؤكّده الرّواية الثّانية للمالكي نفسه الذي ذكر "بأن عبد الرحيم تولّي بناءه وإصلاحه وأنفق فيه اثني عشر ألف دينار، ستّه آلاف من عنده وستّة آلاف من عند اخوانه." [67] إنّ السّمة الرّئيسيّة لكتب الطبقات هي طابعها "الأسطوري"، وما ينجرّ عن ذلك من مبالغة في ابراز "كرامات المرابطين." ولكن حتّى وإن سلّمنا بذلك فإنّ هذه المبالغ الهامة لا يمكن ان تنفق في بناء المعلم الحالي الذي لا تتجاوز مساحته مساحة "قصر - الرّباط بسوسة"، [68] ممّا يجرّنا الي التأكيد بأنّها انفقت في بناء منشآت أخرى كانت تعتبر جزءا من القصر. ويذكر المالكي عن مسرّة بن مسلم أنه "قال لأصحابه يوما وهم يسمعون عليه تحت صومعة قصر زياد :

---

63) المالكي، I، ص. 423.

64) M. Tlbi, Etudes, p. 195

65) المالكي، I، ص. 423

66) اللّبيدي ص. 42 ؛ عياض (طالبي)، ص. 294 : المرسي (من مرسية في الأندلس). وتؤكد تراجم المالكي أهميّة الوجود الأندلسي بهذه المنطقة.

67) المالكي، I، ص. 422.

68) تبلغ تكاليف بناء منزل عادي بالقيروان في هذه الفترة 200 دينار. انظر: المالكي، II، ص. 100 ؛ M.Talbi, Etudes, p. 195

أتدرون كم أعطي عبد الرّحيم بن عبد ربّه الزّاهد لبناء هذه الصّومعة لمّا فرغ من بنائها، قالوا : لا، قال : وهب أثني عشر جملا محمّلة بالأموال والهدايا. . . وكان بقرية البرج التي بقصر زياد شيخ فقيه إسمه مسعود رأي في المنام كأنّه وزن مع عبد اللّه بن مالك، فرجح عليه عبد اللّه، فقال له مسعود : بماذا رجحت عليّ وأنا أطلب العلم وسمعت وصحبت العلماء؛ فقال له عبد اللّه : رجحت عليك ببنيان هذه الصومعة وأشار الى صومعة قصر زياد. "[69] إنّ هذه الصومعة التي كان "يجتمع خلفها عبد الرّحيم ومسرّة بن مسلم بالخضر"[70] ليست إلاّ مأذنة المسجد الجامع الذي كان يتوسّط قرية الرّباط أو "قرية البرج" كما يسمّيها المالكي.[71] وقد كان هذا المسجد يحتوي علي مكتبة ضخمة حبّس عليها حمدون بن مجاهد خمسمائة مخطوط "كتبها بيده".[72] وترتبط هذه التسمية "ببرج عبد الرّحيم"[73] أي قصبة القصر المعدّة لسكنى أمين الرّباط: عبد الرحيم الزّاهد. وكان هذا القصر المحصّن - الذي يسكنه عبد الرحيم رفقة جواريه-[74] يتركّب من طابقين،[75] ويحتوي على سقيفه (لإستقبال الضيوف وللحرس) ومسجد وماجل.[76] أمّا المرابطون العاديون، مثل أحمد بن عيشون، فقد كانوا يقطنون - صحبة زوجاتهم وأبنائهم - بالقصور الأخرى.[77]

إنّ ما ورد في كتب الطبقات ومؤلفات الرّحالة الأوروبيين يؤكّد بصفة قطعية بأنّ قصر زياد لم يكن معلما منعزلا بل تجمّعا عمرانيا متكاملا (قرية البرج)[78] يحتوي على ميناء ومسجد جامع وعدّة مساجد[79] وقصور محصّنة أهمّها القصبة. هذه القرية، التي

---

69) المالكي، I، ص. 422-423.

70) المالكي، I، ص. 422-423، 9 42 ؛ اللّبيدي، ص. 44؛ عياض، IV، ص. 196 وطالبي، ص. 160-161.

71) المالكي، I، ص. 423.

72) عياض (طالبي) ص. 420؛ مقديش، II، ص. 262؛ المالكي،I، ص. 421 « سمع عبد الرّحيم من سحنون ومن أسد، وطلب العلم وعني به وحبّس كتبا كثيرة بخطّة وضبطه بقصر زياد».

73) المالكي، I، ص. 428.

74) نفس المصدر، I، ص. 423 "وكانت عنده وصيفتان مولّدتان لهما جمال تقومان به وتخدمانه، فقيل له : لم لا تتّخذ أحدهما سريّة لك فإنهما تصلحان لذلك، فحلف أنه لا يعرف صفة وجهيهما لشغله بالعبادة"

75) المالكي، ص I. 427 .

76) نفس المصدر، ص. 427 ، 429.

77) اللّبيدي، ص. 42-44؛ مقديش، II، ص. 254، 259، 261

78) حول هذا المصطلح الغامض انظر : حـ.حسني عبد الوهاب، ورقات، III، ص.345؛ H. Jaidi, Les sites antiques de l'Ifriqiya et les géographes arabes, C.A.R, F. Lettres de Tunis, 1977, p. 25

79) مقديش، II ، ص. 259-260

كان يحميها سور خاصّ، كانت - مثل سوسة الأولية -[80] ملجأ لسكّان القرى المجاورة عند مداهمة النصارى لهم.[81] لكنّها لم تكن - تماما مثل رباط سالة -[82] إلاّ ربضا بحريّا ومحرسا ورباطا لرصفة عاصمة الرّستاق التي امتازت بحركيّتها الإقتصادية والفكرية في العصر الوسيط الأول.[83]. ويبدو أن التّسمية الثّانية (قصر زياد) عوّضت تدريجيّا التسمية القديمة (رصفة).

وتؤكد مصادر العصر الوسيط والآثار الحالية أنّ قصر زياد تحوّل منذ القرن الرابع للهجرة (10م) الى مدينة بحريّة هامّة، ممّا دفع بعبد الله المهدي الي تجهيزها بدار صناعة (لصناعة السّفن).[84] ويبدو هذا الاختيار مثيرا في أوّل الأمر لأنّ اللّوزة المجاورة تعتبر أحسن مرافئ الجهة. هذا التوجه حتّمه وجود القصور التي يمكن استعمالها لخزن المؤونة والعتاد البحري، وكذلك لإيواء الصنّاع والعملة. وتمثّل هذه القصور النّواة المعماريّة «لقرية» الرّباط، ممّا يعطيها تخطيطا يشبه تخطيط برشانة والمنستير وغردمار Gardamar del Segura في الأندلس، وهي مدينة تتكوّن أيضا من مجموعة من القصور. ومثلما هو الشأن بالنسبة لتخطيطها فإن هذه القرية - الرّباط تتميّز عن التجمّعات العمرانية العاديّة بطبيعة سكّانها الذين ينتمي أغلبهم الى صفّ النسّاك الخاضعين لسلطة أمين القصر عبد الرّحيم الزّاهد. وقد أطنب المالكي في الحديث عن حياة التقشّف التي كان يحياها هؤلاء العبّاد الذين لا يتعدّى قوتهم اليومي حسب زعمه دقيق الشعير والزّيت والجراد.[85] ويذكر صاحب الرّياض أنّ عبد الرّحيم الزّاهد "خرج سنة من السنين الى المنستير فنزل بالقصر الكبير، فلّما كان العشي سمع حسّ المهاريس فقال: ما هذا؟ فقيل له: المرابطون يدّقون التّوابل لقدورهم فآسترجع عند ذلك وقال: ما هكذا أعرف حالة المنستير، قديما عند سكّانها شيء من دقيق الشعير في القلّة وشيء من الزّيت، فإذا كان إفطارهم لتّوا ذلك الدّقيق بشيء من الزّيت فأكلوه، للّه لا أبيت في شيء من المنستير. فخرج منها ذلك الوقت فغابت له الشمس عند قصر لمطة ولم يعد

80) المالكي، I، ص. 422.
81) نفس المصدر، I، ص. 422.
82) L.Golvin, Notes, p.96.
83) المقدسي، ص. 211 ؛ ياقوت، IV، ص. 1042؛ هـ.ر. إدريس، II ، ص. 453. وإلى هذه المدينة تنسب خدوج الرصفيّة التي ارتبط إسمها ببرج خديجة بقبوديّة
84) اللّبيدي، ص. 43-44؛ المالكي، II، ص. 222؛ هـ.ر. إدريس، II، ص. 689 ؛ A.Lezine, Deux Villes, p.91; N. Djelloul, Fortifications, I, p. 305
85) المالكي، II، ص. 211، 217.

الى المنستير بعد ذلك." [86] على أنّ حياة البذخ التي أشار إليها الكاتب يبدو أنّها أيضا مسّت سكّان قصر زياد إذ نجد في كتب الطبقات ذاتها إشارات كثيرة الى "فاخر الطعام" (تمور أجدابية، غلال، لحوم، حلويّات....) [87]، كما أشار عياض الى جماعة، يبدو أنّها من سكان القصر، كانت تعاقر الخمرة. [88]

ومثلما هو الشأن بالنسبة لأغلب الرّباطات فإن المؤرخين المعاصرين سقطوا في فخّ "ايديولوجية الجهاد" فأطنبوا في التأكيد على الدور العسكري الذي لعبه مرابطو قصر زياد، في حين أنّه لا يتعدّى مراقبة سفن الرّوم وتوفير ملجأ حصين للأهالي إبّان الغزوات المسيحيّة. فعبد الرحيم نفسه كان "يروي أخبارا توجب الخوف في البرّ والبحر". أمّا التيجاني فقد اكتفى بذكر حصانة القصر وشجاعة أهله عامة، [89] وهي رواية تخصّ العهد الحفصي أي العصر الذي أصبح فيه للرّباط دورا عسكريّا فعّالا بعد تراجع البحرية الإفريقية. فالمرابطون بحكم طبيعة تكوينهم لم يكونوا محاربين مختصّين. وكانوا في كثير من الأحيان عاجزين على الدّفاع عن ممتلكاتهم، مثل عيشون البكاء الذي أهانه لصوص جاؤوا لسرقة ودائع القصر. [90] وذكر المالكي أنّه كان "بقرب قصر زياد رجل من بني نافذ وكان له ناحية من السلطان. وكان له فرس يطلقه في زرع المرابطين فخوطب في ذلك فلم يقبل ولا سأل عن كلام من خاطبه، فأتي النّاس الى عبد الرّحيم فذكروا له ذلك فرفع عينيه الي السّماء وقال: اللّهمّ اجعله آية للعالمين وآكف المسلمين شرّه، فطارت عينا الفرس جميعا و بقي أعمى لا يبصر وكفى اللّه المسلمين شرّه". [91]

ويفسّر سلوك هذا الرّجل بآنتمائه الى فرقة المعتزلة التي كانت تعادي أهل الحديث ومن بينهم نسّاك القصور. أمّا زرع المرابطين فكان يوجد في حمي

---

86) *نفس المصدر*، I، ص. 429-430.

87) *نفس المصدر*، I ، ص 428.

88) عياض (طالبي) ص. 420، ترجمة حمدون بن مجاهد « صلّي بنا التّراويح، فتاب تلك اللّيلة ممّن يشرب المسكر وغيرهم على يديه نحو سبعين رجلا»؛ المالكي، II، ص. 204.

89) التيجاني، ص. 67 "حاذانا على ساحل البحر القصر المعروف بقصر زياد وهو قصر حصين وفي أهله نجدة موصوفة وشجاعة معروفة."

90) اللّبيدي، ص. 42-43؛ مقديش، II، ص. 261

91) المالكي، I، ص. 428؛ عياض (طالبي) ص. 160.

القصر.[92] وهي أراضي شاسعة حبّست منذ العهد العباسي على الحصون. ويبدو أن هذا الحمي كان يوافق حبس "سيدي ابي إسحاق"[93] نظرا لقدم التقسيم العقاري بهذه المنطقة.[94] ويبدو أنّ طريقة استغلال هذه الأراضي كانت مشابهة للطريقة المستعملة في المنستير : الإستغلال المباشر والكراء.[95] وكانت تقوم - مثلما هو الشأن في العصر الرّوماني - [96] على زراعة الحبوب والبقول والزيتون وتربية الماشية. وكان المرابطون يملكون مراعي خاصّة بهم لتربية البقر.[97] كما كانوا يتعاطون الصيد البحري.[98] ويؤكد نصّ المالكي أنّ أراضي الحمي كانت لا تشمل ضيعة عبد الرّحيم،[99] ولهذا اضطرّ الى طلب "ترخيص" من زيادة اللّه لضمّ جزء من أراضي الدولة للحمي، مقابل الخدمات "السياسية" التي كان يقدّمها المرابطون للسلطة الأغلبيه.

وكان قصر زياد يتوسط في العهد الأغلبي شبكة من الطرق تصله بأهم مدن السّاحل والسّباسب، وخاصّة الجادّتين الرّومانيّتين : بطرية Acholla - سوسة Hadrumetum - قرطاج Carthago، والطريق الذي سلكها التيجاني في القرن الثالث عشر : لجم Thysdrus - برزليس Bararus . وقد كانت فروعها تلتقي في إنشلة Usilla.[100]

وقد كانت هذه الشبكة مصدر ثراء الجم الرّومانية التي كانت تحت حماية (Genius Coloniae) ربّ التجارة مركوريوس Mercure. وقد كانت مركزا لتجميع حبوب وزيوت السباسب[101] . وكان يدعّم هذه المسالك طريق بحري (المساحلة) تشكّل

---

92) المالكي، I، ص. « وصل رسول احمد بن الأغلب الي قصر زياد في طلب سحنون ورفعه فخرج عبد الرّحيم مع سحنون يشيّعه. فلما انتهى الى آخر الحمي استقبل القبلة ووقف سحنون قبالته يوادعه».

93) يؤكد ما ذهبنا إليه أن حبس عزيزة عثمانة الذي يمسح أغلب أراضي هذه الجهة لا يشمل هذا الحبس.

94) انظر في هذا الصدد : P. Trousset,"Nouvelles observations sur la centuriation romaine à l'Est d'El Djem", in Antiquités africaines, II, 1977, p. 175-207.

95) المالكي، I، ص. 428؛ مقديش، II، ص. 254 .

96) H. Slim, " Nouveaux témoignages sur la vie économique à Thysdrus", in B.AC, 1985,pp. 62-64.

97) المالكي، I، ص . 296؛ اللّبيدي، ص. 42-43،45؛ مقديش، II، ص. 260-261

98) المالكي، II، ص. 296 ؛ مقديش، II، ص. 264؛ هـ.ر. إدريس، II ، ص . 689.

99) المالكي، I، ص. 423 "كان لعبد الرّحيم أخ يقال له هاشم من أهل الفضل والعبادة، أتاه يوما بسبعين دينارا من ضيعته فأقامت عنده مدّة يسيرة، ثم أتاه أخوه فقال له عبد الرّحيم : جئتنا بشيء ؛ فقال له: أين السبعون دينارا التي دفعت إليك وجرّ بيده على الحصير فقال له عبد الرّحيم : قليلا لا تعفّر يدك الحصير فعلم أنّه تصدّق بها".

100) P. Salama, Les voies romaines de l'Afrique du Nord, Alger 1951, p.41.

101) H. Slim, op.cit , p.63-64

القصور محطّات لها. وتبرز رحلة ابن بطوطة أهميّة هذه الطريق وتواصلها في العصر الحفصي رغم تراجع تجارة إفريقية.[102] والى جانب إيواء التجار والمسافرين كانت هذه القصور منازل للبريد الرّسمي ومراكز لإفتداء الأسري.[103] كما كان لقصر زياد سوقه الخاصّة،[104] وتذكر الوثائق الإسبانية وجود مخازن للبضائع في العصر الحفصي.[105] كما كانت سوق الحسيني (جنوب الجم) وسوق البدارنة (قرب شريانة) الموجودة بهذه المنطقة مرتبطة بقصر زياد منذ العصر الأغلبي[106].

لقد ورث قصر زياد والرّباطات المجاورة له تجارة لجم Thysdrus (قبل أن يستحوذ عليها من جديد قصر واحد : قصر صفاقس). ويرتبط هذا التحوّل بتراجع لجم نفسها وكذلك بتطوّر المساحلة في العصر الأغلبي، نتيجة لإستتباب الأمن من جديد في المتوسط والتحوّل الذي عرفه الإنتاج الفلاحي. إذ أنّ تطوّر غراسة الزيتون في آخر العهد القديم وفي بداية العقود الإسلامية أدّى الى تراجع إنتاج الحبوب، ممّا جعل من الزيت أهم صادرات المنطقة،[107] وهي بضاعة يسهل نقلها عن طريق البحر. ويؤكد المذبح الجنائزي الرّوماني الذي عثر عليه في بصتري Bostra (وهبه تجار لجم Thydsrus لمركوريوس إلاه التجارة) عراقة المبادلات التجاريّة بين هذه المنطقة والشرق الأوسط.[108] وهي علاقات عمّقتها فيما بعد تجارة صفاقس[109] . وتفسّر هذه العلاقات (وما ينجرّ عنها من وجود بحّارة لهم دراية بهذه المنطقة)[110] احداث دار الصناعة في

---

102) ابن بطوطة، *رحلة*، بيروت 1964، ص. 655 نزل ببليانة ومنها استقلّ سفينة : "وسرت حتى نزلت بجربة وسافر المركب المذكور الي تونس فأستولى العدّو عليه ثم سافرت في مركب صغير الى قابس ثم ركبت البحر الى صفاقس ثمّ توجّهت في البحر الى بليانة ومنها سرت في البرّ فوصلت بعد مشقّات طويلة الى تونس والعرب محاصرون لها."

103) عياض (طالبي) ص. 129-130.

104) اللّبيدي، ص. 43؛ عياض، III ، ص. 535 .

105) M. Alacon y Santon et R. Garcin De Linares, Los documentos arabes diplomaticas del archivo de la corona de Aragon, Madrid 1940, p. 259, trad.p.264.

106) البكري، ص. 21-20؛ اللّبيدي، ص. 36؛ مقديش، II، ص. 257؛ ر. برنشفيك، I، ص. 341؛ هـ.ر. إدريس ، II، ص. 59 .

107) ابن حوقل ، ص. 70؛ F. Mahfoudh, op.cit, I, p. 29

108) R. Mouterde, "Africains et Daces à Bostra", in Melanges de l'université de st. Joseph, 1942, p. 43-50

109) مثلما تؤكّده وثائق الجنيزة. انظر : F.Mahfoudh, I, p.292-30; Zouari, Les relations commerciales entre Sfax et le Levant, Tunis 1990, pp. 23-24, 82

110) اللّبيدي، ص. 33

عهد عبد الله المهدي الذي اهتمّ باكرا بشؤون مصر[111] . ذلك أن هذه القاعدة (مثل كلّ دور الصناعة) لم تكن فقط ورشة لصناعة السفن بل كذلك مركزا للعيون والجواسيس[112] الذين يمكن لهم إستيقاء الأخبار بسهولة من هذا الميناء الذي يؤمّه التجّار المشارقة بأعداد وافرة. ويؤكّد ما ذهبنا إليه نفي الأمير أبي الفتوح (صحبة زوجته بلارة) في عهد يحي بن تميم (1108-1110 م) بقصر زياد قبل انتقاله الى الإسكندرية[113] .

ويذكر المالكي أن المهدي "أطرد كلّ المرابطين من قصر زياد" وحوّل قصوره الى مخازن ومساكن لعمّال دار الصناعة، ولكنّه أبقى على أبي جعفر القمودي خوفا منه. على أنّ هذا الأخير لم يتفطّن إلى إخلاء القصر إلاّ بعد مدّة طويلة لكثرة انشغاله بالعبادة. [114] وتؤكد صيغة هذا الخبر أنّ الخليفة العبيدي لم يطرد كلّ المرابطين وأن عددا هامّا منهم واصل الاعتكاف بقصر زياد[115] الذي أصبح أهم قاعدة عسكرية جنوب المهدية. وعدّ العمري (ق 14م) قصر زياد ضمن مدن افريقية الهامّة[116] ولكنّنا نشك كثيرا في صحة هذا الخبر. فقصر زياد - رصفة التي كانت بالفعل من أهمّ حواضر افريقية في العصر الفاطمي تحوّلت الي قرية صغيرة في العصر الحفصي[117] نتيجة لتراجع الفلاحة والتجارة وكذلك انهيار البحرية (التجارية والعسكرية) ومؤسسة البريد[118]. وبعد أن كانت قاعدة بحريّة تنطلق منها الأساطيل الفاطمية الغازية أصبحت في عهد بني حفص عرضة لحملات القراصنة الاسبان،[119] لتنقرض بصفة نهائية في القرن السادس عشر الميلادي[120] .

---

111) F.Dachraoui, op.cit,. 140-142,147

112) N.Djelloul, Fortifications I, p. 305

113) ابن الأثير، ص . 473؛ ابن خالكان، VI، ص. 215؛ هـ.ر. إدريس، I ، ص. 367

114) المالكي، II، ص. 222.

115) مقديش، II، ص. 296.

116) العمري، ص . 6.

117) التيجاني، ص. 41؛ مقديش II، ص. 296 ؛ ر.برنشفيك، I ،ص. 341

118) العمري، ص. 27؛ القلقشندي، صبح الاعشي، القاهرة. 1913، V، ص. 148؛ N.Djelloul, Fortifications, I,p. 172

119) مثل حملة الاميرال الأرجوني Berenger Fallona Una سنة 1303 الذي احرق مخازنها: انظر N.Djelloul, op.cit I,p.172 .

120) Djelloul, op.cit, I, p.172.

تذكر كـتب الطبقـات أنه "رابط بقصـر زياد أربعة عشـر من أصحـاب سحنون" ،[121] أشهـرهم أبو محمد عـبد الرّحيم بن عـبد ربّه الرّبعي الزاهد (تـ. 247 هـ /861 م)[122] الذي يعتبر من أكـبر الفقـهاء والمـترسّلين بالقيـروان في القرن الثـالث للهجـرة. حفظ القرآن في حداثة سنه ثم سمع الفقه والـحديث من أسد بن الفرات وسحنون. وكانت له مكاتبـات اخوانية لـم يبق منها سـوى واحدة توجّه بهـا إلى صديقـه سحنون عند تـوليّه القضاء. [123] وكان سحنون يزوره، باستمرار ويتبـرّك بدعائه ويلجأ إليه في المهمّات من الأمـور ويذكـر عنه أنه كـان رغم ثرائه "أزهد أهل زمـانه". وكـان "حـصـورا (لا يأتي النساء)" كثير الصدقـة والمعروف، لم يكن للدّنيا عنده قدر". [124] وكان إذا "جنّ اللّيل قام إلى مـحرابه، فهـو راكع وساجد الى أن ينادي بالفـجر. وكان السّهـر قد غيّـره حتّى كانّه مـبهوت من طول القيـام وسرد الصيام. وكان مـمن لايتوسد القـرآن. فكان يهجع هجعة لطيـفة ثمّ يثب كأنه قد ظل شيء فـهو يطلبه". [125] وذكرأبو إسحـاق السبائي أنّه "بلغه عن سحنون أنّه قال : ذكر لي عن عبد الرّحـيم أنّه أقام ستة أشهر لم يشرب ماء، فأنكرت ذلك وهالني، فمـضيت الى قصر زياد فأجتـمعت به وقلت له : اتّصل بنا عنك وآنتشـر انّك اقمت ستـة أشهر لم تشـرب ماء، فقال: فـلّما أصبح الصـبح سلّمت عليه وانصرفت، فلما نزلت على الدّرج من البرج صيح بي، فرجعت اليه فقال لي : سألتني عن شيء وكتـمته عنك، فلمّا انصـرفت حاسبت نفسي لك وقلت : لا أدعـه ينصرف على غير صـحيح فالذي قيل لك عني هو صـحيح: لي ستّة أشهـر لم أشرب ماء وذلك أني كنت قـائما أصلّي، فأصـابني عطش شديد، فـلمّا سلّمت من الصـلاة مددت يدي لأخـذ القسط فـآنقلب وذهب كلّ ما فـيه من الـماء، وكـانت ليلة كثيرة الرّيح والبـرد، والماجل أسفل القـصر. فكبر علي النزول في طلب الماء، فـقلت : يارب إنّ هذا الماء شـغلني عن حزبي فـأحـمل عنّي المؤونة. فـأجابـني صوت من زاوية البـيت - ولم أر أحدا- وهو يقول : أصلحك اللّه، أنا من مـؤمني الجنّ أصلّي بصلاتك مدّة من الدّهر،

12) عياض (طالبي) ص. 294؛ اللّبيدي، ص. 9-10 ؛ مقديش، II، ص. 251

122) مـراجعـه : ابن عـذاري، I، ص. 113 ؛ عيـاض، III، ص. 95-99. وطالبي، ص. 158؛ أبو العـرب، ص. 197؛ مختار العبيدي، ص. 35

123) مختار العبيدي، *نفس المرجع*، ص. 35

124) المالكي، I، ص. 423، 426.

125) *نفس المصدر*، I، ص. 423- ,424

فمرّ بنا في تلك اللّيلـة شيطان مارد من شياطين الجنّ - وهم أضـرّ علينا ممّا هو عليكم نهرب بـأدياننا منهم - فحسـدك علي ما أعطاك اللّه عـزّ وجلّ من طاعة، فرمي لك شيئا من القسط، ولو شـربته لعرض لك في جسمك شيء ليس لك به طاقـة، فلّما مـددت يدك الى القسط سبقـتك إليه فهـرقته. قـال عـبد الرّحـيم فأخلصت للّه عزّوجل فسألته فـحمل عنّي مؤونة العطش. فنزل سحنون متقلّدا بسيـفه ليركب دابّته فنظر اليـه النّاس فقال لهم: ومـا تستعظمون من هذا؟ عـبد سأل مولاه حاجـة فقضاها له."[126] وكان سحنون بن سعـيد - الذي يملك بهذه المنطقة 12000 زيتـونة - كثير التردّد عـلي قصر زياد. وإليه إلتجـأ أبّان "محنة الاعتزال" (القول بخلق القرآن).[127] ورابط بقصر زياد أيضا ابنه محمد[128] وجبلة بن حمّود الصدفي[129] وحاتم الجبنياني[130] الذي رثي عبد الرّحيم بقصيدة "رائية" مطوّلة، خصّص قسمها الأوّل "لتمجـيد خصال الميت التي منها الزهد والتقوى والإستقامة، وقسمها الثـاني دعا فيه النّاس الى الإعتبار والإتعاظ والإعراض عن الدّنيا والرّغبة في الآخرة".[131] وينتمي الى هذه الطبقة أبو الحسن بن الخلاف، مـحمـد بن علي بن عبـد ربّه (من عـائلة عبـد الرحـيم)، أحمـد بن أبي حـبيب البلياني وأبو جعـفر القمّودي.[132] ومن أصحاب سـحنون أيضا محمـد بن الأنباري

---

126) المالكي، I، ص. 428. ومن أجابة دعوته أيضا "أنه نزل به فـقير من الفقراء فلم يجد ما يقـدّمه إلاّ قرصا من الشعير أعـدّها لإفطاره، فآثر بها الفقير على نفسه فأتى بالقرص وقدّمه إليـه وبقي هو بلا شيء، فقيل له: اصلحك اللّه، وما يكون منك، وأنت لا تقبل لأحـد شيئا، وإنّما تأكل من حلالك الذي تعرفـه؟ فقال لهم: إنّ اللّه تعالى لا يتركني بالجوع. فلمّا كان بعد سـاعة مرّ رجل من سكّان المنستير ببرج عبد الرّحيم فسمع فـيه كلاما فدخل على عبد الرّحيم فلم يجد عنده أحد ووجد بين يديه قرصا وتمـرا، فقال له: تقدّم فكل، فقال له: سألتك باللّه أصلحك اللّه من أين أتاك هذا؟ فلمّا أقسم عليه قال: أتاني به الخضر وقـال: هذا التمر أتيتك به من أحدابية». ويذكر عنه أنه "رأى ليلة من اللّيالي في منامـه قائلا يقول له: كلّ من بات في هذا القـصر مغفور له إلاّ صـاحب التلّيس. وقد بات في قصبة القصر تلك اللّيلة خلق كثير، فلّمـا صلّي عبد الرّحيم الصبح خرج وكان من شأن النّاس أن يودّعوه وهو في بيته. فنزل ذلك اليـوم الى سقيفة القصـبة فودّعه النّاس وسألوه الدّعـاء، فتقدم إليه صاحب التليس ليـودّعه وقد خفّ النّاس عنه، فقـال له سرّا. . . ما الذي صنعت؟ فـقال أنا عبد مـملوك أبقت من سيّدي، فـقال له: يا بنيّ ارجع الى سيّدك وتب الي اللّه تعالى من ذنبك وآنصرف عنه. فرجع العبّد الي سيّده:» المالكي، I، ص. 429.

127) المـالكي، I، ص. 426؛ عـيـاض، IV، ص. 70-71 وطالبي، ص. 163؛ مـقـديش؛ II، ص. 251 "وصام بقصر زياد سحنون خمسة عشر رمضانا"؛ M.Talbi, Etudes, p. 192

128) اللّبيدي، ص. 10؛ مقديش، II، ص. 263.

129) عياض (طالبي)، ص. 164

130) مراجعه: عياض (طالبي) ص. 163؛ المالكي، I، ص. 430

131) مختار العبيدي، نفس المرجع، ص. 99-100.

132) المـــالـكي، I، ص. 222، 429؛ عـــيـــاض (طـالبي) ص. 395؛ مـــقـــديش، II، ص. 245، 247.

(الذي "نشر مصحافا ليقرأ فيه فمات من خشبة اللّه")[133]، وثابت بن سليمان (تـ. 289 هـ/ 901 م)، ناسك وفقيه سوسي، وهو من أساتذة محـمد بن سحنون. ويذكر مقديش أنّه يقال "إذا رأيت محـمد بن سحنون يقـول حدّثني الثقة عن سـحنون فهو ثابت بن سليـمان". [134] وكذلك يحي بن زكـرياء الأموي،[135] صاحب أبي مـصعب،[136] الذي ينسب إليه تأليف في "فضل المنستير والـرّباط". وينتمي بدوره الى عائلته أرستقراطية (سـفياني) من قرطبة. [137] وينحدر أيضـا من هذه الأوساط الأرسـقراطيّة أبـو العبّاس أحـمد بن نافـذ الوزير، صاحب بليانة. [138] وكذلك اللّيث بن صفوان بن الحارث، من فـقهاء سوسة،[139] و"كان منقطعا في الزّهادة والإنزواء عن النّاس فـإذا كثروا عـليه هرب". [140] وكان الفـقيه حـمدون بن مـجاهد الكلبي، أصيل قرية أولمش (تـ. 321 هـ/ 93 م)[141] يشتـغل بالوراقة[142]، رغم كثرة تـآليفه المتداولة في المشرق والمغرب. وكان "إذا انصرف من المحراب وجد موضع سجوده مبلّلا بدموعه" [143].

ومن قضـاة إفريقـية الذين كانوا يتـردّدون باستـمرار على قصـر زياد نجد عـيسي بن مسكين الإفريقي (تـ. 295هـ/ 907 م)[144]. وكانت له قرية مازالت تحمل إسمه (سيدي عيـسي) في هذه النّاحـية. [145] ومن جلّه أصـحاب ابن مسكـين، أبو حفص عـمر بن المثني،[146] "مات وتركه صـغيرا فربّاه الشيخ الفاضل أبو الحـارث ليث بن صفوان" [147]

---

133) اللّبيدي، ص. 55؛ مقديش، II، ص. 251.
134) عياض (طالبي)، ص. 294؛ اللّبيدي، ص. 9-10؛ مخلوف، ص. 73؛ مقديش، II، ص. 251.
135) اللّبيدي، ص. 10؛ المالكي، I، ص. 493؛ مخلوف، ص. 73؛ مقديش، II، ص. 251.
136) أحمد بن أبي بكر بن زرارة بن مصعب بن عبد الرّحمان الزهدي، توفي بالمدينة سنة 242 هـ. ابن فرحون، *الدّيباج*، II، ص. 66.
137) كان جدّ يحي بن عمر الأندلسي عبدا لجدّه: المالكي، I، ص. 493؛ اللّبيدي، ص. 9-10؛ عياض (طالبي) ص. 232؛ مقديش، II، ص. 251؛ مخلوف، ص. 73.
138) اللّبيدي، ص. 55؛ مقديش، II، ص. 256.
139) عياض، III، ص. 183 وطالبي، ص. 232-236؛ اللّبيدي ص. 9-10؛ مقديش، II، ص. 251.
140) مقديش، II، ص. 262.
141) المالكي، II، ص. 204؛ اللّبيدي، ص. 46؛ عياض، V، ص. 147 وطالبي، ص. 420؛ مقديش، II، ص. 251.
142) المالكي، II، ص. 203 « قال أبو بكر بن مسّرة بن مسلم: قال لي حمدون: كتبت بيدي ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب ولعلّ الكتاب الذي أدخل به الجنّة لم أكتبه بعد»
143) المالكي، II، ص. 203؛ اللّبيدي، ص. 46.
144) المالكي، ؛ اليافعي، *مرآة الجنان*، II، ص. 244؛ أبو العرب، ص. 193-195؛ عياض (طالبي) ص. 292؛ مقديش، II، ص. 244، 246.
145) علي بعد 20 ميل شمال صفاقس: مقديش، II، ص. 246.
146) مدارك، IV، ص. 627؛ مقديش، II، ص. 262.
147) مقديش، II، ص. 262.

وكان أيضا من مرابطي قصر زياد. وكان ابن المثني من "العلماء بالقرآن، يجيد قراءة ورش وكان مقداما في الإعراب ومعرفة النّاسخ والمنسوخ والخاصّ والعّام والأحكام والتفسير والعربيّة والحساب والفرائض والفقه وكان منقطعا في العبادة، وكان أبو محمد الصدفي يقول : ما رأيت في إفريقية أعلم منه. لزم بعد وفاة مسرّة بن مسلم سكن قصر زياد يؤمّ فيه ويطلب النّاس عليه". [148] ورابط به من أصحابه مروان بن حبيب بن نصر أصيل شريانة ومحمّد بن تميم. [149]

وتتكوّن الفئة الثالثة من المرابطين من أصحاب أبي إسحاق الجبنياني الذي كان بدوره كثير الإعتكاف بهذا القصر. ومن أهمّ أصحابه الذين رابطوا ودفنوا بقصر زياد مسرّة بن مسلم. [150] وكانت لزوجته قرية قرب القصر[151]، وكان يقيم به أيضا اخوته الأربعة (أبو يوسف، محمد، احمد ويزيد) وكلّهم نسّاك وفقهاء. وكانوا - مثل الجبنياني - تلاميذ ابن عاصم الطّرسي، وهو من نسّاك القصر. [152] ومن أصحاب أبي اسحاق عيسي بن ثابت، وقال عنه اللّبييدي "بتّ ليلة عنده فسمعته قد طلع الى فراشه وهو يبكي وزوجته تعذله وتقول له : تبكي تصلّي، وتبكي تمشي، وتبكي في فراشك ايضا. فقال لها : ولما لا أبكي والله ما بكى أحد علي ذنوبي غيري أبدا ثم غلبته العبرة فترك النّوم وأحي ليلته. وكان مجاب الدّعوة. . . . واجتمع بالشيخ أبي محمد بن ابي زيد [القيرواني] وبأبي الحسن القابسي فتذاكرا وبكيا حتي سقط كلّ واحد منهما علي ظهره. وكان الشيخ عيسي كثير قيام اللّيل ولا ينام إلا قليلا، وربّما غلبته الخشية فسقط على الأرض على وجهه من قيامه للصلاة فبخدش وجهه". [153] ومن أصحابه أيضا إبن المزيدي الذي اعتكف فيما بعد بقصر اللّوزة[154]، وأبو الحسن علي بن محمد المعافري وينسب إليه تأليف في «فضل الرّباط». [155] ومن جلّة أصحاب أبي إسحاق أبو موسى المعلّم، "سكن بقصر زياد في آخر عمره وبه مات. وكان كتب أسماء اخوانه ليخصهم بالدّعاء عنده غدوة وعشيّة ثم يدعو لسائر المسلمين. وكان إذا سمع بإمرأة

148) *نفس المصدر*، II، ص. 262:
149) *نفس المصدر*، II، ص . 257.
150) اللّبيدي، ص : 29، مقديش، II، ص. 256؛ عياض (طالبي)، ص. 396، 399، 420، 517
151) اللّبيدي، ص. 29؛ مقديش، II، ص . 256
152) عياض، III، ص. 533؛ مقديش، II، ص. 248.
153) مقديش، II، ص. 259.
154) مخلوف، ص. 73، مقديش، II، ص. 259
155) عياض، IV، ص. 616.

فقيرة أرمل لا مال لها ولا جمال ولها أطفال فقراء تزوّجها ليربيّ أطفالها فإذا زوّجهم وقاموا بأنفسهم طلّق أمّه". [156] وعيشون بن يزيد البكّاء، و"كان كثيرالتّلاوة والخشية وإطعام الطّعام وإحياء اللّيل، مجاب الدّعوة... وكان يبكي حتي ذهبت أشفار عينيه وأتخذ الدّمع في خدّيه أخدودا. وكان كثيرا ما يسكن بقصر زياد فيسكن في بيت في جوف المسجد، فيغلق باب المسجد وباب البيت إرادة ألاّ يسمع قراءته أحد. وكان حزين القراءة إذا قرأ ترك أهل الأحزاب احزابهم وبكوا لبكائه حتّي تصير كأنّها مناحة..... وقال اللّبيدي دخلت علي الشيخ عيشون قبل موته بأيام يسيرة وهومريض وحبل معلّق من السقف عند رأسه فسألت إبنه ابراهيم عن الحبل فقال: يتعلّق به باللّيل ويصلّي. قالت زوجته ما نام معي على فراش قطّ، فإذا كان منه ما يكون من الرّجال مع نسائهم اغتسل وأحي ليلته." [157]

وكان يتردّد على قصر زياد كبار فقهاء العصر الزّيري مثل ابن أبي زيد القيرواني [158] وأبو الحسن القابسي. [159] ومن أشهر مرابطي القصر في العهد الحفصي المرابطة أمّ يحي مريم أصيلة قرية المنية [160] وصاحبة القطب أبي يوسف الدّهماني. ومن كراماتها ما ذكره مقديش: "قال: كنا ليلة عند المرابطة في البيت فضربت بيديها فبقينا ننظر فقالت: محمد البرزلي أتى من قصر زياد والأسد بالجابية أخشى أن يروّعه وإلاّ فما يرى منه بأسا ثم سكتت ساعة وقالت: قوموا افتحوا له الباب، فقمنا فوجدناه قرب الباب آتيا ونظرنا الأسد بالموضع الذي ذكرت لم يتحرّك". [161]

قصر - رباط جبنيانة

تقع بلدة جبنيانة علي بعد 37 كلم شمال - شرق صفاقس. وكانت تعتبر - رغم بعدها النسبي عن البحر - مركز مرابطة (قصر جبنيانة)[162] مرتبطا أرتباطا وثيقا بقصر زياد. [163] ويبدو أنّ هذا التجمّع العمراني كان بدوره يتكّون من مجموعة من الحصون لم يبق منها اليوم إلاّ منار مراقبة إسطواني مشيد بواسطة الحجارة المصقولة (لـ. 59)

156) اللّبيدي، ص. 53؛ مقديش، II، ص. 256.
157) اللّبيدي، ص. 40-42؛ مقديش، II، ص. 245، 260.
158) مقديش، II، ص. 259.
159) نفس المصدر، ص. 259.
160) في ضواحي جبنيانة وتسمّى حاليا السيدة، وربّما كانت هي أيضا مركز مرابطة.
161) مقديش، II، ص. 293.
162) المالكي، II، ص. 261.
163) بجبنيانة قبور محمد بن يزيد وابن عاصم وهما من نسّاك قصر زياد.

يعود إلى العصر الأغلبي. وكان يتّصل في ذلك العهد بمنار قصر زياد الذي وصف آثاره جيران سنة 1862 (الحصن الإسطواني)[164]. ومثلما هو الشأن بالنسبة لأغلب مدن وقرى هذه النّاحية، عرفت تراجعا كبيرا بعد الغزو الهلالي [165] إذا أنّ مصادر العصر الحفصي لم تشر إليها إلاّ بمناسبة الزّيارات التي كانت تؤدى آنذاك الى مقام الوليّ الصّالح أبي إسحاق الجبنياني (ت. 369 هـ)[166]. وترتبط بجبنيانة عدّة قصور أخرى مثل قصر النخيل[167]، قصر شنقل،[168] طرس أسباط (أوطرش)، قرية ابن عاصم معلّم الجبنياني، بليانة[169] وقصر لبيدة. ويبدو أن طرس أسباط كانت بدورها مركز مرابطة.[170]

ويرتبط تاريخ جبنيانة آرتباطا وثيقا بعائلة الجبنياني، إذ كانت في العصر الأغلبي - مثل حسّانة وعدّة قرى مجاورة لها - ملكا لعلي بن سلم البكري[171]، وهو ما يجرّنا الى التّساؤل حول وجود رباطات خاصّة. وكان علي بن سلم - جدّ أبي إسحاق -ابنا لسحنون من الرّضاع، فولاّه قضاء صفاقس وسائر السّاحل. فلمّا مات ولي ابنه احمد خراج إفريقية، "ثمّ صار وزيرا، وكانت له بصفاقس ما ينيف عن الاربعين دارا،[172] ولكن صادره - مثل بني نافذ - الفاطميون لمّا استولوا على عرش رقادّة سنة 909 م. وعكس آبائه اشتهر أبو اسحاق بالنسك والعبادة، فلزم سكنى الرّباط (بجبنيانة) إلى أن توفي، ودفن شرقيّ القرية حيث يوجد ضريحه الذي اعيد بناؤه في العصر الحفصي. وقد خصّ اللّبيدي أبا إسحاق بترجمة تعتبر من أقدم مصنّفات المناقب في إفريقية[173].

---

164) V.Guerin, op.cit, I, p.161

165) ورد في *"المسح الجغرافي لسواحل جنوب أيالة تونس"* (مخط. المكتبة الوطنية بتونس، رقم 261) الذي قام به تلاميذ المدرسة الحربية بباردو سنة 1857 أن جبنيانة تعدّ "جامع خطبة، 11 زاوية ومقام، 70 منزل و8 معاصر زيتون".

166) ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 342.

167) عبد الكافي، *نفس المرجع*، I، ص. 210.

168) شمال - غرب قصر النخيل، و«كان به مسجد للصلاة ومن شيوخه الحاج نصر بن ابراهيم حملة القادم من المغرب». عبد الكافي، *نفس المرجع*، I، ص. 240.

169) ورثت هذه القرية المحصّنة مدينة رومانية نجهل إسمها (V.Guerin, I,p.161) وتسّمى حاليا سيدي احمد بن نافذ الذي تتوسط قبّته القرية، وهو من مرابطي قصر زياد في العصر الأغلبي. ونجهل إن كانت مركز مرابطة، ولكنها كانت مرتبطة بقصور الجهة وتواصل دورها كمحطّة للمساحلة في العصر الحفصي، وهو ما يفسّر نزول ابن بطّوطة بها في القرن الرّابع عشر الميلادي. حول بليانة انظر: ابن عذاري، I، ص. 140، 141؛ المالكي، I، ص. 427؛ اللّبيدي، ص 55؛ مقديش، II، ص. 266؛ ابن بطّوطة، ص. 655؛ هـ. ر. إدريس، II، ص. 59.

170) مقديش، II، ص. 248 "طرس أسباط وينسب إليها ابن عاصم... وهو شيخ شهر بالعبادة والبكاء وإجابة الدّعاء." كما ينتسب إليها أيضا أبي عبد الله محمد بن مالك الطرشي الذي سمّاه عياض ضمن شيوخ اللّبيدي. انظر: اللّبيدي، ص. 56؛ المقدسي، ص. 56، 217.

171) عياض (طالبي)، ص. 320؛ التيجاني، ص. 49 ؛ مقديش، II، ص. 266

أخذ أبو إسحاق عن عيسي بن مسكين الإجازة، وكانت أكثر دراسته بالسّاحل على أبي عبد اللّه محمد بن سهلون الفقيه والزّاهد عبد الرحيم بن عبد ربّه[174]. وكان رغم ثرائه "يلبس الصّوف من موضع يعرف أهله فلمّا تغيّرت الأمور صار يلبس من خرق المزابل ويأكل البقل البرّي والجراد إذا وجده. . . وقال أبو حفص عمر بن المثني : كلّ من أدركت بهذا السّاحل من عالم أو عابد كان يستتر وينزوي بدينه من بني عبيد إلاّ أبا إسحاق فإنّه بائن. . ويقول الشيخ أبو محمد بن أبي زيد : طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في هذا الوقت، وكان يعظّمه كثيرا ويقول : لم لم يكن أمر أو يس القرني صحيحا فالجبنياني أويس هذه الأمّة. وكان أيضا يقول : لو فاخرنا بنو إسرائيل بعبّادهم لفاخرناهم بالجبنياني" .[175] وكان أبو إسحاق من أهل السنّة المتعصّبين "الذين مشوا في فتنة أبي يزيد" ، كما كان يرفض تعليم القراءة لأبناء الرّافضة.[176] لكنّهم كانوا "يخافونه. . . ويروى أنه صلّى على ابنة مروان بن نصر، فرفع الأمر إلى السلطان معد. فأرتحل شيخ من كتامة مع سبعة في زيّ النسّاك ليحبسوا اخوانه، فنزلوا في زيّ زوّار عند الشيخ عيشون بن زيد. فأختفى الشيخ الكتامي في المسجد خلف حصير كانت في مؤخره فلمّا جاء الشيخ أبو إسحاق أذّن للمغرب وأقام وصلّى فخرج الكتامي من وراء الحصير فقال للشيخ : يا منافق على مولاي ألا تؤذّن حيّ على خير العمل ولا تقرأ بآسم اللّه الرّحمان الرّحيم ولا تسلّم على الناحيتين ، ما لمولاي عدوّ مثلك. . . فدعا عليه الشيخ وقال : اللّهم اجعله آية للعالمين، فطارت عيناه" .[177] وكان قد رابط بجبنيانة قبل أبي إسحاق شيخه أبو عبد اللّه محمد بن سهلون الفقيه[178] الذي عدّه أبي الفضل الممسي ضمن كبار علماء افريقية.[179] وتنسب إليه قرية ابن سهلون (معتمدية عقارب)[180]. ويروى عنه أنّه "كان لا يخرج من بيته إلاّ وقت الصّلاة ولو ضرب عليه الباب من شاء وكان يرى أهله وولده في السّنة مرّة واحدة، ثم يخرج عنهم

---

172) التيجاني ، ص. 80. ولنا أن نتسائل هنا عن معنى "الدّار" هل هي منزل عادي او قرية

173) انظر أيضا المالكي، II، ص. 471، 258، 261 ؛ مقديش، II، ص. 248-251.

174) مقديش، II، ص. 248.

175) مقديش، II 253، 263

176) اللّبيدي، ص ؛ مقديش ، II، ص. 269.

177) اللّبيدي، ص. 36؛ مقديش، II، ص. 257.

178) المالكي، II، ص. 261. حول ابن سهلون انظر أيضا: اللّبيدي، ص 8، 31؛ البهلي النيال، *الحقيقة التاريخية* ، ص. 173-179 .

179) المالكي، II، ص. 261.

180) تنسب إليه أيضا قرية سيدي سهلون (سهلول) الواقعة قرب سوسة.

لسياحته". [181] وروى أبو إسحاق السبائي قال "جئت مرّة مع ابن سهلون من السّاحل الي القيروان ليشتري لإبنته ما يجهزّها للدّخول على زوجها. فأشترى لها ما تحتاج إليه من ذلك ثمّ خرج وخرجت معه، فبينما نحن على الطريق التفتّ إليه فرأيته يشهق ويبكي، فقلت له : مابالك، فقال : تفكّرت في بعد عهدي بالمصائب فخفت أن يكون ذلك استدراجا من اللّه عزّ وجلّ. قال أحمد : فما مشينا إلاّ يسيرا حتّى طلعت سحابة عظيمة فأمطرت مطرا وابلا وأفسدت جميع ما إشترى لإبنته من جهازها، فأقبل وهو يبتسم ويضحك، وزال عن قلبه ما كان فيه من الشغل". [182]

قصر لبيدة

تقع لبيدة شمال صفاقس وكانت على غرار جبنيانة المرتبطة بها رباطا داخليّا، تحوّل بدوره إلى مركز تصوّف في العصر الحفصي. [183] وقد رابط بها في العصر الفاطمي محمد بن يزيد (من أصحاب الجبنياني) صاحب القبّة الظاهرة بها الآن[184]. ويذكر مقديش أنه حضر جنازته "قوم برؤيا رآها رجل صالح نام بعد صلاة الفجر يوم موته. قال : رأيت سليم بن عزوز، وكان رجلا استشهد بقتله ظلما وكأنّه راكب فرس، فقلت له اين تريد ؟ قال لي : نحن جماعة الشهداء مع عمر بن عبد العزيز أذن لنا في حضور جنازة الرّجل الصّالح محمد بن يزيد". [185] وينتسب إلى لبيدة أيضا الفقيه والنّاسك أبي القاسم عبد الرحمان الحضرمي اللّبيدي (ت. 440 هـ) مؤلّف مناقب أبي إسحاق الجبنياني. [186]

قصر برشانة

توجد أطلال برشانة قرب لبيدة. وتذكر بعض حجج العهد العثماني قصر برشانة وشريفات برشانة، ممّا يؤكدّ مرّة أخرى الدّور الدّيني الذي اضطلعت به الرّباطات. [187]

---

181) المالكي، II، ص. 262.
182) نفس المصدر، II، ص. 263.
183) التيجاني، ص. 83؛ مقديش، II، ص. 156، 261، 271؛ اللّبيدي، ص. 27-45
184) مقديش؛ II، ص. 261؛ عبد الكافي، *نفس المرجع*، I، ص. 205
185) مقديش، II، ص. 261.
186) مقديش، II، ص. 271 « وله تأليف مسمّى بالشرح والتفصيل لمسائل المدوّنة (اختصار المدوّنة). سمع عن الشيخ أبو الحسن القابسي وأبي محمد بن أبي زيد، وسمع منه أبو عبد اللّه محمد بن سعدون وغيره من القرويّين والأندلسيين، ووجّهه أبوالحسن القابسي لتفيقه أهل المهديّة، وأمتدّ عمره بعد أقرانه فحاز رئاسة العلم بالقيروان. وكان فاضلا فقيها ذكيّا له اعتقاد في الصّالحين يزورهم في السّاحل ويبحث عن مناقبهم وأحوالهم".

ووصفها التيجاني (في العصر الحفصي) بأنّها "قرية صغيرة ذات قصور متفرّقة". [188] ويذكّرنا هذا البرنامج العمراني بتخطيط رباطات المنستير وقصر زياد وغردمار Gardamar del Segura بالأندلس. ويبدو أنّ التّسمية ذاتها قديمة ولها محتوي عسكري- ديني، إذ يوجد أيضا بالأندلس حصن (قرية) برشانة (اقليم بجّانة). [189]

قصـــر الـــرّقـــة (برز ليس)

تقع أطلال الرّقة (سيدي حامد) على بعد 50 كلم شمال- شرق صفاقس. وكانت تدعي في العصر الأغلبي برزليس لأنّها وريثة مدينة Bararus الرّومانيّة. [190] وكانت بدورها رباطا متّصلا بقصر زياد وجبنيانة وبرشانة. ومثل أغلب قرى الرّباط، كانت "منزلة" [191] للبريد الرّسمي والمسافرين والتجّار ترتبط بها سوقا نشيطة تعرف بسوق الحسيني. [192] وكانت توجد في هذه المنطقة الدّاخلية عدّة قرى محصّنة مثل بنطاي، منزل مروان العابد وقصرالريّح الذي كان محطة للبريد والمسافرين. [193] ويبدو أنّ حصن برزليس قد انقرض في العهد الحفصي، ولم يبق قائما به إلاّ قصرا سمّاه التيجاني أمّ الأصابع. وذكر بأنّه "شيّد في سالف الزّمن بنيانه وأحكم تأسيسه وإتقانه وجعلت أبراجا مستديرة أركانه، إلاّ أن طول الزّمن المتباعد قوّض أحد تلك الأركان من القواعد فتداركه أربابها الأن ببناء لا مناسبة بينه وبين ماكان. وبتلك الأبراج المستديرة قبّة تسمي أمّ الأصابع لأنّها بقيت لإرتفاعها عمّا اتّصل بها من البنيان كأنّها أصابع قائمة" [194] وتعتبر الابراج المستديرة من ميزات العهد الأغلبي، ممّا يدفعنا الى تأريخ المعلم من هذه الفترة رغم وجود هذه التّقنية في العمائر الرّومانيّة.

قصـــر بطـــريـــــة

تعتبر بطرية (Acholla) من أهمّ مدن بوزاقية في العصر الرّوماني. [195] وتحوّلت في بداية العصور الإسلامية إلى قرية محصّنة (قصر) اندثرت بدورها في العهد الحفصي.

188) التيجاني، ص. 67.
189) الإدريسي، ص. 106؛ مقديش، I، ص. 162.
190) البكري، ص. حول حفريات Bararus انظر: R. Guery et H. Slim, Recherches archéologiques à Rougga, Paris 1980.
191) التيجاني، ص. 66.
192) البكري، ص. 20-21؛ هـ.ر. إدريس، نفس المرجع، II، ص. 59.
193) المالكي، II، ص. 262؛ البكري، ص. 20-21؛ هـ.ر. إدريس، نفس المرجع، II، ص. 686.
194) التيجاني، ص. 66.
195) حول Acholla انظر: S. Gozlan, La maison de Neptune à Acholla, Paris 1990.

وكانت قبل ذلك مركز مرابطة وهو حسب البكري " أشرف رباطات صفاقس، وفيه منار مفرط الإرتفاع يرقي إليه في مائة وستون درجة " . و يبدو أن هذا البرج الذي كان يستعمل في إرسال الإشارات الضوئية سابق لفتح إفريقية.[196] وتتّصل ببطرية ينونش (ملّولش الحالية) التي أصبحت عاصمة لرصفه في العهد الفاطمي،[197] وهي نفسها قصر مليان الذي جعله الادريسي على بعد أربعة اميال جنوب قبّودية.[198] ويؤكّد طابعها المحصّن أطلال القلعة البيزنطيّة التي مازالت قائمة قرب البحر،[199] أمّا قصر قناطة[200] فيبدو أنّها تسمية جديدة أصبحت تطلق على بطرية في العصر الزّيري.

قصر - رباط اللّوزة

خلافا لأغلب قصور المنطقة حافظت اللّوزة علي مكانتها العسكريّة في العهدين الحفصي والعثماني نظرا لجودة مرساها.[201] وكانت منذ العصر الوسيط الأوّل مركزا للرّباط يحميه سور وقصبة،[202] ولكن لم يبق من هذه الإستحكامات عند زيارة جيران لها (1862) إلاّ برج مراقبة.[203] ورابط بقصر اللّوزة أبو زكرياء يحي بن المزيدي، صاحب أبي إسحاق الجبنياني.[204] وكان قبل اعتكافه بها "كتب في جملة البحريّن فرفع إلي المهديّة فوجّه الى الشيخ أبي إسحاق وعرّفه أنّ الوقت وقت إستعانة فدعا له، ففكّ أسره من دار الصّناعة. فقال له الجبنياني : قد أجيبت دعوتک ولكن اعرف كيف

---

196) البكري، ص. 20 ، انظر أيضا : ياقوت، V، ص 87 ؛ الحميري، ص. 366؛ هـ.ر. إدريس، II، ص. 59 686؛ Ch. Tissot, Geographie, II, p. 181 R. Cagnat, "Botria", in B.A.C, XL,VI, 1928-1929, p. 86-88

197) المالكي، II، ص. 257؛ ابن رشيق، *الانموذج*، ص. 123، 139 ؛ 351؛ المقدسي، ص. 20-21 ؛ مقديش، II ، 553.

198) الإدريسي، ص. 126.

199) N.Djelloul, Fortifications, I, p.308 ورد في مسح 1857 أن بها "مسجد خارب ومقام لسيدي مبارك البهلول ومقام لسيدي احمد الملّونشي، وتسعة ديار ومعصرتان".

200) الإدريسي ، ص. 126.

201) حول اللّوزة انظر : S.R.A.F, "Le Village de Louza" Service Historique de l'armée de terre française, S.H.A.T, cart. MR 1323, D.31.

وفي مسح 1857 "بها جامع خطبة وحوطة لسدي احمد الشريف وسيدي الخافي وسيدي التركي و سيدي خليفة وسيدي عثمان وسيدي سعد، وعشرة منازل ومعصرة."

202) الإدريسي، ص. 126؛ البكري، ص 20-21؛ حـ. حسني عبد الوهاب ، خلاصة، ص. 77؛ ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 342؛ L. Lanfreducci et G. Bosio, Costa ediscorsi, p. 508; H.R. Idris, op.cit, II, p. 686; N. Djelloul Fortifications, I, p. 307

203) V.Guerin, op.cit, I, p. 145

تستقبل نعمة ربّك، فأعتزل أبو زكرياء ولزم العبادة بمرسي اللّوزة. وكان يسرد الصّوم ويصيد بيده من البحر لقوته ويتصدّق منه".[205] وممّا يذكر عنه "أنّ سلاّبة نزلوا عليه بمرسى اللّوزة بشماع ففتحوا الباب، ثم قسموا بيوت المرابطين فأنتهبوا ما كان فيها حتّى أتوا الى بيت أبي زكرياء فوجدوه قائما في صلاته، فقطعوا صلاته وقالوا له: هات ما عندك من الودائع وإلاّ عذّبناك. فقال: اتقوا اللّه ولا يغرّنكم حلمه فيكم ولا تتّبعوا الشيطان، فقال بعضهم لبعض: هذا لا يجيئكم منه شيء إلاّ بالعذاب، قال: فجاءوا اليّ بخيط قنب ورفعوا مئزري ليلقوه في أنثاي.[206] فلما رأيت البلاء قد نزل رفعت عينيّ إلى السّماء وأنا أبكي وأتضرّع فقلت: إلاهي ما هذا ظنّي بك، اعبدك ولا أشرك بك احدا تسعين سنة فتهتك ستري وتفضحني في آخر عمري، لا وعزّك ما هذا ظنّي بك. قال: فسقط الخيط من أيديهم وولّوا هاربين ما أخذوا من البيت شيئا. فقلت: اللّهم لا تبق على الأرض منهم أحدا، فما أتي عليهم ثلاثون يوما حتى قتلوا كلّهم."[207]

قصر - رباط شريانة

توجد شريانة شمال شرق صفاقس، وكانت هذه القرية - الرّباط تتّصل إتّصالا وثيقا بسوق بدرنة (أو البدرانة).[208] وقد رابط بها في العصر الفاطمي جماعة من اصحاب الجبنياني، مثل الناسك مروان بن نصر بن حبيب (سيدي مروان) وعيشون بن يزيد ومحمد بن يزيد.[209] ورابط بها في العصر الحفصي مخلوف الشرياني المغربي، صاحب الشيخ عيّاش الطّبلبي "قبل أن يستقرّ بأنشلة"[210]. ويذكر مقديش أنه من "أكابر العلماء الصّالحين العاملين، له تخميس عظيم على بردة المديح."[211] ولمخلوف الشّرياني أيضا مقام بخريبة خالد (العامرة حاليا)، وهي جزء من منطقة شريانة في العصر الوسيط[212].

---

205) مقديش، II، ص. 263 .

206) انظر، تاج العروس، I ، ص. 600.

207) مقديش، II ، ص. 264.

208) اللّبيدي، ص. 36 ؛ مقديش، II، ص. 70-25 ؛ هـ.ر. إدريس، II، ص. 454.

209) اللّبيدي ، ص. 36؛ مقديش، II، ص. 257.

210) مقديش، II، ص. 343؛ عبد الكافي، نفس المرجع، I، ص. 205

211) مقديش، II، ص. 343.

212) جاء في مسح 1857 "بها جامع خطبة ومقام لسيدي أحمد الحزيبي ومعصرتان و 23 منزلا".

قصـــر - ربـــــاط أنشـــلة (سيدي مخلوف)

تقع قرية انشلة (Usilla) الرّومانـية) على بعـد 20 كلم شمـال صفاقس. وكـانت منذ القديم تـتوسّط شبكة هامّـة من الطّرقات تصـلها بأهم مدن المـنطقة،[213] وهو ما جـعلها تصبح مركزا للرّباط (مِحصّنا بسور خاص) منذ العصر الوسيط الأوّل.[214] ويذكر مقديش أنّه «كـان بمرسـي انشلة شيخ يـختلف الي المـنستـيـر في كلّ عام، فـإذا رجع مـرّ بأبي إسـحاق الجـبنيـاني فـيقـول له : أخـوك أبو الحـسين الكـانشي [المرابط بـقصـر دويد بالمنستير][215] يقرئك السّلام فـيقول له أبو إسحاق : أنت في ثغر فـأولى بك سدّ ثغرك فلا تدعه وتمشي إلى المنسـتير. قال : فأتاه مرّة فقـال له مثل ذلك، فقال له الرّجل : قد عـرف بما قلت لي أبا الحـسين، فقـال : قل لأبي إسحاق: أتنـهاني عن ذلك وأنت تعرف أنّ المنستير باب من أبواب الجنّة؟ فقال أبو إسـحاق : قل له يا أبا الحسن قد جاء في الخبـر أنّ ما بين مصراعي الجنّة كـما بين المشرق والـمغرب،[216] فنحن إن شاء اللّه تعالي بين مصـراعي الباب، ليس المنستير وحدها مـخصوصة بذلك".[217] وقد حافظت أنشلة على دورها الدّينـي في العصـر الحـفصي، خـاصّـة بعد أن انتـقل إليـها مـخلوف الشّرياني الذي أصبـحت تحمل إسمه.[218] ويبدو أنّ زاوية هذا الوليّ تحتلّ مكان مرقب أغلبي ولكن لا يوجد أي أثر للأبراج التي ذكرها جيران سنة 1862[219].

قصـــر قـزل (سيـــدي منصــــور)

توجـد قرية سيـدي منصـور على بعد 11 كلم شـمال صـفاقس. وقـد عثر بـهذا الموقع على مجـموعة من المنشآت المسـيحيّة، خاصّـة آثار بازيليكا مزوّدة بحوض

---

213) P. Salama, op.cit, p. 41

214) الإدريسي، ص. 126؛ هـ.ر. إدريس، II، ص . N.Djelloul, Fortifications, I,p.

215) المالكي، I، 451، 455 ؛ II، ص. 225، 434-435، 461

216) جاء في الحـديث "إنّ ما بين مصراعـين في الجنّة مسيـرة أربعين سنة : ذكره السـيوطي في الجـامع الصـغير : انظر : المناوي، *فيض القدير*، II ، ص. 519

217) مقديش، II، ص. 257

218) مقديش ،II ، ص. 343؛ ر.برنشفيك، *نفس المرجع*، ص. 342.

219) R. Cagnat, "Botria", p.88; V. Guerin, op.cit, I,p. 153. في حـين حـافـظت الزّاوية على أعـمـدتهـا المجلوبة من عمائر رومانية. وجاء في مسح 1857، ص. 72 « قبلة الخريبة جامع يسمّى جامع انشلة كان في الزّمان القديم جـامع خطبة. وإلى الآن مـازال بأركانه الأربعة، وله تـسمع عشـر سارية من الرخام. والسّـواري التي بالركن الشرقي والقبلي والجـوفي، كلّ يوم جمعة ترشح بالماء. وبإزائه سيـدي مخلوف ومقام لسيدي عـبد اللّه ، والفاصل خربة قلوس.»

تعميد.[220] وجاء في نزهة الأنظار أن قصر قزل الذي ذكره الإدريسي.[221] "هو المسمّى بقصر عمّار إسم رجل كان يحرسه واليوم صار مشهورا بسيدي منصور الغلام لأن ضريحه تحت القصر المذكور"[222]. وخلافا لما ذهب إليه مؤرخ صفاقس يتّضح من كلام الإدريسي أن هذا القصر - الرّباط كان بدوره قرية محصّنة ، تماما مثل قصور مقدمان (مجدونس) ومحارس أبي الغصن والرّيحانة التي كانت توجد في هذه المنطقة.[223] وإثر انقراض القرية قام الحفصيّون بترميم أحد الأبراج القديمة وحوّلوه الى قلعة صغيرة (برج كرك أو برج سيدي منصور). وتسّمى هذه القلعة أيضا الناظور لأنها كانت في العصر العثماني "كالمنارة يعسّ بها على البحر كمنارة سيدي عبد اللّه بالشّابة".[224] ويعود احداث البرج الأوّلى إلى الفترة الفاطميّة - الزّيريّة، وهو معلم يبلغ محيطه 90، 26 م (في حين لا يتعدّى ارتفاعه الحالي 7 م) مشيّد بواسطة الغشيم الذي تغطيه الحجارة المصقولة (لـ. 59) . وبجواره توجد زاوية سيدي منصور الغلام التي تحتلّ مكان حصن رابط به هذا الناسك في العصر الحفصي.[225]

الشريط الساحلي من صفاقس إلى مقدماس

رغم تكاثر السّباخ بهذه المنطقة فإنّها كانت في العصر الوسيط الأوّل تمتاز بأزدهار فلاحتها وتعدّد القرى المحصّنة (قصور)، التي كانت بدورها محميّة بواسطة مجموعة من المحارس المنعزلة والمراصد. وذكر الإدريسي أنه كان يوجد (من الشمال الي الجنوب) : قصر صفاقس، "ومنه الى طرف الرّملة أربعة أميال، الى قصر بلقة عشرة أميال ، الى قصر تنيدة ثمانية أميال، إلى قصر الرّوم أربعون ميلا، الى قابس خمسة وسبعون ميلا".[226] وذكر

---

220) انظر : Massigli, in Melanges de l'Ecole française de Rome, 1912, p. 3

221) الإدريسي، ص. 126

222) مقديش، II ، ص . 138

223) الإدريسي، ص. 126؛ البكري، ص. 20

224) مقديش، II، ص. 333؛ انظر أيضا : V.Guerin, op.cit : I,p.146

225) مقديش، II، ص. 333، 1+3، 3+7 "الوليّ سيدي منصور الغلام ذو الكرامات المشهورة والفضائل المأثورة" . وفي ترجمة على الكرّاي (معاصر لأحمد بن عروس : ق 15م)، ص. 333 "أراد الشيخ الزّواج وجمع مقدار صداقه، فلمّا مرّ بضريح سيدي منصور ببرج قزل سمع صوتا خلفه يناديه فألتفت فرأي شخصا يسوق شياها فإذا به الشيخ منصور الغلام"

226) الإدريسي، ص. 127، مقديش، II، ص. 138 "ومن صفاقس إلى حدّ الرّملة أربعة أميال، ومن طرف الرّملة راجعا من جهة الجنوب وهو أوّل الجون الى قصر المجوس (وهو الكبلة) أربعة أميال، ومنها الى قصر ينقة الى قصر تليدة ثمانية أميال ومنه الى قصور الرّوم أربعة أميال، ومن قصور الرّوم الى قابس أربعة وسبعون ميلا"

البكري : "من قابس الى عين الزيتونة، وهي عين جارية علـي بحر ميّت، عليها مرصد لجابي إفريقيّة، ومن عين الزّيتونة الى تاورقي وهو منزل عامر في طرف ساحل الزّيتون. ومن هناك الى غـافق وهو بلد معمـور، ومنه الى صفـاقس". وأضاف الى هذه القـائمة طينة ومـقـدمـاس وقـصـر الرّيح.[227] ومن قـرى صـفـاقس أيضـا: النّاصـريّة، قـرقـور وفريانة[228]. أمّا التيجاني (ت. 14م) فإنه لم يشـر إلاّ الى قصور طينة، نقطة، المحرس ومحطّة المباركة.[229]

قصـــر - ربـــاط نقطـــة

تقع قـرية نقطة علـي بعد 10 كـلم جنوب صـفـاقـس. ويدلّ الأطلس الأثري أن هذا الموقع (تماما مثل قرقور المجاورة)[230] كان معمورا منذ العصر الرّوماني.[231] كما تؤكد كثافة الأضرحة[232] الدّور الدّيني الهام الذي لعبه الرّباط الذي بعث خـلال العصر الوسيط الأوّل. وذكر التـيجاني أنّ "نقطة قصـر عامر، ويقال أنّ جـماعة من أصحـاب الصّوفي مـعروف بن فـيروز الـكرخي (تـ. ببغـداد سنة 200 هـ) رابطوا فـيه ومـاتوا فـقبـورهم هنالك"[233]. كما أشـار العبدري (ق. 13م) إلى وجود "أناس صالحـون يعوفون بأولاد رقيق"،[234] ومنهـم النّاسك محمد الرّقيق أبو عكّازين،[235] دفين المسعودة.[236]

وتوجد في نفس المنطقـة أطلال مدينة طينه Thinae السّاحليـة (علي بعد 11 كـلم من صفـاقس). وهي مدينة قـديمة بقيت إلى الـيوم أسس سورها المـمتدّ علـى طول ألفين

---

227) البكرى، ص.

228) هـ.ر. إدريس، نفس المرجع، ص. ؛ N. Djelloul, Fortifications, I, p.

229) التيجاني، ص. 84

230) اخلت قـرقور مـن سكّانها في الـقرن الخـامس عـشر المـيـلادي لفائدة مـدينة صـفـاقس (مقـديش، II، ص. 142-144؛ برنشفيك، نفس المرجع، I، ص. 342.

231) A.A.T, feuille Nakta

232) ورد في مسح 1857 (ص. 68.) "بها جامع خطبة يسميّ جامع سيدي يعقـوب، وبها سبعة مقامات (سيدي فرج، سيدي عبد اللّه غريب....) وزاوية لسيدي محمد بوعكازين وتسعة ديار"

233) التيجاني، ص. 84.

234) العبدري، رحلة، ص. 207؛ برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 393.

235) من رجال القـرن السابع للهجرة (14م). مـقديش، II، ص. 344 "أخذ الطريقة عن أبـي يحي القرقوري، وكان خطيبا، فلّما جاء العيد سأله أهل المحرس أن يخطب لهم و يصلّي بهم العيد فأبي أهل قريته"

236) تقع شمـال نقطة. وعلي بعد عشـرين كيلومتـر من الناحية الغـربية من صفسـاقس انبعث في القرن الرّابع عـشر الميلادي مـركز صوفي آخر تحت رعاية أبي إسحـاق ابراهيم بن فضل بن سباع الذّوادي (من أولاد صولة) المـشهور بصيد عقارب. ر.برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 343.

وخمسمائة متر. ويتميّز بأبراج نصف دائرية موزّعة على مسافات متساوية.[237] وعرّف التيجاني طينة "بأنها قصر عامر"[238] ولكن لا يبدو أنها كانت مركزا للمرابطة.

رباط المحرس

تقع بلدة المحرس على بعد 35 كلم جنوب - غرب صفاقس (طريق قابس). ونشكّ كثيرا في رواية مقديش الذي ذكر أنّ المحرس هي ذاتها محرس علي الذي أحدثه علي بن سلم البكري في العهد الأغلبي[239]. وخلافا لهذا الحصن الذي أصبح يعرف فيما بعد بالمحرس الجديد،[240] يبدو أنّ المحرس الحاليّة كانت في آوّل أمرها مجرّد قلعة معدّة لإيواء مجموعة صغيرة من المرابطين، قبل أن تتحوّل الي قرية- رباط محصّنة[241]. وقد وصف التيجاني (في العصرالحفصي) المحرس بأنها "قصر قديم البناء سام للسّماء ينسب بناؤه الى ابن الأغلب. وإلى هذا الحصن يلجأ جملة أهل تلك القصور إذا وصل إليهم عدوّ واضطرّوا إلى قتال، ويقال ان الميّورقي [ابن غانية] اجتاز عليه وأراد محاصرته ففتح أهله باب الحصن ووقفوا دونه يقاتلون فعلم أنّه لا مطمع له فيه فتجاوزه الي غيره ولم يعرض له. وأهله قوم من هوّارة كانوا ساكنين قبل هذا بالقصور المعروفة بقصور بني خيار فأجلتهم العرب منها فأنتقلوا إلى هذا الحصن، وكان مسجدا خاليا للعبادة والرّباط فإبتنوا ديارا إلى جانبه وجعلوا علي الجميع سدّا. وقد اجتزت علي القصور المذكورة المعروفة ببني خيار فرأيتها خالية خربة وهي في جبال مسلاته من شرقي طرابلس".[242]

ويؤكد الإدريسي ما ذهب إليه التيجاني،[243] ممّا يجعلنا نؤرخ لإحداث القرية المحصّنة بسور من الطوب (سدّ) بداية من القرن السادس للهجرة (12 م). وكانت طيلة

---

237) حول سور طينة انظر : N. Djelloul, op.cit, I, p. 310

238) التيجاني، ص. 84 ؛ ر.برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 343،

239) مقديش، II، ص. 346؛ عبد الكافي؛ *نفس المرجع*، I، ص. 210؛ هـ.ر.إدريس، II، ص.

240) اللّبيدي، مناقب، ص؛ عياض (طالبي)، ص. 320؛ هـ.ر. إدريس، II، ص. 62

241) ورد في مسح 1857 (ص.70) "بها جامع خطبة ومسجد و 13 مقام وزاوية (سيدي البساكري، سيدي مغيث، سيدي محمد الحشاني، سيدي سهلول) و60 دارا."

242) التيجاني، ص. 85

243) الإدريسي، ص. 127 انظر أيضا : العبدري، ص. 126؛ البكري، ص. 20؛ عبد الكافي، نفس المرجع، I، ص. 210؛ هـ.ر. إدريس، II، ص . 456؛ ر.بر نشفيك، نفس المرجع ، I، ص. 342؛ N.Djelloul, Fortifications, I,p.

العصر الحفصي من أهمّ القـواعد العسكرية الموجودة جنوب صفاقس، فمـارمول كرافجال (ق 16 م) يذكـر بأنهـا "مدينة حـصـينة وحـارسة صـفـاقس"[244] كـما أثني دوفـال P.Duval (1646م) علي "جودة سورها ومناعة قصبتها".[245] أمّا الحسن الوزان فقد كتب بأن "قصر المحرس قصر بـناه الأفارقة في عهدنا هذا عند مدخل خليج قابس وكأنه شـيّد لحراسة هذا الخليج من هجمات سفن العدو. يقع على نحو خمسين ميلا من جزيرة جربة ويحميها من هجمات سفن العدّو. وينـسج سكّانه بعض الأقمشة الصّوفية وكثيـر منهم بحارة وصيّادون، يتّـجرون مع جزيـرة جربة ويتكلّـمـون جـمـيـعـا بنفس اللّهجـة الإفريقـيـة التي يتكلّم بهـا أهل جـربة. وحيـث أنهم لا يملكون أيّة أرض زراعـيّة ولا أيّـة ممـتلكات فـلاحـيّة فـإن من لا يشتغلون منهم بالنسيج لا يقتاتون جميعا إلاّ من العمل في البحر".[246] وكانت المحرس في العصر الحفصي سوقـا ومرسي للقرى المجاورة[247]، ويعدّ ذلك تواصلا للوظيفة التي كانت تؤدّيهـا في العـهد الأغلبـي. كمـا تحـولّت - مثل أغـلـب الرّباطات - إلى مـركز صـوفيّ، وينـسب إليـهـا الشيـخ منصور بن عـبـد اللّه القـرقوري (من رجـال القـرن 11 هـ / 17 م) و"الوليّ" أبي الغور سعيد حريز (تـ. 1199 هـ/ 1785)[248]. وتوجد قرب المحرس جزر الكنائس (بصـيلة) المعروفـة في العهـد الحفصي لدي الأوروبيين بأسم جزر فـريسول.[249] وتدلّ الخـارطة الأثريـة (ورقـة المـحـرس) علي كـثـافـة الأثار الرّومـانيـة بـهـذه المنطقـة الإستراتيجيـة، ممّا دفع المسلمون الأوائل إلى إقامة قصر بـطرفها (قرب وادي المالطبّن): قـصـر تليـدة (أوتنيدة)، وذلـك لتدعـيم رباط المـحـرس.[250] ومن أثاره النّاظور الإسطوني الأغلبي الموجود على بعد 7 كلم جنوب السخيرة[251].

ويعتبر جورج مرسيه أنّ السـور الخارجي لجامع المحرس الحالي هو ذاته سور الرّباط الأغلبي، نظرا لوجود المدخل البـارز والأبراج الدّفاعة.[252] وإذا كان محقّا في تأريخ هذا السور من القـرن التاسع الميـلادي، فإنّنا نشكّ كثيـرا في نسبتـه الي المعلم الأوليّ. وإلى

244) Marmol, Description, II, p. 536

245) P.Duval, carte, p.53

246) الوزّان، II، ص. 92.

247) العبدري، ص. 126؛ مقديش، II، ص. 313؛ برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 343

248) مقديش، II، ص. 346-454

249) ر. برنشفيك، نفس المرجع، I، ص. 343

250) مقديش، II، ص. 138

211) البرج الأحمر. انظر (N. Djelloul, Fortifications, I, p.313)

252) G.Marçais, Architecture, p.32, S.M.Zbiss, C.R.AI., 1954, p. 145; A.Lezine, Architecture, p.102

هذه الفترة يعود أيضا احداث الماجلان. ويوجد الأوّل داخل المسجد، وهو يتألّف من "بلاطتان" طوليّتان مسقوفه بأقبية نصف دائرية، متّصلة بواسطة خمس فتحات. ويوجد الماجل الثاني علي بعد 200م، ويتركب أيضا من مجموعة من الخزّانات الصغيرة. وتحمل أقبيته المتقاطعة مجموعة من الدّعامات الصليبية الشكل، وهي هندسة تستمدّ أصولها من خزّان الرّملة بفلسطين الذي يعود احداثه الي سنة 789م.[253]

قصـــر - ربـــاط يـــونقـة

توجد آثار مدينة يونقة (أو المسعودة كما يسمّيها مقديش) على ساحل البحر، علي بعد 10 كلم جنوب المحرس.[254] وتتوسّط هذه الخرائب عدّة معالم إسلاميّة مثل القلعة (البرج) وبعض فسقيات العصر الوسيط الأوّل التي تشبه هندستها هندسة مواجل القيروان وصفاقس والمحرس.[255] وتؤكّد آثار "مصنع" المصبّرات الدّور البحري والتجاري الذي لعبته في العصر الرّوماني.[256] علي أنّه خلافا لما ذهب إليه جورج مرسيه G.Marçais ولويس بوانسو، L.Poinssot فإن يونقة لا توافق موقع مقدماس الصغري Macomades Minus[257]، وإنّما تعتبر ورثة مدينة يونشي سوفيانا Iunci Sofiana الرّومانية (ومنها يونقة العربيّة)، وهو ما تبرزه نقيشة بيزنطية (تمّ العثور عليها في سيدي غريب، 12 كلم غرب يونقة) تؤرخ بناء سور المدينة أيّام الإمبراطور يوستنيان Justinien (ق. 6 م).[258] وتؤكّد رحلة الإدريسي، وكتب الطبقات، أنّ هذه المدينة المحصّنة بسور (قصر - حصن يونقة) لم تنقرض إلاّ في بداية العصر الحفصي.[259] كما أنّ وجود الميناء يؤكّد تواصل النّشاط التّجاري والصيد البحري. وهي ذاتها رباط يونقة أو حصن يونقة الذي يعود بعثه الي النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (8م)، ممّا يجعل منه أقدم حصون إفريقية،[260] إذ رابط به أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي

(253 K.A.C.Creswell,Early muslim architecture, II, p. 161-164, G. Marçais, Architecture, p.39.

(254 حول آثار يونقة انظر خاصّة: L. Barry, "Notes sur les ruines de Yonga," in B.A.C, III, 1885, p. 320-325; L. Poinssot, "Macomades", in M.S.A.F., 1945, p. 133; G. Marçais, Architecture, p. 34;N. Djelloul, Fortifications, I, p. 311-313

(255 L. Barry, op.cit, p; 323 .

(256 P.Trousset, " La pêche au Maghreb dans l'Antiquité", in La pêche cotière en Tunisie ; Cahiers du C.E.R.E.S, Tunis 1995, p.33.

(257 L.Poinssot, op.cit, p.133; G.Marçais, Architecture, p.34.

(258 D. Pringle, Défences, I, p. 202-203

(259 الإدريسي، ص. 127؛ المالكي، I، ص. 243؛ عياض (طالبي) ص. 80.

(260 F. Mahfoudh, op.cit, I, p. 163,187

(124-210 هـ/742-825م) . ويذكر عياض أنّ هذا النساك تولّي بنفسه بناء المسجد الجامع (حوالي 161 هـ/777م)، وكان "فيه نحو عشرين سارية عظاما، فقالوا له : من يرفع هذه السّواري؟ قال : الذي خلقها، فأصبحت السّواري مرفوعة ورؤوسها عليها" .[261] كان أبي خارجة يقيم في منزل خاصّ يوجد خارج الأسوار،[262] ممّا يؤكد مرّة أخرى أن الرّباطات لم تكن كلّها قلاعا صغيرة.

وإثر انقراض المدينة اكتفى الحكام الحفصيون، ثم الأتراك من بعدهم، بصيانة البرج (قصبة الرّباط ؟). وقد استعمل خاصّة لإيواء حامية عهد إليها بحماية ميناء صغير (صقالة) يعود احداثه الى العهد القديم.[263] ويشكّل البرج (المرقب) بناية غير متناسقة الأضلاع (40م×5،37م) تدعّم جدرانها وأركانها مجموعة من الأبراج الدّفاعية. وتوجد البوّابة الرّئيسية (الواجهة الشّمالية) ضمن برج طولي بارز (7م×75،4 م)، وتؤدي، بواسطة مدخل متعرّج، الى باحة سماويّة يتوسّطها ماجل. كما يتخلّل الواجهة الجنوبيّة باب غدر (باب سرّي : Poterne) تحميه سقّاطة. وذكر برّي Barry أنّ آثار طابق علوي كانت بارزة للعيان سنة 1885 .[264] ويبلغ ارتفاع الجدران عشرة امتار، في حين يتراوح سمكها بين متران وثلاثة أمتار، وقد شيّدت في أغلب أجزاءها بواسطة الحجارة المنقوشة، عدا بعض التّرميمات المتأخّرة (الفترة الحفصيّة) التي وقع اللّجوء فيها الى اللّبن (الطوب). ونلاحظ في قاعدة السّور وجود نتوء مدرّج empattement à gradins، مخصّص لأرتداد النّبال، على غرار ما نجده في إستحكامات صفاقس والمهديّة الفاطميّة. أمّا الأبراج فهي مثمنّة في الشمال (قطرها : 5م ، وإسطوانية (قطرها : 5 م) في الجنوب - الشرقي. أمّا البرج الجنوبي- الغربي، الإسطواني الشكل، فهو يعلو قاعدة مثمنّة. وتحمل ممشي العشة حنيّات نصف دائرية تشبه الأشكال الزخرفية التي نجدها في الفنّ الفاطمي. انّ وجود هذه الحنيّات وكذلك الأبراج المثمنّة والنتوء المدرج يجعلنا نؤكد أنّ أغلب أجزاء هذا المعلم تعود الى الفترة الفاطميّة - الزيريّة،

261) عياض (طالبي) ص. 80

262) نفس المصدر، ص. 80: " قال ابن مسكين : كان عندنا رجل له تابع" فقال يوما: لأخوّفنّ أبا خارجة. فنهاه صاحبه، فقال : لأفعلنّ. فلما كان في اللّيل ركب أبو خارجة الى منزله، فلقيه خيال، ثم عرض له شخص، فقصده أبو خارجة وجعل يضربه وهو يفرّ منه ويصيح حتى غاب في الزّيتون، فذهب أبو خارجة. فأتى التّابع صاحبه وهو مروّع لما به، فأخبره فقال : قد نهيتك».

263) مقديش، II، ص. 242 ; V.Guerin, op.cit; I, p. 311; L.Barry, op.cit, p.320 ; R.Brunschvig, op.cit, I, p.311; N.Djelloul, Fortifications I, p. 311-31

264) L.Barry, op.cit, p. 321

ولكن هذا لا يمنعنا أن نفترض أنه عوّض استحكاما أقدم منه احدث في العصر الأغلبي.

ويستمدّ حصن يونقة شهرته من وجود الفقيه والأديب أبي خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي (الذي مازال ضريحه يوجد قرب البرج : سيدي أحمد عنبسة)[265] الذي خصّه محمود سيالة الصّفاقسي بكتاب مناقب. [266] ويذكر مقديش أنّه "أوّل من اجتمع بمالك من أهل إفريقية"[267]، وعدّه المالكي من رجال الطبقة الثّالثة (مع عبد اللّه بن غانم وعلي بن زياد العبسي والبهلول بن راشد). وكان قد تتلمذ في المشرق على سفيان الثوري وسفيان بن عينه واللّيث بن سعد واليسع بن حميد وآبن وهب ورشدين بن سعد والمغيرة بن عبد الرّحمان المخزومي. وسمع منه في المغرب البهلول بن راشد وسحنون بن سعيد وعيسي بن مسكين.[268] وكان "ينطق بالحكمة»وعالما بالعربيّة و«عبارة الرّؤيا"[269] و"باختلاف العلماء وإتفاقهم، ولكن أكثر اعتماده على مذهب مالك الذي كان يروي عنه غرائب لم تكن عند غيره".[270] وهوما يفسّر تحامله علي القدريّة والمرجئة.[271]

وكان أبا خارجة كثير التردّد على رباطات سوسة،[272] وممّا يذكر عنه أنّه "نزل في طريق سوسة فأستلقي ثم قال لأصحابه : يأتيكم الساعة رجلان يسألان عن شيء فيسمعان ما يكرهان، ومعها طعام تأكلونه انتم ولا آكله أنا. وإذا برجلين على بغلة، فسألا عن الشيخ فقالا له : رجل له عجل

265) مراجعه : عياض، II، ص. 486 وطالبي ص. 78-82؛ المالكي، I، ص. 241-247 ؛ ابن فرحون، ص. 168؛ أبو العرب، ص. 150؛ *لسان الميزان*، IV، ص. 381-382؛ مقديش، II، ص. 107؛ مخلوف، ص. 62-63؛ مختار العبيدي، ص. 78.
266) دار الكتب الوطنية، مخط. رقم 19269.
267) مقديش، II، ص. 242.
268) المالكي، I، ص. 241؛ عياض (طالبي)، ص. 78.
269) المالكي، I، ص. 241، 245؛ عياض (طالبي)، ص. 78؛ مختار العبيدي، ص. 78.
270) المالكي، I، ص. 247.
271) *نفس المصدر*، I، ص. 241-244 « وفي بعض ما يتّصل عنه من الإسناد، يرفعه إلي مالك عن نافع عن عمر، أنه سمع النبي (صلع) يقول : ما بعث اللّه نبيّا قبلي فأجتمع عليه أمر أمّته إلاّ كان فيهم قدرية ومرجئة يوسوسون أمر أمّته من بعده. إلا إنّ اللّه لعن القدريّة والمرجئة علي لسان اثنين وسبعين نبيّا.... وكان أبو خارجة كثيرا ما يقول : لا تمرّ اللّيالي والأيام حتي تمحي كتب ابي حنيفة من افريقية، فكان كذلك محاها اللّه بسحنون".
272) المالكي، I، ص. 245؛ عياض (طالبي)، ص. 79.

رأي في المنام أنّه يخالفه الي خمير عنده يأكله، فقال أبو خارجة : له عبد خلاسي يخالفه إلى أهله. فقال أحد الرّجلين للآخر : معنا شيء من زادنا، فأخرجا خبز شعير ودجاجا وزيتونا، فأكل من حضر، ولم يأكل هو منه، إذ كانت به بعض أرواح يضرّ بها هذا الطّعام". [273] ويذكر عنه أيضا أنّه "صلّى ليلة في مسجد إستضافه أهله، فبينما هو يصلّي نظر إلى ركن المسجد الى شيخ قائم يصلّي. فلمّا سلّم أبو خارجة استلّ سيفه فهزّه وقصده وهو يقول: أعلّي تجهر؟ فلّما، رأي عزمه انقمع منه، فإذا به إبليس اللّعين، أراد أن يلبس عليه صلاته ويدخل عليه الفتنة فحماه اللّه عزّ وجلّ منه". [274] ومثل أغلب المرابطين كان أبا خارجة "مستجاب الدّعوة"، [275] "وكانت تذكر عنه أعاجيب بالانذار بالحوادث التي تحدث في آخر الزّمان، وكانت عنده في ذلك أحاديث يرويها عن شيوخه، ومن عنده أخذها عيسي بن مسكين". [276] وروي المالكي - على لسان سليمان بن محمد الأندلسي والحسن بن نصر السوسي والنصر بن خالد - "أن سكّان صفاقس وغافق [المجاورة] أصابهم عطش وأجدبوا ونزل بهم القحط والجهد، فأتوا إلى أبي خارجة عنبسة فقالوا : نزل بنا الجوع والقحط فأستق لنا : فقال لهم : تأتون غدا ببناتكم وصبيانكم وبهائمكم وتبيتون الصيّام اللّيلة، فإذا كان اللّيل فقفوا بين يديه وتضرّعوا إليه واعراضوا أعمالكم عليه فإنّه يرقّ لحالكم. ففعل النّاس ذلك، وأجتمعوا من كلّ مكان من الغد" وخرج بهم أبو خارجة فصلّي بهم صلاة الإستسقاء ثمّ خطب بهم، ثم جلس الى صلاة الظهر، وأشتدّ الحرّ عليهم فصاح الأطفال والبهائم من شدّة الحرّ، فقام أبو خارجة وصلّي بهم

---

273) عياض (طالبي)، ص. 80.

274) المالكي، I، ص. 244.

275) عياض (طالبي) ص. 82؛ المالكي، I، ص. 243، 243 "كان أبو خارجة يقول : اللّهم أمتني قبل أن يخرج من هذا الوجه قوم ينبحون نباح الكلاب. قيل له : تريد من هذا المغرب، نحو أرض البربر؛ فقال نعم. قال : فبلغني أنّه مات قبل أن تشتجر الحرب. وكان ذلك أيام منصور الطنبذي [209 هـ]".

276) المالكي، I، ص. 244؛ عياض (طالبي) ص. 79» قال ابن حارث : سمعت كثيرا من النّاس يحكون عن أبي خارجة عجائب من الأخبار والوصف لما لم يكن، فيكون ذلك مثل ما يحكي بالأندلس عن بقي بن مخلد إلاّ أنّ الحكاية عن أبي خارجة اكثر استفاضة وأكثر عجائب. قال ابن الجزّار المتطبّب في تعريفه وذكره مثل ما ذكره ابن حارث. فبعضهم يقول : كان عنده علم الحدثان وبعضهم يقول : بل علم الزجر وبعضهم يقول بل من خدمة الجان»

الظهر ثم بسط يديه [للدعاء]. قال نصر بن خالد : فرأيت سحابة بيضاء رقيقة، ثمّ رأيت السّماء اندفقت بالغيث، فرأيت أبا خارجة وهو يرفع ثيابه ويقول : بهذا يعرف الكريم، هذا فعلك في من قصدك فبهذا تعرف وتوصف" .[277]

وقد جعلت شهرة أبي خارجة حصن يونقة مقصدا للعديد من علماء إفريقية مثل سحنون بن سعيد وعيسى بن مسكين والحسن بن نصر السوسي الفقيه والبهلول بن راشد ونصر بن خالد[278] وأبو الرّبيع سليمان بن محمد الأندلسي[279]. كما كان يتردّد عليه النّساك من خارج إفريقية، خاصّة من الأندلس والمشرق العربي[280].

ويبدو أنّ محطة القصور المباركة التي توجد جنوب يونقة كانت بدورها مركز مرابطة. وبها دارت سنة 748 هـ/1347 المعركة الحاسمة بين بين جيوش حمّو بن يحي العسري المزيني وجيوش أبو حفص عمر الحفصي.[281] وكانت تمثل في العصر الوسيط الثاني الحدود الجنوبية لمواقع أعراب بني عوف التابعة لقبائل بنوسليم.[282]

رباطات الجنوب التونسي وسرت الكبرى

إذا كانت المرابطة قبل كلّ شيء مؤسّسة سنيّة فمن البديهيّ أن تكون الرّباطات نادرة في هذه المنطقة، التي تميّزت في العصر الوسيط الأوّل بكثافة الوجود البربري الأباضي،[283] رغم تعدّد القرى المحصّنة

---

277) المالكي، I، ص. 242 ؛ عياض (طالبي) ص. 82.
278) المالكي، I، ص. 245-241.
279) *نفس المصدر*، I، ص. 242. ترجم له ابن عبد الملك في الذيل والتكملة، IV، ص. 82
280) المالكي، I، ص. 244.
281) ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، ص I. ص 343
282) التيجاني، ص. 85 "وآرتحلنا عن المحرس يوم السبت فآجتزنا في أوّل المرحلة على الموردالمسمي بصعيب ووصلنا بعد جهد جهيد الى القصور المباركة وهي كلّها عامرة وأهلها موصوفون بالنخل وقد شاهدت من منعهم للماء ما يصدّق ما أشتهروا به من ذلك، وفي هذا الموقع فارقنا أرض بني عوف ودخلنا في أرض أخوتهم دباب»
283) التيجاني، ص. 119 " ومن قرية الزّارات كان الإبتداء بسلوك منازل البربر المتمسّكين بمذهب الخوارج المستحلّين لدماء المسلمين وأموالهم، وهذا المذهب هو الغالب علي جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس وخصوصا أهل الساحل منهم». انظر أيضا : هـ.ر. إدريس، نفس المرجع، II، ص. 66-70 ؛ ر.برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص ,361

(قصـور)[284]، وهو مـا يؤكد مـرّة أخرى عدم وجـود تطابق آلي بين الوظيـفة العـسكرية ووظيـفـة الرّباط. على أنّ التيجـاني أشـار الى وجـود مـرابطين خـوارج بقصـر مـارث (المعـروف في العصـر القديم باسـم مرتاي) وبأجاص وكـوطين[285] ويمكن تفسـير هذه الظاهرة بتأثر الأباضيّة المـتأخرّة بالمذهب المالكي، وبتصـدّع الدّولة المركزيّة، وكذلك بالتحوّلات التي طرأت على مساكن أهالي هذه المنطقة نتيجة للهجرات التي تلت الغزو الهلالي.

قصـــــور قابـــــس

تــوجــد مـدينة قابـس (Tacapae) القديمـــة) في مـؤخـــرّة خليـــج ســـرت، فـــي أعلي مـــصـــبّ واد (يحـــمـــل نفـــس الإســـم) يروي

284) الإدريسي، ص 128-129 "قابس - قـصر ابن عيـشون على السـاحل (8 أميال) - قـصر زجونة (8 أمـيال) - قصر بني مـأمون (أو يامون) (20 ميل) - قصر أمـرود (11 ميل) - قصر الجرف [برأس الجرف، قبالة جربة] (18 ميل)" . . . وعدّ كذلك المحطّات الموجودة بعد قصور الزّارات : ص. 128-129 "قصور الزّارات - قصر ذكومين (25 ميل) - قـصر الهرا (6 مـيل) - قصـر جرجيس (6 مـيل) - قصر بني خطّاب (25 مـيل)، وهو على آخر سباخ الكلاب من جـهة الغرب، ويقابله في البـحر اسـقالة جزيـرة زيزو، قصر بـني الخطّاب - قصـر شمّـاخ (25 ميل)، وبينهما جون صـغير يسمّي جون صلب الحمار [بحيرة البيان] - قصر صالح (10 ميل) - قـصر كوطين (20 ميل) - قصر بني ولول (20 ميل) - قصر مركيا (20 ميل) - قصـر عفسلات (20 ميل) - قصر سريّة (20 ميل) - قصر سنان (2 ميل) - قصـر البنداري (3 ميل) - قصـر غرغرة (10 ميل) - قصـر صيّاد (6 ميل) - طرابلـس (20 ميل) . وعدّ اليـقوبي (ص. 247) خـمس مراحل من قـابس الى طرابلس، وأشـار كلّ من المقـدسي (ص. 64-65) والإدريسي (ص. 121) الى القرى التّالية الموجودة علـى الطريق الرّابطة بين قابس وطرابلس وهي : الفوّارة، آبار دخت، قصر الدرق وبئر الجمّالين . وكانت جميع هذه المحطّات حسب مؤلف نزهة المشاق خالية من السكان لا يقيم بها سوى قبائل مرداس ورياح الذين عاثوا فيها فسادا.

أمّا قـائمة مـقديش (II ، ص . 144) فهـي تقريبـا نفس القائمـة التي ذكرها الإدريسي : "من قـابس الى قصـر ابن عيشون ثمانية أميال ، إلى قصر جزونة ثمانية أميال. ومن قصر جزونة الى قصر بني مأمون عشرون ميلا، ومن قصر بني مأمـون الي أمرود أحد عـشر ميـلا ومنه الي قصر الجـرف ثمانية عـشر ميلا. ومن قصور الزّارات الي قـصر بني ذكومين خمسـة وعشرون ميلا ومن ذكومين الي قصر الهـراء ستة أميال ومنه إلى قصر جرجيـس ستة أميال، ومنه الى قصر بني خطّاب خمسة وعشرون ميلا. وقصـر بني خطّاب علي آخر سباخ الكلاب من جهة المغـرب ويقابل قصر بني خطّاب في البحـر إسقالة زيزو وطولها أربعون مـيلا وعرضهـا نحو نصف ميلا وبعضـها معمـور. ومن قصر بني خطاب الي قصر شمّاخ خمسة وعشرون ميلا وبينهمـا جون صغير يسمّي جون صلب الحمار . ومن قصر شمّاخ الي قصر صـالح عشرة أميال وقصـر صالح علي قرطيل يأخذ من المشـرق الي المغرب طوله خمسة امـيال يسمّي رأس المخبز ومنه الى قصـر كوطين عشرون ميلا. ومن قصر مركيـا الي قصر عسقلات عشرون ميلا. ومن قـصرعسقلات الى قصر سريّة أربعة أميال ومنه الى قصر سنان ميلان ومنه الي قصر البنداري ثلاثة أميال، ثم الى قصر غرغرة عشرة أميال ومنه الى قصر صيّاد ستة أميال ثم الى مدينة طرابلس عشرون ميلا. ومن مدينة طرابلس الى قصر رأس قاليوشا أربعة عشـر ميلا ومنه الى قصـر الكتاب ثمانية أمـيال ومنه الي قصر بني غـسّان اثنا عشر مـيلا. ومنه الى طرف رأس الشعراء أربعـة عشر ميلا ومنه الى قصـر شريكس أربعة عشر ميـلا، الى قرتيل المسن أربعة أميـال ومنه الي لبدة وبها قصران عامران ، ولها على نحو البحر قصر عامر. . . ."

285) التيجاني، ص. 94.

واحتها.[286] وهي مدينة بحرية وصحراوية تتحكّم في المجاز الضيّق الواقع بين منطقة الشطوط والبحر، والرّابط عن طريق البرّ بين البلاد الطرابلسيّة ومصر وتونس والمغرب. وكانت المراكب في العصر الوسيط تصل الى غاية ميناء قابس "الذي كان يعتبر نقطة الوصل الملائمة بين التجارة البرّيّة والبحريّة والتجارة الصحراويّة"[287]. وكانت المدينة (قبل أن تتصدّع إلى عدّة وحدات عمرانية : جارة ومنزل خاصّة) محاطة بسور مبنيّ من الحجارة (تتخلّله ثلاثة أبواب) يدعّمه خندق يملأ بالماء عند مداهمة العدوّ لها. وتمتدّ الأرباض التي تستقطب جلّ النشاط التّجاري خارج هذا الإستحكام. وداخل المدينة توجد عين سلام الشهيرة، وقربها مسجد يعرف بآسم مسجد سيدي أبي لبابة الأنصاري. وفي قلب المدينة شيّد بومكّي (ق.14م)، وسط ساحة البطحاء قصرهم المجاور للجامع الكبير. وبالقرب منه كانت تنتصب القصبة (القلعة) التي يحتلّ قسمها الرّئيسي قصر العروسين الذي شيّدته أسرة بني جامع الهلاليّة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي[288].

وأشارت مصادر القرن الثالث عشر إلى وجود "رباط البحر" أو مسجد الصهريج على ضفاف البحر[289]. لكنّنا لا نعرف بالضبط موقع هذا "الإستحكام" الذي يعود علي الظاهر الي الفترة الأغلبيّة. ومن المؤكّد أنّه كان يتّصل - مثلما هو الشأن في الإسكندرية وبطريّة - "بمنار" المنارة الذي كان قائما شرقي المدينة، والذي لم يبق منه في عصر التيجاني إلاّ إسم مكان يدعي المنارة، مازال يطلق اليوم علي واحة صغيرة.[290] وعلى بعد 15 كلم شمال قابس يوجد قصر وذرف.[291] وفي جنوبها قصور كتّانة[292] وقصور الزّارات (الثلاثة)

---

286) حول تاريخ قابس ومعالمها انظر خاصّة : ابن حوقل، ص. 73 المقدسي، ص. 12-13؛ ياقوت، VIII، ص. 24؛ البكري، ص. 25-26 ؛ الإدريسي، ص. 128؛ الحميري، ص. 200، 50+، التيجاني، ص. 87-93 ؛ هـ.ر. إدريس، نفس المرجع، II، ص.63؛ ر. برنشفيك، نفس المرجع، I، ص. 344 ؛ محمد المرزوقي، *تاريخ قابس*، تونس 1960 ؛ C.Monlezun, " Les ruines de Tacapae" in B.A.C, LV, 1885, p.126-131; M.Talbi, "Kabis", E.I,IV, 1986; N.Djelloul, Fortifications, I, p.315.

287) ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 344.

288) التيجاني، ص. 94 ؛ ر.برنشفيك، I، ص. 344 ؛ هـ.ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 63.

289) ر. برنشفيك، I، ص. 344.

290) التيجاني، ص. 94 "منار مرتفع يظهر للآتي من جهة المشرق قبل وصوله الي البلد بمسافة بعيدة. . . وذكر البكري أنّ الحداة يحدون عند قد ومهم من مصر الي إفريقية فيقولون :

لا نوم لا نوم ولا قرار حتى أري قابس والمنارا".

291) التيجاني، ص. 85.

292) نفس *المصدر*، ص. 119 "وهي قرية صغيرة ملتفّة الشجر حسنة المنظر. . ولأهلها قصر كبير يأوون إليه."

المحصنّة،[293] وكذلك قصور سجّة[294] وتبلبو،[295] لكنّها لم تكن على ما يبدو مراكز مرابطة. وذكر التّيجاني موضعا بين كتّانة وجربة يسمّي سواني خلف اللّه، "وهي منسوبة الى رجل من مرابطي العرب احمدي، وهو من تلاميذ الشيخ أبي عيسي العمّوري كان ابتنى هناك مسجدا رسمه الي الآن باق وأحيي بمقربته أرضا مواتا فمنعه عمّا أراد من عمارة تلك الأرض كثرة فساد حواشي العربان". [296] ويؤكّد هذا الخبر ما أشرنا إليه سابقا حول ارتباط المرابطة بعمليّة احياء أراضي افريقية منذ العصر الأغلبي، ويبدو أن بنو حفص اعادوا تنشيط هذه المؤسسة بعد التّراجع الفلاحي الذي عرفته البلاد إثر الغزو الهلالي.

قصـــر أجـــــــاص

كانت قرية أجاص الكبيرة التي لا نعرف موقعها بالضبط توجد جنوب مارث و"يبدو أنّها كانت في العصر الحفصي تقوم بدور المركز الجهوي الموكول الآن الى مدنين" [297]. ذكر التيجاني أنها "ذات مباني كثيرة ولها غابة متّسعة..... ورأيت بها مسجدا يذكر أهلها أنّ له فضلا مشهورا عندهم وأنّ الدّعاء مستجاب عنده وقد أظهر بعض زهّادهم به الإغتباط فلازم به الرّباط، وإن كان هذا المرابط وجميع أهل هذه البلدة على المذهب السّيء المنسوب للخوارج". [298]

قصـــور العكارة والمهابـــل

تقع شبه جزيرة العكارة (جرجيس) بأقصي الجنوب الشرقي التونسي،[299] يحدّها البحر من الشمال والشرق وخليج بوغرارة من الغرب. وتتكّون من سهل ساحلي ينتمي الى الجفارة، يمتدّ من رأس مرمور (زيطا في القديم) شمالا الى وادي فسّي جنوبا. كما

---

293) الإدريسي، ص. 128.

294) *نفس المصدر*، ص. 106 "ولقابس واد يأتيها من غدير كبير، وعلى هذا الوادي قصر سجة وبينه وبين قابس ثلاثة أميال، وهو مدينة صغيرة متحضّرة بها من ناحية البحر أيضا سوق."

295) لم تشر المصادر الي منزل تبلبو قبل العصر الحفصي ولكن التسمية قديمة. ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 344؛ هـ.ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 66.

296) التيجاني، ص. 132 "لما يزرع بها فإن العرب كثيرا ما يقصدونها بمواشيهم لأنّهم يقولون أمرأ باقل ترعي الإبل به في تلك الأرض وأمرعه، وحدّ هذا الباقل عندهم من هذه السّواني الي البحر". أيّ تقريبا المنطقة التي حبّست في عهد هارون الرّشيد على الحصون

297) ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 351.

298) التيجاني، "وإلى جانبها يوجد وادي الزركين "وبه سواني لبعض المرابطين"، ص. 320.

299) حول تاريخ ومعالم هذه المنطقة: انظر: علي درين، شبه جزيرة جرجيس، تونس, 1995

تتخلّل هذا السهل هضبة هنشير زيان، وتغطّيه من السّاحل الجنوبي بحيرة البيبان (جون صلب الحمار في السابق)[300]، التي يفصلها عن البحر تلّ مستطيل يسمّي الصلب. وعكارة نسبة الى الشيخ الصياح العكاري (أصيل المغرب؟) الذي رابط بحصونها في أخر العهد الحفصي، ممّا يؤكّد أن بعض القصور التي عدّدها الإدريسي كانت بدورها مراكز مرابطة، وواصلت القيام بهذا الدور في العصر الحفصي رغم سكوت التّيجاني عن ذلك. وكانت هذه المنطقة تدعي في القديم سرتيكا Syrthica وسمّاها تيت ليف Tite-Live الأمبوريا، بمعني الأسواق. وربّما يرتبط تواصل هذا النشاط أيضا بوجود الرّباطات. أمّا زيزو التي ذكرها مؤلّفو العصر الوسيط[301] فهي مدينة زيطا الرّومانية التي توجد آثارها على مرتفعات هنشير زيان قرب جرجيس. وكانت تتّصل بالسّاحل عن طريق ميناء سيدي بوتفاحة (مرسي التفّاح في القديم) ومرسى هنشير الصّقالة (صقالة زيزو في العصر الوسيط).[302]

كما وقع الكشف في هذه المنطقة عن تجمّعات سكنيّة رومانية بهنشير الكلخ التي كانت تستعمل في القديم كمركز للحمام الزّاجل، وهي وظيفة تواصلت مع الرّباطات الإسلامية. كما كانت توجد في منطقة البيبان نفسها مدينة زوخاريس Zeucharis، حيث تقع أطلال برج البيبان العثماني، وهو حصن يحتلّ بدوره موقع استحكام قديم.[303] وفي هذه المنطقة أشار الادريسي الى قصر جرجيس الموجود منذ العهد القديم (Gergis)[304]. ومن الملفت للنظر حقّا أنّنا وجدنا به أيضا آثارا رومانيّة تتّصل بالصيد البحري وتصبير السمك، وهي وظيفة أكّدنا فيما قبل على ارتباطها بالرّباطات.[305] وكان قصر جرجيس محصّنا في السّابق بواسطة سور وقصبة انقرضت

---

300) الإدريسي، ص 128-129، أمّا سباخ الكلاب فهي تناسب مجموعة السّباخ التي تشكّلها سبخة المالح الحالية.

301) البكري، ص 24-25 ؛ الإدريسي، ص. 128.

302) البكري، ص 24-25 ؛ مقديش، I، ص. ؛ هـ.ر. إدريس، نفس المرجع، II، ص؛ N.Djelloul, Fortifications,I, p. 315.

303) علي درين، *نفس المرجع*، ص. 28. كما وقع العثور على مواقع رومانية أخرى بالناعورة (Putea) . وحول هذا البرج انظر : N. Djelloul, Fortifications, I,p. 33 . ويوجد بنفس المنطقة موقع مداينة الأثري (أوزو خيس في القديم) التي اشهرت حسب سترابون بمصانع الملح. كما عثر أيضا بهذا الموقع على أثار احواض لتصبير السمك ونقائش بيزنطية. (P.Trousset, op.cit p. 93)

304) الإدريسي، ص. 128-129؛ علي درين، نفس المرجع، ص 30. وكشفت ايضا الحفريات على وجود حصون رومانية لحماية سرت بقصر غيلان وسيدي محمد بن عيسي ورمادة.

305) P.Trousset, op.cit, p. 93; N.Djelloul , "La pêche en Ifriqiya au Moyen âge", in La pêche côtière en Tunisie, Tunis 1995, p. 51 .

معالمـهما في العصر العـثماني.[306] وكان قـصر بني الخطّاب يوجد على "تخوم سباخ الكلاب"، وتفصله من الجـهة الشرقيّة عن قصـر شمّاخ بحيرة البـيبان.[307] ويناسب هذا القصر الذي ينسب إليـه الشمّاخي، صاحب كتـاب السّير،[308] قرية شمّاخ الـحاليّة. وقد شـيّدت على أنقـاض مـدينة رومانيّـة.[309] ويؤكّـد إسم المكان الحـالي : قصـر الزّاوية (جنوب رأس مرمور) وسيدي شمّاخ تواصل وظـيفة الرّباط في العصر الحفصي. أمّا في منطقة بوغرارة التي اشـهرت بأرصفتها فـإن مصادر العصر الحفـصي أكّدت على خراب مدينة جـيكتيس Gightis (تجغت)، لكـن مصادر وسـيطيّة أقدم تذكـر قصـر الجرف،[310] الذي يرتبط به ناظور المرسى.[311] كما أشـار التيجاني الى أن تجغت كان بهـا "محارس متفرّقـة على ساحل البحر ليس فيهـا متّسع إلاّ لجلوس رجل واحد".[312] وبالقرب منها ذكر وادي مجسر(الطواحين) حيث يوجد بعض المرابطين الذين يتعاطون الفلاحة،[313]

قصــــور رأس المخبـــز وزاورة

كان قـصر صـالح متّصـلا بلسان أرض مـعروف بالإسم الوسيطـيّ والحديث في آن واحد : رأس المخبز، وكان يمثّل مرفأ مـمتازا يقع بالقرب من ملاّحة ترد عليها مراكب النصارى[314]. ولم يبق غرب طرابلس في العصر الحديث إلاّ قلعـة (قصر بوكمّاش) التي كانت تسـتعمل كمـركز حدودي.[315] وفي الجهة الـشرقية تقع بلدة زوارة المنقـسمة الى زوارة الكبرى المعروفة سابقا باسم قصر كوطين[316] وزوارة الصغرى. وذكر التيجاني أنّ هذه الأخيـرة تعرف أيضا بأسم "وطن المرابـطين، وهي قرية ذات نخل كثيـر. . . وقد

306) N. Djelloul, Fortifications, I, p.318

307) الإدريسي، ص. 128.

308) الشمّاخي، *كتاب السير*، تحـ. محمد حسن، تونس 1995. وهو من رجال القرن السادس عشر الميلادي.

309) علي درين، *نفس المرجع*، ص. 28.

310) الإدريسي، ص. 106؛ مقديش، I، ص. 141.

311) A.A.T, Feuille *Agim*

312) التيجاني، ص. 132.

313) التيجاني، ص. 133 "وتضاف إليها ويقال ويقـال طواحين مجسر. . . . ووجدنا بعض المرابطين قد زرع على أحد جانبيه زرعا بلغ في ذلك الزمن أن يكون للبهـائم مرعي. وقد قام عليـه ليمنعه من الجيش مـدلّلا برباطه فثارت دهماء الأجناد وعي الزرع على زرعه، وانجلي الأمر عن ابطال كدح المرابط وسعيه"

314) الإدريسي، ص. 100-124؛ التيجاني، ص. 207؛ ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 351؛ هـ. ر. إدريس، II، ص. 66.

315) الطاهر الزّاوي، معجم *البلدان اللّيبية*، طرابلس 1968، ص. 263؛ ر. بر نشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 351.

316) الإدريسي، ص. 128-129؛ التيجاني، ص 110؛ ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 351.

آستولى الآن الخراب عليها فليس العامر منها إلاّ بعض الغامر"[317]، ممّا يرجّح أنّها مركز مرابطة قديم.[318] و"أمام هذه القرية قصر يسمّي وزدر قد محي رسمه، وكوطين قرية أضخم من الأولي وأكبر غابة، وفي أهلها شجاعة موصوفة وعزة نفس"،[319] وهو وصف إستعمله التيجاني أيضا عند حديثه عن سكان قصر زياد، ممّا يرجّح أيضا أننا إزاء مركز مرابطة. ومن كلّ القصور التي عدّدها الإدريسي شرق كوطين، لا يذكر التيجاني إلاّ قصر بني ولول الذي انقرض بدوره، تماما مثل قرية وطن المجاورة.[320] ولكنّه ذكر قصر تليل المشرف على البحر.[321] وعلى بعد مسافة قليلة يوجد مركز زواغة الهامّ الذي عوّض سبراته القديمة الواقعة بالقرب منه وقد اصبحت خرابا.[322] وفي الأثناء انقرضت ايضا كلّ من قرية تليل وقرية زواغة وعوّضتهما في العصر التركي قرية العقلات الواقعة شيئا ما نحو الجنوب[323]. ومن هنالك حتّى طرابلس كانت منذالعصر الوسيط الأول تتعاقب الواحات الواحدة قرب الأخرى وتحمل أسماء مازالت مستعملة الى الآن، وهي : صرمان، العابريّة[324]، الزّاوية، قرقوزة، الماية وزنزور. وكانت الزّاوية والماية وزنزور وصرمان مراكز مرابطة.

وحسب التيجاني كانت صرمان قرية محصنّة تحيط "بها غابة زيتون ممتدّة وبها قصر كبير يأوي إليه أهلها وقد حفّت به حفير متّسع وابتنت في أسفل الحفير دور كثيرة لا تسكن إلاّ في وقت الأمن فإذا خافوا دخلوا الحصن".[325] ويميّز التيجاني بين زاويتين : الغربية أو زاوية أولاد سهيل، وهي "رابطة حصينة حفّ بها شجر كثير من التين والرمان والخوخ وغير ذلك. . . . وسهيل صاحب هذه الزّاوية رجل كان يعرف بأبي عيسي

317) التيجاني، ص 110 "وأهلها قوم من الخوارج غلاة في مذهبهم موصوفون بتصميم دينهم وأمانة فيما يودع عندهم مكفّرين بمواقعة الذّنوب ورأيت منهم أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم وأصفرّت ألوانهم".

318) على أنّ الحسن الوزّان لم يشر في القرن السادس عشر إلاّ الى قرية واحدة، وكانت "مدينة صغيرة تحيط بها أسوار قبيحة متلاشية، ويسكنها قوم بؤساء لا يعيشون إلاّ من صنع الجير ومن نقلهما الي طرابلس. ليس لهم أرض للزّراعة، وهم دائما في خوف من هجوم القراصنة النصاري عليهم". *وصف إفريقيا*، II، ص. 96.

319) التيجاني، ص. 110.

320) *نفس المصدر*، ص 210.

321) *نفس المصدر*، ص. 211 "وهو حصن في رأس تلّ مشرف على البحر وتحفّ بالقصر في سند التلّ دور كثيرة معمورة، وما تحت التلّ سواني ومزارع"

322) الإدريسي، ص. 129 ؛ التيجاني، ص. 212 ؛ ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 351.

323) ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 351 "لكن اسم القرية الأولى مازال يطلق على قبيلة التلالة المقيمة في ضواحي تلك المنطقة، كما يطلق إسم القرية الثانية على مركز صيد التنّ المعروف بآسم مرسي زواغة"

324) ر. برنشفيك ، *نفس المرجع*، I، ص. 351.

325) التيجاني، ص. 319.

يذكر عنه صلاح واعتناء بإضافة كلّ من كان يرد عليه وتوفي عام ثلاثة وسبعين وستمائة، وخلفه في إقامة رسم هذه الزّاوية أبناؤه وهم أناس صلحاء سكنوا تلك الزّواية رحمة للمجتازين بهم فإنّهم يرفدونهم بما يحتاجون إليه من زاد وغيره، ويرجعون إليهم ما استلبهم العرب والدّبابيّون يرعون لهم حقّ رباطهم." [326] والرّابطة هي أيضا احدى تسميّات الرّباط، وكانت شائعة خاصّة في الأندلس، [327] ممّا يؤكد مرّة أخرى القواسم المشتركة بين الرّباط والزاوية. أمّا الزاوية الشرقية (المطابقة للزّواية الحالية) [328]، فقد كانت تعرف بزاوية أولاد سنان (قصر سنان). وهي "أضخم حالا واكثر رجالا، وبها مبان كثيرة، ولها أرض متسعة". [329] وكانت تستعمل كسوق للقبائل المجاورة. [330] ويشبه تخطيط المـاية تخطيط قصور-رباط المنستير وبرشانة، فقد كانت تتركب من "قصور متفرّقة" [331] ويذكّرنا الوضع العقاري بزنزور بالعلاقات التي كانت سائدة بين الساحل والقيروان في العهد الأغلبي، فقد كانت حسب التيجاني "من أملاك أهل طرابلس، فلمّا وقعت فتنة الميّورقي زهدوا فيها فباعوها." [332] ويحيط بالمدينة (التي يصل طولها الى خمسة أميال وعرضها نصف ذلك) غابة من الزيتون "اكثره من الغرس القديم على نحو زيتون الساحل". وهي "كثيرة القصور، وبها جامع خطبة احدثه عمرو بن العاص تحوّل في العصر الحفصي الي مقبرة. وبجاوره قصر خرب متّسع يعرفونه بالقصر القديم، يقال أنه أوّل قصر بني بزنزو، ولم يبق منه الآن إلا سوره المحيط به وهم يعظّمون أمره، يوقولون أن فناء ما بقي منه يؤذن بخراب البلد وفناء أهلها، وإلي جانب هذا الحائط يكون مجتمعهم لنصب سوقهم، وهي سوق نافقة ضخمة يجتمع البربر بها من الأقطار المتنائيّة في كلّ جمعة." [333] وعلى ساحل البحر كان يوجد في عصر التيجاني قبر أبي محمد عبد الجليل الحكيمي "ببيت يجاور مسجده الذي انفرد فيه بنفسه، وتخلّي عن أبناء جنسه، وهذا المسجد من المحارس القديمة البناء المفرطة الحصانة وانّما أضيف إليه لسكناه به، وبنائه الى جانبه. . . وعلى مسافة يسيرة منه،

326) *نفس المصدر*، ص. 213

327) انظر: Rabita, E.I ; G. Marçais, Note 27.

328) علي بعد 45 كلم غرب طرابلس.

329) *نفس المصدر*، ص. 214

330) ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 351.

331) التيجاني، ص 314 "وبمقربة منها قرقوزة وبها أثار قديمة"

332) *نفس المصدر*، ص. 215

333) التيجاني، ص. 216

من جهة غربيّة على الساحل أيضا مسجد يعرف بسيقاطة. . . . وعلى هذا الساحل بطوله مساجد كثيرة، وهي مساكن للصّالحين قديما وحديثا شهيرة، والنّاس يزورنها ويتبرّكون بها وإنّها لمن أحسن المساكن لمن يريد الإنفراد لعبادة ربّه والساكن بها يجمع بين الإحتراس ومجانبة الناس، وأكثرها من مباني ابن الأغلب مبتني المحارس من الإسكندريّة الى مجاز سبتة"[334]

قصـــور طـرابلـــس

تمثّل طرابلس (Oea القديمة) آخر مدينة كبرى في إفريقيّة الشّرقية.[335] وكانت في نفس الوقت مرحلة للمسافرين عن طريق البرّ ومحطّة لتوقّف السّفن التي كانت تقطع المسافة الطّويلة الفاصلة بين المشرق والمغرب الإسلاميّين. وقد إحتفظت بتخطيطها الشّطرنجي الذي يرجع عهده الي العصور القديمة، رغم التّحويرات الكبيرة التي أدخلها عليها المسلمون.[336] كما حافظ الأسياد الجدد على قوس النّصر المقام على شرف الإمبراطور مارك أورال Marc Aurèle سنة 163م. وقد كان يعلوه في عصر التيجاني مسجد إسلامي صغير يرمي الى إنقاذه من العابثين، وربّما أيضا من بعض رجال الدّين.[337] ويحيط بالمدينة سور يسهر على ترميمه الأهالي، وهو ما يفسّر جودة إستحكاماته.[338] وقد جدّد بناؤه (بعد أن هدمه عمرو بن العاص ابّان الفتوحات) عبد الرحمان بن حبيب سنة 132 هـ / 751م. وبني سورها البحري هرثمة بن أعين، علي يد زكرياء بن قادم (سنة 180 هـ/) الذي ينسب إليه بناء رباط المنستير.[339] كما تمّ ترميمه سنة 345 هـ / 956 م، ودعمّ بواسطة ستارة تحمي الواجهة الجنوبية في العهد الموحدّي (سنة 614 هـ /1217 م). ويتخلّل السّتارة باب عبد اللّه، وبإزائه يوجد باب

---

334) *نفس المصدر*، ص. 219-220.

335) حول تاريخ ومعالم طرابلس، أنظر : الإصطخري، ص. 38 ؛ ابن حوقل، ص 72، المقدسي، ص. 12-13؛ البكري، تحـ. أ. فاليوفن وأ. فيري، تونس 1992، ص. 650-653 ؛ التيجاني، ص. 237-250، هـ.ر. إدريس، *نفس المرجع*، I، ص. 67-68 ؛ ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 424؛ الزّاوى، *نفس المرجع*، ص. 313.

336) التيجاني، ص. 238. "رأيت شوارعها فلم أرى أكثر نظافة ولا أحسن اتساعا واستقامة، وذلك أنّ اكثرها يخترق المدينة طولا وعرضا من أوّلها الى آخرها على هيئة شطرنجيّة".

337) ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 425.

338) التيجاني، ص. 238 "رأيت بسورها من الاعتناء ما لم أره بمدينة سواها وسبب ذلك أنّ لأهلها حظّا من مجباها يصرفونه في ردم سورها ويحتاج إليه من مهمّ أمورها. فهم لا يزالون أبدا يجدّدون البناء فيه ويتداركون تلاشيه بتلافيه".

339) التيجاني، ص. 239-240.

هوّارة. وقد أشارت المصادر الى باب البحر في الشمال الشرقي المفضي الي الميناء، والباب الأخضر في الجهة الغربيّة. وفي الزّاوية الجنوبية الشرقية توجد القصبة، مقرّ إقامة الوالي، وهي فسيحة الأرجاء وتتمحور حول ساحتين. وبالقرب منها - داخل المدينة - توجد رياض كانت مخصّصة للوالي.[340]

وأشاد ابن حوقل والبكري والتيجاني برباطات طرابلس القائمة على ساحل البحر، خارج المدينة.[341] وأثنى البكرى خاصّة على مسجد الشّعاب[342] "وذكر أنّه أعمرها وأشهرها"، ولكنّه خرب في عهد التيجاني[343]، وهذا الرّباط منسوب لأبي محمد عبد اللّه الطرابلسي (تـ 243 هـ / 857م). وذكر التيجاني "أنّه كان نجّارا ونسب المسجد المذكور إليه لأنّه هو الذي أتمّ بناءه ولزم السكنى به، وكان بعض النّاس قبله قد ابتدأ بنائه ثم وقف عنه."[344] ومثلما هو الشأن بالنسبة لأغلب المرابطين يذكر عن الشّعاب "أنّ الخضر عليه السلام كان يزوره ويحادثه وأنّهما رئيا مجتمعين في المسجد المذكور. وسمع الشعاب يوما بكاء امرأة عند باب مسجده فسألها عن سبب بكائها فأخبرته أنّ لها ولدا أسره عدوّ الدين وسألته الدّعاء بخلاصه فدعا له وأمنت المرأة على دعائه ثم انصرفت الى بيتها فأصبح ولدها في السّكك يسأل عن دار أمّه فسئل فأخبر بفراره من البحر وسلامته."[345]

ورابط بمسجد الشعاب أيضا يونس بن أبي النجم المؤدبّ الأطرابلسي المتعبّد.[346] (تـ. 305 هـ) و"كان من المجابين للدّعاء"[347]. وذكر عنه أنّه كان "يوما مع الشعاب في غرفة الشعاب بمسجده[348] يوم جمعة. فدخل عليه رجل مبيض يسطع مسكا. فقال

340) التيجاني، ص. 239-240؛ هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع* II، ص. 67-68؛ ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 426.

341) ابن حوقل. ص. 69 ؛ البكري، ص . 653؛ التيجاني، ص. 248 "وبخارج البلد محارس قديمة ومساجد كثيرة مشهورة بالفضل مزورةللبركة"

342) البكري، ص. 653 "وبها مسجد يعرف بمسجد الشّعاب مقصود، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصّالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشّعاب"

343) أقام العثمانيون مكانه برج الشّعاب. الزّاوي، *نفس المرجع*، ص. 313.

344) التيجاني، ص. 247 "فحضرت الشعاب نيّة في إتمامه فرمي الآلة من يده وتوجّه الى قاضي طرابلس فقال له اني عزمت على بناء ذلك المسجد وأحبّ أن تستدعي فلانا الذي ابتدأ بناءه فتستفهمه هل يتمادي على بنائه او يرفع يده عنه فأتمّه وأسكن به. فآستحضره القاضي وسأله عن ذلك فأقرّ بعجزه فتولّى الشعاب بناءه وسكن به"

345) التيجاني، ص. 248، 251 "ورابطت به في العصر الزّيري سمدونه الصّالحة."

346) المالكي، I، ص. 133.

347) *نفس المصدر*، I، ص. 133.

348) يمكن أن نفهم من هذه الرواية ان المسجد كان حصنا

له: لا تصلي معنا الجمعة، فقال له بقرطبة أصلّي، ثم خرج من عنده فقال لي الشعاب : يا يونس قم، فقمت الي السترة التي في جبليّ مسجده فقال لي : انظرإليه يخوض البحاربقدميه ويثور الغبار بين يديه. فنظرت إليه كالنقع .قال : يمكن ان يكون الخضر عليه السلام أو من مؤمني الجنّ". [349]

ومن رباطات طرابلس أيضا مسجد خطّاب، وهو كذلك "بخارج المدينة من جهة شرقيها على البحر". وينسب للشيخ خطاب البرقي، وكان ذا كرامات "وخصوصا في باب المرائي ظهرت له في ذلك عجائب، وكان يخاطب في النوم بجميع ما يكون في اليقظة قبل كونه". [350] ورابط به أيضا مفرج بن بياضة. و"كان رجلا صالحا من أهل جزيرة تونس المعروفة بباشو [الوطن القبلي]". [351] وكذلك مسجد الجدّة "لأنّ احدي جدّات بني الأغلب بنته. وهكذا كان يعرف في القديم، ثم عرف بمسجد البارزي لسكني أبي الحسن البارزي به، وهو بخارج طرابلس من جهة جوفيّها مشرف على المقابر". ورابط به أيضا أبو عثمان بن خلفون الحسّاني "المعروف بالمستجاب[352] وأصله من قرية حسّان من قرى طرابلس. كان زاهدا فاضلا منقطعا الى اللّه سبحانه وظهرت بركته غاية فعرف بالمستجاب". [353]

وكان الزّاهد أبو الحسن على بن أحمد بن الخصيب قد أقام أربعين سنة في رباط - مسجد المجاز. و"كان فقيها صالحا عالما زاهدا وله في الفقه والفرائض والشروط تآليف مفيدة. وأقام أربعين سنة لم يضحك". [354] ومن القصور التّابعة لطرابلس ذكر التيجاني قصر فارة وقصور الورانيز. وتحدّث ابن حوقل عن قصر ابن كهو ولكنّها لم تكن مراكز

349) المالكي، I، ص. 134.
350) *نفس المصدر*، ص. 248.
351) التيجاني، ص. 249 .
352) *نفس المصدر*، ص. 249.
353) التيجاني، ص. 249-250 "وأتفقت له في المسجد المذكور قضيّة مشهورة : كان ذات يوم جالسا فيه على عادته فسمع تحته دويّا عظيما اهتزّ له المسجد فخرج بعض من كان معه لأختبار ذلك فوجد شخصا يقطع الحجارة من كهف تحت المسجد فنهاه عن ذلك فلم ينته فرجع الى الشيخ فأخبره فنزل الشيخ إليه وقال له : اتق اللّه، فإنك تزلزل المسجد بهذا الذي تصنع فقال : ارجع أيها الشيخ الى مسجدك فإنّ الوالي أمرني بهذا. فقال له : لو أمرك الوالي بهدم المسجد كنت تهدمه فقال نعم. فرجع الشيخ الي مسجده وهو يقول : اللّهم احصد عمره، فعند استقرار الشيخ في المسجد سقط جزء من ذلك الكهف على الرّجل فقتله."
ولمّا رجع المودب محرز بن خلف من الحجّ قيل له : من رأيت في طريقك من الصّلحاء ؛ قال : رأيت بطرابلس رجلا وامرأة ، أمّا الرّجل فأبو عثمان الحسّاني وأمّا المرأة فسمدونة"
354) التيجاني، ص. 251.

مـرابطة.[355] وتؤكّـد ندرة الرّباطات بمـناطق وادي الرّمل والسّـاحل، المـمـتـدة شـرقيّ طرابلس، مرّة أخرى ماذهبنا إليه حول غموض الوظيفة العسكريّة لهذه المؤسسة. فرغم كثرة المـراسي والقصور[356] لا تتحـدّث المصادر إلاّ على مـراكز مرابطة ثانوية بسـويقة ابن مثكود[357] ومصراته (قـصر حمد)[358] وسرت[359]. يوجد الى اليوم داخل الأراضي - بجبل نفوسة غربيّ غريان- اسم موقع يسمي الرّابطة.[360]

---

355) ابن حوقل، ص. 68 ؛ هـ. ر. إدريس ، *نفس المرجع*، II، ص. 69-70.

356) الادريسي، ص. 128-129 "قصر الكتـاب - غسّان - شرياكس". كما توجـد في هذه المنطقة لبدة Lepcis (Magna القديمة) التي افسـدتها قبائل بنو هلال ولم يبق منها في عـصر الإدريسي إلاّ "قصران كبيران وعـمارتهما قوم من هوّارة البربر، ولها على نـحو البحر قصركبيـر عامر به صناعات وسوق عامرة". ويوجـد بعد ذلك قصر بني حسن. أمّا مـدينة برقة التي احتلهـا بنو هلال فقد فقـدت ازدهارها ولكنها بقيت مركـزا تجاريًا هامًا في البـرّ والبحر. وكانت أجدابية في العصرالفاطمي مدينة تجاريّة هامّة، تحوّلت بعد الغزو الهلالي الى قصرين. وتتحدّث مصادرالعهد الحفصي عن تاجورة المحصّنة، حوالي منتصف القرن الـثاني عشر الميلادي، من قبل الزّعيم الهوّاري. وبلدة سلمي المحـصّنة، وقصر بني خيـار وزليطن وقصور حـسان. انظر : هـ.ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 69-70 ؛ ر. برنشفيك، *نفس المرجع*، I، ص. 353.

357) الاردريسي، ص 179-180 "وبها سوق مشهورة مشهودة، وهي قصور كثيرة"

358) الزّاوي، *نفس المرجع*، ص. 272 "بها مغارة يتعبّد بها الصّالحون"

359) رباط قصر برصيص العابد. الزاوي، *نفس المرجع*، ص. 272.

360) *نفس المرجع*، ص. 140.

خـــــاتــمـــــة

الرّباط والمرابطة بإفريقيّة في العصر الوسيط

ظهور وتطوّر المرابطة بإفريقيّة

تؤكّد التراجم التّي أفردناها لنسّاك إفريقيّة أنّ العهد الأغلبي شكّل بدون منازع العصر الذّهبي للرّباط. ويروي عن أبي ابراهيم أحـمد (242 - 249 هـ/856 -863 م) أنّه بني "نحـوا عن عشـرة آلاف حـصن بالحجـارة والكلس وأبواب الحـديد"[1]. على أنّ بروز الموسّسة يعود إلى بداية الفتح الاسلامي، فقد تحدّث البكري عن "قوم متعبّدون تخلّوا عن الدّنيـا وسكنوا [جـبل آدار] مع الوحـوش، لباسـهم البـردي، وعـيشـهم من نبـات الأرض، ومن صيد البحـر، والدّعوة من أكثرهم مستجابة. وهذا الجـبل معروف بألتزام هؤلاء فيه منذ فتحت افريقيّة"[2].

وتذكر أغلب المصـادر العربيّة أنّ بناء دار الصّناعة في تونس، في آخـر القرن السّابع الميلادي، كان نتيجـة لإغارة الرّوم على رباط رادس (الذي ينسب لأبي المهاجر دينار، حوالي 55 هـ.) في عهد عبد الملك بن مروان. كما أنّ رباطات سوسة والمنستير وينقة أحدثت قبل مجيئ الأغالبة إلى الحكم سنة 800م، وقبل هذه الفتـرة بقليل أيضا حبّس قاضي هارون الرّشيد ابن غانم (تـ. 190 هـ. / 805م) أراضي أحمية الحصون "لمرافق المرابطين"[3]، ممّا يدّل على اسـتقرار المؤسـسة منذ العهد العـبّاسي الأول. ويؤكّد هذا التطوّر المبكّر، وكذلك الطقوس الدّينيّة الخاصّة بهذه المؤسّسة، أنّ الأربطة الاسلاميّة، رغم خصوصيّتها، واصلت بشكل أو بآخر، تقاليد "الدّير المحصّن المسيحي" مثل دير مندراكيون Mandrakion بقرطاجة[4]. وهو أيضا ما تبرزه تسمية المنستير التي أطلقت على أقدم حـصون إفريقـيّة مثل منسـتيـر السّاحل ومنستير عثمان[5] ومنسـتير صطفـورة (غار

1) ابن الأثير، *الكامل*، V، ص. 263 ؛ ابن خلدون، العبر، IV، ص. [illegible].
2) البكرى، ص. 83.
3) عياض (طالبي) ص. 13.
4) G. Marçais, Architecture, p. 34
5) البكري، ص. 718 "وهي قرية كبيرة آهلة بها جامع وفنادق كثيرة وأسواق وحمّامات وقصر للأوّل من الصخر. وأرباب المنستير قوم من قريش".

الملح). كما ذكر المالكي أنّه كان يوجد برباط سوسة "قوم من الجزيريّن يكبّرون في أيّام العشر ويرفعون أصواتهم بالتكبير، وكان يحي بن عمر يجوز عليهم إذا مضى إلى الجامع ويسمع تكبيرهم، فنهاهم عن ذلك وقال لهم : هذه بدعة"[6]. وهؤلاء الجزيريّين هم بدون شكّ مرابطون من أصل مسيحي -مثل أبي الغصن نفيس السوسي (تـ. 309هـ/ 921م)[7] - أدخلوا للرّباط الافريقي كثيرا من طقوس الرّهبة المسيحيّة. (النصرانيات)، وهو ما يفسّر تطوّر "الغنوص" والأفلاطونيّة المحدثة في هذه الأوساط. كما أديّ إزدهار المرابطة إلى غلبة أغراض النسك والزّهد على الأدب الأغلبي[8]، وسهّل كذلك عملية إدماج سكّان البلاد من النصارى وكذلك من المناويين في الدّين الجديد، وبالتّالي التراجع المبكر للمسيحيّة وديانة ماني في ربوع إفريقيّة.

وكانت أهمّ الرّباطات الأغلبيّة توجد على ساحل البحر، وهو ما يفسّر ما ذكره ابن ناجي حول أختلاف فقهاء افريقيّة عن "حصول الرّباط لمن خرج عن أهله وسكن بالسّواحل أو من استوطن بها"[9]. لكن بعض الحصون الأخرى، مثل جبنيانة، لبيدة، المنارة، الوردانين ومنستير عثمان، كانت تقع داخل الأراضي. كما أنّ القيروان ذاتها أعتبرت في بعض الأحيان رباطا[10]، وكان "جبل زغوان مأوى للصّالحين"[11]. وهذا الوضع يذكّرنا بما كان يوجد في صقلية، حيث ذكر الدّاودي بعض الرّباطات البعيدة عن البحر[12]. على أنّ كثافة هذه المنشآت على السّواحل لا ترتبط فقط بالغارات المسيحيّة، بل، وربّما أكثر، بالوضع العقاري الذي خلّفه رحيل الرّوم. ذلك أنّ ساحل سوسة - صفاقس والوطن القبلي، أيّ مناطق المرابطة التقليديّة، كانت أيضا آخر مناطق الصّمود المسيحيّ في إفريقيّة. وهذا يؤكد -علي غرار الوضع في صقليّة-[13] وجود قاسم مشترك بين المؤسّسة الإسلاميّة وعمليّة توطين الفاتحين الجدد في أراضي استولت عليها الدولة الجديدة وأقطعتها إمّا لرجالها أو حبّستها لصالح المرابطين مقابل خدمات معيّنة، وهو ما يفسّر أيضا

6) المالكي، I، ص. 497.
7) نفس المصدر، II، ص. 162-165.
8) انظر في هذا الصدد : مختار العبيدي، *الحياة الأدبيّة بالقيروان في عهد الأغالبة*، تونس 1994.
9) ابن ناجي، I، ص. 7.
10) المالكي، I، ص. 11 "فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير فأهلها مرابطون". كما ذكر مقديش (II، ص. 307) أنّ القيروان توجد بها "حومة المرابطين".
11) البكري، ص. 705.
12) الدّاودي، *كتاب الأموال*، ص. 446.
13) *نفس المصدر*، ص. 446.

انتشار الملكيّة القيروانية في الساحل ومقولة عقبة بن النافع بأنّ من كان على ساحل البحر حرس لأهل القيروان، "وهم عسكر معقود لأخر الدّهر"[14]. وقد وضّح هذه العلاقة أبو الفضل يوسف بن مسرور في كتابه "أحمية الحصون"[15]، عندما قال "إنّي نظرت في هذه الأحميّة التي على ساحل البحر، فوجدت أهل العلم لم يثبت عندهم كيف فتحت إفريقيّة : عنوة أو صلحا. فرأينا أنّ أحسن الأمور لمن سكنها أن يسكنها ومعه ما ينفق فيها على نفسه، ومن تلزمه نفقته، ويكون ذلك من حلال، فإن مسّته فاقة فرأيت له : إن كان ذا صنعة أن يعمل صنعته ويأتي بما يصيب من عمل يده، فينفق منه على نفسه فيكون له بذلك ثواب الرّباط ويسلم من متشابهات الحرام، وإن لم تكن له قوّة بدن ولا صحّة فليخرج وليحرث ما يكفيه عند الإخوان، فهذا أحبّ إليّ من الحرث في الحمي لما فيه من الشبهة"[16]. ويذكر المالكي أنّ "سكّان الحصون كانوا يبغضونه ويؤذونه" تنيجة لهذا الموقف الصّارم[17]. وكان سحنون بن سعيد، رغم انتمائه إلى الأرستقراطية الأغلبيّة التي تمتّعت بجزء من أراضي السّاحل، يشارك أبا الفضل هذا الاحتراز، ممّا جعله "يتصرّف كالمساقي في زيتونه، فكان يكسب منه بمقدار ما يستحقّه من العمل والخدمة".[18]

وتؤكد المنوغرافيّات التي أفردناها لرباطات إفريقيّة أن ما ذكره مؤلفوا كتب الطبقات حول "اخلاء الحصون" في العهد الفاطمي فيه كثير من المبالغة"[19]. إذ أنّه رغم تراجع بعضها، مثل قصر زياد، فقد تواصلت المرابطة أيّام خلفاء المهديّة الذين حاولوا بدورهم -خاصّة في عهد المنصور- توظيف المؤسّسة لصالحهم، وهو ما يفسّر "تشرّق ابن غازي" المرابط بقصر الطّوب[20]. ويذكر المالكي وجود مرابطين بالمنستير "متصلين بشيعة بنو عبيد"[21]، وكان "خلفاء المهديّة يبعثون بسعدون الخولاني [المرابط بالمنستير] في الأعياد بالأكباش والضّحايا فيقبلها ويفرّقها على الضّعفاء".[22] كما عرفت

---

14) المالكي، I، ص. 11.

15) حول هذا المصنّف انظر : حـ. حسني عبد الوهاب، *كتاب العمر*، تونس 1990، I، ص. 624 - 627.

16) المالكي، II، ص. 205.

17) *نفس المصدر*، II، ص. 235.

18) الونشريسي، *المعيار المغرب*، تحـ. محمّد حجيّ، بيروت 1981، VII، ص. 177 - 180.

19) ابن ناجي، II، ص. 199 "عبيد الله المهدي أخذ أموال الأحباس والحصون وأخذ السلاح الذي في الحصون التي على ساحل البحر".

20) المالكي، I، ص. ؛ ابن ناجي، I، ص. 24 ؛ الدّاعي إدريس، ص. 32.

21) المالكي، II، ص. 259.

22) *نفس المصدر*، II، ص. 260.

هذه المؤسسة دفعا جديدا في العصر الزيري، حيث حافظت على نظامها وأحباسها. وقد تحوّلت أغلب الرّباطات، مثل حصون جبل المنار (بقرطاجة) وقليبية والمنستير وجبنيانة إلى زوايا في العصر الحفصي، وهو ما يؤكد التّواصل الوظيفيّ بين هذه المراكز الصّوفية ورباطات العصر الوسيط الأوّل.

عمارة الرّباط

لا يوجد -على الأقلّ في العهد الأغلبي- معلم محدّد يسمّى رباط، ولهذا فنحن نشكّ في أنّ هذه التّسمية كانت تطلق في بداية العصور الإسلاميّة على "رباطات" سوسة والمنستير، رغم اعتبارها نموذجا لهذه المنشآت[23]. وتؤكد عدّة تراجم أفردها المالكي لنسّاك سوسة أنّ القرية الأوليّة ذاتها كانت تعتبر رباطا مقدّسا. ونظرا لهذه الوظيفة فقد اعتبرت، مثل عسقلان والمصّيصة وطرسوس، ثغرا، لا يمكن بيع دوره المحبّسة لمرافق المرابطين. وكانت، ككلّ الثغور، تغلق أبوابها ليلا، ولا تفتح قبل طلوع الشمس[24]، كما كان النسّاك (الذين خصّصت لرفاتهم مقبرة الشهداء) يمنعون بها الخمر والموسيقى، وجميع ضروب اللّهو[25]. وكانت رباطات المنستير وقصر زياد وجمّة وتبصة وصفاقس والحمّامات أيضا تجمّعات عمرانيّة محصّنة بسور خاصّ، ويتمحور عمرانها غالبا حول مجموعة من المحارس (المنستير، قصر زياد، وبرشانة). ولم يكن هذا النّموذج خاصّا بإفريقيّة، فرباطات الرّملة وعسقلان وطرسوس والاسكندريّة وأسوان (في المشرق) وتيت وكوز (في المغرب) كانت بدورها تجمّعات عمرانيّة. ويمكن أن يكون الرّباط أيضا محرسا صغيرا (لمطة، المحرس)، أو برج مراقبة، كما كانت محارس سوسة وصفاقس، وكذلك أبراج أسوارها تعتبر رباطات[26]. ومثلما هو الشأن بالنسبة لخانقاهات وخانات الشرق[27]، بعض الرّباطات الصغيرة لم تكن بعض الرّباطات معالم محصّنة، مثل مسجد الشّعاب

23) إلى حدود القرن التاسع عشر كان "رباط سوسة" ينعت "بقصر الاغالبة" في الوثائق التونسيّة. انظر : *برنامج وطن سوسة*، مخط. المكتبة الوطنية بتونس، 18669، ورقة 2.

24) المالكي، I، ص. 486، II، ص. 6، 230-414 ؛ عياض (طالبي)، ص. 156.

25) *نفس المصدر*، I، ص. 486.

26) المالكي، II، ص. 267 "المحرس الذي على باب القصر".

27) B. O'Kane, Timurid architecture, p. 287-97 ; L. Ibrahim et M. Amin, Architectura' terms in Mamluk documents, Caire 1990, p. 52.

بطرابلس. وقد أطلقت هذه التّسمية في بعض الأحيان على المقابر المحصّنة (رباط السيدة في المنستير) والفنادق[28].

وكانت السلطة تشرف عادة على إقامة الحصون، رغم إقدام بعض الموسرين على إنشاء بعضها، بعد موافقة الأمير لأنّ الأراضي التي تقام عليها صوافي حكوميّة أقطعت للمرابطين مقابل دعمهم للدّولة المركزية[29]. ويعود الفصل في إنشاء محرس علي وجبنيانة إلى علي بن سلم البكري، وشيّد قصور زياد وحبشي عبد الرّحيم الزّاهد وحبشى بن عمر، كما أنفق أبو يزيد بن عبد الله بن سهل القبرياني على بناء قصر سهل ألف دينار. ورفض ابن الجعد مساعدة الآخرين لإتمام بناء قصر الجعد بالمنستير، ممّا اضطرّه إلى بيع مصوغ أهله.

ورغم عدم وجود مخطّط معيّن "للرّباطات"، فإن أغلب الدّور المعدّة لإقامة المرابطين (في المدن وخارجها) في إفريقيّة أقيمت على نسق "رباطي" سوسة والمنستير. ويتكوّن مخطّط مرقب سوسة، وهو أقدم معالم إفريقيّة، من بناية مربّعة (39 X 39م) تحميها أبراج نصف دائريّة، بأستثناء الزّاوية الجنوبيّة -الشرقية التي يعلوها منار إسطواني الشّكل. وللقصر مدخل وحيد يفتح في برج مربّع متقدّم يفضي إلى دهليز مستقيم تحفّ بها حجرات الحرس، حيث توجد بعض الحنيّات المعدّة لرصف الكتب. ويؤدي هذا الدّهليز إلى صحن مكشوف يتوسّطه ماجل. ويشتمل الدّور الأرضي على مخازن (للمؤونة والسلاح)[30] مقبيّة تصطفّ على أسواره الأربعة، يتقدّمها رواق يفتح على الصحن، عدا مجموعة جدار المدخل القبليّة فإنّه يتقدّمها رواقان. وينتصب في الطّابق الثّاني مسجد (مسقوف بواسطة أقبية نصف دائريّة محمولة على أكتاف حجريّة) يحتلّ كلّ الجناح الجنوبيّ. وتنسب المصادر التّاريخيّة لهرثمة بن أعين بناءه "للرّباط" الأولي بالمنستير سنة 180 هـ/ 796م، وهو ما تؤكّده الكتابة التّاريخيّة التي كانت مثبّته في مسجده. ويتكوّن مخطّط هذا المرقب أيضا من حصن صغير مربّع (أضلاعه 32,80 X 32,40م) تقوم في زواياه أبراج دائريّة، عدا برج الزّاوية الشرقيّة فهو مربّع وترتكز عليه ابتداء من مستوى السطح منارة إسطوانية. وخلافا لمنار "رباط" سوسة الإسطواني، فإنّ منارة المنستير يتناقص غلظها في الارتفاع (قطرها عند القاعدة 6,37م

---

28) المالكي، I، ص. 363.
29) المالكي، I، ص. 422.

وارتفاعها 16,35م)، وقد قسّم سطحها الخارجي بثلاثة أفاريز بارزة. ويصعد إليها من مدخل يفتح علي سطح المسجد، يؤدّي إلى سلّم دائري يشمل على 89 مرقاة. وقد اعتمد هذا المخطط في بناء "رباطات" قبّوذيّة وهرقلة ولمطة وسيدي ذويب بالمنستير. وقد أقيمت هذه الحصون على نسق القصور والحصون الأمويّة في الشّام والخانات العبّاسيّة، مثل خان عطشان[31]. وقد حافظت أيضا قصور قبّوذيّة والمنارة وجبنيانة والسّخيرة على مناراتها (وكانت تستعمل أيضا لإرسال الإشارات النّاريّة)[32]، التي أبرز إبراهيم شبّوح علاقتها بالمنائر "الحربيّة" العبّاسيّة في الرّقة[33] ومصر[34].

حياة الرّباط

كان يؤمّ رباطات إفريقيّة نوعان من العبّاد : الموسميّون من العلماء أو من عامّة أفراد الشعب (من سكّان المدن والقرى المجاورة) يقصدونها خلال شهر رمضان وأيّام الجمعة والعيدين وعاشوراء[35]. أمّا الفئة الثانية فتتكوّن من المرابطين المنقطعين لمدّة طويلة بهذه الحصون، والذين يدفنون غالبا إلى جوارها. وذكر المالكي -على لسان أبي

30) ذكر ابن عذاري (I، ص. 202 - 206) أن زيادة اللّه الثالث كنز برباط سوسة كلّ أمواله إثر سقوط رقادة سنة 909م.

31) G. Marçais, Architecture, p. 34

32) ابراهيم شبّوح، "حول منارة قصر الرّباط"، ص. 16 : "و من المهمّ أن نسجّل هنا- اعتمادا على نصّ موثق متأخّر نسبيّا - أنّ الإشارات من فوق هذه المنائر بالنّار أو الدّخان كانت محكمة بحيث تمثّل رموزا مصطلحا عليها، يمكن بها تبليغ التّفاصيل عن عدد جيش العدوّ وعدّته. ويتولّى رصد هذه الاشارات والاخبار بها "درياب" و"نظّارة" مرتّبون لذلك . . وكان في منارة الاسكندريّة قوم مرتّبون، يوقدون النّار كله في الحزام الأوّل، فيؤم أهل السّفن سمت تلك النّار من جميع البلاد، ويوقد صاحب السّفينة النّار في سفينته، فإذا رأي المحترسون النّار في البحر زادوا في وقود النّار، وأوقدوها من جهة المدينة، فإذا رأي ذلك محترسوا المدينة ضربوا البوقات والأجراس حذرا من العدوّ". انظر أيضا : ابن فضل اللّه العمري، *التعريف بالمصطلح الشريف*، القاهرة 1312هـ.، ص. 199 ؛ *كتاب الاستبصار*، الاسكندرية 1956، ص. 98.

33) اتخذ المنصور، والرّشيد من بعده، الرّقة مركزا لتجميع الجيوش وقاعدة خلفيّة للحدود الاسلامية، وهو ما يفسّر تخطيطها الدّائري، وشكل منارتها الاسطواني. وفي هذه المنطقة نجد أيضا منارات دائريّة اخرى، مثل منارة قلعة جعبر ومنارة أبي هريرة (قرب الرّقة). ابراهيم شبوح، نفس المرجع، ص. 9.

34) خاصّة منارات أسوان (المشهد البحري، المشهد القبلي، الطّابية) وأبي الحجّاج بالأقصر وجامع إسنا وبرج العرب (قرب الإسكندريّة) (لـ. 1-3). ابراهيم شبّوح، *نفس المرجع*، ص. 13-14.

35) البكري، ص. 36 ؛ ابن حوقل، ص. 73 ؛ المالكي، I، ص. 332، 381، 497، II، ص. 192. انظر أيضا ابن ناجي (II، ص. 33) حول العلاقة بين المرابطة والمجاورة : "قال سحنون : كنّا نرابط بالمنستير فكان موسى بن معاوية الصّمادحي أطولنا صلاة، فإذا كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان طبّقها من أوّلها إلى آخرها، فإذا أصبح قال : توجّهوا بنا إلى القيروان فنقول له : أقم بنا حتّى نتعبّدها هنا، فيقول : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم إذا أقبل من حجّ أو عمرة فأشرف على المدينة أوضع على راحلته وقال : إسراعوا بنا إلى بنات الأقوام". وحسب دوزي (I، ص. 502) كان أبناء الحامية التركيّة بالمدينة يسمّون أيضا مرابطون.

علي المكفوف، المتعبّد بالمنستير- أنّ أحد طلبة سحنون بن سعيد الأندلسيين أراد سكني المنستير، "فقال له لا تفعل، فإنّ الذي أنت فيه أولي. ثم قال سحنون : إن سكنته فأجتنت أربعا : لا تجلس في السّقيفة، ولا تأخذ مزرعة ولا جنانا، ولا تأخذ صدقة، ولا تكن لهم إماما. ثم فسّرها أبو علي فقال : أمّا السّقيفة فهي سوق الخسارة، ومن أخذ جنانا أو مزرعة لزمه أن يذبّ عنهما في كلّ أمر من لوازم الحصون، وأمّا الصدقة فهي أوساخ الدّنيا، وأمّا الإمام فإنّما يعنى المتولّي لأمورهم كالأمير وشبهه"[36]. وأورد المالكي أيضا أنّ "الأعرج -وكان أمينا على المنستير- ذبح يوما شاة، فقال لخلفون التونسيّ : إمضى بربع هذا الشّاة إلى بشير المتعبّد، فقال خلفون : فمضيت إليه فوجدته قائما على باب نوّالته، فلمّا رآني وضع يده على أنفه وقال لي : إليك يا خلفون الجيفة معك[37] إذهب عنّي، فمضيت بالرّبع في يده ولم يقبله"[38]. وتؤكّد هذه الأخبار الاحتراز الذي كانت تبديه بعض الأوساط الدّينيّة إزاء حياة الرّباط، أو على الأقلّ بعض مظاهرها، وهو ما يتنافى مع "القدسيّة" التي حاول البعض إسباغها على روّاد الحصون.

وكان الأمين، أو الامام، يشرف على شؤون الرّباط ويتصرّف في أحباسه، ويسمّي أيضا أمين الفقراء وشيخ الفقراء[39]. ويعود الفضل في إحداث هذه الخطّة إلى سحنون بن سعيد[40]. ويذكر مؤلف الرّياض أنّ أبا الفضل الغدامسي كان في أوّل أمره يغسل الميض (بقصر الجعد) ويخدم المرابطين "ويحتطب لهم ويعجن لهم الخبز ويسخّن لهم الماء". وقد انتقل "من حال إلى حال إلى أن بلغ الدّرجة التي مات عليها" (شيخ للفقراء)[41].

36) المالكي، II، ص. 407.

37) ويقصد هنا الرّزق الحرام أو المشتبه في مصدره. انظر المالكي (II، ص. 217، ترجمة القمّودي). وكان هذا النّاسك "لا يأكل اللّحم حين كان لحما، فكيف حين صار جيفة - يعني لمّا أشتبهت أغنام النّاس وأختلطت في الحروب".

38) المالكي، II، ص. 437. ولهذا الغرض أيضا أقام أبو جعفر أحمد الإطرابلسي أربعين سنة بقصر دويد "لم يشرب من صهريج ماء القصر ولا دخل لهم مرحاضا... ولا يأكل من لحم صيد بحر المنستير طريّا ولا مالحا" (المالكي، II، ص. 433). وأهداه المرابطون "سفنجة بعسل، فصاح بأعلى صوته : يا صاحب القلادة خذ قلادتك (*نفس المصدر*، II، ص. 434). كما أن الحسن بن نصر المتعبّد بسوسة "رفض قبول أكلة فاخرة أهداه إياها متولّي أحباس سوسة لأنّها من الدّواخل" (المالكي، II، ص. 396).

39) المالكي، II، ص. 407، 437، 404 ؛ مقديش، II، ص. 321 ؛ هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 305.

40) عياض (طالبي) ص. 104.

41) المالكي، II، ص. 441.

وهذا يعني أنّ المرابط، مثل المريد في الطّرق الصّوفيّة، يتدرّج من خطّة إلى خطّة إلى أن يصبح شيخا. وقد تواصل العمل بهذا النظام في العهد الحفصي، مثلما تؤكدّه وثيقة (مؤرخة في سنة 825هـ/ 1422م) تتعلّق برسم "حبس لهنشير ابن منصور بالمهديّة قام به أبو عبد اللّه محمد بن أبي عبد اللّه التّميمي، صاحب الزّاوية برباط المنستير لفائدة إبنه وفقراء القصر الكبير، والواردين عليه من طلبة"[42]. ويذكر ابن ناجي أنّ "خديم قصر المنستير إبراهيم الهوّاري تولّى جمع غلّة الأحباس من بلاد الجريد نقدا، من العملة الفضيّة التي أوصلها إلى شيخ الفقراء بالقصر أبو عبد اللّه الرّياحي"[43]. وتؤكد هذه الأخبار أنّ الفوارق بين الرّباط والزّاوية كانت محدودة جدّا وأنّ المرابطة حضّرت الأرضيّة التنظيميّة والعقديّة لزوايا العصر الحفصي.

وخلافا لأهل الموسم كان أهل الدّور يكثرون من التّنقل بين الحصون للرّباط والحرس[44]. لكن هذا الحرس لم يكن ذو طابع عسكري، إذ يذكر ابن ناجي أنّ "أبا القاسم عبد الوهاب بن عبد اللّه كان كثير السياحة والرّباط، لا يمرّ بشرف أو بقبر أو روضة حسنة إلا وركع فيها". فهذا الدور كان "سياحة" من قبيل "الزيارة" الصّوفية التي تطوّرت في العصر الحفصي[45]. ويمكن أن نقول أنّ المثل الأعلى لحياة الرّباط هو ما ذكر عن أبو الأحوص المتعبّد بسوسة الذي كان ينشد :

أبو أن يرقدوا الليل فهم للّه قوّام

أبو أن يفطروا الدّهر فهم لله صوّام

أبو أن يخدموا الدّنيا فهم للّه خدّام[46].

ومن أجل هذا كان المرابطون يقضّون أغلب لياليهم في القراءة والصّلاة والبكاء (وكان الكثير منهم ينعت بالبكّاء). ويذكر المالكي "أنّ أبا حفص عمر بن عبد اللّه الصّدفي كان قد سكن قصر الجعد فكان في ركن منه، وأبو عبد اللّه بن دارة في الرّكن الثّاني، وأبو الفضل الغدامسي في الرّكن الثالث، وأبو عبد اللّه بن سعدون في الرّكن

42) محمد حسن، *المجلّة التّاريخية المغربيّة*، 1988، ص. 221.
43) *نفس المرجع*، ص. 229.
44) المالكي، II، ص. 241، 257 - 258.
45) انظر : J.S. Trimingham, The sufi orders in Islam, Oxford 1971, p. 166-186.
46) المالكي، II، ص. 483 ؛ مختار العبيدي، *الحياة الأدبيّة بالقيروان في عهد الأغالبة*، تونس 1994، ص. 130 - 132.

الرّابع، فكانت أركـان القصر تدوّي بالقـراءة اللّيل كلّه، وبالبكاء تارة، وبالنّيـاحة تارة، وهم من أركان القصر يتجاوبون"[47]. كما كان العديد منهم يسرد الصّيام السنة كلّها، أو يعكف عن الكلام طيلة ثلاثة أشهر"[48].

ويرتبط الرّباط في سوسة بمساجد الدّمنة (مسـجدي السبت والخميس، أو الخضر)، حيث كان النسّاك يعقدون حلقات صـوفيّة تقرأ خلالها الرّقائق[49]. وحرّم المازري بعض الإستعراضات اللّيلية التي كانت تنظّم في سوسـة والمنستير، إذ كان المرابطون "خلالها يتجـمّعون إثر صـلاة العشاء الأخـيرة ويتوجّـهون إلى الأسوار على ضـوء السّرج، على غرار الجنود، مـردّدين بصوت واحد سـبحان اللّه وبحـمده، سبحـان اللّه العظيم". ثم يجتاز المـوكب المدينة بنفس الطّريقة إلى أن يصل مـرّة ثانية إلى السّور"[50]. وقد اعتبر المازري هذه الطّقـوس (التي واصلتها خـرجة أبي سعـيد الباجي) بدعـة، شهّر بهـا قبله سحنون[51]، وحاول منعها يحي بن عمر[52]. وقد تواصلت هذه الطقوس أيضا في القصور الحفصيّة، خاصّة جبل المنار وقليبية التي كانت تعقد بها الحلقات الصوفيّة[53].

ويمكن أن نقول أنّ عناصـر التّواصل مع الموروث القـديم عند الكراميّة في المشـرق نجدها عند مرابطي إفـريقيّـة. فقد كـان بعض العبّاد يتـشبّه برهبـان النّصاري بإرتداء لبـاس خاص (زيّ النسّاك عـند اللّبيدي) وخـاصّة "الأكـسية والمـلابس الصّوفـية الخشنـة ذات اللّون الأسود"[54]، وأصبح زيّ النسّاك شائعا أكثر منذ القرن الرّابع للهجرة[55]. وكان البعض الآخر يتعفّف عن التردّد على النساء، ويذكر المالكي أنّ أبا هارون الأندلسي المتعبّد بقصر لمطة "ما أغتسل من جنابة قطّ إذ كان حسورا لا يأتي النسـاء"، أمّا عبد الرّحيم بن عبـد ربّه "فإنّه ما تزوّج قطّ ولا تسرّي"[56].

---

47) المالكي، II، ص. 445.

48) *نفس المصدر*، II، ص. 126، 236، 351.

49) المالكي، II، ص. 212.

50) هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 307. راجع أيضـا : عيـاض (طـالبي)، ص. 290 ؛ محـمـد مخلوف، ص. 71.

51) *المدوّنة*، II، ص. 42 "أرأيت الذي يكبّر به هولاء الذين يرابطون على البـحر ؟ فقـال : التكبيـر لا بأس له، ويطربون في اللّيل ؟ فقال : التطريب أنكره".

52) المالكي، I، ص. 495، 497.

53) N. Djelloul, Les installations militaires, I, p. 283.

54) هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 307 ؛ اللّبيدي، ص 177.

55) مقديش، II، ص.

56) المالكي، I، ص. 423، 516، I، ص. 236 : "قـال يونس : قال لي يـوما [أبي الفـضل] يا بنيّ إنّمـا يريد البقاء في الدّنيا من كان يتلذّذ بالطّعام والشّراب والنّساء، وأنا واللّه عدمت شهوة الثّلاث".

على أنّه رغم معارضة بعض النسّاك[57] والفقهاء[58]، فإنّ العديد من المرابطين كانوا يقيمون في الحصون صحبة زوجاتهم وأبنائهم[59]، خاصّة وأنّ هذه المنشآت كانت غالبا تجمّعات عمرانية متكاملة. كما تذكر مصادرنا وجود نساء مرابطات[60]، وهي ظاهرة ستتدعّم في العصر الحفصي[61]. ولم يمنع وجود النساء والجواري[62]، من وجود بعض المتعاطين للّواط، وهي ظاهرة تذكّرنا بما كتبه ابن حوقل حول رباطات صقليّة[63].

وينحدر المرابطون من كافّة الفئات الإجتماعيّة، كما كان يتردّد على حصون إفريقية العبّاد من العراق وخراسان ومصر والمغربين والسودان، وخاصّة من الأندلس(63). وكان بعض الأفارقة يرابطون بالشام (خاصّة بجبل اللّكام والأكواخ وطرسوس) ومصر (بجبل المقطّم والإسكندريّة)[64]. وإضافة إلى الحراسة والفلاحة والصيد البحري فقد كانوا يتعاطون العديد من الحرف (داخل الحصون) مثل صناعة الغرابيل والحبال (الحلفاء) والوراقة والتعليم. وكان العديد منهم فقهاء بدن ومتطبّبون[65]. وكان محمد بن حميد (المتعبّد بسوسة) وأبو البشر بن يونس يخدمان الجذماء في دمنة سوسة[66].

---

57) المالكي، I، ص. 433 "كان لواصل [المتعبّد بجمّة] أخت، فكان لإشتغاله بالعبادة لا يفرغ لزيارتها، وكانت لا تقدر على الوصول إليه، فلمّا حضره الموت مضي بعض أصحابه فأتى بها، فقال واصل : لا سبيل إلى دخولها، ولا أكون أوّل من أباح للنّساء دخول الحصون. إجعلوها عند باب القصر تبكي وتنوح حتّى أسمعها".

58) الونشريسي، VII، ص. 177 - 180. كان مالك يبيح للمرابطين إصطحاب نسائهم، في حين لا يعارض سحنون ذلك إلاّ بالنسبة لحصون سوسة والإسكندريّة. راجع : M. Talbi, Etudes , p. 108

59) المالكي، II، ص. 239، 393، 191 "أبو عبد الله الغيمي الفخّار : كان من العلماء المنقطعين للعبادة بقصر الطوب، وله في كلّ ليلة ختمة. . . وممّا يذكر عنه أنّه ختم في ليلة ثلاث ختمات ووطئ أهله ثلاث مرّات عند كلّ ختمة، فلمّا مات قالت إمرأته : رحمك الله، فقد كنت مرضيا لربّك ولأهلك".

60) المالكي، II، ص. 403، 415 "مرابطة من الصّالحات تجمع للمسوحي بقل الفحص المباح" ؛ البكري، ص. 36.

61) مقديش، II، ص. 255.

62) المالكي، I، ص. 423.

63) المالكي، II، ص. 452-453 "خرج أبو الفضل الغدامسي من بيته ليلة من اللّيالي إلى المسجد [برباط إبن الجعد] فنظر إلى شابّ من جيرانه يقبّل حدثا، فأوهمهما أنّه لم يرهما وتمادى إلى المسجد". وكان الحسن بن نصر" في أيام الموسم وقدوم أهل القيروان إلى الرّباط يجلس في القبّة التي يوذّن فيها في جامع سوسة، وكانت تشرف على أبواب البحر، فإذا رأى رجلا معه حدث أمر بأن يؤتى به، فإن كان الصبيّ من الرّجل مثل أبيه أو قرابته تركه، وإن إسترابه منعه من التصرّف به". المالكي، II، ص. 403. قارن ما كتبه ابن حوقل حول رباطات صقلية بترجمة أبي الأحوص احمد بن عبد الله الذي تحوّل إلى مرابط بعد أن نفذت أمواله. المالكي، I، ص. 482.

64) المالكي، I، ص. 198، II، ص. 414.

65) المالكي، II، ص. 252، 471، 502. وكان أبو إسحاق أحمد السبائي (ت. 356 هـ/ 966م) "تظهر عليه البراهين والكرامات بالدّعاء، والرقيّ".

66) أصبح ابو عبد الله محمد بن أبي حميد "ضريرا لأنّه كان يخدم الجذماء" : ابن ناجي، II، ص. 170.

وقد قام بهذا الدّور فيما بعد متصوّفة العصر الحفصي. وكان أبو القاسم عبد الوهاب بن نصر يخدم الأرامل والأيتام والفقراء"[67]، أمّا واصل الجمي المتعفّف عن النساء، فقد كان مشتغلا بمحاربة إبليس الذي كان يظهر له في صورة إمرأة[68].

وقد أكدت كتب الطّبقات كثيرا على حياة التقشف والبؤس التي كان يحياها هؤلاء النسّاك، فقد كانوا يلبسون الخرق ولا يقتاتون إلاّ من بقل البريّة ودقيق الشعير. و كان أبو عبد الله المسوحي "يمكث السبعة أيّام لا يأكل طعاما، ويتغدّى من بقول البريّة والزيت". وأقام "أبو الفضل يوسف بن مسرور أربعين سنة ما طبخ قدرا ولا أوقد في بيته مصباحا". وذكر فتحون القصرى أنه "حمل إليه هديّة عسلا وسميدا وكعكا فقال له: لي ثلاثون سنة ما أكلت هذه الطّرائف، لم أسكن هذه الحصون لآكل بديني، وفرّقها على الفقراء"[69]. وكانوا نظرا لهذه الحياة البائسة عرضة للبقّ والبراغيث والقمل، ولهذا كثرت الفتاوي حول التفلّي في المسجد[70]. على أنّ العديد من المرابطين كانوا "يأكلون بدينهم"، إذ نجد في كتب الطّبقات ذاتها كثيرا من الإشارات إلى "فاخر الأطعمة ونفيس المآكل" التي ذكرها ابن حوقل[71]. فقد غادر عبد الرّحيم ابن عبد ربّه المنستير لأنّ المرابطين أصبحوا "يدقّون التّوابل لقدورهم"[72]. وكان لجبلة بن حمّود (المرابط بقصر الطّوب) خادمه الخاصّ يتولّى شؤونه. وكان القمّودي (قصر الطّوب) في بدايته يعمل في الحمّامات "يخدم بها ويوقد فيها فلزم الرّباط واشتغل بعمل الحلفاء ثم ترك ذلك". ورغم انقطاعه عن العمل وجذوره الاجتماعية المتواضعة، فقد كان له خادمه الخاصّ. وكان لأبي حفص عمر بن عبد الله (قصر الطّوب) زوجة بسوسة، فكان يتردّد عليها ويلبس ثيابا جميلة ويتزيّا بزيّ التجّار ويتصرّف مثلهم في الأسواق"[73]. ونجد أيضا في كتب

67) المالكي، II، ص. 266.
68) *نفس المصدر*، I، ص. 431.
69) *نفس المصدر*، I، ص. 415، II، ص. 234.
70) المالكي، I، ص. 436 "زار سعدون الخولاني واصلا، فلمّا دخل القصر قام المرابطون وقالوا: إذا سلمت علي واصل تسأله أن يدعو لنا في زوال البقّ عنا، فقد حلّ علينا منه أمر عظيم". انظر أيضا: ج. II، ص. 31، 23، 236، 433-434، 444.
71) ابن حوقل، ص. 131.
72) المالكي، I، ص. 429-430.
73) *نفس المصدر*، I، ص. 437.

الطّبقات أيضا بعض الاشارات إلى اللّهو والترف[74] رغم أنّها ظواهر حاربها المرابطون.

وظائف الرّباط

أسطورة النّاسك المحارب

ذكر محمّد الطّالبي بأنّه "لم يحصل إلاّ على بعض الإشارات بخصوص الغارات البيزنطيّة "في فترة أبي ابراهيم الأغلبي الذي تنسب إليه المصادر العربيّة إحداث عشرة آلاف حصن. وعلّل ذلك بكونها "كانت هجمات خاطفة محدودة الأهميّة، فلم يعن بها المؤرخون". وللتأكيد على تواتر هذه الغارات ذكر تعدّد الرّباطات[75]. ونحن نشكّ كثيرا في هذا التفسير الذي يعود سببه الي الإعتقاد السّائد بأن الرّباطات كانت قبل كلّ شيء منشآت ذات طابع عسكريّ، وهو ناتج عن سيادة ايديولوجية الجهاد التي تحدّثنا عنها من الفصل الخاصّ بحصون الشّرق. فسكوت المصادر العربيّة- التّي أولت عادة مكانة هامّة لهذه التّواريخ -عن هذه الغارات يؤكد بكلّ بساطة ندرتها، في فترة سيطرت فيها البحريّة الأغلبيّة على الحوض الغربي للمتوسط[76]، ممّا مكّنها من احتلال صقليّة ومالطة وفرض الحصار على روما سنة 232 هـ/ 836م). ونجد في المصادر العربية بعض الإشارات إلى مشاركة نسّاك الرّباطات في الدّفاع عن السواحل، فقد ذكر المالكي "عن أبي جعفر أحمد الكوفي المرابط بالمنستير قال: كنّا مع بعض الخلفاء في غزوة، وكنّا معه من أهل الثغور أثنتا عشر ألف فارس، وكان يقضيَ لنا كلّ يوم حاجتين نكتب بهما إليه في رقعة... فلمّا بلغنا أنّ البهلول بن راشد ضرب بإفريقيّة تخلخل العسكر"[77]. وكان أبو جعفر الأربسي وأبي بكر بن أبي عقبة وأبي سعيد خلف السرّتي "يخرجون من سوسة فيقفون صفّا واحدا كأنّ العدوّ بين أيديهم، ويجرون خيولهم في

---

74) ويورد المالكي (II، ص. 464) حوارا معبّرا بين أبي سعيد النوفلي (المرابط بالقصر الكبير) وأبي العبّاس الأجدابي يدعّم ما ذهبنا إليه. "قال أبو سعيد: يا أبا العبّاس أعندك غلام؛ فقال نعم، فقال له: ما الذي يعمل؟ فقال: يخدم ويقف على الباب. قال له: فهذا نحن لنا بوّاب على القصر بلا شراء. أعندك مرحاض يوقد به القنديل الليل كلّه؟ فقال: لنا إنّما يوقد وقت الحاجة إليه. قال: فهذا نحن عندنا سبعة مراحيض توقد فيها القناديل اللّيل كلّه. فقال له: أعندك يا أبا العبّاس في دارك بئر يشترى لها دلو وحبل من وقت إلى وقت؟ فقال له: نعم، فقال: فهذا نحن عندنا بئر لا نشتري لها حبلا ولا دلوا ولا نهتمّ بشيء من هذا... وإذا صبّ ماء المطر نخرج إلى المسجد لا نمشي في الطين ولا في الزّلق... إنّما يريد بها أن يذكر نعم اللّه على المرابطين". حول مظاهر البذخ في الحصون أنظر أيضا: الرياض (II، ص. 126، 260، 447-449، 464). وحول الملاهي والخمر بسوسة (II، ص. 401).

75) محمد الطّالبي، *الدّولة الأغلبيّة*، ص. 271.

76) انظر: عبد العزيز سالم، *البحريّة الاسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط*، II، ص. 47-48.

77) المالكي، I، ص. 214.

ذلك الموضع حتّى تطلع الشمس"[78]. وكان خلف السّرتي ("من علماء القيروان الموسرين")، يرابط بقصر سهل كلّ شهر رمضان. "وكان يحسن الفروسيّة، مولعا بشراء الخيل، يخرج للرّباط بها للحرس على المسلمين".[79] ويؤكد نصّ المالكي أنّ أبي جعفر الكوفي يشير إلى وضع سابق، في حين أنّه يمكن إطلاق نعت "الفلكلور العسكري" على "تمارين" السرتي والأربسي.

وذكر المالكي أنّ أبا بكر محمد بن سعدون الجزري التّميمي المتعبّد بقصر الجعد "غزا غزوات بالشّام، وكان يقوم في جموع المسلمين فيحرّضهم على الجهاد بمقامات كانت عنده، وبشعر الدّهلفي، وبما يتشوّق ويبكي، فكانت النيّات تنبعث منه".[80] تؤكد عدّة تراجم أخرى[81] أن مشاركة المرابطين في الحروب كانت تتوقف على هذا النشاط التعبويّ -الدّينيّ (الذي كان رجال الكنيسة يقومون به في الطرف المقابل)، وكذلك مساعدة السلطة الأغلبيّة في عمليّة حشد المتطوّعين للقتال[82]، وهو دور ورثته عنهم متصوّفة العصر الحفصي. أمّا ما ذكر حول مشاركة محمّد بن سحنون في صدّ إحدى غزوات القراصنة النّصارى قرب السّاحلين، فكلّ المؤشّرات تدلّ على أنّها كانت مجرّد صدفة[83] لا تجعل البتّة من هؤلاء النسّاك "رهبانا - محاربين" مثلما يحلو للبعض تسميتهم. وكانوا يقومون بهذا الدّور أيضا إبّان الحروب الدّاخليّة، مثل مشاركتهم في حصار المهديّة مع جيوش صاحب الحمار[84]. ويبرز هذا التوجّه بوضوح عند جبلة بن حمّود الذي غادر الرّباط السّاحليّ وسكن القيروان بعد انتصار الشيعة سنة 909م[85]. على أنّهم كانوا، رغم تعصّبهم المذهبي،

---

78) المالكي، II، ص. 15.
79) *نفس المصدر*، II، ص. 276.
80) المالكي، II، ص. 414.
81) المالكي، II، ص. 267 "قال أبو القاسم اخرج بنا نمشي على البحر فإنّها عزوة. فرحنا نمشي ناحية القبلة وهو يكبّر ويذكر اللّه حتّى انتهينا إلى قرب الحمّامات".
82) ابن عذاري، I، ص. 144 ؛ محمد الطّالبي، الدّولة الأغلبيّة، ص. 728.
83) المالكي، I، ص. 447.
84) كان أبي الفضل عبّاس بن العبّاس الممسى (قتل سنة 333 هـ/ 944م بالوادي المالح ابّان حملة أبي يزيد على المهدية) يرى "أنّ الخروج مع أبي يزيد وقطع دولة بني عبيد فرض لازم لأنّ الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم إسم الإسلام وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنّهم مجوس زال عنهم إسم الاسلام". المالكي، II، ص. 295.
85) المالكي، II، ص. 37-38. لما ترك جبلة الرّباط "خوطب في ذلك وقيل له: أصلحك اللّه كنت بقصر اللطّوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرّباط والحرس ورجعت إلى هاهنا ؟ فقال : كنّا نحرس عدوّا بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذّي حلّ بساحتنا لأنّه أشدّ علينا من الرّوم. فكان إذا أصبح وصلّي الصبح خرج إلى طرف القيروان من ناحية رقّادة ومعه قوس ونشابه وسيفه وترسه وجلس محاذيا لرقّادة فيقيم نهاره في ذلك الموضع فإذا عند الغروب رجع إلى داره... وكان يحرس بالعشيّ عند الفرانق، فقيل له في ذلك فقال : أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم فإذا رأيت منهم شيئا حرّكت المسلمين عليهم".

يتحاشـون المشاركة الفعليّـة في القتال[86]. وذكر المالكي أنّ عـبد الله الغيمي المـرابط بقصر الطّوب "كان في تجهّـده فوقع قتال عظيم في الحـصن بصياح شديد، فـقال : ما علمت به وهو لم ينم"[87]. أمّا أبا جعـفر القمّودي فإنّه "سـأل الله أن ينقص من سمعه فنقصـه فهو لا يسمع إلاّ مارفع الصوت به كثيرا، وكان يكره فضول النظر فسأل الله عزّ وجلّ أن ينقص من بصره فنقـصه منه، فهو لا يبـصر إلاّ من كان معه فـي الغرفة"[88]. وهذه المواقف والعاهات تتنافي مع طبيـعة الحيـاة العسكريّة، كمـا يتنافى ذلك مع ما أقدم عليـه المرابط إسمـاعيل بن رباح الجزري. فـقد ذكـر المالكي أنّه بعد عـودته من الحجّ "ركب مع جمـاعة في البـحر، فتحرّك عليهم الهواء، فقالوا له : يا أبا عبد الله ادع لنا، فقال : قد قضيتم حاجتكم فما الذي تريـدون ؟ ثمّ أخذ مصحفـه فجعله في عنقه، ثم غطّى رأسـه بكسائه، ثم غرقت بهم الموكب"[89]. وشارك سعدون الصوّاف، المـرابط بهرقله، مع صاحـبه ابراهيم الخراساني، في حملة أبي العبّاس محمد بن الأغلب على رومة سنة 836م، فأستشهـد الخراساني "فـجعل أبو زكرياء يـقول : ياربّ خرجت أنا وصـاحبي في حاجة فقـضيت حاجته وتركت حاجـتي، فخرج عنق من الرّوم فدفعـوا دفعة واحدة فقـتلوا أبا زكريّاء"[90]. ونتـيجة "لسـلبيّتـهم" وعدم تـمرّسهم بـالقتال، كـان هؤلاء "الرّهبان المـحاربين" عاجزيـن حتّى علي صدّ عمليـات السّرقة العـديدة التي كانت تستهدف لها الحصون. ويروي عن عيشون البكّاء، المرابط بقصر زياد" أنّ الأهالي كانوا يأتمنونه، فأودعوه حليّـا ومتاعا، فعمل اللّصوص علي قصـره، فأتوا بالشّموع والسّلالم، وطلعـوا ففتـحوا باب القصـر وخلصوا ما فـيه. قال : فلمّـا نزلوا قطعوا عليّ صلاتي وقـالوا : هات ما عندك من وداعـة، فقلت : ما شـاء الله، لا قوّة إلاّ بالله، لا يأتي الخير إلاّ الـله. . . فنزعوا ثيابي وتركوني في مئـزر، وقالوا : يخرج من كل طائفة رجل يقتلونه في مرّة، فوقف ستّة نفر ورفـعوا سيوفهم ليقتلوني، فلمّا أيقنت بالهـلاك رفعت رأسي تحت ظلال السـيوف إلى السّـماء، فـقلت : ياغـيات المستغيثين أغثني، فـوقعوا على ظهورهم وطارت سيوفهم من أيديهم، ونظرت إلى

86) المالكي، II، ص. 124 "قال أبو القـاسم بن تمام : مـضينا إلى قـصر الطّوب في عشـرة أنفس إلى أبي يونس فقلنا له : اكـتب كتابـا إلى أمّ الأمير فـإنّ زيادة الله أخذ مائتي رجل من أهل القـرآن فأرسلهم إلى العـسكر رماة. . . فقال : قد سألت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيهم فقال لي أغد يطلقون".

87) المالكي، II، ص. 191.

88) *نفس المصدر*، II، ص. 216.

89) *نفس المصدر*، I، ص. 341.

90) المالكي، I، ص. 418.

نفسي قائما في أعلى القصر لا أدري والله كيف وقعت وخرجوا هاربين"[91]. كما أنّ اللّصوص كانوا في كثير من الأحيان لا يكتفون بنهب "الودائع" وأمتعة المرابطين، بل يعمدون أيضا إلى قتلهم وتعذيبهم وإهانتهم[92]، كما كان بعض الأهالي يعمدون إلى إفساد زرعهم[93]. وكان النّاسك ابراهيم بن العربي من أجلاّء عبّاد الجزيرة. ولكنّه كان يتحاشى التوجه للرّباط بدون مشورة أمّه، "فقالوا له : في مثل السير للرّباط تشاور والدتك، فقال لهم : نترك ماهو أفضل لي (طاعة الوالدة) ونخرج في ماهو أتعب وأقلّ أجرا"[94]، ممّا يدلّ على أن جزءا من رجال الدين كان لا يري في الرّباط جهادا مقدّسا، لأنّه كان من قبيل "المجاهدة الصّوفيّة" ولهذا كانّ أهمّ ثغور إفريقية -طبنة- خاليا من المرابطين.

وخلافا للمرابطين كانت أغلب الرّباطات -مثل بعض المساجد- معالم ذات وظيفة عسكريّة، إذ كان الأهالي يلجئون إليها إبّان الغزوات المسيحيّة[95]. أمّا المرابطون فإنّ دورهم العسكري كان يتوقّف -إلى جانب التعبئة الدّينيّة-المذهبيّة- على حراسة السواحل ليلا[96]، وهي مهمّة كانوا يعهدون بها في بعض الأحيان لخدمهم[97]. وتفسّر هذه المهمّة وجود المنارات في الأربطة، ولكنّنا نشكّ في ما ذكر حول "وصول الخبر في ليلة واحدة من سبتة إلى الاسكندريّة" عن طريق النّيران[98]، كما أنّ العديد من

---

91) اللّبيدي، ص. 43 ؛ مقديش، II، ص. 216. وذكر المالكي (I، ص. 341) أن المرابط إسماعيل بن رباح "كان في رفقة فسلبتهم السلاّبة وكانت في حياصته دنانير، فلمّا عرفت السلاّبة أنّ في المسلوبين إسماعيل بن رياح ردّوا على النّاس جميع ما سلبوا". وفي الرّياض أيضا (ج. II، ص. 255) : "كانت ضاعت لي حمارة وولدها من المرسي فأتاني فقال لي : يا أبا عثمان الذي سرق لك الحمارة وابنها مضي بهما إلى المهديّة ليبيعهما، فلقيته في بعض طرق المهديّة وقلت له : هذه الحمارة وولدها لسعدون الخولاني [شيخ المنستير] فردّهما."

92) اللّبيدي، ص. 234-235، 241، 242 ؛ مقديش، II، ص. 261 ؛ هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 306.

93) المالكي، I، ص. 42.

94) نفس المصدر، II، ص. 353.

95) ابن حوقل، ص. 72 ؛ المالكي، II، ص. 240 ؛ البكري، ص. 721 "وبشرقي مدينة طبرقة على مسيرة يوم وبعض آخر قلاع تسمّي قلاع بنزرت، وهي قلاع يأوي إليها أهل تلك النّاحيّة إذا خرج الرّوم غزاة إلى بلادهم، وهي مفزع لهم وغوث، وهي رباطات للصّالحين".

96) المالكي، II، ص. 240-241 "قال أبو الفضل : كنت بسوسة منذ أربعين سنة فجاءات مخاوف من العدوّ ومشت مراكبه في البحر، فأخذ الوالي أهل سوسة - أصحاب النّوالات وغيرهم - بالحرس... فسمعت صبيّة تقول لأمّها : يا أمّاه قد جاء المرابطون ليحرسوننا، قم بنا نرقد، فأعجبني ما سمعت".

97) المالكي، II، ص. 464. راجع أيضا نفس المؤلف (II، ص. 40، 214، 217) حول تعدّد الخدم بالقصور. كما أورد في ترجمة أبي عبد الله محمد بن بسطام بن رجاء الضبي - المتعبّد بسوسة - (II، ص. 181) أنّه "اشترى وصيفا لإصلاح المصباح في حين نسخه باللّيل، وكان يتّخذ له القصب الحلو يقطعه قطعا لطافا، فإذا نعس الوصيف جعل في فيه قطعة ليزيل عنه النّعاس".

98) عبد الهادي شعيرة، "الرّباطات"، ص. 20

المنارات كانت مجرّد مآذن. وإلى جانب الانذار بوصول عمائر الرّوم، يمكن أيضا ذكر وظيفة ثانية تتّصل بالحرب، وهي فدي أسرى المسلمين، مثلما كان يحدث في رباطات فلسطين[99]. وقد قام سحنون مرّة بفداء أسرى المسلمين في أحد حصون صفاقس، وأجبرهم على دفع الفدية "لأنّ الأمير رفض اعطائه ما فداهم به"[100]، ممّا يؤكد أن السلطة كانت تشرف على هذه العمليّة، وتتقاسم الأرباح مع المرابطين.

الرّباط والفلاحة

تزامن وصول أبي ابراهيم الأغلبي (الذّي ينسب إليه بناء عشرة آلاف حصن) مع الزّلزال الذي ألحق أضرارا جسيمة بمدن[101] وقرى افريقيّة، خاصّة في منطقة السّاحل[102]؛ ولهذا إرتبط إنشاء الرّباطات بإعادة تعمير المدن وإحياء المناطق الفلاحيّة. كما أنّ هرثمة بن أعين، الذي يعود إليه الفضل في احداث الرّباط الأوّليّ بالمنستير، إهتمّ من قبل بإحياء أراضي وقرى فلسطين وأرمينيّة، حيث أنشأ أيضا مجموعة من الرّباطات[103]. ومن جهة أخرى نعرف أنّ الدّولة الأغلبيّة فرضت على مرابطي صقليّة قطع الخشب مقابل تمتّعهم بأراضي الحصون التي قاموا بإحيائها[104]. كما نعرف أيضا أنّ منطقة السّاحل -التي تكاثرت فيها الأربطة- عرفت تراجعا عمرانيا وفلاحيّا كبيرا في آخر العهد البيزنطي[105]. وقد قام أبو ابراهيم أحمد -الذي سلك سياسة تقارب مع الأوساط الدّينيّة بعد فشل ثورة الجند- بتركيز مجموعات هامّة من المرابطين بالسّاحل، وهو ما يفسّر ولاء هذه المنطقة للسلطة المركزيّة. ومقابل هذا الدّعم المذهبي - السّياسي، كانوا يتمتّعون بجزء من أراضي الكورة[106]. فعمليّة تركيز

---

99) المقدسي، ص. 177.

100) عياض (طالبي)، ص. 130.

101) يفسّر هذا الزلزال الأشغال الكبرى التي أمر بها هذا الأمير، مثل "بناء سور سوسة ودار الملك بسوسة، وقصر لمطة وسور صفاقس، وماجل القصر الكبير بسوسة". محمد الطالبي، *الدّولة الأغلبيّة*، ص. 276.

102) الطبري، VII، ص. 383؛ إبن الأثير، *الكامل*، V، ص. 298؛ محمد الطّالبي، *نفس المرجع*، ص. 276. وتعتبر المنستير وسوسة - من النّاحية الجيولوجيّة - مناطق مهدّدة بحدوث الزّلازل. انظر: Y. Kammoun, "Apport de l'analyse morphostructurale en sismotechique" in Actes du journées géographiques de Sousse, Sousse 1996.

103) ابراهيم شبّوح، *نفس المرجع*، ص. 5-6.

104) الدّاودي، ص. 446.

105) محمّد الطّالبي، *دراسات*، ص. 126.

106) التيجاني، ص. 33 "فأبتنيت القصور علي السّواحل، كقصور سوسة وغيرها، وجعل بها من عبيد أهل القيران ومن انتدب معهم قوم للرّباط".

المرابطين كانت تهدف - إلى جانب الدّعاية السّياسيّة والمذهبيّة للسلطة- إلى اعادة احياء أراضي السّاحل وبقيّة المناطق التي تطوّرت فيها الحصون، وتبرز هذه العلاقة بوضوح كما أسلفنا في مؤلف أبي الفضل مسرور : "أحمية الحصون" . وقد ساهمت هذه المؤسسة في تشكيل الطّابع الحالي للسّاحل التّونسيّ المتميّز بزراعة الزّيتون والبقول وتعدّد القرى[107] .

وكانت رباطات إفريقيّة تتمتّع بأحباس متعدّدة، أهمّها أراضي الأحمية (ج. حمي) التي أفرد لها عبّاد افريقيّة، مثل أبي الفضل ويحي بن عمر[108]، عدّة مؤلّفات. وكانت أراضي حمي القصر الكبير بالمنستير تشمل آلاف البساتين بالقرطيل (المنستير) والمهديّة والجريد ونفزاوة والقصرين[109]، ممّا يجعل من الرّباط - على غرار القصور الأمويّة في الشّام[110] -مؤسّسات فلاحيّة، ومن المرابطين رهبانا- مزارعين (بدل الرّهبان - المحاربون). ويؤكد هذا النشاط مناهضة نسّاك الوطن القبلي للضريبة النقديّة الجديدة التي أحدثها الأمير عبد اللّه بن ابراهيم الأغلبي على المنتوج الفلاحي[111] . وكان الحمي يتكوّن من أراضي جماعيّة تغلب عليها الزياتين (الشعراء)[112] وتستعمل أيضا لزراعة الحبوب وتربية الماشية[113]. على أنّ المرابطون كانوا أيضا يتمتّعون بقطع خاصّة (جنان)[114] . حيث كانوا يتعاطون زراعة العنب والتين والكمثري والرّمان والبقول[115] . وكانوا في أوّل الأمر يفلحون ويحيون هذه الأجنّة بأنفسهم، وهي إحدى الوظائف الأساسيّة التي أسّس من أجلها الرّباط. فأبو عمرو بشير بن عمروس المتعبّد بالقصر الكبير، رغم أنّه

---

107) المالكي، II، ص. 34، 152، 419 ؛ هادي ر. إدريس، *الدولة الصنهاجية*، II، ص. 240-241 ؛ ر. برنشفيك، نفس *المرجع*، I، ص. 338 وII، ص. 227-228، 231.

108) المالكي، ص. 491-500 ؛ عياض، IV، ص. 317-364 ؛ V، ص. 59.

109) محمد مخلوف، ص. 193 ؛ محمد حسن، "*وثيقة تحبيس هنشير بن منصور*"، *المجلّة التّاريخيّة المغربيّة*، 1988، ص. 229 ؛ هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 305 ؛ محمد صالح الصيّادي، *الذّاتية التاريخيّة*، ص. 26.

110) مثل قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي.

111) المالكي، I، ص. 331 ؛ ابن عذاري، I، ص. 95.

112) المالكي، I، ص. 332 ؛ التيجاني، ص. 23-24.

113) المالكي، I، 416 ؛ اللّبيدي، ص 62,

114) نفس *المصدر*، II، ص. 443 : رأى محمود المتعبّد بالمنستير الرّسول يقول له في المنام "اجمع الفول الأخضر من جنانك واحمله للغدامسي" . وفي الرّياض أيضا (II، ص. 125)، "ذكر أنّ أخا [لأبي يونس المتعبّد بقصر الطّوب] إشتكي أرنبا أفسدت عليه بحيرة له بجوار قصر الطّوب فدعا عليها فلم تلبث إلاّ يسيرا حتّى ماتت" .

115) المالكي، II، ص. 38-40 ؛ عياض (طالبي)، ص. 282 ؛ هـ. ر. إدريس، *نفس المصدر*، ص. 240-241.

"من رهبان اللّيل" ، كـان يخصّص جزءا من وقـته للإعتناء بداليـته[116] . على أنّ مصنّف أبي الفضل[117] ، وخاصّـة الفتاوي الزيريّة، تؤكد أنّ المـرابطين أصبحـوا يلجئون شيـئا فشيـئا إلى المساقـاة - على غرار أفراد الأرستقراطيّـة الأغلبية[118] ورهبان الأديرة المسيـحيّة - ويشكّلون بدورهم نوعـا جديدا من الأرسـتقـراطية الدّينيّـة - الزّراعيّـة. وعكس ما ذهب إليـه هـ. ر. إدريس، لا تدلّ الفـتاوي الـصنهاجـيّـة التي تعرّضت لهـذه المـسألة بـإطناب على "انحطاط الرّباط" في القرن السّادس للهجرة[119]، بل تعكس حقيـقة هذه المؤسسة منذ العهـد العبّاسي الأوّل، وهي حقيقة حاول الفـقهاء ومؤلفوا كتب الطّبقات الذين تسيطر عليهم "ميـتافيزيقيّة" الجهاد اخـفاءها[120] . كمـا أنّ هؤلاء المرابطين أصـبحـوا لا يكتفـون بأمتلاك مـنازل وبيوت بالقصور، دون الاقامة بها، (مع الحضور لأخذ نصيبهم من الصّدقات)، بل استحوذوا على الأراضي التي غرسوها وأورثوها لذويهم[121] . ويفسّر ازدهار هذه الموسسة رخاء المنستير في العصر الزيري، اذ أكّد الادريسي أن فاكهة المهديّة كانت تجلب من مدينة الرّباط[122] .

الرّباط والصيد البحري

أكّـدت الدّراسات الأثريّـة الحديثـة وجـود مصـائد (viviers) رومـانيّة بـسيـدي داود والمنستير. كما عثر على بقايا مصانع لتصبير السّمك بكلّ من غار الملح، سيدي داود، قليبيّة، هرقلة، المنستير، سلّقطة، قبوذيّة، سيدي منصور ويونقة[123] . وقد أصبحت كلّ هذه المواقع مراكز مرابطة في العصر الإسلامي الأوّل، ممها يؤكّد وجود روابط بين هذه المؤسّسة والصيد البـحري[124] . وذكر البكري أنّ مـرابطي جبل آدار كـان "عيـشهم من

---

116) المالكي، I، ص. 419 .

117) نفس *المصدر*، II، ص. 250-251 "إن لم تكن له صحّة فليحرث ما يكفيه عند الاخوان فهذا أحبّ إليّ من الحرث في الحمي".

118) الونشريسي، VII ، ص. 177-178 .

119) هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 304.

120) نجـد في احدى فتـاوي القابسـي أنّ اهل احدى القـرى "تولّوا زراعة وإحـياء أرض حلفـاء محـبّسة علـى أحد الحصـون، وأنّ العمليّـة تمّت لصالح المرابطيـن وبموافقـتهم. وفي فتـوى اخرى لأبي بكر بن عـبد الرّحمـان، كان النسّاك يتـقاضون أمـوالا (تسعية) بصـفة منتظمه من أهل الـمهديّة مقـابل إستغـلال الزّياتين والأراضي المحبّسة على القصر الكبير. الونشريسي، IX، ص. 586 ؛ هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 306-307.

121) الونشريسي، VII، ص. 177-180 ؛ هـ. ر. إدريس، II، ص. 306-307.

122) الادريسي، ص. 144.

123) P. Trousset, "La pêche au Maghreb dans l'Antiqinté", in Cahiers du C.E.R.E.S, XI, 1995, p. 33.

124) حـول هذه العـلاقـة انظر : N. Djelloul, "La pêche en Ifriqiya au Moyen âge", in Cahiers du C.E.R.E.S, XI, 1995, p. 51.

نبات الأرض ومن صيد البحر"[125]. وكان برباط شقانص "أمّة مقيمة على صيد البحر" حسب ابن حوقل[126]. وأكّد القابسي في احدى فتاويه "أن التصيّد في بحر المنستير كالإحتشاش والإحتطاب من شعاريها، لا يسع منه الانتفاع بغير من بها إلاّ بما لا ضرر عليهم فيه ولا منفعة لهم في تركه"[127]. كما أنّ امتناع أحمد الطرابلسي عن اكل "لحم صيد المنستير طريّا ولا مالحا" يؤكد تواصل مصانع التصبير الرّومانيّة. كما أنّ "الصّدقات" -التي ترد على الحصون تختلف عن الهدايا التي كان الموسرون - من أهل القيروان والقرى المجاورة - يرسلون بها إلى النسّاك. فهذا المصطلح يجب أن يفهم على أنّه ضريبة موظّفة على الصّيد البحري وإستخراج الملح من الملاّحات المتاخمة للقصور. وكان العبّاد يتمتّعون بجزء من مداخليها، وهي تشمل أيضا معروف "التّسعية" وغلّة الأحباس، من أراضي وحمّامات توجد بإفريقية وخارجها.

الرّباط والتّجارة

يؤكّد وجود عدّة رباطات على الطرق البريّة والبحريّة التداخل الوظيفي -مثلما هو الشأن في المشرق- بين الخان والرّباط. وقد كانت موارد الرّباط في إفريقيّة تشمل المراشد الموظّفة على المسافرين والتّجار الذين ينزلون بالحصون[128]. كما أنّ بعض التّجار كانوا يعهدون إلى المرابطين بأموالهم وبضائعهم، يحفظونها ويحرسونها (الودائع)[129]. وتدلّ هندسة "رباط" سوسة أنّ غرف طابقه الأرضي التي تفتقد للإضاءة كانت مستودعات (مخصّصة للبضائع). وإلى جانب ايواء المسافرين -من تجّار وحجيج- كانت القصور أيضا أسواقا فلاحيّة هامّة يساهم المرابطون في تنشيطها، وكانت تعقد خاصّة إبّان المواسم[130]. وقد اصبح مثال المرابط الذي يتعاطى التجارة ويخزن البضائع في غرفته لبيعها في الوقت المناسب أكثر شيوعا في العصر الزّيري[131]. وكانت القصور -مثل الخانات والخانقاهات المشرقيّة- معدّة أيضا لايواء رجال البريد وخيولهم[132]. كما

125) البكرى، ص. 83.
126) ابن حوقل، ص. 73.
127) الونشريسي، II، ص. 5-6.
128) المالكي، I، ص. 523، II، ص. 378-379.
129) اللّبيدي، ص. 234-235 ؛ هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 306.
130) المالكي، I، ص. 332-445 "وصل لوح مشحون للغدامسى"، II، ص. 447 ؛ البكري، ص. 30 ؛ الونشريسي، VII، ص. 177 1800 ؛ G. Marçais, Notes, p. 34
131) هـ. ر. إدريس، *نفس المرجع*، II، ص. 305-306.
132) P. Sourdel, art. "Barid", E.I, I, p. 1077, J. Sauvaget, La poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks, Paris 1941, p. 10-15.

كانت مجبرة في بعض الأحيان على القيام "بحق الضّيافة" لجند الأمير[133]، وهي وظيفة ورثتها عنها الزّوايا الحفصية، مثلما ورثت عنها الوظيفة التعليميّة[134].

من الرّباط إلى الزّاوية

يؤكّد هذا التّداخل الوظيفيّ عنصر التّواصل بين الرّباط والزّاوية، مثلما هو الشأن بالنسبة للخانقاه والرّباط في المشرق[135]. كما يفسّر تحوّل رباطات جبل المنار (سيدي بوسعيد) وقليبية إلى مراكز صوفيّة. كما أنّ أغلب الزّوايا التي مكّنت منطقة السّاحل من الحفاظ على حياتها القرويّة (المنستير - طبلبة - الشّابة - قصور السّاف...) وريثة رباطات يعود إحداثها إلى الفترة الاسلاميّة الأولى. ويمكن أن نشبّه الدّور الذي لعبته هذه الرّباطات بالدّور الذي لعبته الخانقاهات الكراميّة في بلاد ماوراء النهر، إذ نجد عند مرابطي إفريقية (الذين كانوا أيضا جبريّة مجسّمة)[136] كثيرا من المفاهيم التي كانت متداولة لدى الكراميّة، مثل منكر ونكير. ولفهم هذا التّواصل يجب أيضا إعادة النظر - على الأقلّ بالنسبة لإفريقيّة - في التمييز الذي أقامه جولد سيهر بين "مرحلة الزّهد" ومرحلة التصوّف"، فالتيّاران إرتبطا بالموروث القديم[137]، خاصّة وأنّ هيمنة الفقهويّة المالكيّة جعلت ميلاد وتطوّر التصوّف في المغرب مختلفين عمّا هو في المشرق[138]. وهو ما أدّى إلى انتشار المفاهيم والطّقوس الصّوفيّة بصفة مبكّرة في الرّباطات، في حين تأخّرت مرحلة التنظيم. ويذكر عياض أنّ سحنون بن سعيد، الذي ينسب إليه تقنين حياة الرّباط، "أرسل الى جميع البوادي في الصّوفيّة فأجتمع إليه منهم نحو ألف رجل" بعد أخذ أحد قوّاد الأغالبة لمجموعة من الحرائر، وكان "رجل من المتصوّفة يحضر

---

133) المالكي، I، ص: 335، II، ص. 15 ؛ ابن ناجي، II، ص. 172.

134) المالكي، II، ص. 463 ؛ محمد حسن، *نفس المرجع*، ص. 229.

135) حول تداخل وظائف الرّباط - المدرسة - الخناقاة : انظر : ; J. Pederson, art. "Madrasa", E. I, V, p. 1125-1126.

136) رفض عبد الله بن فرّوخ والبهلول وابن غانم الصّلاة على جنازة ابن صخر المعتزلي : المالكي، I، ص. 186 انظر أيضا ج. I، ص. 242-246 حول كره المرابطين للقدريّة.

137) راجع أيضا : محمد عابد الجابري، تكوين، ص. 217.

86) حول تطور التصوّف في المغرب أنظر : أ. بل، *الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي*، بيروت 1981 ؛ G. Drague, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Paris 1951 ; E. Dermenghem, Le culte des saints dans l'Islam maghrebin, Paris 1954, J. Spencer Trimingham, The sufi orders in Islam, Oxford 1971, M. H. Hila, L'ascèse et son influence sur la société ifriqiyenne à l'époque aghlabite, Thèse, Paris-Sorbonne, 1975

138) عياض (طالبي)، ص. 112 284.

مجلس جبلة بن حمّود، فإذا سمع شيئا من الرّقائق عصر عينيه"[139]. وكانت هذه الرّقائق تقرأ في الرّباطات[140] وفي مسجدي السبت والخميس. وكان سحنون، الذي تتلمذ عليه العديد من كبار المرابطين مثل عبد الرّحيم الزّاهد وجبلة بن حمّود وواصل الجمّي، بدوره تلميذا لشقران الهمذاني (تـ. 186 هـ. / 802م) أستاذ الصّوفي الشهير ذي النّون المصري(140).

وذكر عياض أنّ حمديس القطّان، معاصر سحنون، كان "يكره الذين يجتمعون للميعاد، ويضربون على صدورهم، وكان يقول : لو كان لي في الأمر شيء لنفيتهم عن المنستير"[141]. وكان لسعدون الخولاني "كتب الحدثان"[142]، كما كان العديد من المرابطين" يتكلّمون على الخاطر" و"يشيرون إلى المحبّة" و"الشوق" و"ينطقون بالحكمة"[143]. وكان البهلول بن راشد، معاصر شقران، من "أوتاد المغرب"، كما كان العديد منهم أبدالاً"، من أهل الشغل"، مستجابي الدّعوة، "وأصحاب وثائق" يعملون بكتابي الصّوفي يمن بن رزق[144]. وأدخل أبو عبد الله محمد بن بسطام الضبي من البصرة، أحد مراكز الهرمسيّة، "كتبا غريبة من كتب المالكيّين، ككتب المغيرة بن عبد الرّحمان وابن كنانة"[145]. وكان نصرون اللّوزي متّصلا بمؤمني الجنّ، ومن كرامات عبد الرّحيم الزّاهد أنّه أقام ستّة أشهر دون أن يشرب قطرة ماء[146]. وتؤكد المكانة التي حضي بها الحضر عند المرابطين أيضا انتشار المفاهيم الصّوفيّة في هذه الأوساط، خاصّة وأنّ الكثير منهم كانوا يدّعون الإتصال به[147]. والخضر نبيّ في القرآن، لكنّه عند المتصوّفة وليّ، ولكلّ فترة خضرها، لأنّ كلّ نقيب خضر. ولا يمكن فصل شخصيات الخضر وإدريس عن

---

139) عياض (طالبي)، ص. 428 ؛ المالكي، I، ص. 461.

140) المالكي، I، ص. 312-321 ؛ *الكواكب الدرّية في تراجم السّادة الصّوفية*، مخـ.، ورقة 299 ؛ ابن ناجي، I، ص. 279-288 ؛ مختار العبيدي، ص. 40.

141) عياض (طالبي)، ص. 290.

142) المالكي، II، ص. 259.

143) المالكي، I، ص. 313، 442، II، ص. 182. انظر أيضا شرح ابن عربي *للإصطلاحات الصّوفيّة* الواردة في "الفتوحات المكيّة"، ص. 27، وكشاف *إصطلاحات الفنون*، I، ص. 210-213.

144) المالكي، I، ص. 165، 197-198، 517، II، ص. 7، 201-205، 212، 259، 442، 444.

145) عياض (طالبي) ص. 438. وكان العديد منهم يروي "غرائب الحديث"، وكانوا - مثل القصّاص والوعّاظ في المشرق ممّن ساهم في وضعه.

146) المالكي، I، ص. ، II، ص. 355. وكان العديد منهم مثل أبي خارجة عنبسة يجيد عبارة الرّؤيا.

147) المالكي، I، 429 ؛ II، ص. 40 (انظر ايضا فهرس رياض النفوس، ج. III).

الموروث القديم[148]، ممّا يجعل الرّباط أيضا همزة.وصل بين هذا الموروث والزّاوية[149].

إنّ المؤسّسات الإسلاميّة يختلف وضعها القانونيّ حسب طبيعة الوقف المحبّس عليها[150]. وبالنسبة إلى المسجد يعتبر الحبس وقف تحرير، في حين أنّ وقف مؤسّسات مثل الرّباط (أو المدرسة) يعطي للمؤسّس حقّ تسييرها بتعيين الامين أو المدرّس. وانطلاقا من هذا المبدأ احتجز الأمير الزّيري كروم المرابطين وأجبرهم على تسليم نصف قيمة محاصيلهم، لأنّ أراضي الحمي صوافي يستغلّها النسّاك مقابل دعمهم السياسي[151]. على أنّه، رغم محاولة بعض الأمراء، سيصبح هذا الإجراء صعبا في العصر الحفصي، إذ أنّ تراجع الدّولة المركزيّة سيدعّم نفوذ الزّوايا، وريثة الرّباطات[152]. كما أنّ تراجع البحريّة الحفصية سيجعلها تعوّض نسبيّا السلطة المركزيّة في تنظيم حركة المقاومة الشعبيّة ضد القرصنة المسيحيّة. وقد كان لهذا الدّور "الحربي" الذي لعبته الزوايا شأن في تطوّر اسطورة النّاسك المحارب، ضمن الرّؤية المثالية للماضي التي ميّزت الكتابة التّاريخية الاسلامية في عصر الموسوعات.

---

148) حول الخضر وإدريس، راجع خاصّة : P. Sidersky, Les origines des légendes musulmanes, Paris 1910 ; L. Massignon, "Inventaire de la littérature hermétique arabe", in A. J. Festugière, la revélation d'Hermes Trismégiste, Paris 1950, p. 380-400 ; G. Vajda, art. "Idris", E.I, Iv, p. 1056 ; A. J. Wensinck, art. al-khadir, E.I, IV, p. 935. وبصفة عامّة يمكن اعتبار مصادر القرآن الرّئيسية حول الخضر ثلاثة : ملحمة جلجماش، رواية إسكندر (أندريه الطبّاخ) وأسطورة أليي Elie اليهوديّة. وكلّها تتصل بمفاهيم الخلود والخصب والمعرفة. ويعتبر المسلمون الخضر-الأخضر، خالدا (لايموت)، لم يتزوّج، يحجّ كلّ سنة مرّة ويقتات مثل النسّاك من بقل البريّة. كما شارك المسلمين في معركة القادسيّة، وهو كوليّ وخليفة للّه على البحرينقذ النّاس عند الغرق والسّرقة، ويحميهم من الحرائق والدّوّاب السّامّة. والخضر فارسي الأدب ويونانيّ الأم (مثل الموروث القديم) ، لكنّه يسكن سواحل الشام وإفريقيّة، حيث تكثر الرّباطات. ويذكر التيجاني (ص. 6) أنّ "الخضر فارق موسي في رادس. وحسب بعض المفسّرين والمحدّثين الخضر هو نفسه إدريس بن شيت، وكذلك إلياس. وكلاهما يرتبط بهرمس الحكيم الذي ابتدع الكتابة (وبالتالي المعرفة)، ومن هنا الدّور الذي لعبه لدى العرفانيّين.

149) بالنسبة للموروث القديم، راجع أيضا ما كتبه المالكي (I، ص. 325) في ترجمة بو خالد عبد الخالق المتعبّد، من أصحاب سحنون. "قال عنه سهل بن يونس المصري : لو كان عبد الخالق في بني إسرائيل لصوّروه في الكنائس. وقال عبد الرحمان بن القطان" : لو أنّ جبلة [بن حمّود] في زمن بني إسرائيل لأتتنا آخباره في الكتب، ولو فاخرنا بنو إسرائيل بعبّادهم وزهّادهم لفاخرناهم به" (المالكي، II، ص. 28). وبالنسبة لهذه العلاقة بصفة عامة : E. Doutté, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, Paris 1983.

150) انظر : J. Pedersen, art. "Madrasa", *E.I*, V, p. 1125

151) هـ. ر. إدريس، نفس المرجع، II، ص.

152) محمد حسن، *نفس المرجع*، ص. 236.

الـــمـــلاحـــق

11/ *الونشريسي*، ج. VII، ص. 30. "سئل أبو الحسن القابسي عن حصن أراد بعض الناس أن يغيّر بعض مساكنه عن حالها. فأجاب بأن الحصون لا يصلح أن تغير عن حالها ولا تحوّل عن بنيانها من أجل إنسان بعينه لحاجة تصيبه أو ضرورة تعرض له، إنما يصلح أن يحدث فيها ما هو إصلاح لها من اتغار ماء وزيادة مرافق يتّسع فيها مريدو الرباط بقية الدهر. وهذا البيت الذي يخرج ويحدث فيه سلم يزول عن المسكن ويصير إلى النظر فلا يغير الحبس عن حاله إلا على ما وصفت لكم حصول الرباط والمساجد الحدث فيها لا يصلح إلاّ للمنافع الجامعة، وأمّا سكنى النساء فليس من شأن حصون الرباط المنفردة عن السواحل أصل الحصون تفرد لما بنيت له. وهذا من المعنى الذي قال اللّه تعالى : (فمن بدّله بعدما سمعه) وإنّما تصلح الزيادة في الحصون والمساجد، ولعل ذلك يغير بعض بنائها (من قبل) أن مراد بانيها الانتفاع بها وكثر العامرين لها، وإنما اقتصر على امكانه ما حدث مع الزيادة فيه لا يتغيّر ولا ينقص. وليس هو كغيره من الأحباس على الناس في مرافقهم لدنياهم وباللّه التوفيق [الرجل أحق ببيته]

وسئل رحمه اللّه عن رجل من سكان المنستير خرج إلى الحج ثم رجع هل له الرجوع إلى بيته الذي كان يسكن فيه ويكون أحق به ؟

فأجاب بأن قال : هو أحق به وهذا جوابي قديما حتى تقوم الساعة إلى أن يظهر غير ذلك.

11/ *الونشريسي*، ج. VII، ص. 177 - 180. "سئل الإمام المازري عن مخازن بالقصر الكبير مملوءة قمحا وشعيرا لرجال مقيمين بالقصر والأخرون غيّب وعن زوار يغلقون مخازنهم ويخرجون فيقيمون شهرين ونحويهما وعمن له بيت في القصر ويأخذ من المعروف مثل من يبيت بالقصر وهو يبيت خارجا وعن قوم من المرابطين بأيديهم من الأرض أكثر ممّا بيد غيرهم. وعن قوم غرموا غرامة في أرض منستير ما الحكم فيها. فأجاب : هذه المسألة لها أصل ترد إليه سائل فروعها، وعليه كان يبني شيخنا رحمه الله وغيره جميع ما يسأل عنه من أمثال هذه المسائل على طريقة إن شاء اللّه تعالى، فأما المخزن ببيوت قصر المرابطين واتخاذ ذلك ليخزن فيه سلع التجارات فهذا ممنوع، لأن الموضع محبس ممن بناه على من يأتي بعده، والأحباس من أصلها أموال المحبّس فلا يحل استباحتها إلا على الصفة التي أباحوا، وبنوا ما حبسوه عليها،

ومعلوم أنهم لم يحبسوا ذلك مخازنا للتجارات ومواضع الإدارات لـلتجارات، فمن لم يكن له بالمكان سكنى فـإنه يمنع من الخـزن فيـما يتـجر فيـه أو ما يقـتاته. وأمـا من له بالمكان سكنى وقرار فـإن بيت سكناه (كذا) فإن كان مـمن تمسه الحاجـة إليه ليستـعين بربحه على نفقته وقوته ولا يستعين على سكنى المكان، ولا يمكنه القرار إلا بمثل هذا المقدار فإنه يبـاح له اختزان مثل هذا المقدار، ولو أراد أن يختـزن مثل هذا المقدار في بيت غيـر بيتـه لكون بيته يضـيق عن اختـزان مثل هذا الذي لا بد له منه فإنـه يسامح في ذلك إذا اخـتزن ذلك في بيت غيـر مـحتاج إلـيه، ولا يضـر به ما يخـتزن فيـه إذا دعت الضرورة إليه لضيق مسكنه كأنه بعض بيته وكأنه اخـتزن بيتا واسعا للسكنى ويختزن مثل هذا القدر إلا أن يرد من احتـاج إلى ذلك البيت ولا مصرف له عنه، وتكون منفـعته في القصر وحراسـته لمنفعته، هذا فإن هذا القادم مـقدم على حق هذا في البيت الاخر، إذا امكن االأول القرار والسكنى مع اقتصاره على بيته. وأما من زاد على مقدار الحاجة وما يستعان به على مقـدار الكفاية فيمنع من اختزانه في بيته وغيـر بيته جملة الساكن والزائد والحاضر والغائب لأنه لم يحبس على مثل هذا.

وأمّا الذين يتخذون القصر مسكنا بالنـهار ويطرقونه في بعض ساعات النهار لإخراج حاجة منه إلى اهله وادعى لما فيه، وهذا هو المقصد ويبيتـون خارجا عنه ويخلونه من الحراسة ليلا التي الحراسة فيه أشد من النهـار فإنهم يمنعون ويسامحون في المبيت عند أهاليهم في بعض الليـالي بقدر حاجـة الرجل إلى أهله، وعند مرض يصيبه يحتاج فـيه إلى تعليل النساء وممن جرت العادة إن لا يدخلون القـصر وما سوى ذلك يمنعون منه، فإن اخـتار السـكنى على الشروط التي حـبس عليهـا فإن القـصر مـا بناه وهو الرباط فـيه والحراسة، وتبقـى المساكن خالية، فإن طرق المكان طارق بالليل لم يـجد من العمارة ما يكفي في الدفاع عنه فلينظر في هذا كما نبهنا عليه، فإنه من المهمات فيه لا سيما في زمن يشتد فيه الخوف.

وأما السـؤال الثالث فهـو من أضعف ما يتكلم عليـه المفتي ويقـضي به على القوم، لأنهم طالت بهم الأزمان وهم فيه علي غير المنهج الذي يقتضيه الفقه، ولقد كان قديما مضـيت أنا وصـاحبنا أبو علي حـسن رحمـه الله بأمـر السلطان، وقررنا مع الشـيخ أبي حفص رحمـه الله فيها وجه الفـقه عندنا، لكنّه لم يلبث إلاّ قليلا وقـد انحلّ عقده والله حسيب من قـدر على منكر يغيره في ذلك المكان فلم يفـعله، وحسيب من استعـان فيه

على الخروج من معالم الشرع التي أمر بها الأئمة، وأقرب طريق إلى الحق يسلك في هذا الزمان في هذه الجنات المحدثة التي لم نكن نعرفها في زمان أئمتنا رحمهم الله، ومشاهر العباد الذين كانوا بالمكان أن ينظر في جميع الغروس منها، فما ثبت أنه من جملة بناء القصور المحبسة أو ناحيتها إذا نما بناء الباني ما حبس على الإرتفاق بها والانتفاع لمن سكن حبسه فإنه يعطى لكل سكان من المرابطين الذين سكنوا على الوجه الجائز، ويقدر الرباط بقدر ما يقيم منه أوده ويستعين به على كفايته وكفاية أهله ولا يمكن أحد من أخذ ذلك إذا سبق إليه بوجه جائز وإن لم يكن ذلك في يد أحد أعطى إلى الأفقر فالأفقر، وقدم الأنفع في المكان على من دونه، وإن استوى رجلان ورجل في هذه الصفة أقرع بينهم في ذلك، وما زاد على مقدار ما تمس الفقير الحاجة إليه فإنه لا يمكن أن يتملكه وينفرد به دون سائر الناس، وكذلك حكم بيع الغرس إذا كان في يد غني لا يحتاج إليه في المعونة على سكنى، ولا يزعجه عنه أخذه من يده فإنه لا يمكن من إقراره فيه. وقد شك سحنون في أرض افريقية فأداه هذا الورع إلى أن جعل نفسه كمساقي في زيتونه فكان يكسب منه بمقدار ما يستحقه من العمل والخدمة، وكان امامنا رحمه الله يقف على الجواب في أرض المنستير ومغارستها ومحرثها لأجل هذا الذي أشار إليه سحنون رحمه الله، ولأجل غير ذلك من العلل، فإذا جرى الأمر على أن يسلم للفقير بقدر كفايته على حسب ما شرطناه فيه، فإن الزائد على ما الفيناه للفقير وكل ما بيد الغني من هذا على الوجه الذي وصفنا ينظر فيه، فإن قدر على نزعه من يده وإعطائه إلى فقير لا شيء في يده مما يقصد للرباط ويستعين بما يعطى عليه ولا يمكنه السكنى والقرار إلا بما يعطى من هذا فإنه يسلم ذلك إلى (   ) من الفقراء الذين وصفنا يصنعونه ولا يحسنون من خدمة الغرس ما يحسنه من هو في يديه، فإنه يساقي ممن هو في يده أو من غيره إن أمكن على حسب الإجتهاد، ويصرف جزء المساقاة إلى الفقراء الذين وصفناهم، ويحل محل تسليم الغرس إليهم كما قلنا بل هو أنفع لهم، إذا كان الأوفى في الغلة أن يعمله هو في يده وهو أنفع للفقراء. وهذا إذا لم يقدر على إزالة الغرس ورده إلى ما هو أنفع للمساكين على نحو ما حبست عليه من رفقها في محرثهم ومحتطبهم، أو يكون الإجتهاد يقتضي ابقاء الغرس على ما هو عليه، وطرق الاجتهاد في هذا تتسع. وهكذا ينبغي أن يسلك في قسمة هذه الجنات بين المرابطين، فمن عمل هذا أو أعان عليه فإنه قد تندب إلى الله بقربة شريفة، ورقي في الفضل إلى درجة منيفة ومن لم يسلك مسلك الحق في هذا فالله حسيبه، وللساكن من الحرمة بآثار

من انفرض فيه ممن استقرت كرامتهم، واتضحت ولايتهم، فالجواب أن يكون الاخر في تخسير وكذلك يضاعف العذاب في انتهاك حرمته، والله يعلم المفسد من المصلح، ومن طلب رضى الناس بما يسخط الله سبحانه فإنه يسخطهم عليه، فيكون خسر الدنيا والآخرة. وإنما أشرت بهذه الكلمات لما رأيت من بقاء بعض المساكين قديما وحديثا على خرق عوائدهم الفاسدة وقد ذم الله سبحانه قوما إحتجوا بأنهم وجدوا آباءهم على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون، وقد حكى شيخنا الفقيه الإمام أبو محمد عبد الحميد الصائغ رحمه الله عن الشيخ الفقيه أبي الحسن القابسي رضي الله عنه، وناهيك به إماما في الدين والعمل والعلم. وناهيك بزمانه إنه كان يهرب من الفتيا في ذلك المكان ويقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون. إن افتينا هؤلاء القوم بموجب الفقه قالوا حكم الدار بخلاف هذا، وهذا إنما أوردته تأنيسا لمتولي المكان ليفتي بمن سلف وليحسن إليهم تغيير المنكرات، حتى يدرجهم عن الإنتقال عما إلفوا فيها منها، إما غلطا منهم أو تأويلا فاسدا، ولعل هذا هو الذي يصرفهم إن شاء الله. وربما كان الرفق في هذه الأمور والتدريج على الحقائق برفق وتأييد وتطلب أمر أولى من الهجوم عليها، وربما يغلب على الظن أنه يقع في غلط ما أنكره، فالله سبحانه يعين من قصد الحق وطلب رضاه بفعله، وأما ميراث ما غرس فإنه ينظر فيه، فإن جرت عادة الغرسين أنهم يغرسون ويتملكون الأرض والغرس فهذا غلط منهم، لا يقرون عليه رأسا ويردون في حكم الأرض والغرس إلى ما قدمناه، ولكن من شح على ملكه في نفس الغرس نظر فيه كما ينظر في غرس ما غرس بوجه شبهة أو تعديا، وإذا عرف من هذا ما يملكه وما لا يملكه فإنه إذا لم يملك الغرس لم يورث عنه، وإن أوجب قطعه أو إعطاء قيمته فذلك من ورثته فما كان من حقه يورث عنه ما ثبت له من هذا أيام حياته، وما مات عنه لم يقض له به، وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

11 / *الونشريسي*، ج. IX، ص. 568 . "سئل القابسي من أهل المنستير في التّسعية التي كانت في سنة خمس وتسعين في شهر ربيع الآخر. فقالوا له وجّه لنا أهل المهدية دراهم فقسمناها فوجدنا بعض أهل المنستير غيّبا فأبقينا إليهم سهامهم معزولة لنأخذ جوابك بوجه الحكم فيهم. قال السّاكن هؤلاء الغيب يأخذون بيوتا في القصور ثم يخرج الخارج منهم في منزله فيقيم فيها فإذا سمع بصدقة قدم فأخذ حصّته ثم يرجع إلى منزله ثمّ إذا قدم شيء يقسم قدم أيضا فأخذ منه سهمه. قال له السّائل وذكر لنا أن بعض الناس ذكر عنك أنك قلت له سهمك ممّا قسم مالم يكن رافضا للسكن" .

الونشريسي، XII ، ص. 361-366 في المرابطون في الرّباطات يجتمعون ليلا ويمشون بالقناديل يذكورن الله بالألحان.

وسئل المازري عن قوم يجتمعون بالليل بعد صلاة العشاء الأخيرة ومعهم قناديل يمشون فوق السور يذكرون أنهم يريدون العسكر يقولون باجتماع أصواتهم سبحان الله العظيم بتطريب وتحنين، وينصرفون على تلك الصفة يمشون في الأزقة ويجوزون والمزابل وهم على تلك الحال من الاجتماع والتطريب، وقد نهوا عن فعل ذلك في الطريق والمزابل، ونهوا عن التطريب والاجتماع، وأمروا أن يكونوا على السور ويتركوا التطريب، وأن سنة الحرس في الرباط والتهليل. فهل ينهون عن هذا وهو بدعة ولايذكرون الله إلاّ في المواضع الشريفة من غير اجتماع ولا تطريب؟

فأجاب : الاجتماع بالذكر بالتطريب والتحنين ورفع الأصوات قد نهى عنه العلماء وأنكروه وعدوه بدعة. وقد قال صلى الله عليه وسلم «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وإِيَّاكُم وَمُحْدثَاتِ الأُمُورِ فَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٍ وكلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» وقد علم أن هذا الفعل لم يكن مما سبق في الزمن الأول، ولا فعله السلف الصالح من الصحابة لقوله « أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ»، مع العلم بأنهم أعبد ممن يأتي بعدهم. ونقل عنهم بالتواتر أنهم شديدوا الحزم في الزدياد من الطاعة والحمل على النفس من مقاساة القربات، حتى يخف عليهم إراقة دمائهم وقتل أولادهم وآبائهم في الجهاد في ذات الله ورسوله. فلو كان خيرا ما سبق هؤلاء إليه، فقال تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وقال (تَرَاهُمْ رُكَعًا سُجَّدًا) الآية وقال صلى الله عليه وسلم : «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَ لاَ نَصِيفَهُ ». فمن عرف هذا وجب وقوفه عما وقفوا عنه، ويفعل ما فعلوه، وهم كانوا لا يفعلون هذا. ولا يعتقد عاقل أن يقول ما فعلوه تخفيفا على أنفسهم من المشقة بل هو أخف شيء عليهم لو أرادوه، وكذا من بعدهم من السلف لم يرد عليهم الأمر بهذا ولا الحضّ عليه، وماذاك إلاّ لاتباعهم من مضى، ولو لم يكن فيه إلاّ أن العلماء سكتوا عنه ولم يفعلوه لكان من حق العاقل ألا يفعله، فكيف وهم أنكروه ونهوا عنه؟ فقال مالك فيمن يقرأ القرآن بالألحان ويعلّم ذلك الجواري كالغناء، ما هكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن، فجعل حجته أنه لم يفعله من مضى بعده بدعة. وأيضا فإظهار هذه المعاني من نوافل الخير قد لا تخلص النية فيها ويقصد بها المباهاة والرياء وابتغاء عرض الدنيا،

وهو خلاف الشرع، وقد أمر الشرع بإظهار صلوات الفرض وإخفاء النوافل، لأن قوادح النوافل في النيات تطرق أكثر منها في الفرائض لاجتماع الناس عليها: وكذا تكلم العلماء في إظهار الزكاة، وهي فرضٌ، وإخفائها، لقوله تعالى (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) الآية. وفي الصحيح ما يقتضي منع رفع الصوت بمثل هذا: (إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ) الحديث، وإنما أبيح في حصون الرباط حين العسيس من رفع التكبير أو غيره من الذكر لما فيه من المصلحة لإشعار مريد اغتيال الحصن أنهم حذرون مستعدون لدفاعه. وأما الاجتماع والتلحين في الأسواق والمجازر فلا مصلحة فيه ولا ضرورة تدعو إليه، مع ما فيه من استهجان ذكر الله في المواضع المحتقرة الخسيسة، ولهذا نهي عن قراءة القرآن والإكثار منه في الأسواق احتراما له. ولذلك قيل لابن القاسم في الباعة إذا أخذت على شيء صلّت على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ليس موضع صلاة. ويكفيك بردهم الاتباع لمن سبق من الناس.

وعن الشيخ أبي بكر المالكي، وقد شاهدنا من فضله ودينه وجلالته وعلمه بالأخبار ما يحصل الثقة في أنفسنا بما يحكيه أن يحيى بن عمر كان سمع بزقاق الروم، وهو طريقه إلى الجامع، فريقا يكبرون أيام العشر ويرفعون أصواتهم بالتكبير، فنهاهم عن ذلك وقال: هذه بدعة، فلم ينتهوا، فدعا عليهم فخرب ذلك المكان. ودعاؤه عليهم يقتضي شدة إنكاره لما ابتدع على أمثال هذا، وكذا إنكاره حضور مجلس السبت، وألف فيه تأليفا، فأمر من عانده في ذلك رجلا أندلسيا حسن الصوت أن يصلي معه الظهر، فلما فرغ من صلاته رفع الأندلسي صوته فقرأ: وَمَنَ اظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللّٰهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسمه الى آخر الآيتين، فبكى يحيى بن عمر حتى سالت دموعه على لحيته ثم قال: اللهم إن هذا القارئ ما أراد بقراءته رضاك ولا م عندك، وإنما أراد تنقيصي فلا تمهله بعد ثلاث. فيقال: إنه ما أتم ثلاثا حتى مات، فينبغي، إن يقال لهؤلاء: أنتم وإن سبق إلى أنفسكم أن الازدياد من الخير مطلوب، فيجب أن تعلموا أنّ هذه الأمور لم تكن خيرا من جهة العقول ولا من جهة الشهوات ولا أحكام الارادات، وإنما هي إدبار من جهة الشريعة ومارسمه من آياتها عن الله ووعده من الثواب عليها، فإذا رسمها على صنفة من الصفات وحدّ من الحدود ونهى عن مجاوزته صارت الزيادة شرّا، فإن يكونوا من أهل الاجتهاد فهلّموا الى المناظرة، وإن كانوا من أهل التقليد فيسألون أهل العلم لقوله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ). وقد أخبرناك بما تقدم لمالك وأصحابه وغيرهم من العلماء، فلا ينبغي

التساهل في هذه المعاني، ولا يغفل عن تفقدها ولا عن ما وقع منها، فصغار الأمور تجر كبارها، وربما كانت هذه حيلا. لاستمالة قلوب الأغنياء وصيد الدراهم. فإن قال هؤلاء المستفتى فيهم لسنا نريد رلاّ وجه اللّه، قيل لهم أصل مذهب مالك حماية الذرائع، ففي بعض مسائل المدونة : أخاف إن صح من هؤلاء أن لا يصح من غيرهم. وقد سئلت عن بعض لباس هؤلاء المتهمين للخز والمسوح والصوف الخشن الأسود فأنكرت ذلك.

وسئل مالك عن اللباس الخشن من الصوف فقال : لا خير في الشهرة، وينبغي أن يخفي الإنسان من عمله. وسئل في موضع آخر عن لباس الصوف وهو قادر على الثياب البيض، فقال : لا أحبه لما فيه من الشهرة، وينبغي أن يخفي الإنسان عمله، فقيل له إنما يقصد بهذا التواضع، قال : قد يجد بثمنه من غليظ القطن ما يقوم مقامه، فأنت تراه كيف أنكر هذه فكيف به لوسئل عن لباس المسوح والثياب السود من الصوف. هذا وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : « الْبَسُوا الْبَيَاضَ وَكَفِّنُوا فِيهِ مَوْتَاكُمْ فَأَنَّهُ منْ أَفْضَلِ لِبَاسِكُمْ » الحديث، فهذه الصفة مخالفة للحديث ولما روي عن مالك، فإن رأوا مخالفة من تقدم برأي وتأويل لم يتركوا لرأيهم وبين لهم فساد رأيهم. وعن عمر رضي اللّه عنه أحب للقارئ أن ترى عليه الثياب البيض، وقد رأيت من الأئمة الذين أخذت عنهم علم الشريعة وهم أيمة عصرهم استثقال هذه المعاني وينكرونها، ولو لم يكن في هذه إلاّ التشبه برهبان النصارى فقد اشتهروا بهذا الزي حتى قال فيهم الشاعر :

أَصْواتُ رُهْبَانِ دَيْرٍ فِى صَلاَتِهِمُ   سُودِ الْمدَارِعِ مَعَّارِينَ فِي السَّحَرِ

وقد ختم القاضي ابن الطيب كتاب الهداية له بكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذكر من بعض فصول الأمر التشبه بزي لا يجوز التشبه به، وهذه الخيالات يستمال بها قلوب العوام، ويريهم الإنسان أن سواد قلبه عن الحزن كسواد لباسه، وهو مساخر وملاعب. وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ، وهو أن يرى والجسد خاشع والقلب ليس بخاشع، وقيل في رجل أظهر من الخشوع والمسكنة فوق ما هو عليه، أترى هذا أخشع من عمر الذي كان ينزو على الفرس من الأرض. وهؤلاء الخلفاء الراشدون لم ينقل عنهم أن هذا المقدار هو كان لباسهم وزيهم، فإن ظن أخرق أن يفعل في اللباس وغيره ما هو أولى عند اللّه وأنه اجتهد فيما نزطوا فيه أو عرف ما لم يعرفوه فقد خلع ربقة العقل والمسكنة في هذا الدين من ربقته.

وهذا الإفراط في التقشف قد نهى عنه صلى اللّه عليه وسلم وأنكر على قوم من أصحابه ما أرادوه من التبتل، وأخبرهم أنه أخشاهم للّه لما طلبوا منه التبتل، فأعلمهم أن التقرب إنما هو بين رؤوسهم والوقوف عند ما به حكم. فقال : لاَ رَهْبَانِيَةَ فِي الإِسلاَمِ ، فينبغي أن يشنع على من ظن به جهل بما ذكرناه ولم يتعلمه أن ينفر العامة منه، فإن من قصد بهذا غير وجه اللّه أو تحيل على جاه أو مال أوصيت فقد تعرض لسخط اللّه تعالى . وقال صلى اللّه عليه وسلم : «مِنْ سُخْطِ اللّهِ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُميتَ قَلْبَهُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللّهِ كَيْفَ يُمِيتُ قَلْبَهُ؟ قَالَ يَطْلُبُ بِعِلْمِهِ الدُّنْيَا). وتوعد أيضًا أنه يُلقي في النار حيث تنقلب أقتابه، ويقال إنما كنت تقرأ ليقال وقد قيل، وقال سحنون طلب الدنيا بالدّف والمزمار أحب اليّ من طلبها بالدين. وهذه أمور قد كثر التحيل فيها على راحة النفس من طلب العيش أن يكون الإنسان عالة على غيره، أو مسموع القول أو مبجّلا أو مكرما. ومن صدّق بما في كتاب اللّه من قوله سبحانه (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)، وقوله (يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ، وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) فلا يكون هكذا . ولسنا نشير في جوابنا هذا إلى أحد من الناس، بل ربما أمكن أن يتخذ هذه الأمور من لا يقصد بها أمرا مذموما مما ذكرناه، ولكن حقه إذا نصح للّه ورسوله والمسلمين أن لا يفتح بابا يجرّ غيره مما لا يقصد به وجه اللّه تعالى إلى ركوب ما نهى اللّه عنه ورسوله، فقد كثر في هذا الزمان هجران الحقائق، وربما اتخذت هذه المعاني حيلا أو شباكا لتحصيل جاه أو مال أو لبس شيء ننهى عن فعله على الإطلاق ولكن على التفصيل الذي ذكرناه، ونأمر بتبجيل المنقطعين إلى اللّه وإكرامهم وخدمتهم، فمن خدَم اللّه تعالى كان حقيقا أن يخدم، ولكن بعد صحّة القصد والنيات في اتباع حدود الشريعة، ونأمر بالتنفير عمّن لجَّ في ذلك واتخذه معاشاً، كما قيل لبعض الصوفية: أتبيعني مُرقعتك ؟ فقال هل إزيتم صيادًا يبيع شبكته فأصحاب هذه الشباك ينبغي ان يتحفظ منهم وينفّر الناس عنهم. وحسب العاقل أن يسلك مسالك من قد مضى، ومن مضى أعلم ممن بقي كما قال مالك رضي اللّه عنه.

قال الغزالي رحمه اللّه : من الذنوب ذنوب عقوبتها والعياذ باللّه سوء الخاتمة، قيل هي عقوبة دعوى الولاية والكرامة بالافتراء. قيل وممّا عظم ضرره في العوام دعوى الوصال مع اللّه تعالى ، حتى ينتهي قوم إلى دعوى المشافهة بالخطاب تشبيها بأبي يزيد والحلاج، قال وهذا من أعظم ضرره في العوام حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوي، قال وحق العوام أن يشتغلوا بعبادتهم

وبمعاشهم ويتركوا العلم للعلماء، فإن العامّي لوزني أو سوق كان خيراً له من أن يتكلم في العلم، لاسيما فيما يتعلق بالله وأسمائه وكلامه.

الونشربسي، X ، ص. 151

[يخلى المسجد الذي يجتمع فيه المبتدعون ويعمر بأهل السنة]

قال برهان الدّين : واعلم أن هذين الجوابين يستفاد منهما الحكم في أمور واقعة عندنا... منها ما وقع في الجواب الأوّل أنّ المسجد الذي يجتمعون فيه يخلى ويعمّر بأهل السنّة، ومثل هذا وقع عندنا للقاضي شرف الدّين الأسيوطي الشّافعي كان قد اخرجهم من الموضع المعروف بالمشهد وأسكنه أهل السنة. ثمّ أنهم استولوا عليه بعد وصار فقيههم الشريشي يلازم الجلوس فيه ويشغل فيه النّاس ونشأ عن ذلك الاجتماع شرّ كثير... وأحدث فيه بركة وصار الموضع يقصد لأجلها. وكذلك احدث هذا الشريشي بركة في رباط المعين، وصار الرّباط لأجلها مقصدا ومجمعا لهم، وسكن فيه الغرباء ممن يشغلهم في دينهم. وحكم هذه المواضع أن تخلي ولا تهدم لأنّها لم تبن لإجتماعهم. ولا ينظر لكونه رباطا أو وقفا فإنّ المعاصي الواقعة فيه ردا لم تنحسم رلاّ بهدمه جاز هدمه. ويينبغي إسكان أهل السنة في المشهد وإشراك أهل السنة معهم في رباط المعين علي وجه ينحسم معه الفساد.

الونشريسي، المعيار، X، ص . 449

سئل [ابن الحاج] عن أهل الصحراء من المرابطين كان يعني بعضهم علي بعض في أموالهم، وأكثرها الإبل، فتناتجت وتوارثها الأبناء من الأباء والأجداد وذهبت تلك الإبل وبقيت نسولها. ويريد من هي بيده ان يتحلّل منها. وكيف إن أهدي من نسلها من هي بيده لأمير المسلمين، هل له أن يقبلها ثمّ يثيب عليها من بيت المال أم لا ؟

الونشريسي ، المعيار ، XII ، ص . 98

[قتل القملة وطرحها في المسجد]

قال الطرطوشي وكره مالك قتل القملة ورميها في المسجد، ولا يطرحها من ثيابه في المسجد ولا يقتلها بين النعلين في المسجد. ابن الحاج، وقد قال علماؤنا رحمهم الله في المصلي إذا أخذ قملة وهو في الصلاة : فلا يجوز له أن يلقيها في المسجد

لقوله عليه الصلاة والسلام: "إذا قتلتم فأحسنوا القتلة. " وإذا رماها في المسجد وهي بالحياة فإما أن تموت جوعا أو تضعف، وكلاهما عذاب لها. وليس ذلك من حسن القتلة. وشأن من وقع له ذلك أن ينقلها لمكان آخر من بدنه أو ثوبه، أو يربطها في ثوبه حتّى يخرج من المسجد.

وحكي عن السيد حسن الزّبيدي أنّه خرج مع أصحابه الي بستانه. فلما أن كان في أثناء الطريق رجع إلى بيته وأمر أصحابه أن يذهبوا الى البستان، فسألوه عن سبب رجوعه فقال: كان علي قميص نسيته في البيت، وفيه دواب، فخفت ان يموتوا جوعا. فرجعت إما أن أقتلهم وإما أن ألبسه.

فهرس أبجدي عام

– أ –

- ب -

- ت -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- ق -

– ك –

- م -

المصادر والمراجع

المصادر العربيـــة

- ابن الأبار، *الحلّة السيراء*، تحـ. حسين مؤنس، القاهرة 1963
- ابن بطّوطة، رحلــة، بيروت 1964
- ابن جبير، *رحلـة*، بيروت 1964.
- ابن حوقل، صـورة *الأرض*، ليدن 1967
- ابن حنبل، *المسنـد*، تحـ. أحمد شاكر، القاهرة 1313 هـ
- ابن خرداذبه، *المسـالك والممالـك*، ليدن 1889
- ابن خلدون، *كتـاب العبــر*، بيروت 1968.
- ابن خلكان، *وفيـات الأعـيـان*، بيـروت 1968 وتحـ. إحسـان عبّاس، بيـروت 1972
- ابن رشـيق، *أنمــوذج الزّمـان*، تحـ. العــروسي المطوي وبشـيــر البكّوش، تونس 1963
- ابن سرين، *تفسيــر الأحــلام*، بيروت 1955
- ابن عذاري، *البيــان المغرب في أخبــار الأندلـس والمـغـرب*، تحـ. كولان وبروفنسال، بيروت 1983.
- ابن فرحون، *الدّيباج المـذهّـب فـي معرفـة أعيــان علمـــاء المذهب*. القاهرة 1329 هـ
- ابن عبد ربّه ، *العقـد الفريــــد*، القاهرة ، د.ت.
- ابن عربي ، *اصطلاحــات الصّــوفيـة الواردة في الفـتوحـات المكـيّـة*، القاهرة 1977
- ابن قتيبة، عيــون *الأخبـار*، *القاهرة*، د.ت

- ابن ماجة ، سنـــن، تحـ. فؤاد عبد الباقي، القاهرة د.ت
- ابن منظور، *لسان العرب*، بيروت 1988.
- ابن ناجي (والدبّاغ) ، *معـالم الايمان في معرفة أهل القيـروان*. تونس 1320 هـ
- ابن النّديم، *الفهرست*، تحـ . رضا تجدد، طهران 1972
- أبو العرب، *طبقات علماء افريقية*، تحـ علي الشابي ونعيم اليافي، بيروت 1968
- أبو العرب، *كتاب المحن*، بيروت 1985
- أبو الفداء، *تقويم البلدان*، تحـ. رينول ودوسلان، باريس 1840
- أبو نعيم الإصبهاني، *حلية الأولياء*، القاهرة 1351 هـ
- أبي داود السّجستاني، *سنن* تحـ. نحي الدين عبد الحميد، القاهرة. د.ت
- الباديسي، *المقصد الشريف والمنزع اللّطيف في ذكر صلحاء الرّيف*، تحـ. كولان، باريس 1926.
- البغدادي (عبد القاهر)، *أصول الدّين*، بيروت 1973
- البغداد (أبو منصور)، *الفرق بين الفرق*، بيروت 1982
-البكري، *المسالك والممالك*، تحـ. دوسلان ، الجزائر 1911 وتحـ. فاليوفن و أ - فيري، تونس 1992.
- البلاذري، *فتوح البلدان*، بيروت 1978
- البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحـ. عبد العزيز الدوري، بيروت 1978.
- بيري رايس، *كتاب بحريّة*، تحـ. سنمقرلي، أنقرة 1973.
- التمكروتي، *النفحة المسكيّة في السّفيرات التركيّة*، الرّباط 1926.
- الترمذي، *الجامع الصّحيح*، القاهرة 1384 هـ

- التيجاني، رحلـة، تحـ. حسن حسنى عبد الوهاب،، تونس 1958.
- الحميري، *الـرّوض المعطار في خبـــر الأقطار*، تحـ. إحسان عـبّاس بيروت 1983.
- الدّارمي، سنـــن، تحـ. أحمد دهمان، دمشق، د.ت
- الدّاودي، *كتـــاب الأمـــوال*، تحـ. حـ.حـ. عبد الوهاب وفرحات الدشراوي، ذكري ليفي بروفنسال، باريس 1962.
- الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الافاق*، تحـ.دووزي، ليدن 1864
- الرّقيق القيرواني، *قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور*، تحـ. أحمد الجندي، دمشق، د.ت.
- الأشعري، مقـــالات *الإسلاميّـــن*، اسطنبول 1925
- الإصطخري، *مسالك الممالك*، ليدن 1967.
- الدّاعي إدريس، عيـــون *الأخبـار*، تحـ. محمد اليعلاوي، بيروت 1983.
- الزّركشي، *تاريخ الدّولتين الموحدّيّة والحفصيّة*، تحـ. محمـد ماضور، تونس 1966
-الشّافعي، *كتـاب الأمّ*، بيروت 1980.
- الشيرزي، *نهاية الرّتبة في طلب الحسبة*، بيروت 1981.
- سحنون بن سعيد، *المدوّنـــة*، القاهـــرة 1323 هـ
- سيالة (محـمـود)، منـــاقب *أبي عـنبسـة الغافـقي*، مخط. دار الكتـب الوطنية (تونس)، رقم 12229
- الشهرستاني، *الملـل والنّحـل*، القاهرة 1331 هـ
- الطبري، جامع البيـــان *عن تأويـل القـرآن*، المدينة 1968.
- الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، القاهرة، د.ت.

- العمري (ابن فضل الله)، *التعريف بالمصطلح الشريف*، القاهرة 1312 هـ.

- العمري (ابن فضل الله). *مسالك الأبصار*، تحـ. حسن حسني عبد الوهاب. تونس 1957.

- عياض، *ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك*، تحـ. أحمد باكير، بيروت 1967 و محمد الطّالبي، *تراجم أغلبية*، تونس 1968.

- القلقشندي، *صبح الأعشي*. القاهرة 1913.

- اللّبيدي، *مناقب أبو إسحاق الجبنياني*، تحـ. هـ. ر. إدريس، الجزائر 1959.

- مالك، *الموطأ*، رواية محمد بن الحسن الشيباني، القاهرة، د.ت.

- المالكي، *رياض النفوس*، تحـ. بشير البكوش، بيروت 1983.

- مجهول، *كتاب الإستبصار*، الإسكندرية 1956

- مخلوف، *شجرة النّور الزّكيّة في طبقات المالكيّة*، القاهرة 1349.

- المدرسة الحربيّة بباردو، *برنامج ولايات سوسة والمنستير والمهدية*، مخط. م.و. تونس رقم. 18869

-المدرسة الحربّة بباردو، *برنامج جنوب الأيّالة التّونسيّة*، مخط.م.و. تونس، رقم 261.

- المقدسي، *احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ليدن 1906.

- مقديش، *نزهة الأنظار*، تحـ. علي الزّواري ومحمّد محفوظ، بيروت 1988

- المقريزي، *الخطط والمواعظ*، بولاق 1850

- مرتضى الزّبيدي، *تاج العروس من جواهر القاموس*، القاهرة 1306 هـ

- المناوي، الكواكب الدّريّة في تراجم السادة الصّوفية. مخط.م.و. تونس رقم 6432.

- الوزّان (ليون الإفريقي)، *وصف إفريقيا*، تحـ. محمد حجّي ومحمد الأخضر، بيروت 1982.

- الونشريسي، *المعيـــار المغـــرب*، تحـ. محمّد حجّي بيروت 1981
- القاضي النعمان، *إفتتـاح الدعـوة*، تحـ. فرحات الدّشراوي، الجزائر1986.
- القاضي النعمان، *المجالس والمسـايـرات*، تحـ. شبوح، الفقيه واليعلاوي، تونس 1978.
- النعيمي، تنبيـــه *الطّالب وإرشـاد الدّارس*، القاهرة 1948.
- اليافعي، *مـرآة الجنـــان*، حيدر آباد، د.ت.
- ياقوت الحموي، معجـم *البلدان*، القاهرة 1986.
- اليعقوبي، *كتاب البلدان*، تحـ. دي خويه، ليدن 1892.

المــــراجع العـــربيّـــــة

- أركون (محـمّد)، *تاريخية الفكـر العربي الإسلامي*، تحـ. هاشم صالح، بيروت 1986
- بل (أ) *الفـــرق الإسـلاميـة في الشمـــال الإفريقـي*، تعـ. عـبد الرّحمـان بدوي، بيروت 1981.
- الجابري (محمد عابد)، *تكوين العقل العربي*، بيروت 1989.
-جلّول (ناجي)، "*طبـرقـــة*"، دائرة المعارف التّونسية، IV. 1994
- حسن (محمّد)، *القبائل والأرياف المغربيّـة في العصـرالوسيط*، تونس 1986
-حسـن (محـمد)، "وثيـقة في تـحبيس هنشـير إبن منصور بالمـهـديّة على رباط المنستير"، *المجلّة التّاريخية المغربيّة*، 49-50، 1988، ص. 220-230.
- خلف اللّه (مـحمد أحـمد)، "*الحديث وعـلومة*"، موسـوعة *الحـضارة العـربيّة الإسلامية*، بيروت 1986، II، ص. 43-55.
- الدّرقاش (هادي)، فقــه *الرّسالـة*، بيروت 1983.

- الدّولاتلي (عبد العزيز)، "أضواء تاريخيّة على بحيرة تونس"، *المجلّة التّاريخيّة المغربيّة*، III، 1975، ص. 30-36.

- الزاهي (محمد)، *تاريخ الشّابــة*، سوسة 1989 .

- الزّاوي (أحمد)، *أعلام ليبيــا*، طرابلس 1961 .

- الزّاوي (أحمد)، *معجـم البلدان اللّيبيـــة*، طرابلس 1691.

- الزّواري (علي) *صفـاقــس*، تونس 1980 .

- الزنّاد (عبد الله)، *الإمـام المازري وقصـر الرّبــاط*، تونس 1967 .

- سالم (عبد العزيز)، *تاريخ البحريّة الإسلامية* الإسكندرية 1981.

- السعيدي (عمر)، *أعمال ملتقـى القـاضي النعمـان الأوّل*، تونس 1977 .

- الشّابي (علي)، *أحمد بن مخلوف الشّابي وفلسفته الصّوفية*، تونس 1979.

- الشابّي (علي)، *عرفة الشّابي*، تونس 1982.

- شبّوح (أبراهيم)، "حول منارة ربـاط المنستيـر وأصولهـا المعـمارية"، إفريقـية (Africa) 1969 -1970، ص. 5-15.

- شعيرة (عـبد الله الهادي)، "الرّباطـــات السّاحليّـــة اللّيبيّة"، *ليبيا في التاريخ*، طرابلس 1968، ص. 10-15.

- الصيّادي (محمد صالح)، *الذّاتيّــة التّاريخيـة لمدينة المنستيـر*، المنستير 1979 .

- عبد الكافي (محمد)، *تاريخ صفاقس*، صفاقس 1980.

- عبد الوهاب (حسن حسني) *خلاصة تاريخ تونس*، تونس 1955.

- عبد الوهاب (حـسن حسني)، *ورقات عن الحـضارة العـربّـية بإفـريقيـة*، تونس 1965-1966

- عبد الوهاب (حسن حسني)، *كتــاب العمــر*، تونس 1990

- العبيدي (مختار)، *الحياة الأدبيّة بالقيـروان في عهد الأغالبــة*، تونس 1994 .

- العظم (صادق جلال)، ذهنيّــة التّحريـم، لندن. 1994

- عزونة (جلّول)، منـــزل تميـم، تـونس. 1983.

- عمّار (عبد اللّطيف)، صفحات من تـاريــخ قليبيّــة، تونس. 1983.

- عمارة (مـحمد)، "الفـــــرق الإسـلاميّـــــــة"، موسـوعة الحضارة العـربية الإسلامية، بيروت 1986، II، ص. 373-398.

- عـمـارة (محـمـد)، "ثـورات المـرجئــة"، مـوســوعـة الحـضارة العـربّيـة الإسلامية، بيروت 1986، II، ص. 201-207.

- القاسمي (جمال الدّين)، تاريخ الجهميّة والمعتزلة، القاهرة 1331 هـ.

- المرزوقي (محمد)، تاريخ قابس، تونس 1960.

- ونزنك، المعجم المفهرس لمعاني الحديث، تونس 1987.

- النيّال (البلهي)، الحقيقة التّاريخيّة للتصوّف الاسلامي، تونس 1962.

المصــــادر والمـــراجع الأجنبيّـــة

- Alarcon y Santon (M) et Garcia De Linares (R), *Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la corona de Aragon*, Madrid 1940

- Asin (O), "*Origin arabe de rebato, arrobada y suo homonias,*" in *Boletin de la real academia espanola*, XIV, 1928, pp. 347-400.

- Babelon (E), Cagnat (R), Reinach (S), *Atlas archéologique de la Tunisie*, Paris 1892

- Bachrouch (T), "*Le Sahel, essai de définition d'un espace citadin*", in *Cahiers de Tunisie*, XXXIV, 1986, pp. 220-230.

- Ben lazreg (N.) et Matligly (J.), *Leptiminus*, Michigan 1992.

- Barecca (F.) et Fantar (M.) *Prospezione archéologica al capo-Bon* II, Tunis-Rome 1983

- Basset (H) et Terrasse (H.), " *Le ribat deTit*", in *Hesperis*, VIII, 1927, pp. 117-156.

- Bonner (M.) "*Some observations concerning the early development of jihad on the arab-byzantine frontiers*", in S.I., 1992, pp. 24 et suiv.

- Bosworth (C), "*Byzantium and the arabs: War and peace between two world civili sations*", in *J.OA.S*, III-IV, 1991-92, pp. 30-40-02

- Bosworth (C.), "*The city of Tarus and the arabs byzantine frontiers*", in *Oriens*,XXX, 1992, pp. 208-290.

- Bouita (H), *Bizerte, les monuments islamiques*, Tunis 1992.

- Bouyahya (ch.), *La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides*, Tunis 1972 .

- Brunschvig (R.) *La Berberie orientale sous les Hafsides*, Paris 1940-1947
تعريب حمّادي السّاحلي، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، بيروت 1988.

- Brunschvig (R.), "*A propos d'un toponyme tunisien, Nuba-Nubiya*", *Revue Tunisienne*, 1935, pp. 149-165.

- Bulliet (A.), *The praticians of Nishapur*, Cambridge 1992

- Cagnat (R) et Saladin (H.) , *Voyage en Tunisie*, Paris 1890

- Cahen (cl.), *La Syrie du Nord à l'époque des croisades*, Paris 1940.

- Cahen (cl.) *Orient et Occident au temps des croisades*, Paris 1983.

- Carton (D), "*Thapsus*", in *Bulletin de la société archéologique de Sousse* (B.S.A.S), 1904, pp. 47-50.

- Carton (D), "*Sidi al-Kantaoui*," in *B.S.A.S*, 1905,pp. 214-216.

- Carton (D), "*Excursions à Lemta*", in *B.S.A.S*, 1905, pp. 26-29.

- Carton (D), "*Gurza*", in *B.S.A.S*, 1906, pp. 46-61

- Carton (D), "*Bordj Khadidja*", in *B.S.A.S*, 1906, pp. 125-134.

- Carton, "*Hergla*", in *B.S.AS*, 1927, pp. 26-29

- Chebbi (C), "*Remarques sur le développement historique des mouvements ascétiques et mystiques au khurasan*, in *S.I*, 1977, pp. 30-50.

- Chebbi (C.), "*Reflexions sur le soufisme iranien primitif*" in J.A, ccL XVI, 1978, pp. 60-70.

- Chebbi (C.), "*La fonction du ribat de Baghdad du VIème S. au début du VIIème.s.*", in *Revue des études islamiques* (R.E.I), XLII, 1974,pp.,

- Creswell (K.A.C), *Early muslim architecture*, Oxford 1932.

- Dachraoui (F.), *Le califat fâtimide au Maghreb*, Tunis 1981.

- Daoulatli (A.), *Tunis sous les Hafsides*, Tunis 1976.

- Decret (F.), *Aspects du manichéisme dans l'Afrique romaine*, Paris 1970

- Decret (F.), *L'Afrique manichéenne*, Paris 1978

- Decret (F.), Fantar(M. H.), *L'Afrique du nord dans l'Antiquité*, Paris 1981.

- De Epalza (M.), "*al-Munastir d'Ifriqiya et al-Munastir de xarqal-Andalus*", in *Actes du VIIème colloque universitaire tuniso- espagnol*, cahiers du *C.E.R.E.S*, 1991, pp. 80-105

- Dermengham (E.), *Le culte des saints dans l'islam maghrebin*, Paris 1949.

- Desfontaines (R.), *Fragments d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger*, Paris 1838.

- De Thou (A.), *Histoire universelle*, Paris 1734.

- Diehel (ch.), *L'Afrique byzantine*, Paris 1885.

- Djelloul (N.) *Les installations militaires et la défense des côtes tunisiennes du XVIème au XIXème siécle*, thèse , Paris- Sorbonne1988.

- Djelloul (N.), "*A propos d'un toponyme de la région de Sfax : Qasr ziyad*" in A. Zouari et F. Mahfoudh, *La dynamique économique à Sfax*, Sfax 1993, pp. 9-39

- Djelloul (N.), "*Histoire topographique de Mahdia et ses environs au Moyen âge*" in *cahiers de Tunisie*, 1994.

- Djelloul (N.), *Les fortifications côtières ottomanes de la régence de Tunis*, Zaghouan 1995.

- Djelloul (N), "*La pêche en Ifriqia au moyen âge*" in La pêche côtière en Tunisie, *cahiers du C.E.R.E.S*, XI , 1995, pp. 40-50.

- Djelloul (N.) et Saadaoui (A.), "*Ghar el-Melh*", in Africa, XV, 1998.

- Doutté (E.), *Magie et religion dans l'Afrique du Nord*, Paris1983.

- Drague (G.), *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc*, Paris 1951.

- Elyatt (R.), *Brève description du royaume de Tunis*, edit. J. Pignon Tunis 1967.

- *Encyclopédie de l'Islam*, art : *Abadan, Abdal, Barid, Battal, Djahmiya*, Djahm *ibn safwan, Djihad, Ghazi, Hima, Idris, Ishaqal-Kasruni, Iskandar, Khadir, Khankah, Khan, Kabis, Karamiya, Madrasa, Manzil, Munastir, Murdjia, Murabitun, Ribat* (G.Marçais et C. chebbi), *Ribat al-Fath, Ribat-i-sharif, Rabita, Tunis.*

- Farochon (A.), *Les gloires chrétiennes de la France*, Paris 1892.

- Filippi (C.), *Fragments sur la régence de Tunis*, Paris 1929.

- Frank (L.), *Histoire de Tunis*, Paris 1850 .

- Foucher (L.), *Hadrumetum*, Tunis 1962.

- Gharbi (M.), "*La forteresse de Kelibia* ", in *Africa romana* VI, 1989, pp. 187-198.

- Golvin (L.), *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*, Paris 1944.

- Golvin (L.), "*Notes sur le mot ribat*", in *R.O.M.M*, VI 1969, pp. 95-101.

- Gsell (st.), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris 1911.

- Guerin (V.), Voyage archéologique dans la régence de Tunis, Paris 1862.

- Hannezo (C.), "Notes sur Sullectum", in B.A.C, VIII, 1890 pp. 445-448.

- Hannezo (C.) et Moulin (L), "Notes archéologiques sur Lemta", in B.A.C, XV, 1897, PP. 290-312.

- Hannezo (C.), "*Observations sur le tracé du plan d'Hadrumette par Daux*", in *Revue archéologique*, XXX, 1897, pp. 20-29.

- Hannezo (C.), Sousse, *Sousse* 1906.

- Hannezo (C.), "*Notes historiques sur la Chebba*", in *B.A.C*, 1906, pp. 135-140.

- Hila (M. H.), *L'ascèse et son influence sur la société ifriqiènne jusqu'a l'époque aghlabide*, Thèse, Paris . Sorbonne 1975.

- Idris (H. R.), *La Berberie orientale sous la Zirides*, Paris 1962

تعريب حمّادي الساحلي ، الدولة الصنهاجيّة ، بيروت 1994

– Kallala (N.), "*La localisation du site de Ruspina*", in *Actes du 113ème congrès des sociétés savantes* (*B.A.C*), Stasbourg 1988, II, pp. 525-533.

- Kokovtsov, "*Relation d'un voyage en Barbarie*", in *Revue Africaine*, XCV, 1951, pp. 100-111.

- Lallemand (ch.), *La Tunisie pays du protectorat français*, Paris 1890.

- Laoust (H.), *La profession de foi d'Ibn Batta*, Damas 1958.

- Laoust (H.), *La politique de Ghazali*, Paris 1970.

- Lanfreducci (L.) et Bosio (G), *Costae e discordi di Barbaria*, Malte 1857, edit et trad. de ch. Monchicourt et P. Grandchamp, *in Revue africaine*, n° 325, 1925, pp. 415 - 483.

- Lewicki (N.), "*Un document inédit sur l'immigration des Nafusa du Gabal dans le Sahel tunisien au VIIème - IXème siècle*", in *Folia Orientalia*, I, 1959, pp. 188-200.

- Lewicki (N.), "*Une langue romane de l'Afrique* du Nord", in *Roznik orientalis-tycyny*, XVIII, 1951.

- Lezine (A.) "Notes sur le ribat de Monastir", in C.R.A.I, 1954, PP. 142-143.

- Lezine (A.), "*Sur la population des villes africaines*", in *Antiquité africaines*, III, 1969, pp. 69-82.

- Lezine (A.), *Deux villes de l'Ifriqiya, Sousse et Tunis*, Paris 1971.

- Magnin (P.), "*Les exhortations d'al-Dhrif, soufi tunisien du VII/XIVéme siècle*", in *I.B.L.A.*, 1950,pp.387-387.

- Marçais (G.), *L'architecture muslamane d'Occident*, Paris 1955.

- Marçais (G.), "*Notes sur les ribats en Berberie*", in *Melanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman*, Alger 1925, pp. 395-470.

- Mahfoudh (F.), *La ville de Sfax, recherches d'archéologie monumentale et évolution urbaine*, Thèse, Paris-Sorbonne, 1988.

- Marmol carvajal (L.), *Description générale de l'Afrique*, trad. N. Perrot d'Ablancourt, Paris1967.

- Massignon (L.), "*Inventaire de la littérature hermétique arabe*", in A.j. Festugière, *La révélation d'Hermès Trismégiste*, Paris 1950.

- Massignon (L.), *Essai sur les origines du lexique technique de la mystique muslmane*, Paris 1954

- Miquel (A.), *La géographie humaine du monde muslman*, Paris-Lahaye 1967-1980.

- Miquel (A.), *l'Islam et sa civilisation*, Paris 1950.

- Monchicourt (ch.), "*Etudes Kairouanaises*", in *Revue tunisienne*, 1932, pp.45-100.

- Mouterde (R.), "*Africains et Daces à Bostra*", in Melanges de l'université de *Saint Joseph*, 1942, pp.43-50.

- Nizami (K.A.), "*Some aspects of Khanaqah life in medievral India*", in *S.I*, VII, 1957, pp. 51-59.

- O'Kane (B.), *Timurid architecture in Khorrasan*, Malibu 1987.

- Papadopoulo (A), *L'Islam et l'art islamique*, Paris 1976.

- Pellissier (E.), *Description de la régence de Tunis*, Paris 1853.

- Pringle (D.), *The defences of byzantine Africa from Justinian to the arab conquest*, oxford 1981.

- Salama (P.), *Les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Alger 1951.

- Sauvaget (J.), *La poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks*, Paris 1941.

- Sayadi (M.S.), *Monastir, etude sociale*, Tunis 1979.

- Servonnet et Laffite, *Le golfe de Gabès*, Paris 1888.

- Slim (H.), "*Nouveaux témoignages sur la vie économique à Thysdrus*", in *B.A.C*, 1985, pp. 12-64.

- Sidersky (A.), *Les origines des légendes musulmanes*, Paris 1910.

- Sivan (E), *L'Islam et les croisades, idéologie et propagande dans la réaction des musulmans*, Paris 1968.

- Solignac (M.), "*Recherches sur les installations hydrauliques de Kairouan et des steppes tunisiennes*", in *A.I.E.O*, XI, 1952, pp. 152-217.

- Spencer Trimingham (J.), *The Sufi orders in Islam*, oxford 1971.

- Talbi (M.), L'emirat aghlabite, Paris 1966, تعريب منجي الصيادي، الدولة الأغلبية بيروت 1983

– Talbi (M.), *Etudes d'histoire et de civilisation musulmane en Ifriqiya*, Tunis 1985.

- Terrasse (H.) *L'art hispano-mauresque*, Paris 1932.

- Terrasse (H.) et Basset (H.), *Sanctuaires et forteresses almohades*, 1932.

- Tissot (ch.), *Géographie comparée de la province romaine d'Afrique*, Paris 1884.

- Torres-Balbas (L.), "*Rabitas hispano-musulmanas*", in *al-Andalus* XIII/2, 1948, pp. 475-491.

- Trousset (P.), "*Nouvelles observations sur la centuriation romaine à l'Est d'El-Djem*", in *Antiquités africaines*, II, 1977, pp. 175-207.

- Trousset (P.), "*La pêche côtière en Tunisie*", *Cahiers du C.E.R.E.S*, Tunis 1995, pp.5-40

- Van Berchem (M.), *Materiaux pour un corpus inscriptionum arabicum*, Paris 1894.

- Van Ghistèle (V.M.), "Tunizia", edit et trad. J.Bawers et L.Verplanke, in *I.B.L.A.*, 1967, pp. 151-173.

- Villameva (C.), "*Rabitas granadinor*", in *Micelanea de estudios arabes y hebraïcas*, 1954 , III , pp. 79-86.

- Vonderheyden (M.), *La Berberie orientale sous la dynastie des Benou 'Arlab*, Paris 1927.

- Zbiss (S.M.), "*Le ribat, institution militaro-religieuse des côtes africaines*", in *C.R.A.I*, 1954, pp. 143-145.

- Zbiss (S.M.), *Les inscriptions de Monastir*, Tunis, 1960.

- Zbiss (S.M.) *Les monuments de Monastir*, Tunis 1964.

- Zbiss (S. M.), *Sidi Bousaïd*, Tunis 1971.

فهرس الأشكال

شـ. 20 : رباط سوسة، السّطوح.

شـ. 21 : رباط سوسة، منظر عام.

شـ. 22 : رباط سوسة، الواجهة.

شـ. 23 : رباط سوسة، مقطع أ-أ.

شـ. 24 : رباط سوسة، مقطع ب-ب.

شـ. 25 : رباط سوسة، مقطع ج-ج.

شـ. 26 : رباط سوسة، مقطع د-د.

شـ. 27 : رباط سوسة، مقطع ت-ت.

شـ. 28 : رباط سوسة، مقطع ف-ف.

شـ. 29 : رباط سوسة، القبّة والمدارج.

شـ. 30 : رباط سوسة، المدخل.

شـ. 31 : رباط سوسة، المدخل.

شـ. 32 : رباط سوسة، قبو المدخل.

شـ. 33 : رباط سوسة، زخارف بيزنطيّة.

شـ. 34 : مدينة المنستير.

شـ. 35 : مدينة المنستير (البلد).

شـ. 36 : قصبة المنستير في آخر القرن التاسع عشر.

شـ. 37 : قصبة المنستير، الطابق الأرضي.

شـ. 38 : قصبة المنستير، الطّابق الأول.

شـ. 39 : قصبة المنستير، الطّابق الثاني.

شـ. 40 : قصبة المنستير، منظر عام.

ش. 41 : قصبة المنستير، (حوالي القرن 10-11م).

ش. 42 : قصبة المنستير، الواجهة الغربيّة.

ش. 43 : قصبة المنستير، الواجهة الجنوبيّة.

ش. 44 : قصبة المنستير، مقطع طولي.

ش. 45 : قصبة المنستير، مقطع أفقي.

ش. 46 : قصبة المنستير، رباط هرثمة.

ش. 47 : قصبة المنستير، الطابق الأوّل.

ش. 48 : قصبة المنستير، مسجد قصر هرثمة.

ش. 49 : قصبة المنستير، المدخل الحفصي.

ش. 50 : قصبة المنستير، مسجد أغلبي.

ش. 51 : قصبة المنستير، تطور المعلم.

ش. 52 : المنستير، زاوية سيدي ذويب.

ش. 53 : زاوية سيدي ذويب : القلعة الأغلبيّة.

ش. 54 : زاوية سيدي ذويب، مقاطع.

ش. 55 : تبصة.

ش. 55 ب : لمطة.

ش. 56 : جمّال ، طبلبة، الشّابة.

ش. 57 : جمّال، منزل كامل، مساكن.

ش. 58 : برج خديجة، الطّابق الأرضي.

ش. 59 : برج خديجة، الطّابق الأوّل.

ش. 60 : برج خديجة، الطابق الثاني.

شـ. 61 : برج خديجة، مقطع أ-أ.

شـ. 62 : برج خديجة (ق 19م).

شـ. 63 : برج خديجة الحصن الأغلبي.

شـ. 64 : رباطات منطقة صفاقس قبل العصر الحفصي.

شـ. 65 : صفاقس.

شـ. 66 : مدينة صفاقس.

شـ. 67 : أبواب صفاقس.

شـ. 68 : سور صفاقس، برج مسعودة.

شـ. 69 : قصبة صفاقس.

شـ. 70 : مدينة عين الجرّ.

شـ. 71 : قصر يونقة.

شـ. 72 : قصر يونقة.

شـ. 73 : رباطات جنوب البلاد الونسيّة.

شـ. 74 : رباطات طرابلس.

شـ. 75 : مدينة طرابلس.

شـ. 76 : الرباط الشريف

شـ. 77 : الخانات المشرقيّة

فهرس اللّوحات

لـ. 16 : مدينة سوسة.

لـ. 17 : سوسة.

لـ. 18 : سور سوسة.

لـ. 19 : سور سوسة.

لـ. 20 : سور سوسة.

لـ. 21 : سوسة : المسجد الجامع والرّباط.

لـ. 22 : رباط سوسة.

لـ. 23 : رباط سوسة.

لـ. 24 : رباط سوسة.

لـ. 25 : رباط سوسة.

لـ. 26 : رباط سوسة.

لـ. 27 : رباط سوسة.

لـ. 28 : رباط سوسة.

لـ. 29 : رباط سوسة.

لـ. 30 : رباط سوسة.

لـ. 31 : رباط سوسة.

لـ. 32 : رباط سوسة.

لـ. 33 : سوسة : قصر الطّوب.

لـ. 34 : المنستير (السّور).

لـ. 35 : المنستير : مقبرة الرّباط.

لـ. 36 : رباط المنستير.

لـ. 37 : رباط المنستير.

لـ. 38 : رباط المنستير.

لـ. 39 : رباط المنستير.

لـ. 40 : رباط المنستير.

لـ. 41 : المنستير وخنيس.

لـ. 42 : رباط لمطة.

لـ. 42 ب : رباط لمطة.

لـ. 42 ت : لمطة وقصيبة المديوني.

لـ. 43 : هرقلة.

لـ. 43 ب : هرقلة (الجامع الحفصي).

لـ. 43 ت : قنطرة حلق المنجل.

لـ. 43 ج : حلق المنجل والقلعة الكبرى.

لـ. 44 : طبلبة : زاوية سيدي عياش.

لـ. 44 ب : طبلبة والمهديّة.

لـ. 45 : منزل كامل، صيّادة، المكنين.

لـ. 46 : الكنائس والمصدور.

لـ. 47 : الكنائس ورجيش.

لـ. 48 : جمّال.

لـ. 49 : مسجد عيسي وتبصة.

لـ. 50 : الشّابة، برج خديجة.

لـ. 51 : سور صفاقس.

لـ. 51 ب : سور صفاقس.

لـ. 52 : سور صفاقس.

لـ. 53 : سور صفاقس.

لـ. 53 ب : صفاقس، باب الجبلي.

لـ. 54 : قصبة صفاقس.

لـ. 55 : قصر تنيور.

لـ. 56 : قصر تنيور.

لـ. 57 : قصر تنيور.

لـ. 58 : قصر تنيور.

لـ. 59 : سيدي منصور وجبنيانة.

لـ. 59 ب : قصر زياد.

لـ. 60 : رباط يونقة.

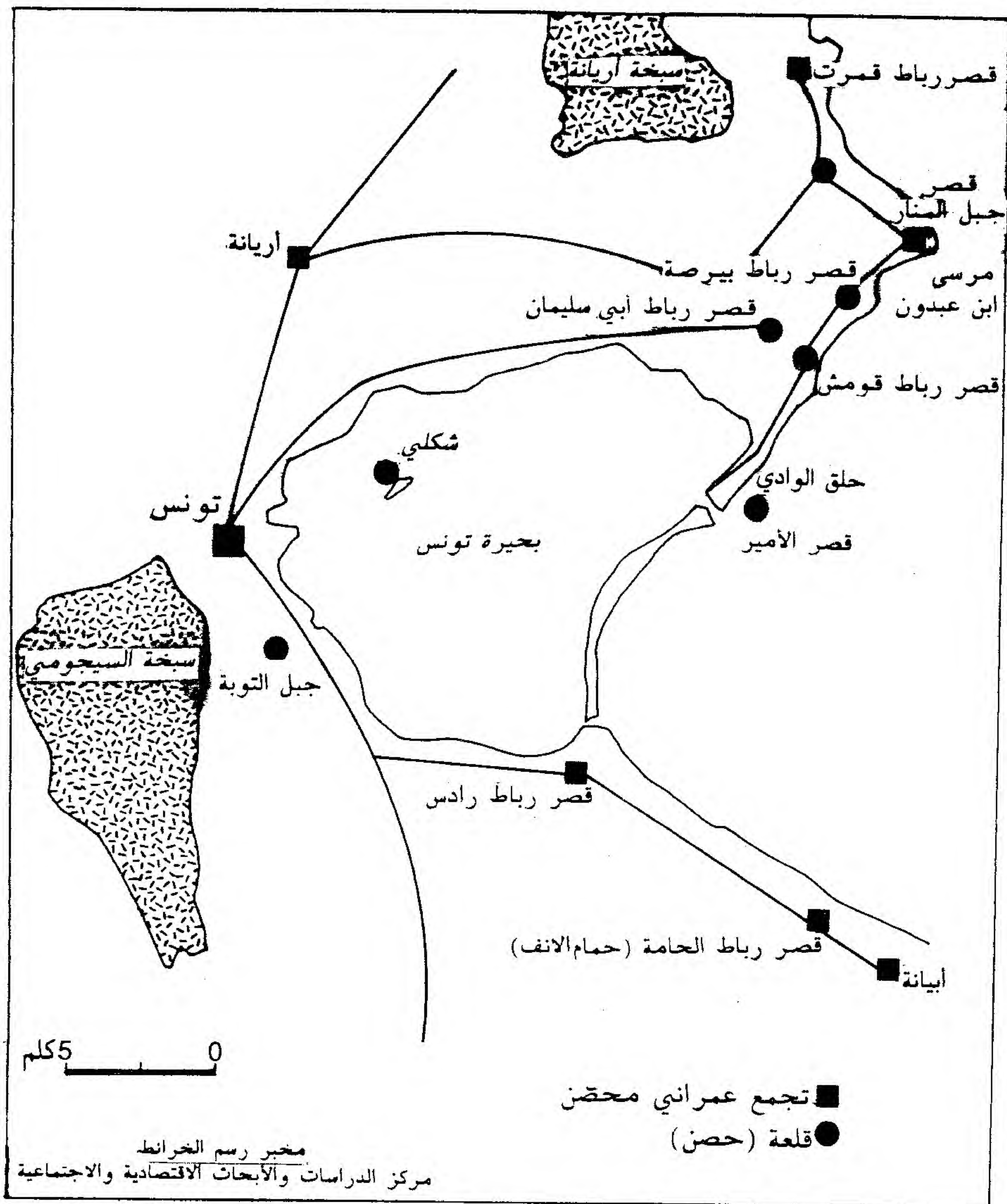
لـ. 60 ب : رباط يونقة.

لـ. 61 : جزر الكنائس.

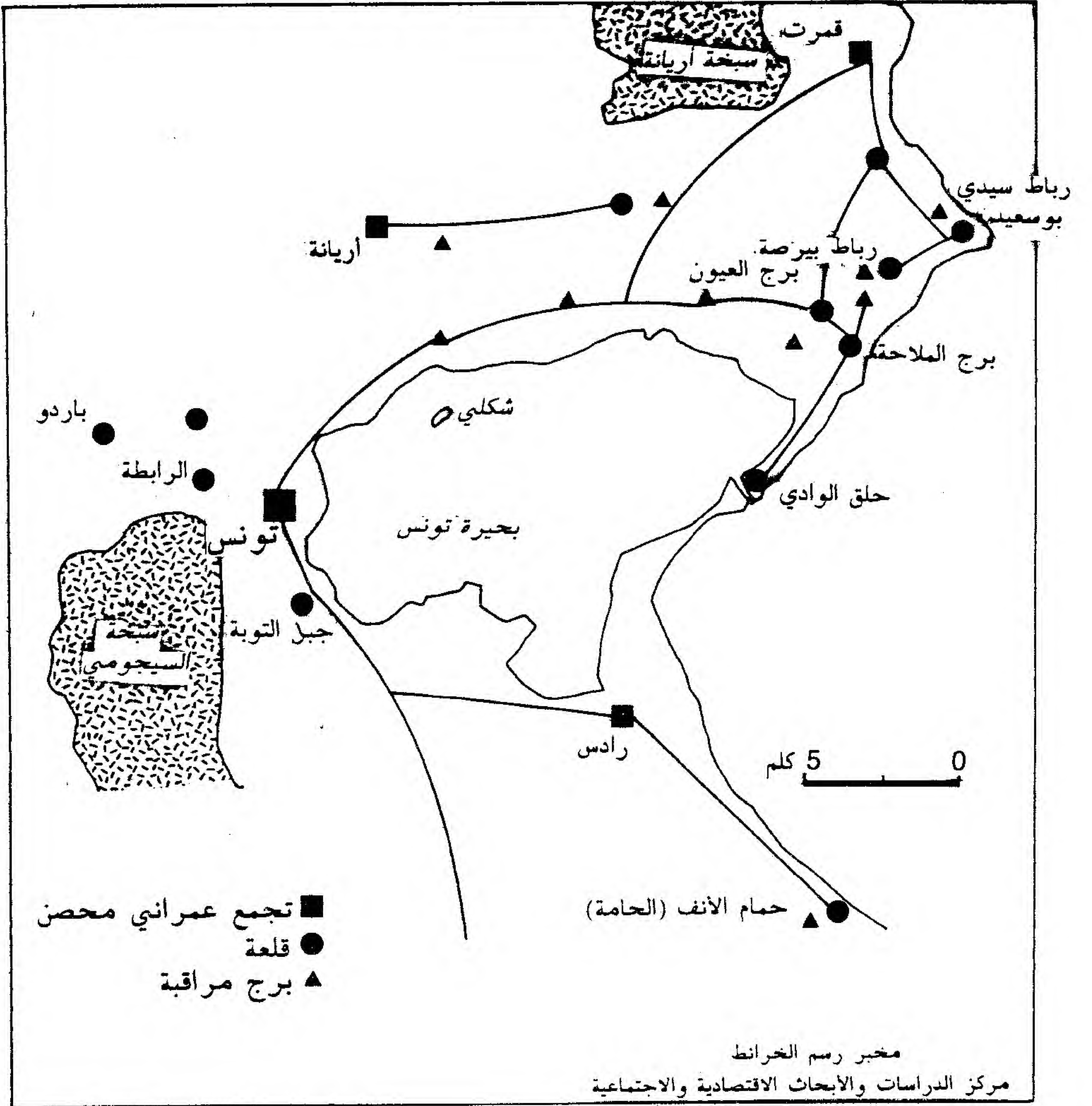
فهرس الموضوعات

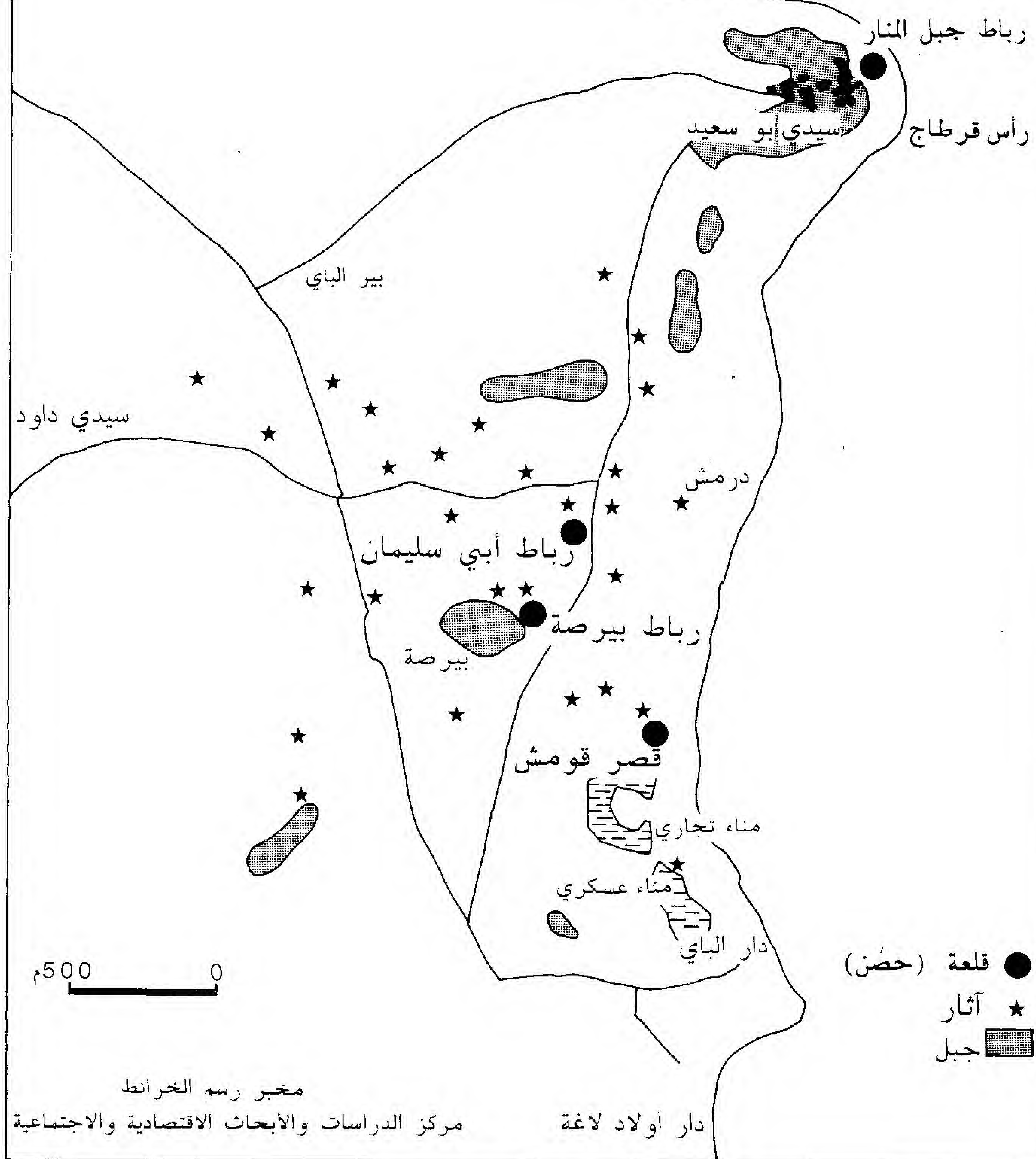
الأشكال

شكل 1 : رباطات منطقة تونس قبل العصر الحفصي

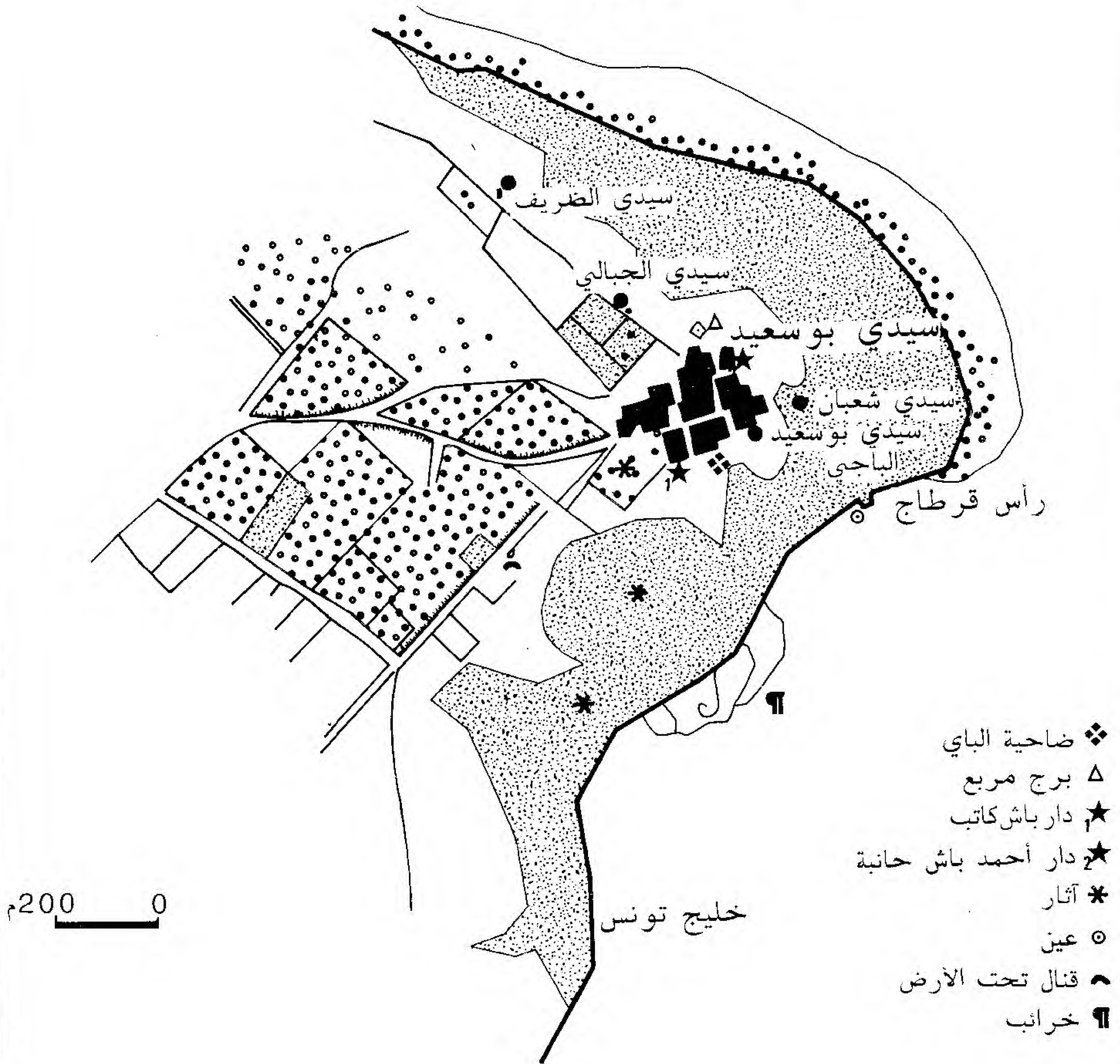


شكل 2 : **تحصينات منطقة تونس في العصر الحفصي**



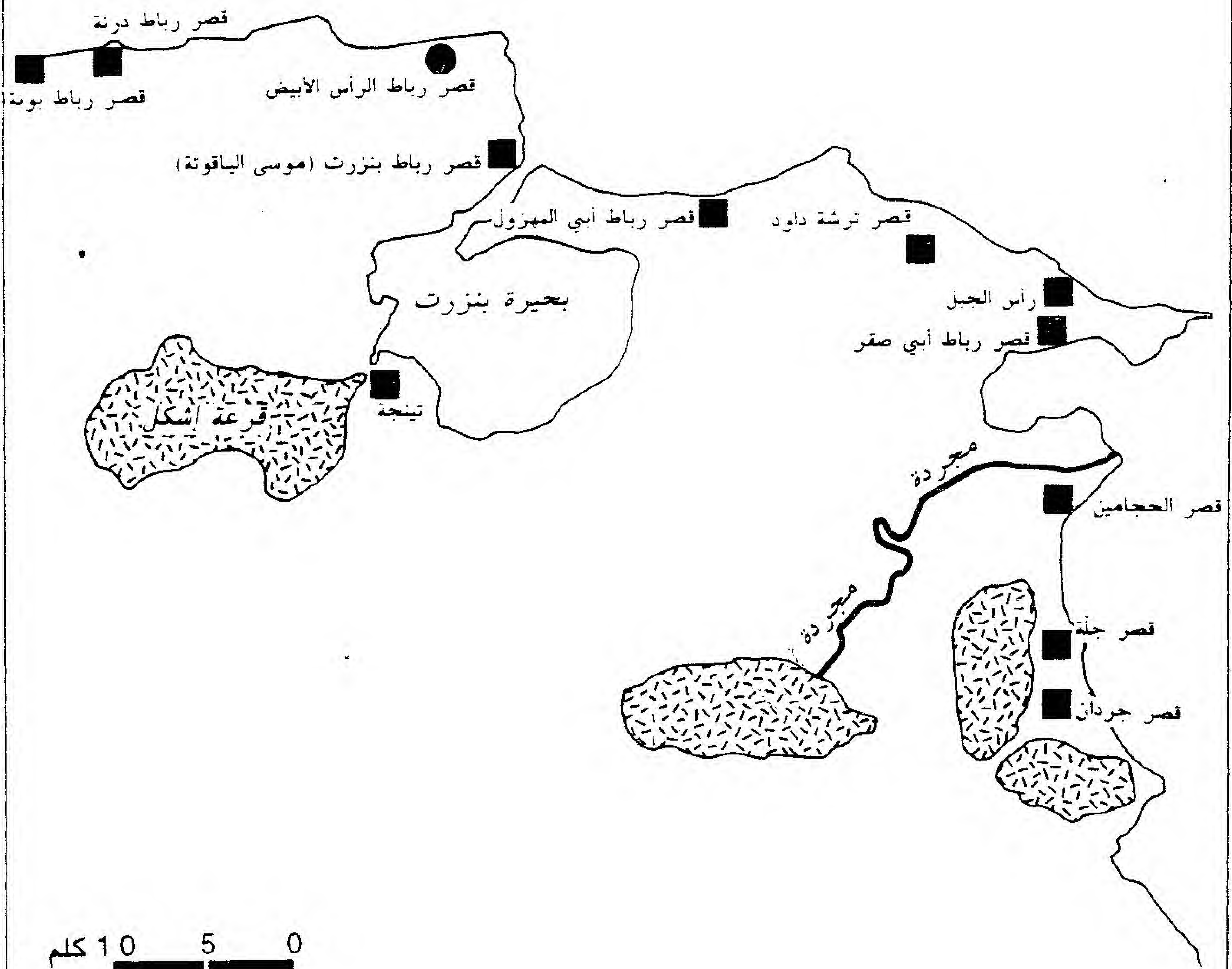


شكل 3 : منطقة قرطاج : الرّباطات الأغلبية


شكل 4 : سيدي بوسعيد
سيدي الظريف
سيدي الجبالي
سيدي بوسعيد
سيدي شعبان
سيدي بوسعيد الباجي
رأس قرطاج
خليج تونس
200م 0
ضاحية الباي
برج مربع
دار باشكاتب
دار أحمد باش حانبة
آثار
عين
قنال تحت الأرض
خرائب
المصدر : حسب فالب
مخبر رسم الخرائط
مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية

شكل 5 : رباطات صطفورة قبل العصر الحفصي

شكل 5 : رباطات صطفورة قبل العصر الحفصي

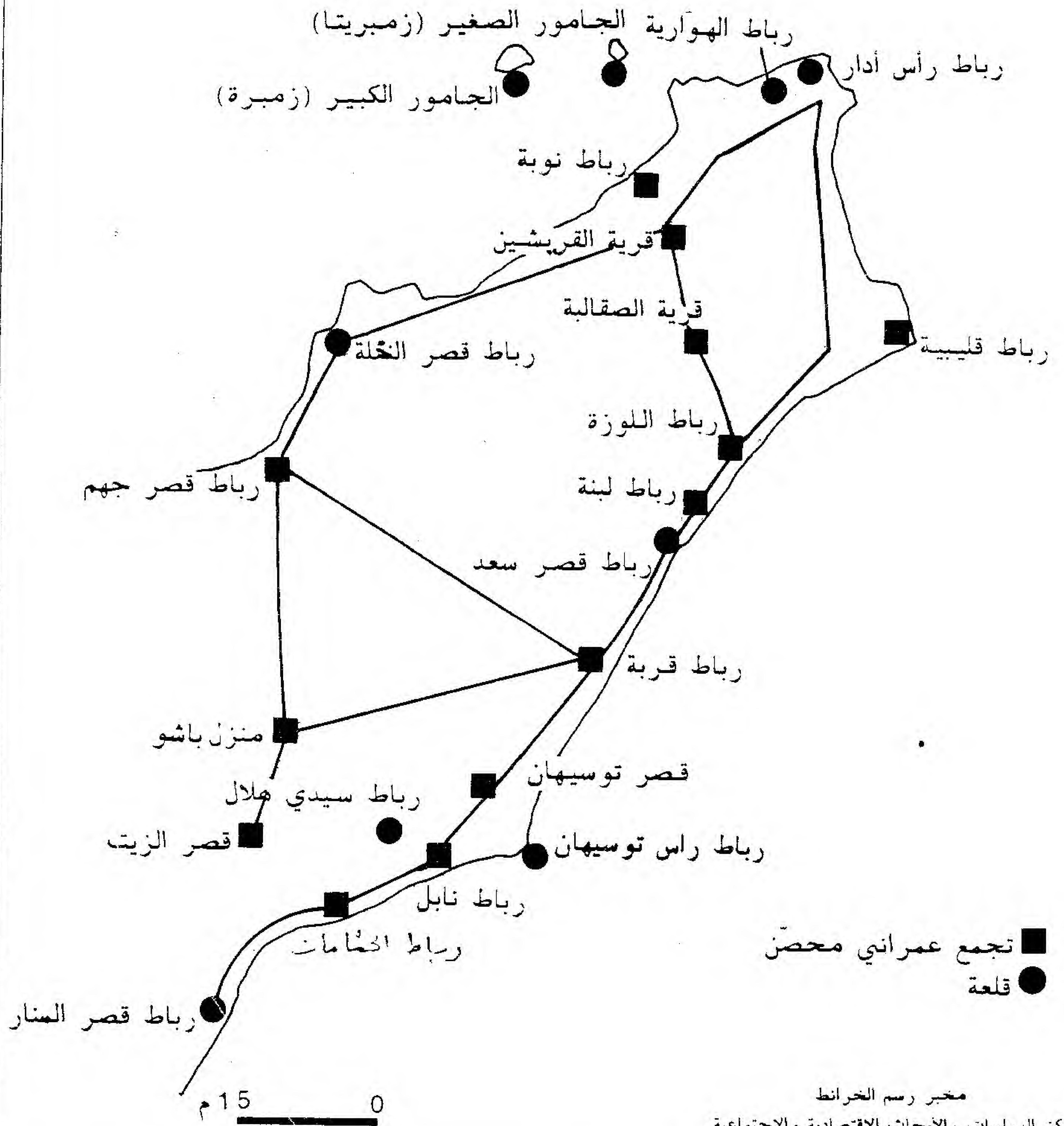


تجمع عمراني محصن

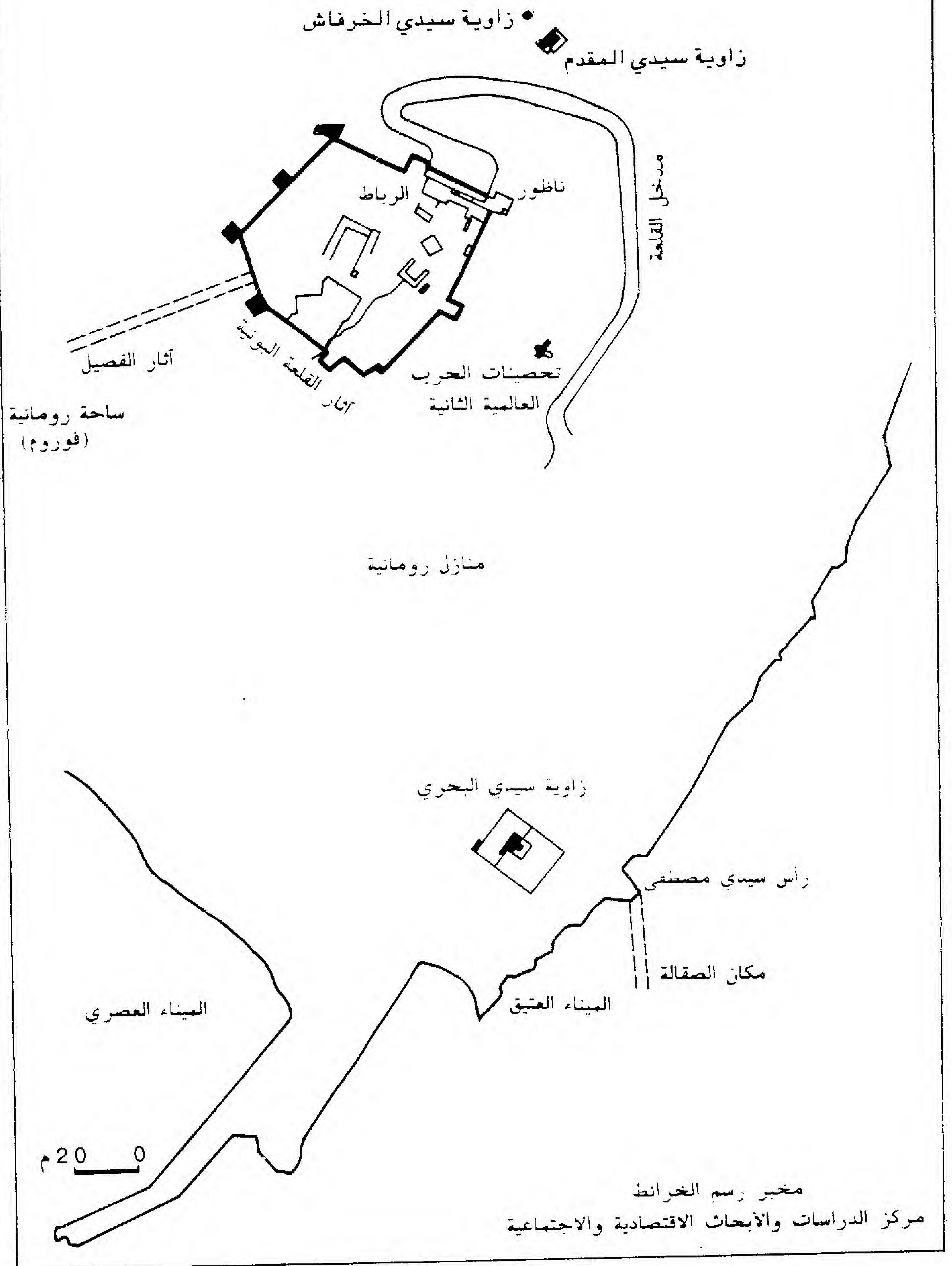
قلعة (حصن)

مخبر رسم الخرائط

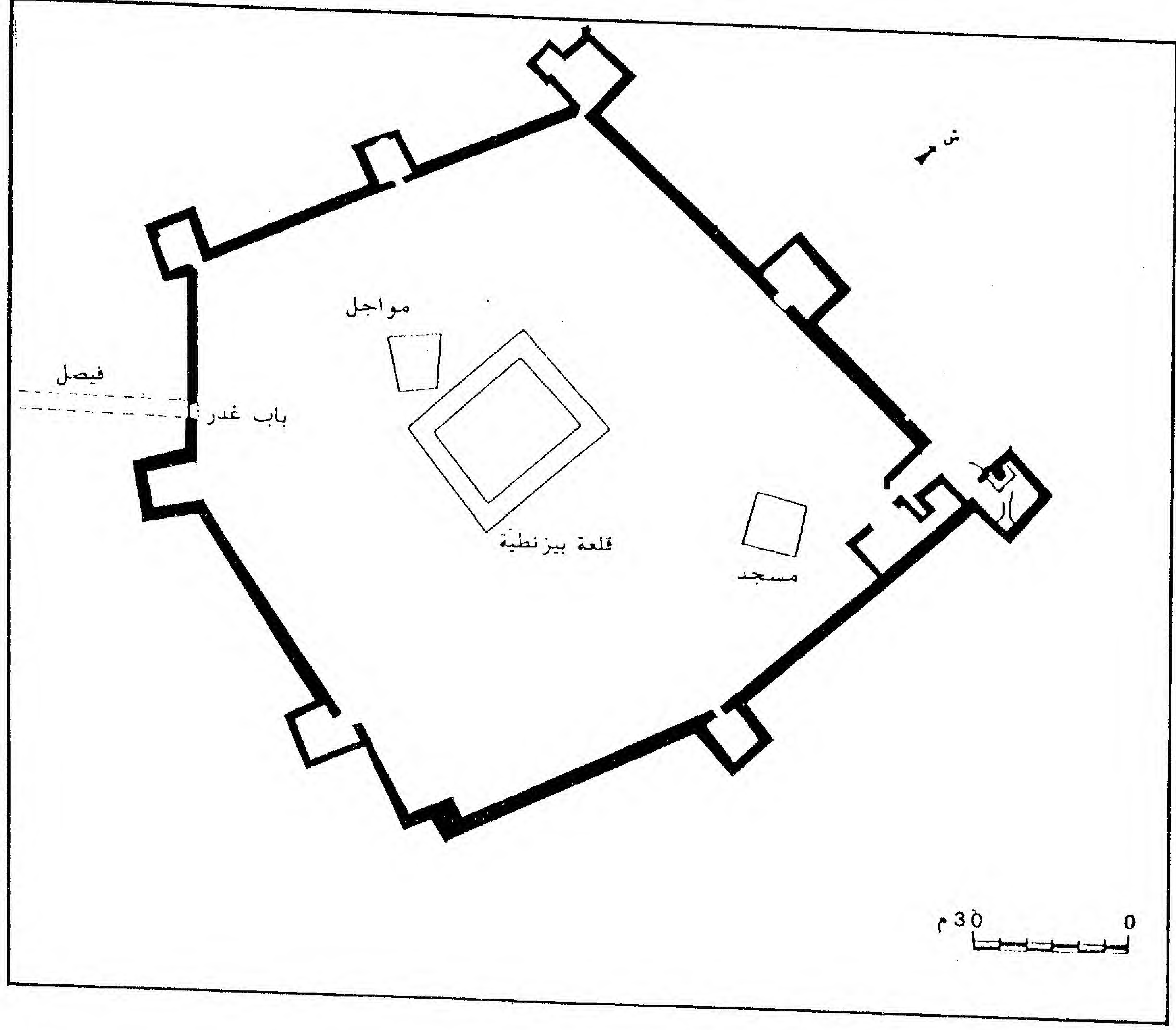
مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية



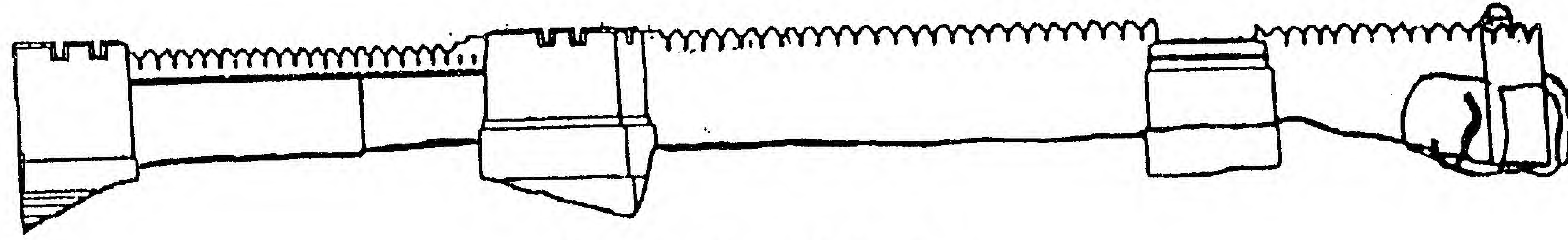
شكل 6 : رباطات جزيرة شريك قبل العصر الحفصي
رباط الهوّارية الجامور الصغير (زمبريتا)
رباط رأس أدار
الجامور الكبير (زمبرة)
رباط نوبة
قرية القريشين
قرية الصقالبة
رباط قليبية
رباط قصر النخلة
رباط اللوزة
رباط قصر جهم
رباط لبنة
رباط قصر سعد
رباط قربة
منزل باشو
قصر توسيهان
رباط سيدي هلال
قصر الزيت
رباط راس توسيهان
رباط نابل
رباط الحمّامات
تجمع عمراني محصّن
قلعة
رباط قصر المنار
15 م 0
مخبر رسم الخرائط
مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية


شكل 7 : برج قليبية
زاوية سيدي الخرفاش
زاوية سيدي المقدم
مدخل القلعة
ناظور
الرباط
آثار الفصيل
القلعة البونية
آثار
تحصينات الحرب
العالمية الثانية
ساحة رومانية
(فوروم)
منازل رومانية
زاوية سيدي البحري
رأس سيدي مصطفى
مكان الصقالة
الميناء العتيق
الميناء العصري
20 0 م
مخبر رسم الخرائط
مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية

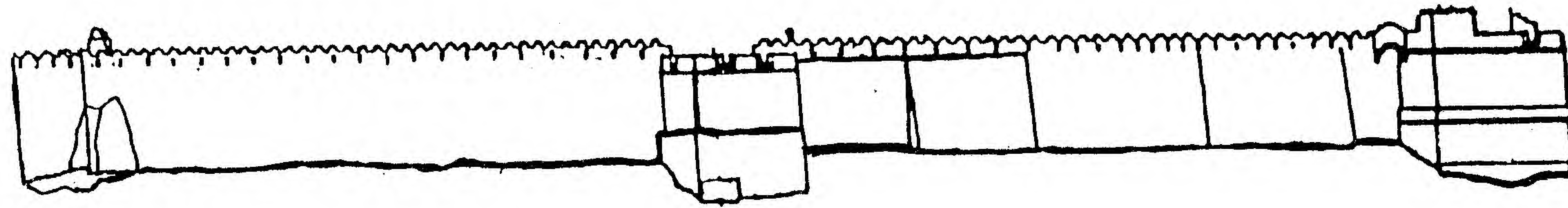
شكل 8 : مخطط برج قليبية



شكل 9 : **برج قليبية**

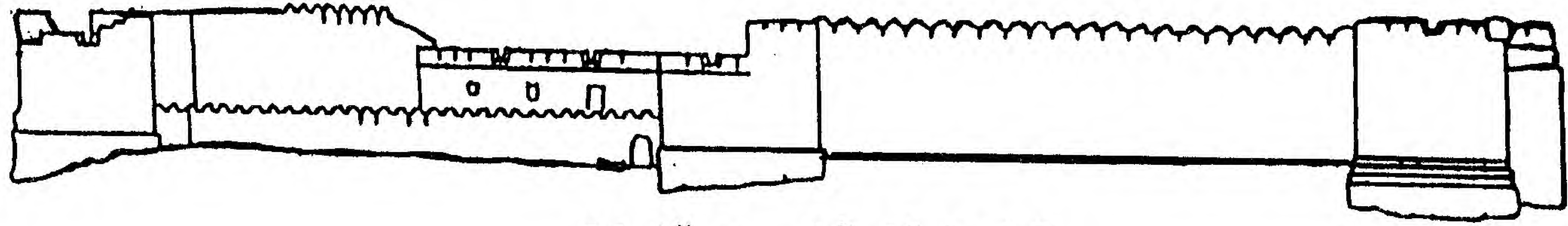


الواجهة الجنوبية - الغربية

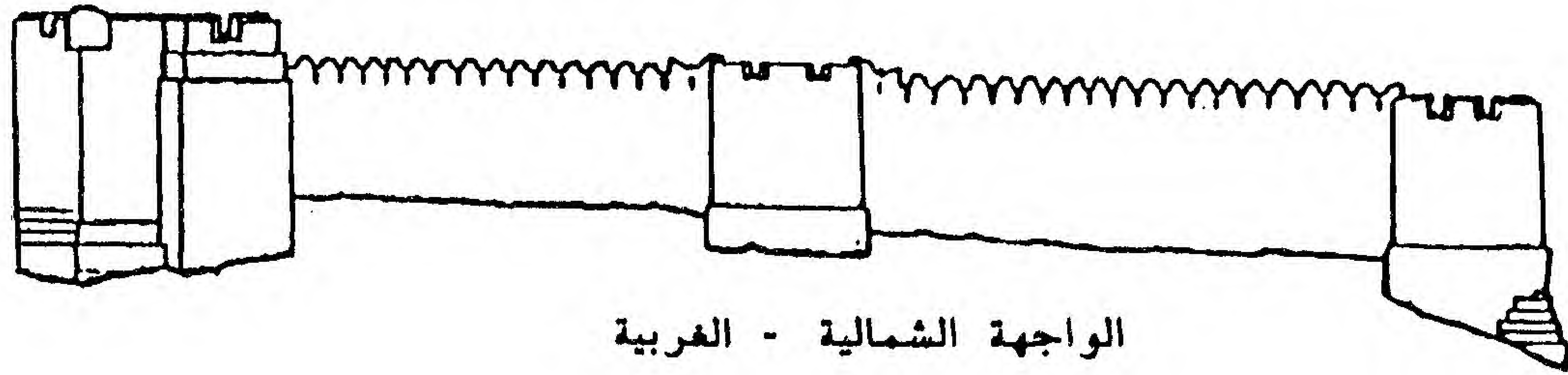


الواجهة الجنوبية - الشرقية

شكل 10 : **برج قليبية**

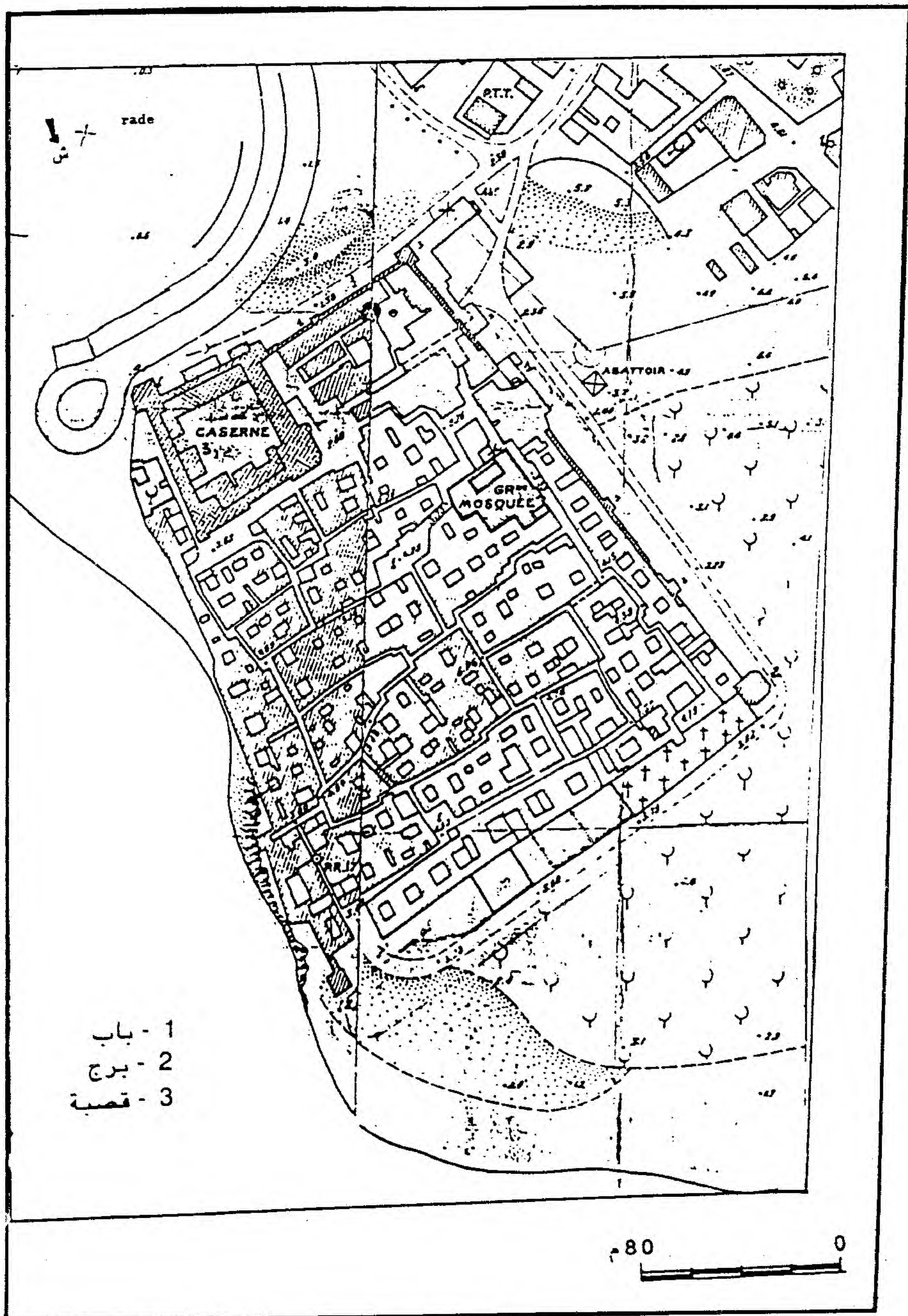


الواجهة الشمالية - الشرقية

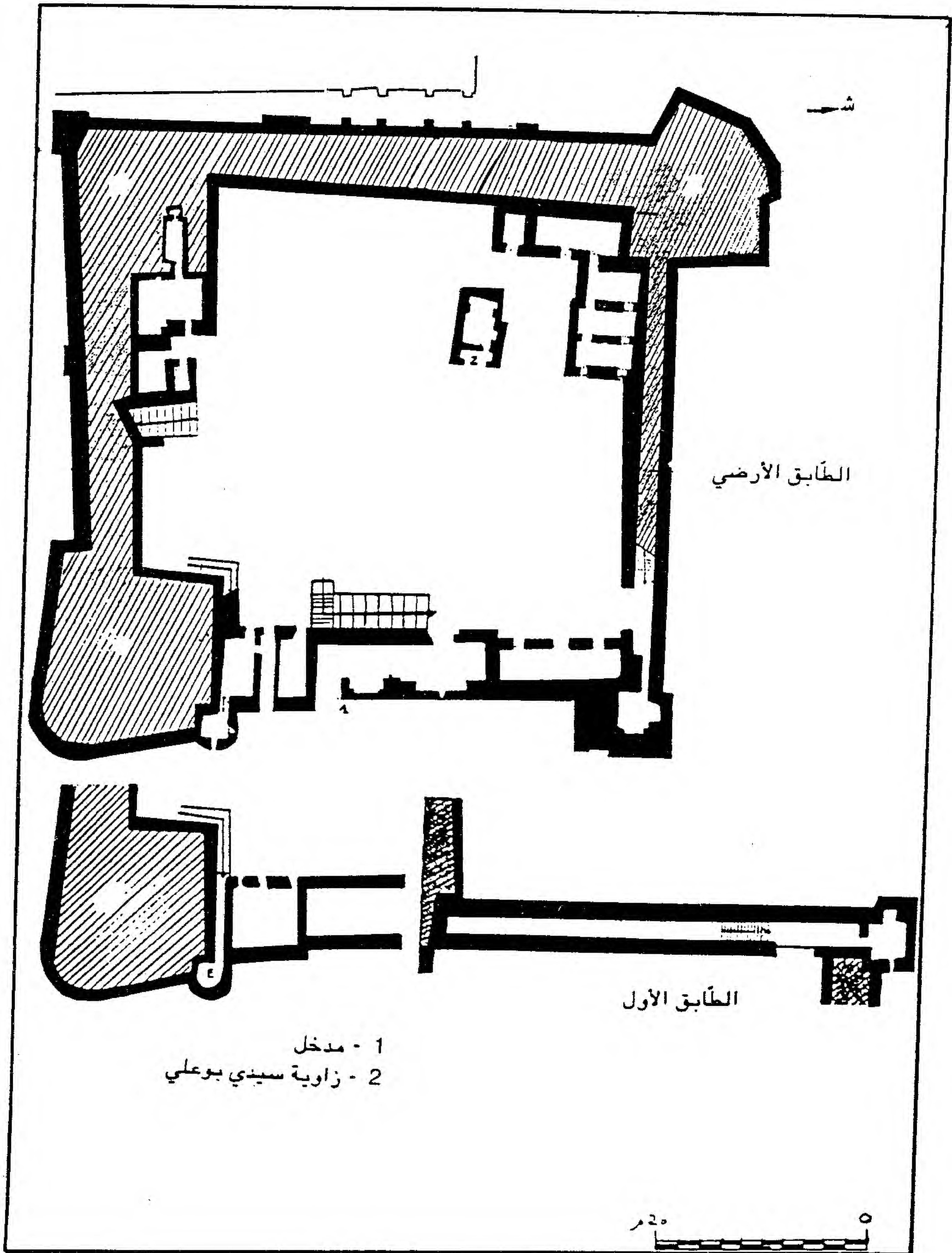


الواجهة الشمالية - الغربية

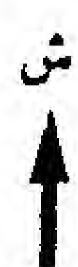
شكل 11 : مدينة الحمامات (1950)



شكل 12 : قصبة الحمامات

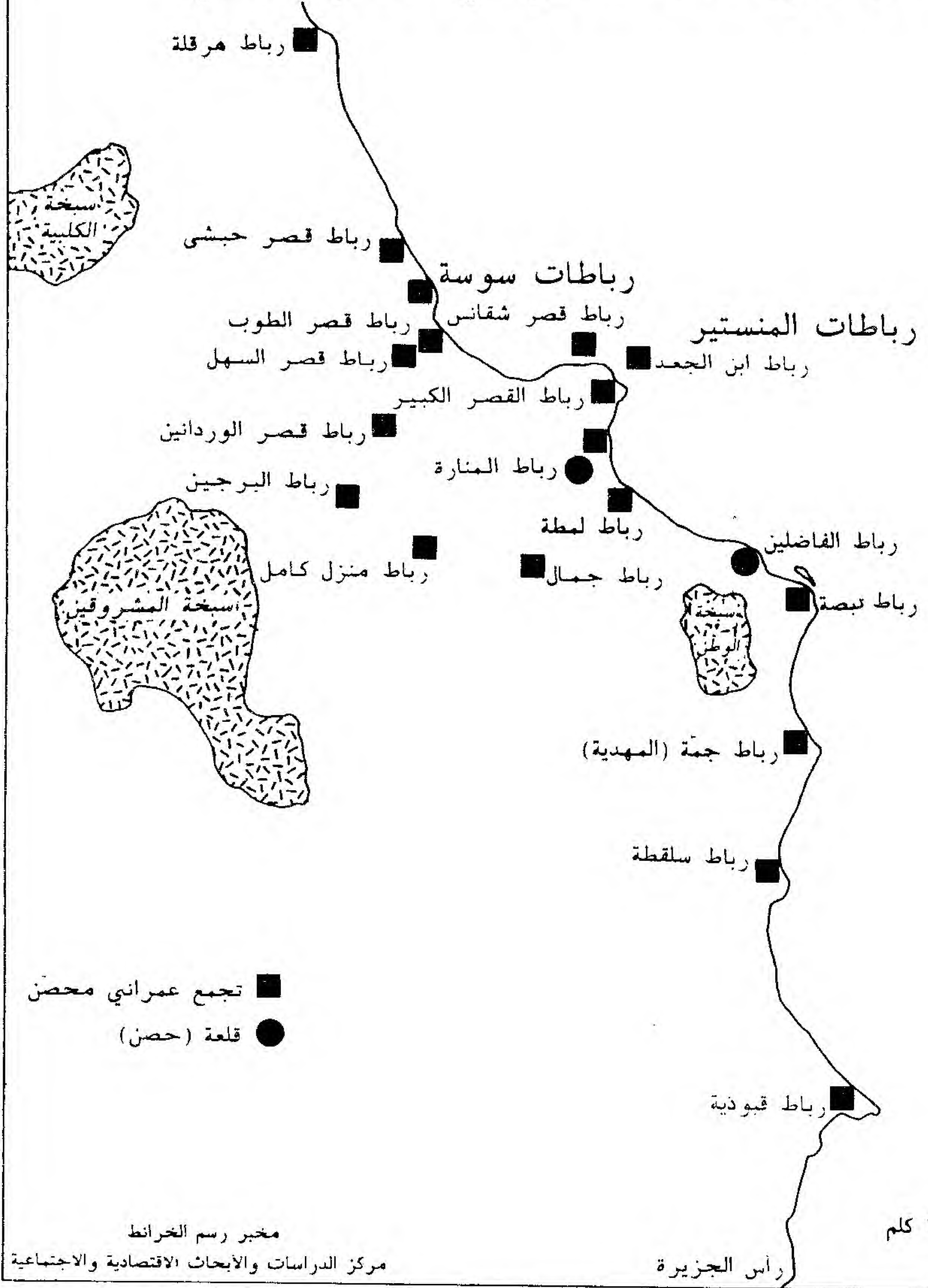


شكل 13 : بني خيار

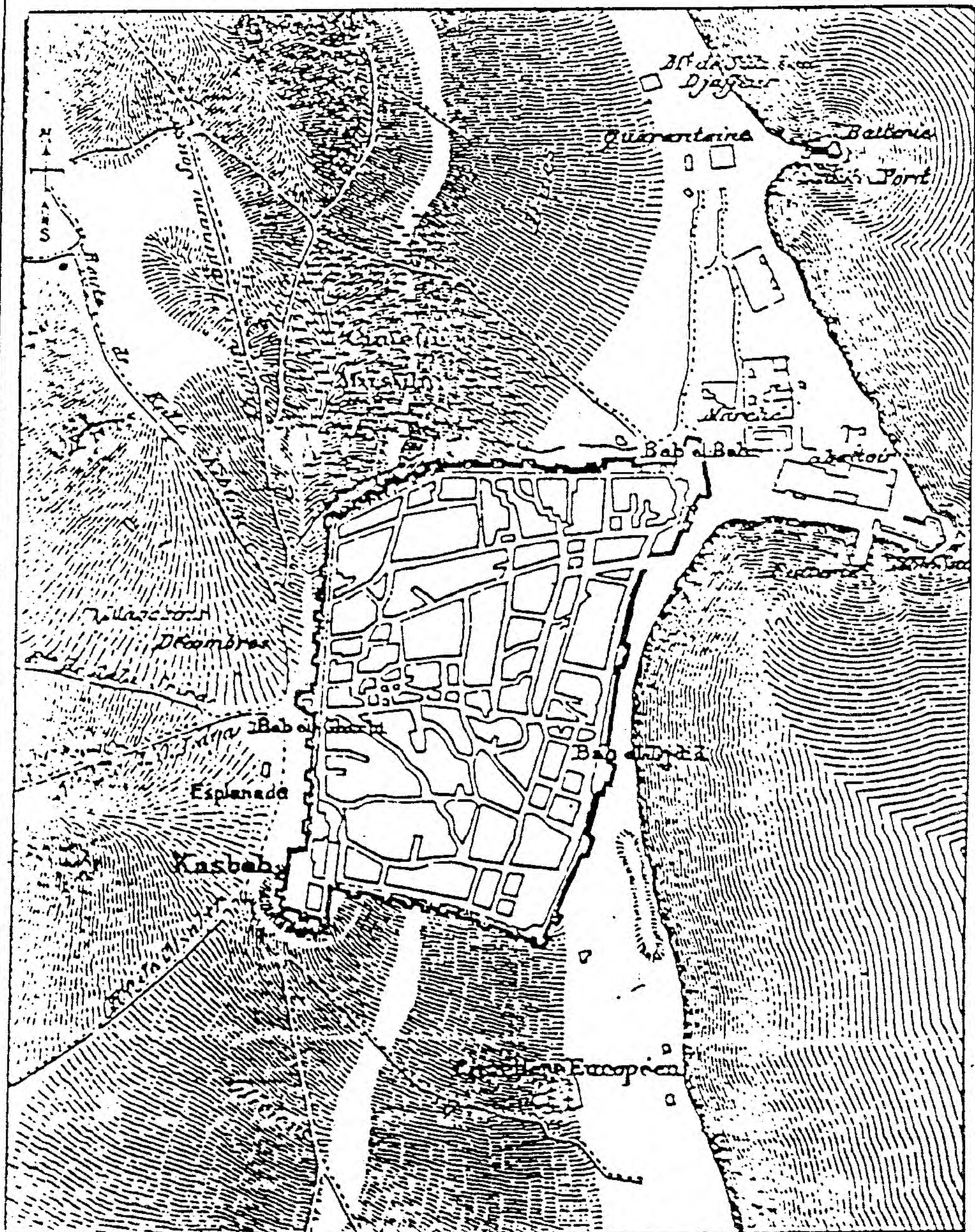


1 : بطحاء القصر

2 : جامع القصر

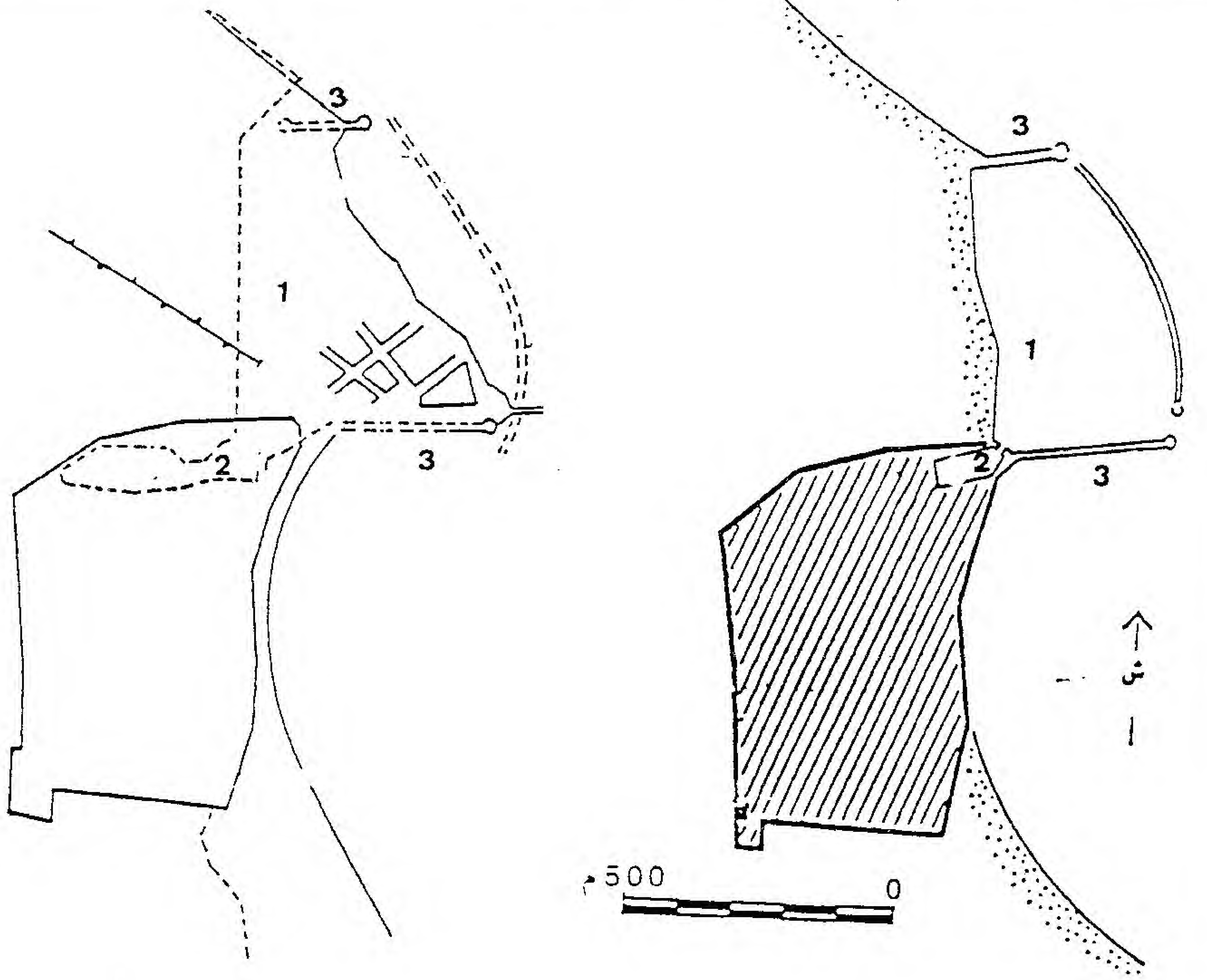

شكل 14: رباطات الساحل في العصر الأغلبي
رباط هرقلة
سبخة الكلبية
رباط قصر حبشي
رباطات سوسة
رباط قصر شقانس
رباط قصر الطوب
رباطات المنستير
رباط قصر السهل
رباط ابن الجعد
رباط القصر الكبير
رباط قصر الوردانين
رباط المنارة
رباط البرجين
رباط لمطة
رباط الفاضلين
رباط منزل كامل
رباط جمال
سبخة المشروقين
سبخة الوطن
رباط تبصة
رباط جمّة (المهدية)
رباط سلقطة
تجمع عمراني محصّن
قلعة (حصن)
رباط قبوذية
0
10 كلم
مخبر رسم الخرائط
مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية
رأس الجزيرة

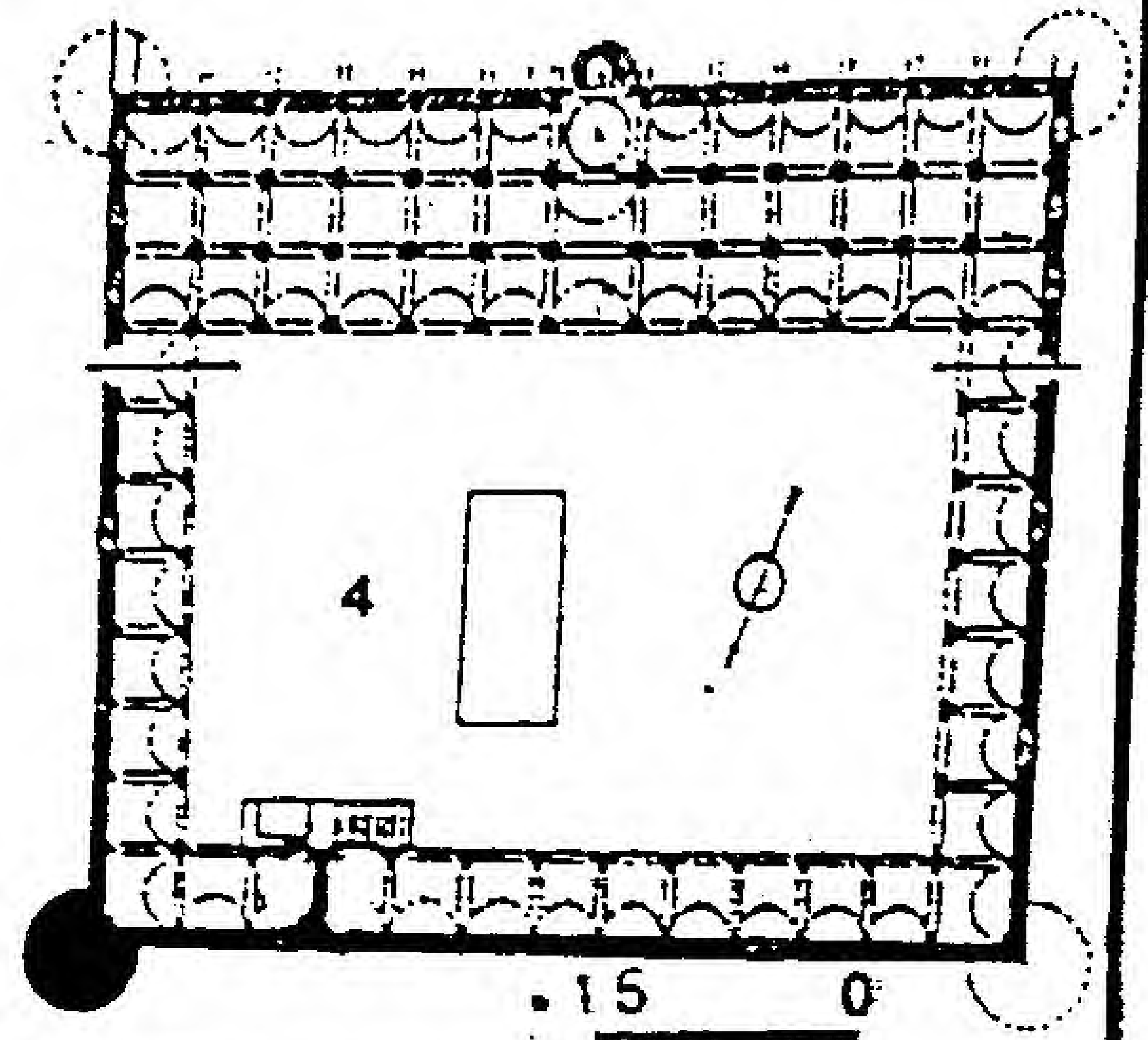
شكل 15 : مدينة سوسة (ق. XIXم)



0 100 200 300 400 500

شكل 16 : سوسة : التجهيزات البحرية





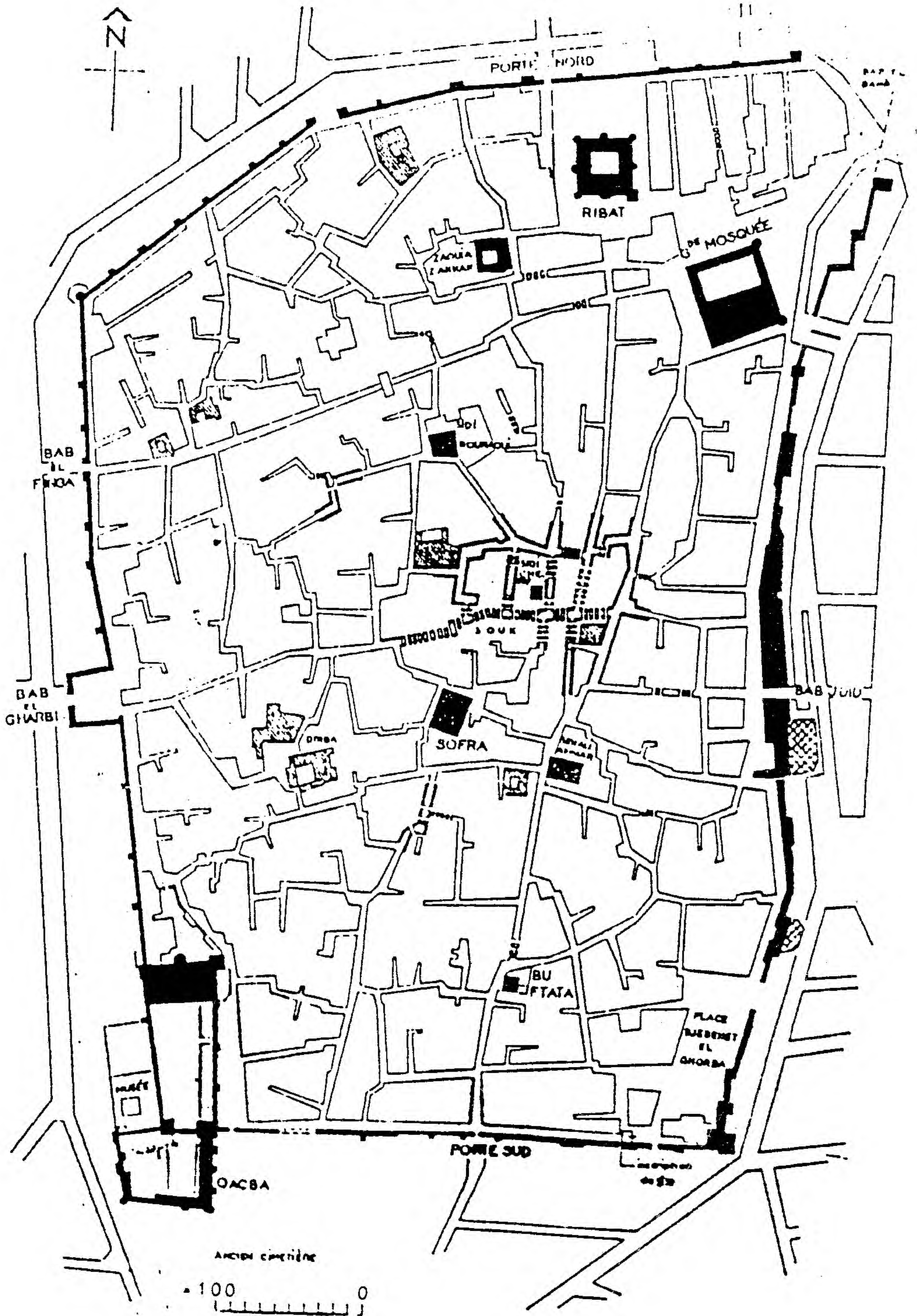
1 الميناء الخارجي

2 الميناء الداخلي

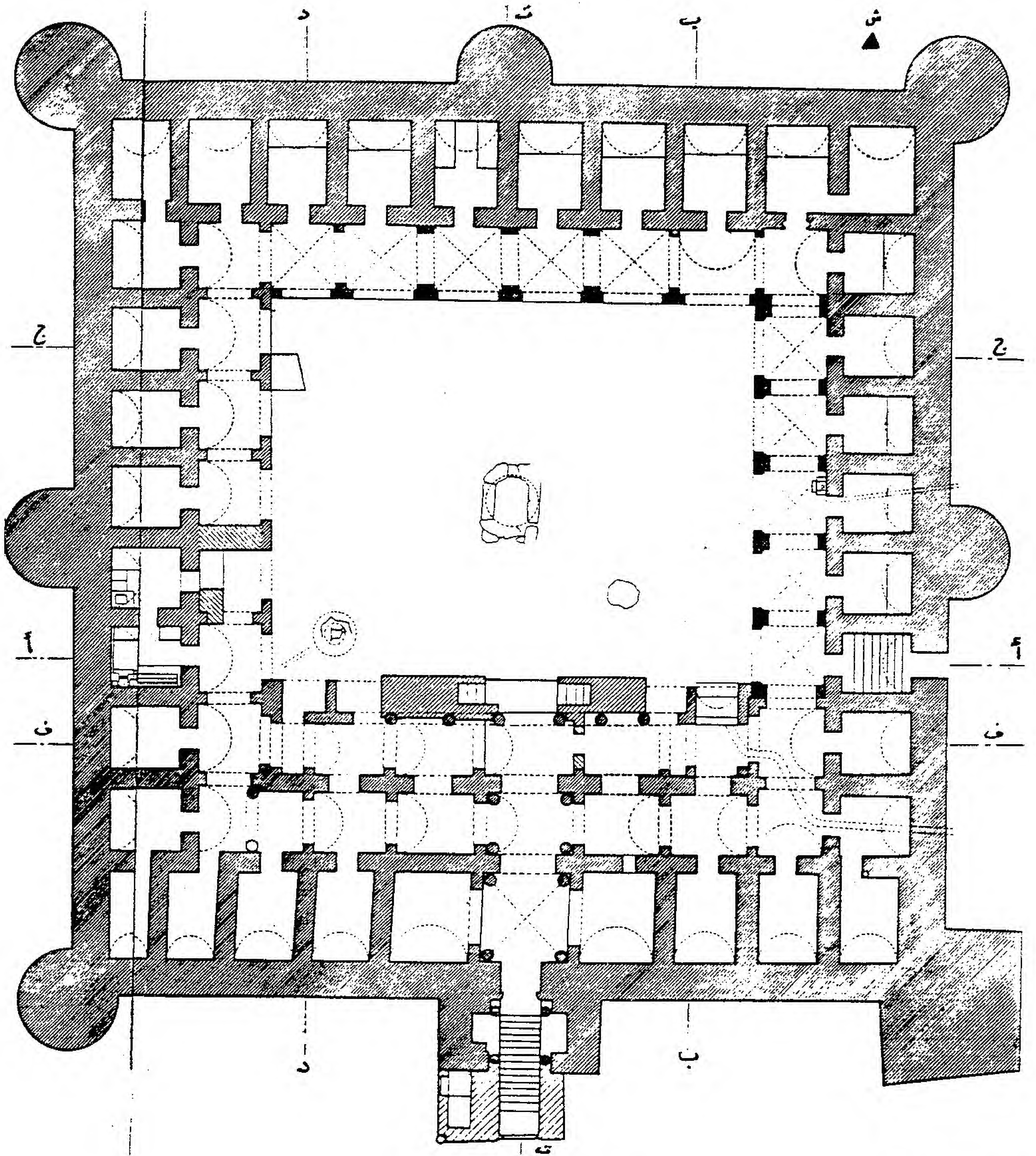
3 صقالة

4 الجامع المحصّن

شكل 17 : مدينة سوسة

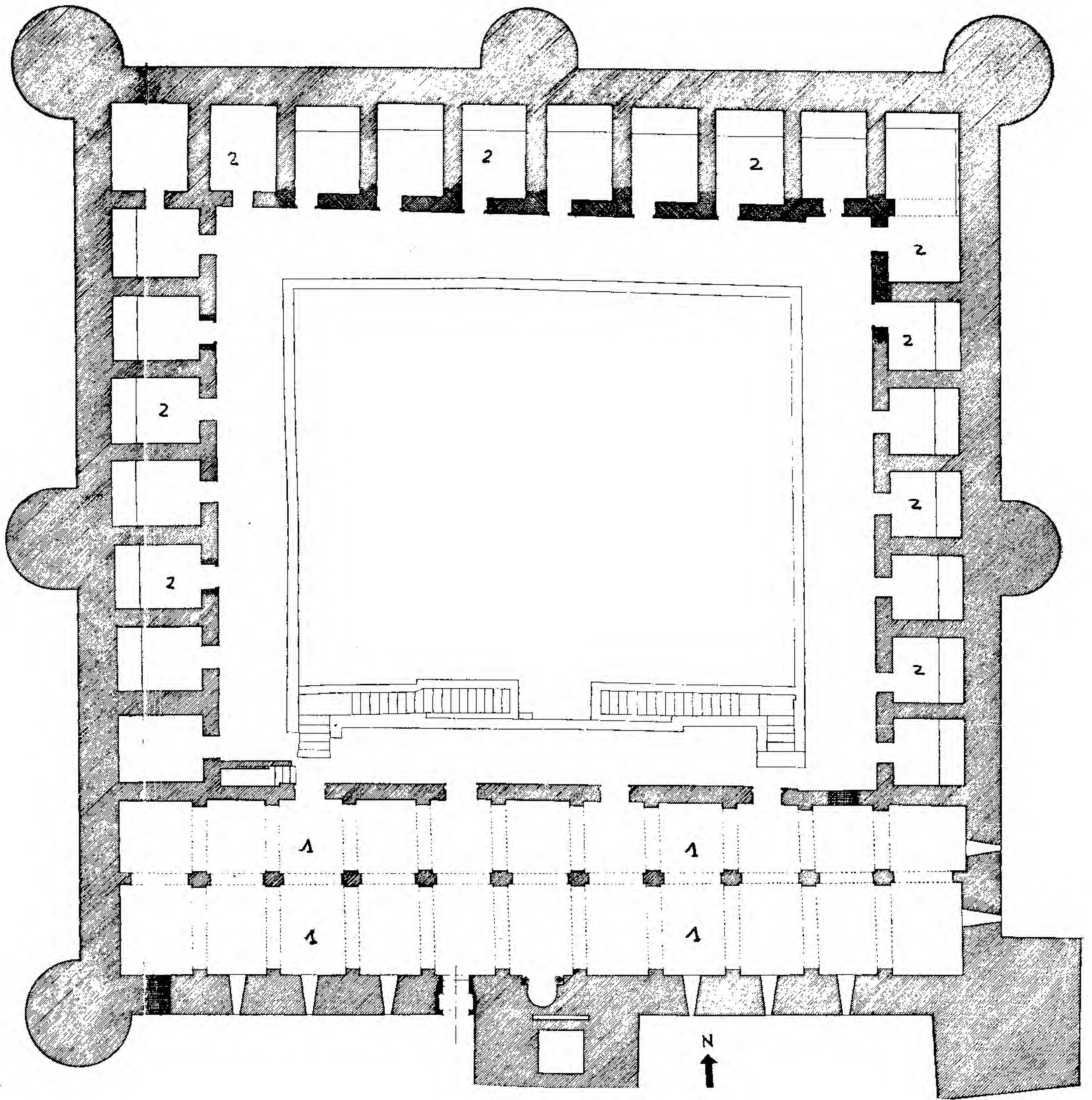


شكل 18 : رباط سوسة - الطابق الأرضي -



1 : مخازن ومكاتب
2 : مدخل
3 : بيوت الحراسة

شكل 19 : رباط سوسة - الطابق الأول



1 - مسجد

2 - غرف

ق. 8 م

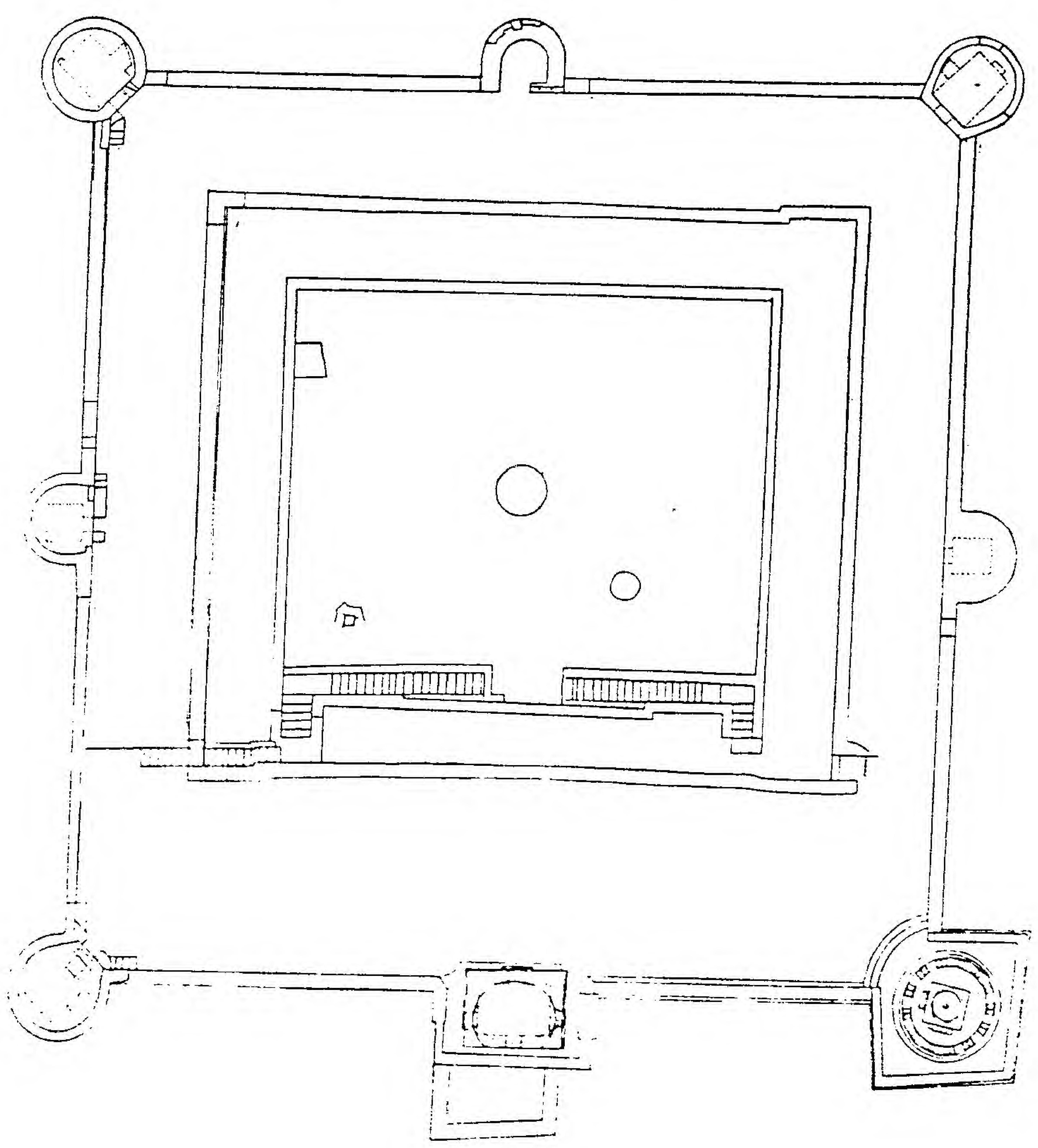
ق. 9 م

اصلاحات 1722

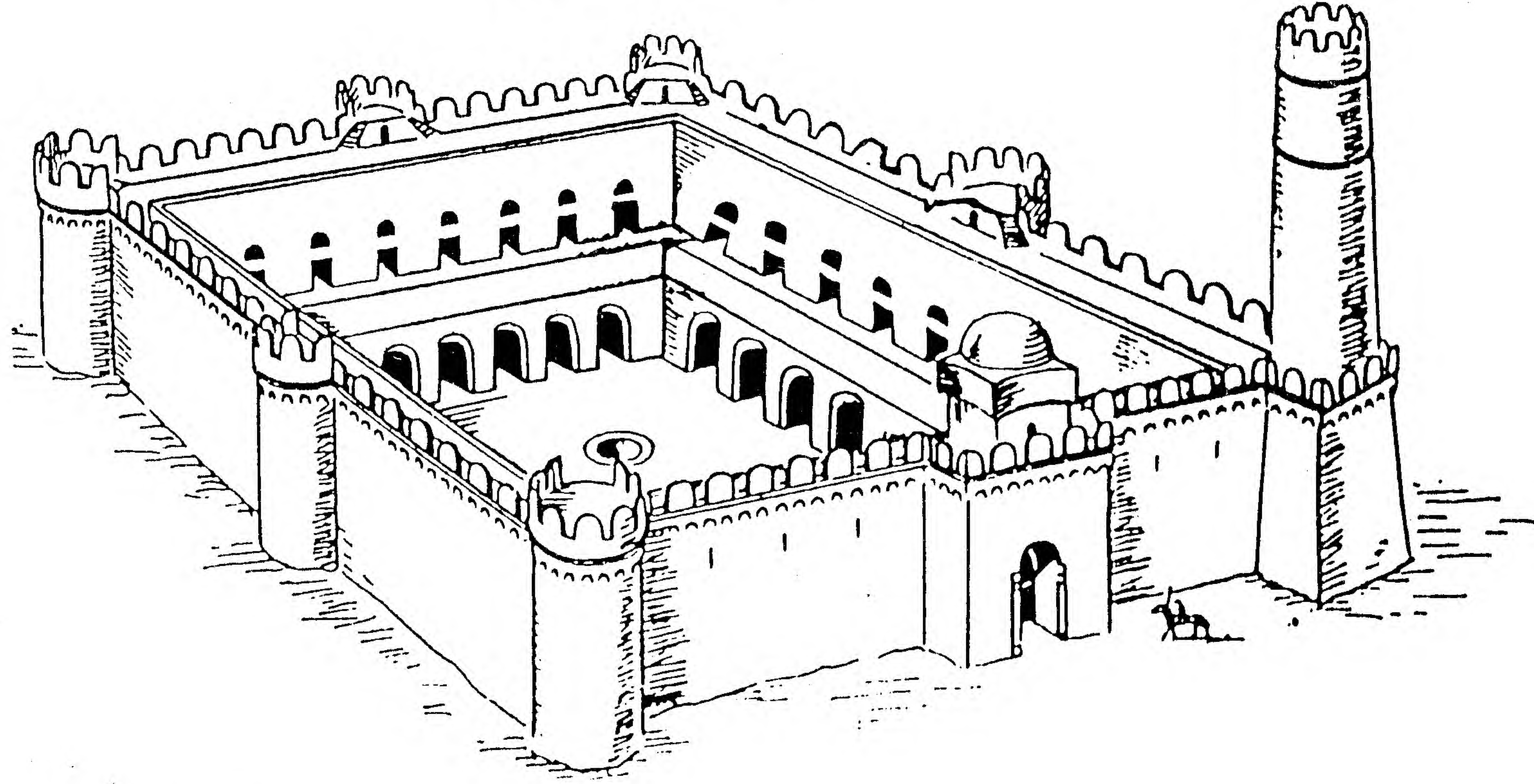
ترميمات حديثة

0 2 6 م

شكل 20 : رباط سوسة - السّطوح -

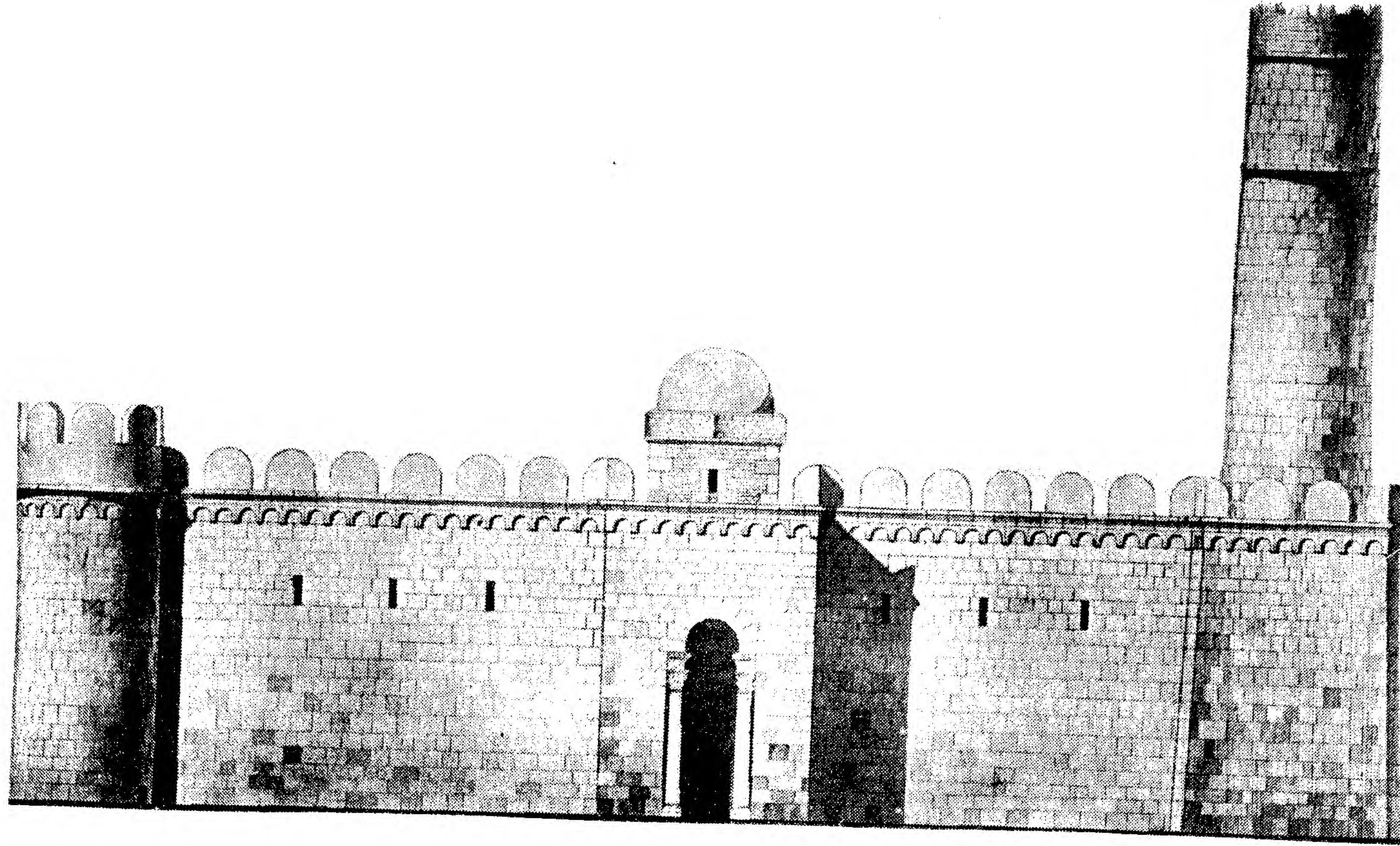


شكل 21 : رباط سوسة

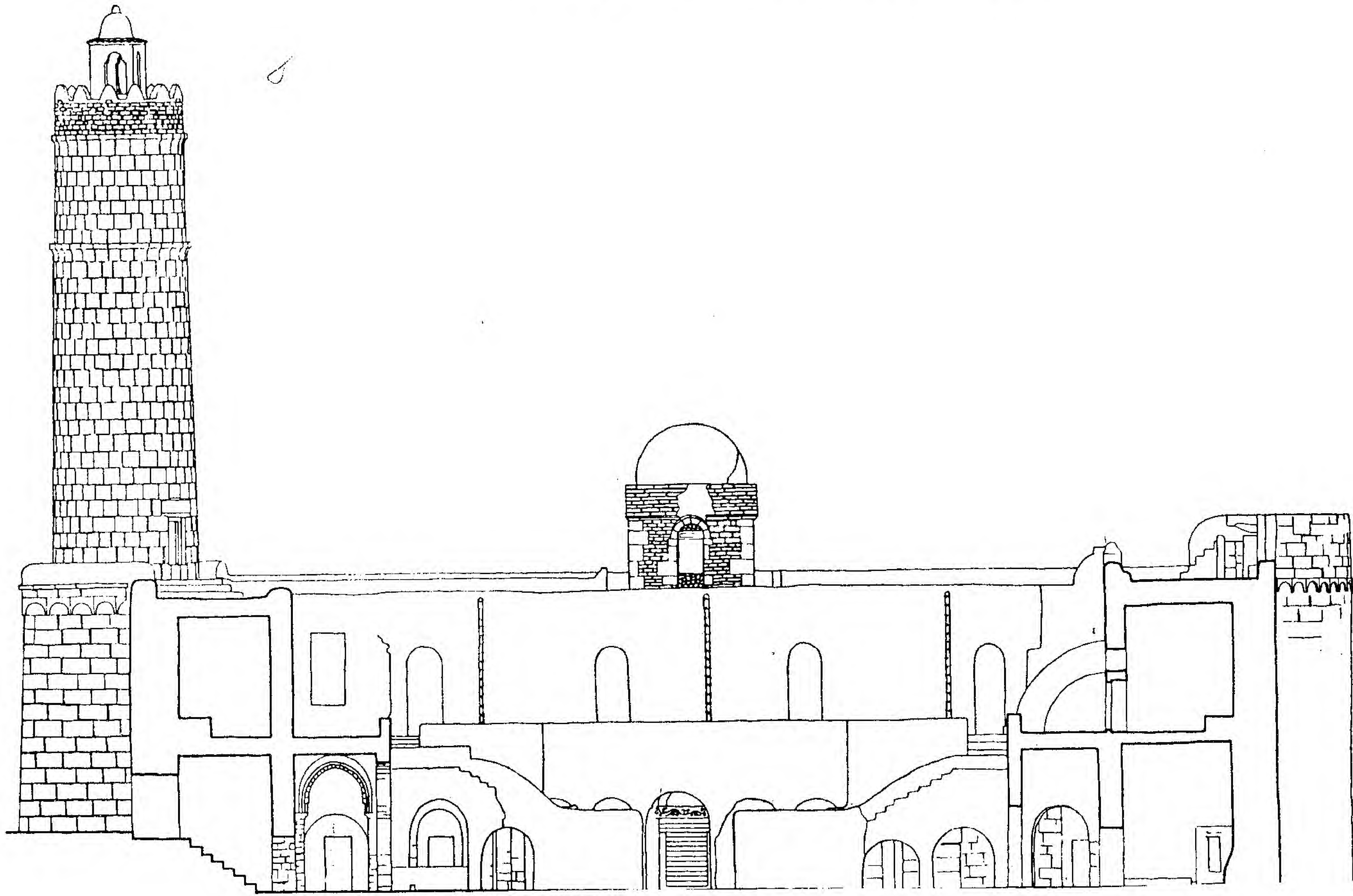


(أندرية ميكال)

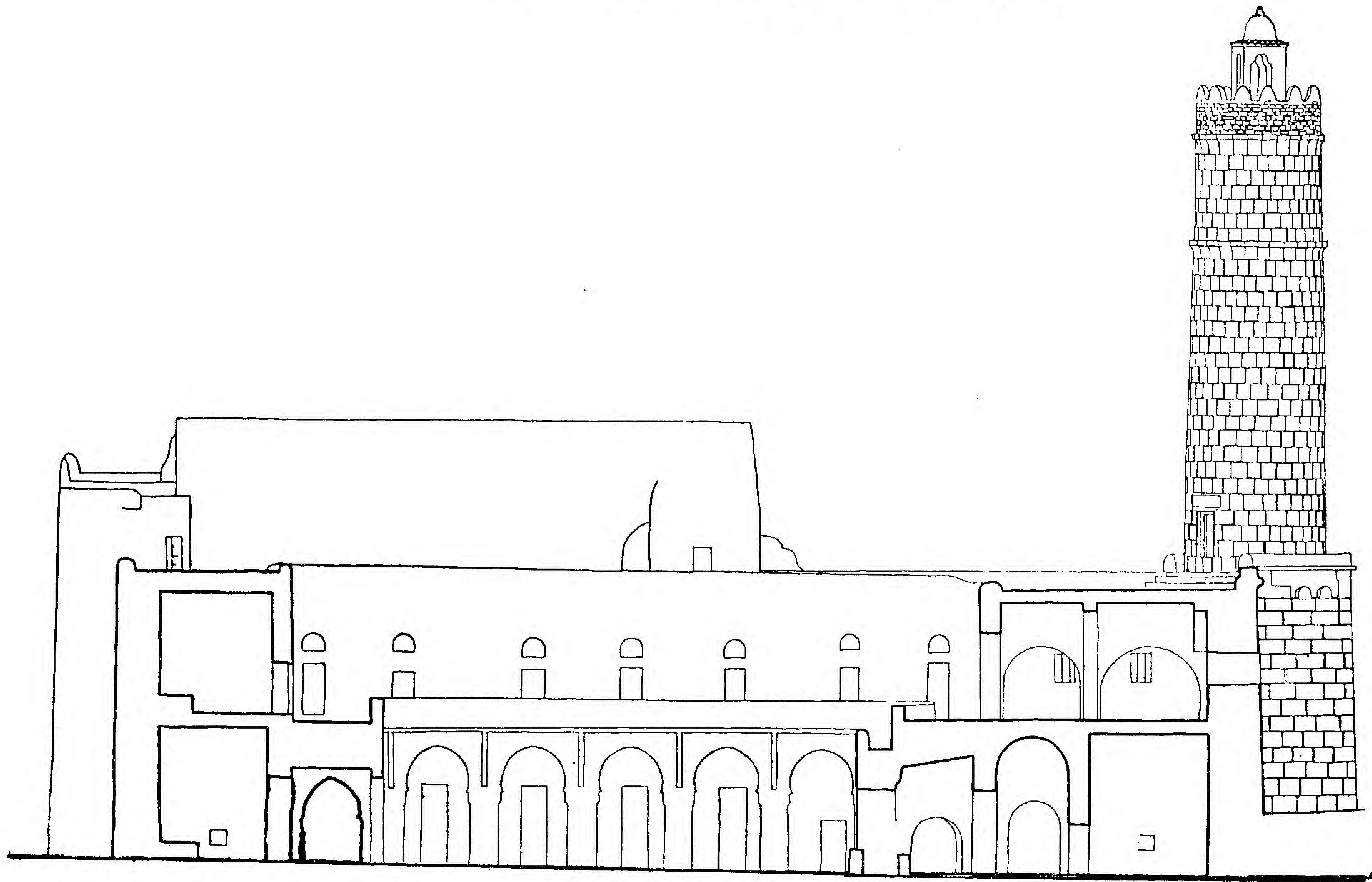
شكل 22 : رباط سوسة - الواجهة الجنوبية -



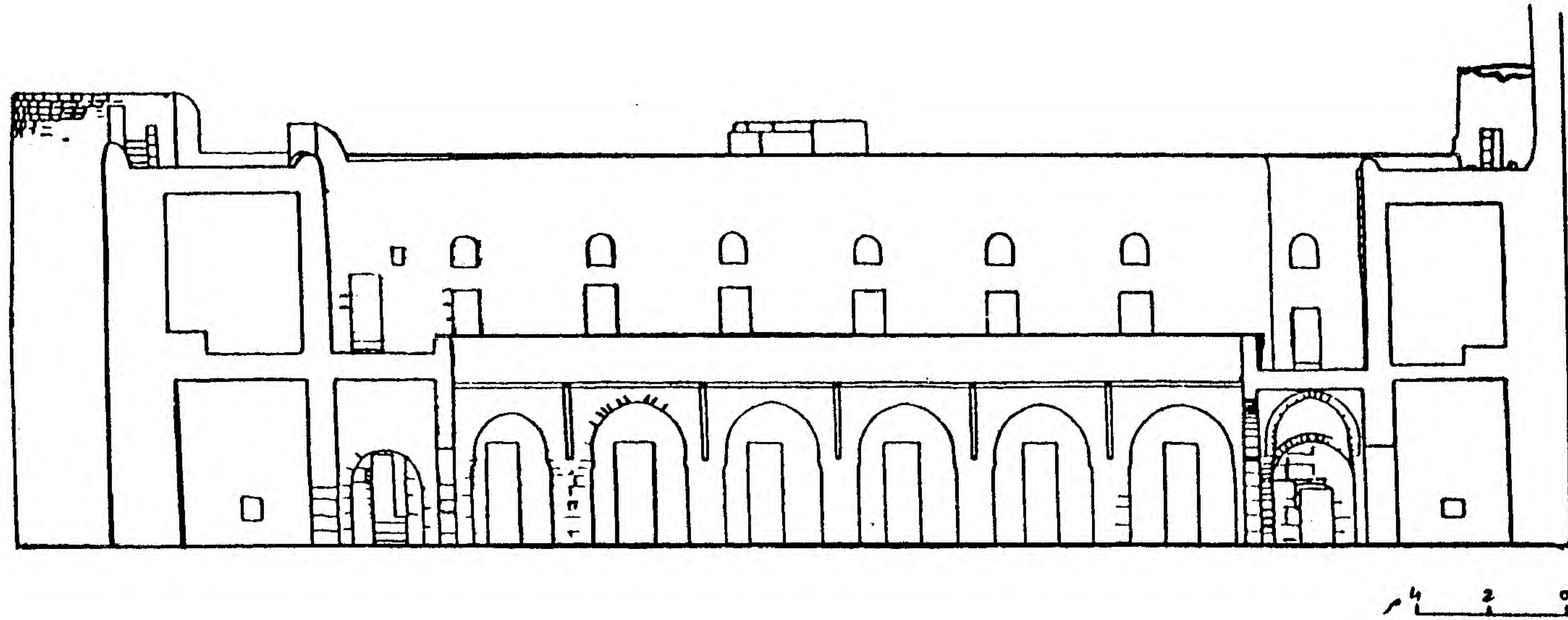
شكل 23 : رباط سوسة - مقطع ا - ا -



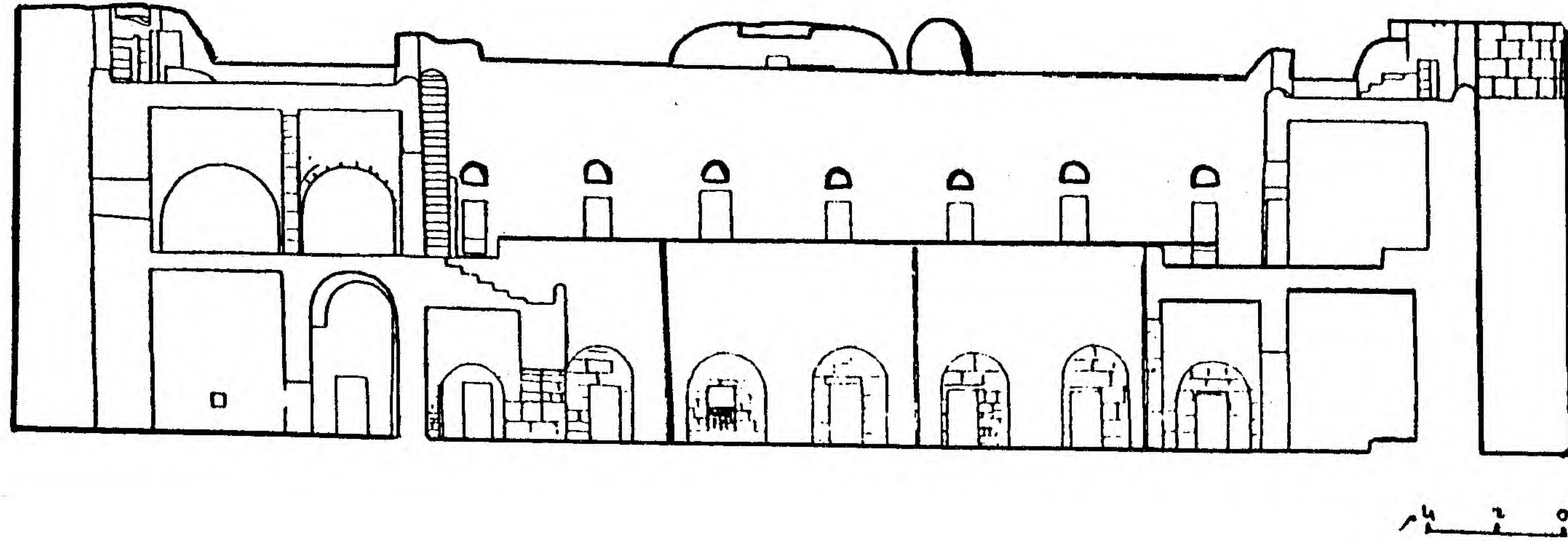
شكل 24 : رباط سوسة - مقطع ب - ب -



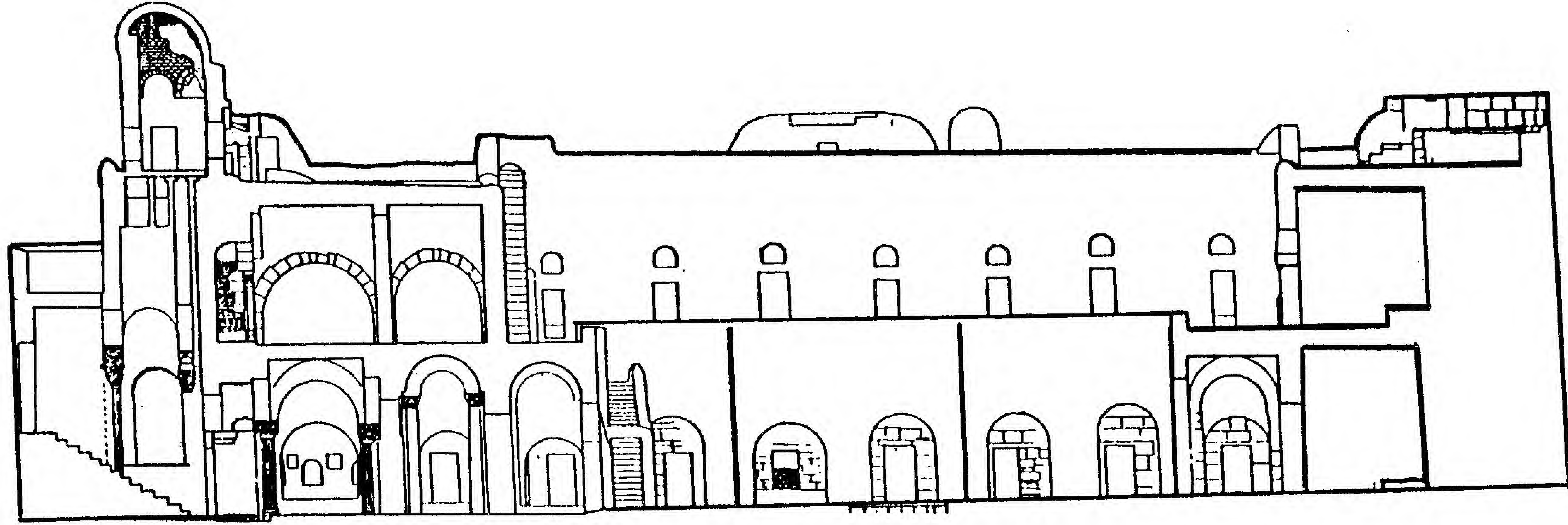
شكل 25 : رباط سوسة - مقطع ج - ج -



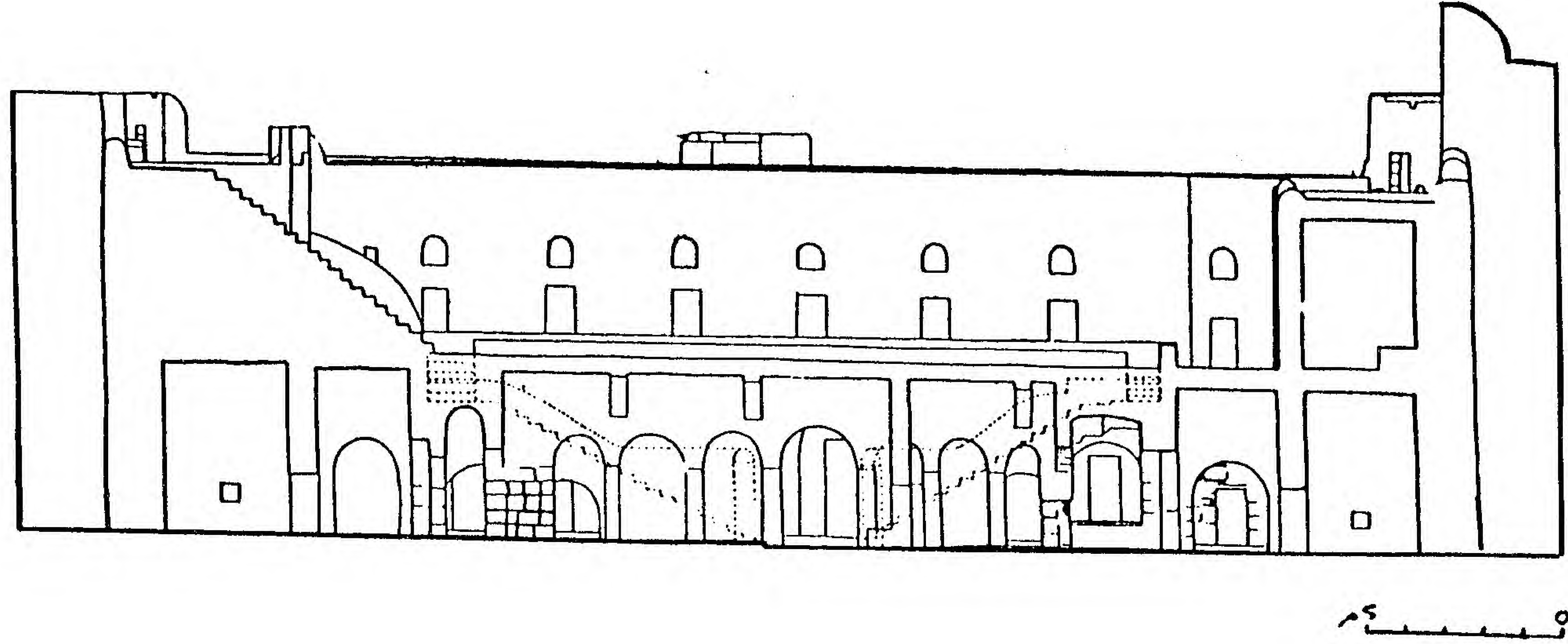
شكل 26 : رباط سوسة - مقطع د - د -



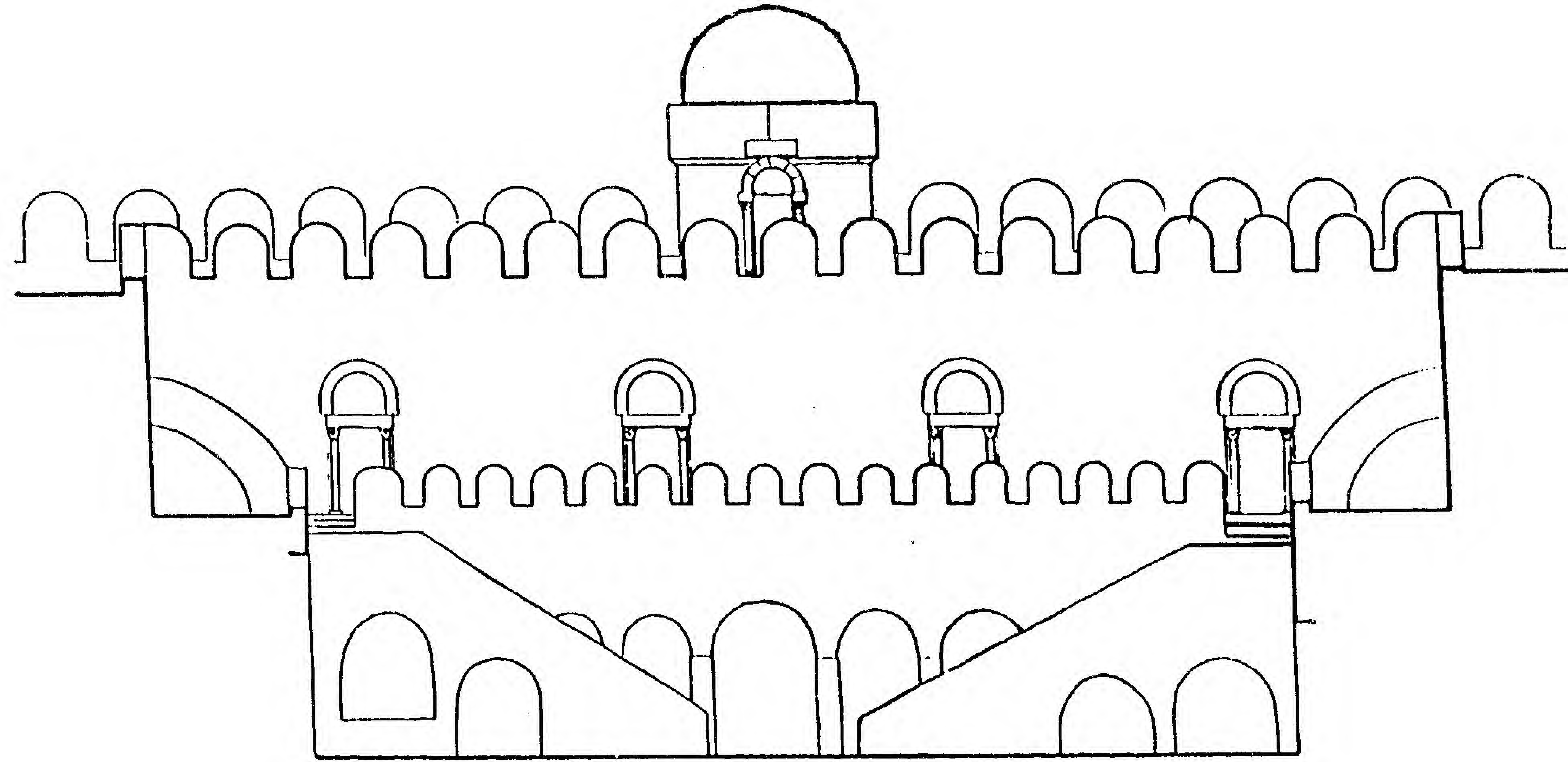
شكل 27 : رباط سوسة - مقطع ت - ت -



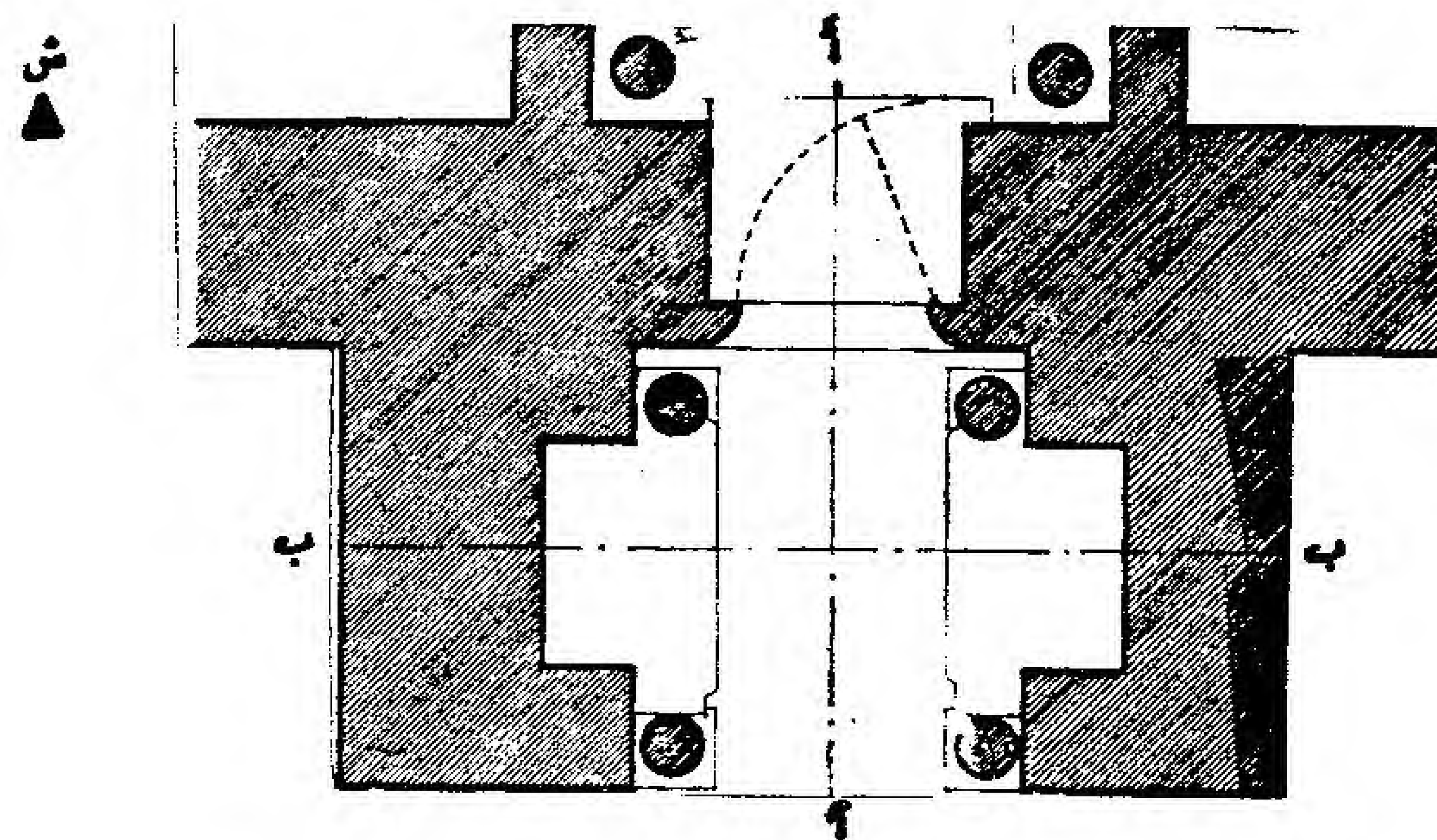
شكل 28 : رباط سوسة - مقطع ف - ف -



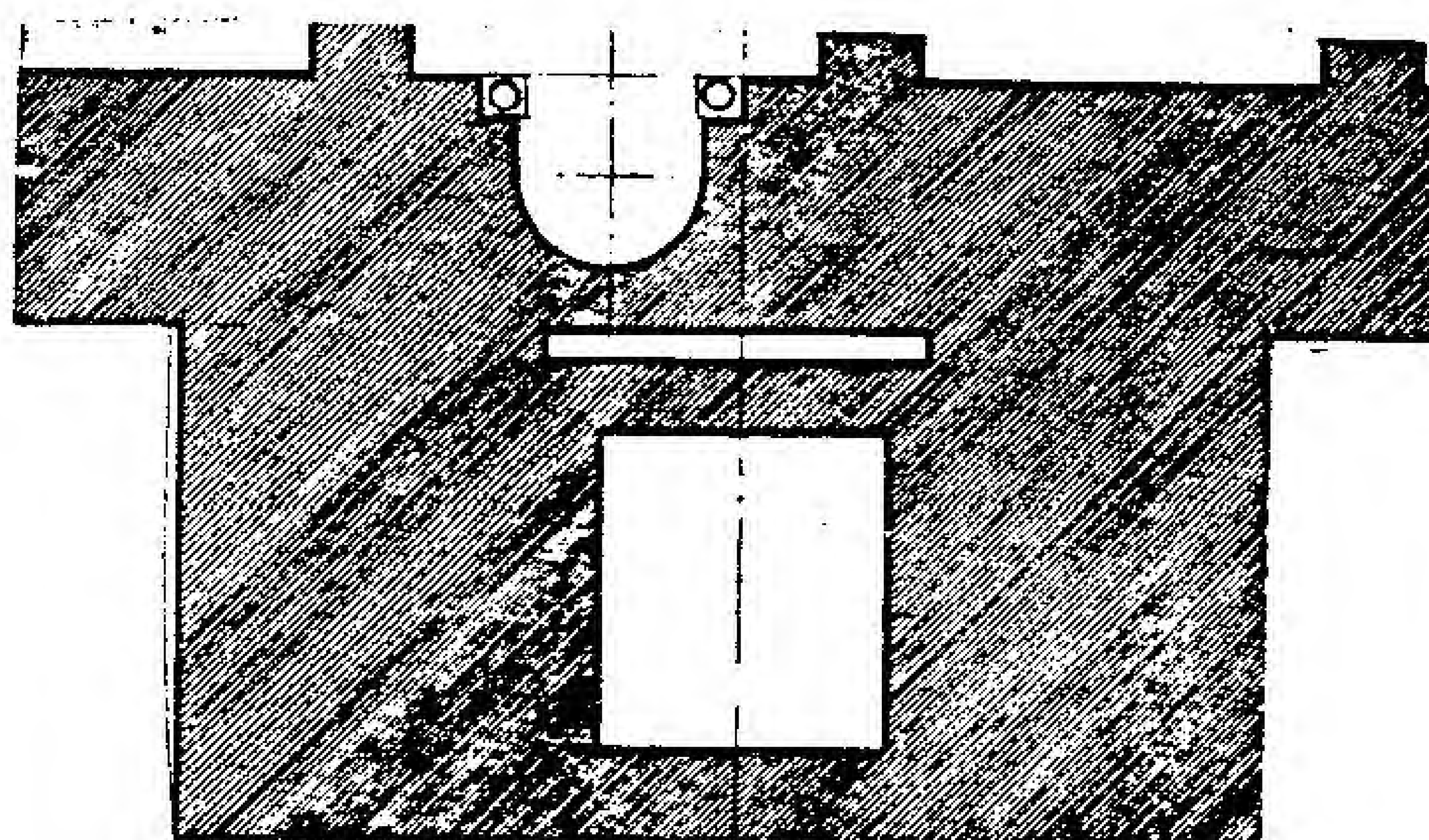
شكل 29 : رباط سوسة ، القبّة والمدارج الدّاخلية



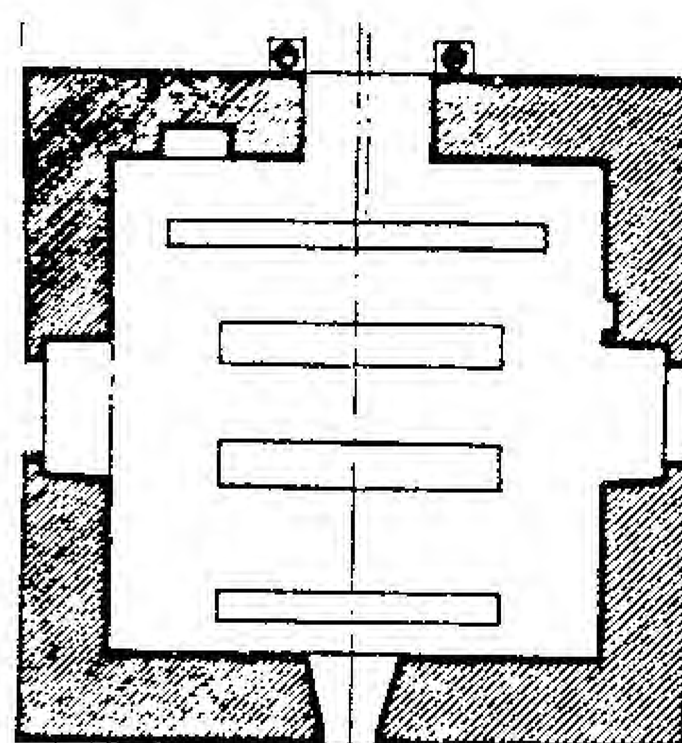
شكل 30 : رباط سوسة : المدخل



الطابق الأرضي



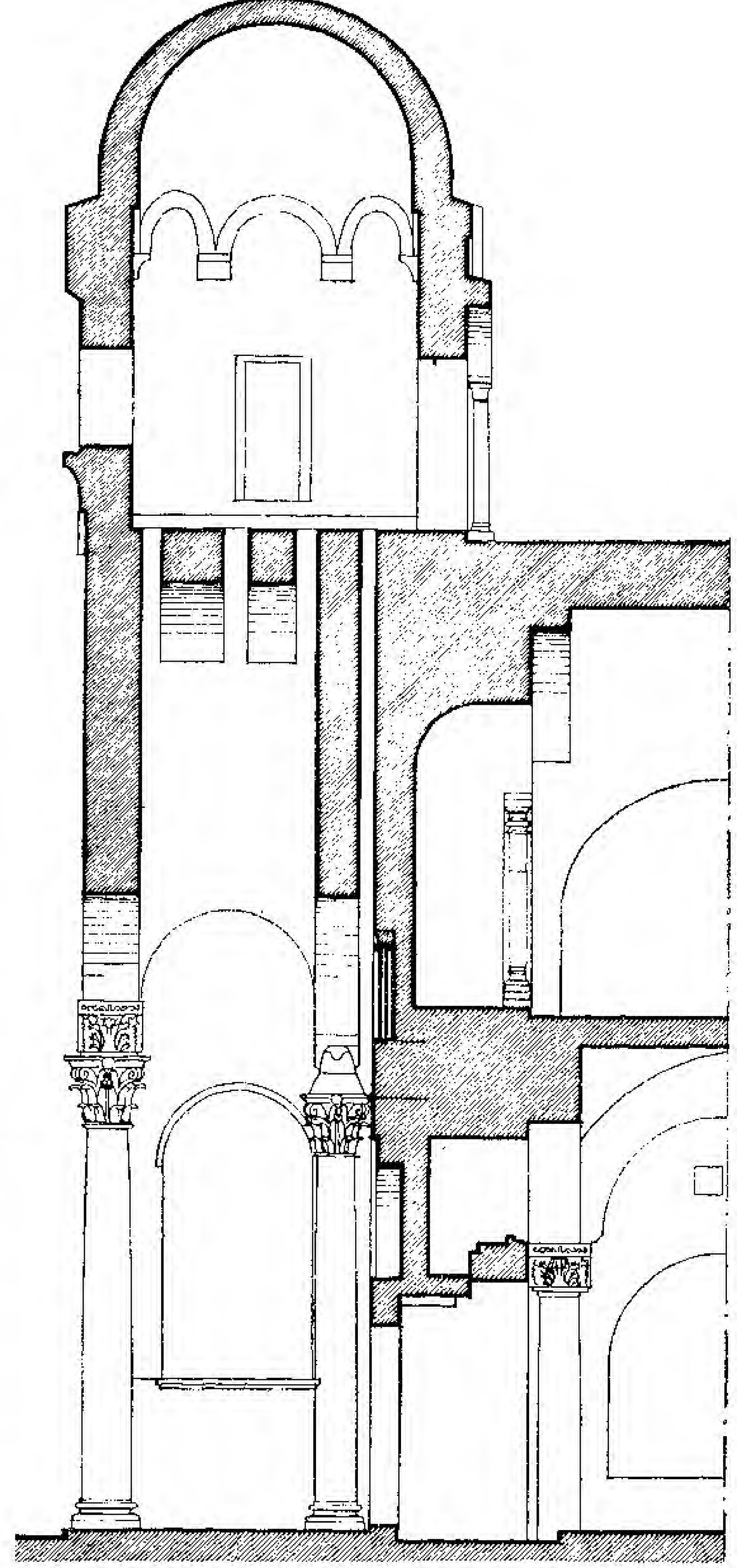
الطابق الأول



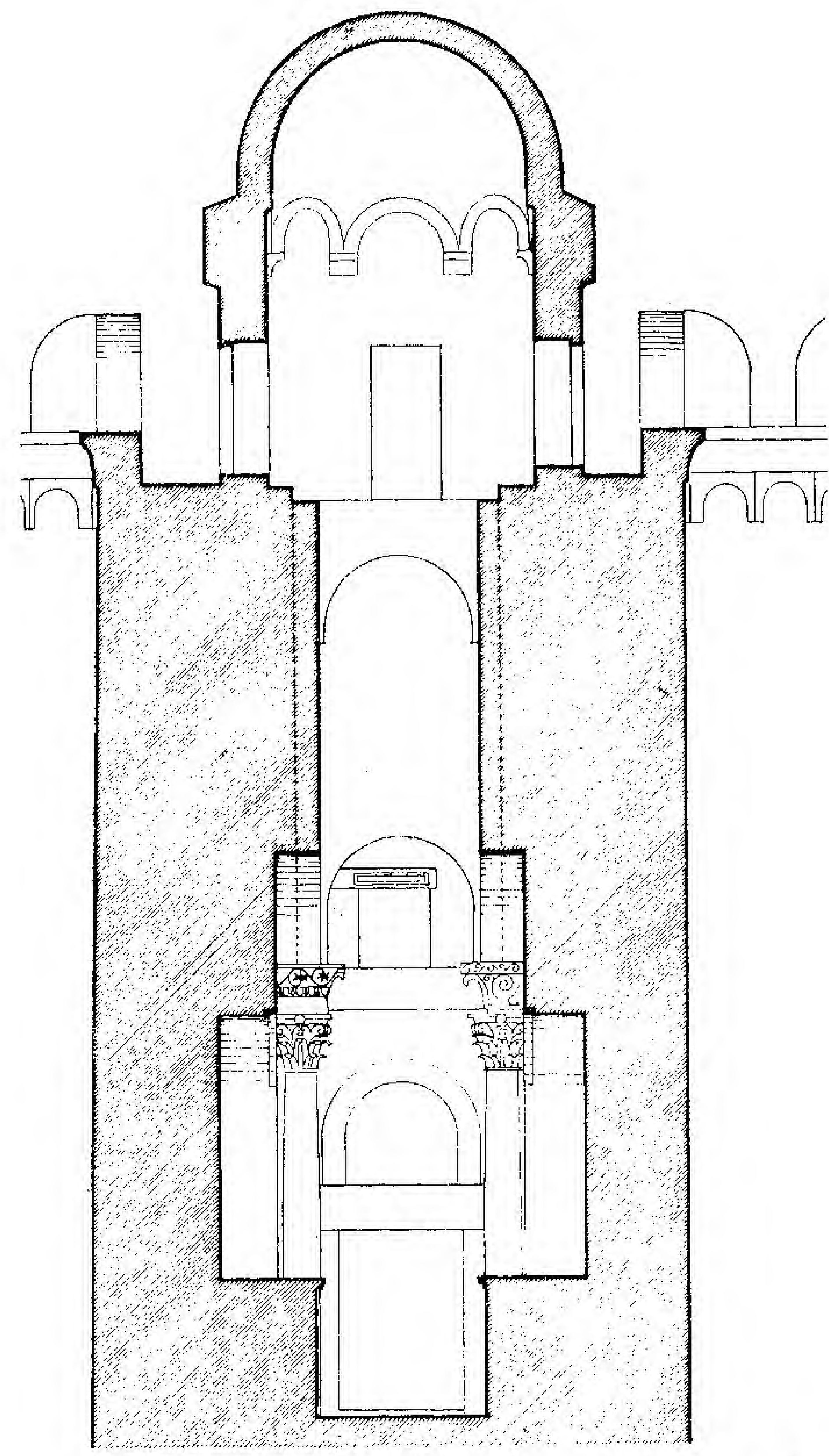
الطابق الثاني

٥ ٣ ١ 2م

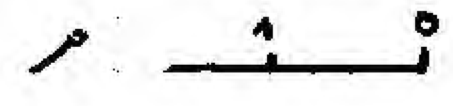
شكل 31 : رباط سوسة : المدخل



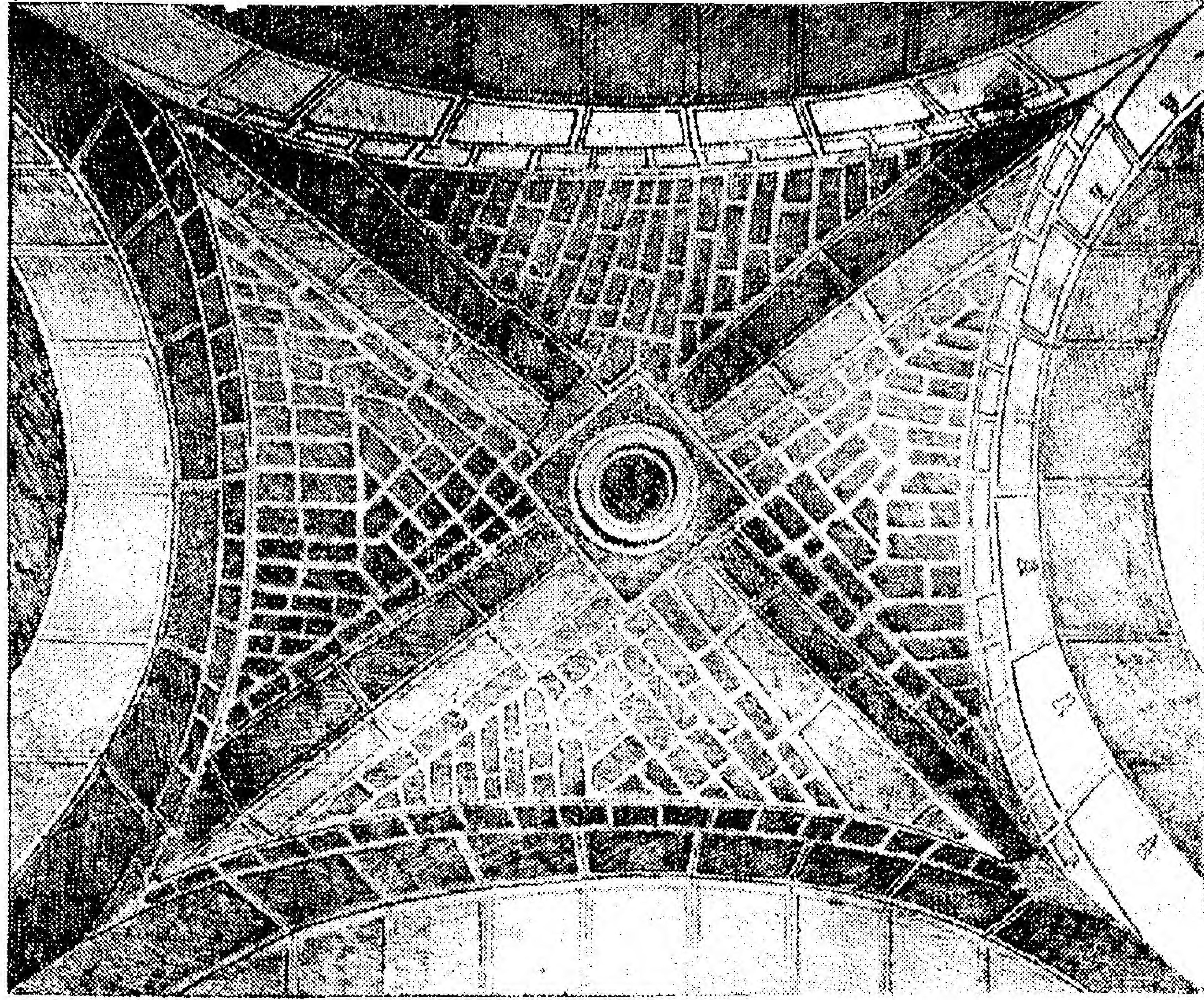
مقطع : أ - أ



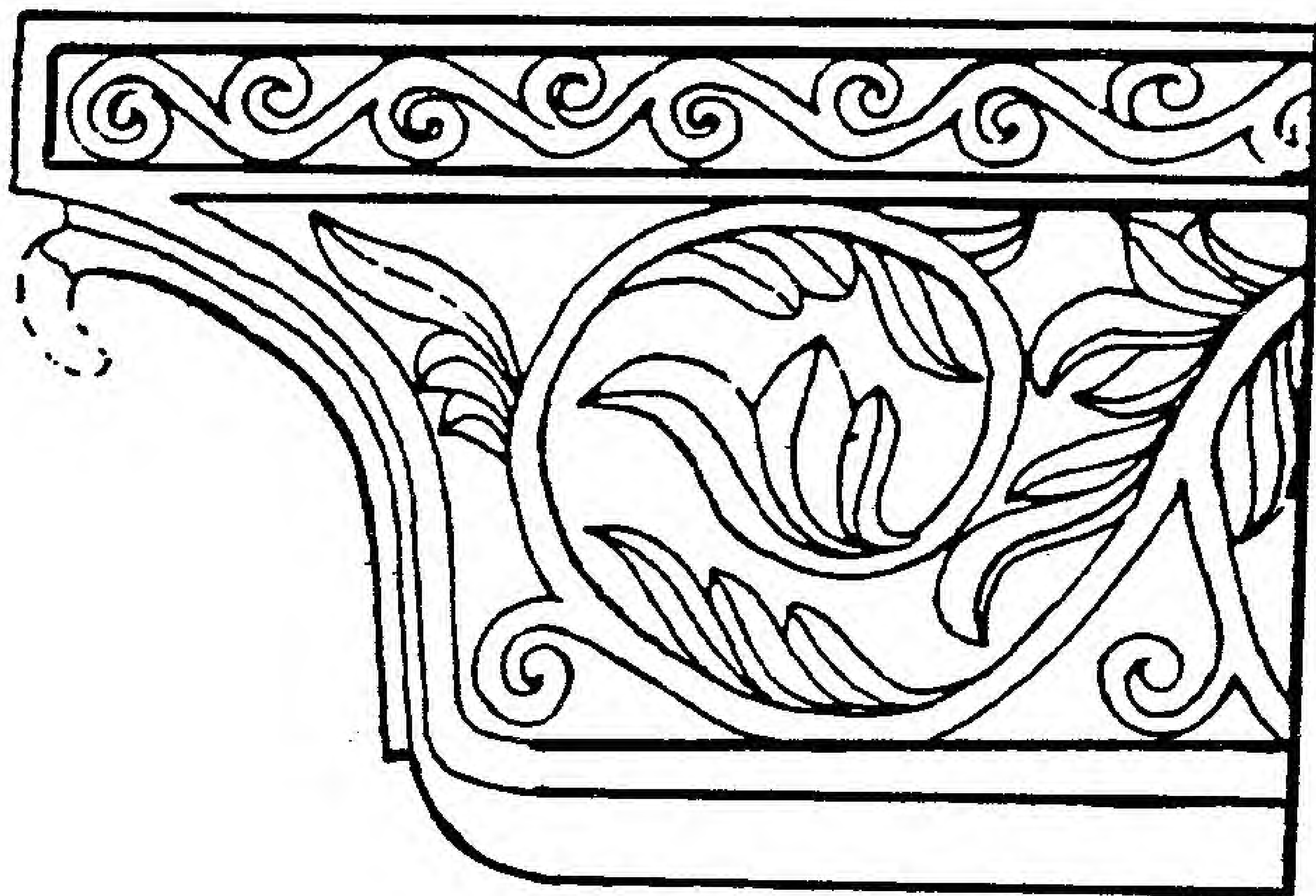
مقطع : ب - ب



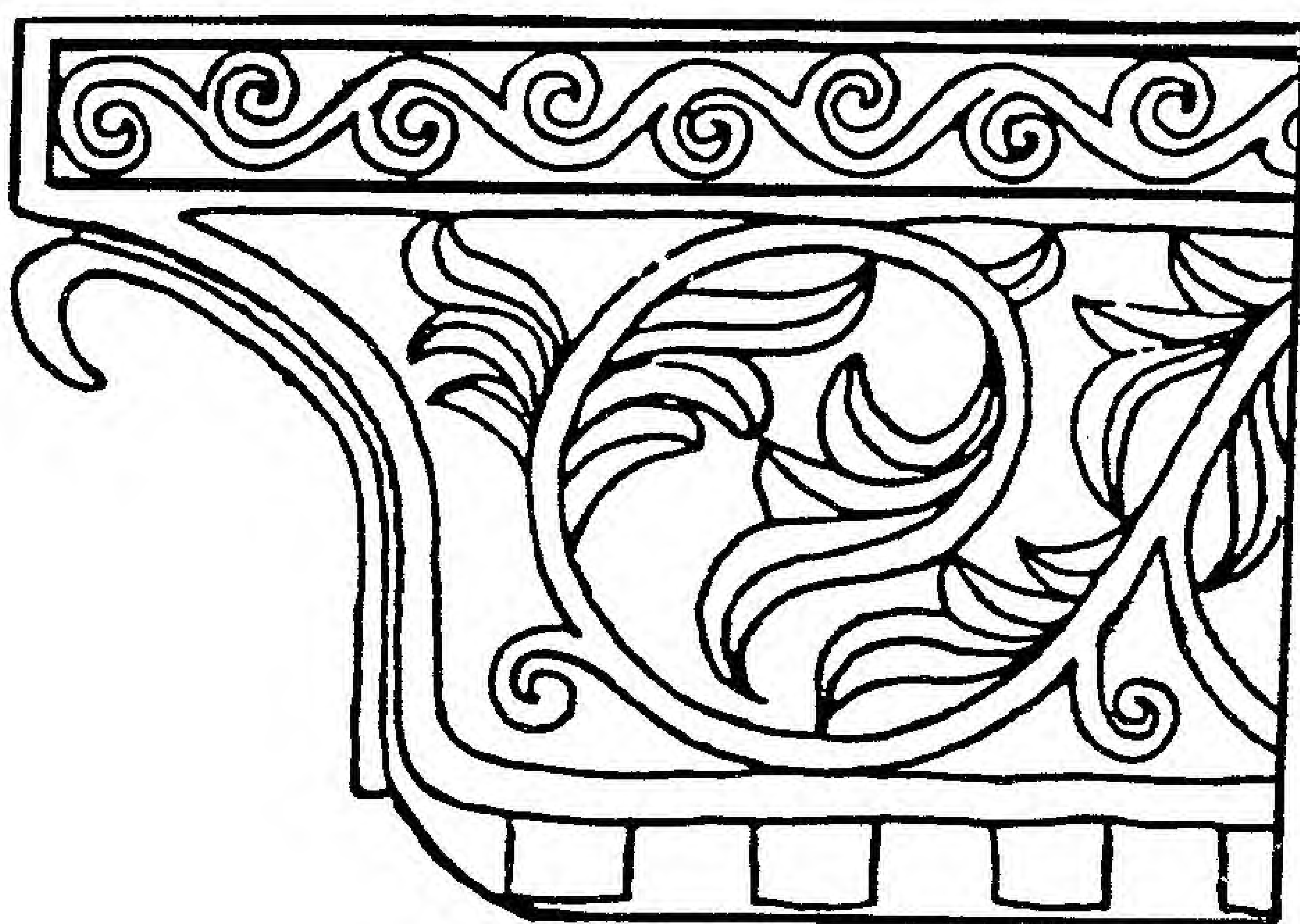
شكل 32 : رباط سوسة : قبو المدخل



شكل 33 : رباط سوسة : زخارف بيزنطيّة





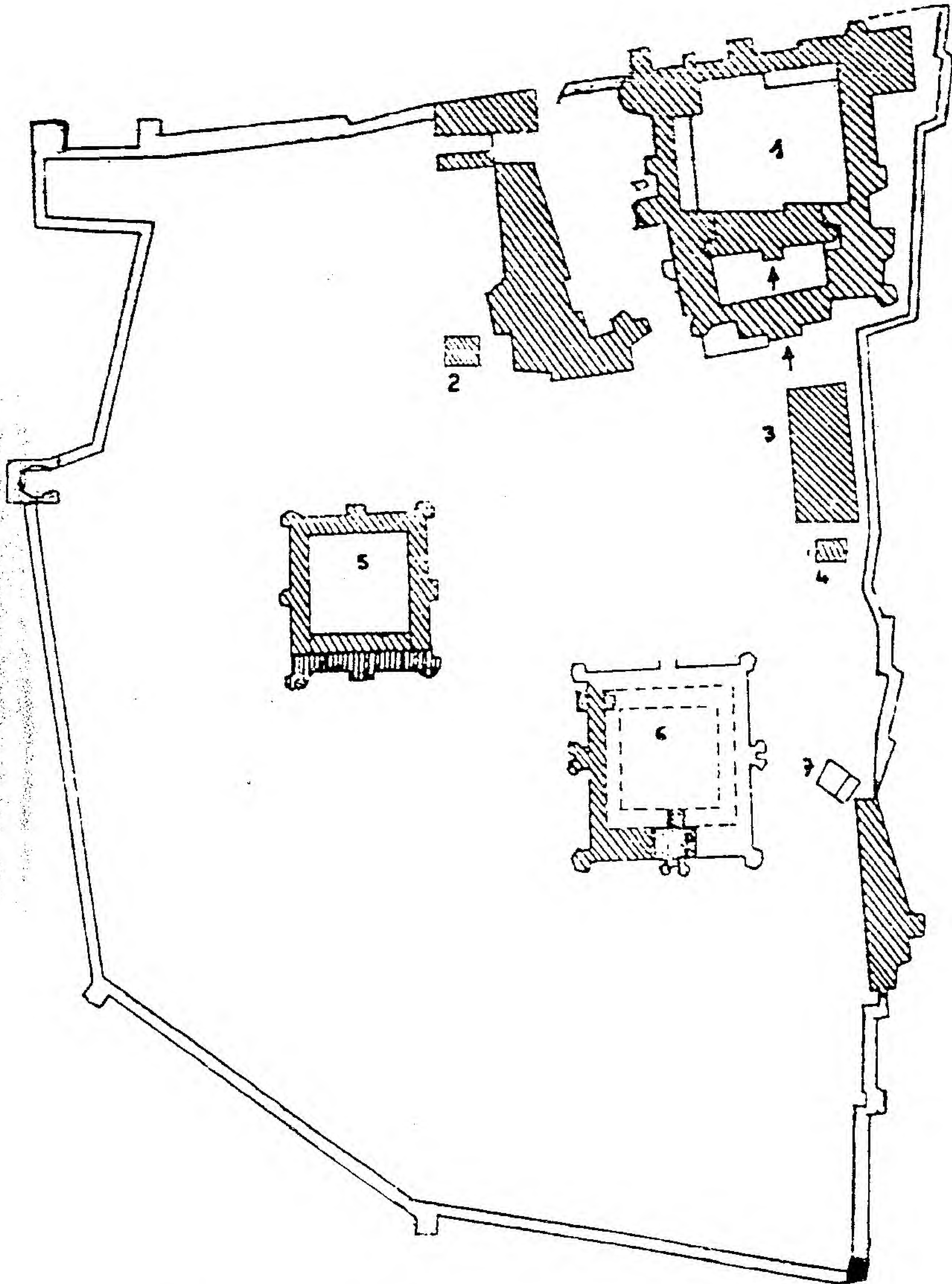


0.25م 0

شكل 34 : مدينة المنستير (1930م)

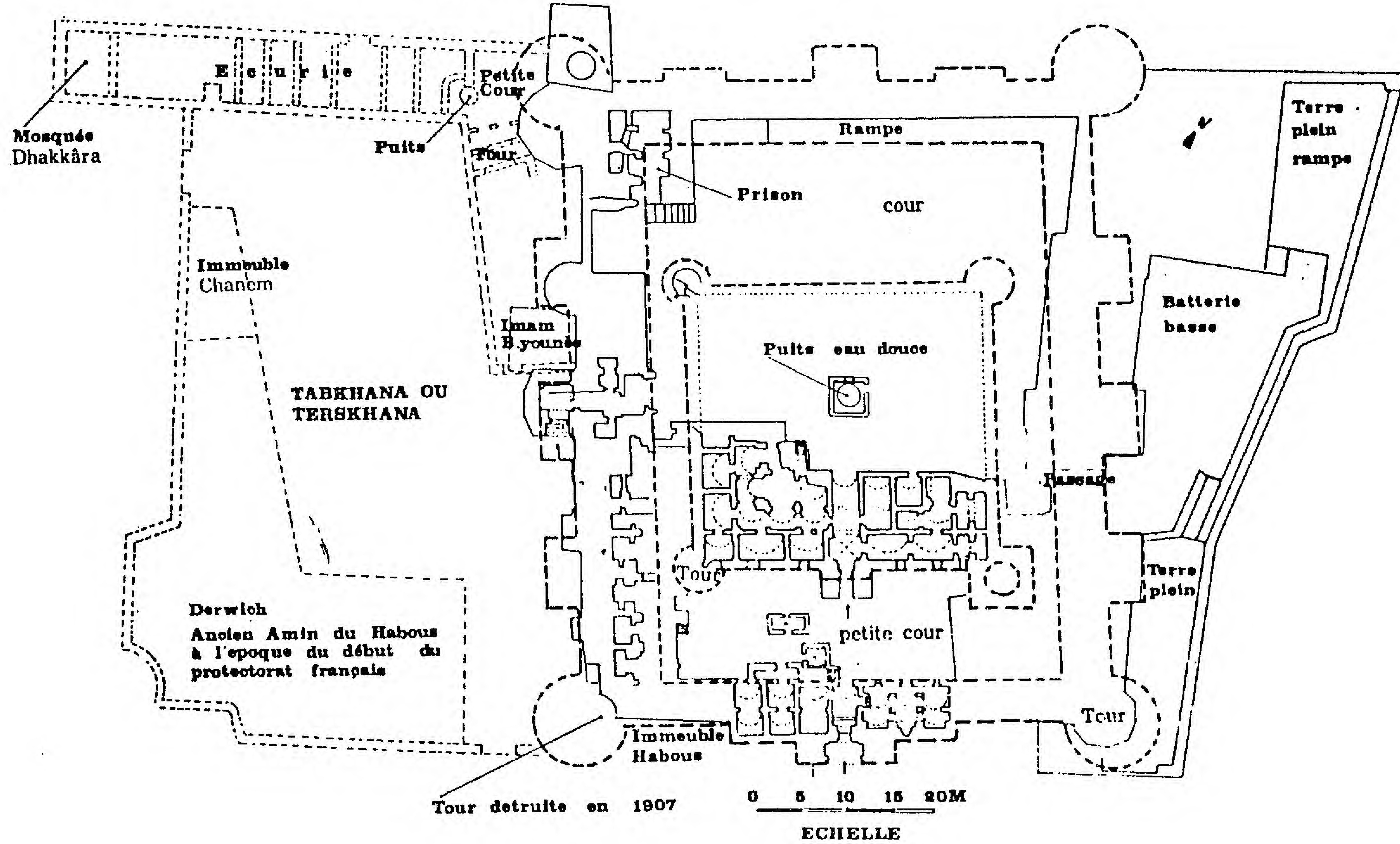


شكل 35 : مدينة المنستير : النواة الأولية (البلد)



1 - القصبة
2 - مسجد التوبة
3 - المسجد الجامع
4 - مسجد الأنعار
5 - قصر سيدي ذويب
6 - قصر السيدة
7 - مسجد المعز

شكل 36 : قصبة المنستير في آخر القرن التاسع عشر



شكل 37 : قصبة المنستير (الطابق الارضي)

ش

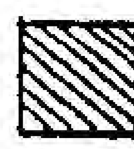
القلعة الصنهاجية

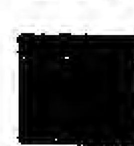
القلعة الاغلبية

1 ـ المدخل الرئيسي (حفصي)

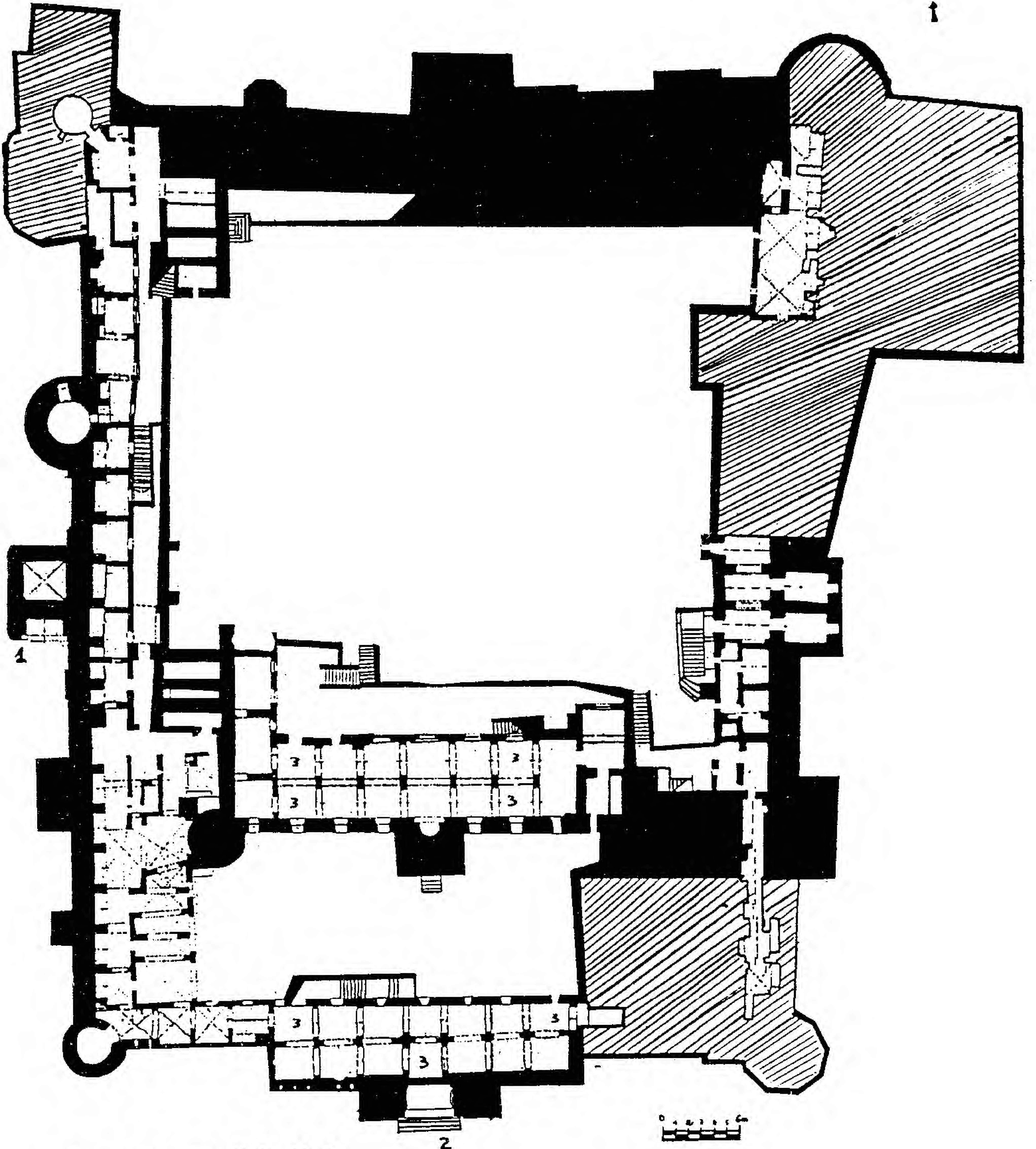
2 ـ الباب الجنوبي (صنهاجي)

3 ـ مساجد

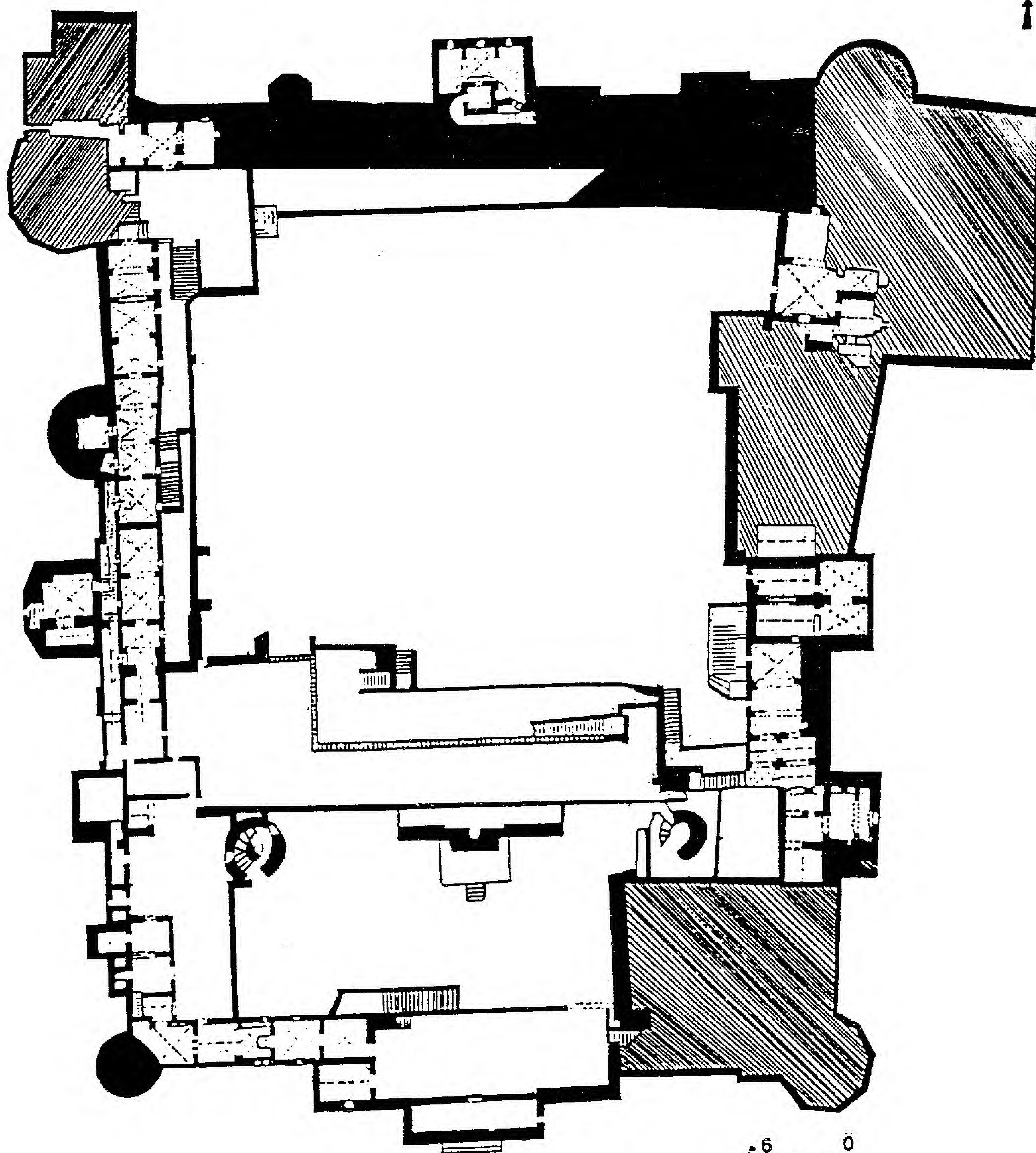

أتربة


حجارة

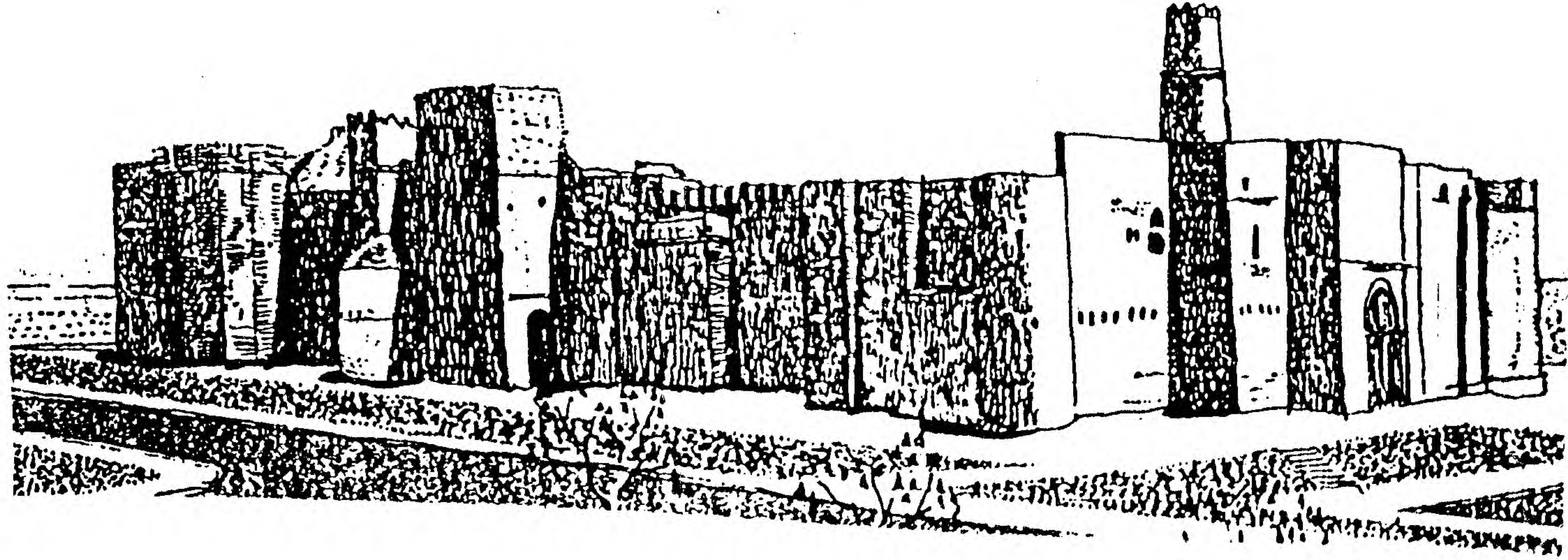
شكل 38 : قصبة المنستير (الطابق الأول)



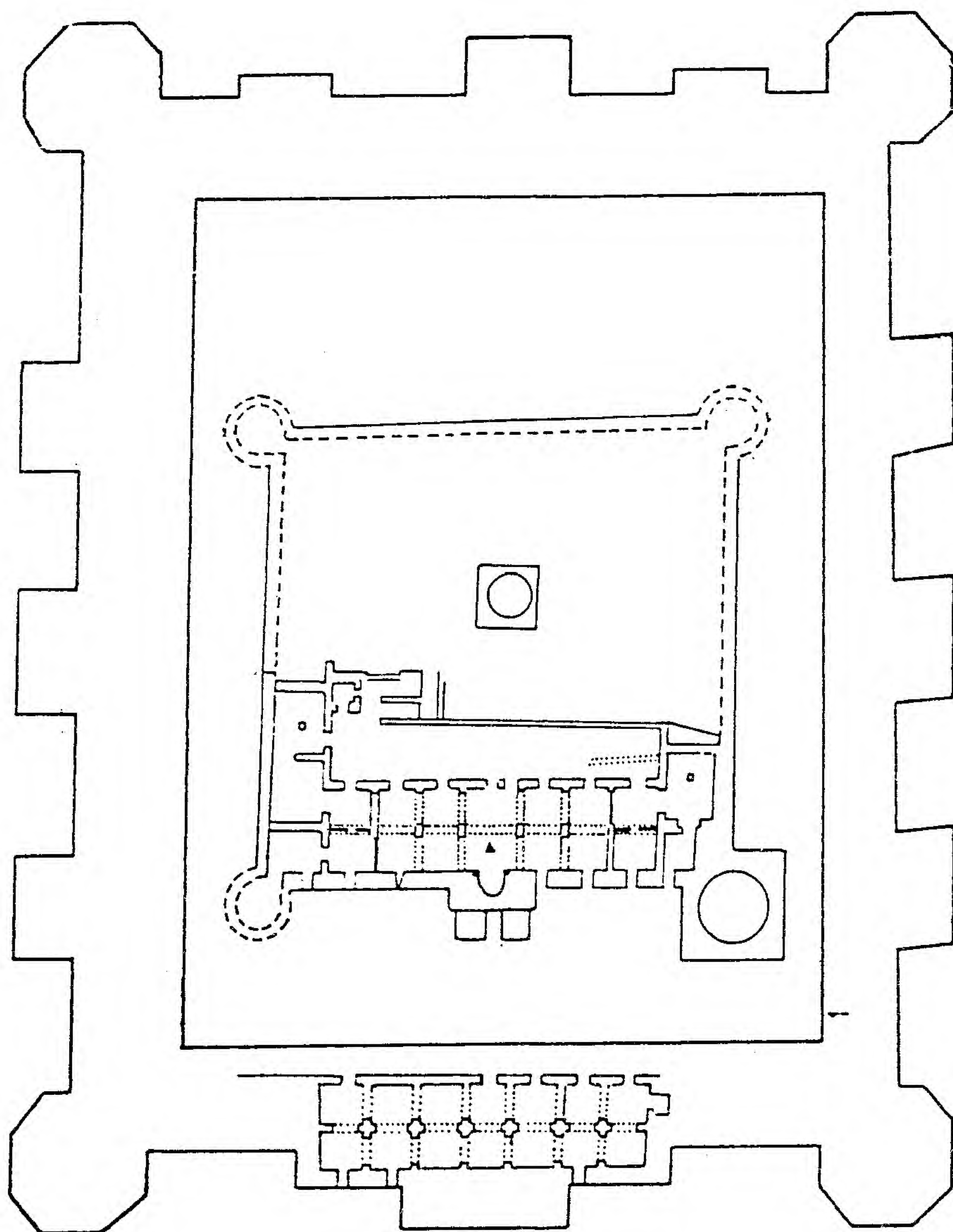
شكل 39 : **قصبة المنستير** : الطابق الثاني



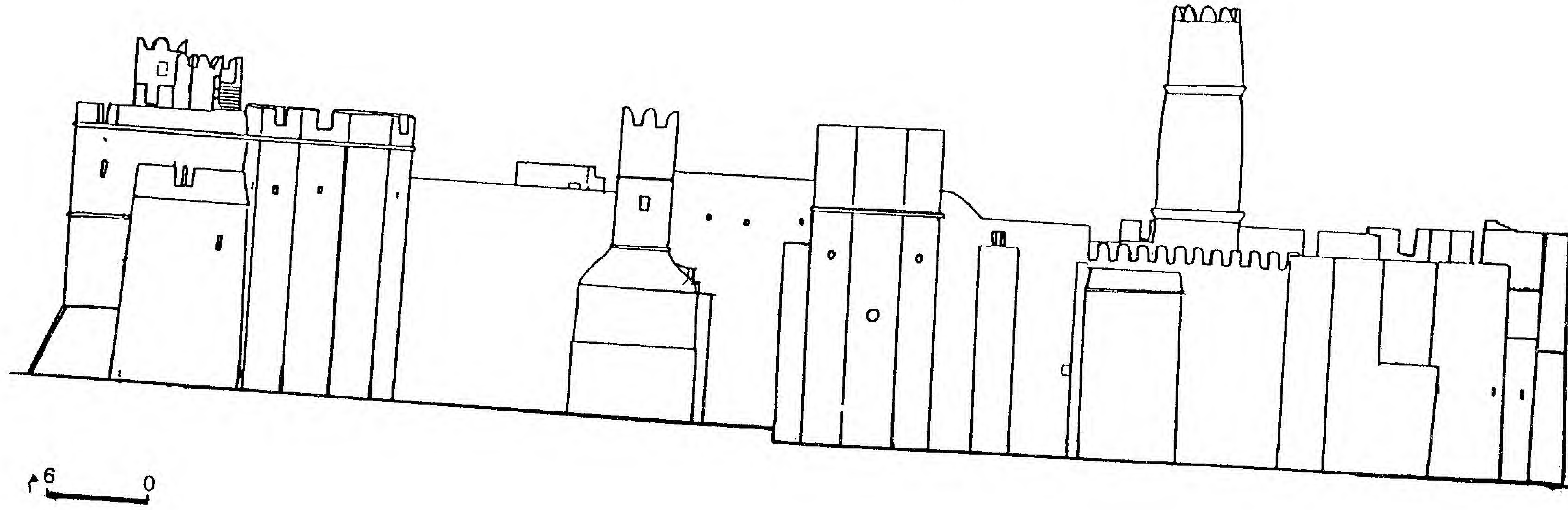
شكل 40 : قصبة المنستير



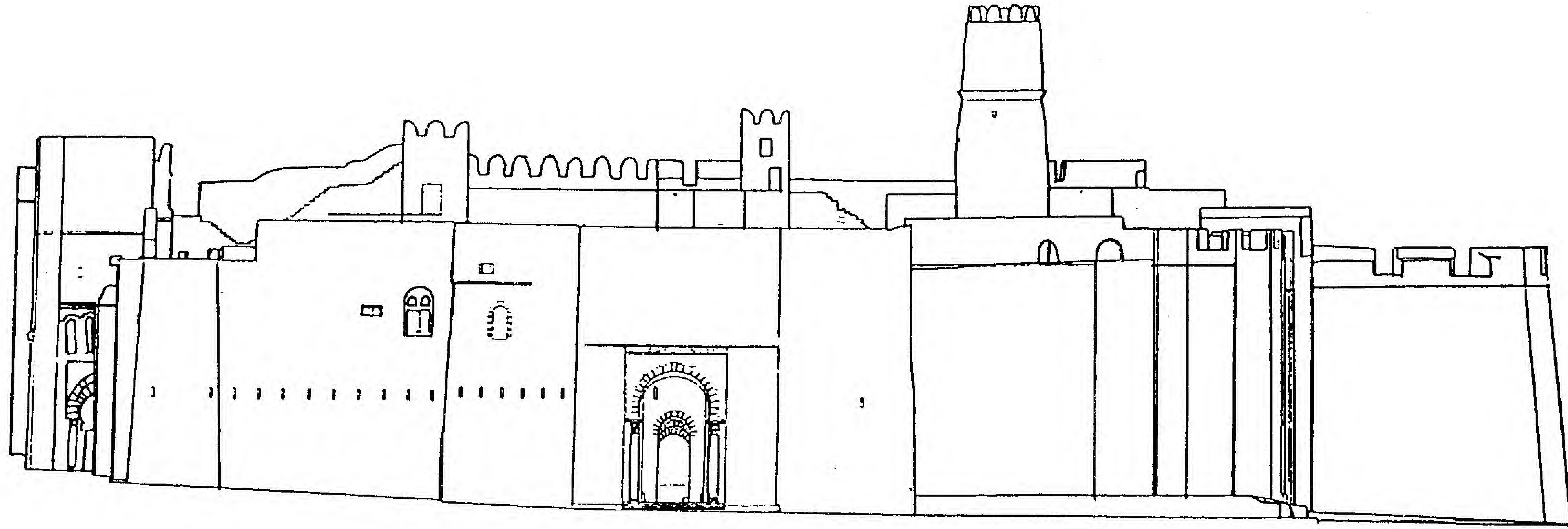
شكل 41 : قصبة المنستير حوالي القرن 10 - 11م



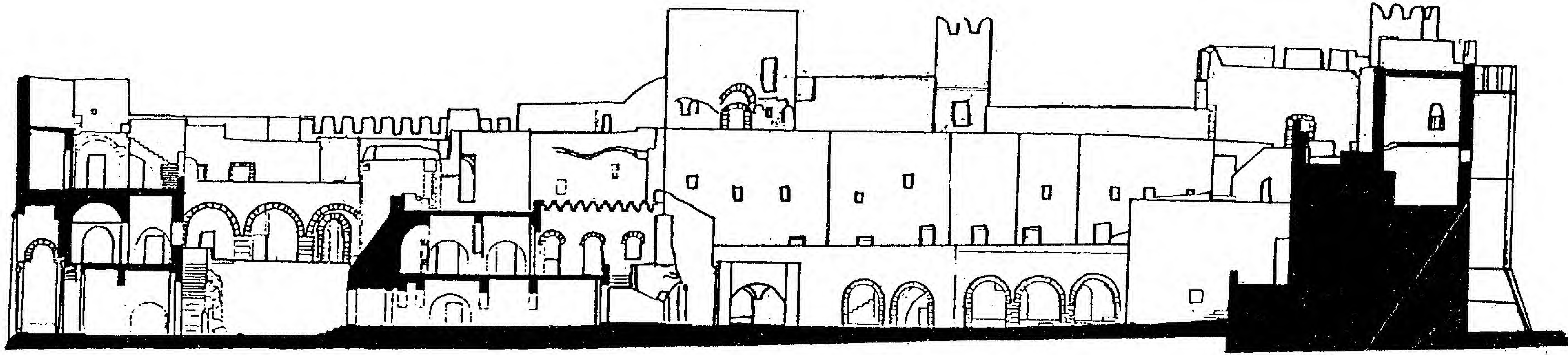
شكل 42 : قصبة المنستير : الواجهة الغربية



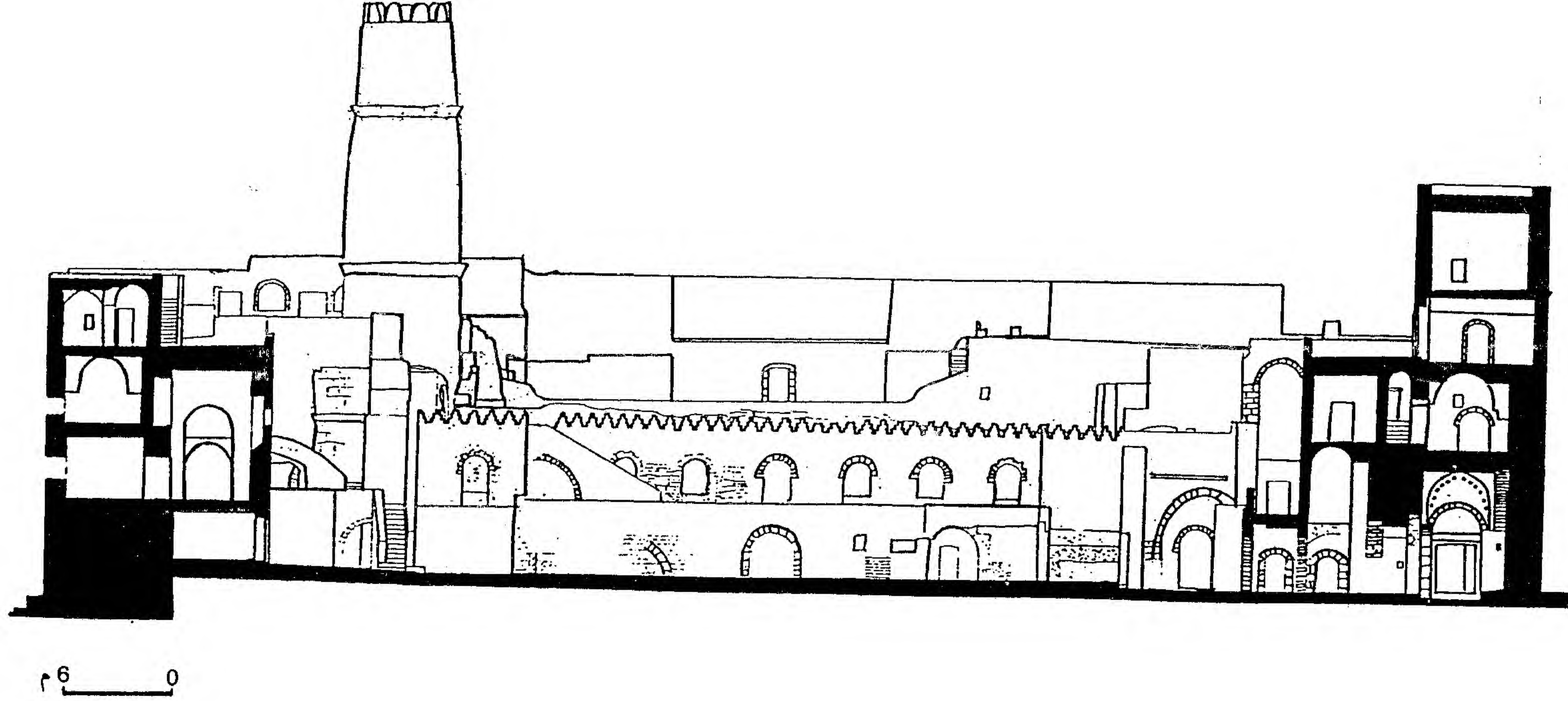
شكل 43 : قصبة المنستير:الواجهة الجنوبية



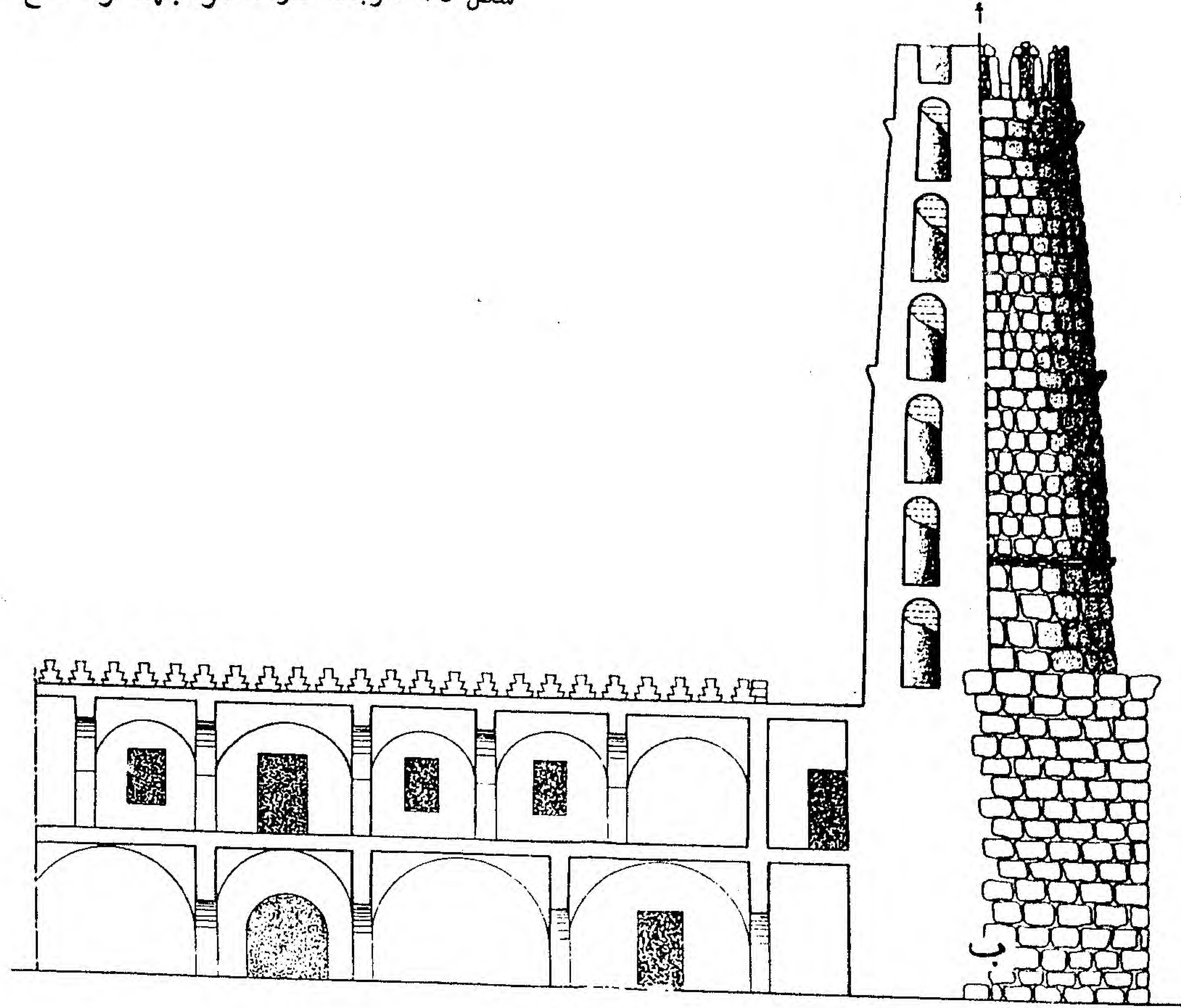
شكل 44 : قصبة المنستير:مقطع طولي



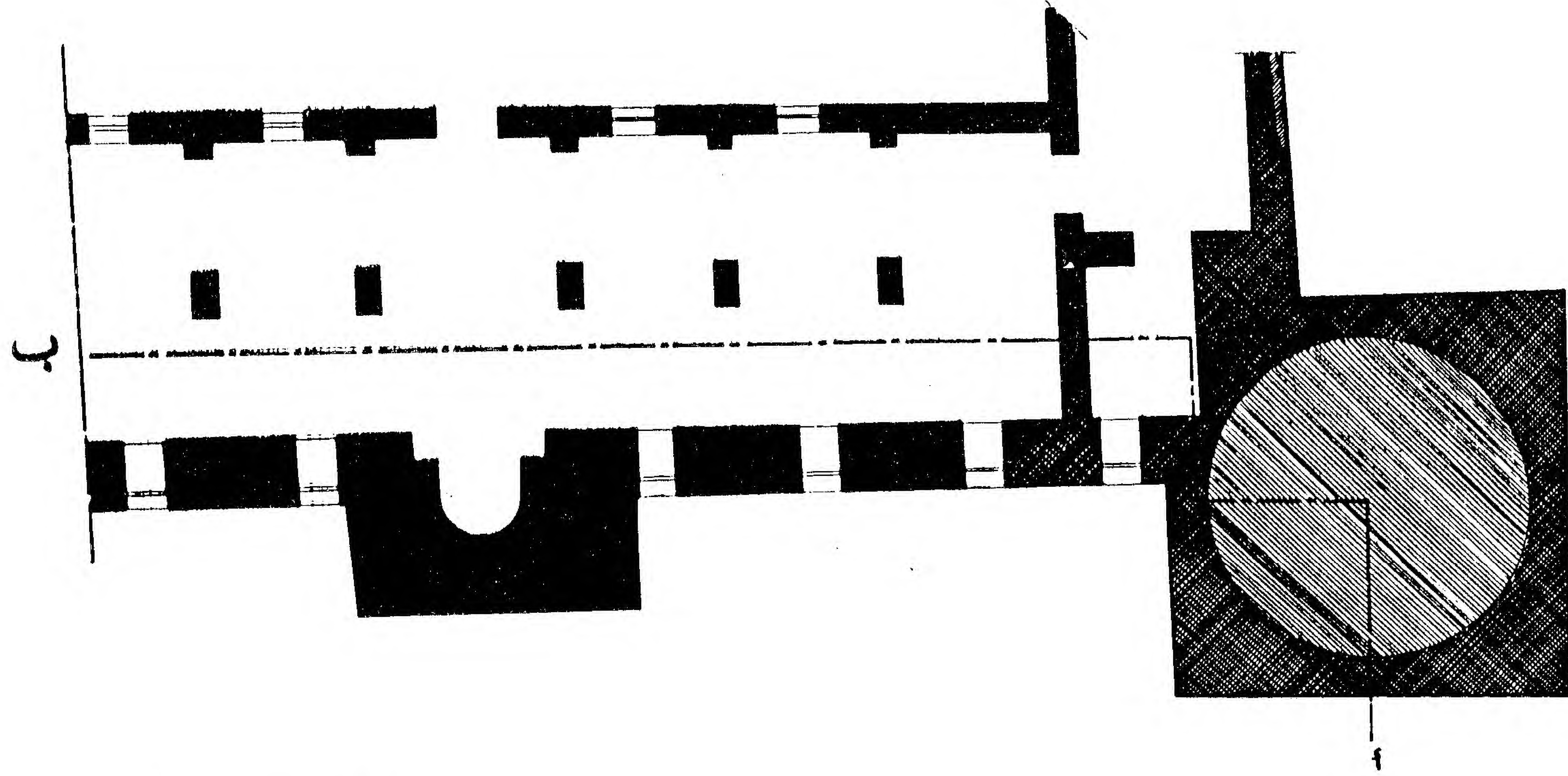
شكل 45 : قصبة المنستير، مقطع افقي



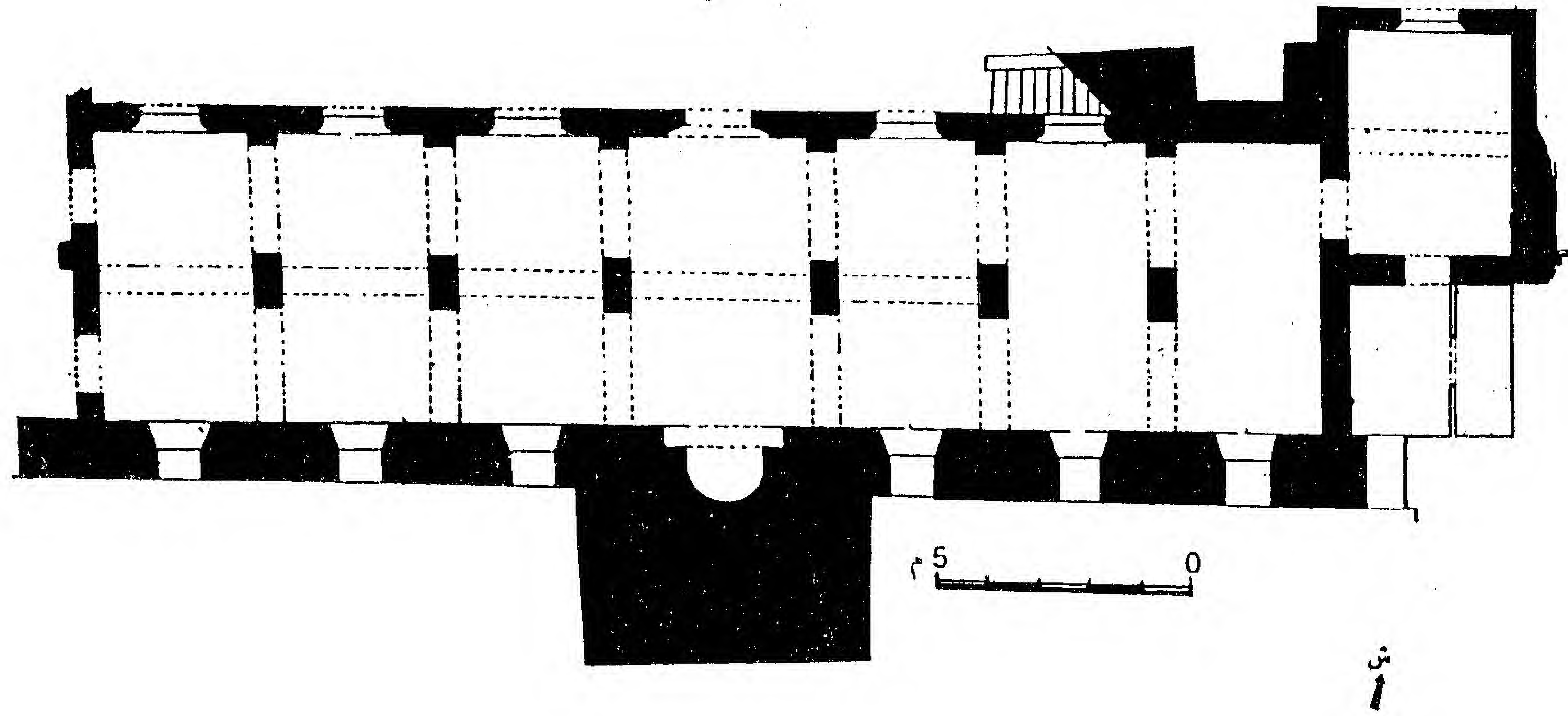
شكل 46 ، رباط هرثمة: واجهة ومقطع أ - ب



شكل 47 : رباط هرثمة : مخطط الطابق الأول

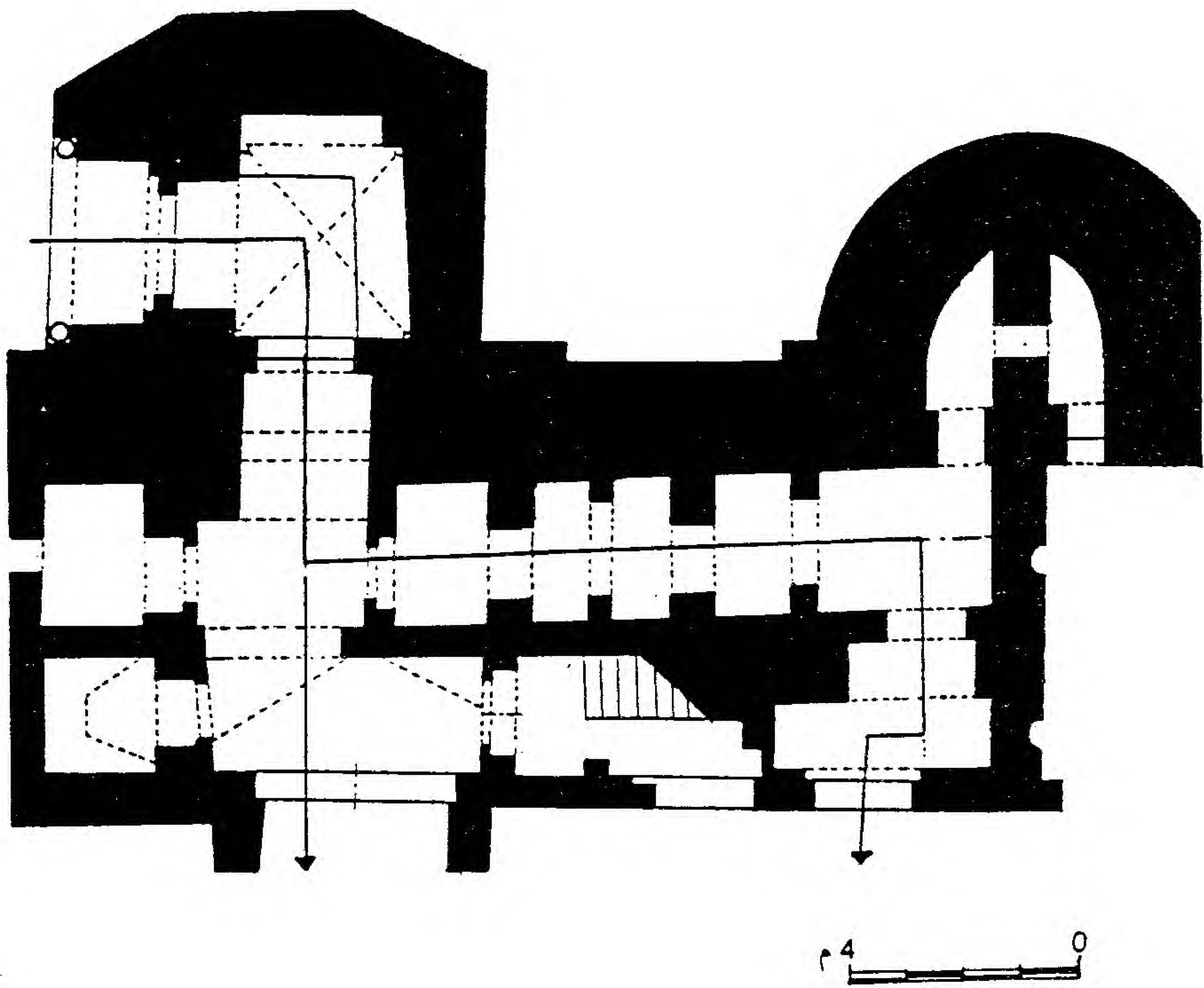


شكل 48 : قصبة المنستير: مسجد «قصر هرثمة»

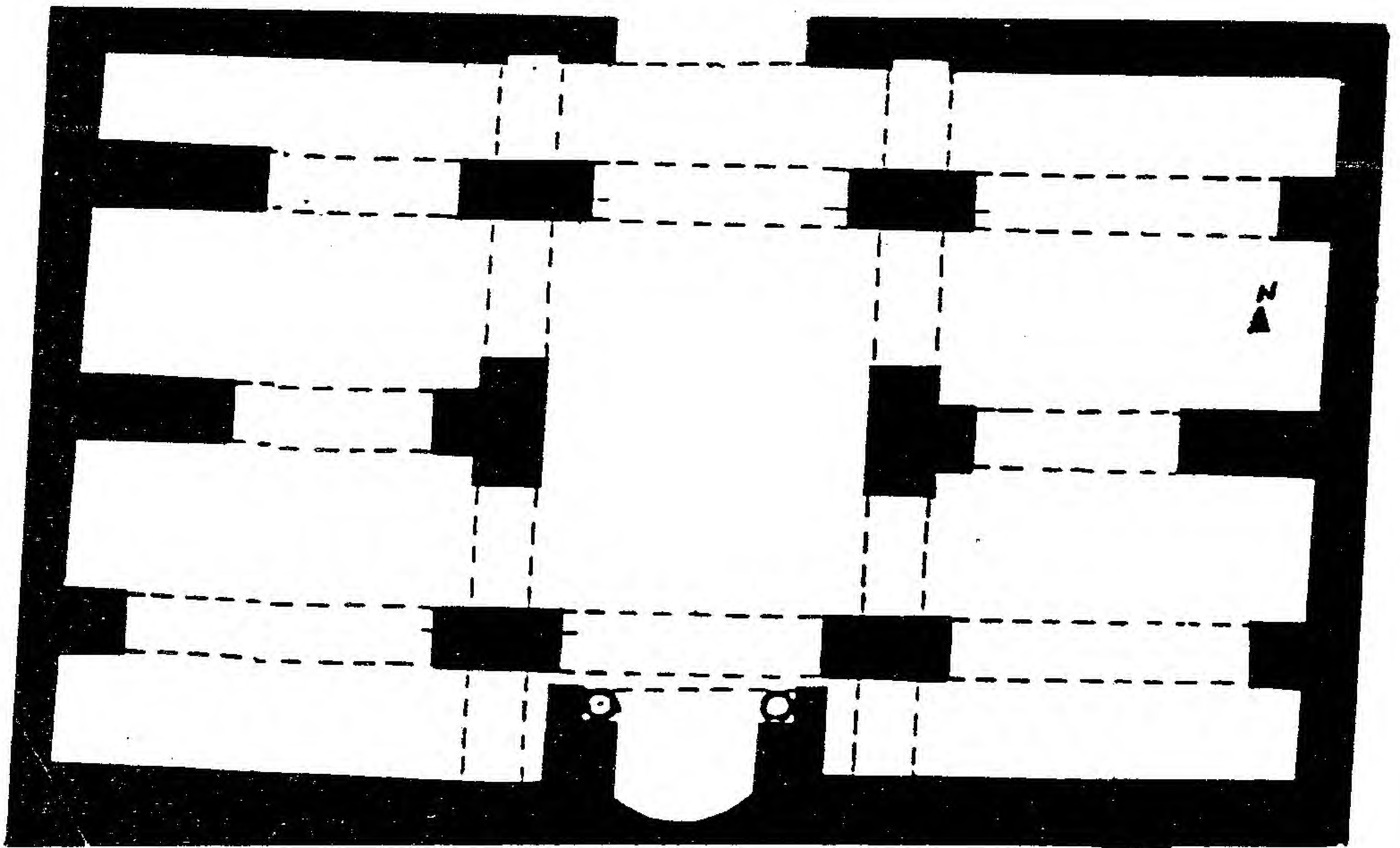


شكل 49 : قصبة المنستير:المدخل الحفصي

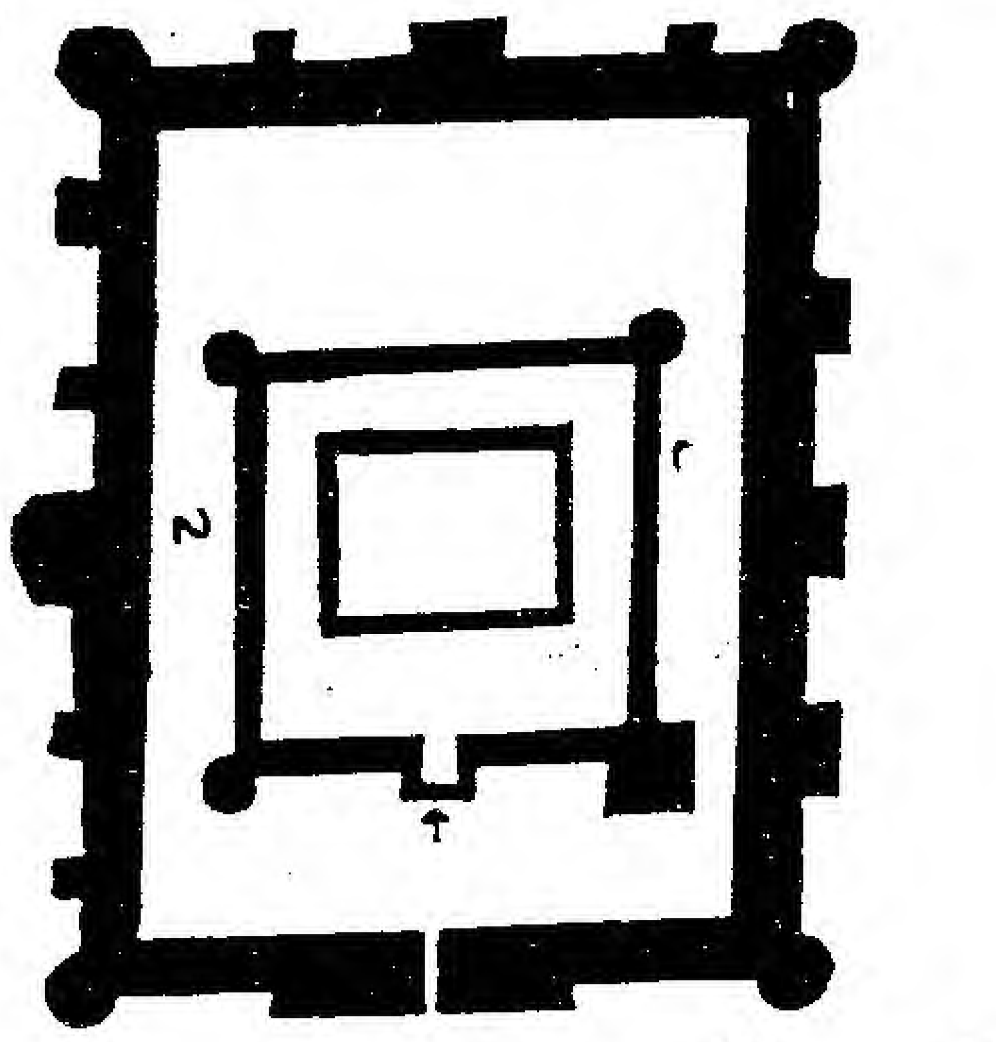
ش



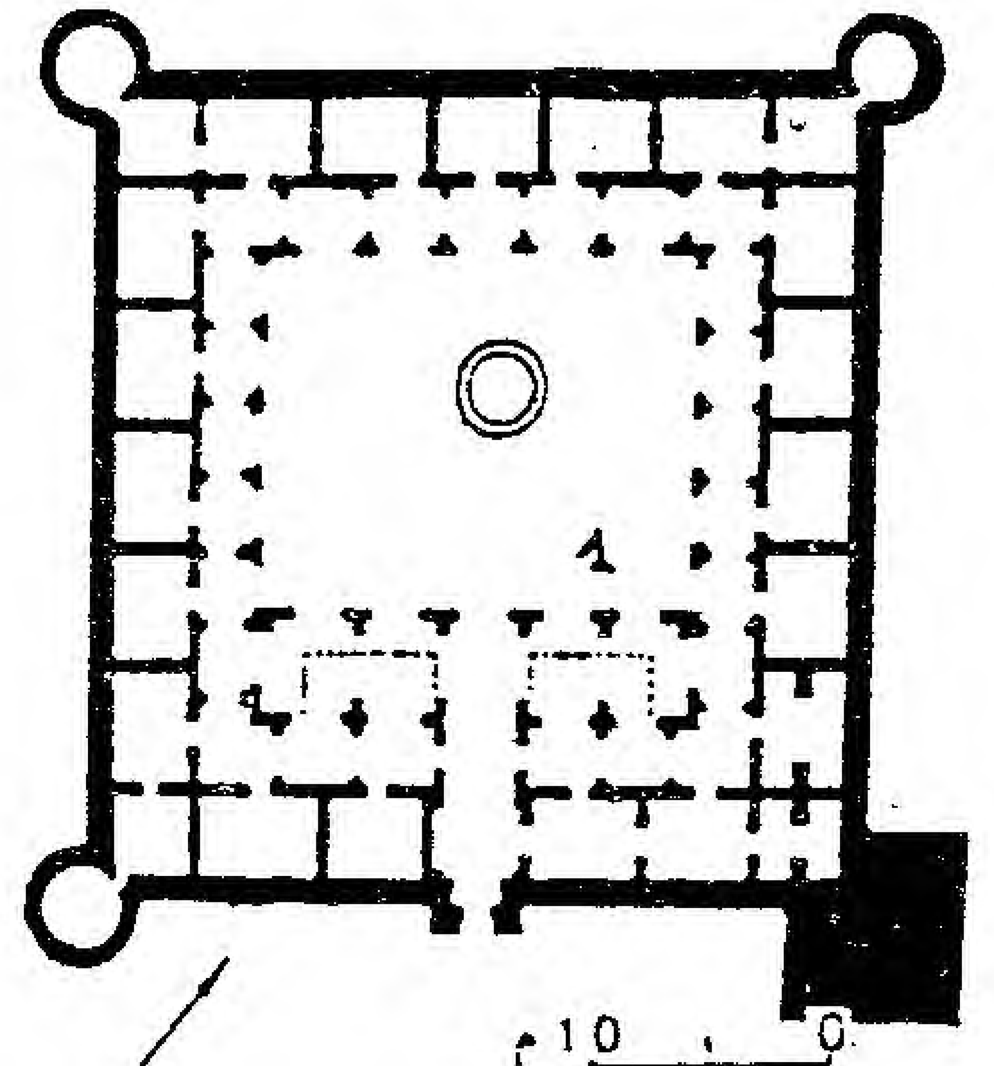
شكل 50 : قصبة المنستير : مسجد أغلبي (الطابق الأرضي)



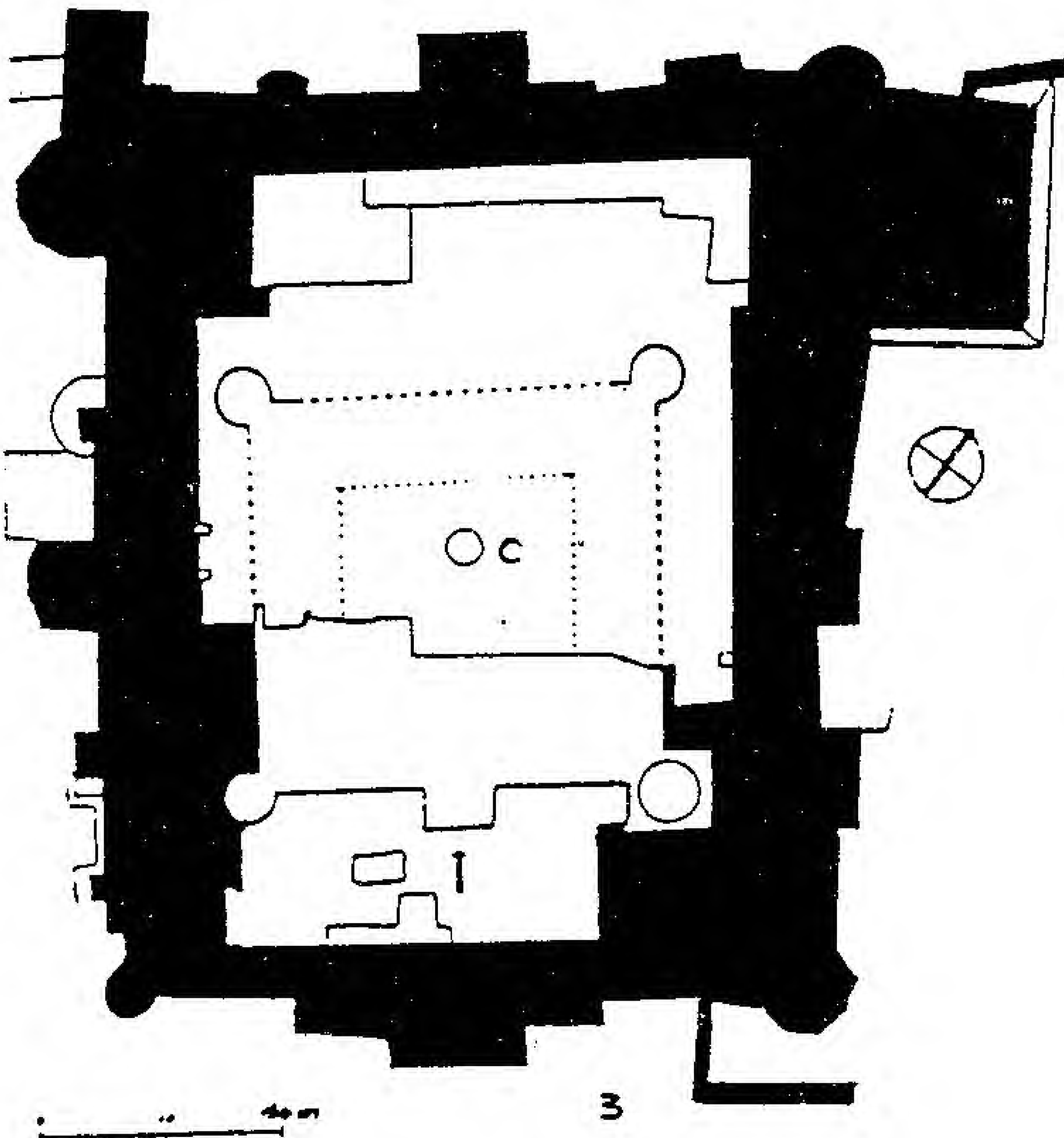
شكل 51 : قصبة المنستير: تطور المعلم

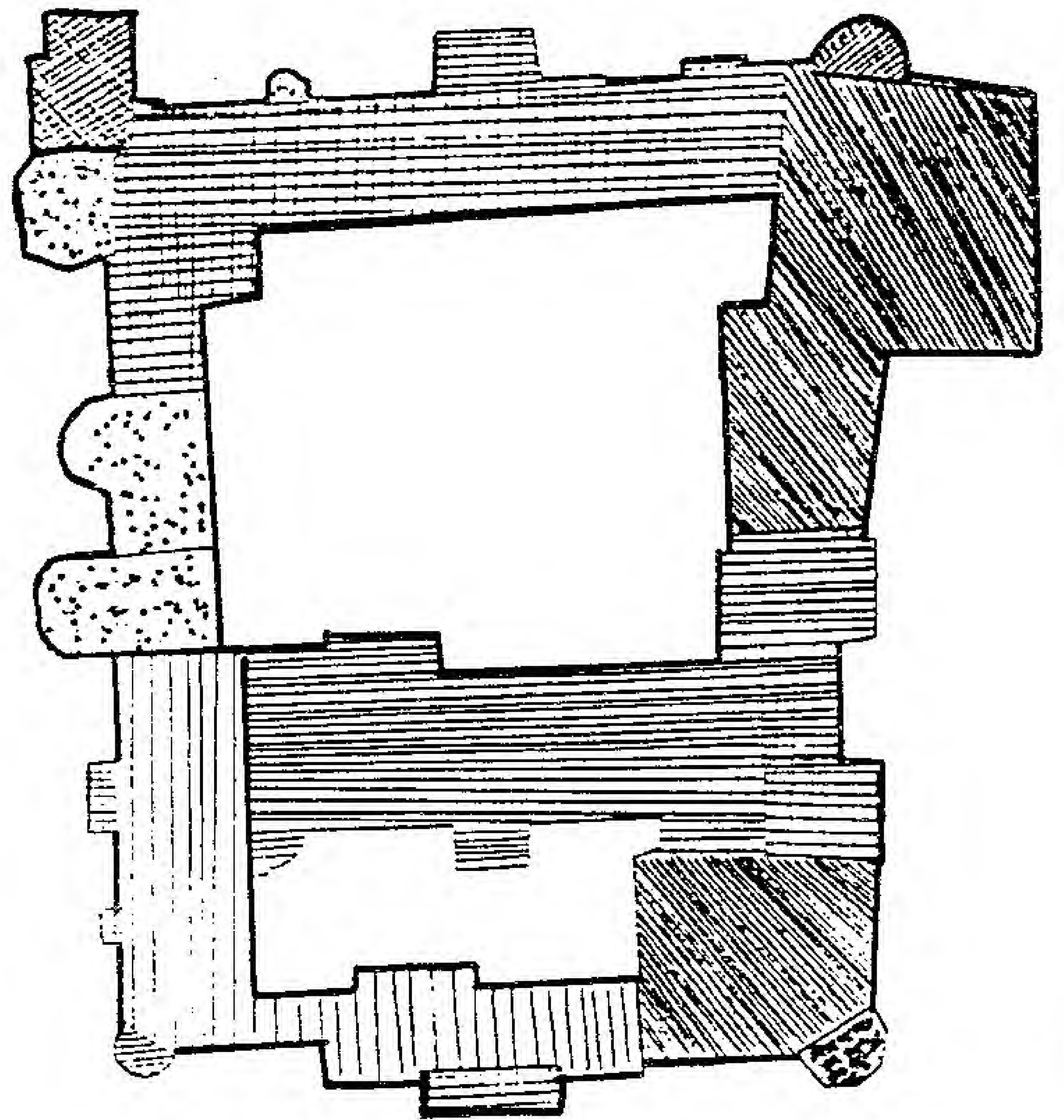


2- ق. XI م



1- ق. VIII م

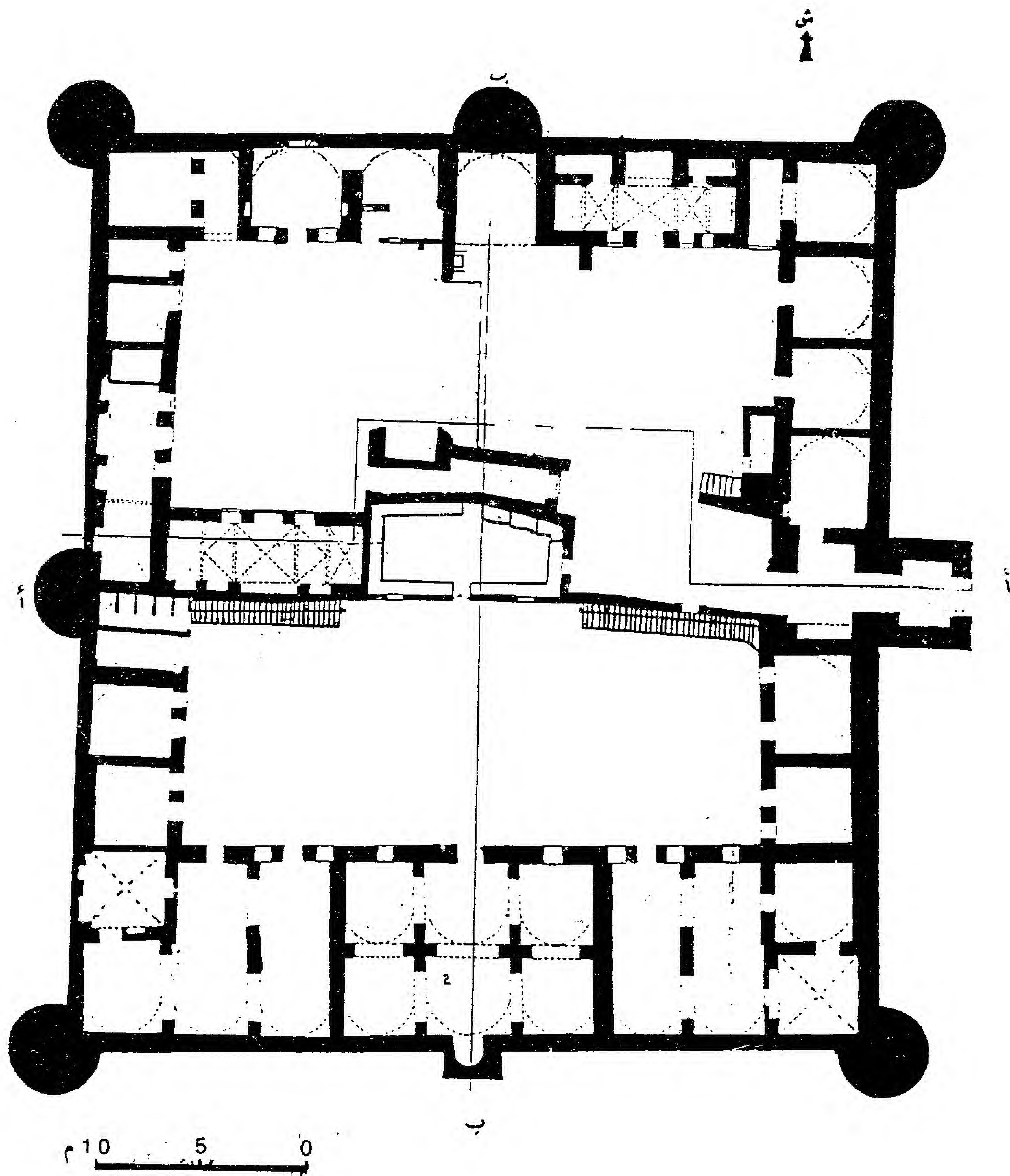




	ق : VIII م		ق : XVI م
	ق : IX م		ق : XVII م
	ق : X - XI م		ق : XVIII م
	ق : XV م		

1 ، 2 ، 3 : حسب أ. لزين

شكل 52: المنستير : زاوية سيدي ذويب



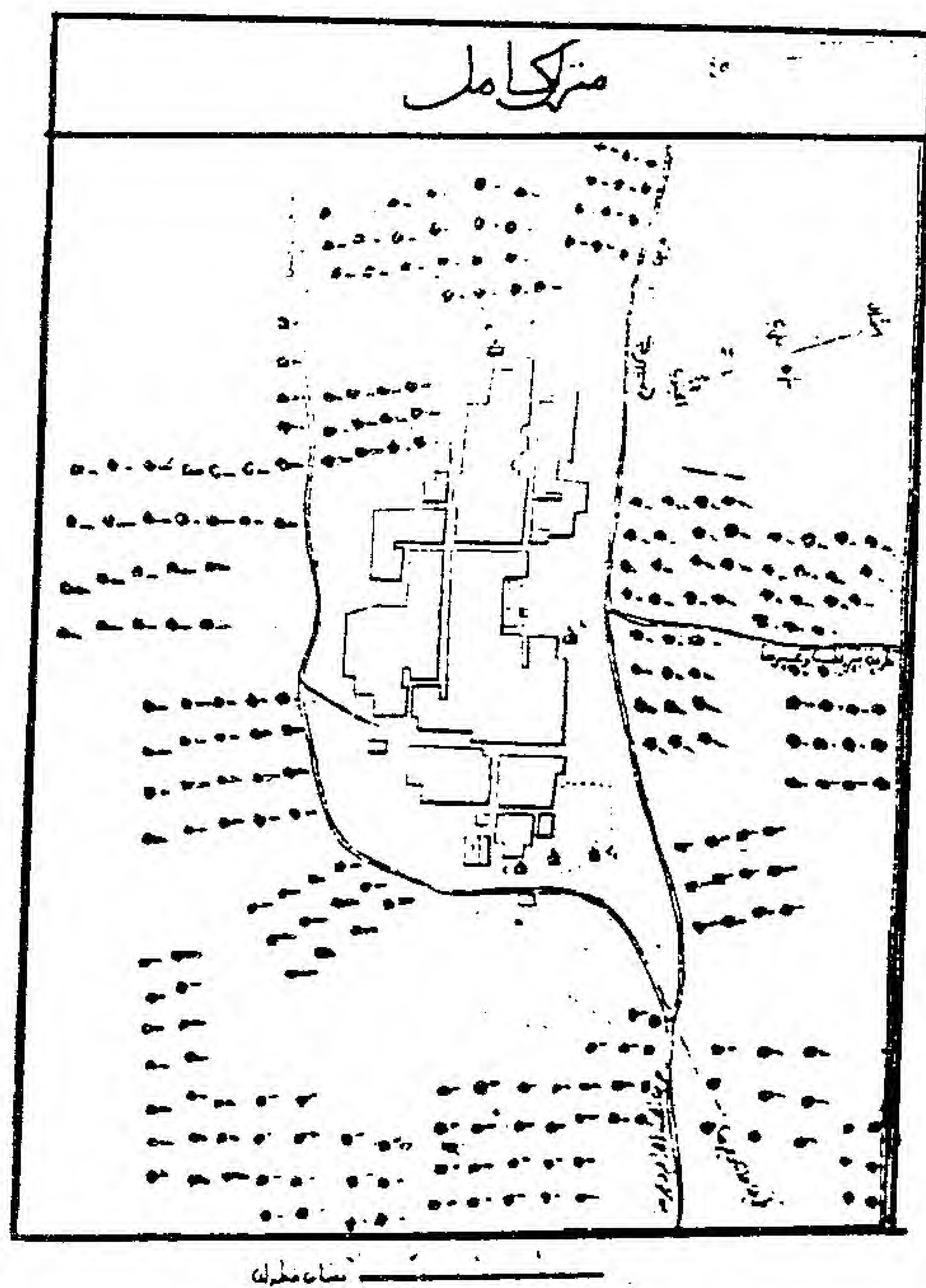
شكل 53 : المنستير :زاوية سيدي ذويب : القلعة الأغلبية

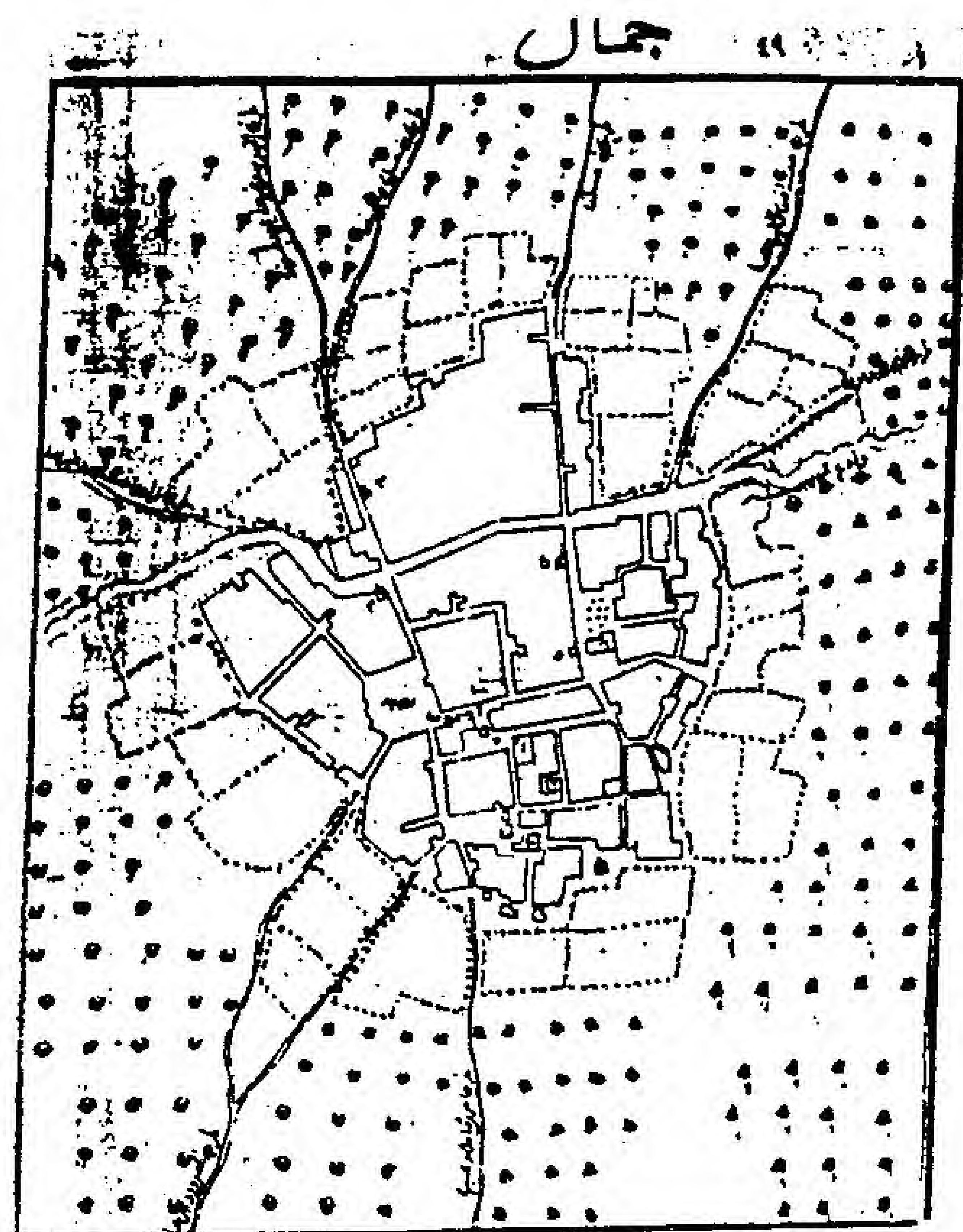


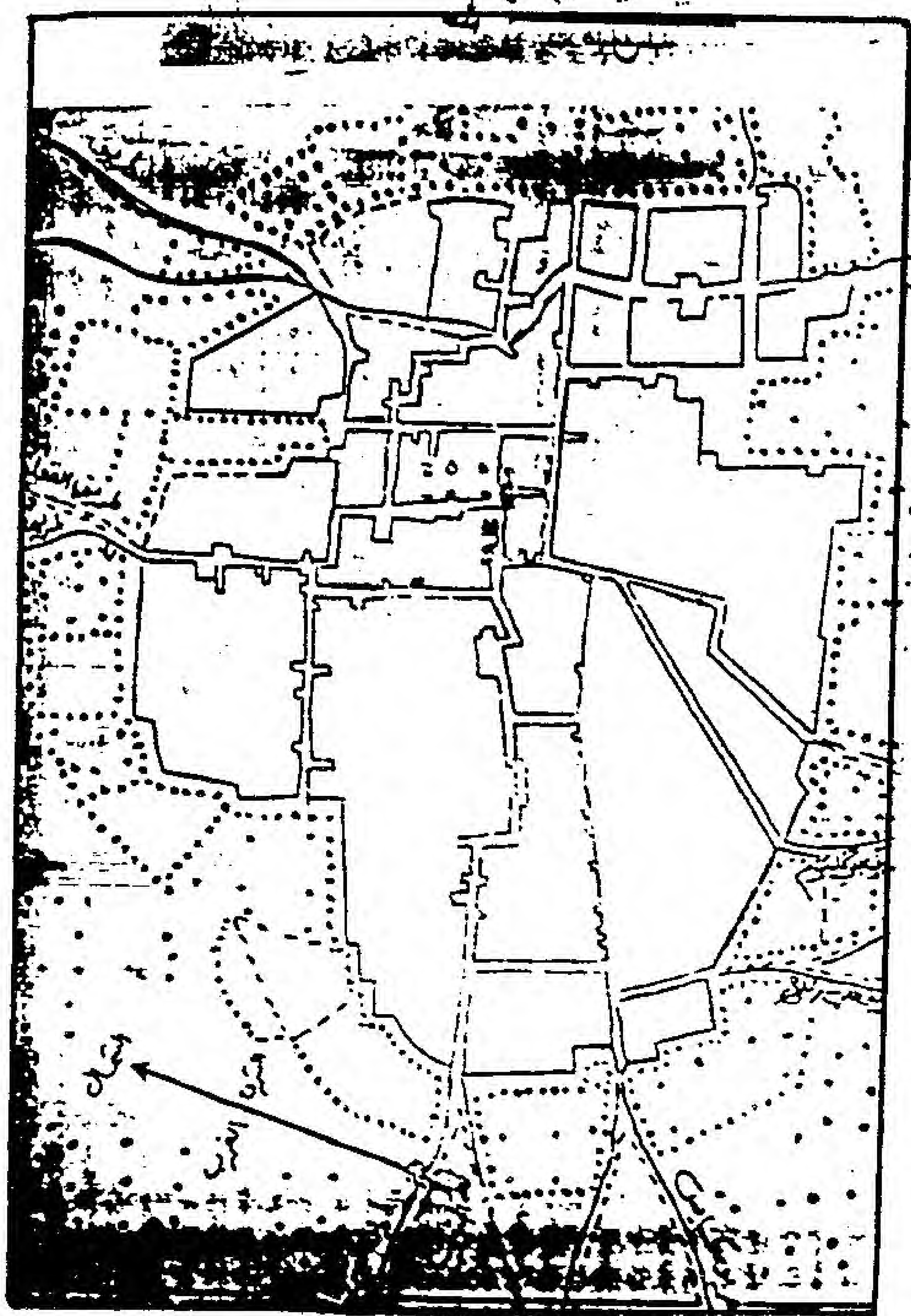


1ـ المدخل   2ـ مسجد   3ـ حجرات

شكل 57 : جمال - منزل كامل - مساكن (1857م)

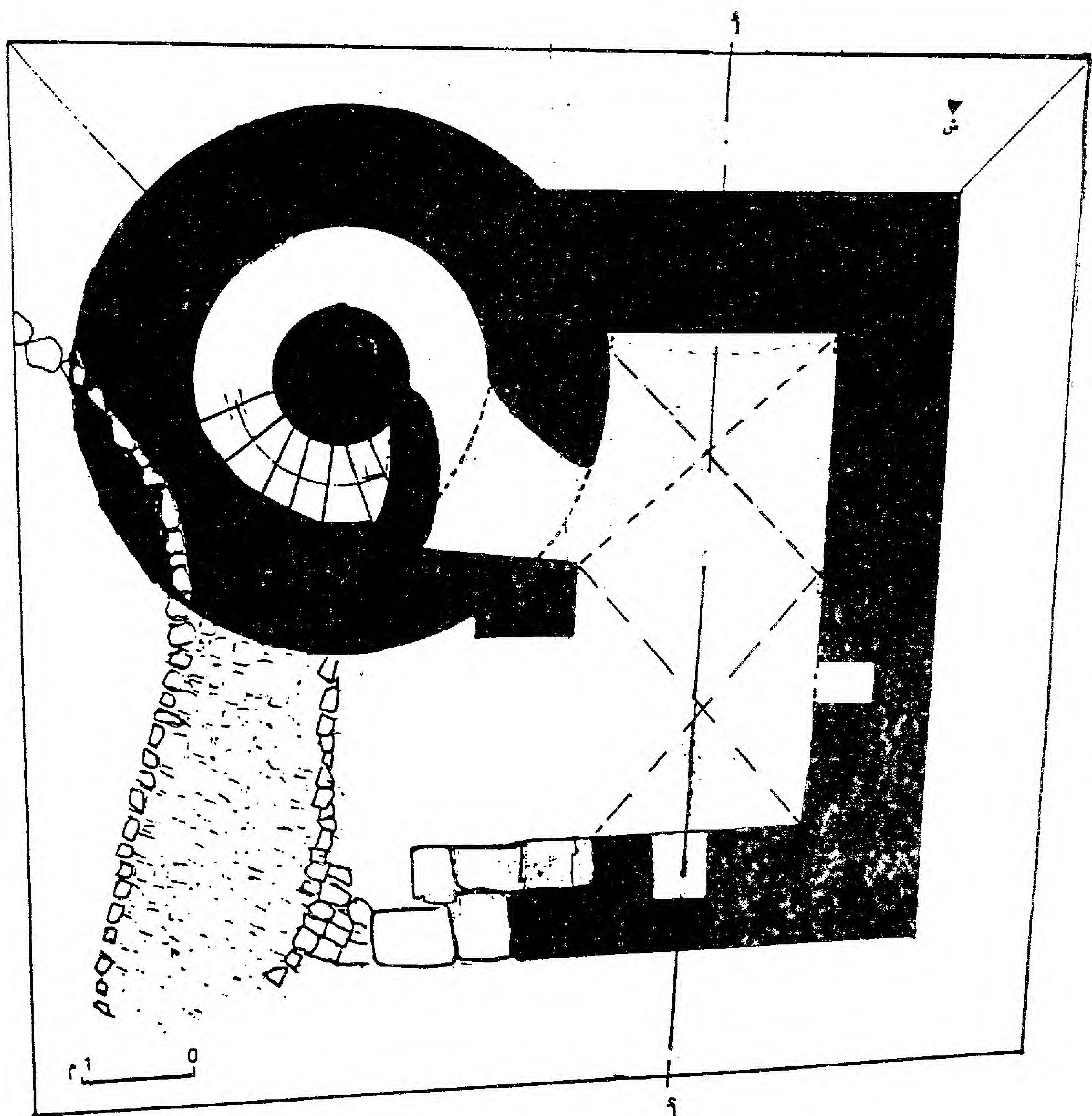




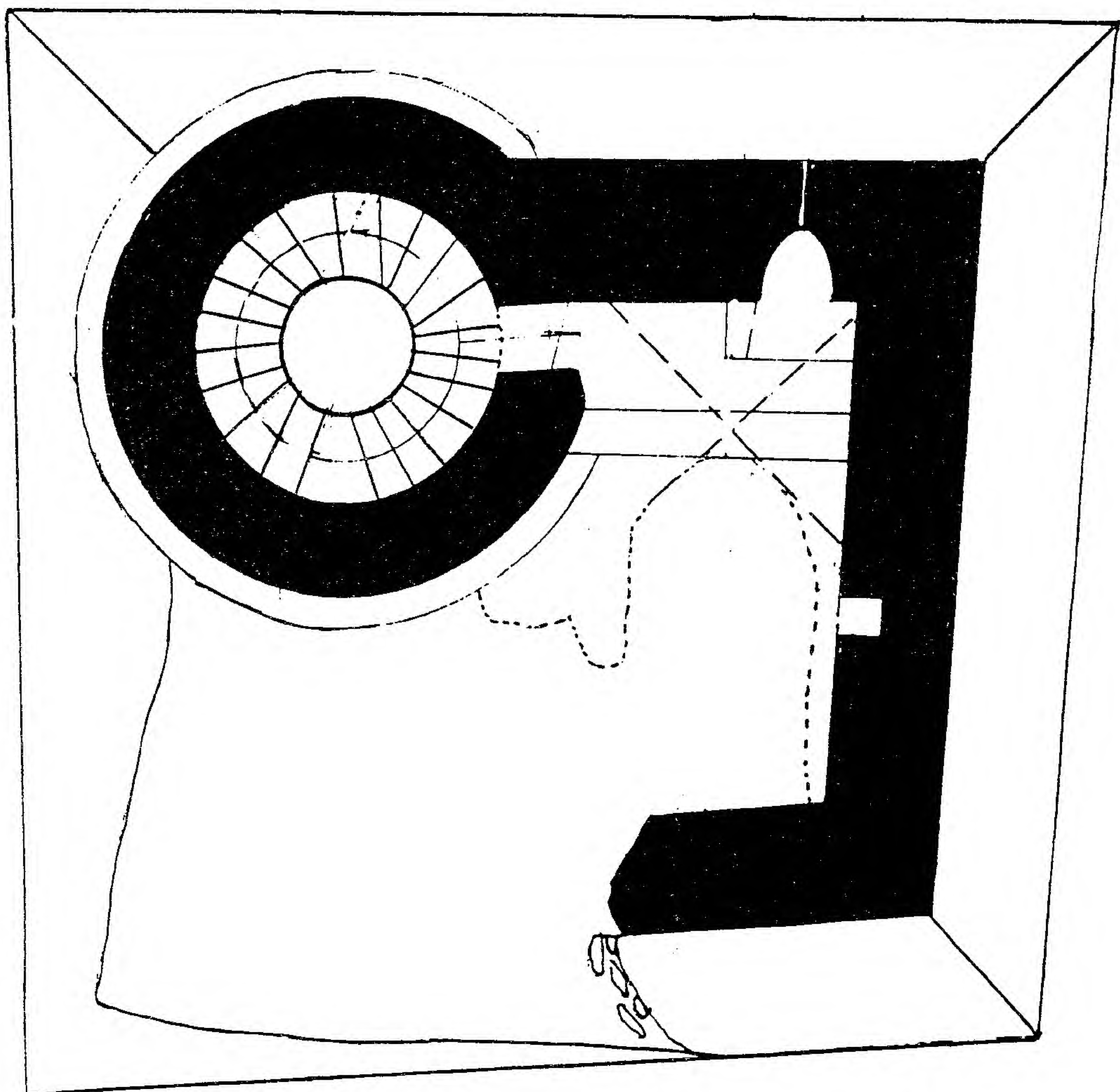


ـ المدرسة الحربية بباردو

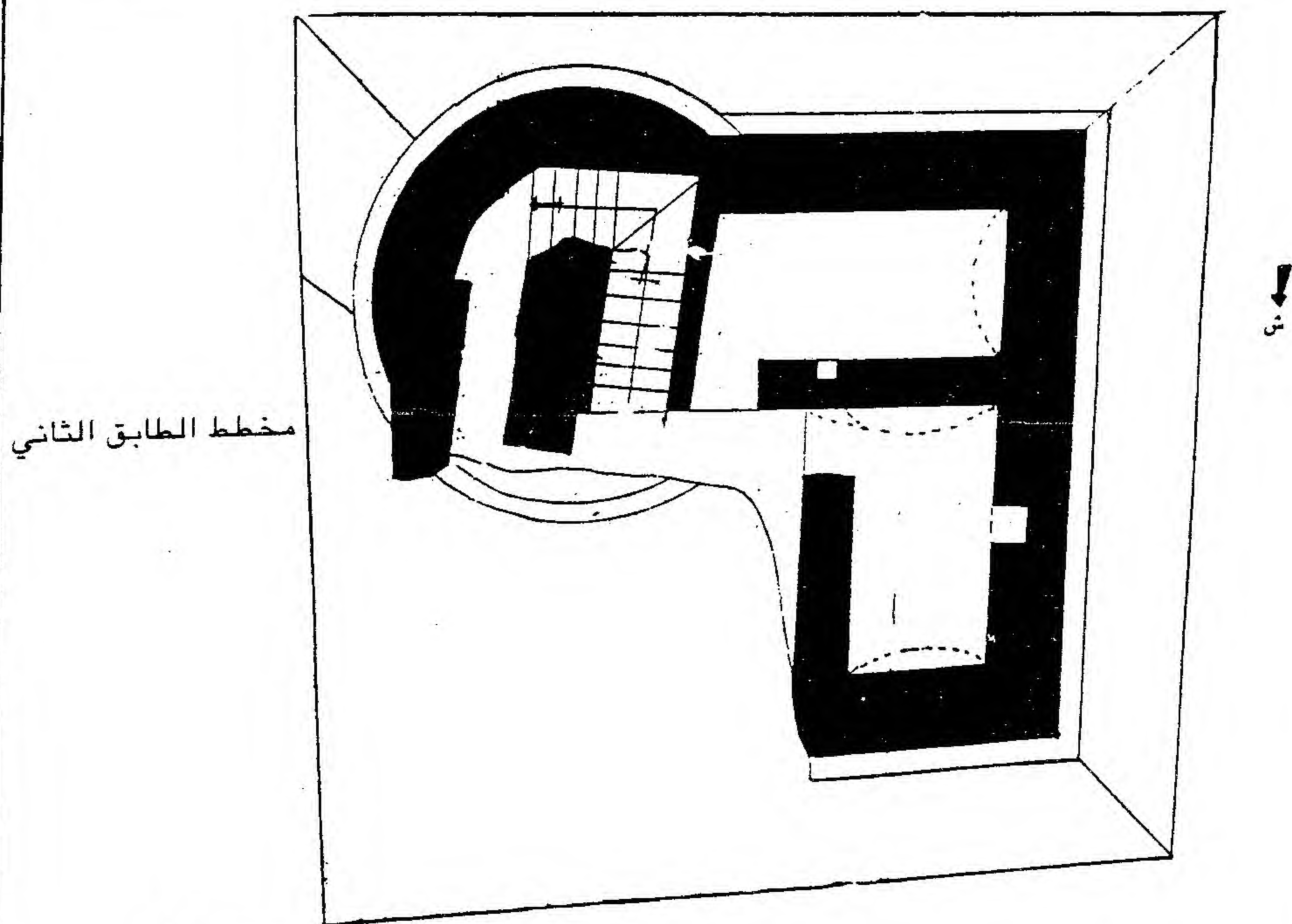
شكل 58 : برج خديجة : مخطّط الطابق الأرضي

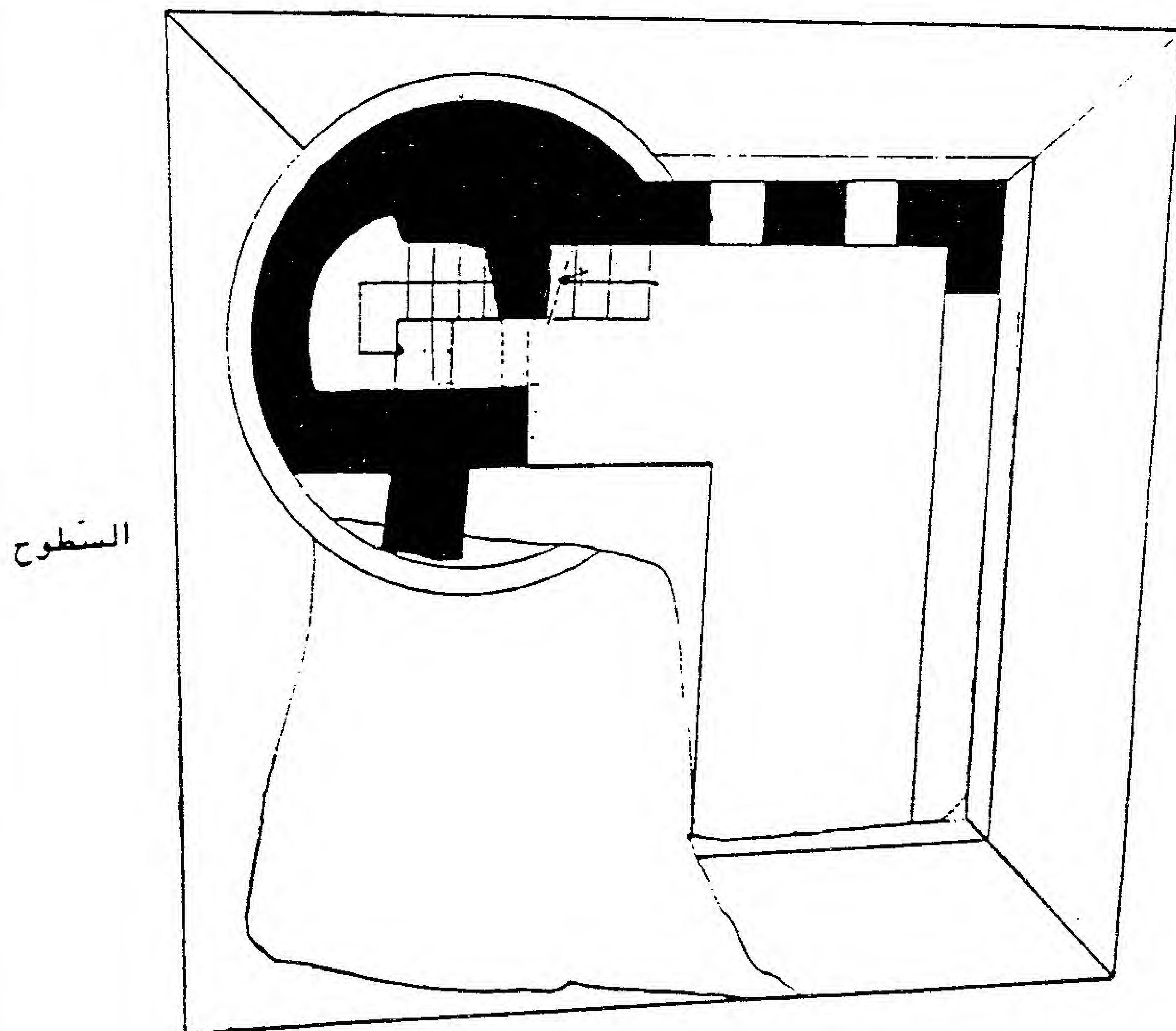


شكل 59 : برج خديجة:مخطّط الطابق الأول

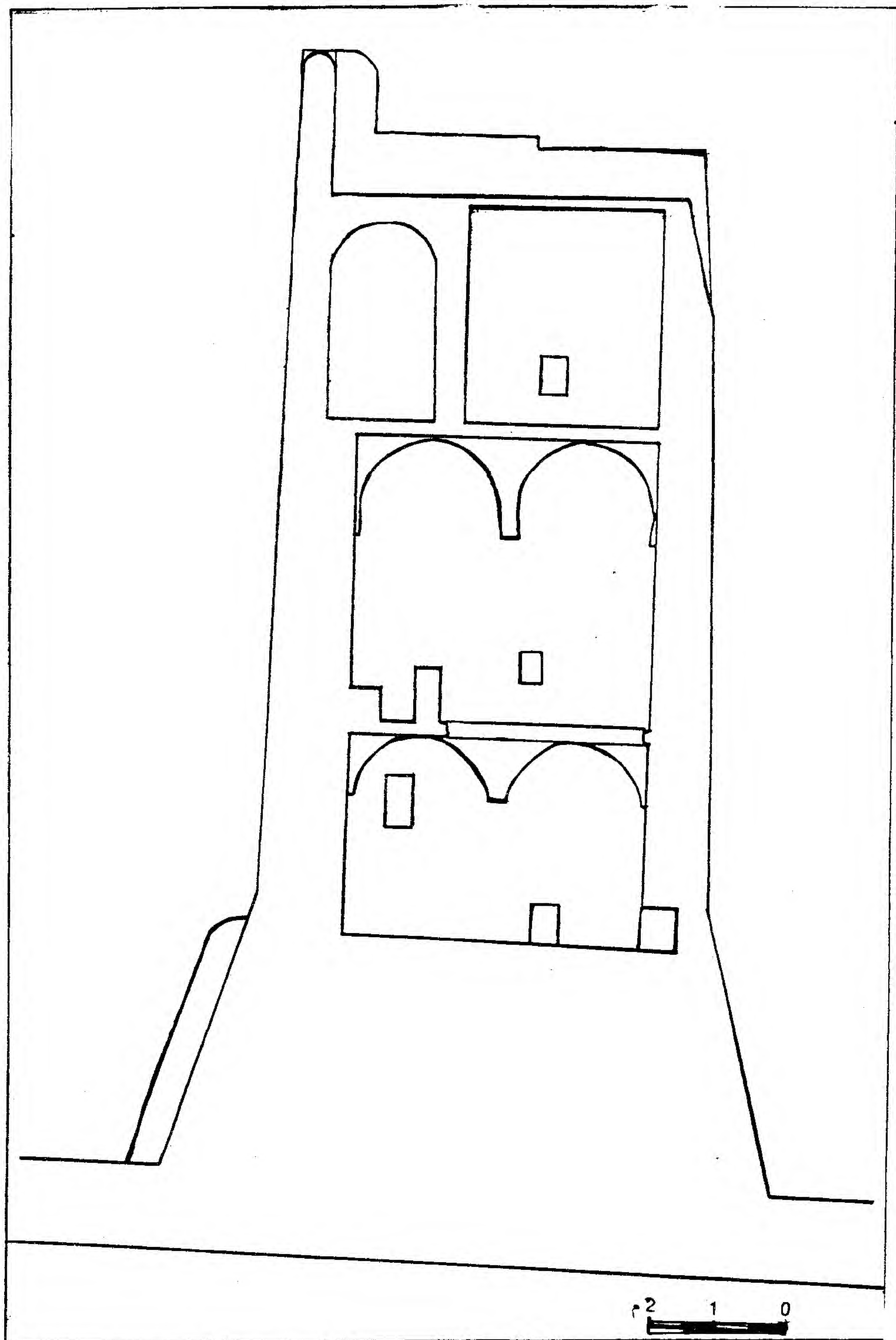


شكل 60 : برج خديجة

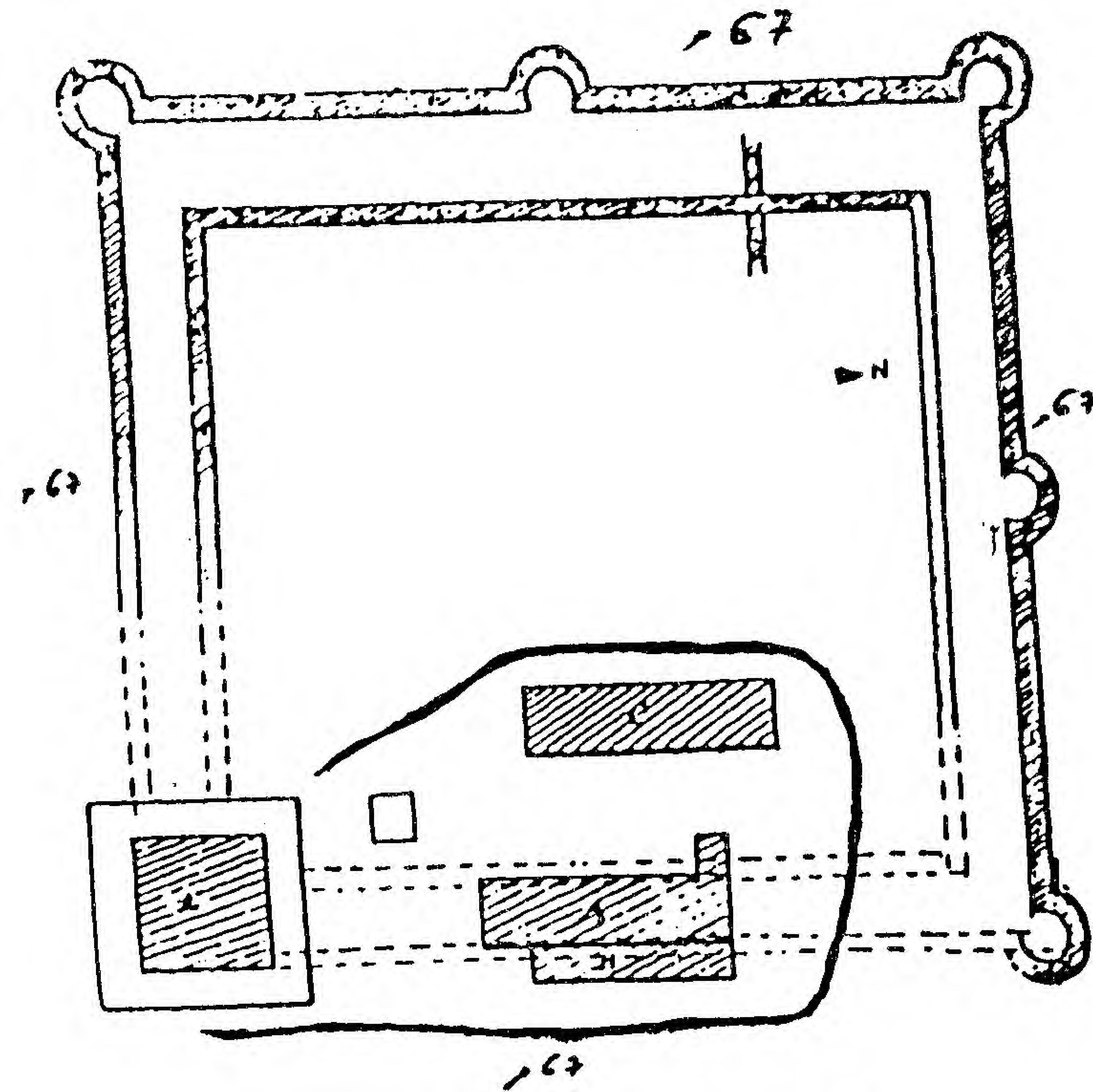




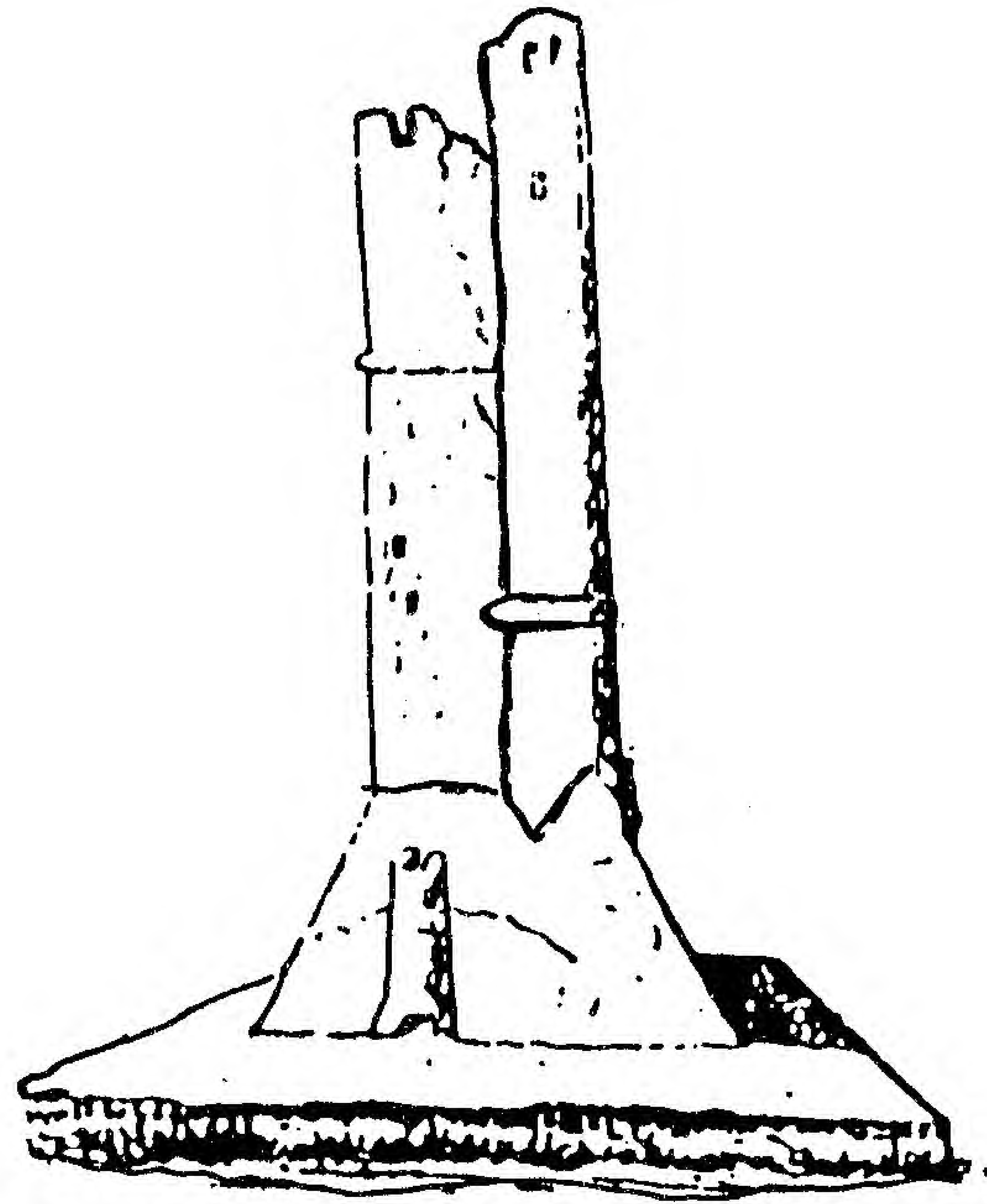
شكل 61 : برج خديجة : مقطع أ - أ



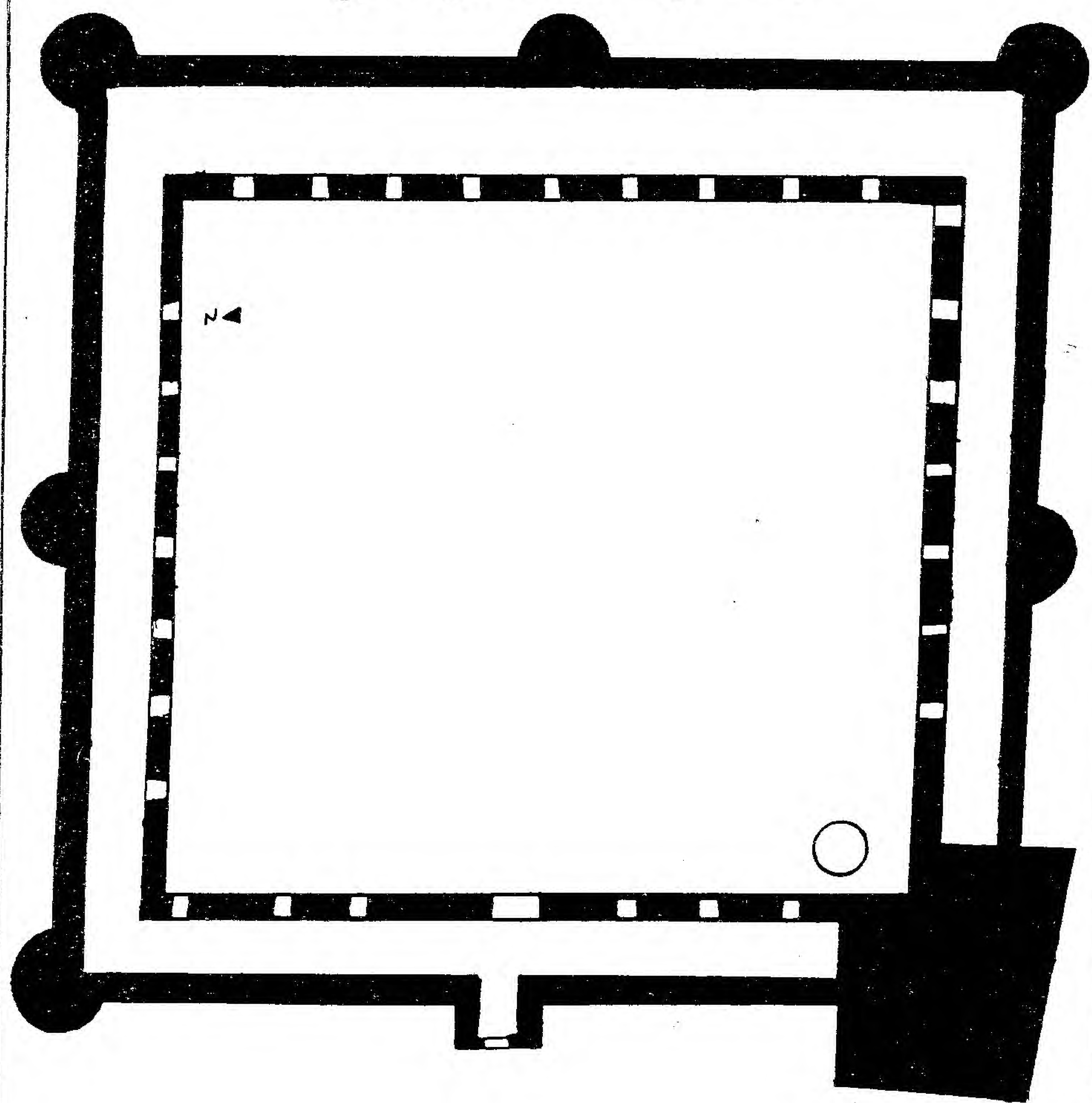
شكل 62 : برج خديجة



الحصن الأغلبي سنة 1906



المنار الحفصي

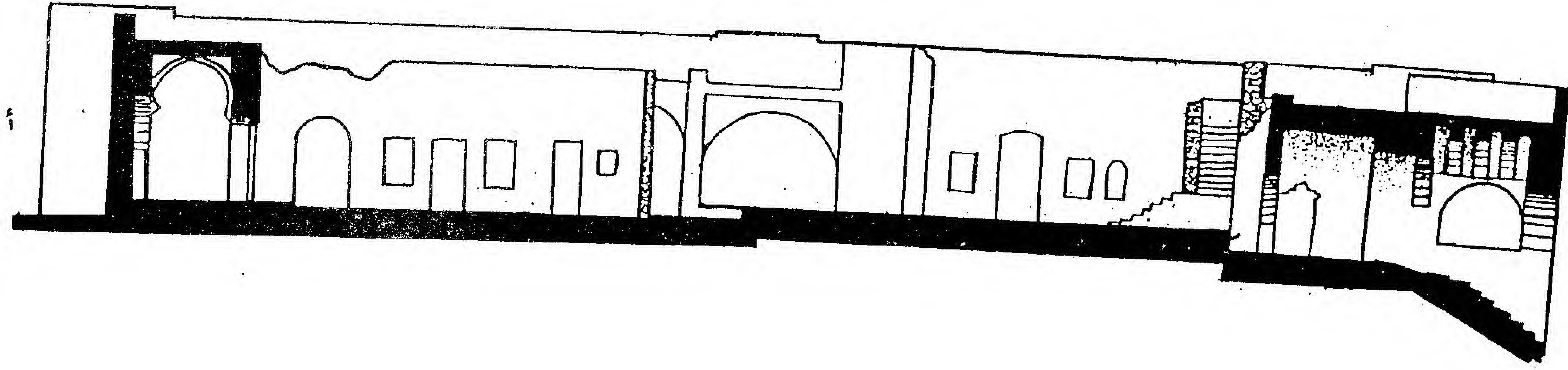


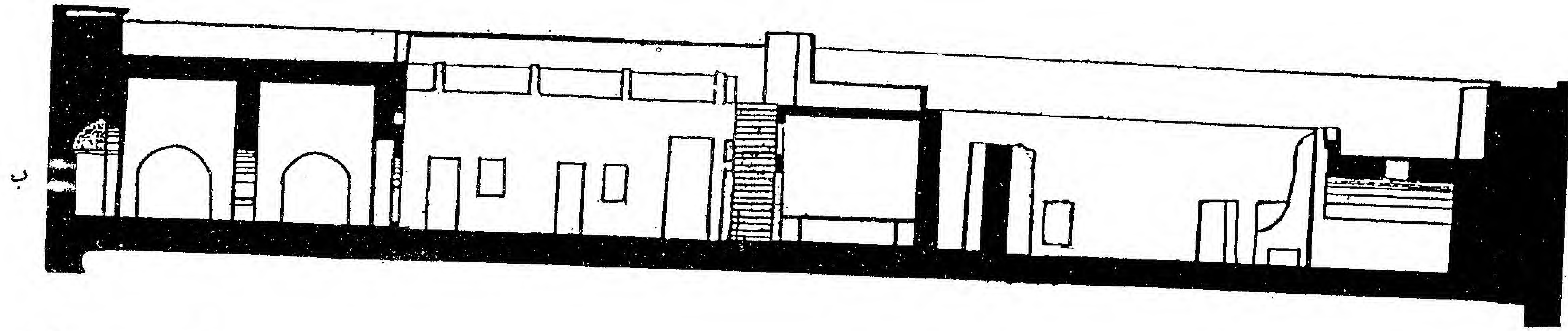
شكل 63 : برج خديجة الحصن الأغلبي

شكل 64 : رباطات منطقة صفاقس قبل العصر الحفصي

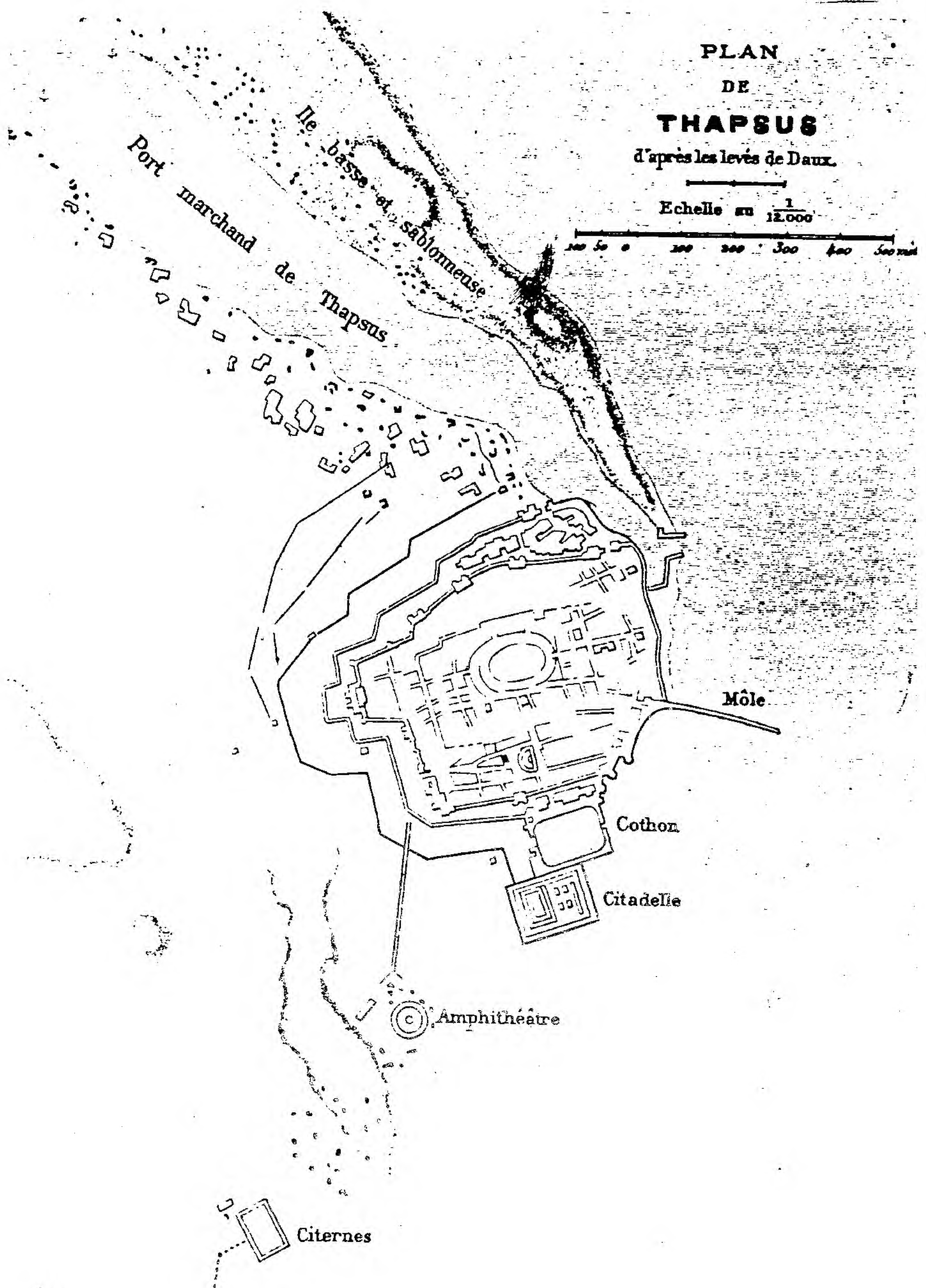


شكل 54 : المنستير ، زاوية سيدي ذويب (مقاطع)

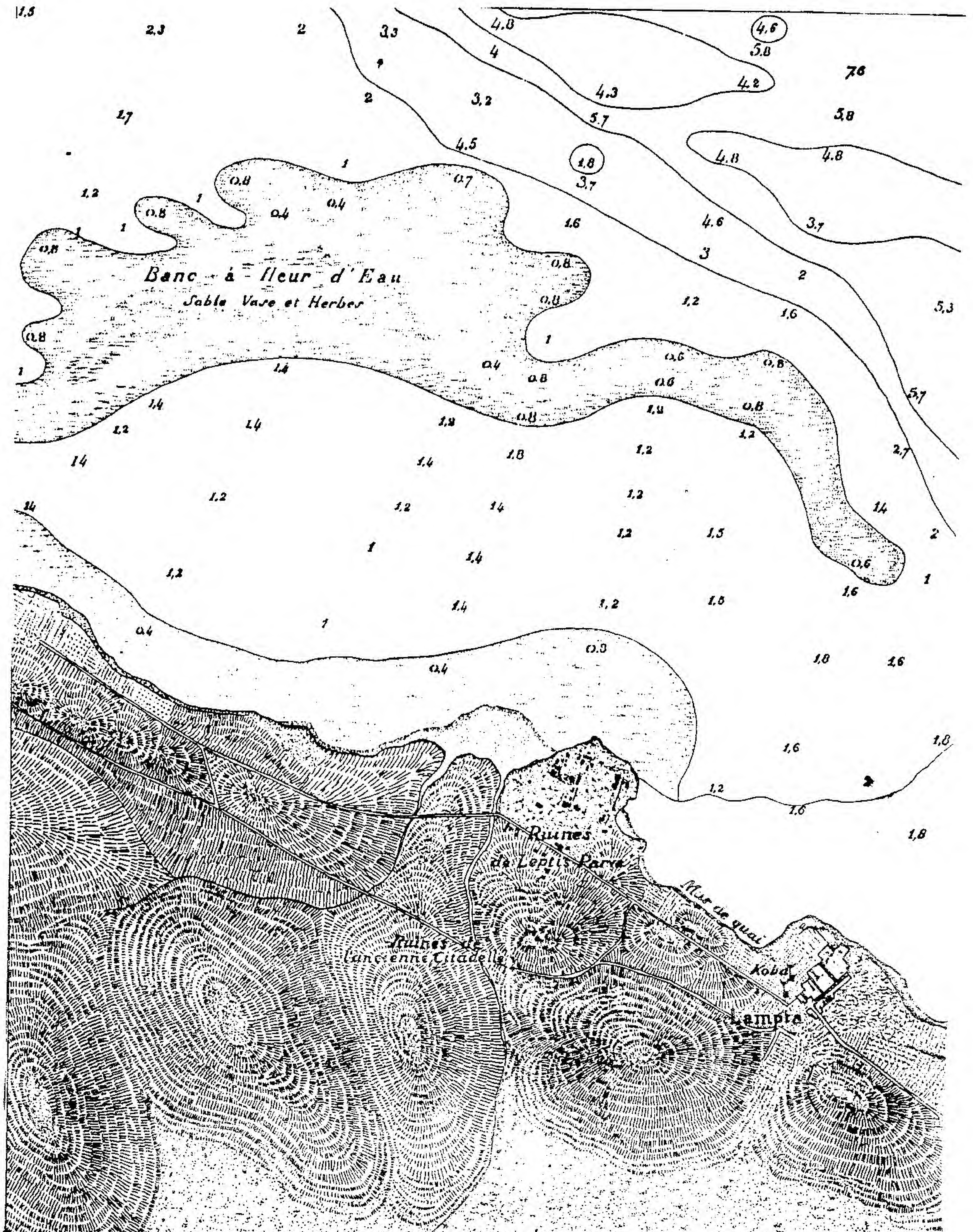




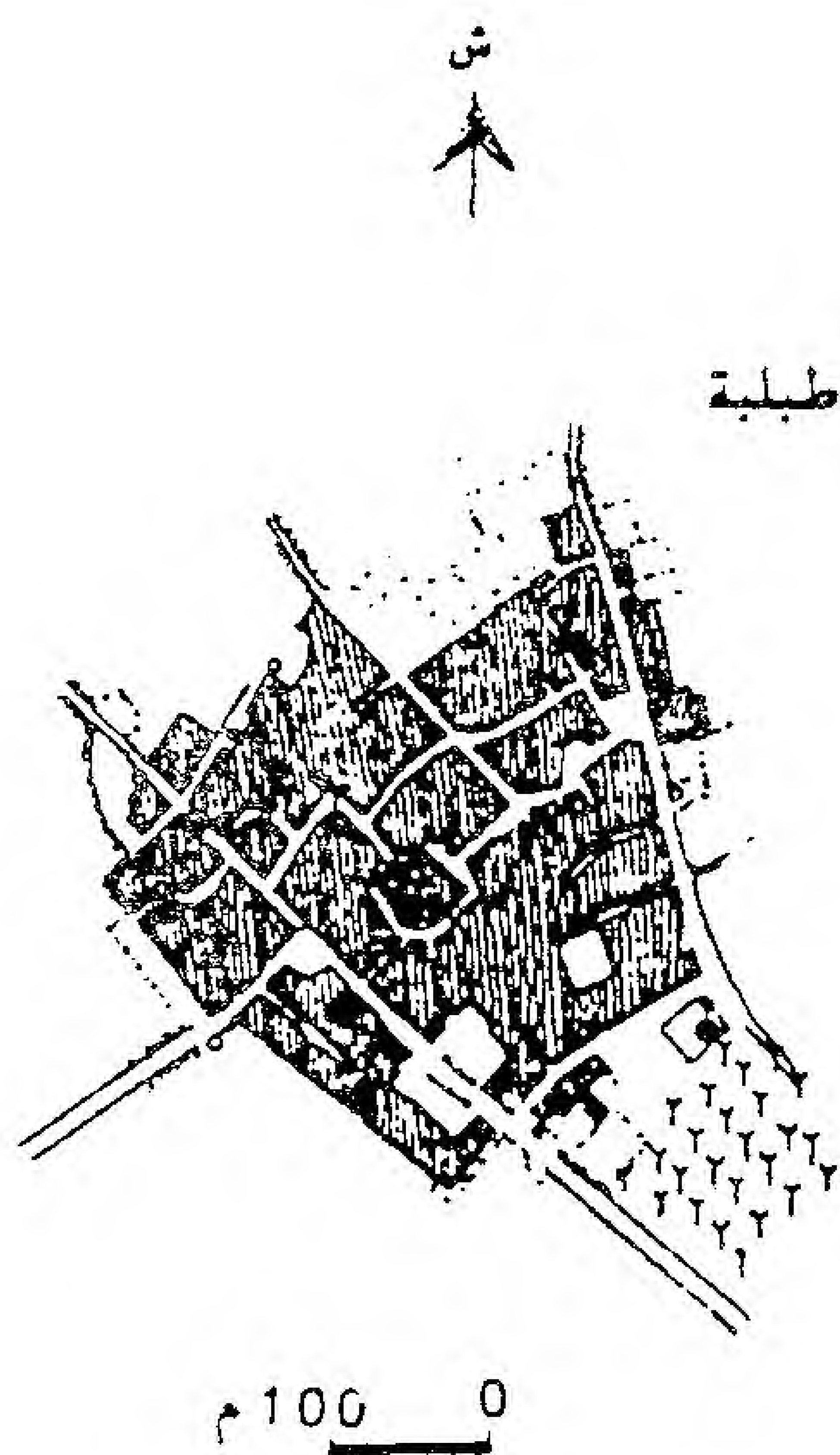
شكل 55 : موقع طبسة سنة 1830

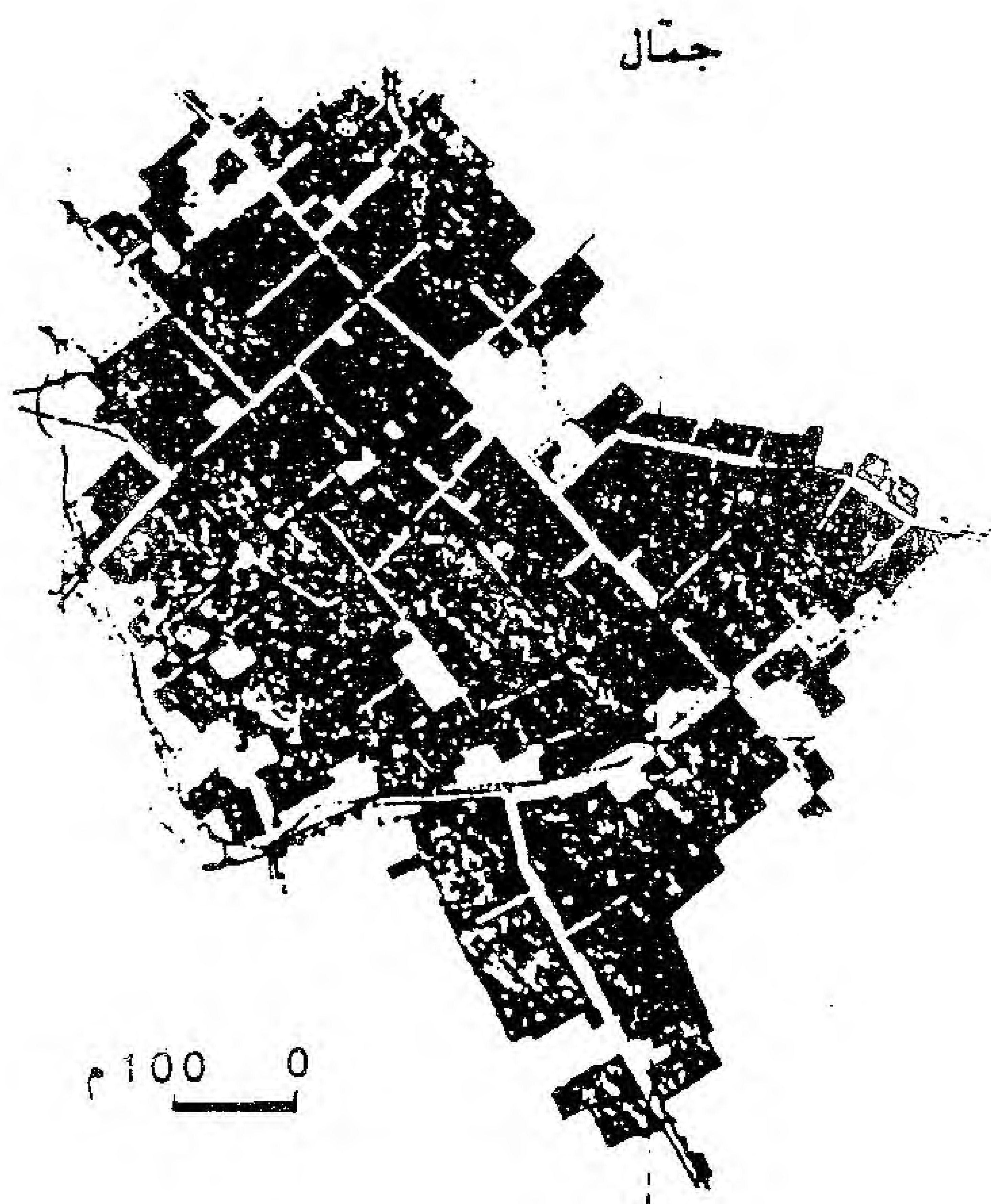


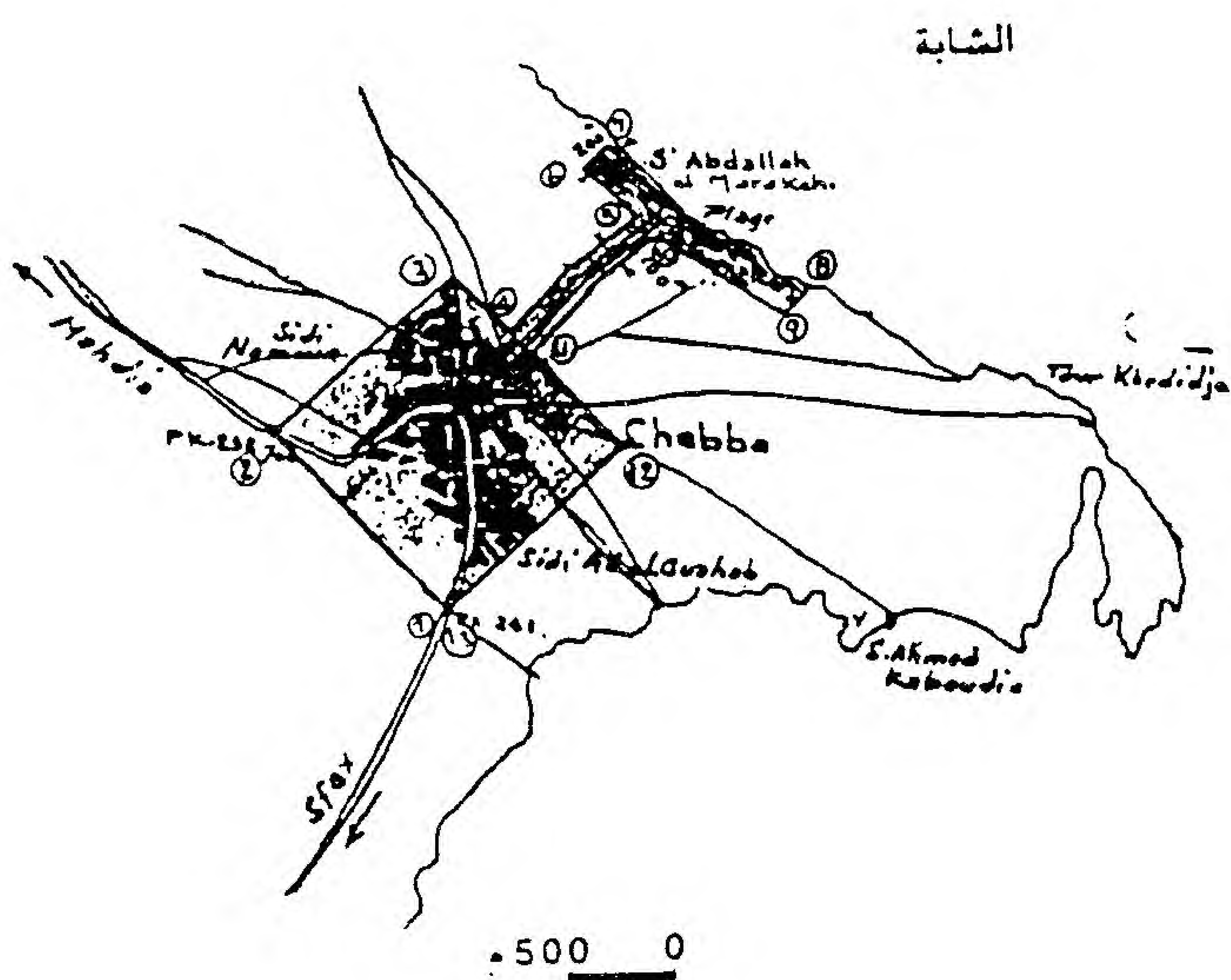
شكل 55 ب : لمطة (ق 19 م)



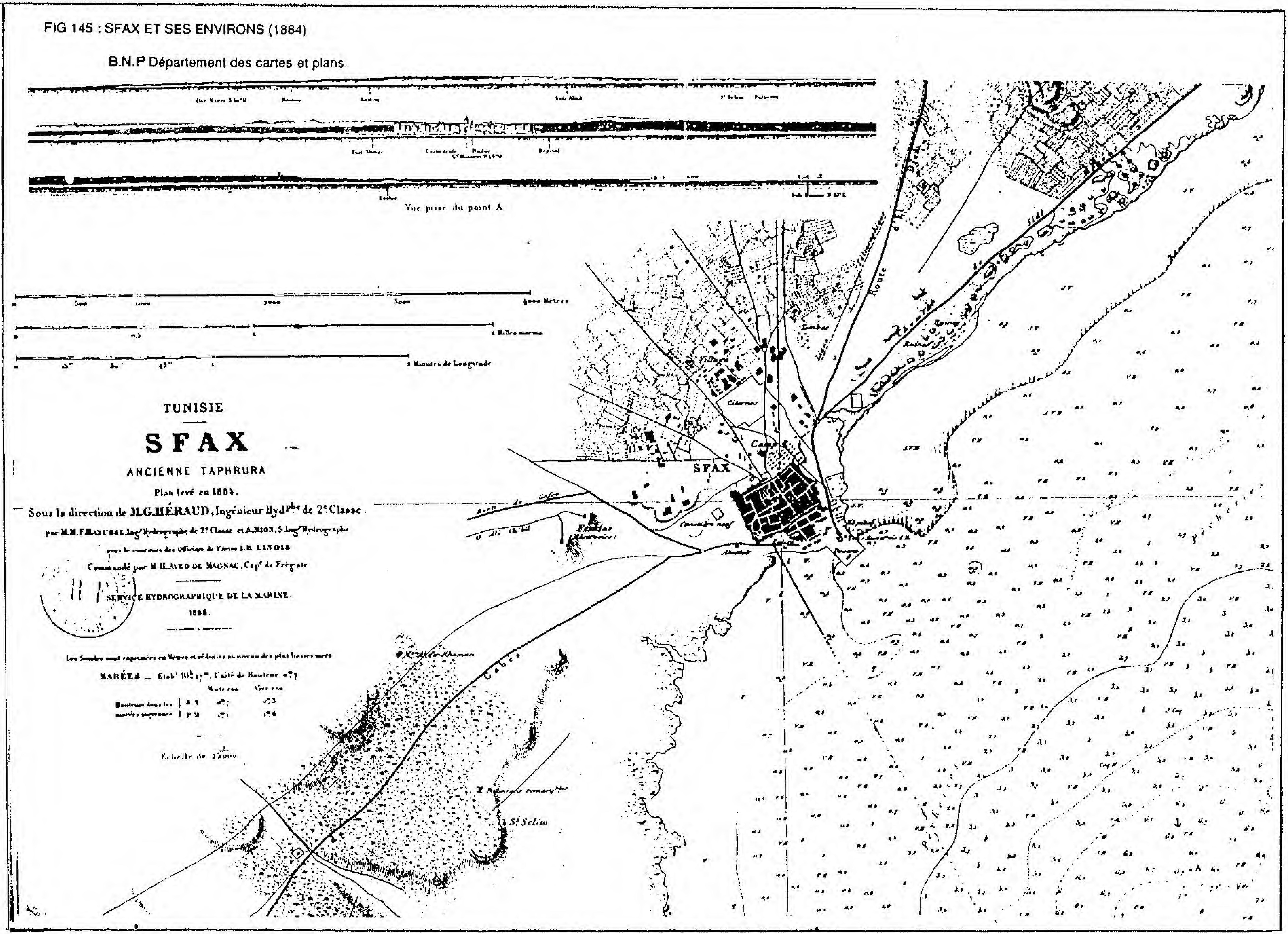
شكل 56 : جمال (1884م) طبلبة (1884م) والشابة (1950م)



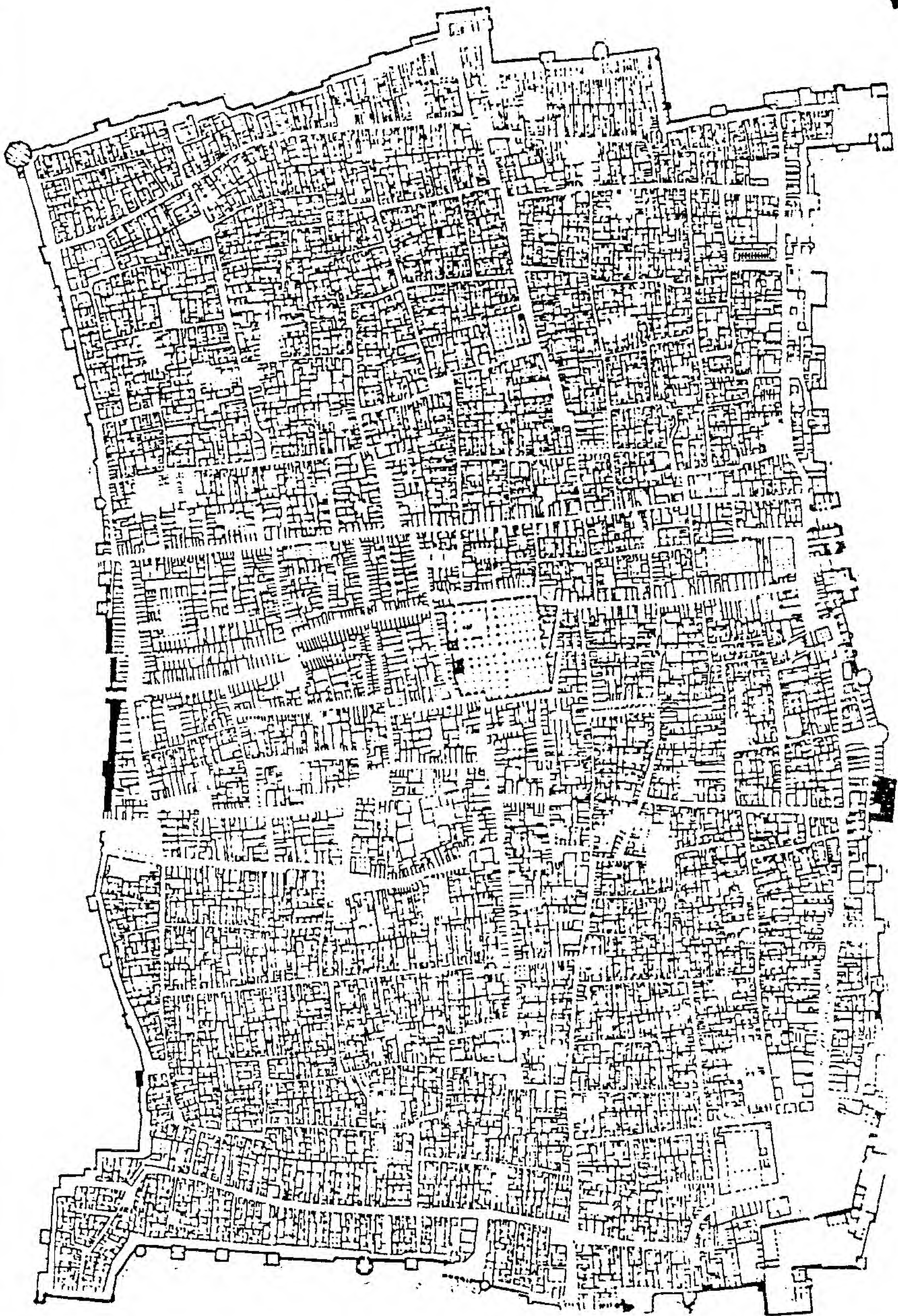




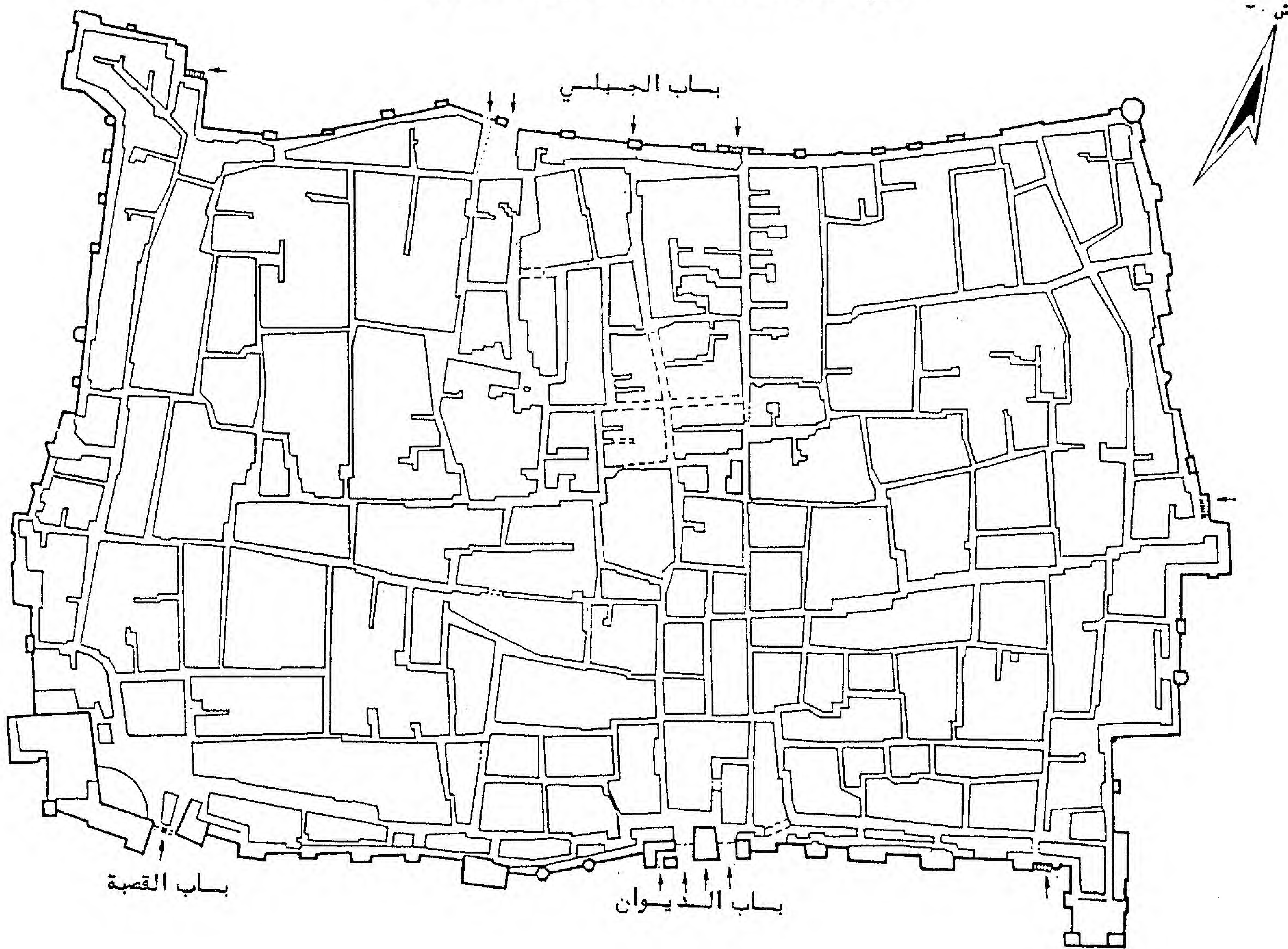
شكل 65 : صفاقس وضواحيها في القرن التاسع عشر



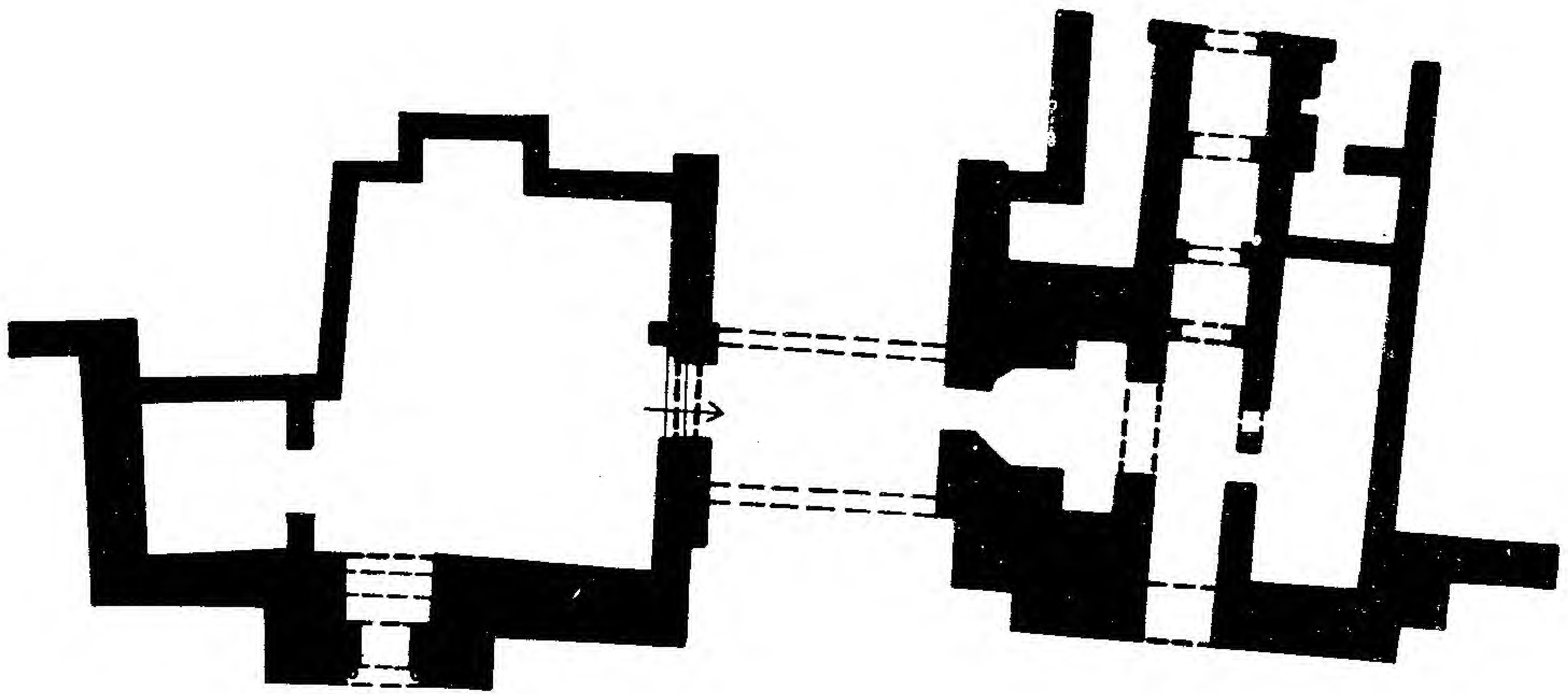
شكل 66 : مدينة صفاقس



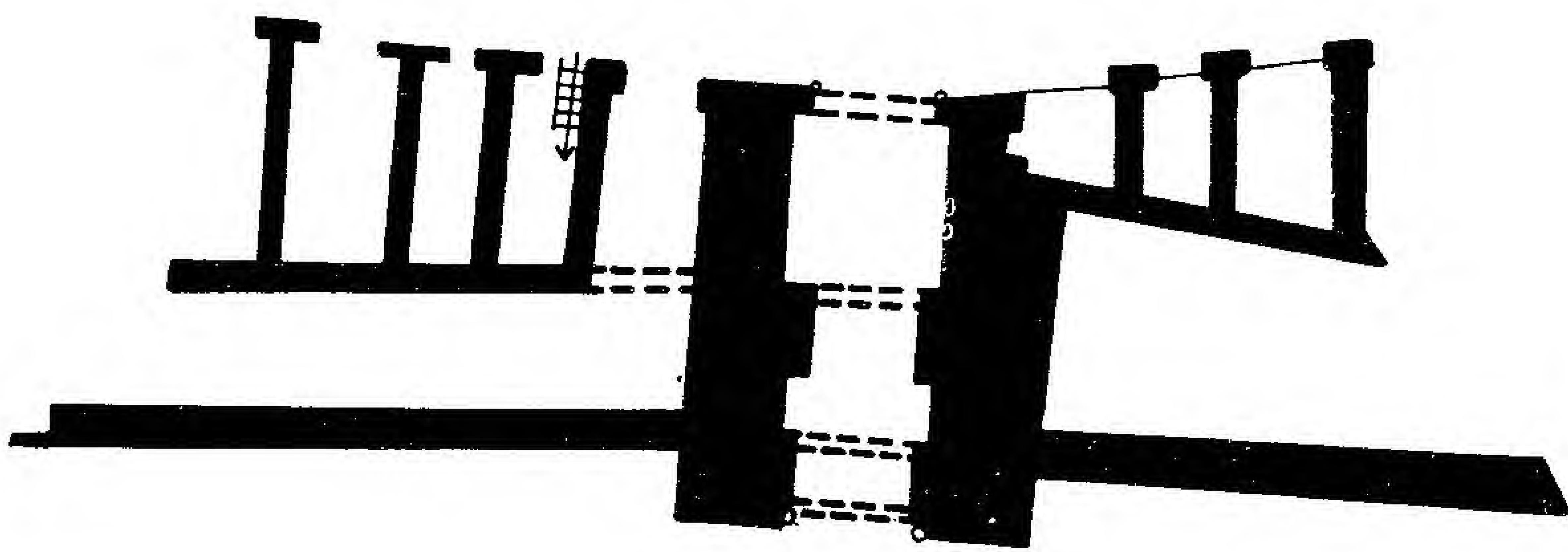
شكل 66 ب : صفاقس : التوزيع العمراني



شكل 67 : أبواب مدينة صفاقس

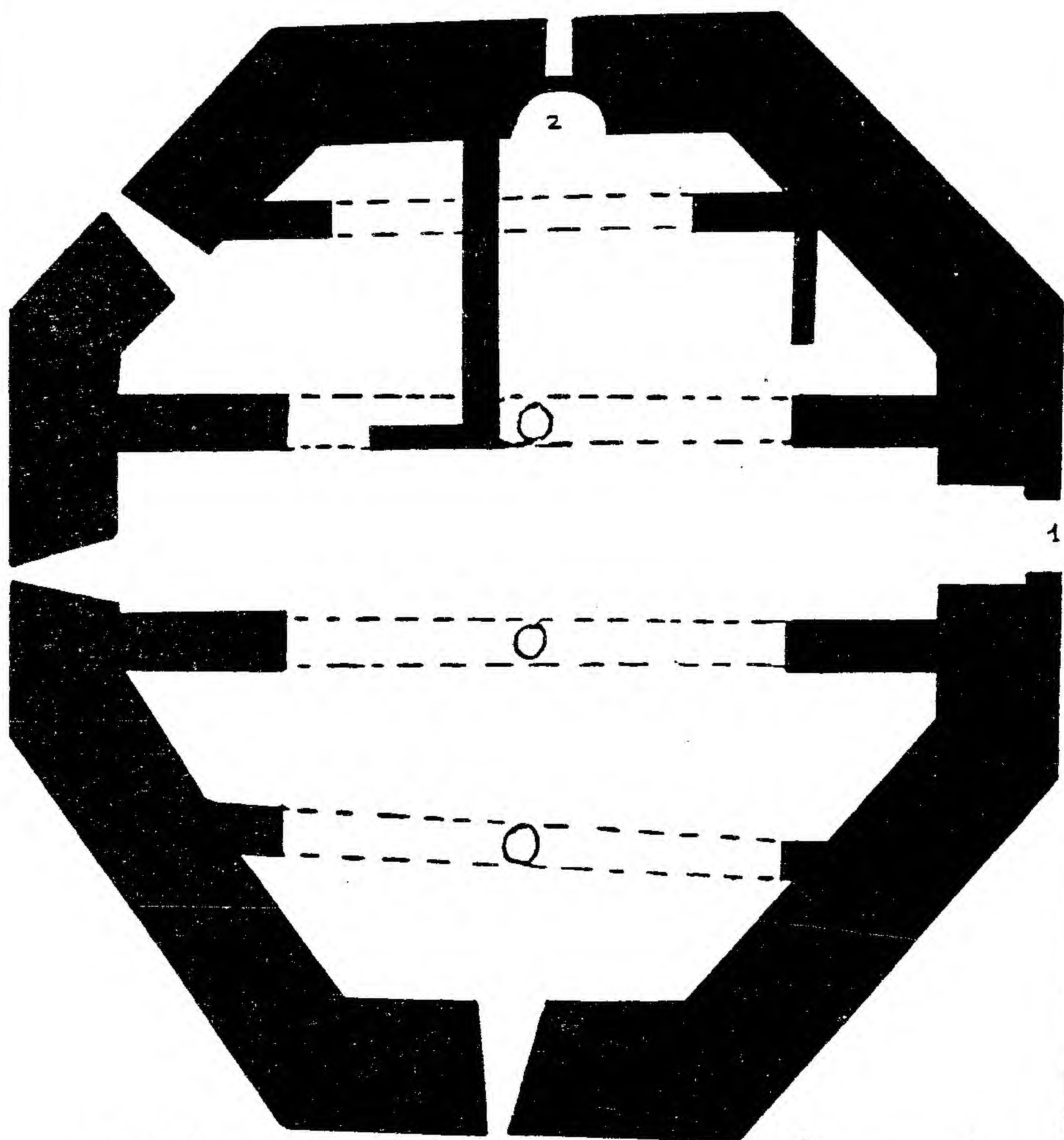


باب الدّيوان

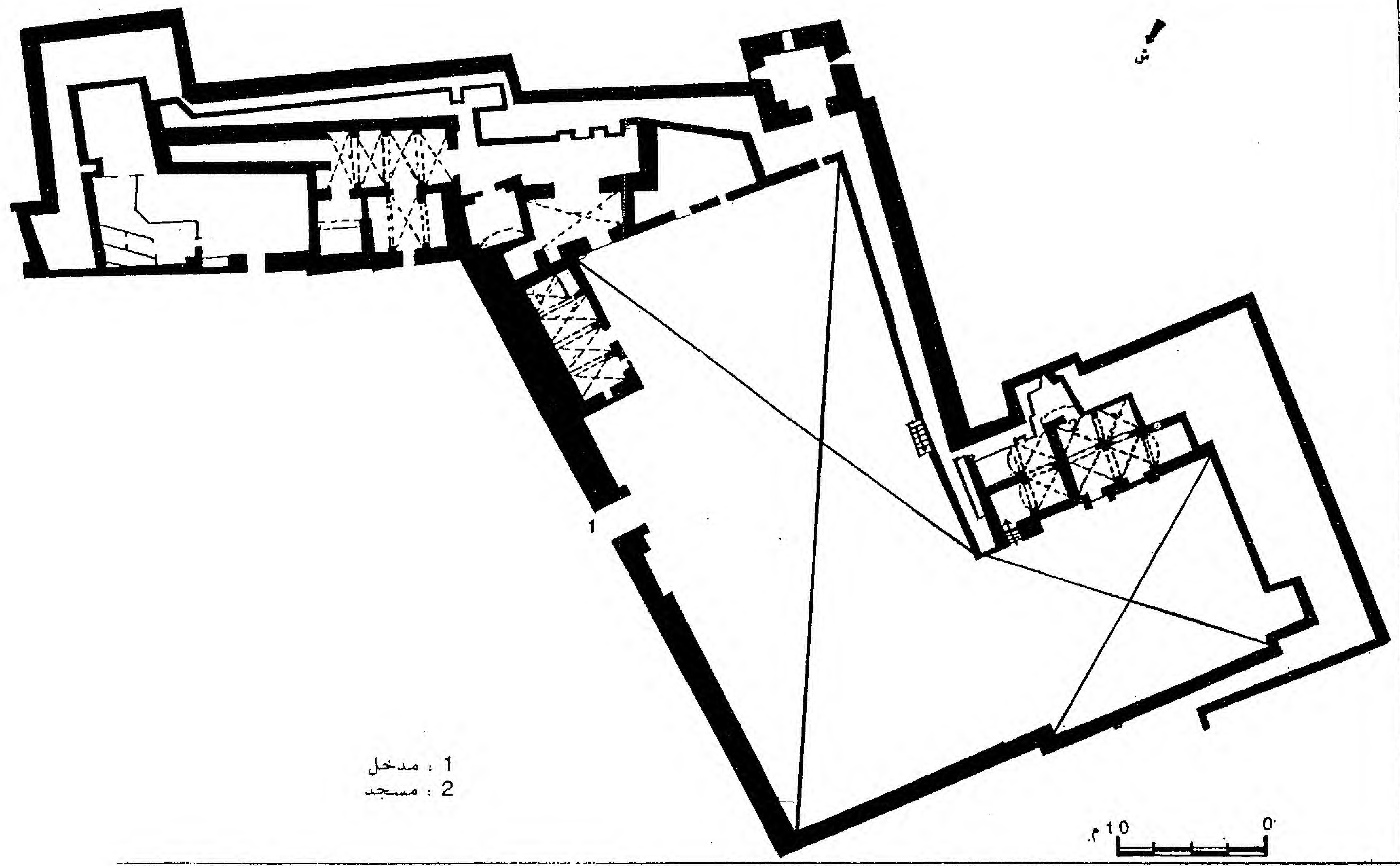


الباب الجبلي

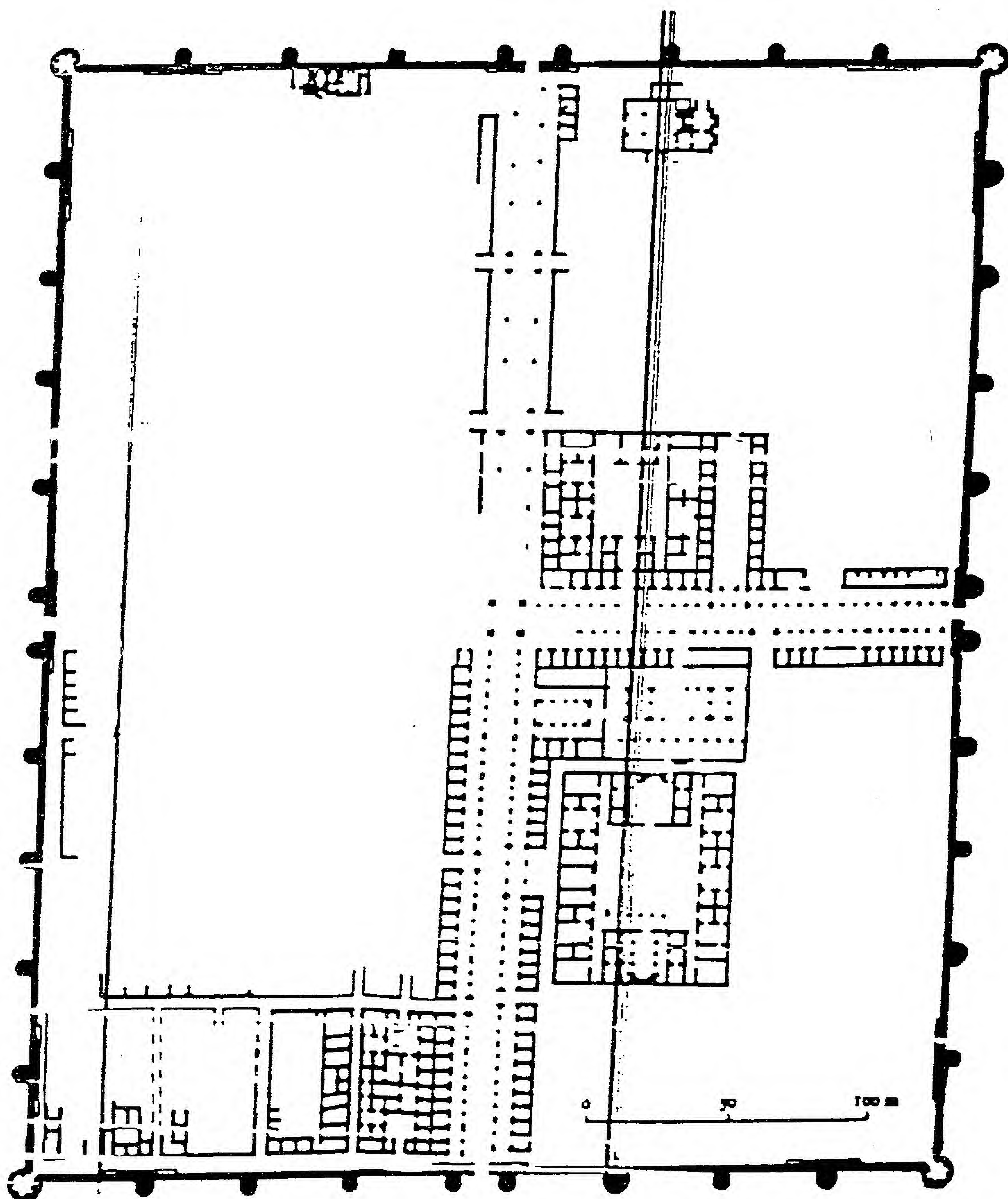
شكل 68 : صفاقس : برج مسعودة



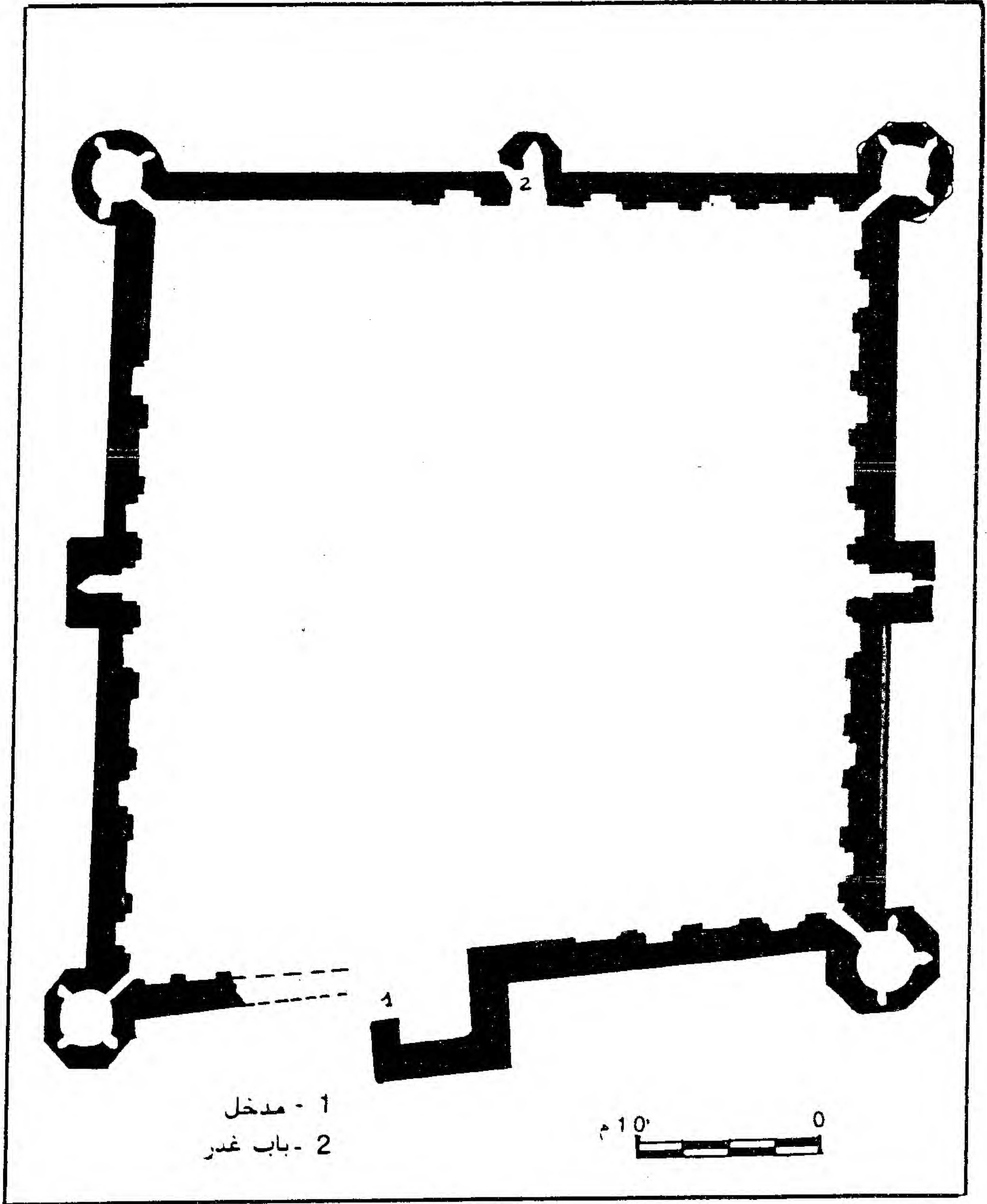
شكل 69 : مخطط قصبة صفاقس



شكل 70 : مدينة عين الجر



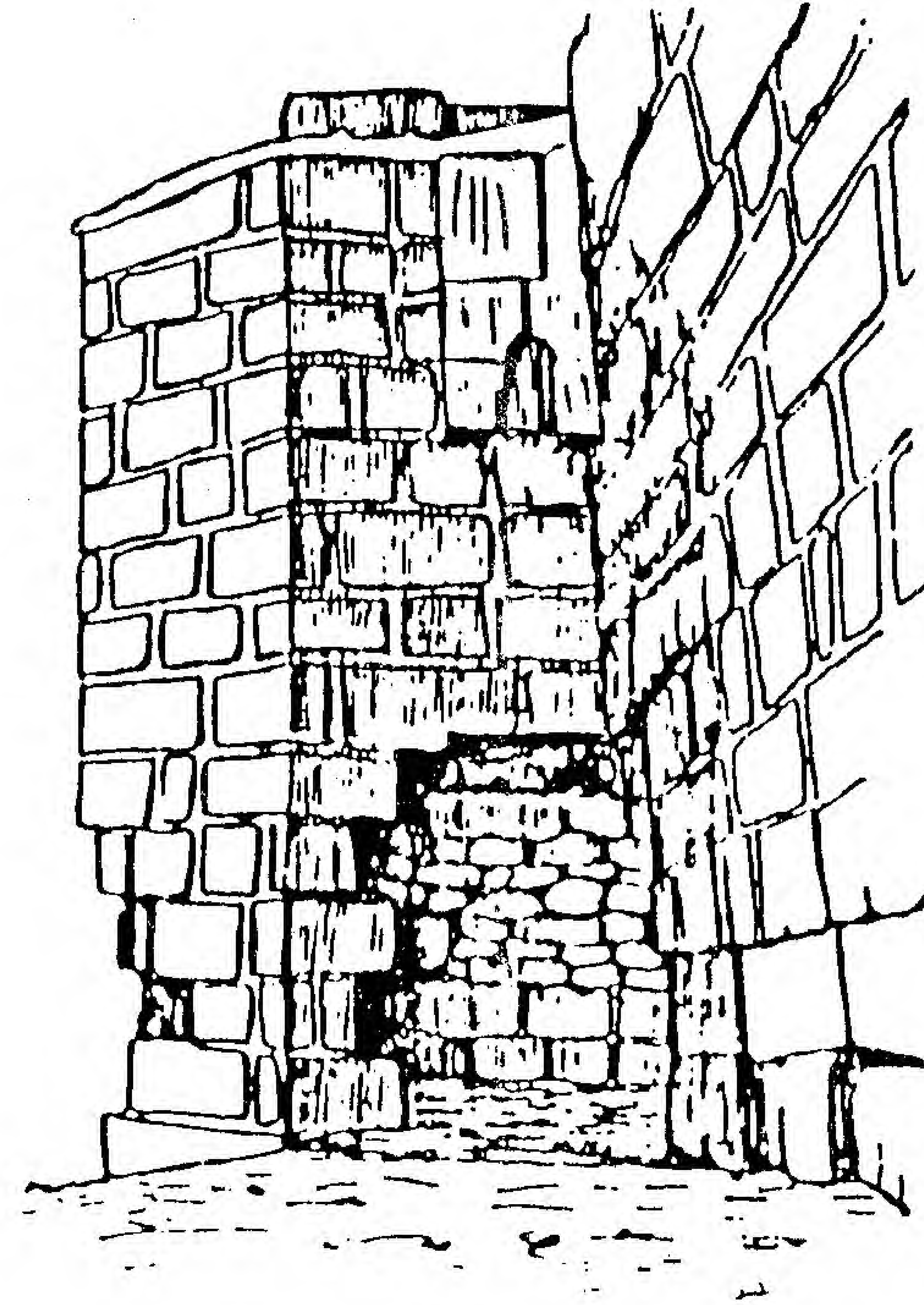
شكل 71 : قصر يونقة



شكل 72 : قصر بونقة

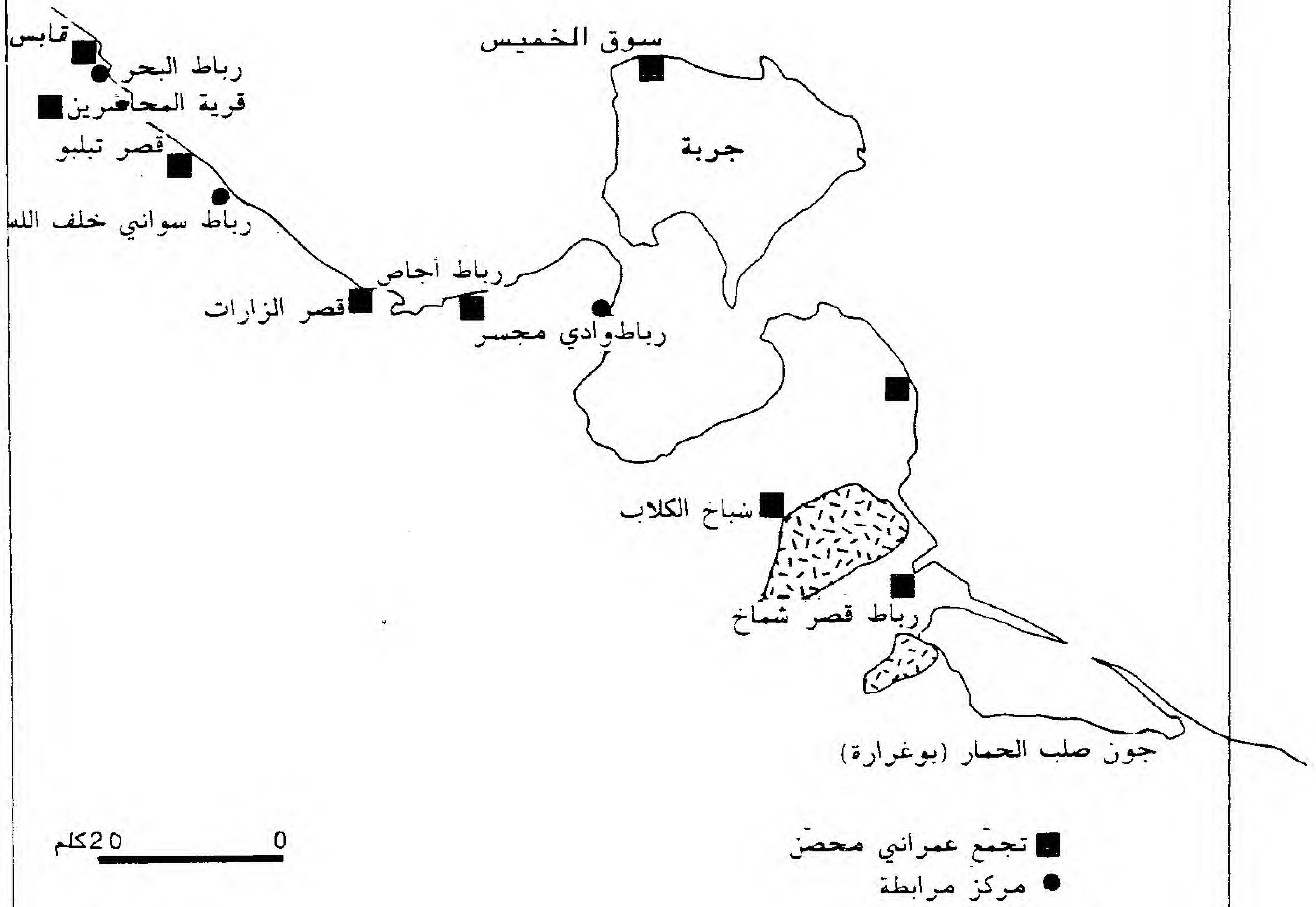


حنيّات السّور



برج متعدّد الأضلاع

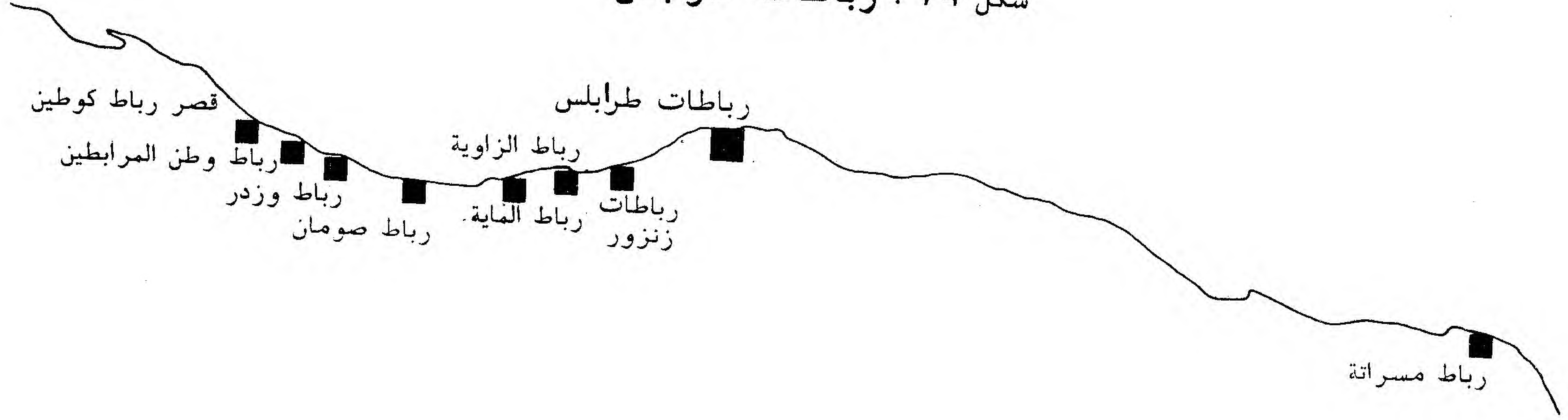
شكل 73 : رباطات جنوب البلاد التونسية في العصر الوسيط



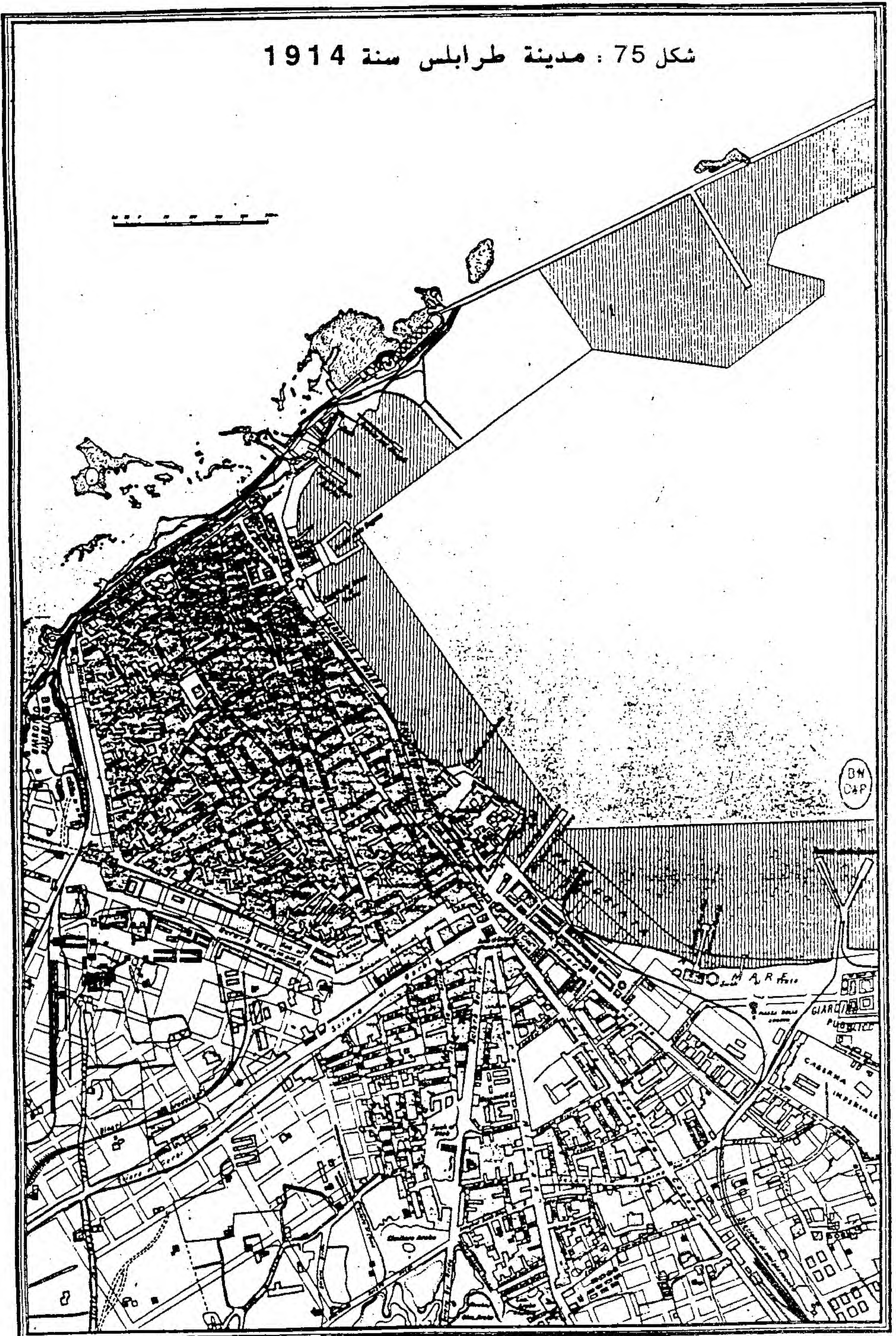
مخبر رسم الخرائط

مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية

شكل 74 : رباطات طرابلس



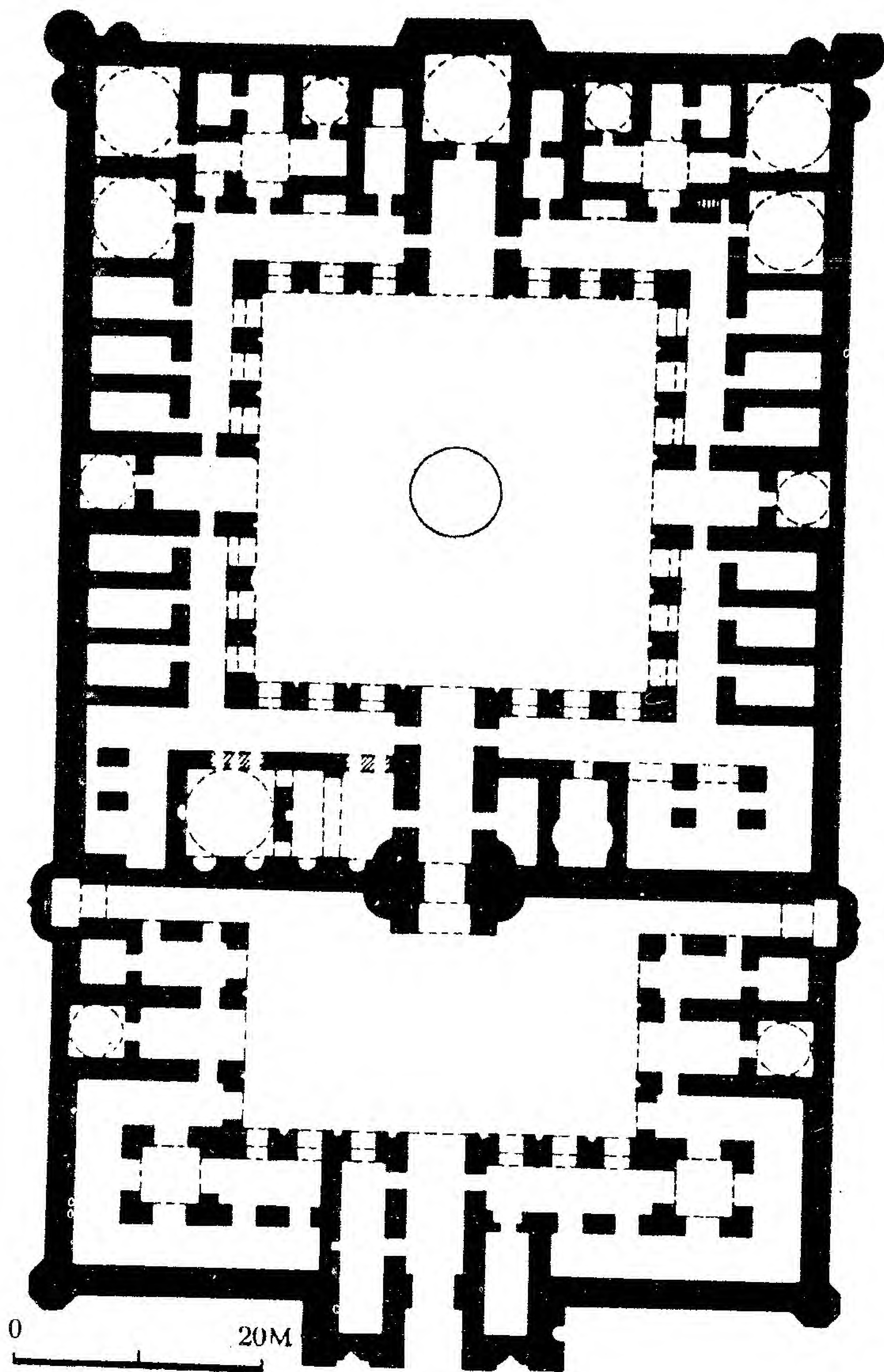
شكل 75 : مدينة طرابلس سنة 1914



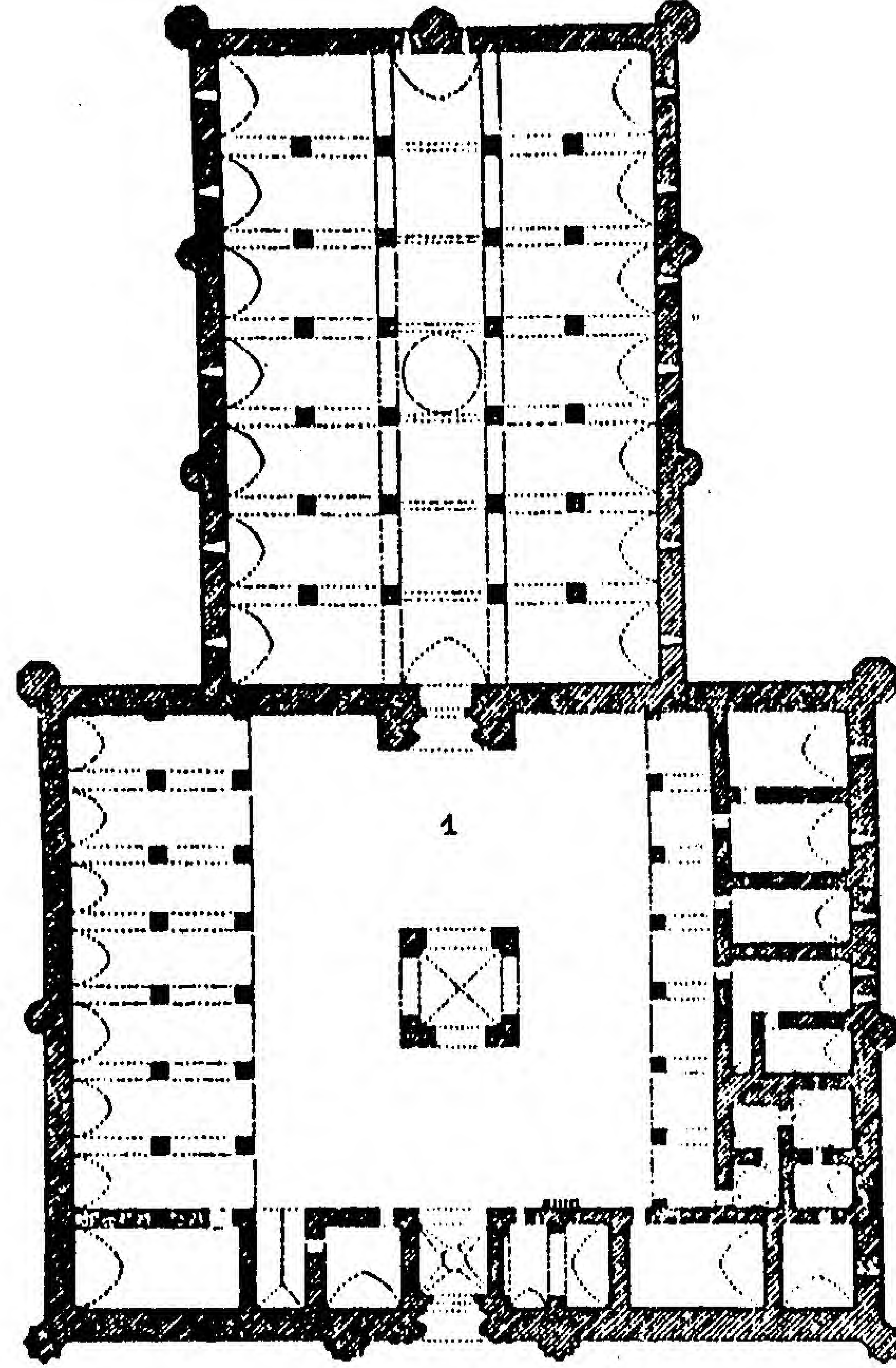
C. Salussolia, lit.

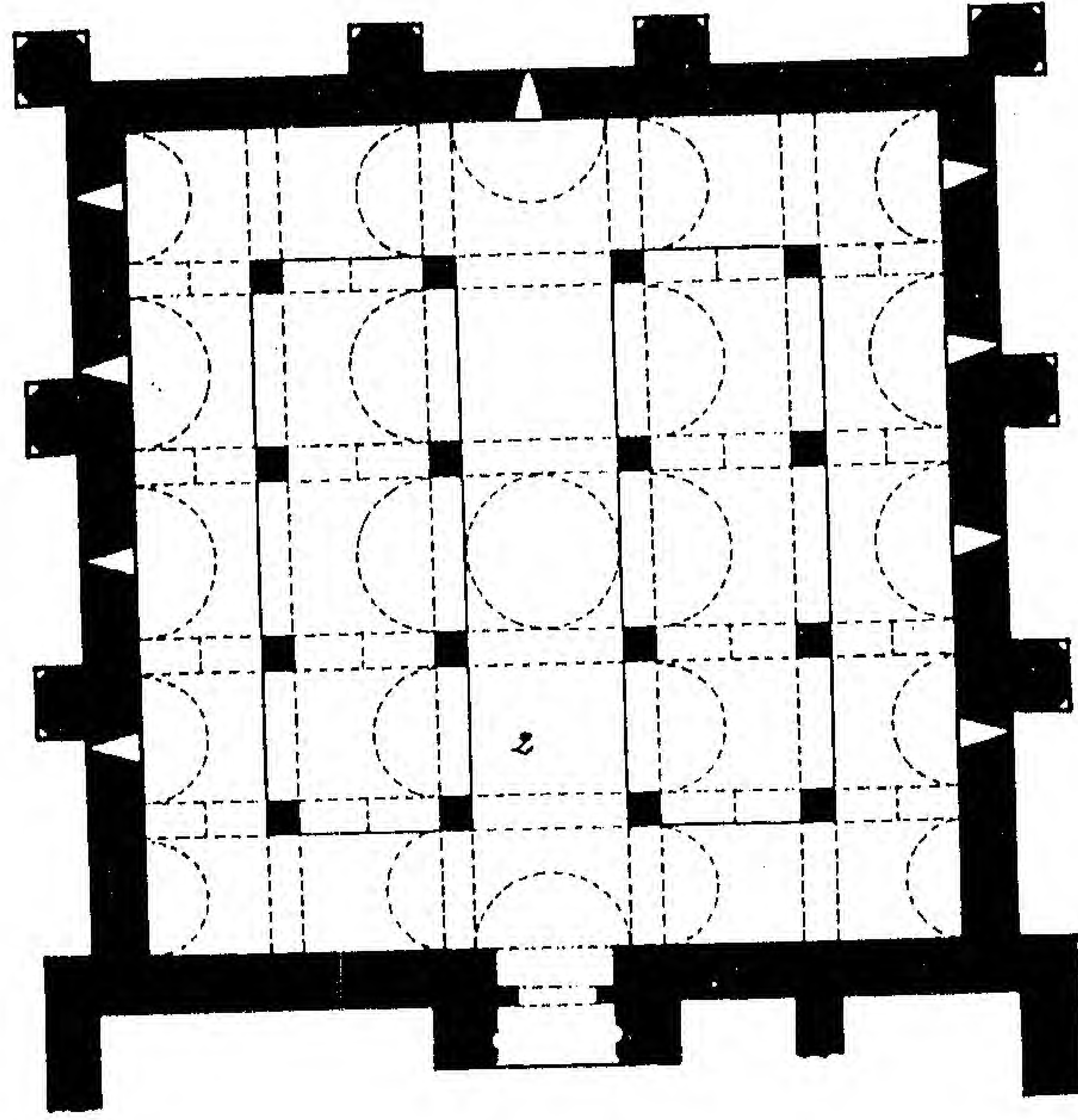
Ufficio Cartografico

شكل 76 : إصبهان : الرّباط الشريف



شكل 77 : الخانات المحصّنة



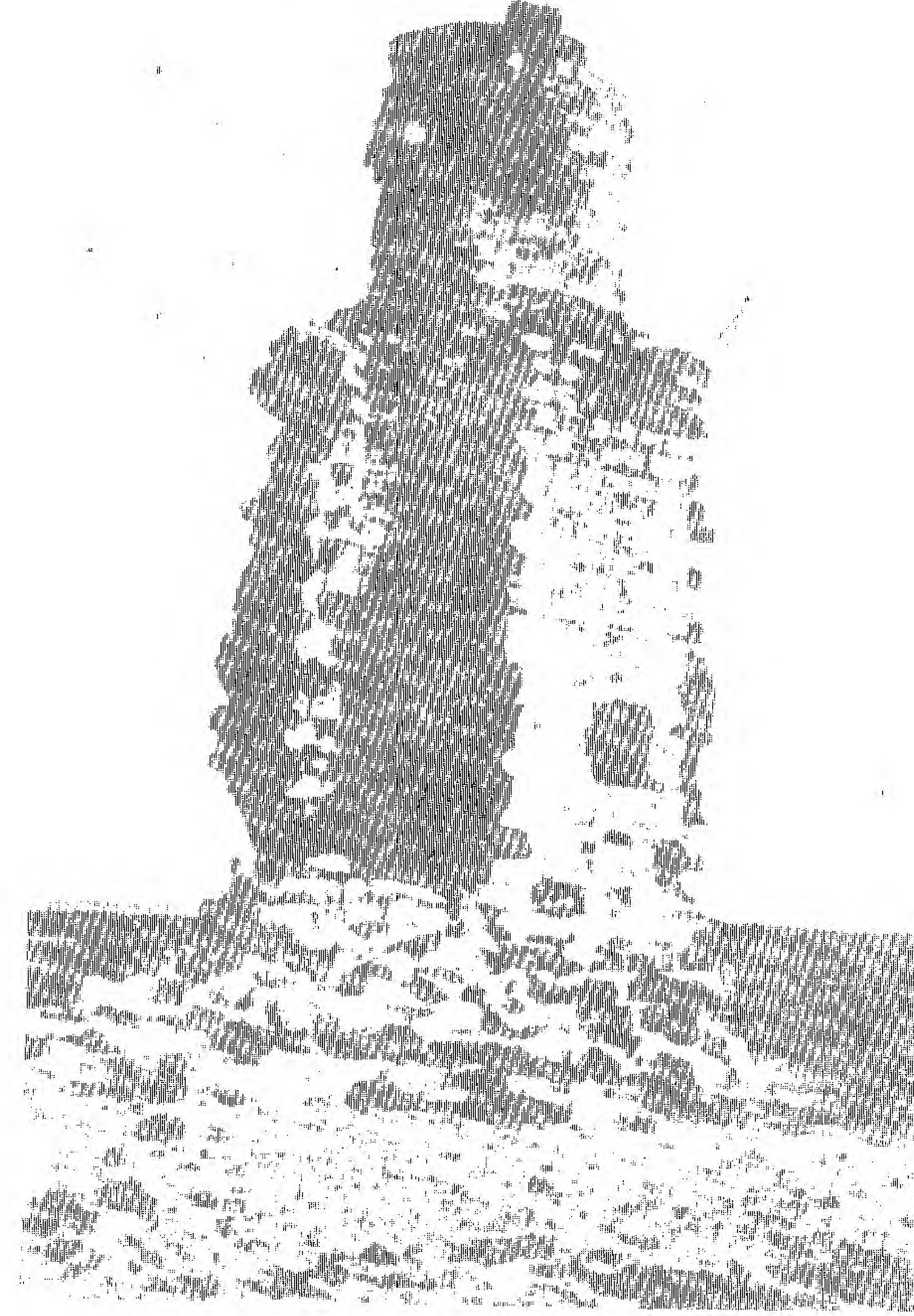


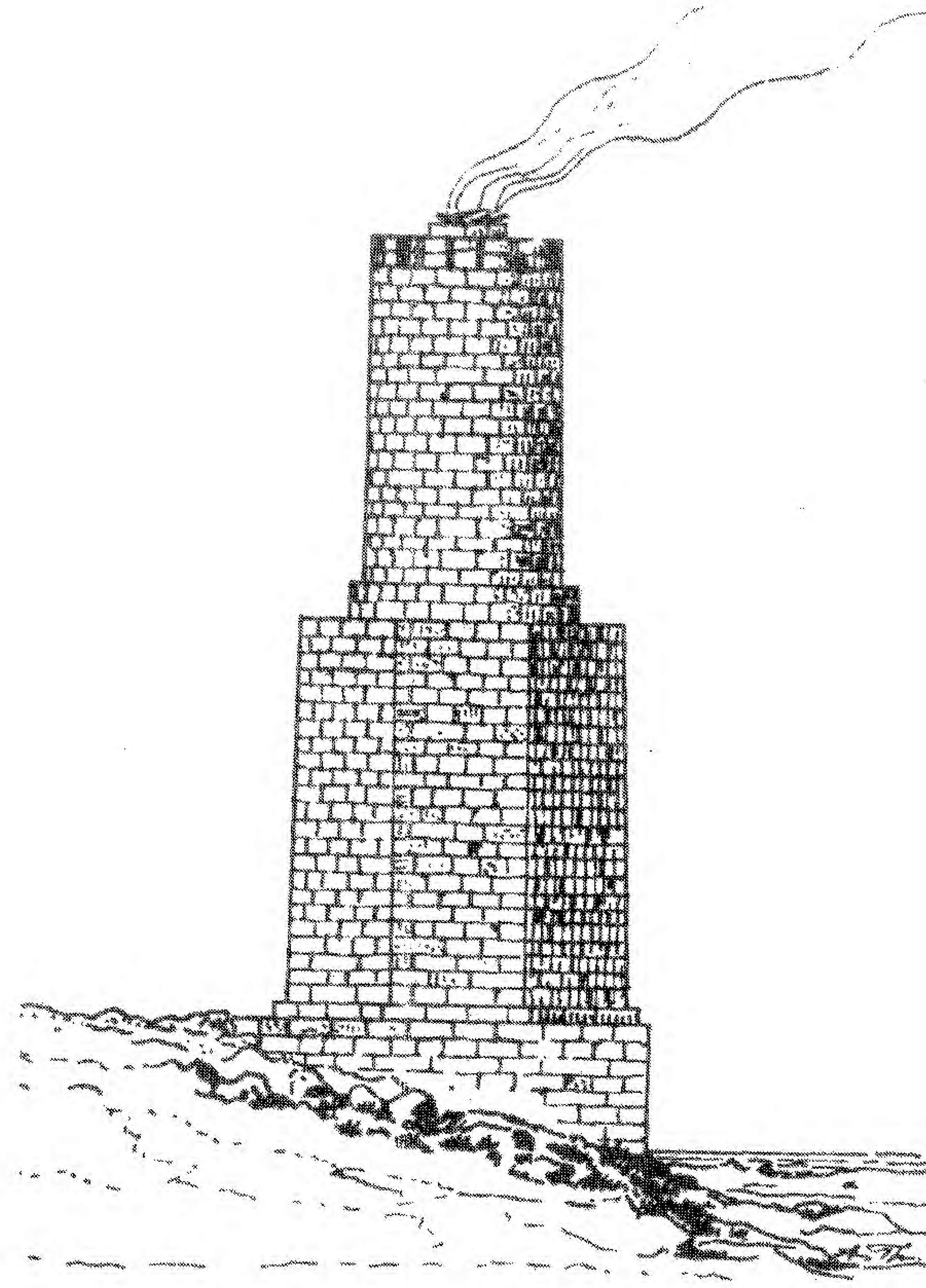
1 ـ قيصريّة سلطان خان (1232 ـ 1236)

2 ـ بردور (الأناضول) : سوزوس خان

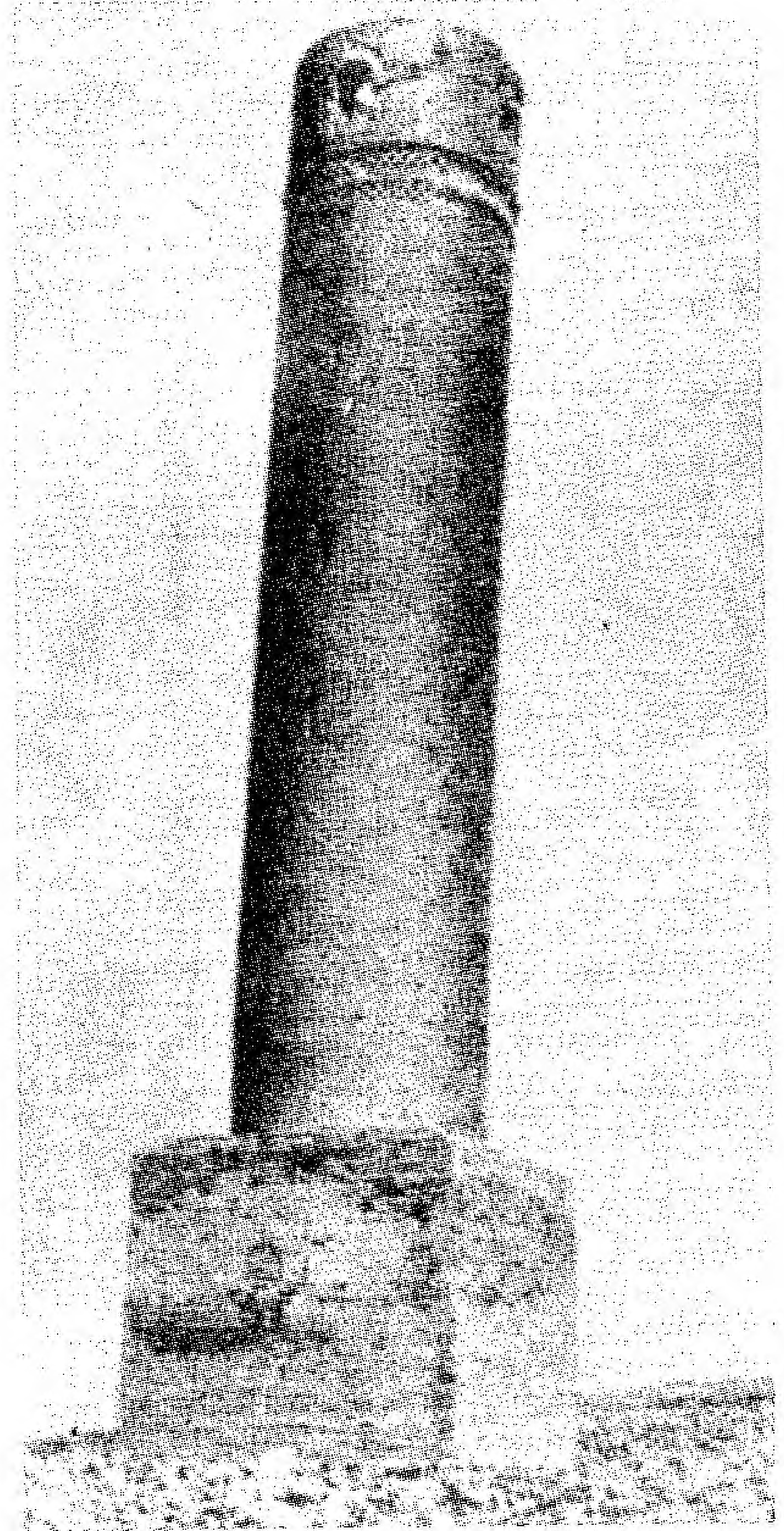
اللوحات

لوحة 1 : برج العرب

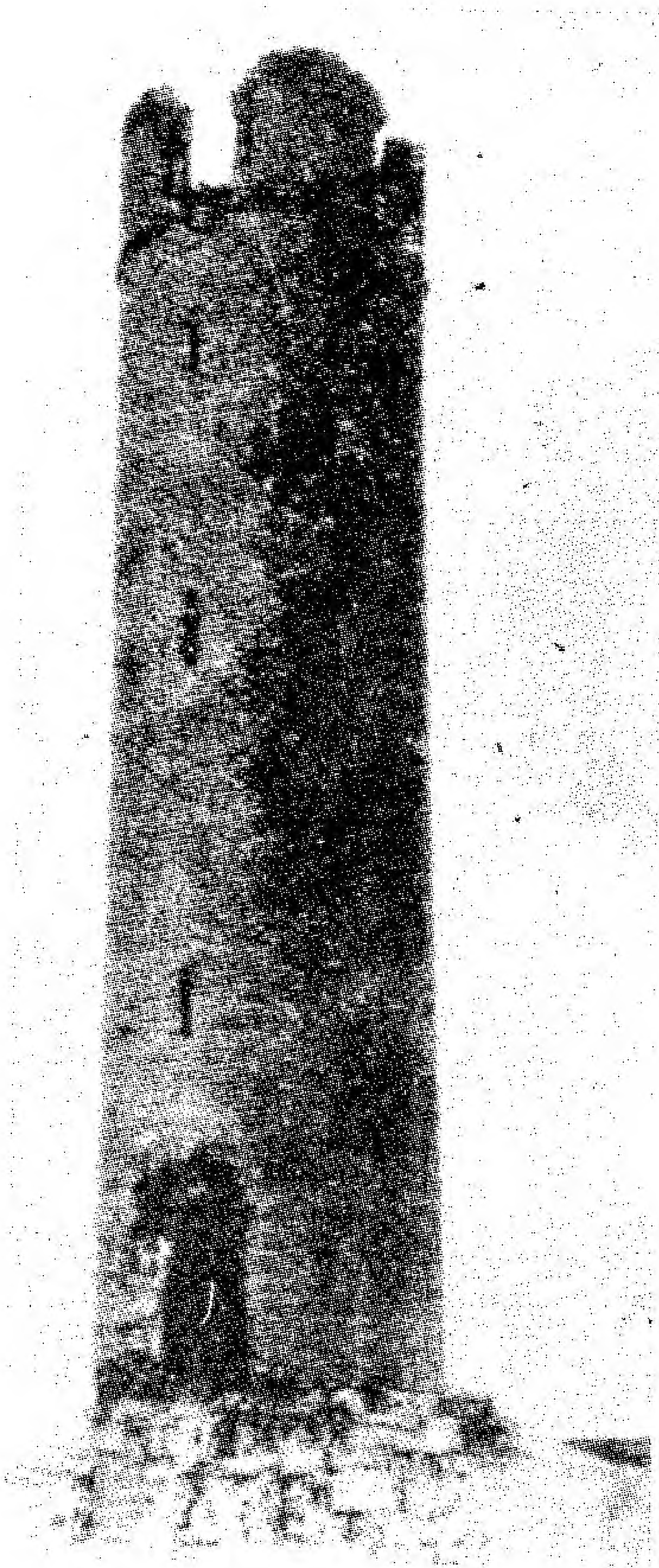




لوحة 2 : قلعة جعبر والرقّة

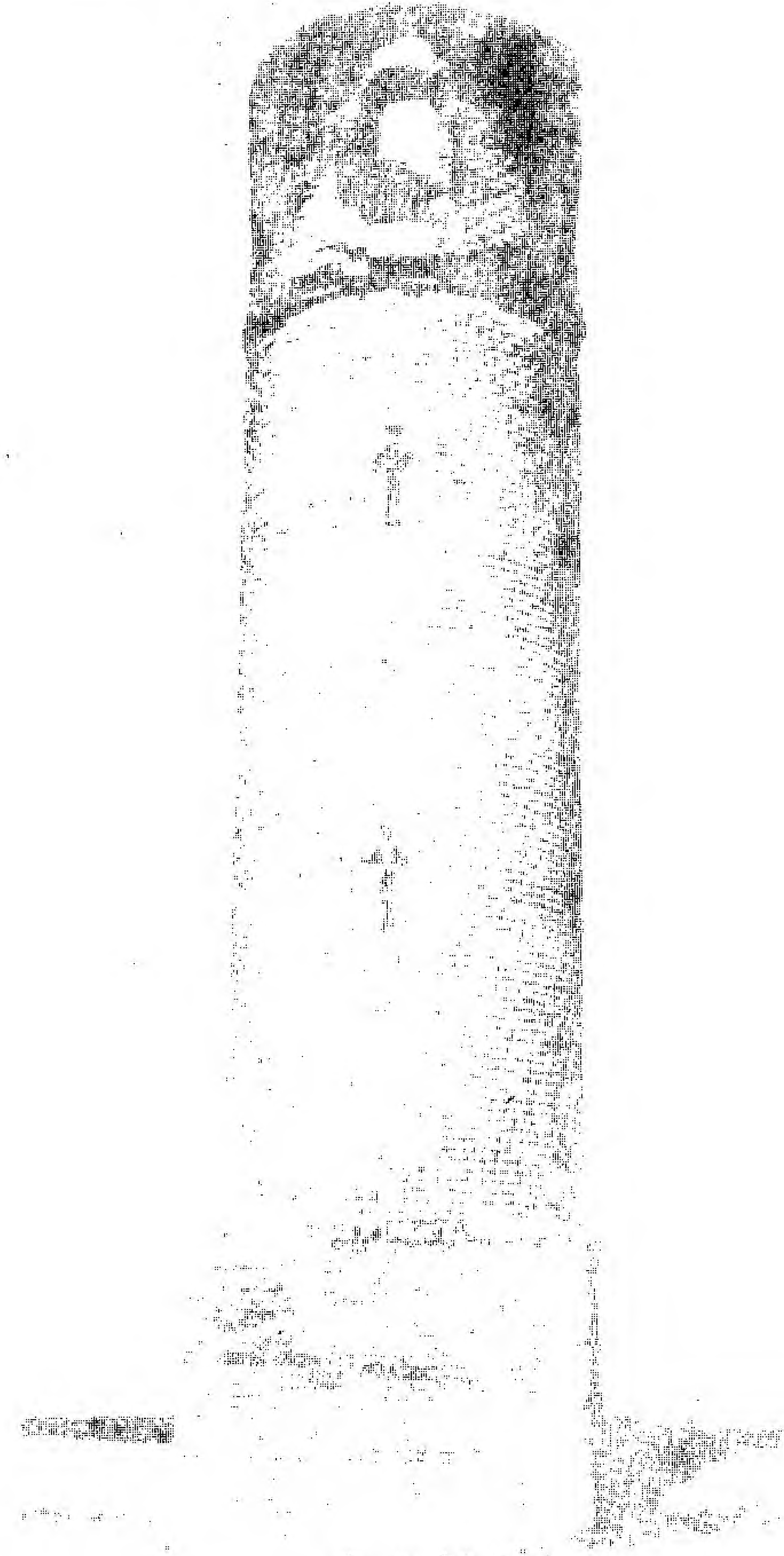


منارة قلعة جعبر



مأذنة جامع الرقّة

لوحة 3 : المشهد البحري بأسوان ومنارة أبي هريرة



منارة أبي هريرة



منارة المشهد البحري

لوحة 4 : دزلة (سيدي مشرق)

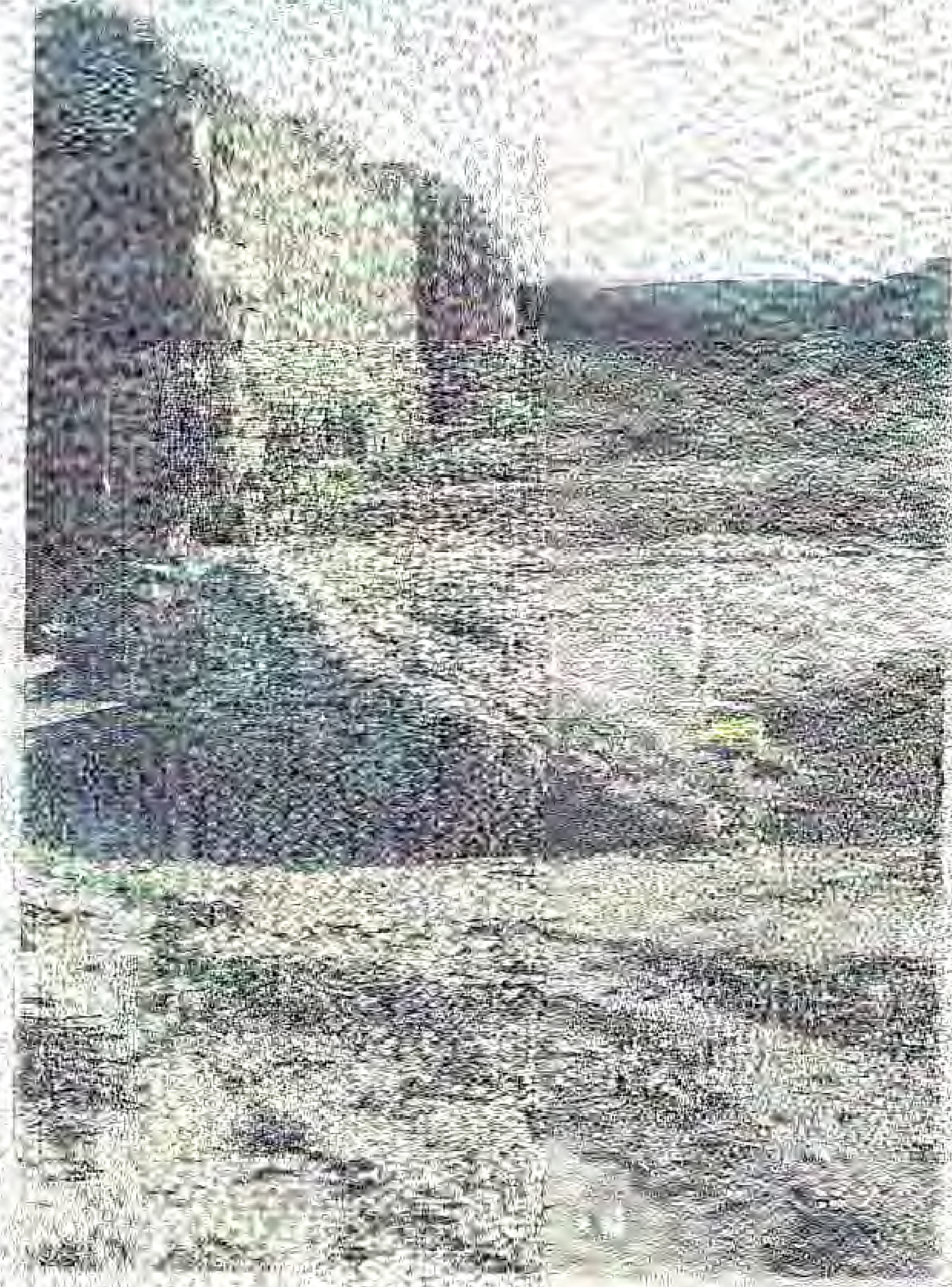


أ - مدخل القصر

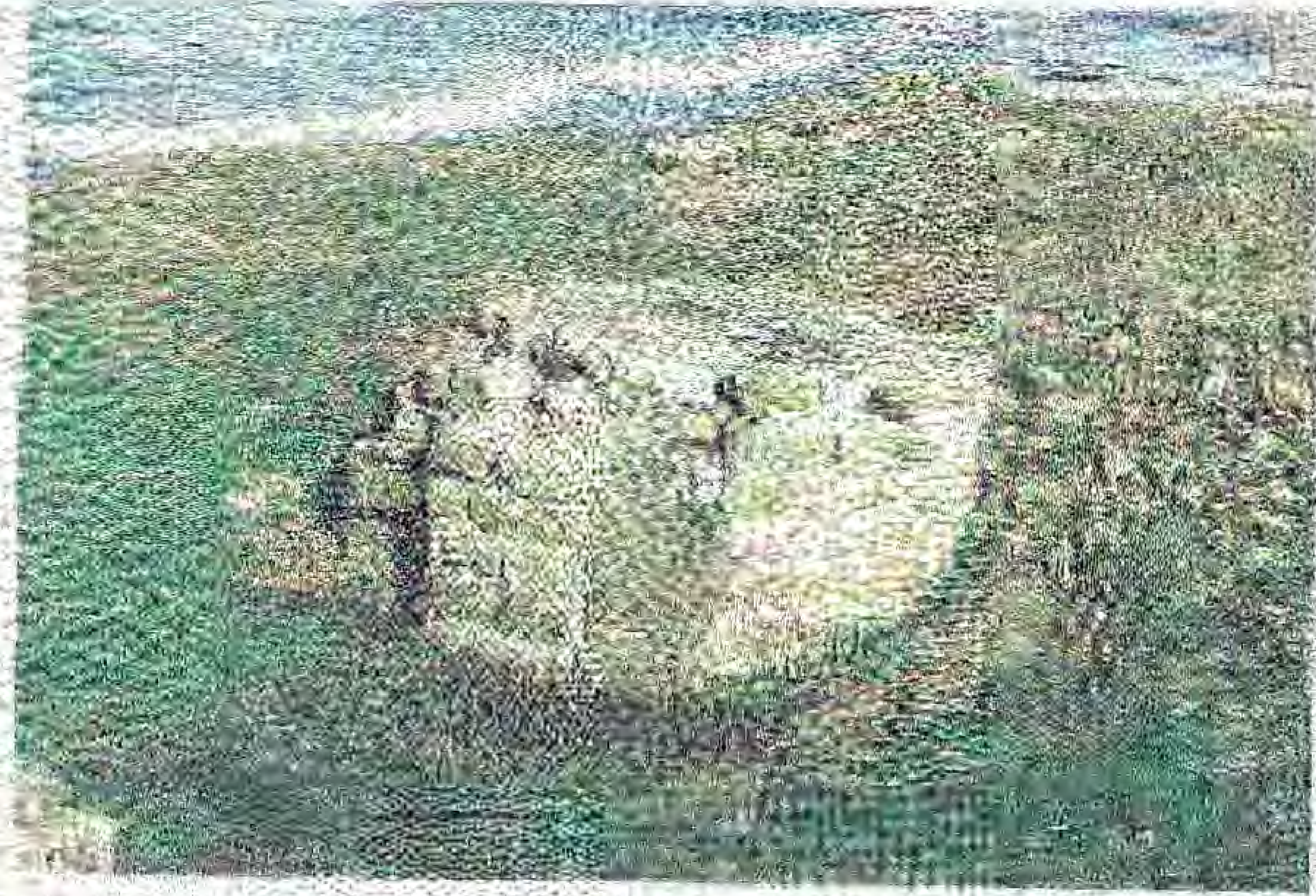


ب - بقايا الطرف الغربي

لوحة 5 : درنة (سيدي مشرق)



القصر : [illegible]



القصر : الواجهة [illegible]

لوحة 6 : برج قليبية



منظر عام

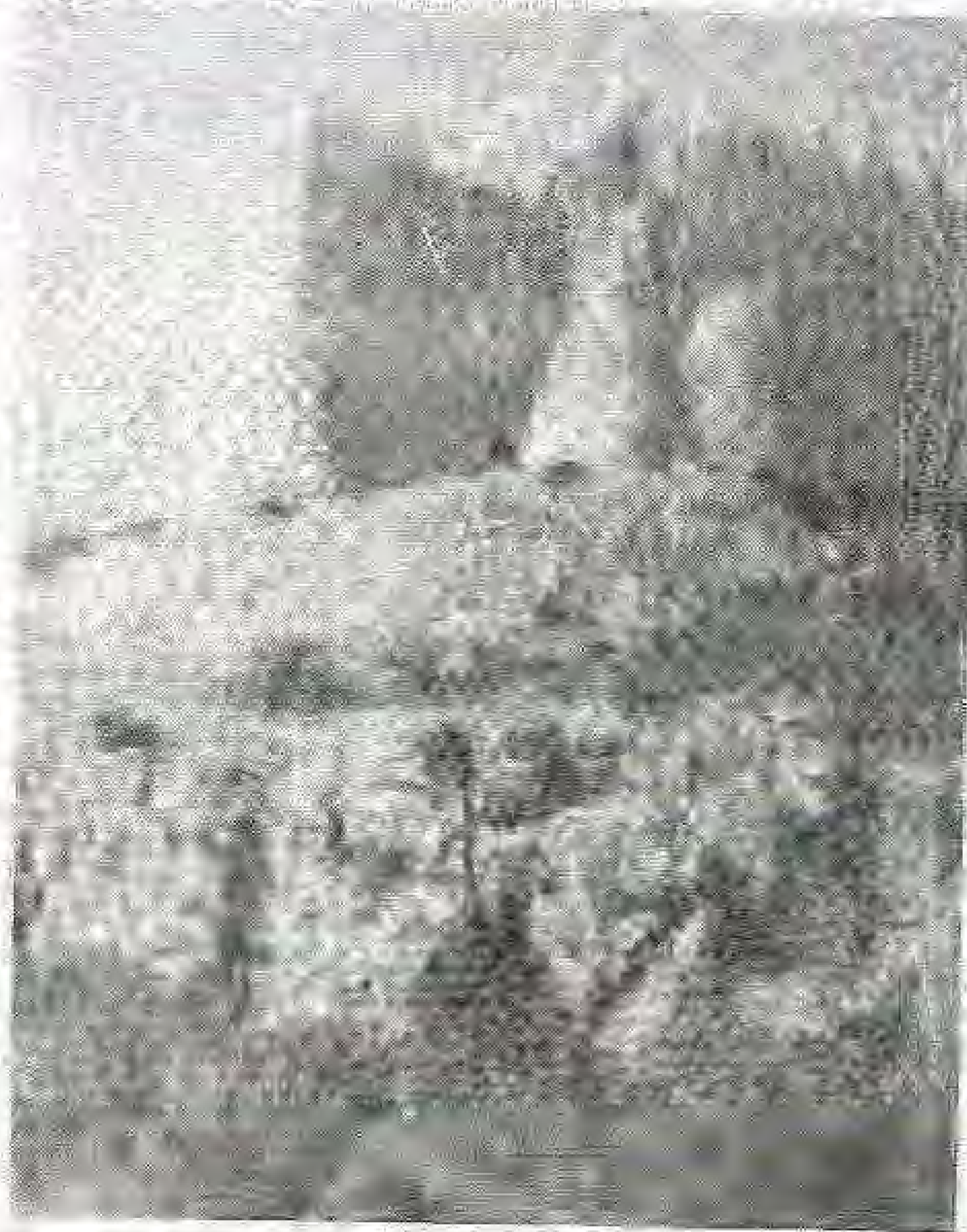


السور الخارجي

لوحة 7 : برج قليبية



المدخل الحالي

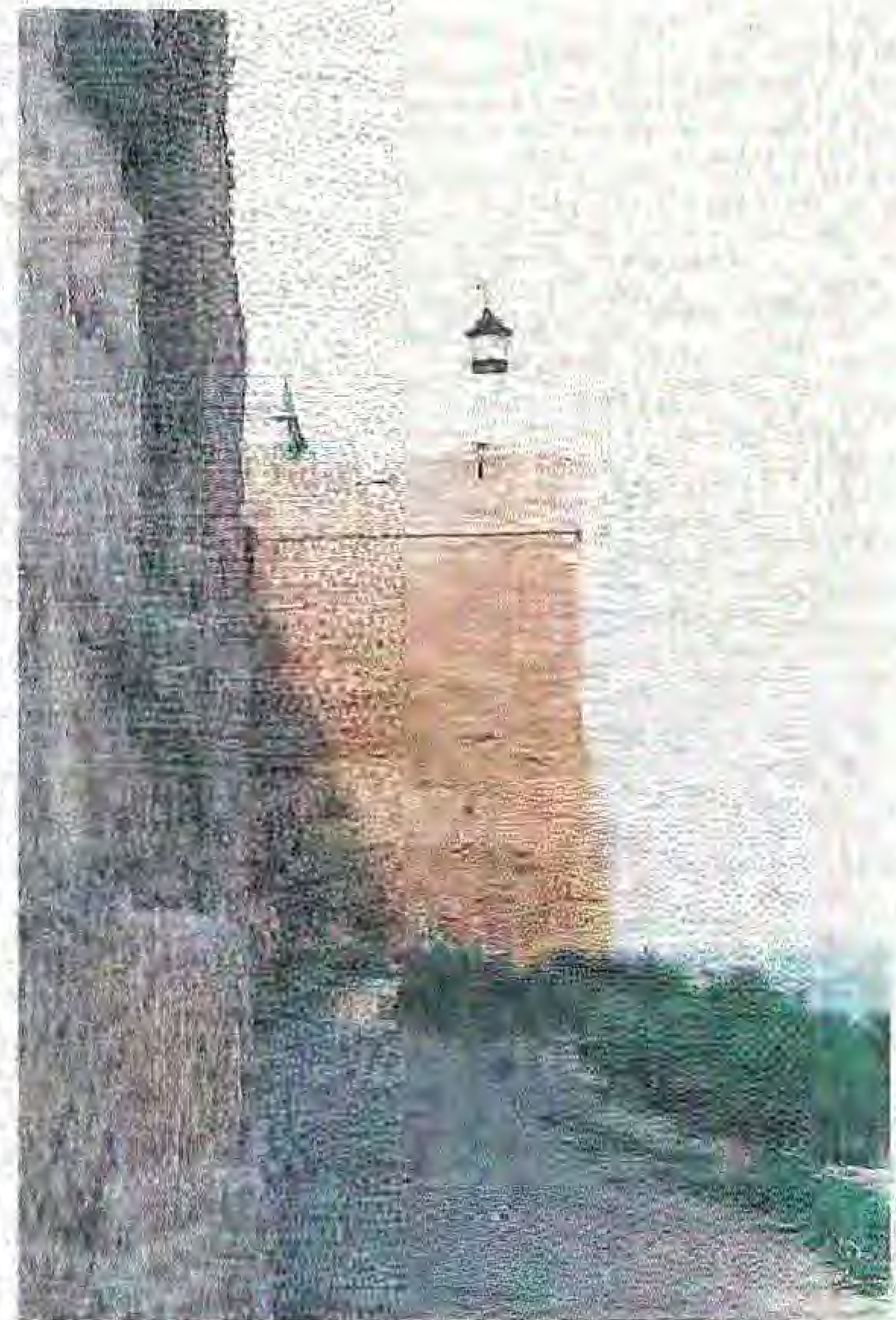


برج

لوحة 8 : برج قليبية



المدخل القديم



برج

لوحة 9 : الهوارية وقصر الزّيت



الهوّارية - سيدي بو الرّباط



بقايا قصر الزيت

لوحة 10 : سيدي داود



آثار توبة



بقايا الميناء



بقايا دار الصناعة

لوحة 11 : النوبة (سيدي داود)

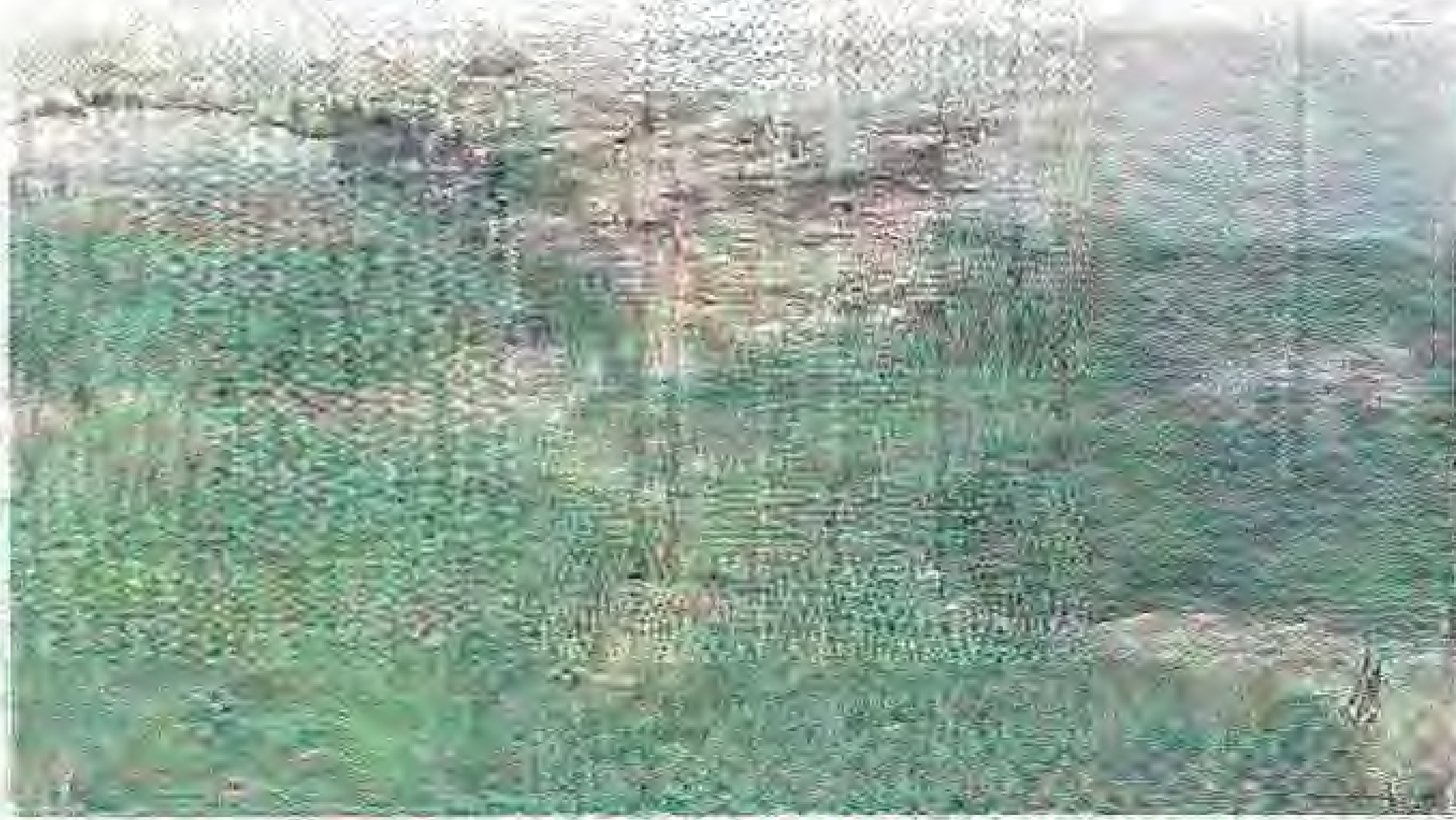


مصيدة



مصيدة

لوحة 12 : قصر لبنة وقصر سعد



قصر لبنة : منظر عام



قصر لبنة : قبو



قصر سعد : برج

لوحة 12 ب : قصر سعد



منظر عام

لوحة 12 ت : قصر سعد



خرائب الرّباط

لوحة 12 ج : القرشين



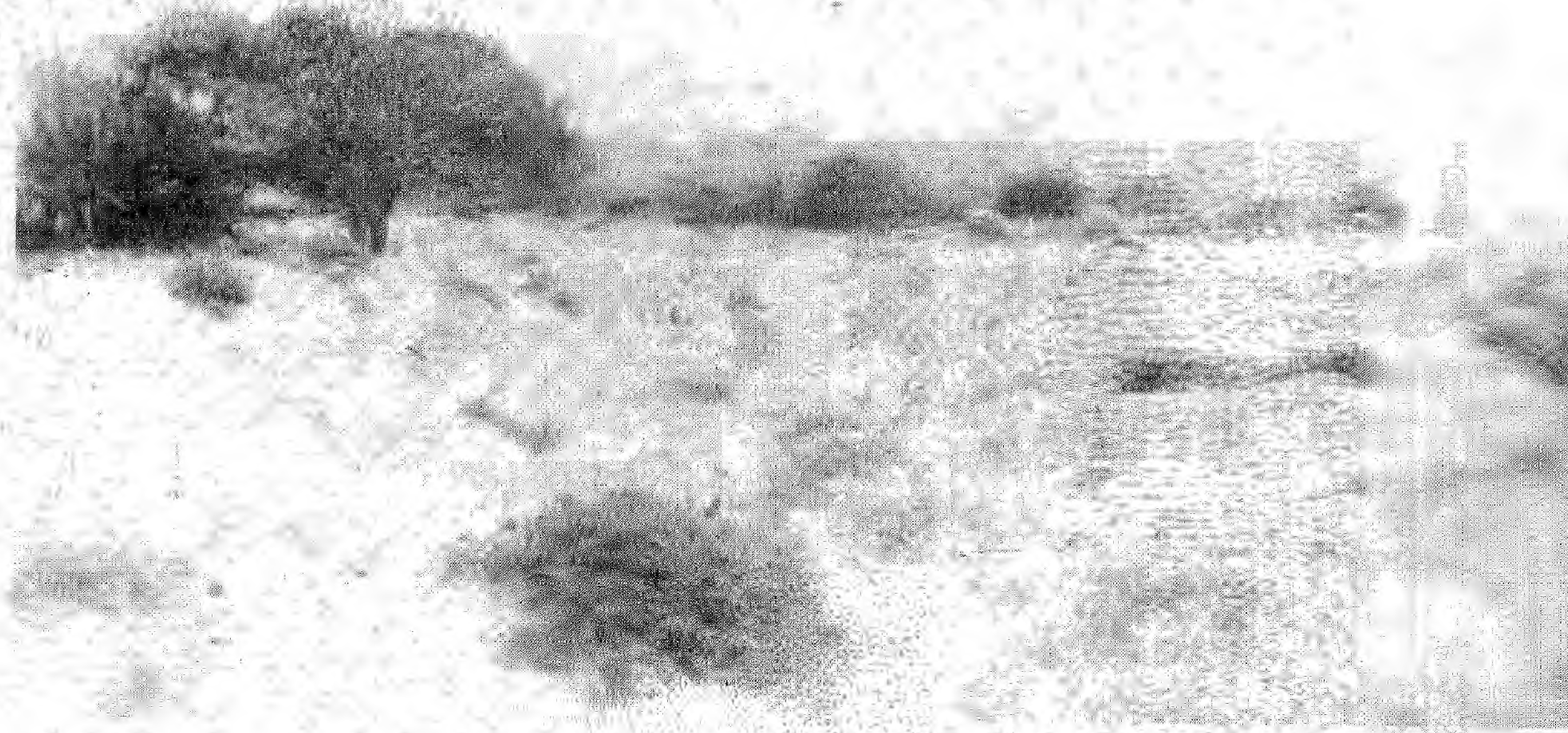
قلعة بيزنطية أعيد استعمالها في العصر الوسيط

لوحة 12 د : سليمان



قلعة سيدي الجهمي (ق 18 . 19 م)

لوحة 13 : قصر الحمامات

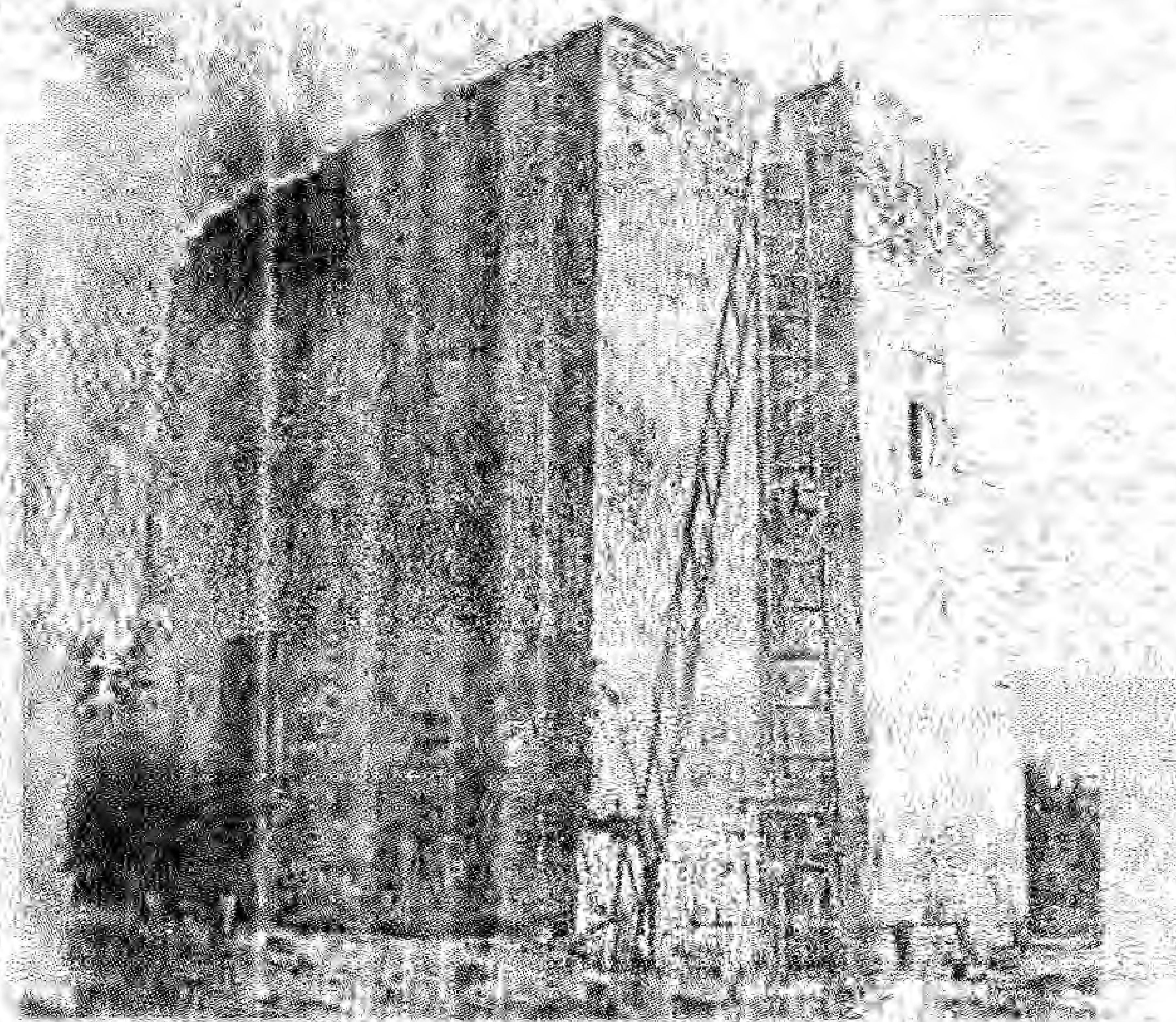


المصدر : المتحف الوطني بباردو

لوحة 14 الحمامات وسيدي هلال

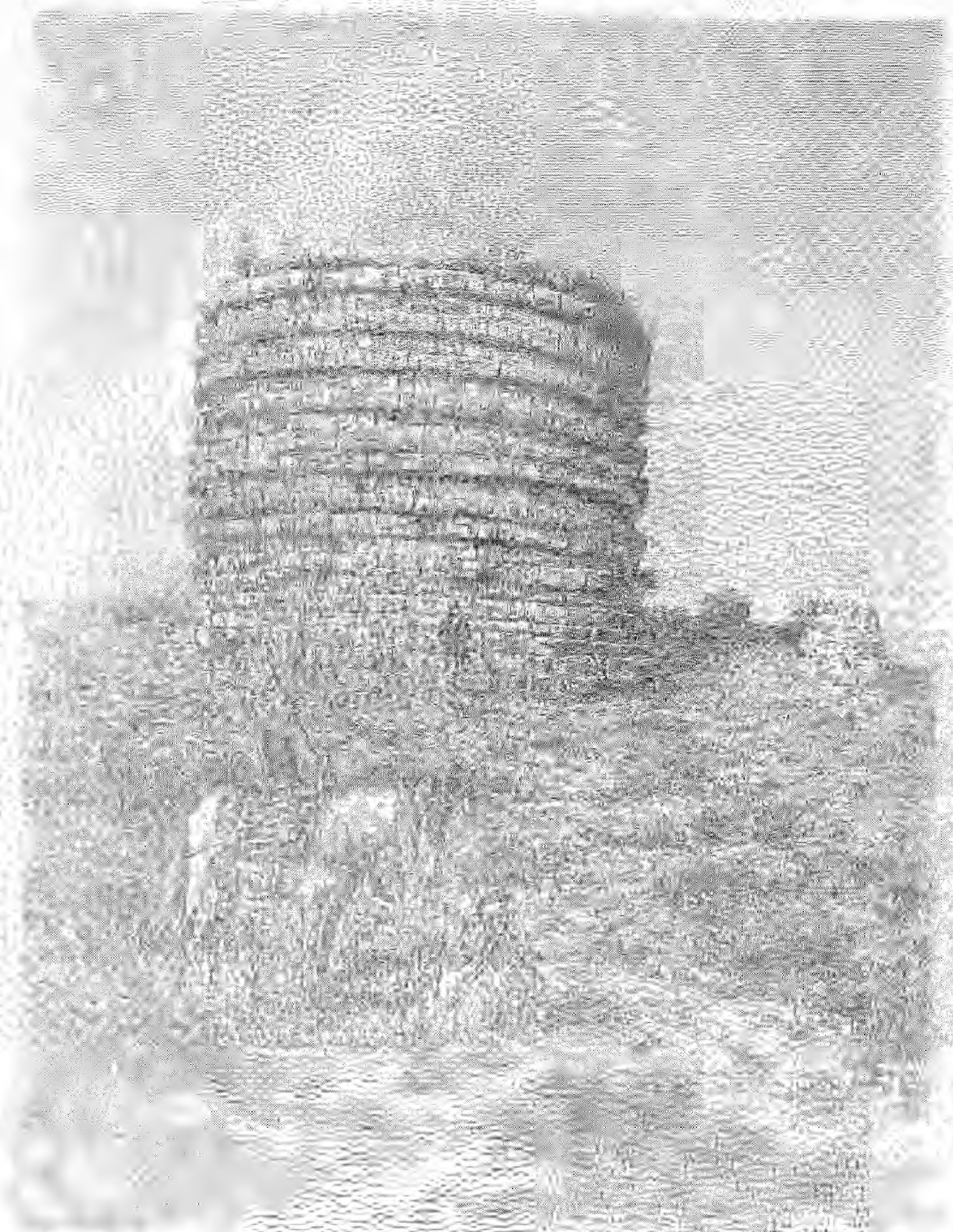


الحمامات في منتصف القرن



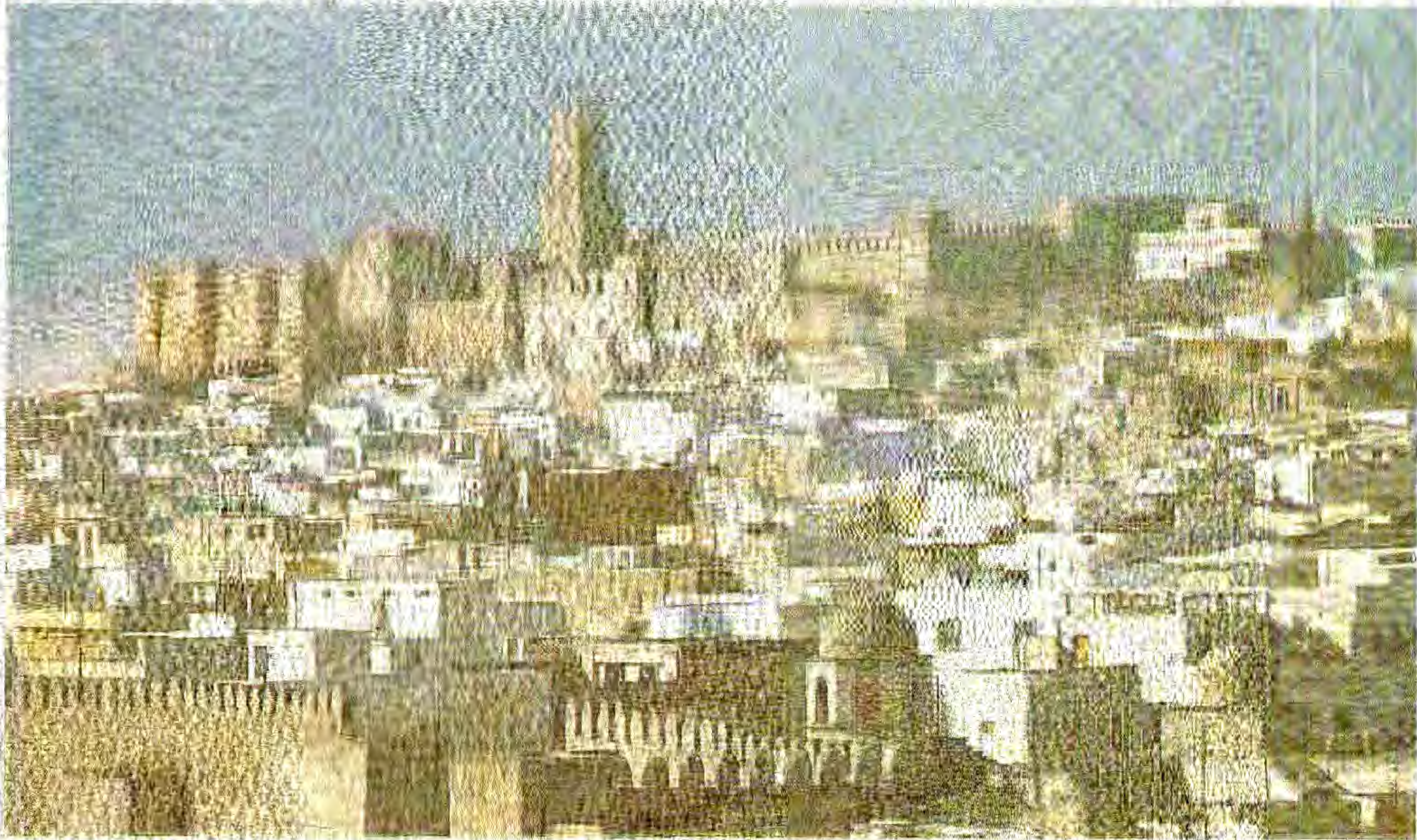
سيدي هلال

لوحة 15 : قصر المنار (بوفيشة)

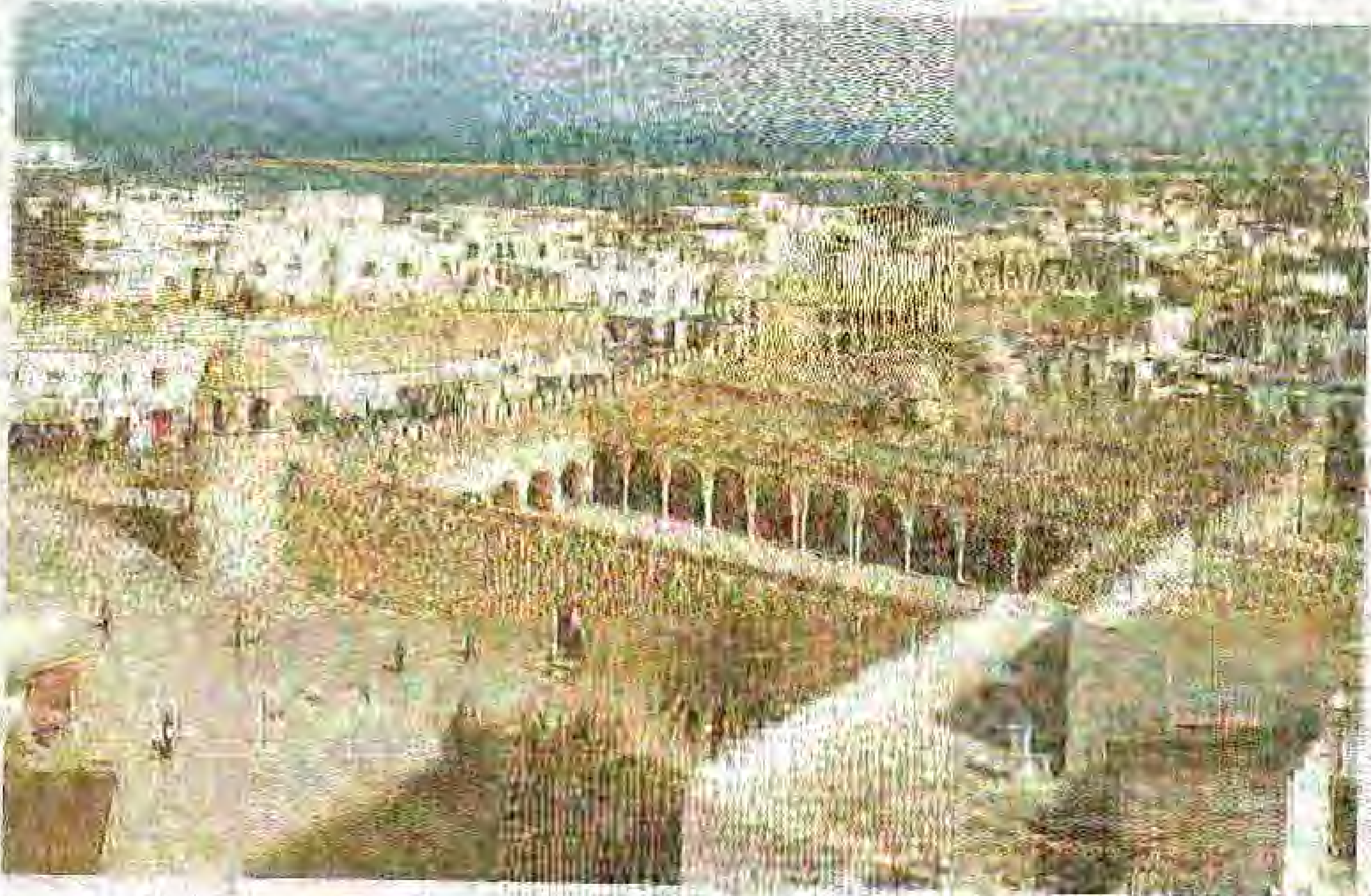


البرج في القرن 19 م هـ. صلدان

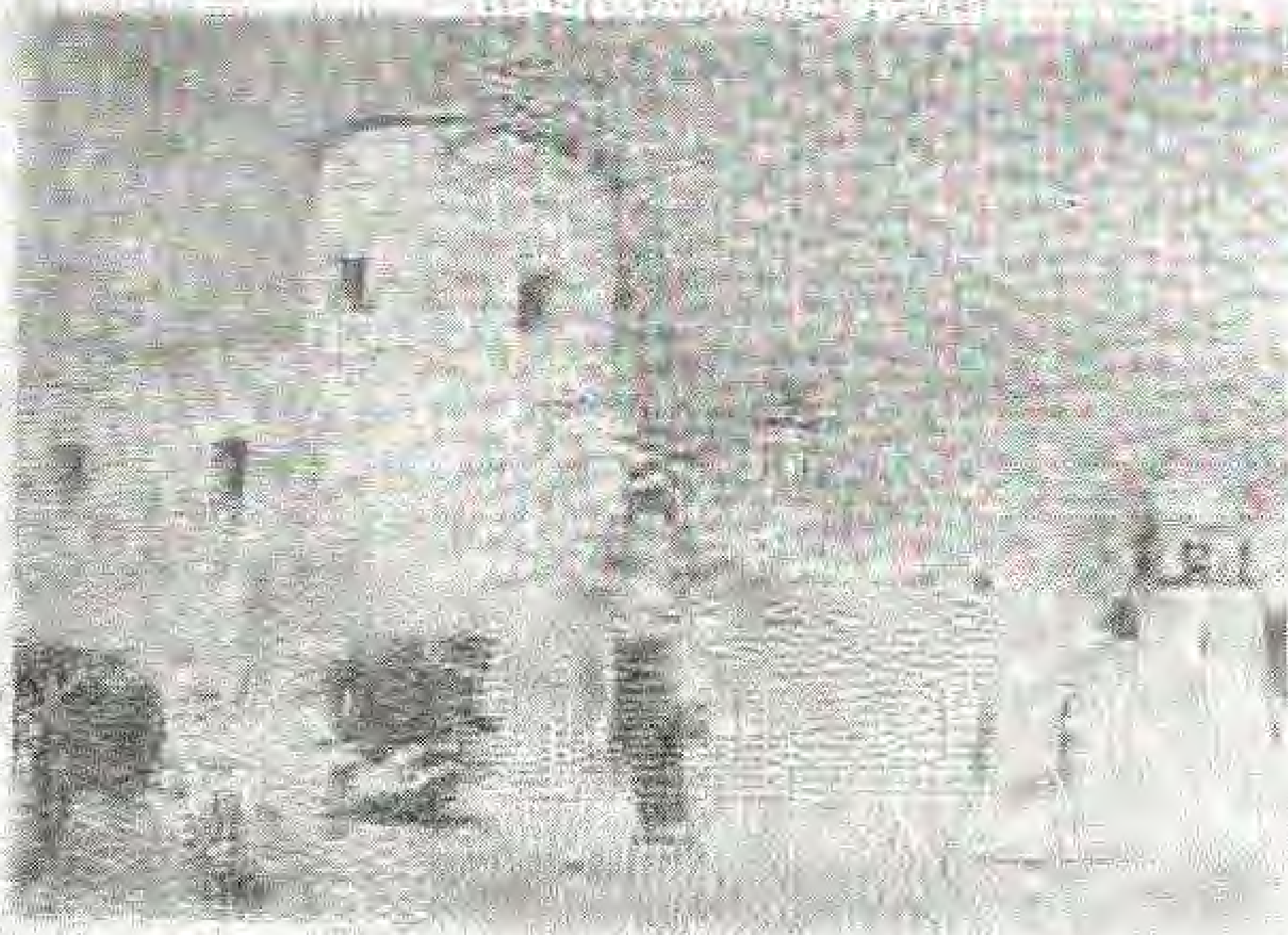
لوحة 16 : مدينة سوسة : منظر عام



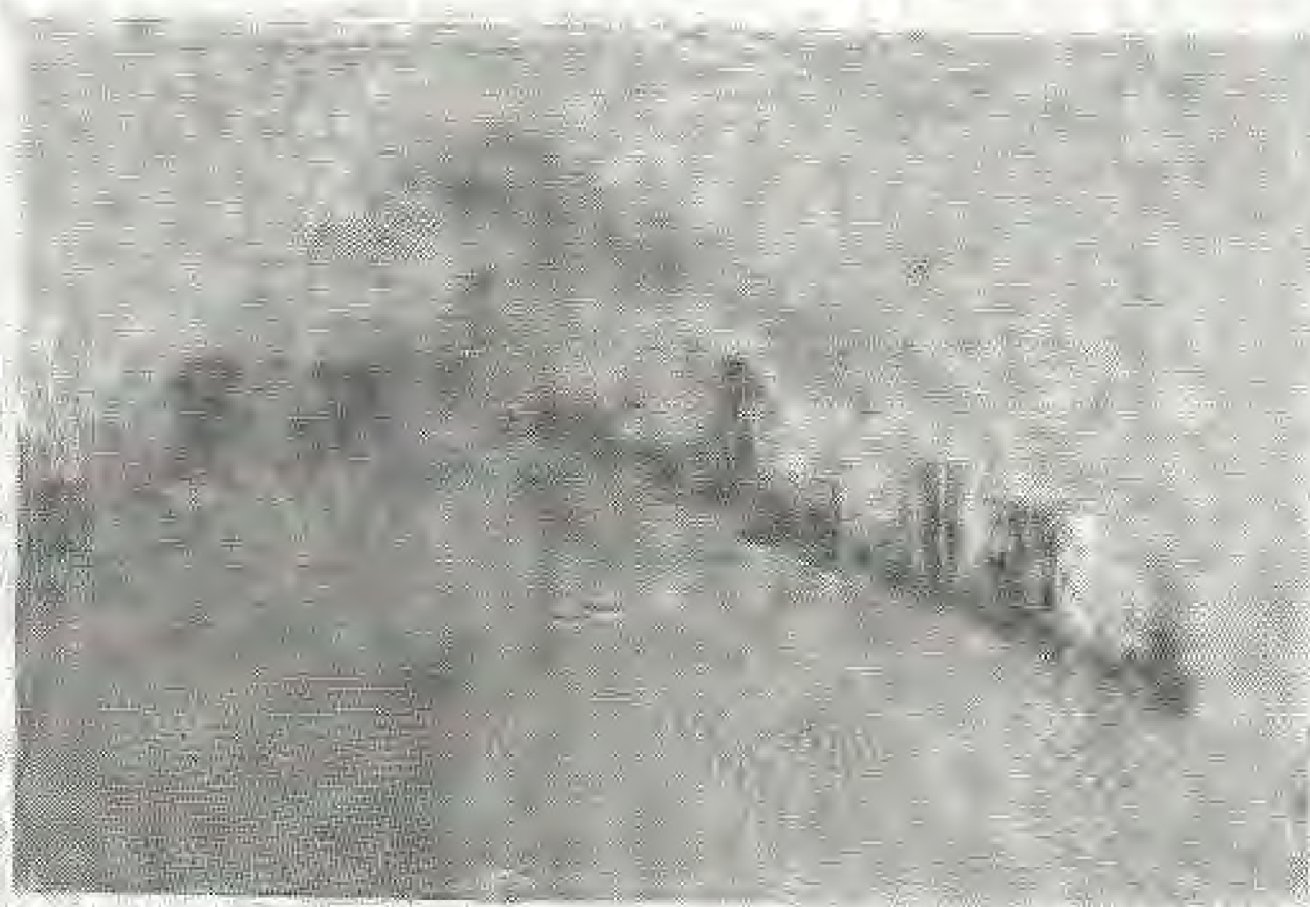
لوحة 17 : سوسة



الجامع المحصن

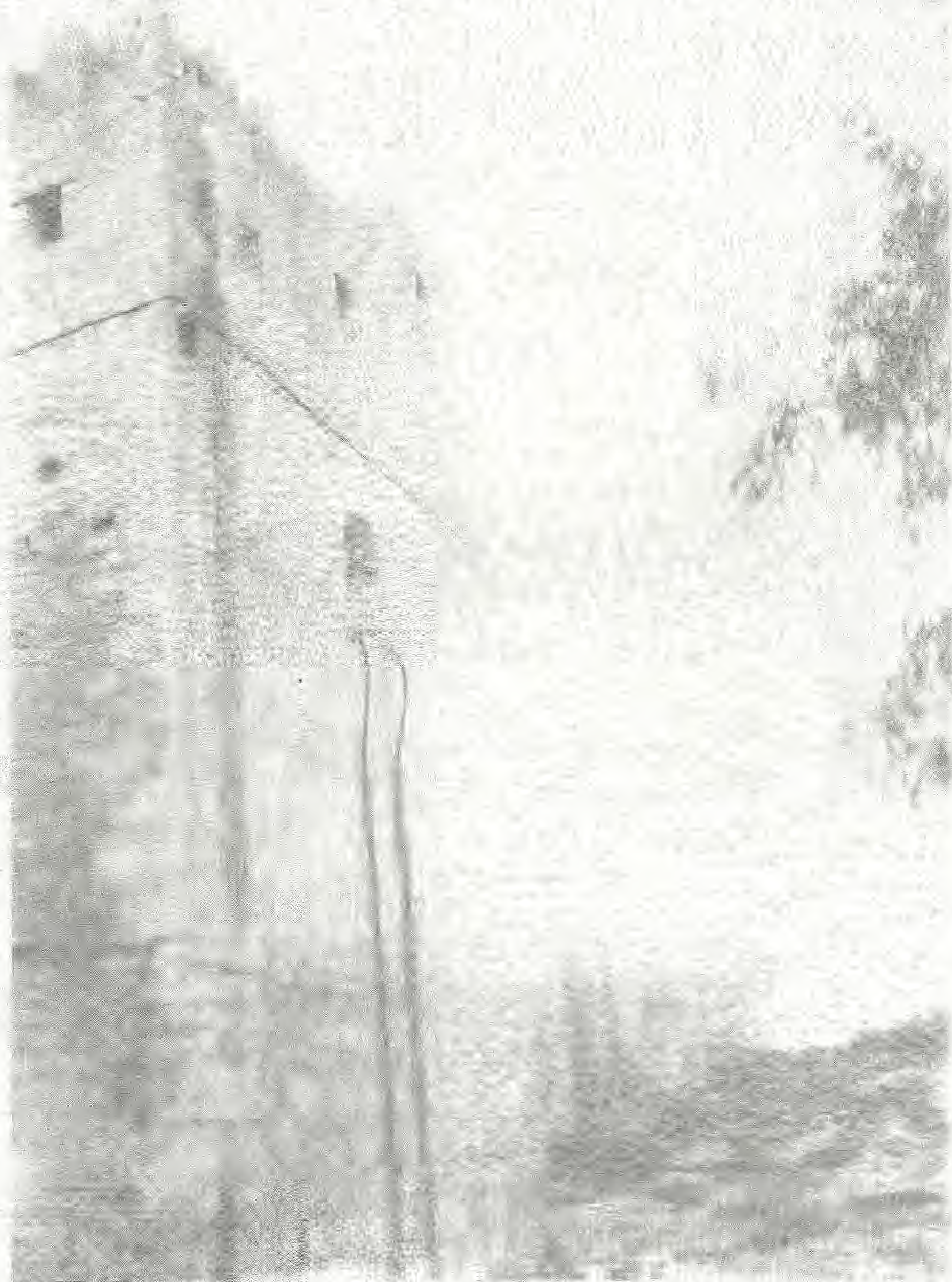


واجهة الجامع



نقيشة السور

لوحة 18 : سور سوسة



المصدر : المتحف الوطني بباردو

لوحة 19 : سور سوسة



الواجهة الشمالية

المصدر : الوكالة القومية لاحياء التراث

لوحة 20 : سور سوسة



منار خلف

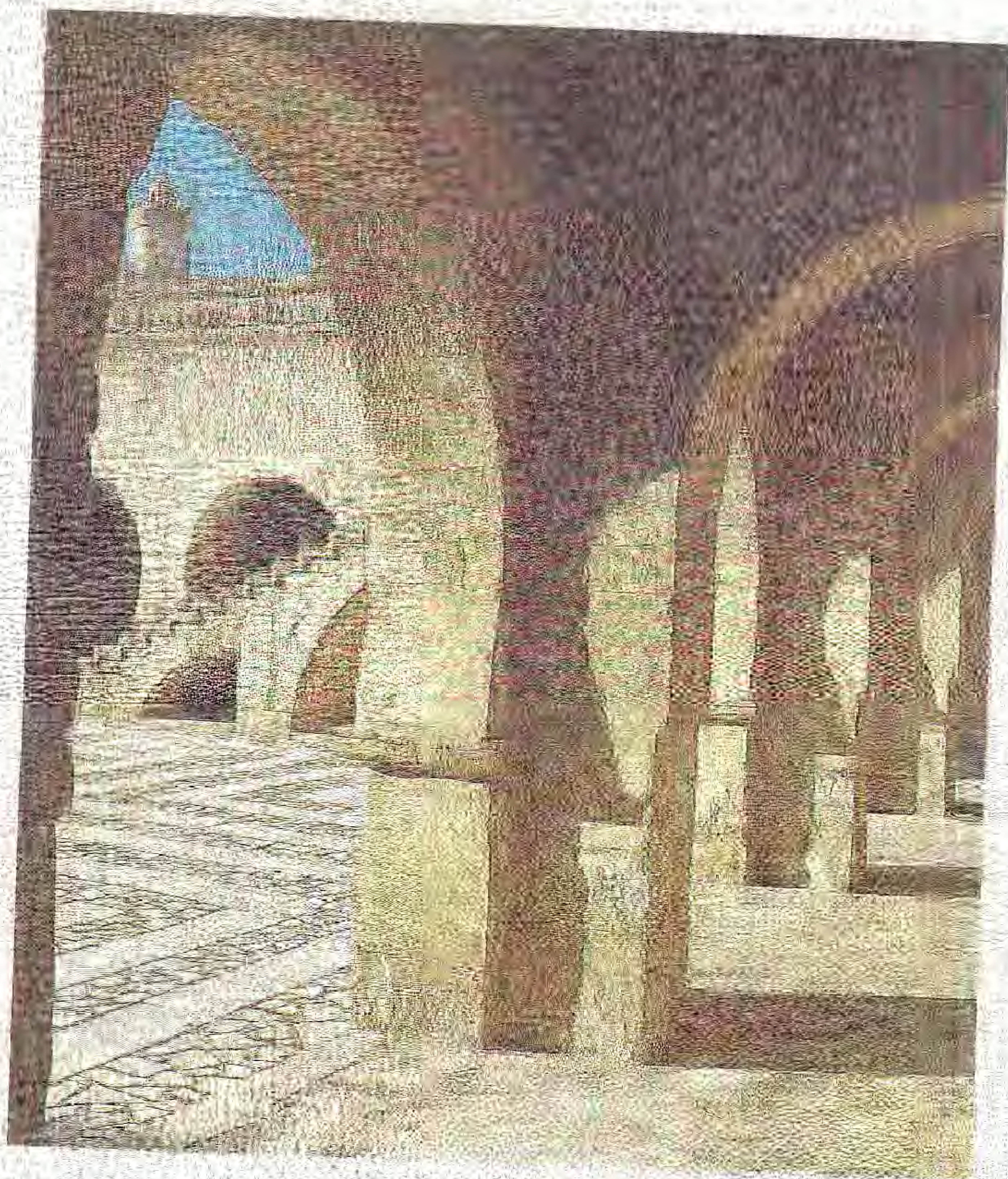


منظر داخلي



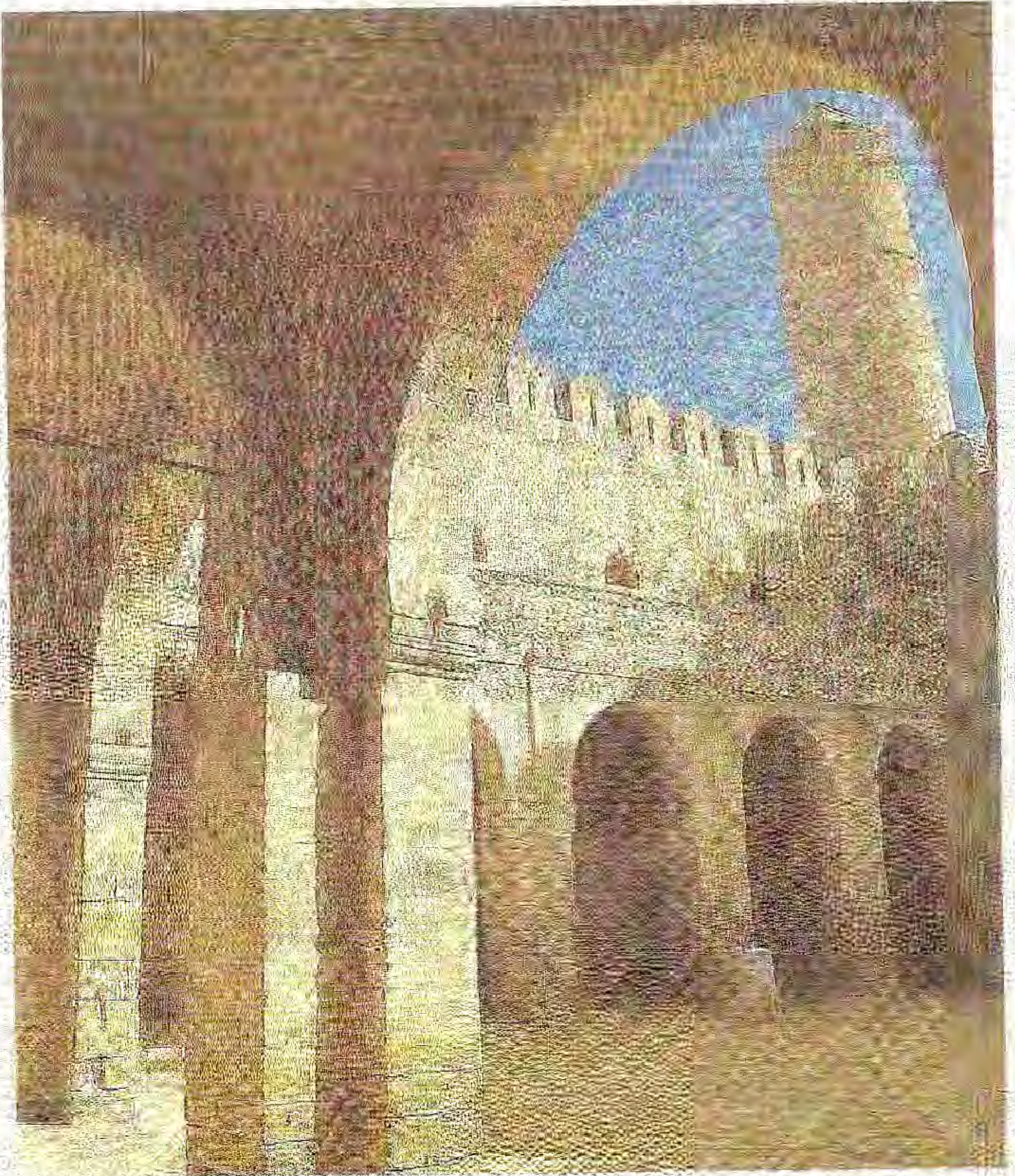
برج الشرش

لوحة 21 : سوسة : المسجد الجامع ومنار الرباط



المصدر : الوكالة القومية لإحياء التراث

لوحة 22 : رباط سوسة



منظر عام من الداخل

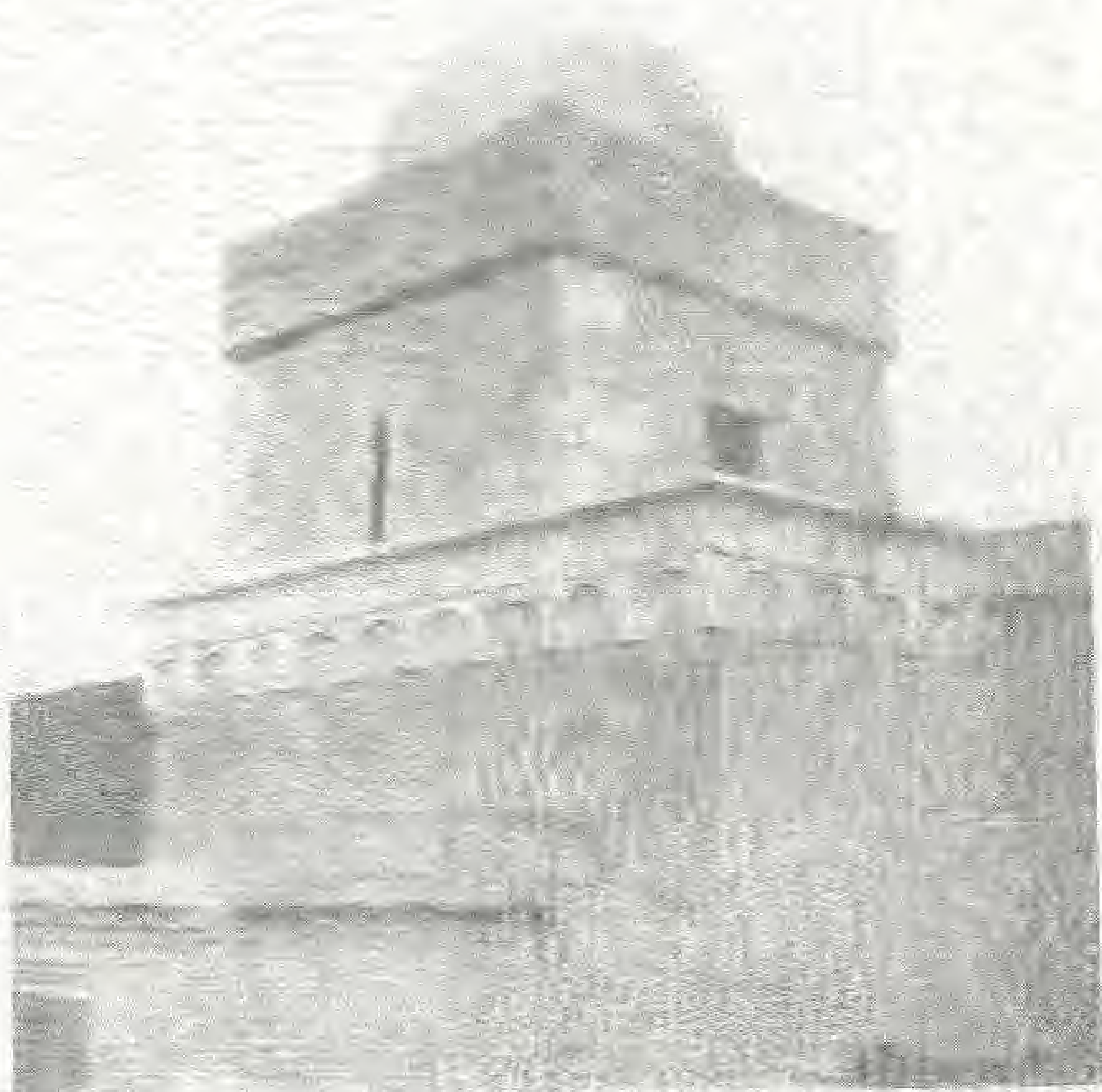
المصدر : الوكالة القومية لاحياء التراث

لوحة 23 : رباط سوسة

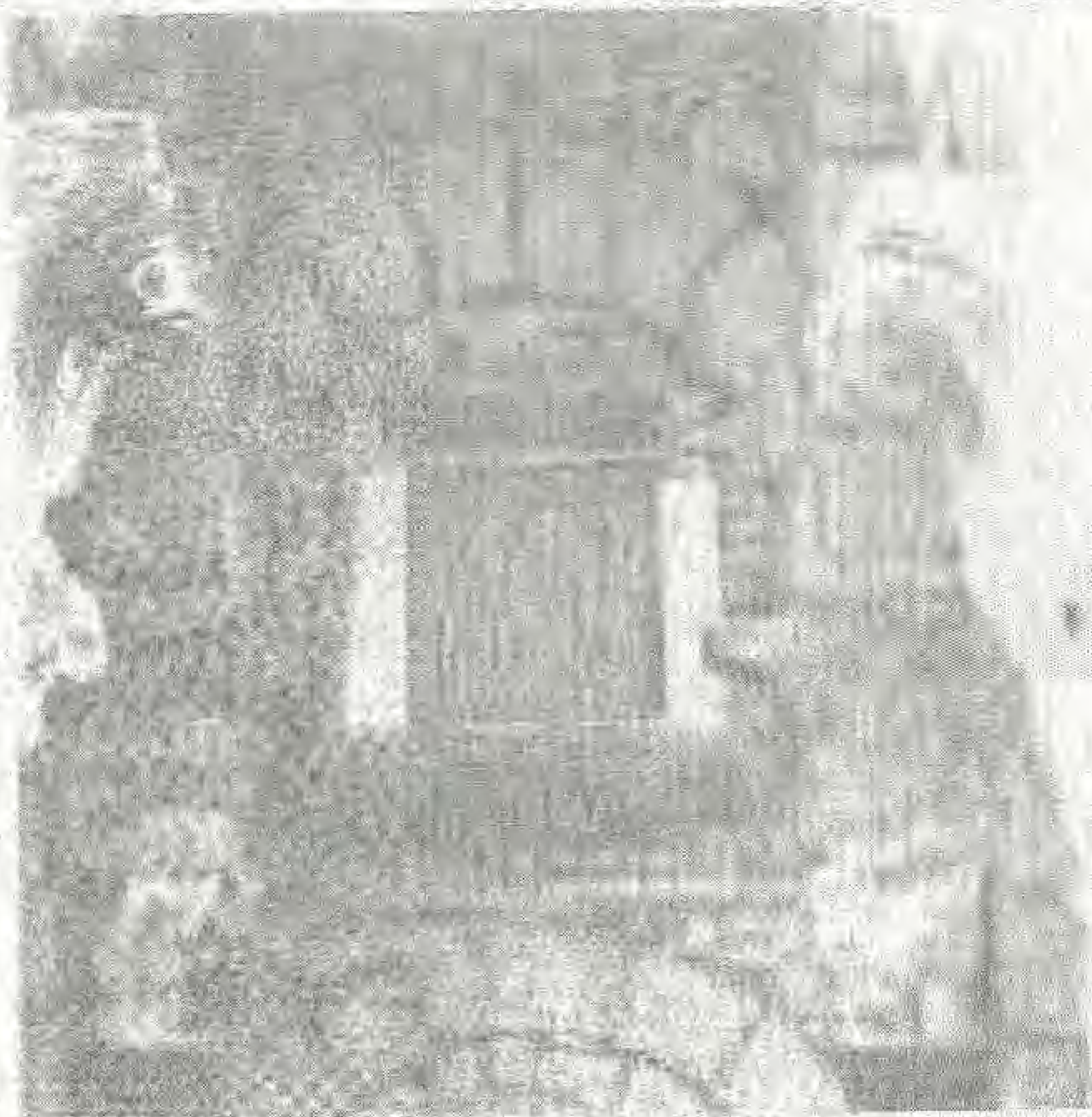


المدخل والمنار

لوحة 24 : رباط سوسة



قبة المدخل

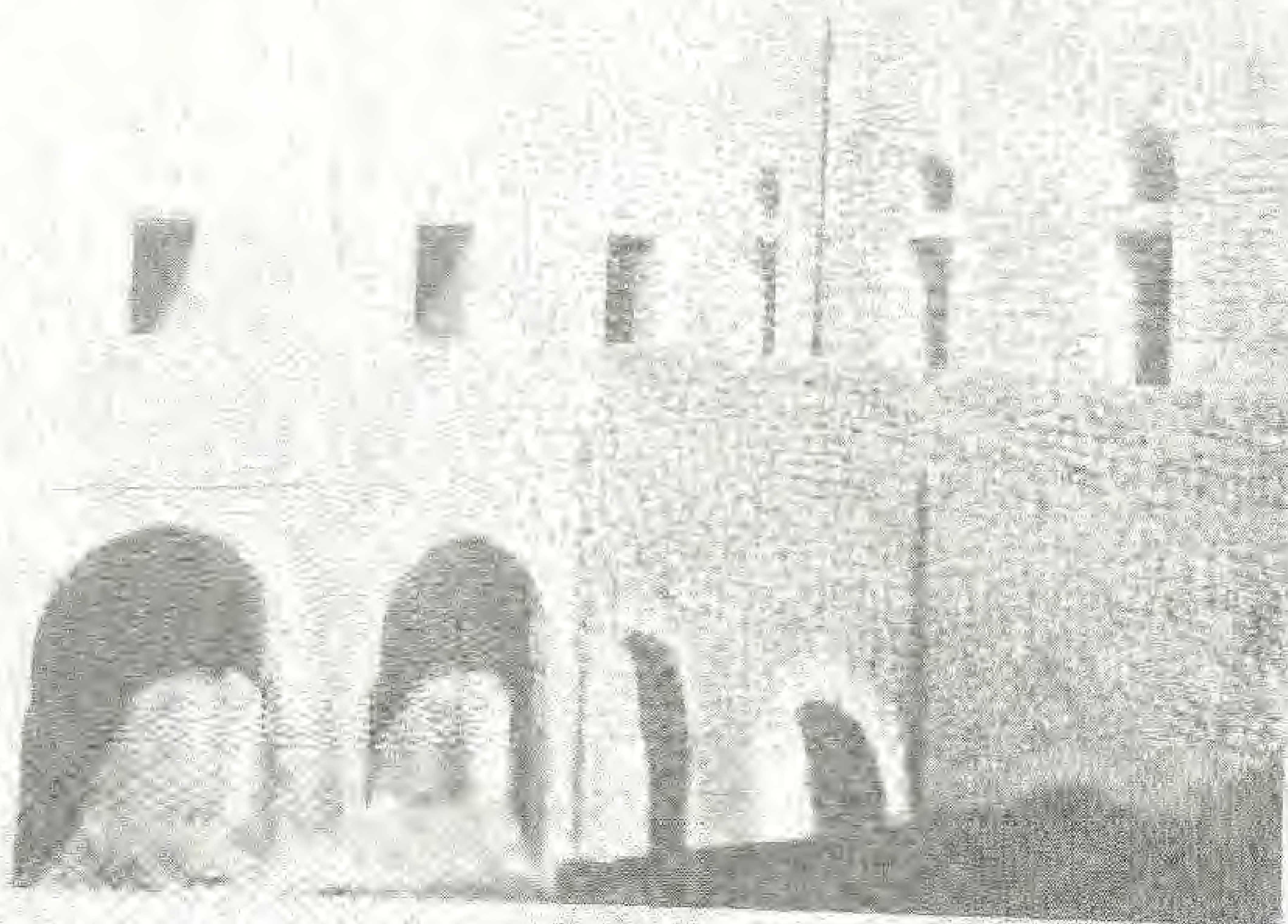


مكان اللوحة التذكارية العتيقة

لوحة 25 : رباط سوسة

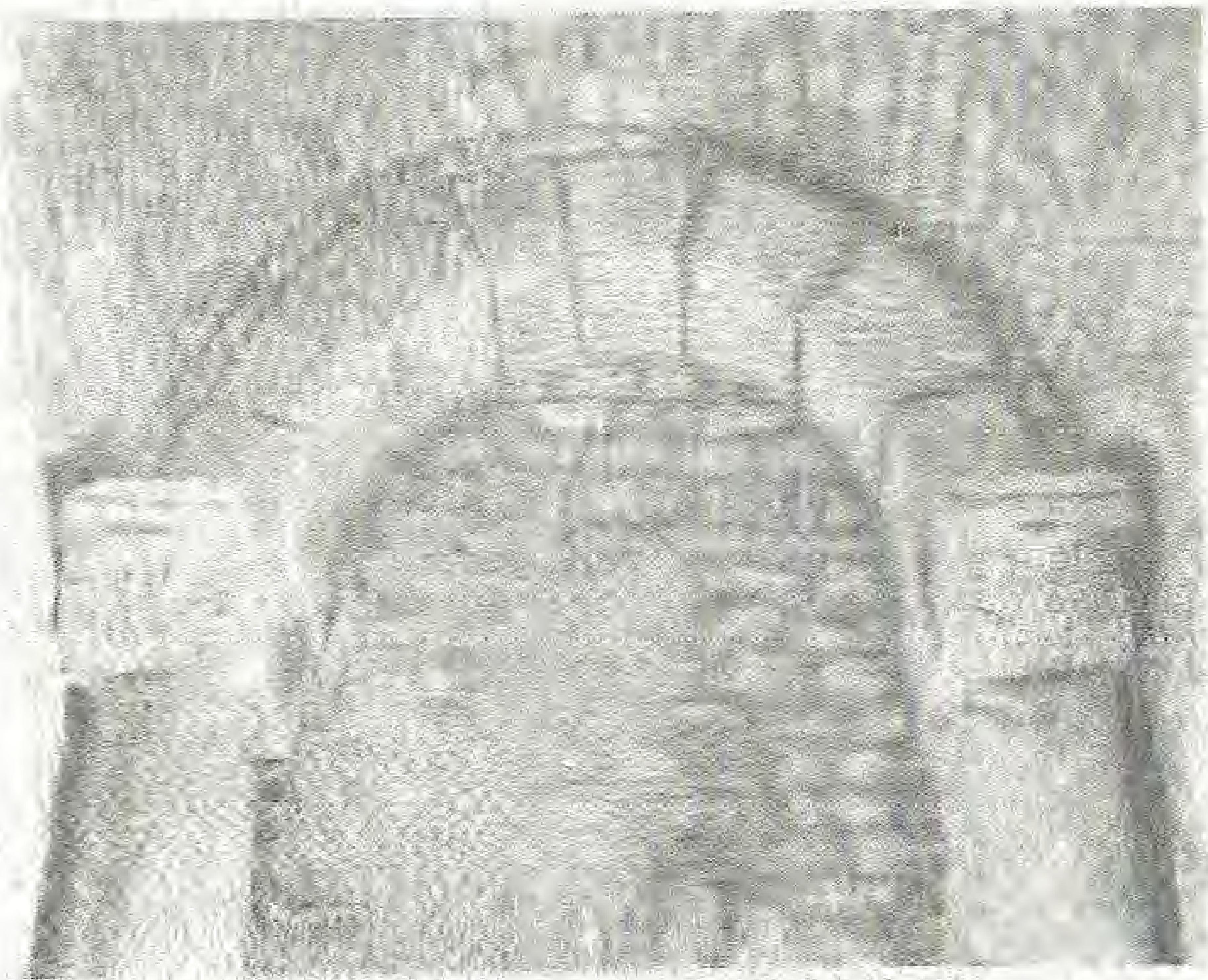


بيت الحراسة الغربية



الزاوية الجنوبية الغربية من الصحن

لوحة 26 : رباط سوسة



المدخل : عميدات



السقاطة (سقاطة المدخل)

لوحة 27 : رباط سوسة



الرّواق الشمالي

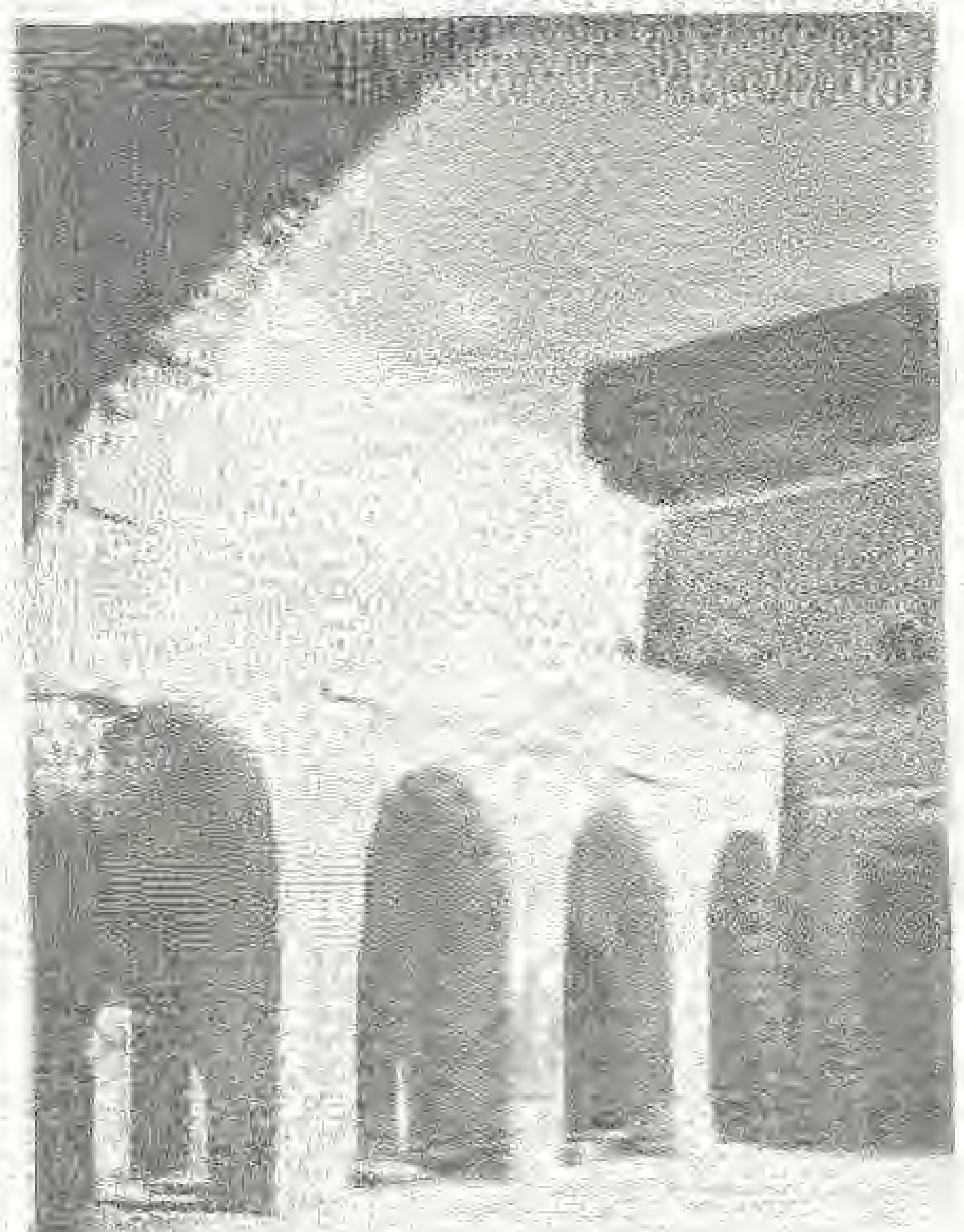
لوحة 28 : رباط سوسة



الصحن . الزاوية الغربية .



الرواق الغربي

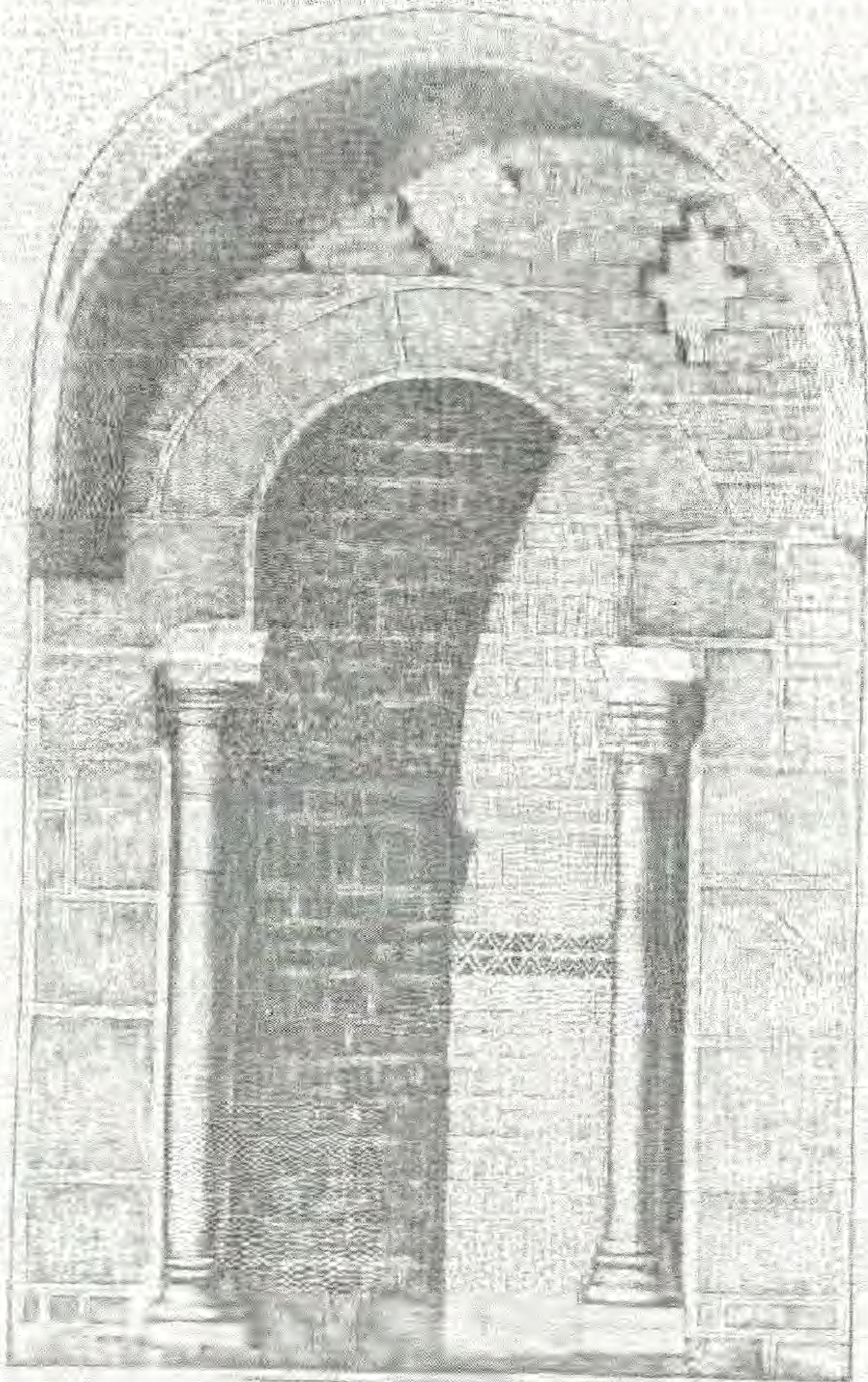


الرواق الشمالي



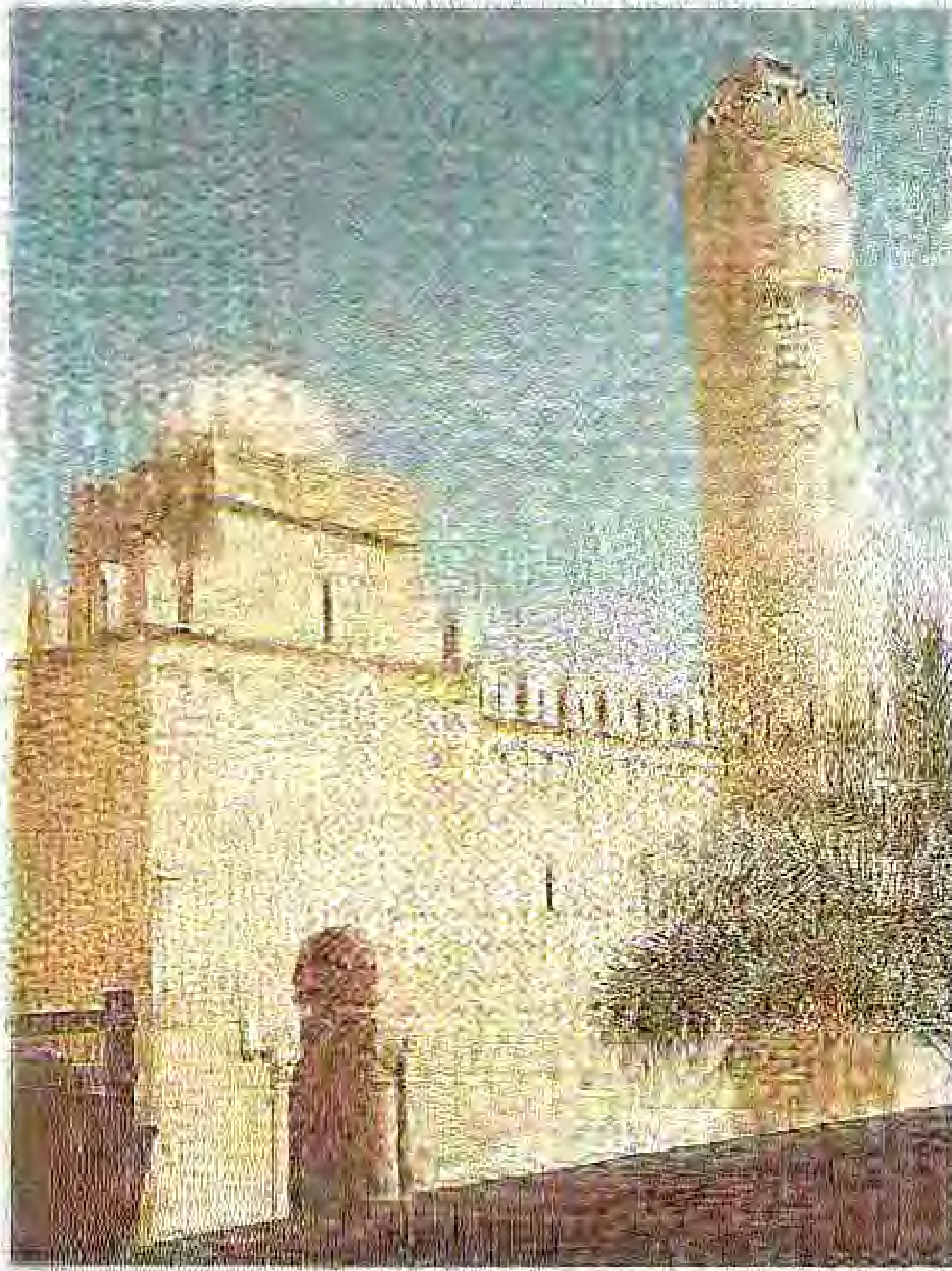
المدخل : عمود قديم

لوحة 29 : رباط سوسة

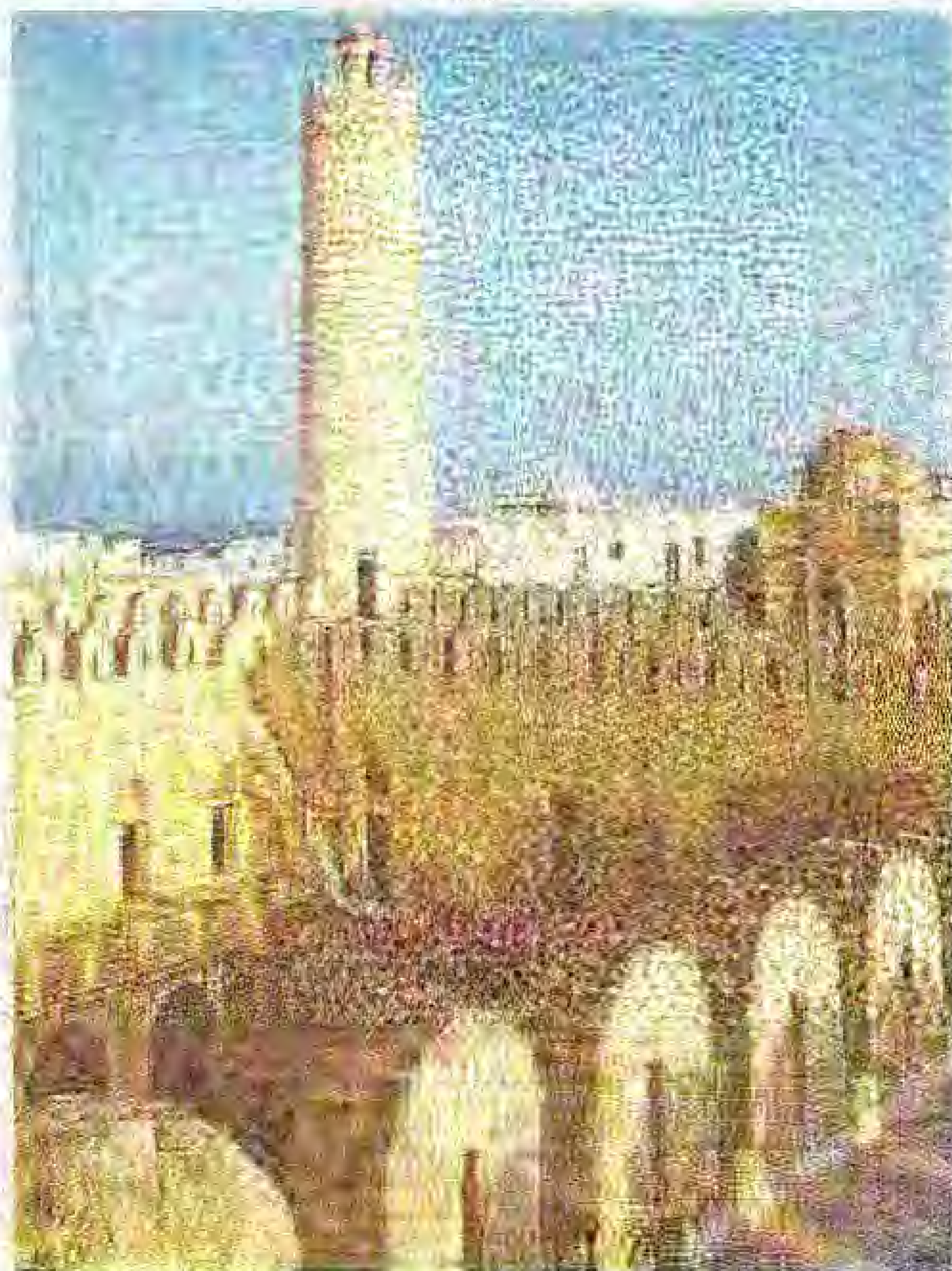


المحراب

لوحة 30 : رباط سوسة

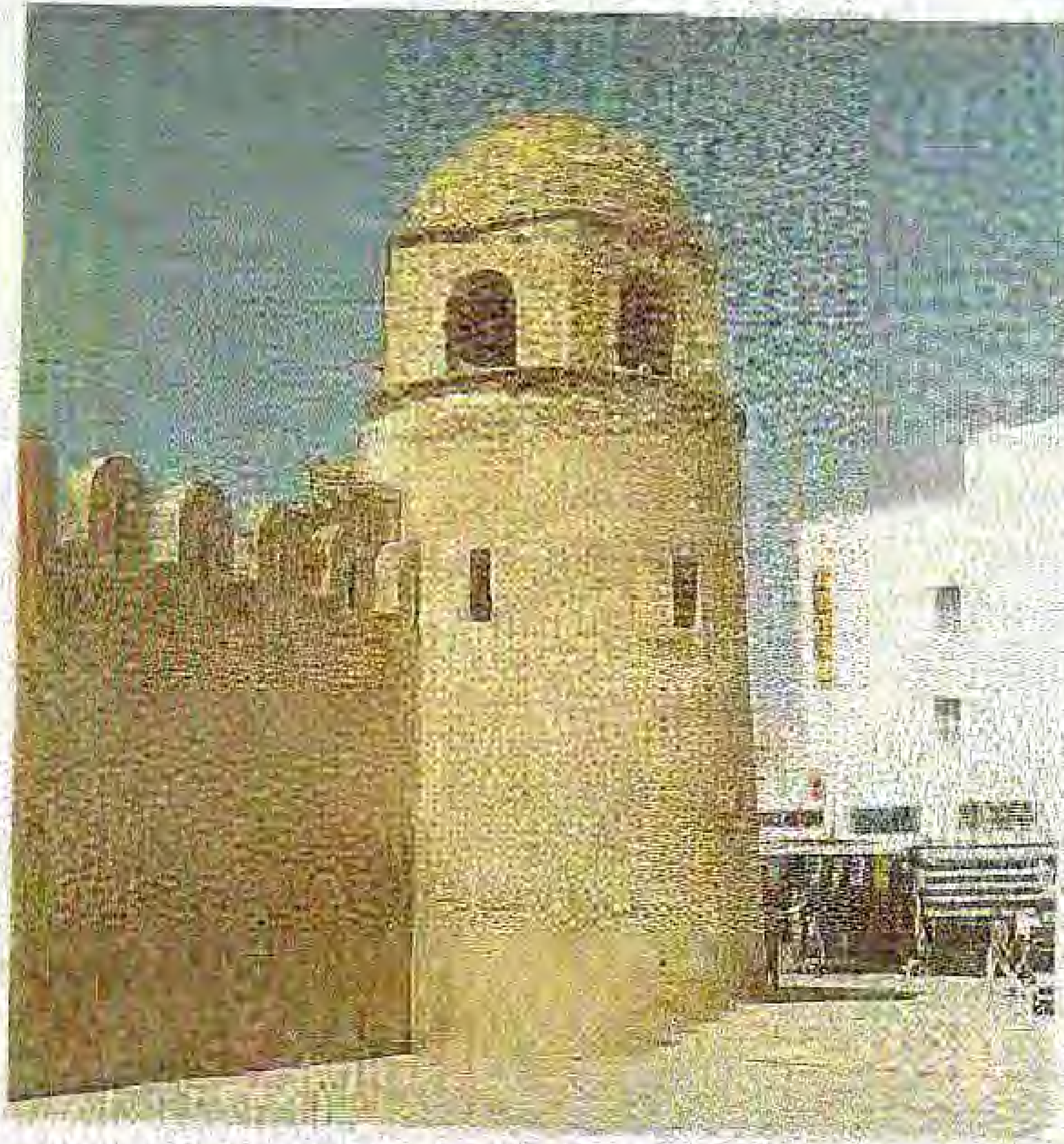


المدخل



الشرافات

لوحة 30 ب : سوسة

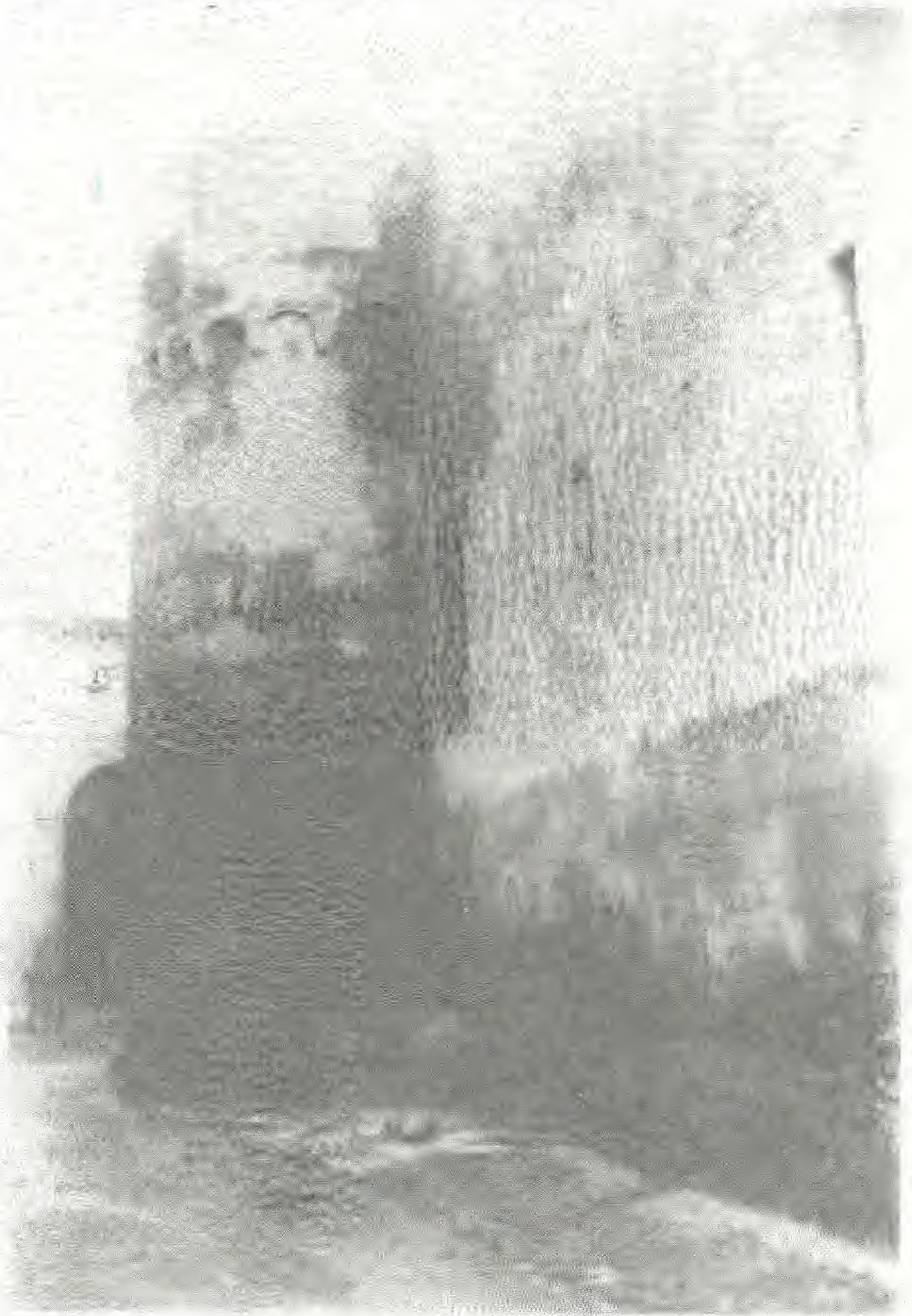


المسجد الجامع : برج



الرّباط : برج

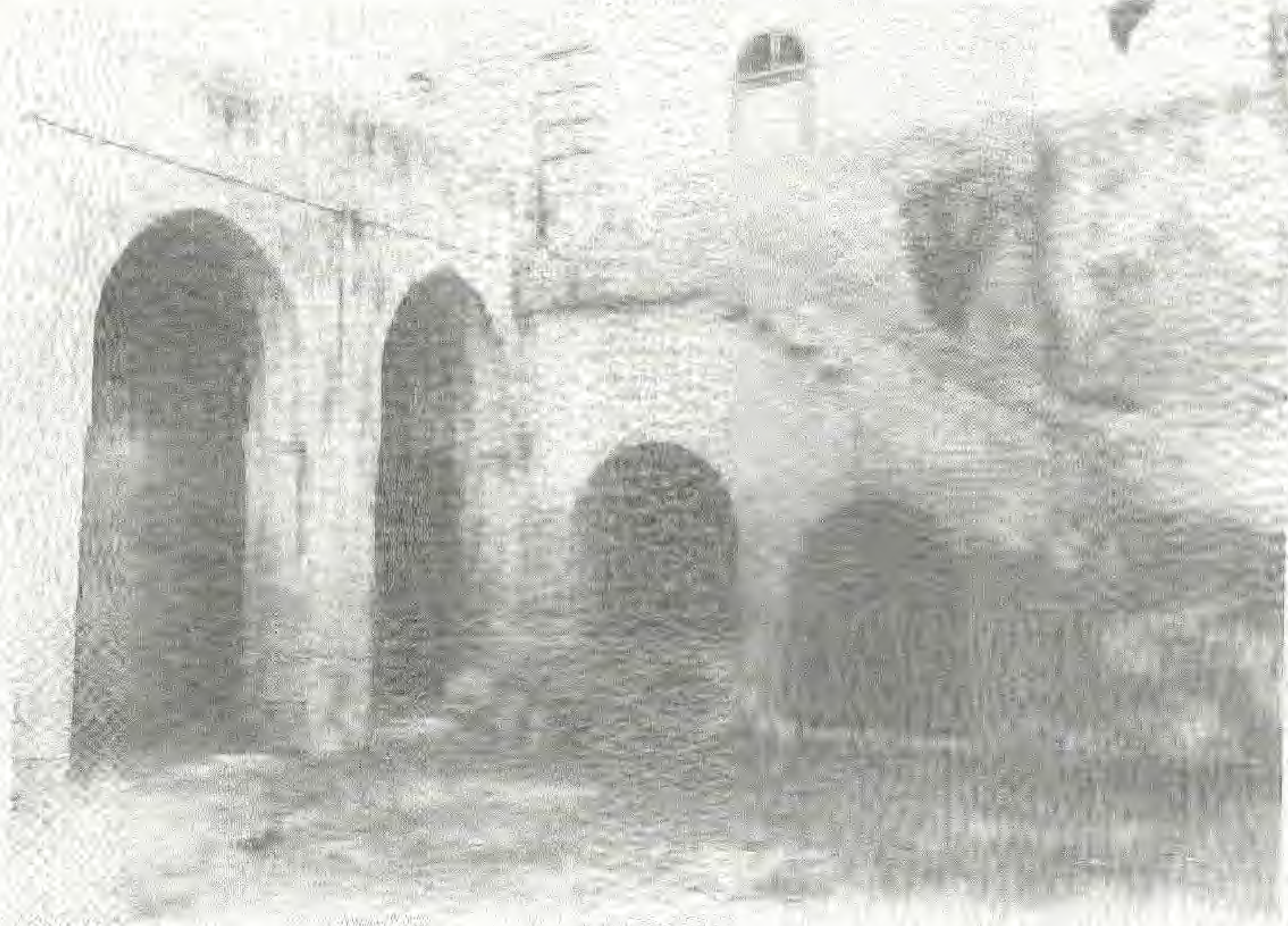
لوحة 31 : رباط سوسة



برج قبل ترميمات ليزين

المصدر : المتحف الوطني بباردو

لوحة 32 : رباط سوسة



المدارج والرواق قبل الترميمات الحديثة

المصدر : المتحف الوطني بباردو

لوحة 33 : قصر الطوب

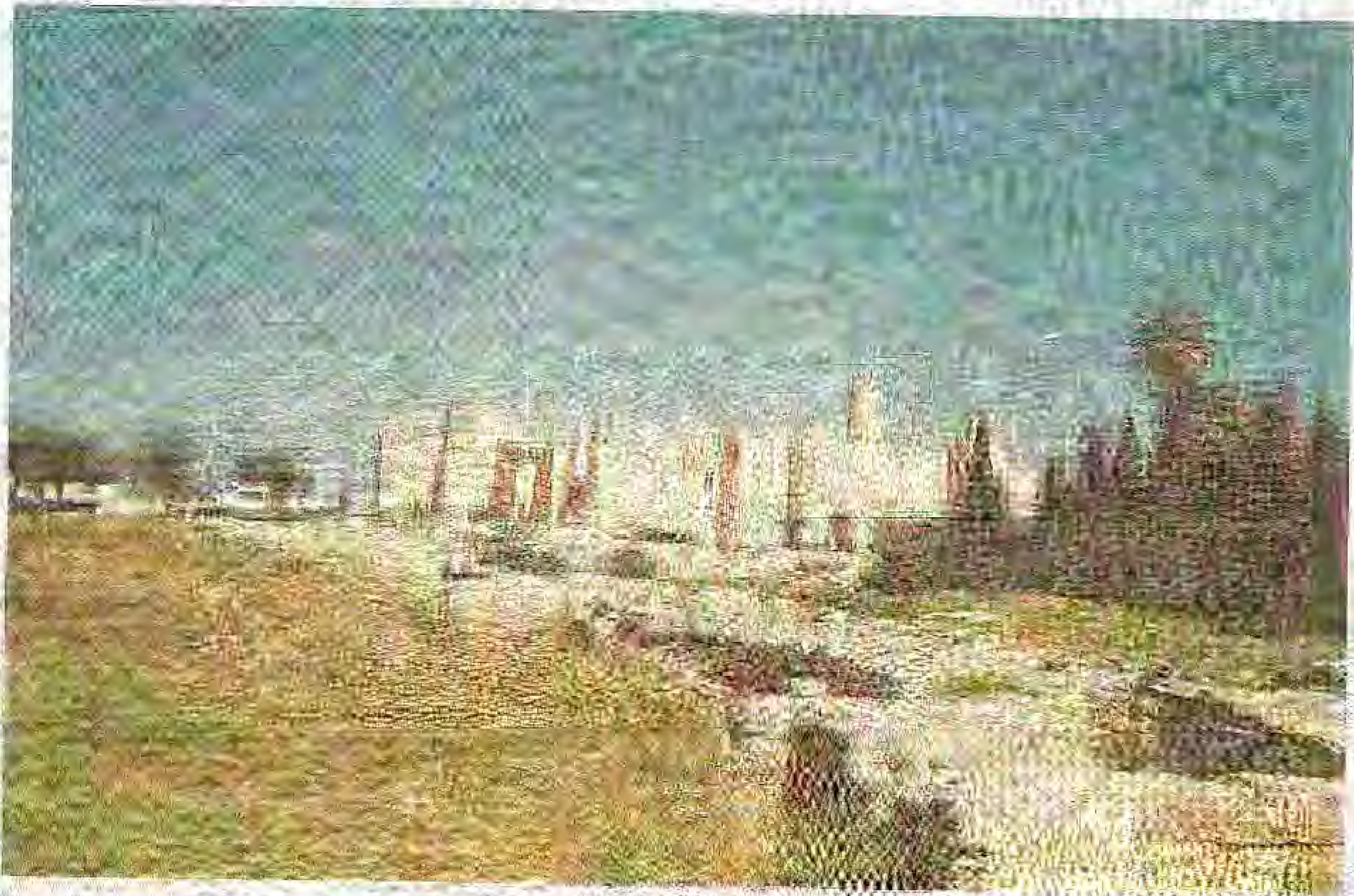


ضريح سيدي عبد الحميد



ضريح سيدي عبد الحميد : منظر داخلي

لوحة 34 - المنستير



القصبة ومحرابها - رباط السيدة "



رباط السيدة : منظر داخلي

لوحة 34 ب : المنستير : "رباط السيدة"



خرائب "رباط السيدة" والسور الخارجي

وفي أعلى الصورة رباط سيدي ذويب



مسجد رباط السيدة

لوحة 35 : المنستير ، مقبرة الرباط



المصدر : المتحف الوطني بباردو

لوحة 36 : رباط المنستير



منظر عام



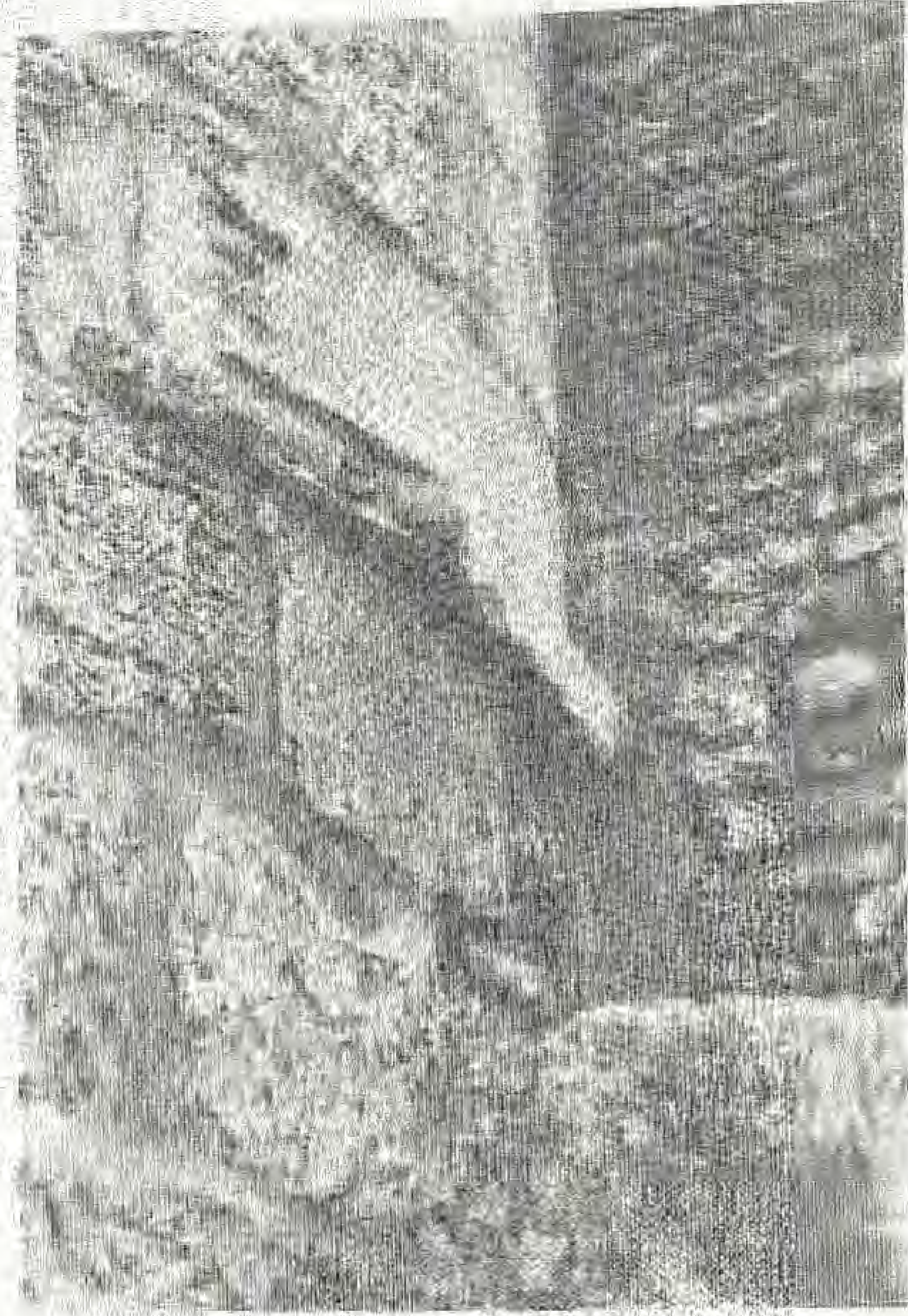
السّور الشمالي

لوحة 37 : رباط المنستير



منار هرثمة

لوحة 38 : رباط المنستير



المنار (الإفريز القديم)

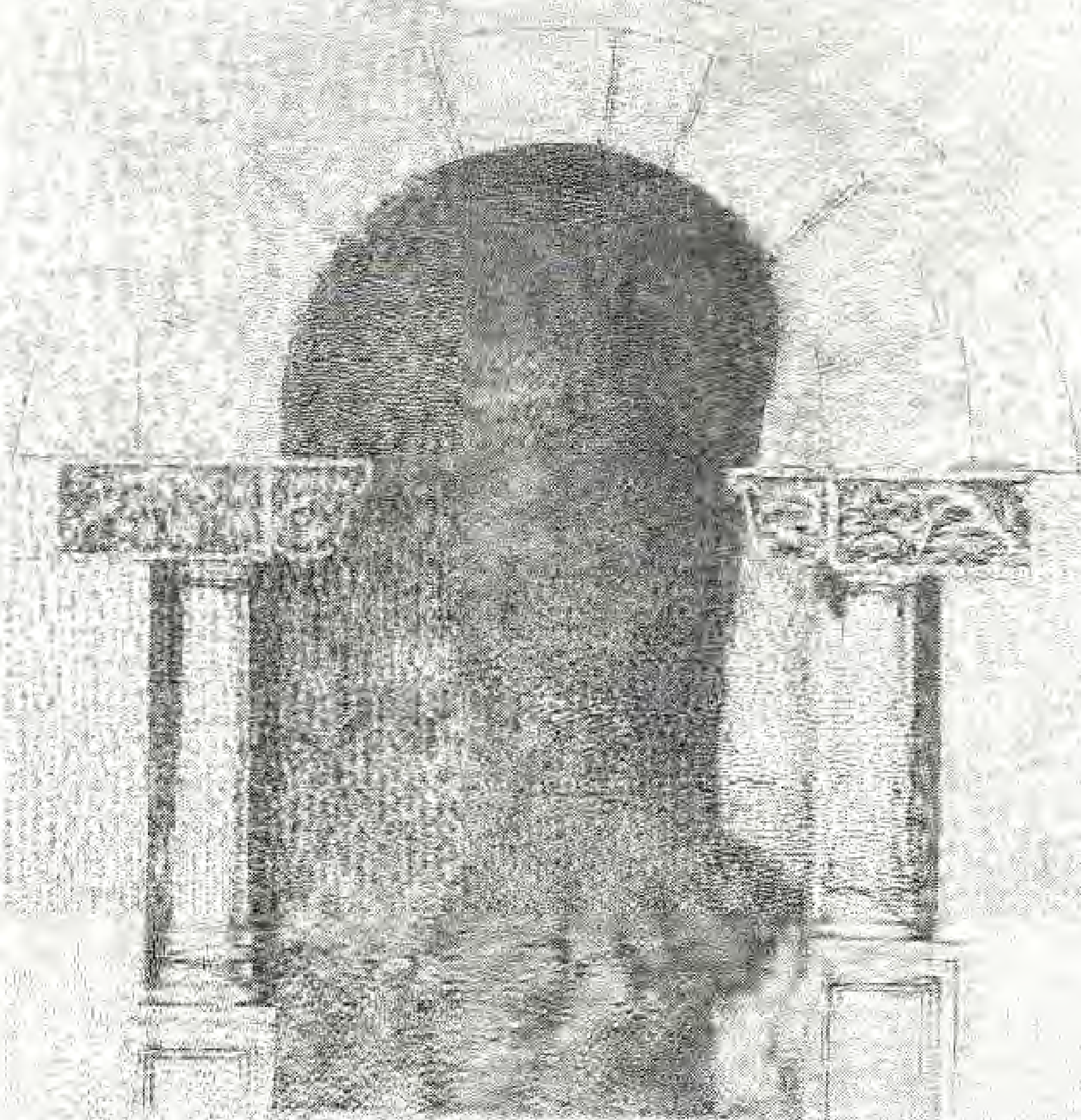


الفناء الكبير والمنار

لوحة 39 : رباط المنستير



السور الشرقي



المحـراب

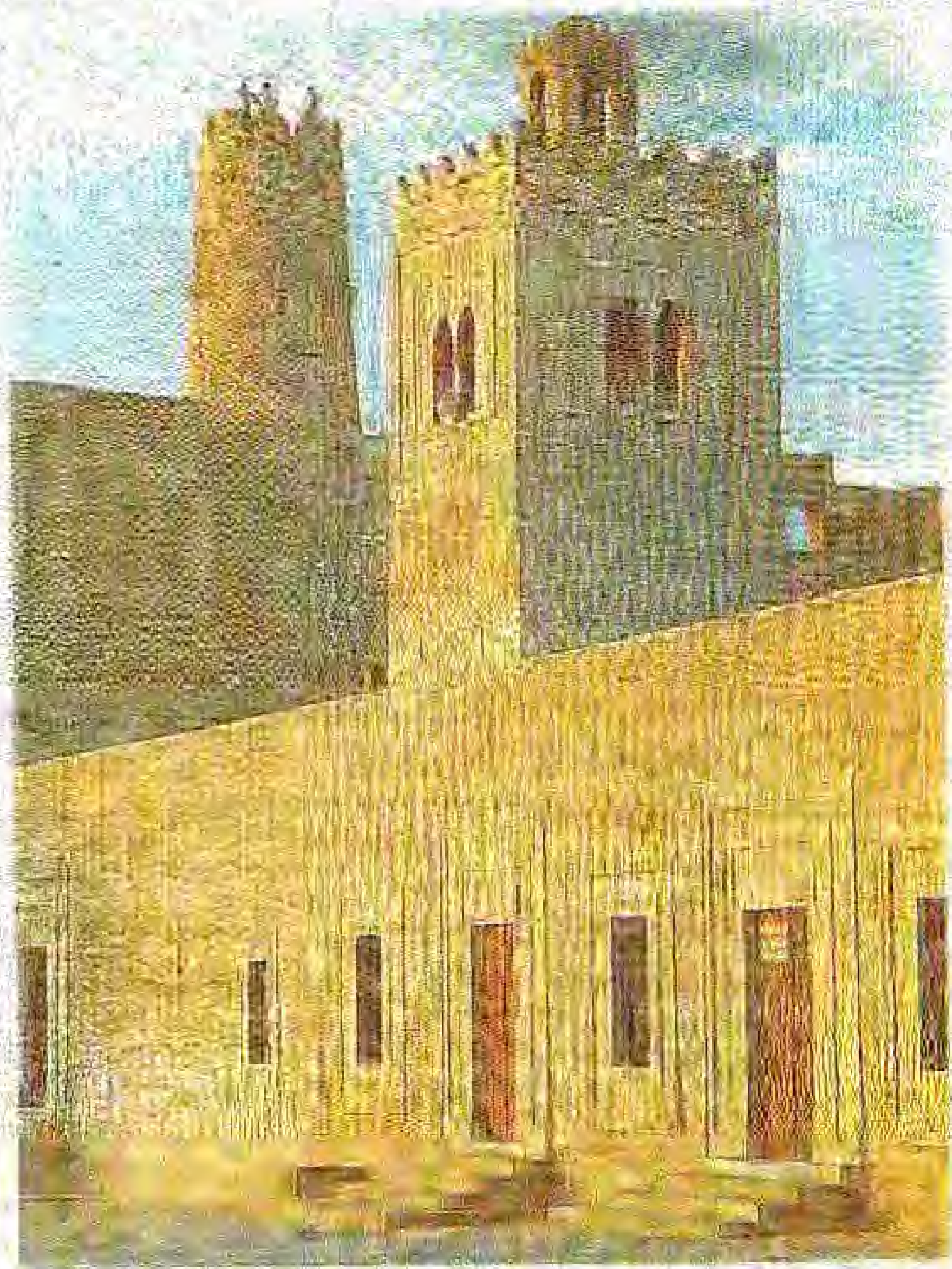
لوحة 40 : رباط المنستير



منظر داخلي قبل الترميم



الواجهة



المسجد - الجامع

لوحة 41 : المنستير وخنيس



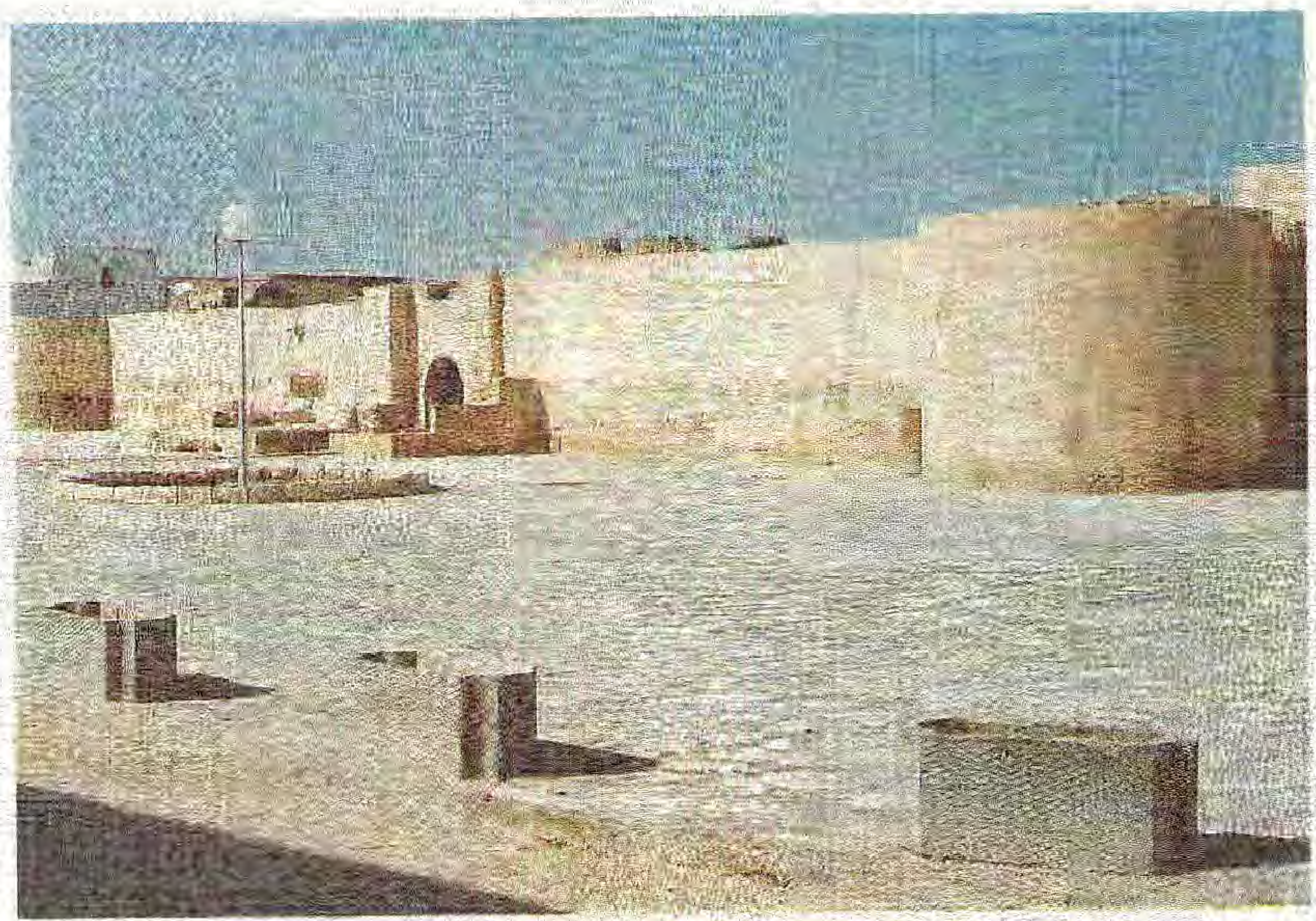
1 ـ قصبة المنستير : المدخل الحفصي

2 ـ قصبة المنستير : (برج من القرن VIII م)



3 ـ خنيس : بئر ومقام رجال الجرف

لوحة 42 : لمطة



واجهة الرباط

لوحة 42 ب : لمطة



منظر داخلي للرّباط

لوحة 42 ت : لمطة وقصيبة المديوني



رباط لمطة قبل الترميمات الحديثة



قصيبة المديوني : سيدي المراكشي

لوحة 43 : هرقلة



منظر عام

لوحة 43 ب : هرقلة



المسجد الحفصي

لوحة 43 ت : قنطرة حلق المنجل

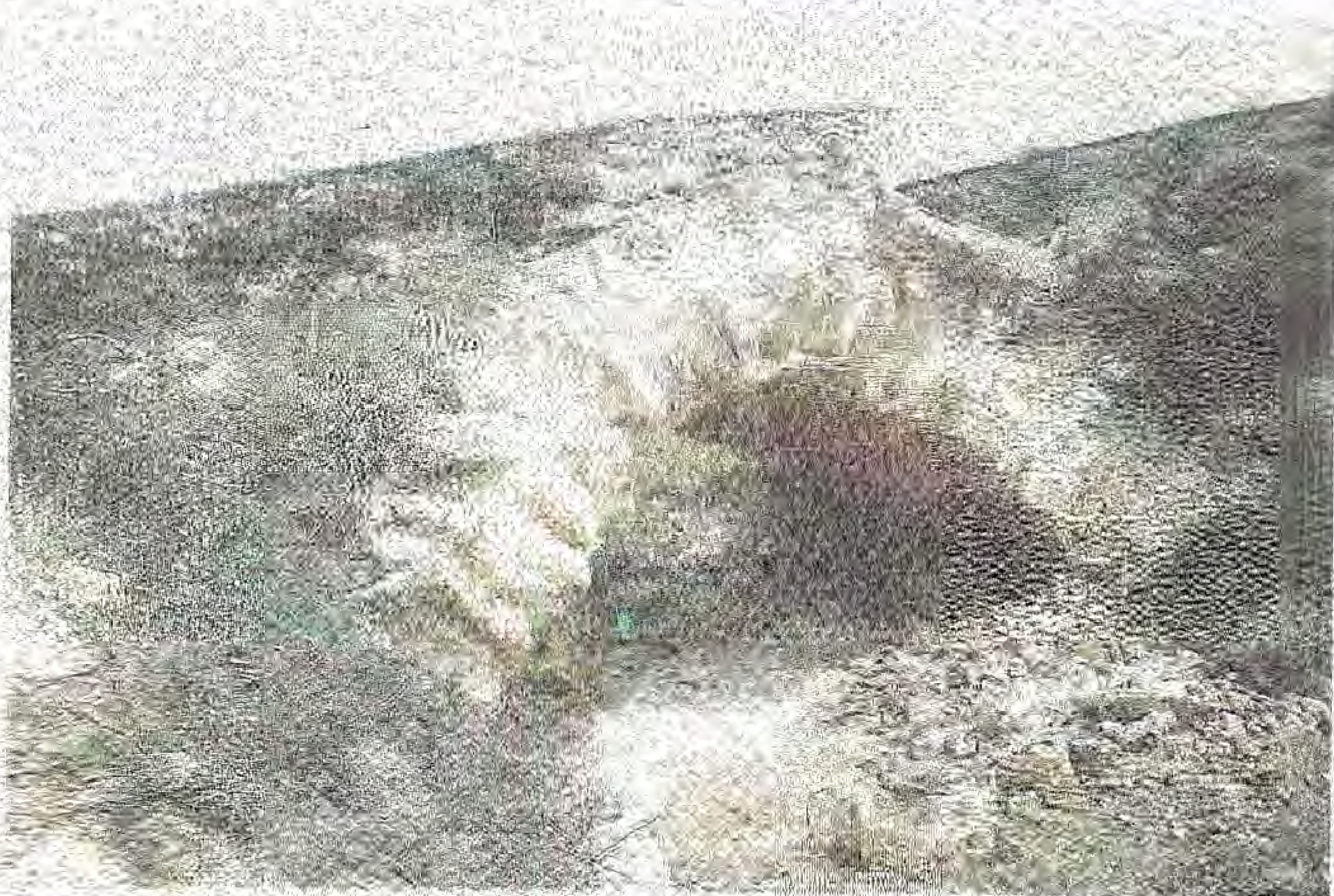


منظر عام



الجدار

لوحة 43 ج : حلق المنجل والقلعة الكبرى



قنطرة حلق المنجل : قبو

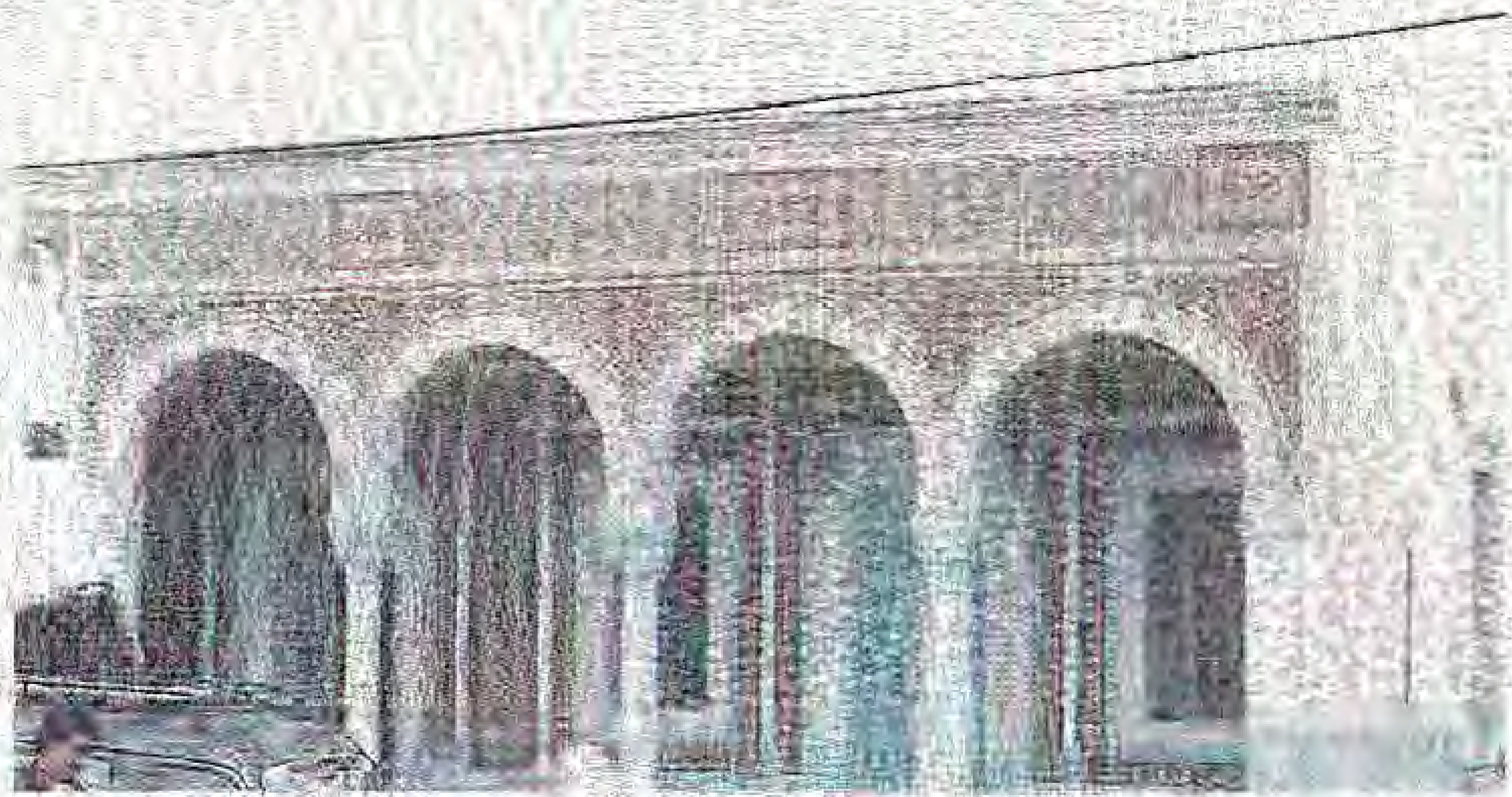


القلعة الكبرى : سقيفة لطيفة

لوحة 44 : طبلبة : سيدي عيّاش



منظر عام



الواجهة

لوحة 44 ب : طبلبة والمهديّة



زاوية سيدي عبّاش

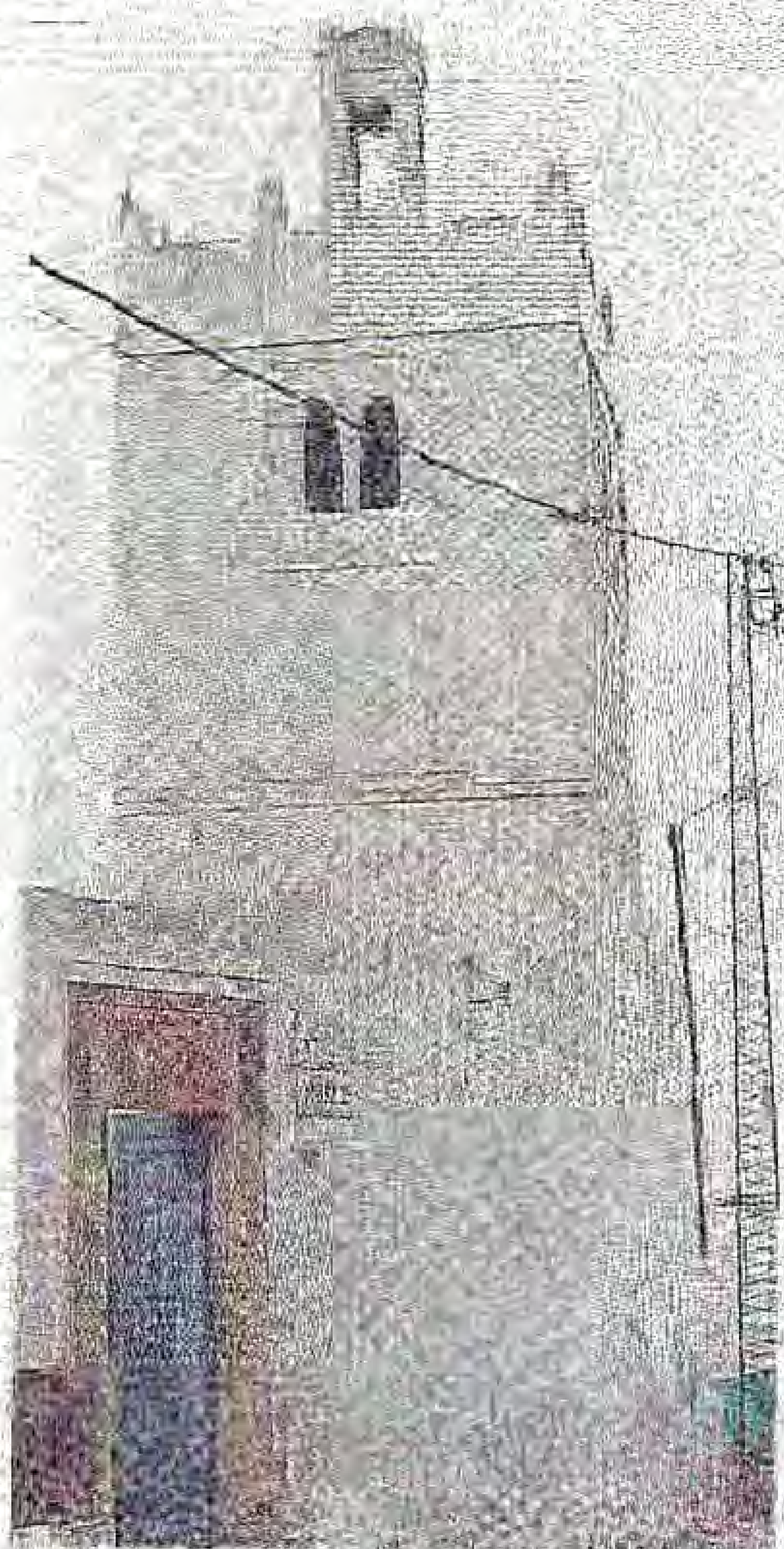


المهدية : تاج بزاوية سيدي الغمام

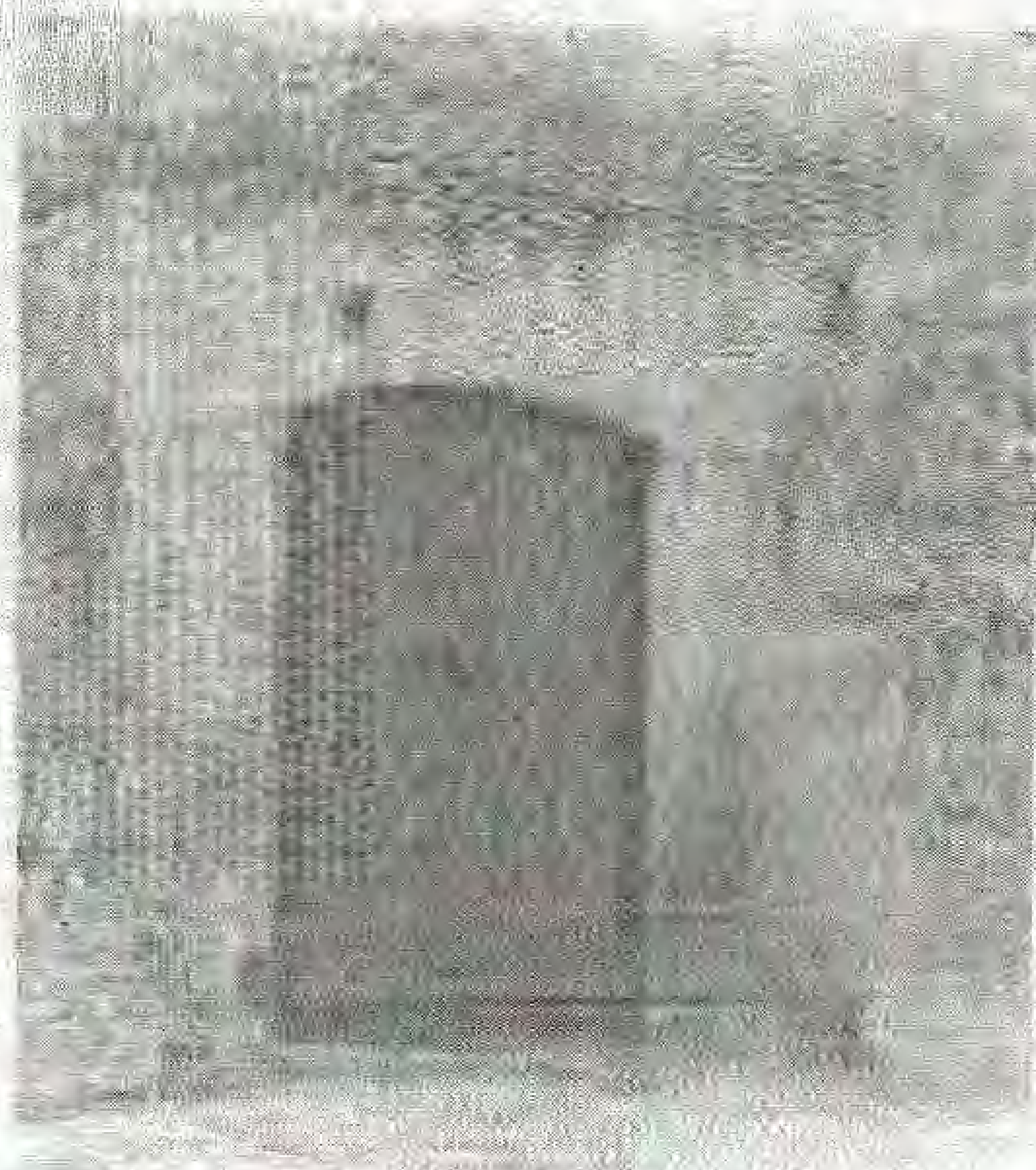
لوحة 45 : منزل كامل - صيادة - المكنين



منزل كامل " الصاباط



المكنين : الجامع الحفصي

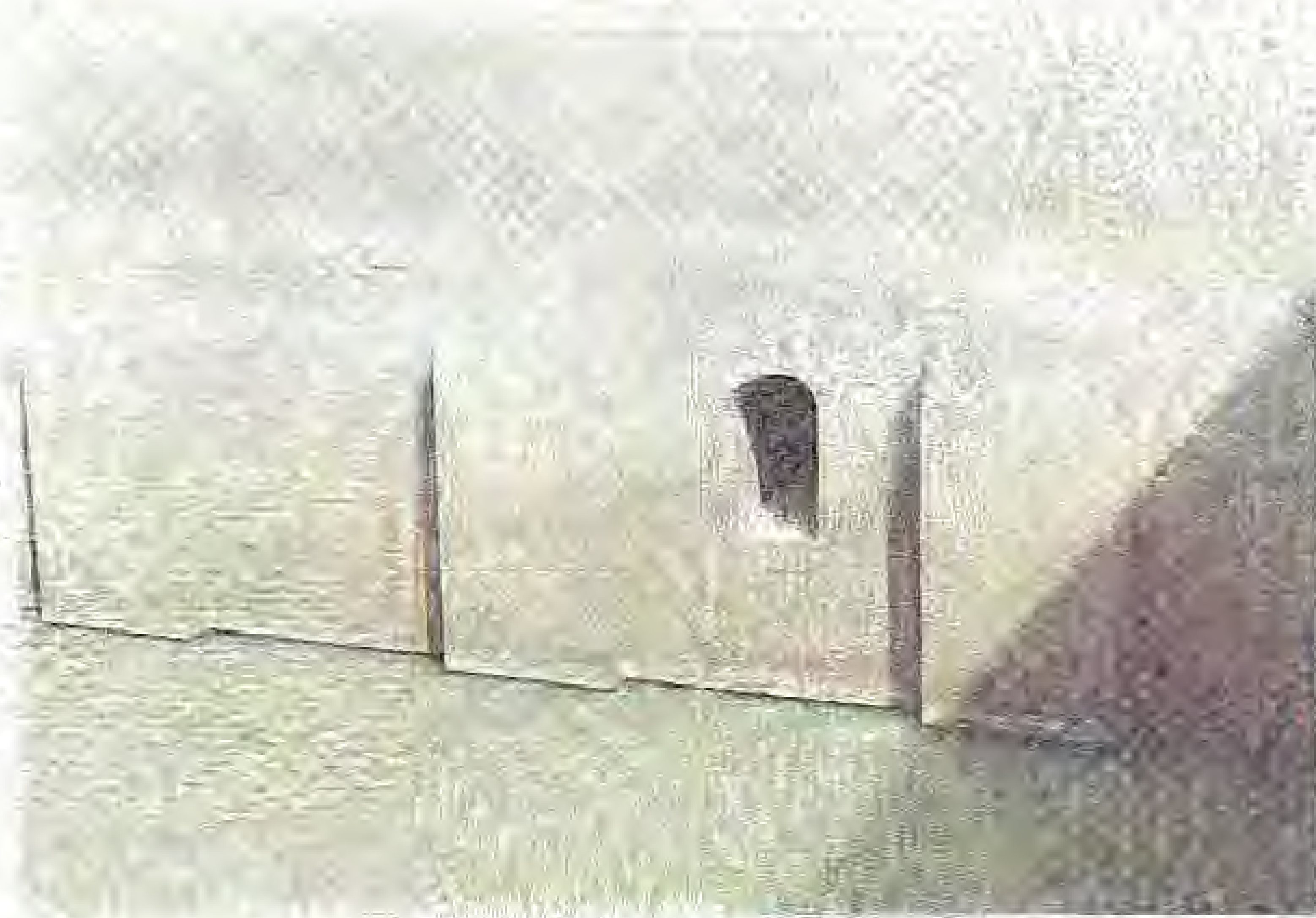


غار صيادة

لوحة 46 : الكنائس والمصدور



تيجان أغلبية بسيدي المايل
(المصدور)



فسقية أغلبية بالكنائس



بقايا قصر الكنائس

لوحة 47 : الكناتس ورجيش



بقايا قصر الكناتس



رحيش : حوض من العصر الوسيط

لوحة 48 : جمال



محراب الجامع الكبير

نقيشة حفصية (الجامع الكبير)



منارة جامع الراكشية

لوحة 49 : مسجد عيسى وتبصة



مسجد عيسى : ضريح عيسى بن مسكين



سقالة تبصة

لوحة 50 : الشابّة



المقام - الحصن - ضريح سيدي عبد الله المراكشي



برج خديجة : المنار الأغلبي الاسطواني

والبرج الطولي الحفصي

لوحة 51 : صفاقس

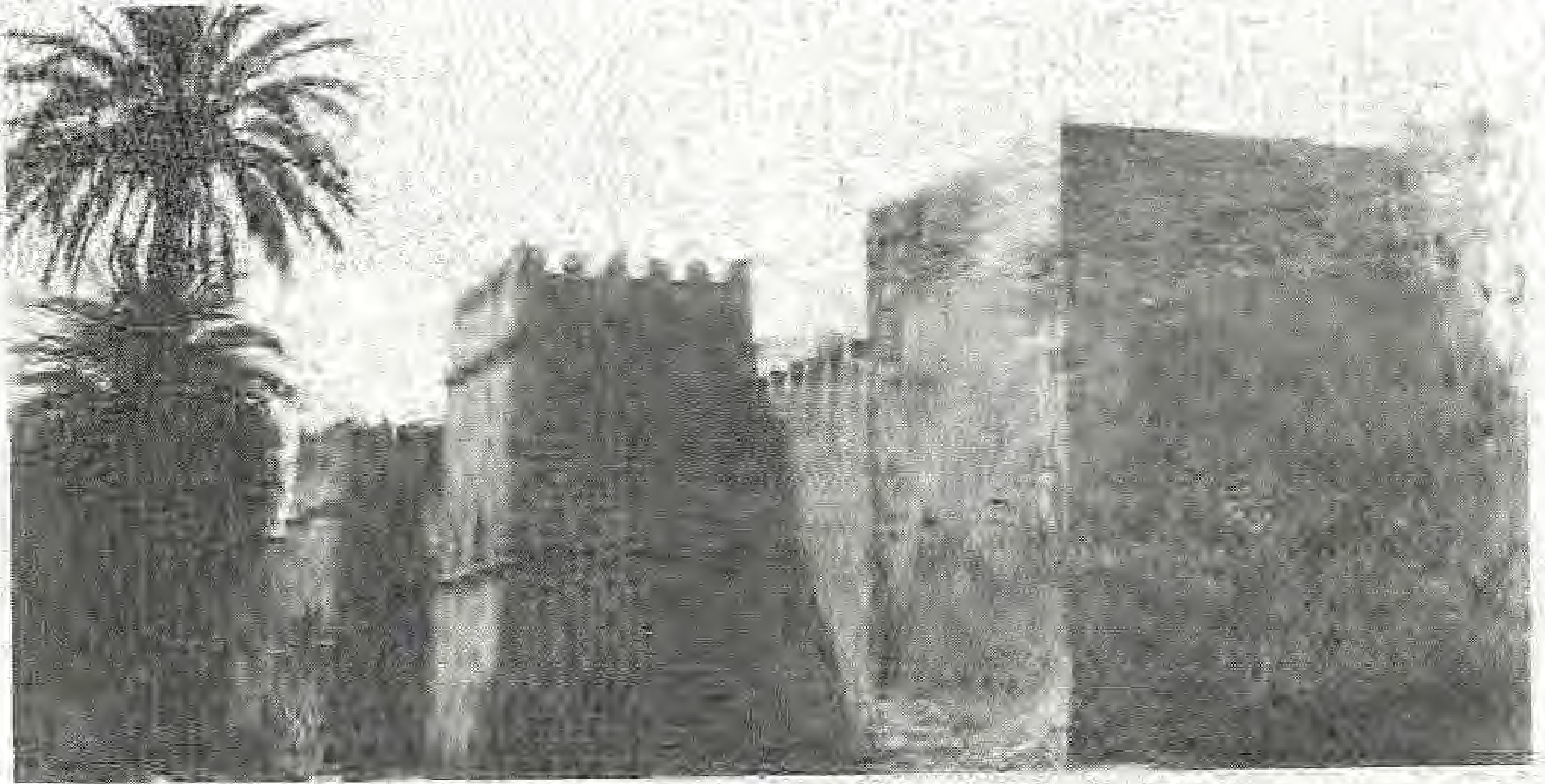


منظر عام (باب الديوان)



السور الغربي

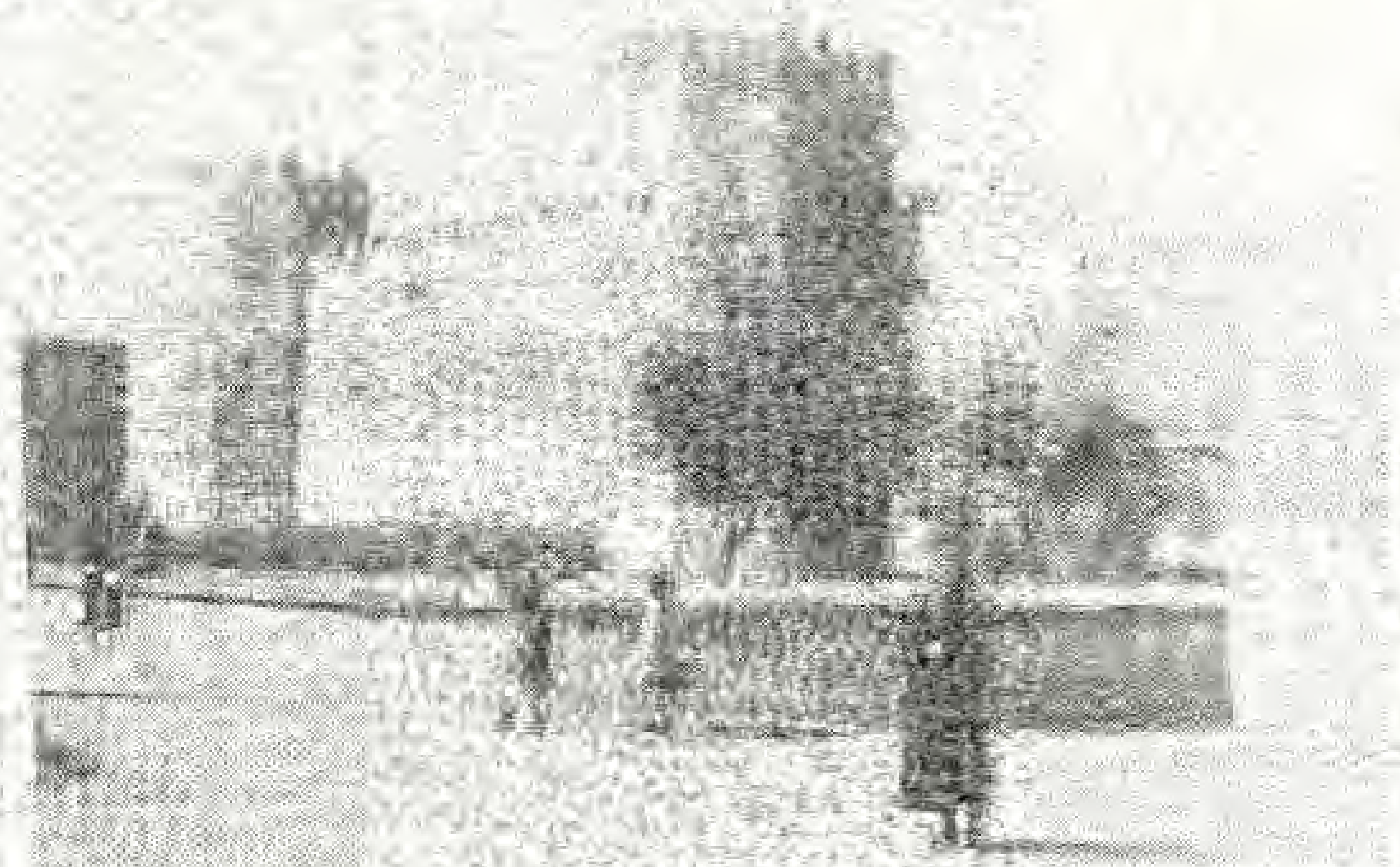
لوحة 51 ب : سور صفاقس



السّور الشّمالي



برج النّار

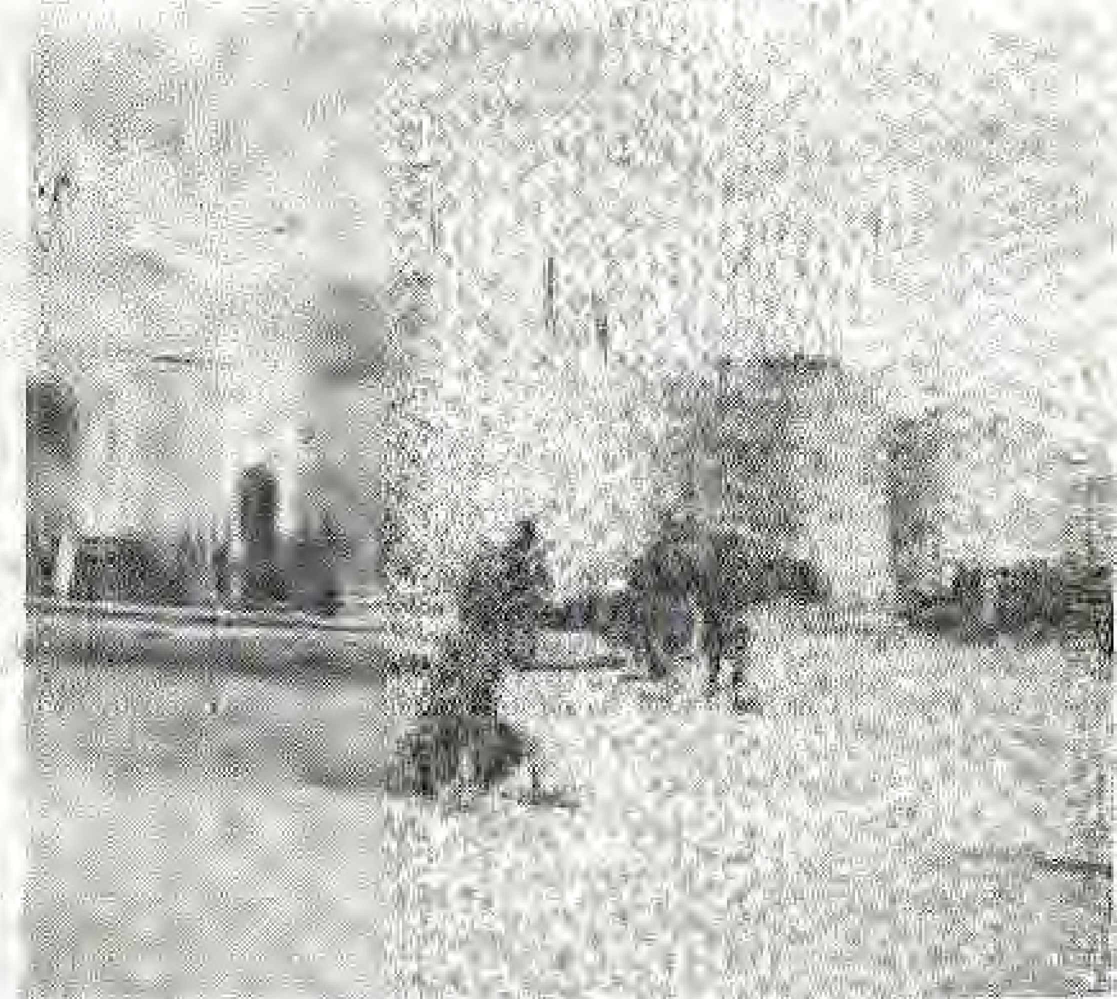


السّور الجنوبي

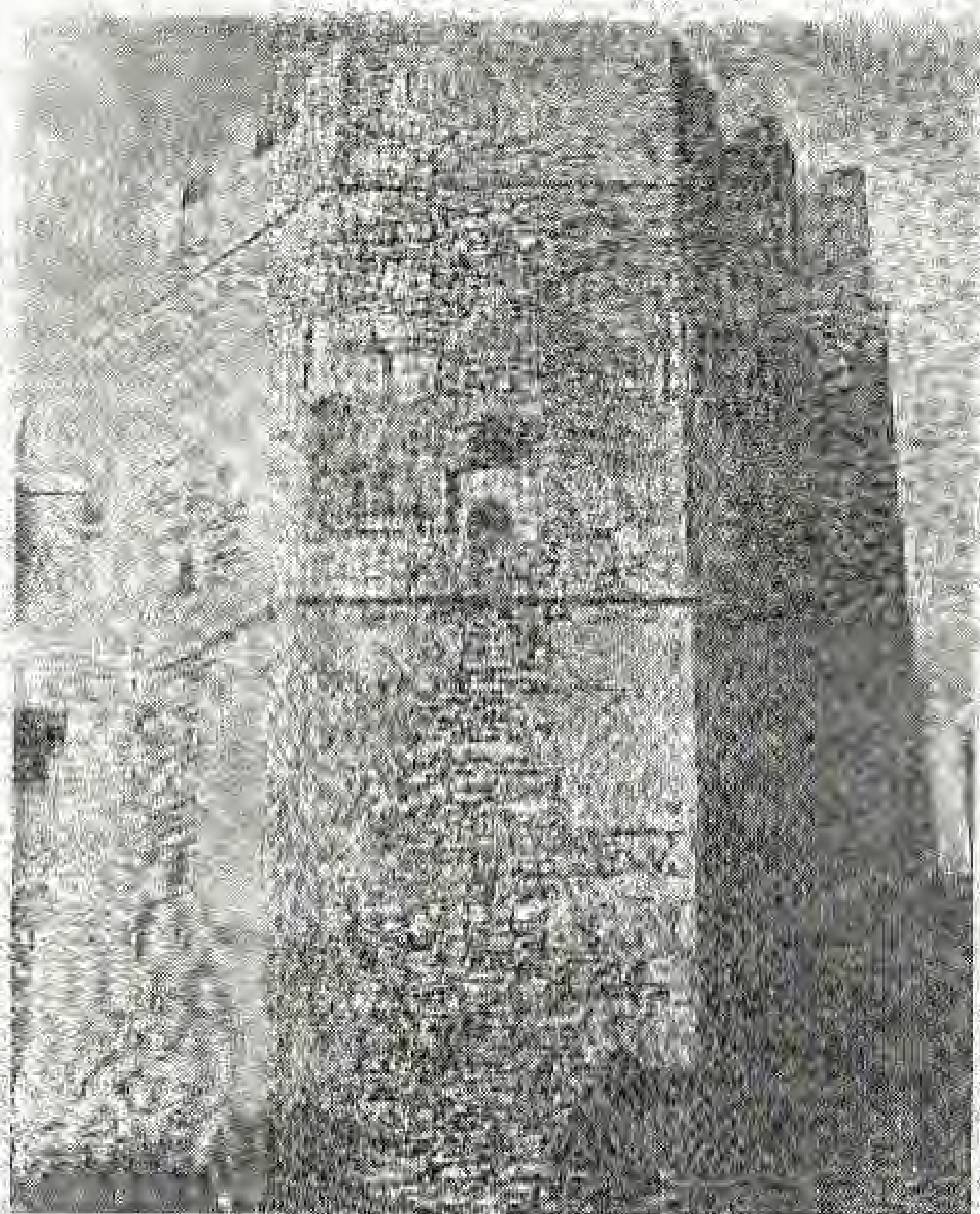
لوحة 52 : صفاقس



برج النار

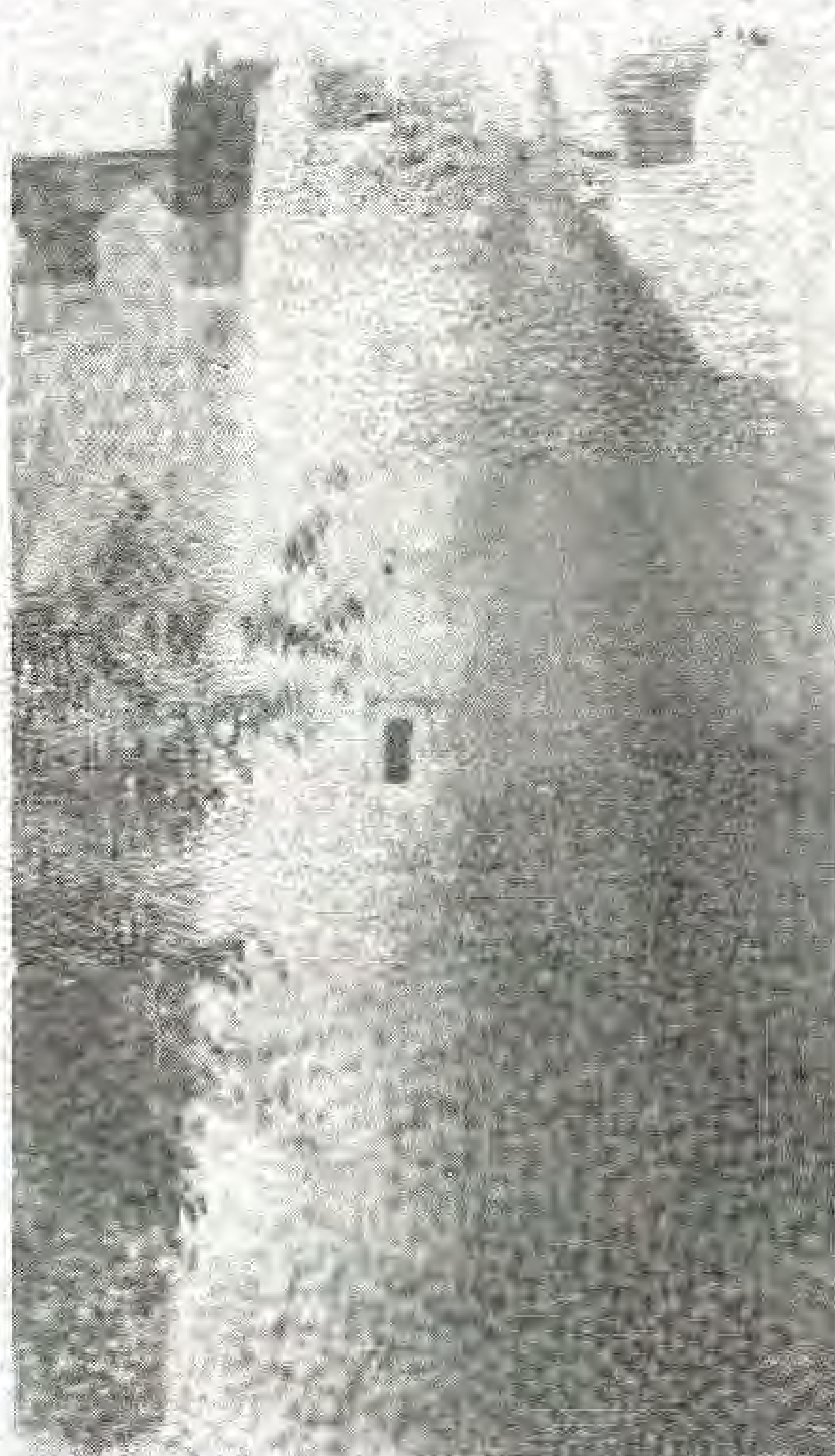


السور الجنوبي وباب الدّيوان

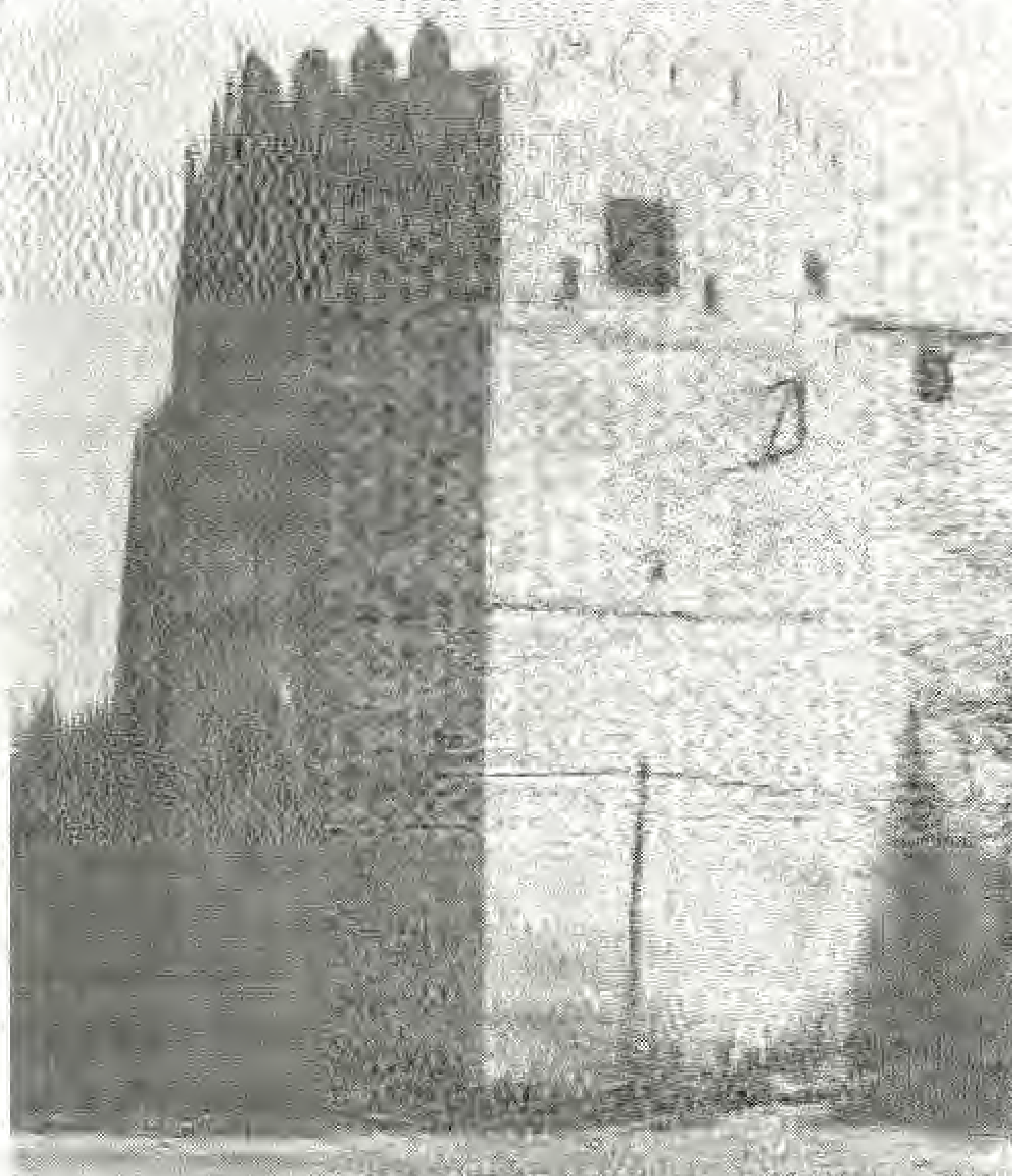


برج سيدي خنفير

لوحة 53 : سور صفاقس

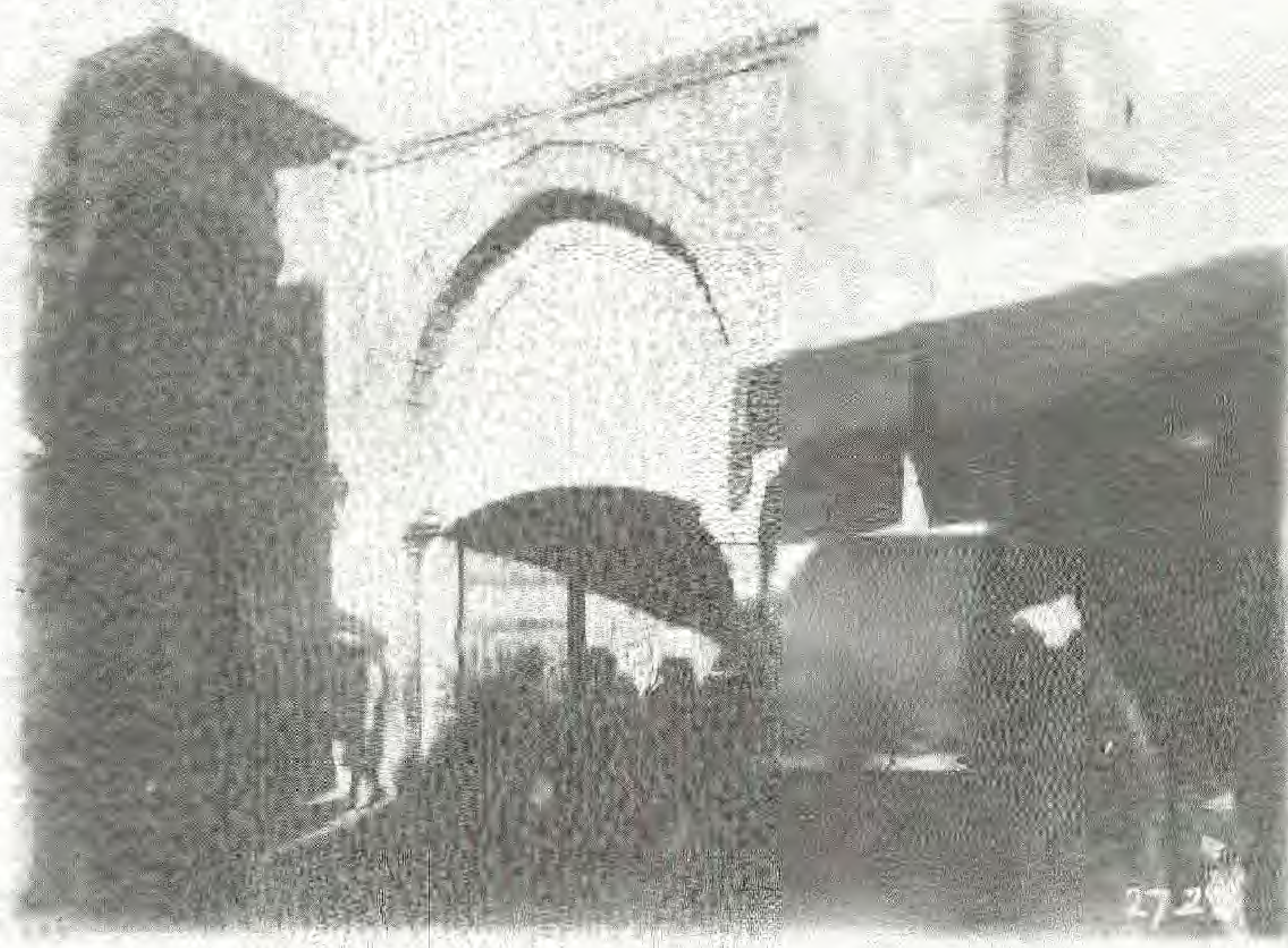


برج - دعامة



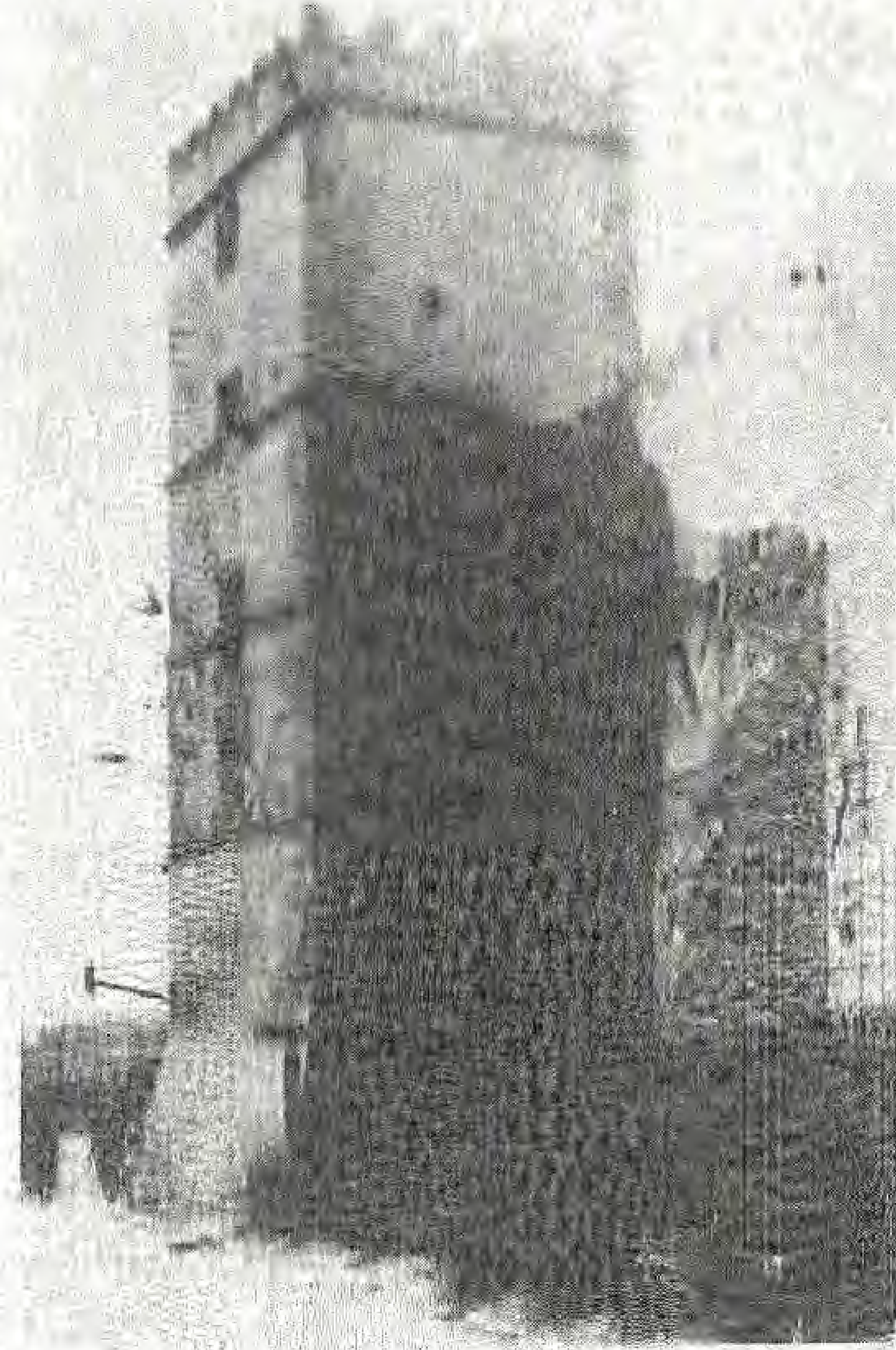
برج مسعودة

لوحة 53 ب : صفاقس : باب الجبلي

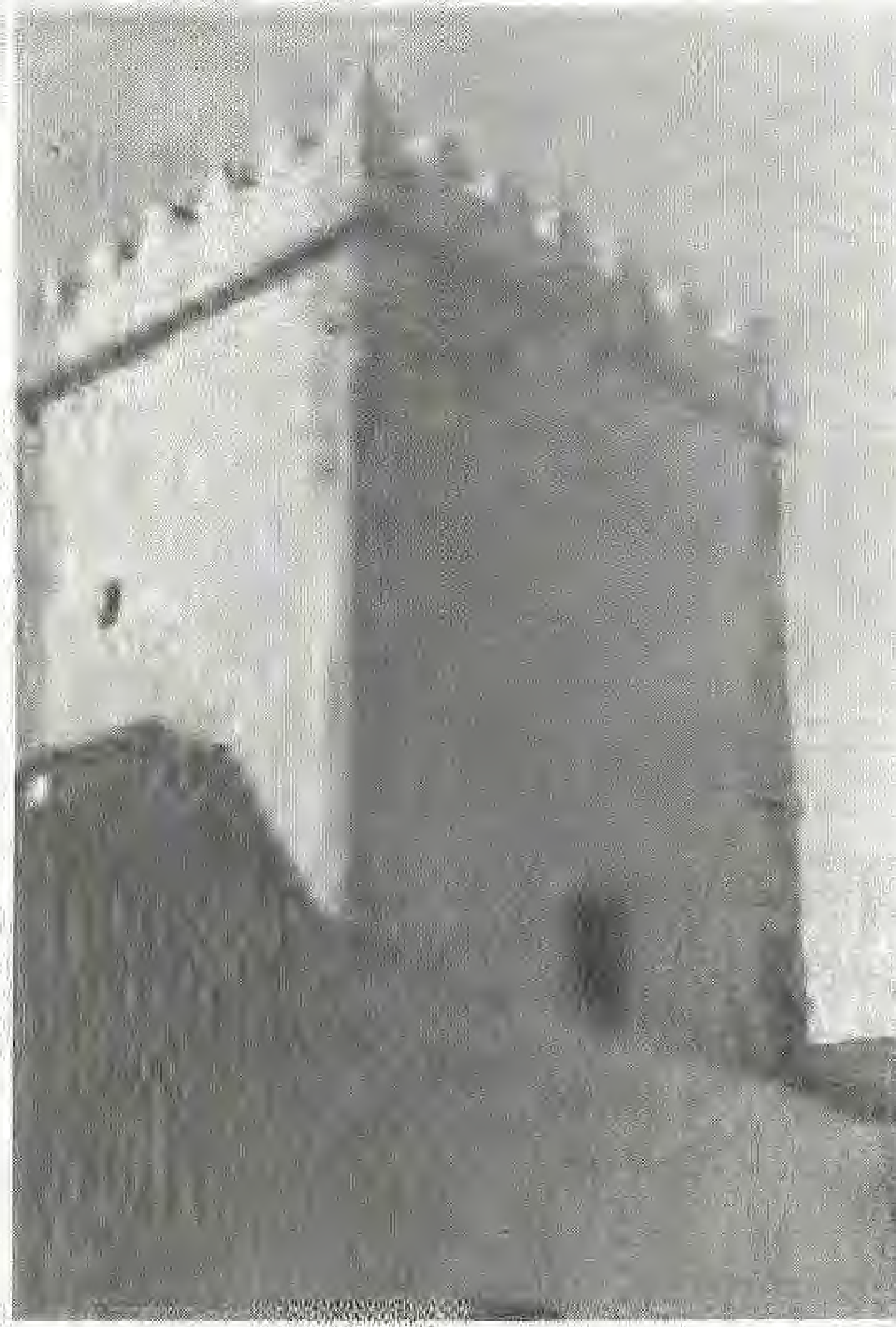


المصدر : المتحف الوطني بباردو

لوحة 54 : قصبة صفاقس



المنار : منظر خارجي



المنار : منظر داخلي

لوحة 55 : قصر تنيور





منظر عام

لوحة 56 : قصر تنيور



الواجهة الشرقية



برج

لوحة 57 : قصر تنيور

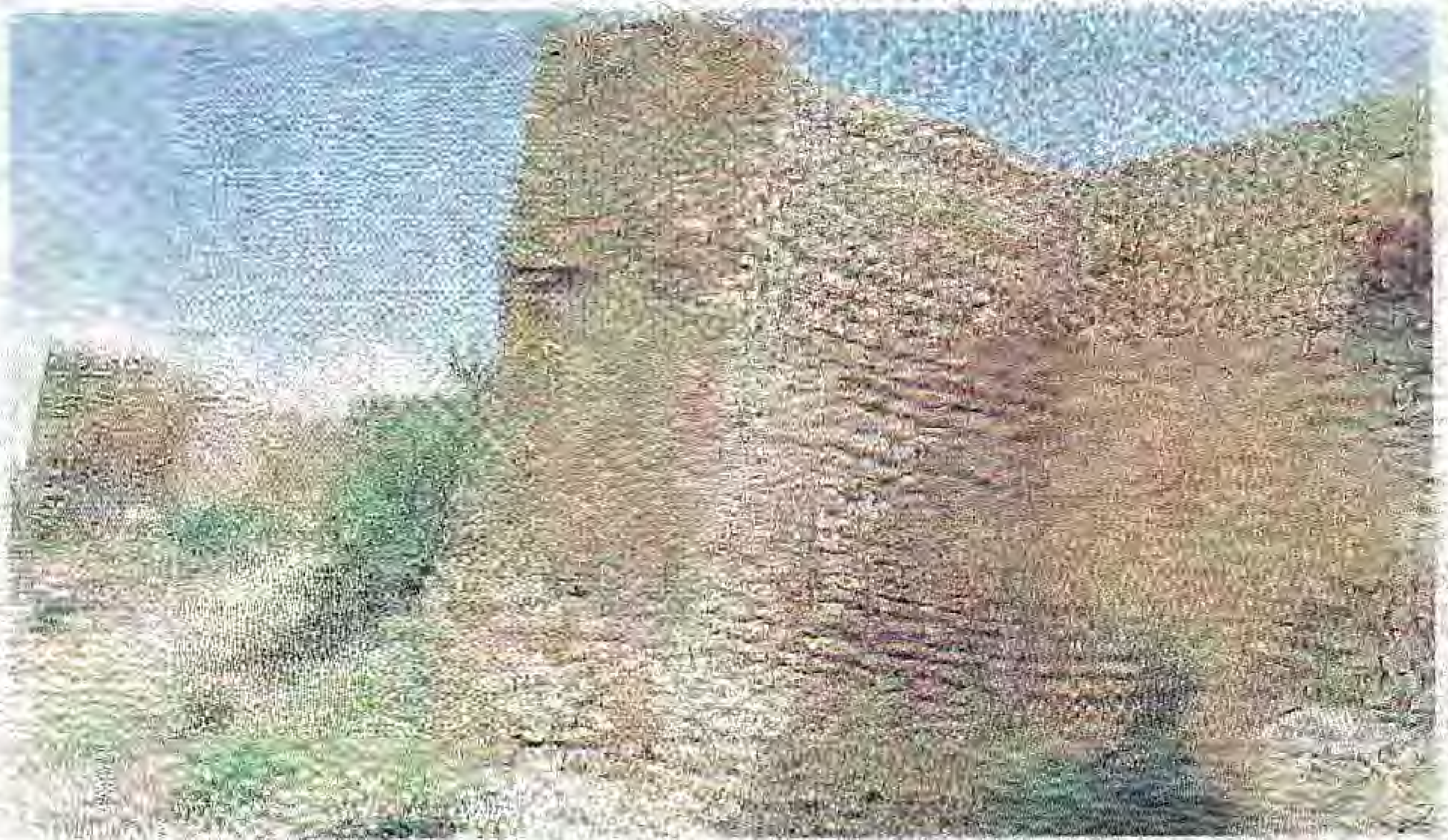


المرابط : من الداخل



السور

لوحة 58 : قصر تنيور



السور



البـر

لوحة 59 : سيدي منصور وجبنيانة



برج سيدي منصور



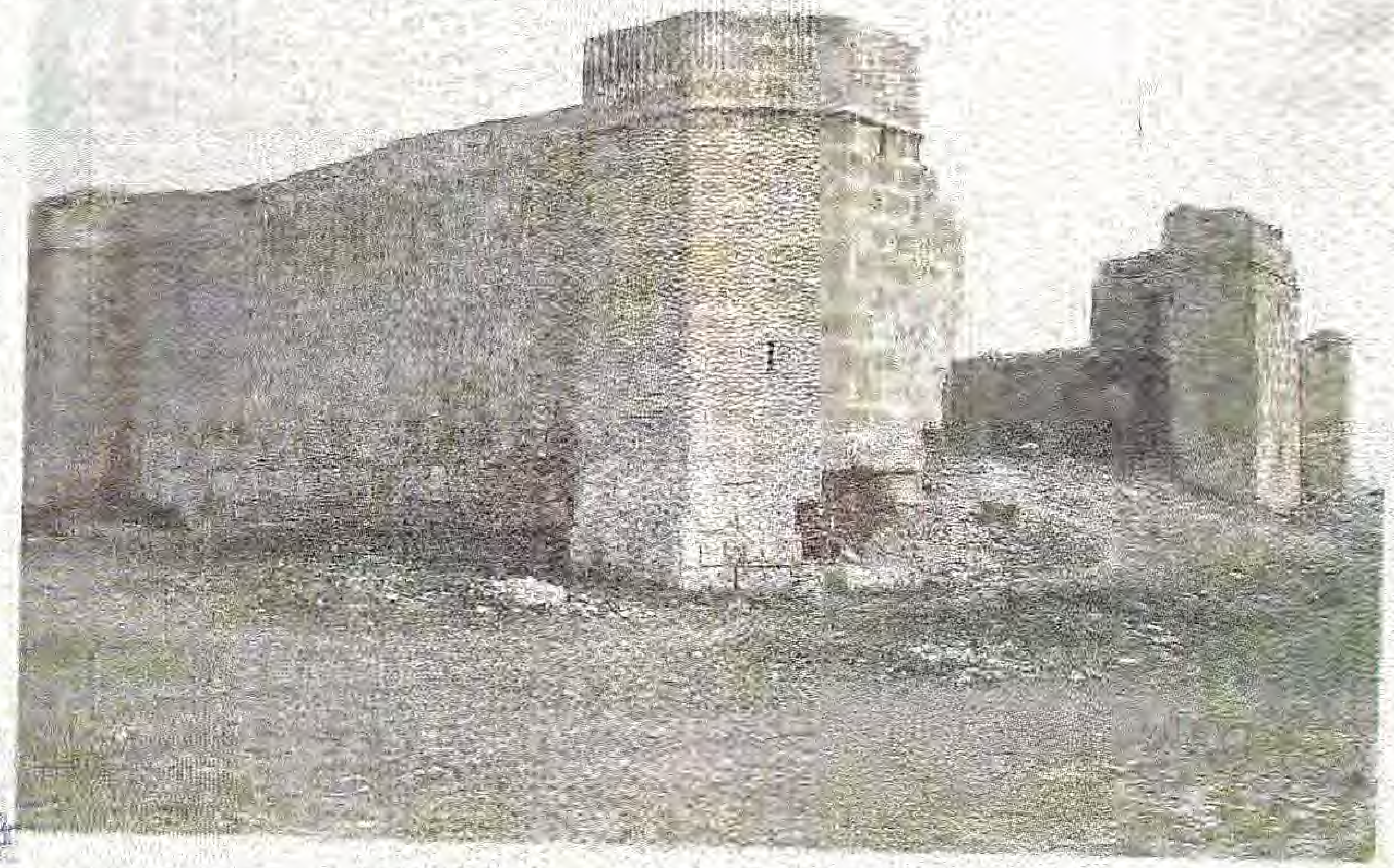
منار جبنيانة

لوحة 59 ب : قصر زياد



منظر عام للقصر وقبة سيدي مسيرة

لوحة 60 : رباط يونقة

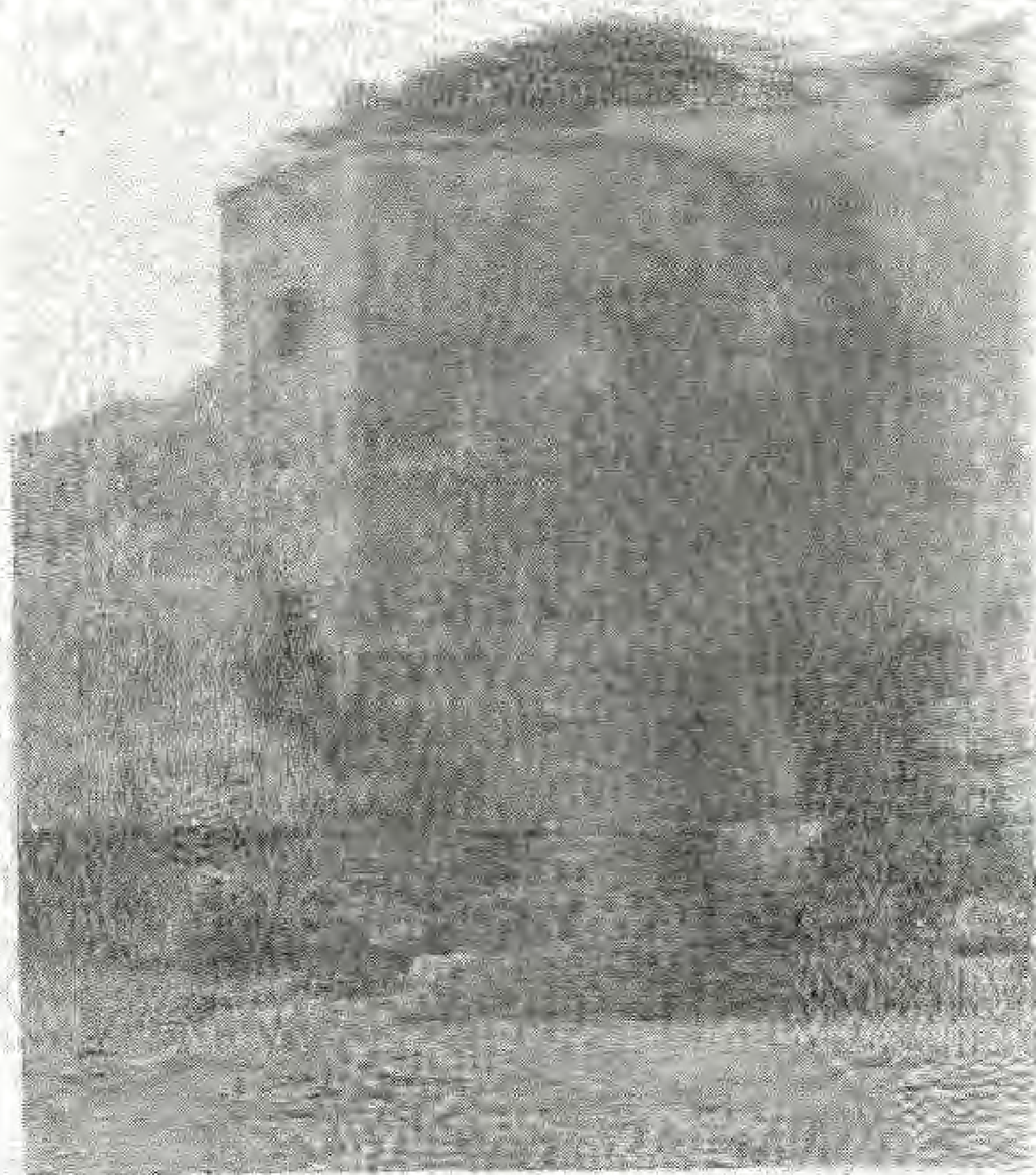


منظر عام

لوحة 60 ب : رباط يونقة



منظر داخلي للسور

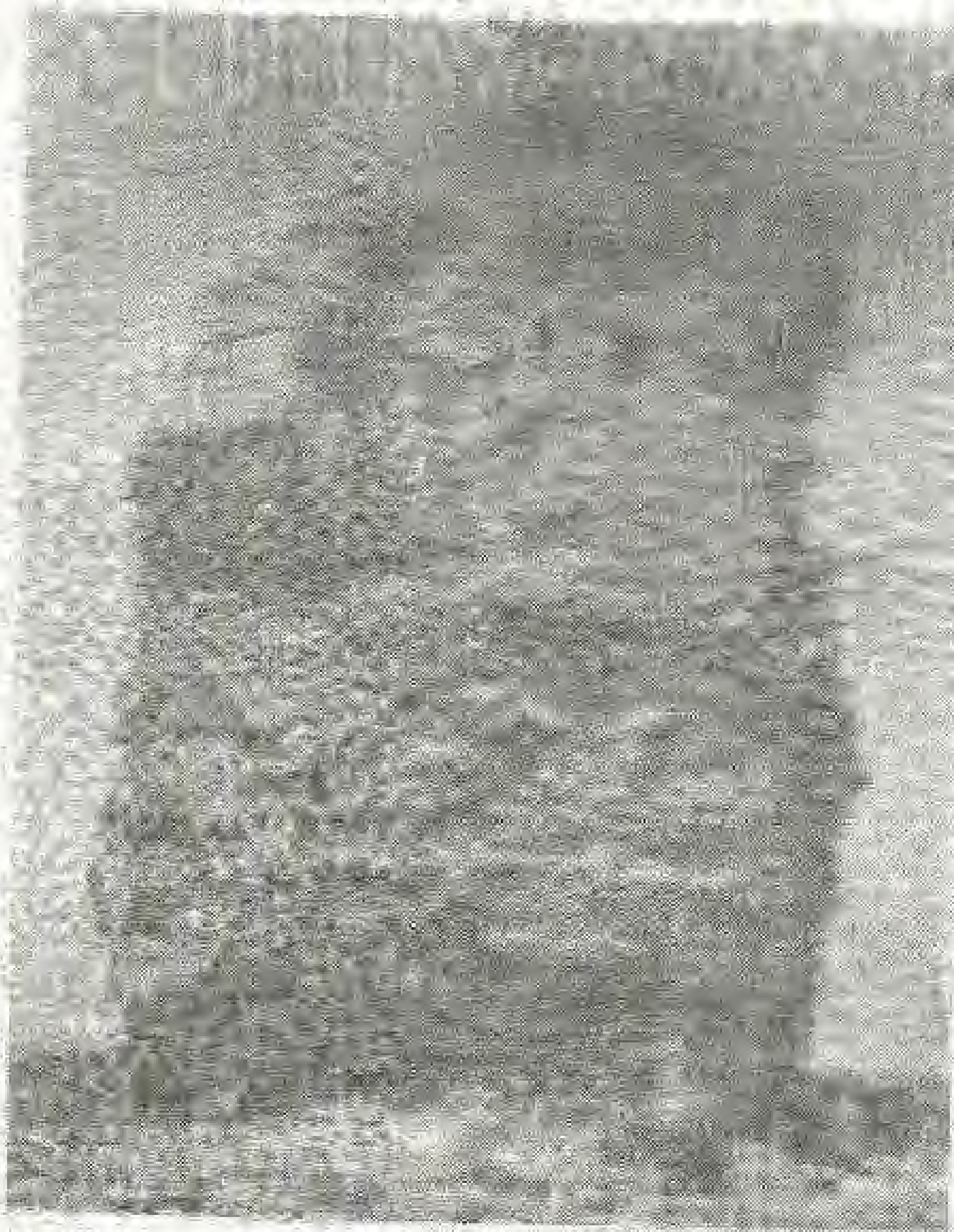


باب غدر

لوحة 61 : جزر الكنائس

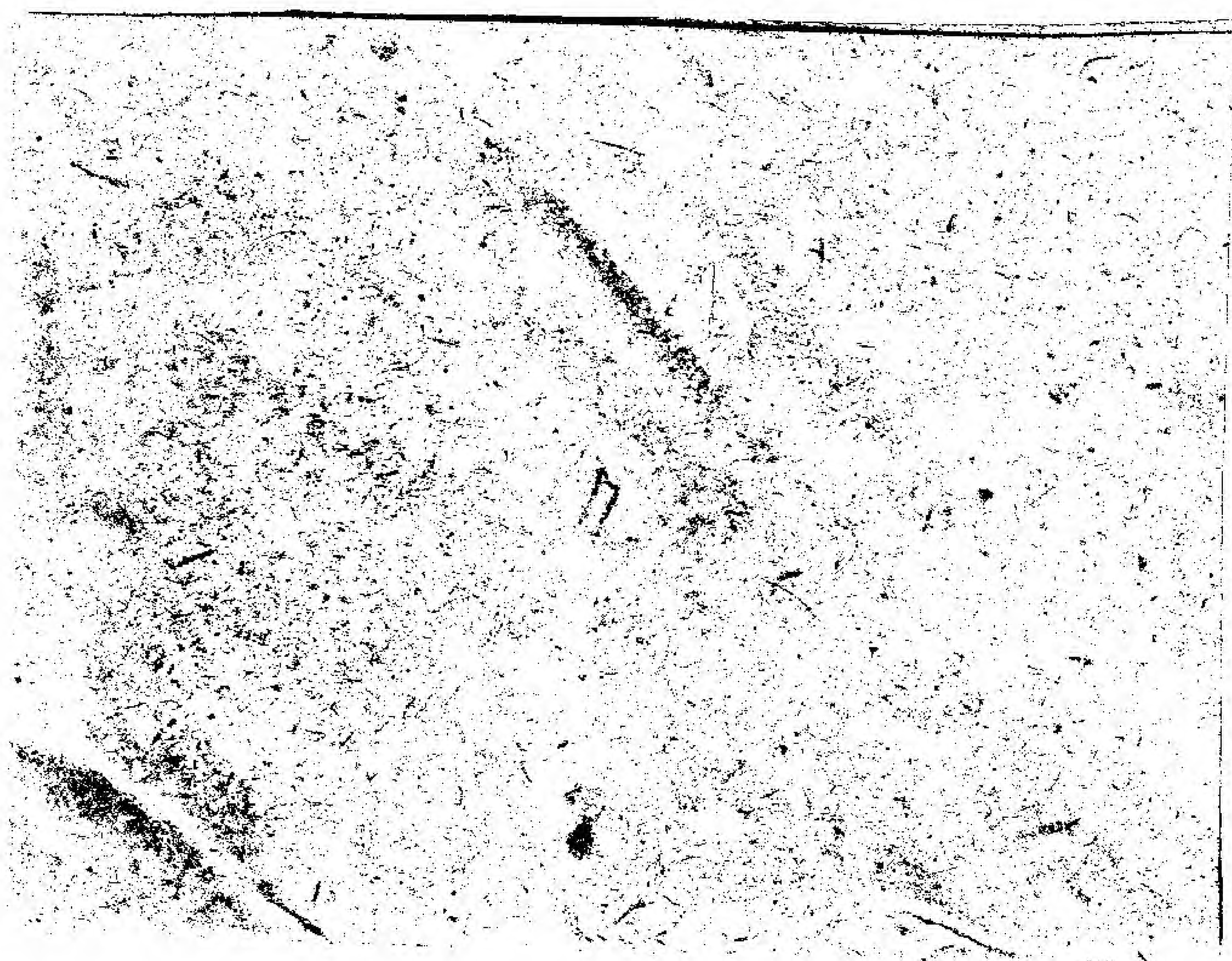


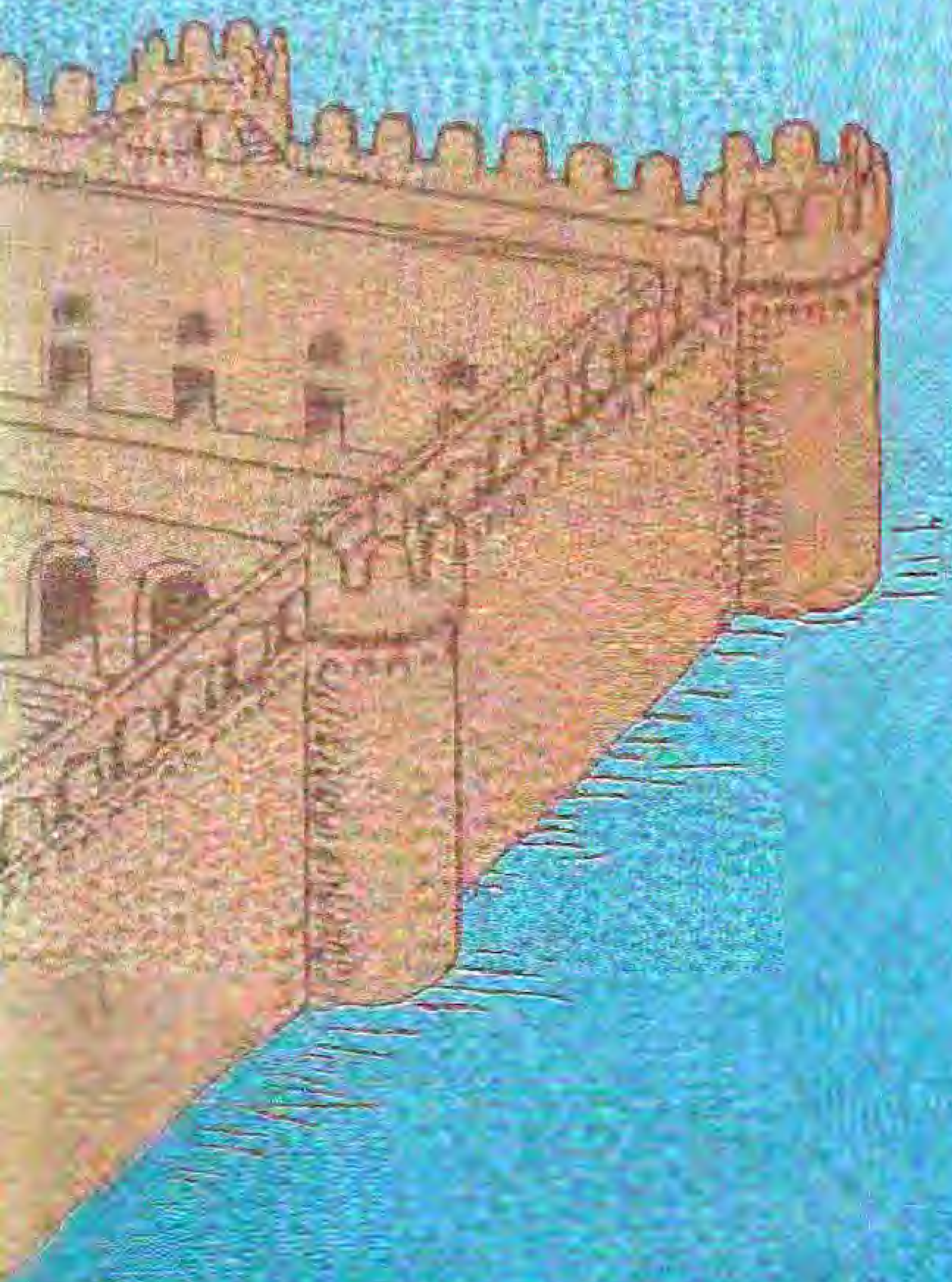
منظر عام



الناظور

المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية
1999





I.S.B.N : 9973 - 902 - 06 - 8